

ه.ج. ولز

معالم تاريخ الانسانية

ترجمة: عبدالمعز توفيق حاويد

تاريخ الحضارات



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

مَعَالِمُ تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَةِ

الألفاكتة الشانور

الإشراف العلم

و. سمير سرحان

مؤسسة علمية بدار

مؤسسة التحرير

مؤسسة المطبعة

مؤسسة التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفني

محمد قطب

الإخراج الفني

علياء أبو شادي

بمطبعة المؤلف والنشر

H. G. WELLS.

هـ. ج. ولز

مَعَالِمُ تَارِيخِ الْإِنْسَانِيَةِ

ترجم

عبد العزيز توفيق جاويد

المجلد الرابع

في التاريخ الحديث

(١٦١٠ - ١٩٦٥)



المنشأة العامة للنشر

١٩٩١

هذه ترجمة لكتاب

The Outline of History
Being A Plain History of Life and Mankind
By
H. G. WELLS.

محتويات الكتاب

صفحة

محتويات الكتاب	١ - ج
لهرس الصور والمخطوطات	٥ - د
كلمة المترجم	٧ - ز
كلمة المترجم للطبعة الثانية	٩ - م

الكتاب الثامن

عصر الدول العظمى

الفصل الرابع والثلاثون : أمراء وبرمائيات ودول

١ - الأمراء والسلاطين الخارجية	١٠٩٧
٢ - الجمهورية المولندية	١٠٧٠
٣ - الإنجليز	١٠٧٥
٤ - إقطاع ألمانيا والمطربا	١٠٨٩
٥ - أمة الملكية العظمى في أوروبا	١٠٩٣
٦ - للبريش في القرنين السابع عشر والثامن عشر	١١٠٩
٧ - للصوم في القرنين السابع عشر والثامن عشر	١١٠٧
٨ - مؤامرة الدول العظمى	١١١٠
٩ - جمهورية برلاند المورج وصغيرها	١١١٦
١٠ - أول تعاملات على الإمبراطوريات وراه البحار	١١٢٠
١١ - بريطانيا تعود الحنة	١١٢٤
١٢ - تقدم أوروبا إلى المحيط الهادئ	١١٣٠
١٣ - داهم جيون في العالم في ١٧٨٠	١١٣٣
١٤ - المدة الاجتماعية تتأثر بآنها	١١٤١

الفصل الخامس والثلاثون : الجمهوريات الديمقراطية الحديثة بأمريكا وفرنسا

١ - مذهب نظام الدولة العظمى	١١٥١
٢ - المصبرات ثلاث عشرة قبل مصادها	١١٥٣
٣ - الحرب الأهلية تعرض على المصبرات فرنسا	١١٦٠
٤ - حرب الاستقلال	١١٦٦
٥ - صور الولايات المتحدة	١١٦٩

مضمون

- ٦ - المظفر الثانيه لدمور الولايات المتحدة ... ١١٧٦
- ٧ - الفكرة السورية في فرنسا ... ١١٨٨
- ٨ - ثورة سنة ١٧٨٩ ... ١١٨٩
- ٩ - الجمهورية الفرنسية للدرجة ٨٩ - ٩١ ... ١١٩١
- ١٠ - ثورة اليافقة ... ١٢٠١
- ١١ - جمهورية البلقية ١٧٩٢ - ١٧٩٦ ... ١٢١٢
- ١٢ - حكومة الإدارة ... ١٢١٩
- ١٣ - تولف الصغير وقبيل الاتراكى المصرية ... ١٢٢٣

الفصل السادس والثلاثون : ثورة نابليون بونابرت

- ١ - أسرة بونابرت في كورسيكا (١٧٦٩) ... ١٢٣٣
- ٢ - بونابرت قائداً جمهورياً ... ١٢٣٤
- ٣ - نابليون تصلا أول ١٧٩٩ - ١٨٠٤ ... ١٢٤٠
- ٤ - نابليون الأول إمبراطوراً من ١٨٠٤ - ١٨١٤ ... ١٢٤٦
- ٥ - المكسة دم ... ١٢٥٧
- ٦ - غرطة أوروبا في ١٨١٥ ... ١٢٦١
- ٧ - طراز الإمبراطورية ... ١٢٦٧

الفصل السابع والثلاثون : حقائق القرن التاسع عشر وخيالاته

- ١ - الانقلاب الأول ... ١٢٦٩
- ٢ - الصراع بين الانكليزيين والآل والسناسي ... ١٢٨١
- ٣ - اعتبار الفكرات في ١٨٤٨ ... ١٢٨٩
- ٤ - تطبيق فكرة الاشتراكية ... ١٢٩٢
- ٥ - حروب الاشتراكية بوصفها عند قيامها الإنسانية ... ١٣٠١
- ٦ - كيف أثر ملحد طردون في الفكرات الدينية والسياسية ... ١٣٠٩
- ٧ - فكرة القومية ... ١٣١٩
- ٨ - المرحس الكبير في ١٨٥١ ... ١٣٢٤
- ٩ - سوء حياة نابليون الثالث ... ١٣٢٥
- ١٠ - فنكون والحرب الأهلية في أمريكا ... ١٣٣٦
- ١١ - الحرب الروسية لتركيا وساطة برلين ... ١٣٤٨
- ١٢ - الصراع هناك على الإمبراطوريات وروا البحار ... ١٣٥٠
- ١٣ - السابقة للبعثة في آسيا ... ١٣٦٢
- ١٤ - تاريخ اليابان ... ١٣٦٦
- ١٥ - عظام ثورة الفرس وروا البحار ... ١٣٧٢
- ١٦ - الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤ ... ١٣٧٤
- ١٧ - التصوير والنحت والعمارة في القرن التاسع عشر ... ١٣٧٧
- ١٨ - الموسيقى في القرن التاسع عشر ... ١٣٨٣
- ١٩ - توماس القصة إلى المرأة العليا في الأدب ... ١٣٨٥

(ج)

سنة

الفصل الثامن والثلاثون : كارثة الاستعمار العصري

- ١ - السلام المسلح قبل الحرب العظمى
- ٢ - ألمانيا الميسرة
- ٣ - الروح الاستعمارية في بريطانيا وإيرلندا
- ٤ - النزعات الاستعمارية في فرنسا وإيطاليا والبلقان
- ٥ - روسيا تصح دولة ملكية عظمى
- ٦ - الولايات المتحدة والفكرة الاستعمارية
- ٧ - الأسباب المؤثرة للحرب العظمى
- ٨ - عجلة الحرب العظمى حتى ١٩١٢
- ٩ - الحرب العظمى منذ انهيار روسيا إلى الهدنة

الفصل التاسع والثلاثون : عشرون سنة من الردد

- ١ - دور إسعاد عظمى
- ٢ - الرئيس ويلسون في فرنسا
- ٣ - معاهدة نصرة الأمم
- ٤ - معاهدات ١٩١٩ - ١٩٢٠
- ٥ - الهدنة في روسيا
- ٦ - محاولة إيرلندا الحرة
- ٧ - كثرديان الأعمى والأذن
- ٨ - الدينون والقانون والسياسة
- ٩ - الانهيار العظيم في ١٩٢٩
- ١٠ - الحياة الأسبوعية
- ١١ - قدام النازية
- ١٢ - العالم من بعد الحرب

الفصل الأربعون : الحرب العالمية الثانية

- ١ - مجرى الحرب
- ٢ - سخط البحرية
- جوليان فارغني
- المعروفه بالمرجع
- كشف أبيض للكتاب

فهرس الصور والخرائط

- ١٦٩ - صورة كرومبول ١٦٩
١٧٠ - خريطة أوروبا بعد صلح ويستفاليا ١٦٤٨ ١٧٠
١٧١ - صورة لويس الرابع عشر ١٧١
١٧٢ - خريطة أوروبا في ١٧١٤ ١٧٢
١٧٣ - خرائط تقسيم بولندا ١٧٣
١٧٤ - خريطة بريطانيا وفرنسا وآسيا في أمريكا ١٧٨٠ ١٧٤
١٧٥ - خريطة للمنشورات الأجنبية الفرنسية بالمتة في أواخر القرن ١٧ ١٧٥
١٧٦ - خريطة المدة في ١٧٥٠ ١٧٦
١٧٧ - صورة فولير ١٧٧
١٧٨ - خريطة للمنشورات الأمريكية إلى ١٧٩٠ ١٧٨
١٧٩ - خريطة للمدة بوسطن وما يملوها ١٧٧٥ ١٧٩
١٨٠ - خريطة امتداد الاستيطان في الولايات المتحدة ١٧٩٠ ١٨٠
١٨١ - صورة بنيامين فرانكلين ١٨١
١٨٢ - جورج واشنطن ١٨٢
١٨٣ - خريطة حالة لقرار في ١٧٩٠ ١٨٣
١٨٤ - خريطة موقعة فرنسا الهولندية ١٧٩٧ ١٨٤
١٨٥ - خريطة حالة نابليون على مصر ١٨٥
١٨٦ - صورة الإمبراطور نابليون ١٨٦
١٨٧ - صورة القصر إكسكتر الأول ١٨٧
١٨٨ - خريطة إمبراطورية نابليون سؤال ١٨١٠ ١٨٨
١٨٩ - خريطة أهم غزوات نابليون ١٨٩
١٩٠ - خريطة أوروبا بعد مؤتمر فيينا ١٩٠
١٩١ - خريطة الفروع القومية لأوروبا السياسية ١٩١
١٩٢ - صورة كارل ماركس ١٩٢
١٩٣ - صورة دوبريت لوف ١٩٣
١٩٤ - صورة الأرباب الفيلسوف في القرن التاسع عشر ١٩٤
١٩٥ - خريطة أوروبا من ١٨١٨ إلى ١٨٧١ ١٩٥
١٩٦ - صورة توماس ١٩٦
١٩٧ - خريطة ملكة إيطاليا ١٨٦١ ١٩٧
١٩٨ - صورة بيلوك ١٩٨
١٩٩ - صورة نابليون الثالث ١٩٩
٢٠٠ - صورة لنتون وفيلسوف ٢٠٠
٢٠١ - خريطة الفيلان بعد معاهدة برلين ١٨٧٨ ٢٠١
٢٠٢ - خريطة لاسيا ٢٠٢

كلمة المترجم

اليوم وقد استوت العلم كتاباً حريماً ، بلغت إلينا ولز نحن معشر العرب من بين أطباق السماوات العلى التى تسكنها روحه بين العباقرة والنايين ، وبسبب بنا « هؤم اقرموا كتابيه » .

واليوم يتردد صوته فى أجوائنا التى خفت فيها كل صوت نبيل منذ قرون الإسلام الأولى ، يتردد جهوراً مدوياً كأنه التفخ فى الصورة إلى لسيد إذ أبت نحو الإنسانية واجبي ، وهلت لها دعوى ، ورضيت لها مذهبي وفكرتي .

واليوم نحن لوز أن تبوه البشرية مكاناً عالياً ، وأن تضمه بين أبنائها الخلقين وأقنادهما الخالدين . فقد قضى نصف عمره فى الحنب حبها والمناقصة عن مصالحها والدعوة إلى صلاح أسرها وتمجيس النصح لها .

واليوم يستطيع ولز أن يساقى الهداة الملهي بأنه ظل يحمل مشعل رسالته مضيقاً ذاكراً وحاجاً نصف قرن كامل من الزمان . وهى فترة لم تنح فى العصر الحديث لصاحب دعوة ولم تنبأ لم رشد فى رسالة .

واليوم يستطيع القارئ أن يستعرض مع ولز مشاهد الحياة منذ هوادى بواكيرها ومنهل تبايرها ، إذ هى هزة شأت يادن العلى فتأخر فى ذلك الماء الذى جعل منه كل شى « حى » هزة لا يكاد يقوم لها أثر ولكنها الأثر كل الأثر ، هزة ما زالت الأيام ترعاها والبالى تهدهدها حتى تخطت حل طول الحنب بشرأ مويأ ، ذلكم هو الكائن الذى حارت البرية فيه ، واللدى هو حيوان مستحدث من جلد كما يقول شيخ المرة ، هذا الكائن الضعيف بقوته القوى بحكمته الثائر بفرقه المتمرد الجبار بطبيعته القابل لصلاح بنطرتة ، هو منذ خلقته مصلو للشغب ومثل للفن . بسبه غنى الشيطان عن أمرويه نفوى . وحل بالأرض فلفس فيها وسنك فيها النماء وكانت من قبله مطهرة من كل رجس ، ولم يزل هذا دأبه حتى يومنا هذا ، تفتت هواجبه ويزين له حب تنواته ، واقف فى عليائه يرسل له رسله وأنيامه فماكف عن غيه ولا أطلع .

واليوم من لنا بمن يشهد روحه النبيلة أننا ألعنا بدعوه ، وأيقنا أن التاريخ وحده واسطة ، وأن ركب الحضارة نهر واحد متبارك اللجات متلاحق التبهضات ، وأنه إن هذا

يوساً أو الم به . من العيون ، ذلابة ، أن يثنى في اليه ويعود سيرته من جريان وتلاطم
 واصطفخاب ، وأن الديرة ، ١٠ . سوركتلة واحدة متحركة دائماً إلى الأمام في حركة
 واحدة تبهها . بها ، وهم دخلها في عائلنا المصري للتي أصبح بعضه إلى بعض . أقرب
 من جبل الموريت .

١١١

والصبر الذي يستل به كتابنا هنا كان ، كما يقول بعض أفذاذ الزمان ، أشمل
 الأزمان وأسوأها ، وأحكمها وأحقها ، وأشدّها نوراً وأشدّها حلوة . كان عصر
 الإيمان وعصر الكفر والإلحاد ، وكان يتطوى على ربيع الأمل والرحمة وخريف اليأس
 والقنوط ، وكان عصر ملكية عظمى باقية وكثرة عظمى مهينة ، عصر رق بلغ الذروة
 وسجل أنزل الناس إلى الخسيس ، وكان دهر عز شمع واستبداد داس كرامة الإنسان
 بالتماع ، يوم كان صاحب الدين يلاحق أعياه لينخله في دينه ولأفله الموت والمذابح ،
 ويوم كان الضيق العزيز يضي من الصرائب والتبعات ويهبط بها القبر الجائع . تعد بصرك
 فوجد في مكان كل شيء . وتسرح الفكر فوجد إلى جواره لا شيء .

وجاءت الثورة الفرنسية لأن ذنب الإستمرارية كان ينش كلب العامة ، فما كاد
 الكلب ينصرف ويقطع رأس الذئب وذنبه ، حتى انقلب هو كذلك ذئباً أشد ما يكون
 هواء ولا عاجاً ولطمة بلسانه وولوحا به في دماء الأبرياء .

وأين مبادئ الثورة الفرنسية ؟ أين الإخلاء والحرية والمساواة ؟ لقد دعت في
 أطباق الهواء مياه وراحت طرائق قددا .

وحده مخالف قوى الطبيعة تنفتح منذ أوليات القرن التاسع عشر ، إذ أخذ عقل ذلك
 الجبار يتسلل إليها رويداً رويداً . صرف كيف يستدل البحار ، ولم يلبث أن جعله عملية
 ذلولا وحيفاً ذليلاً . وانتقل منه إلى عناصر الطبيعة متصراً بعد عصر يلزمها ويتحكم
 فيها ويستبد بها ، حتى أصبح يفعل بها ما يشاء ويستخدمها أنى شاء .

وأظهره العلم حتى زعم أن ليس فوقه علم ، واستنوته للأداة حتى أنسى الروح
 وما لها من قيام معلوم ، ولج به الطغيان في الأرض يستبد أهلها ويتخط بعضهم
 شيعاً . وسلط على أعية الإنسان مناجل القناء ، وأخذ يستنله استغلال السواثم يحلث
 منه وطه ويستأثر بخيراتاه دونة بعد أن يفلحه عملاً ، ويحرم عليه نعمة الفتح بما وهبه

الله لكافة مخلوقاته من حرية . لأن داعي الاستعمار قد أصبه من كل ضمير وأعمال .

واحتاج العالم إلى مواد الطبيعة يصنعها ويبيعها ، فإذا استوت سلطة مصنوعة استوجبت سوقاً يبيعها . وشهد أوروبا بما أنتجت لها دولاب المصانع فخرجت تهول تتشمس مشترية . ونحول للشراء والبيع في أقطار الشرق المتكوفة من السلع إلى الشعوب ، فحبينا حل الأوربي في الاستعمار العيى . وتلفت دول أوروبا بعضها إلى بعض ، فإذا بعضها قد سبق وأرسى أسسه ووطد في أقطار العالم أقالمه ، وإذا بعضها الآخر قد تخلف . وقار في المعوس ما ركب فيها من حشع . فالسابق يريد أن يستأثر ، واللاحق يفتنى لفظة يد ما جوعته . فأما من علل الأوربيين فتصالحهم وثبوراً .

فهذا الأسود المسكين وذاك الأصغر أو النحاسي المتكود ! ما بالهم ينظر إليهم الأبيض كأنهم من حثالة السرايم ، أو من نحاش الأرض ؟ وقم الضن بالعالم طيم والاستقرار به دونهم حتى لا يقولوا به فيتازعوه سيادته التي زعم أن الله آثره بها وحده ؟

وهذه بريطانيا لماذا تثب على مصر فتحرمها نعمة الحرية بدريعة واجبة ؟ والله يعلم والناس يعلمون أن الحديقة غير للريعة ، وأن الهدف إن هو إلا فتح السوق ، وقطع الطريق ، والاستقرار بما في البلاد من خير ونهار

وكيف يكون القحط في أرض إيران ومالكة الحكومة البريطانية مستحقة من ورده تلك الشركات ، وما هي بشركات ولكنها خدع ودرار ماد في العيون .

والإنسان لا جرم يظن أن رآه تقوى فيعود بهذه القوة على إخوانه من بقى الإنسان حرباً يهزم فيها ويفتكت به . ولا يطبق المظلوم على المريعة صبراً ، فهو يتردد الغالب ويترقب به النوائر ، ويعد له معدات القتلك والقتله ، ويستخدم له ما استطاع من وسائل العلم والعلماء ، ثم يتعجبها حرباً ضروساً عاتية ، يريد أن يعطها للأولى الجولة الثانية ، ولم يدرك أنه هدم الكون على أعدائه ونفسه وسمى يديه إلى حرومه ، فإذا انقضت الجولة الثانية كرست جهود العالم الثالثة وأعد لها من تليدات والمهلكات ما لا يتصوره عقل ، وما كان يعد قبل ذلك من بعبد الجيالات . واتسم العالم كتابه فإذا هو صور وديموقراطية ، ثم أخذ المظرفان بعضها بتلايب بعض ، حيا ينسف وذلك يدك ويقصف ، حتى استلفت البشرية بأجسها جرعة موهضة صبيغة دامية ،

بأن يحيا لبعد الحياة ، وما كان أشد حاجة النظم إلى سواعده القوية في البناء والتعمير
لا في القتال والتخريب .

والمالبة والملكية والثروة ، ما عطين وما بال آثارهن عميقة في حياة الفرد
والجماعة ؟ وما بالهن بعض المشاكل الاجتماعية والمذاهب الاقتصادية المتناحرة
والمعسكرات الشيوعية والرأسمالية المتقاتلة ؟ وما بالهن يحيرن الإنسان ويبلبلن فكروه
ويذهبن به كل مله ؟ وهل من سبيل إلى علاج لدائهن الويل ؟

• • •

الإن البشرية أصبحت عميرة بين أمرين فلما أن تأتلف فتعيش أو تختلف فتهلك .
على البشرية أن تأتلف مكتومة حكومة اتحادية للعالم أجمع ليس فيها قوى ولا ضعيف
ولا استعلاء ولا مستعمرات ، بل تكون كلها الولايات الطالية المتحدة ، كل دولة لها
حكومتها وإدارتها اللطالية ، وكل دولة منها تخاضعة لتلك الحكومة المركزية التي
وظيفتها التصدير والتوريد ، وضبط النظام في البر والبحر والجو ، وإرساء أسس
الديموقراطية الصحيحة ، والأطستان على احترام وروح اللعائير وإجراء الانتخابات
البرلمانية النزيهة وإنتاج اللعائير اللطالية الممثلة للشعوب أصديق تمثيل ، وتعلم أفراد العلم
طاطية إلى مستوى موحد عام من العلم .

الإن على البشرية أن تتناسى أعمادها القديمة وتمصاتها اللطيفية والعنصرية ،
وأن يشعر الجميع أنهم أبناء قرية واحدة كبرى هي هذه الدنيا التي عليها نعيش ،
فما اختلاف الألوان ولا الأدبان بيب في طيئها حيماً ، ولكن اللعيب في الناس وفيها
يلعب إلى الناس من ملهعب تطوى على القل والحققد أو الشجر واللعحكم ، فالتناس
جيمعاً إخوان ، والدين بالقطرة خير ، فكيف ينجم عن اللعير الشر ؟

إن لمر بعض من كل ذلك موقف اللعيب اللعير لا موقف اللعير اللعير ، فإن حافزه
حب لا تشاؤم ، ولذا فهو يهدى الناس برعى وقوة وحية وإخلاص هي المر فيها أوفى
من بعد اللعيب ونياحة اللعير في الناس .

إن لمر هو بشر الإصلاح إلى هذه البشرية للمادية . يريد أن يأخذ بيئها إلى قديم
الروحانية وأن يحورها إلى اللعير عن ذميع الأخلاق وإلى الامتنعاك بكرم اللعائير
اللطيفية . فللابة إذا طفت ولدت حرباً ، والروحانية إذا سادت خلقت على الأرض

حبة وسلاماً ، وحولها من دار للشقاء إلى دار نعم وولام ، وأعادت إلى الإنسانية فردوسها المفقود ، وسعدتها الصالحة ، وسلامها المنشود .

ومن عجب أن ولز لا يترك علماً ولا فناً ولا قلماً ولا أدباً إلا أرخ به وكتب عنه ، ولا حادثة ذات اثر في تاريخ البشرية ولا ملكاً أو عطياً غلد اسمه في ذاكرة البشر إلا نوه به ماسجاً ذلك كله بهذه المبادئ الإنسانية الرفيعة ومتجسداً فيها وشياً رائع التمثيل أنماذج الإبداع .

فأنت لا تقف في إعجابك به عند حد ، ولا تلت حتى تقنع بوجهة نظره وإعلامه ، ثم أنت حين تقرأ كتابه وتنعم فيه التطور وتبهر ما به من آداب ، تشعر بأن من الميزن حقاً أن عظماء الدول وأصحاب الرأي فيها لم يأخذوا إلا مؤخرأ جداً بهذه المبادئ النبيلة التي دعت إليها الأديان السماوية قديماً والتي يبثها ولز في كل سطر من مطووع كتابه . ولكن حيك عزاء أن ميثاق الأطلسي الذي أصدره ورورلت وميثاق سان فرانسكو وحقوق الإنسان تكاد تكون أمثله المباشرة للعالم ولز في هذا الكتاب وغيره .

ولا يذهبن عن فطنة القارئ أن ولز كاتب حق عويص ، يعب عن فكر عميق عويص ، لذلك نرجو أن يتدبر كل فقرة من نثرات ولز ، وأن يزن بفكره كل كلمة بقروها فيه ، لأنه متقن يكتب لكل مقص مثله . وأنت أيها القارئ — مهما تكن مهتك أو مزاجك في الحياة — واجد في هذا الكتاب ما يروقك بل ما يروعك ، وواجد فيه حيناً تصفحت فالتفت فكرية تعود عليك ولوجد أنك كلما أمتت فيه نظراً زدت منه أثراً .

فن زعم أنه لن يجد التاريخ نقياً صافياً ، مزهاً من كل فخل ، مبرقاً من كل هوى ، مصفى من كل غمير فليسد بسبب إلى سماء « العالم » ؛ ومن كان يريد خلاصة واقية لنقاة الدهور يضمها إلى ثقافته ويزيدها بها صفلاً غليل من متاع ولز الطيبة ؛ ومن كان يريد أن يتعلم كيف يكون مواطناً حراً فارأى في إدارة شؤون بلاده فليجد من ولز ؛ ومن كان من رجال السياسة يريد أن يتعلم نزاهة الحكم ، وصراحة العمل ، واحترام رأى الأغلبية ، وتقديس النماذج ، والتمثل عن الكيالية البنيعة والتمس والتأمر — فليأخذ من ولز زائده وهاديه .

وما أبلغ أن تجلس إلى حذاء السيد الخاشع من أستاذة العظم ، لكي تخرج بهد
 ذلك متقناً ناصح السفلى ، وموالياً بالعالم وحب الأقرب فسبح النظرة ، عديم التعصب ،
 علوفاً بحقك وكرامتك مؤدياً لواجبك وموئناً بالديموقراطية .

وبعد فإذا لقي القارئ بعض المسر في استيعاب ولز ومتابعة حريق أفكاره ليصير
 وليصابر لأن ما سيلله في ذلك من جهد واضطراب تم قليل لما يجب عليه من التزكى
 بشرات ذلك العقل الملهم الفياض

عبد العزيز نوفيس جلاوير

مصر الجديدة في ٩ أبريل ١٩٥٢
 ١١ رجب ١٣٧١

كلمة المترجم للطلعة الثانية

عندما حملت الطبع الأولى من هذا الكتاب استلجسجانه حيلة من جهود المترجم من خلق أدب و لذة لفته ووسائله الإيمانية . وكان رواج الكتاب في الأقطار الشرقية أعظم منه في مصر بلدا العزيز ، وهو أمر عجيب له كثيرا وأسف له أكثر ، ويوم صلت الطعة الأولى من الكتاب كان فيه من المقامح والتعبيرات النظمية ما أعتقد أنه كان ولا جرم مابقاً لأوانه فقه مثلا : التطور والتطوير . والتنمية والتخطيط ، والتأميم والحكم المحلي ، ووحدة البشرية والدولة العالمية المتحدة ، إلى غير ذلك مما كان بعض الناس في العلم أعم يرفضونه بوصفه من شطحات الخيال أو على الأقل يناقضونه أو لا يسمونه في أبسط الظروف

ولكن الأيام حققت معظم نبوءات ولز بعد أن ظل زميله ومعاصره برناردشو نفسه يسخر منه ومنها أكثر من نصف قرن . وما هي ذى الإصابات تنهد اليوم من الحقائق ما كان يمد وما بعيدا في ١٩٣٠ . فقد انحسر الاستعمار عن إفريقيا بعد أن ركز نفسه فيها واطمان عند طرده من آسيا ، أنه واحد في الأرض الخصة البكر التي يرتع فيها ويطلع . وأخذت جميع الشعوب ترمس بتعبها وتؤم من ثم تحفونها ، فتتخذ الديمقراطية أساسا والاشتراكية منها والمساواة بين الطبقات دعامة وتوزيع العلم على الجميع والاحياد عليه في رفع مستوى المعيشة ركازا والهدوس بالاعتماد الأمة مبدأ وعقيدة . وأخذت المصالح تجمع الأمم في اتجاهات إن كانت صيغة الأفق الآن وكانت الأعراس منها غير كريمة في بعض الجس ، فقد أخذ هذا العيان بإزايلائها إلى حد كبير فهناك السوق الأوروبية (وهي مثل سني) وتهدف إلى ما وراءها من الوحدة الأوروبية المتشوقة . وهناك وحدة أفريقيا التي بدت نواتها على يد المؤتمر الألريق . وهي لن تلبث حتى تجمع بين دولها في الحكومات بعد أن قربت بين أممها الأساى والأكام وجمعت بينها في الأهداف والمخطط السياسية . وهناك وحدة العرب التي قامت على يد الرئيس جمال عبد الناصر . وهناك الدعوة إلى منع الحرب وإلى الحياد الإيماني وعدم الانحياز التي تزعجها جمهوريتنا الفتية وسابق في عقد مؤتمراتها إلى غير ذلك مما يحده القارئ موضحا في هذا الكتاب كدعوة ومتسلفا كتبوة ومثلا في جو الحياة كتحفة .

وقد نعت هذه الطبعة تقيماً شاملاً بفضلها عن أنها غيّبت كل أحداث طبعات الكتاب في الإنجليزية (١٩٥٦) . وعلى الطبعة التي قال في مقدمتها المستر رايغوند بوستجيت الذي نزل إصدارها إنه جمع فيها كل المواد التي أعدها المؤلف لنفسها إلى طبعة حديثة ، كان المؤلف نفسه يزمع إصدارها بجمعة لتحقيقاته على أحداث أربعينات القرن . وكان تاريخ صدور الطبعة التي نقلتها إلى العربية (١٩٣٧) فكأنها لم تكن تحوى على أحداث الحرب العظمى الثانية ، الأمر الذي ألحاق إلى أن أنتج نفس السيل التي ملكها المستر رايغوند بوستجيت حيث نقلت تاريخ تلك الحرب عن كتاب « موجز تاريخ العالم » الذي أصدر المؤلف نفسه طبعة منه قبل وفاته . كما أكلت ما في تلك الطبعة من نقص بما نقلته عن المؤلف منه وبذلك استكملت تاريخ الحرب العالمية الثانية ، ومن ثم فإن الوضع الجديد لآخر طبعات الكتاب الإنجليزية اقتضى تمثيل جميع الأجزاء الأخيرة من الكتاب مرة ثانية . فتعدل الفصل ٣٩ وأضيف للفصل الأربعون وأثنى ذيل الكتاب لتقديم .

وكذلك في الطبعة الثانية من أجزاء هذا الكتاب ذيله بكشاف أبجدي وأضيف إليه من الصور والخرائط ما اقتضته ظروف الحرب الثانية .

وإني لأشكر السادة أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر جميل عنايتهم بهذا الكتاب الذي يمثل الثقافة الرفيعة والفكر التقدمي الكريم ولا يسعني إلا أن أبذل الشكر جزئياً عاطفة إلى الأستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد على عاين الكريمة بفحص هذه الطبعة وإهداء التوجيهات المرشدة . وإذ أنعم كلمتي هذه أؤكد للقارئ أني أنطت من نقل للكتاب قائمة غفيرة وفكرية وملهية اشتراكية ديمقراطية ، أرجو أن تعود على كل من يطلع عليه من أبناء النضاد

كما أنني أشهد للقارئ أنني أفارق ولز فراق الأسف راجياً أن يمد الله في الأجل حتى أرى رسالته قد تحققت ودعوته قد آمن بها الناس جميعاً وحتى أستطيع أن أظهر الطبعة الثالثة من الكتاب في مجلد واحد يستعرض به القارئ موكب الحضارة الإنسانية متكاملة بين دفتي سفر علومه .

والله الموفق للسداد

ع . ث . ح .

بصر الهديّة في ١٤ يناير ١٩٦٥

الكتاب الثامن

عصر الدول العظمى

الفصل الرابع والثلاثون

أمراء وبرلمانات ودول

- ١ - الأمراء والسلمة الخارجية .
- ٢ - الجمهورية المولدية .
- ٣ - الإنجليز .
- ٤ - القسام ألمانيا وإيطاليا .
- ٥ - أية الملكية النمساوية في أوروبا .
- ٦ - النمساوية في القرنين السابع عشر والثامن عشر .
- ٧ - النمساوية في القرنين السابع عشر والثامن عشر .
- ٨ - نمو فكرة الدول العظمى .
- ٩ - جمهورية بولندا المنحلة ومصرها .
- ١٠ - أول نظام عمل الإمبراطوريات وراء البحار .
- ١١ - بريطانيا تسود الهند .
- ١٢ - تقدم روسيا إلى المحيط الهادئ .
- ١٣ - ركن جيوش العالم في ١٧٨٠ .
- ١٤ - الحقبة الاجتماعية تملأ وقت نهائها .

١ - الأمراء والسياسة الخارجية

تدعى في الفصل السابق بزوغ فجر مدنية جديدة : هي المدنية ذات الطابع الحديث التي أصبحت في العصر الحالي تم العلم أجمع . وهي لا تزال إلى الآن شيئاً متخفياً لم تتسواه قسماً ، ولم تتخط في يومنا هذا بواكير أصول الفخ والظهور . وشهدنا فكرتي المصور الوسطى من الإمبراطورية الرومانية القديمة وعن الكنيسة الكاثوليكية - بوصفها صورتين لقانون ونظام العام - تدويلان - عند مسهل ذلك الفجر . وهما إنما تولدان من الوجود بحكم نوع من الضرورة قضت بذلك حتى يتأقلم الناس مع صوغ الأفكار للدعاية إلى قيام قانون واحد ونظام واحد صوغاً جديداً يشمل العلم برمته . وبينما كان التقدم يلم بكل ميدان من ميادين المصالح الإنسانية الأخرى ، جاء زمان أدى فيه زوال هاتين الفكرتين السياسيتين العامين وهما الكنيسة والإمبراطورية ، إلى

تدل الأوضاع السياسية إلى مجرد الملكية الاستبدادية المطلقة وإلى القومية الملكية ذات الطراز القديم .

وجاءت فترة توقف فيها بالفعل تماسك الروابط الإنسانية ، وهي طور من تلك الأطوار التي كان يسميها كتاب الحوليات (١) من الصينيين « عصور الاضطراب » . ولبت فترة التوقف هذه أمداً يعادل المدة الممتدة بين سقوط الدولة الرومانية الغربية وبين تنويع شرطان في روما . وما زلنا حتى اليوم نعيش في ظلالها ولعلها أثلثت على نهايتها . وأقول « لعلها » لأننا لا نستطيع حتى الآن أن نجزم بذلك . وكانت الأفكار المسيطرة القديمة قد انحطمت ، وظهر خلط من المشروعات والتفكرات الجديدة غير العبرة أنه يبطل عقول الناس وأصنامهم ، لذا اضطّر العالم في الوقت نفسه أن يرتد على عقبه فيطلب الزحامة على أسس التقاليد القديمة : تقاليد الأمير الفريد . ذلك أن الناس لم يكن أمامهم من محجة بيّنة المعلن يستطيعون أن يضرّوا فيها بقدم ، وكان الأمير بين أيديهم .

شهدت خاتمة القرن السادس عشر أرجاء العلم كافة ، وقد سادها الملكية التي تنزع إلى الحكم المطلق . فكانت ألمانيا وإيطاليا مقسمتين إلى دقاع صغيرة من الإمارات الاستبدادية (الأوتوغراطية) . وكان الحكم في أسبانيا استبدادياً بالفعل . ولم يصل العرش يوماً في إنجلترا إلى مثل قوته آنذاك ، حتى إذا تقدم القرن السابع عشر كانت للملكية الفرنسية قد أصبحت على الأيام أعظم دولة في أوروبا وأشدّها تماسكاً . وما نحن بقادرون على أن نسجل هاهنا أطوار رفضها وما مر بها من تقلبات .

وكانت محضد في كل بلاط زمر من الوزراء يلعبون دوراً ميكافلياً ضد منافسهم في الدول الأخرى . والسياسة الخارجية هي الوظيفة الطبيعية للبلاط وللملك . ويكاد وزراء الخارجية يكونون أهم الشخصيات البارزة الزحيمة في تاريخ القرنين السابع عشر والثامن عشر كله . وهم اللذين غلبوا على إلقاء أوروبا في أتون مُمّى من الحروب .

(١) كتاب الحوليات (Annals) هم الذين يدوّنون التسجيلات السنوية للأحداث .

وكانت نفقات الحروب في ازدياد باهظ ، فلم تعد الجيوش بعد مكونة من مجندين غير مدربين ولم تعد جوعاً من فرسان الإقطاع يجلبون معهم خيلهم وسلاحهم وأتباعهم ، بل أخلت تشدد حاجة هذه الجيوش إلى المدفعية ، وأصبحت تتكون من جنود يتناولون أجوراً يلحون في طلبها ، كانوا جنوداً محترفين متأثنين حذافاً ، يقومون بالحصارات الطويلة ، ويحتمون إقامة التحصينات الصلبة . فزادت نفقات الحرب في كل مكان واستفحت الزيادة المستمرة في فرض الضرائب .

وهنا حدث أن اشتبكت هذه الملكيات ، ملكيات القرنين السادس عشر والسابع عشر - في نزاع بينها وبين قوى الحرية جديدة غير مكتملة النضج في المجتمع . إذ تلفت الأمراء حولهم فوجدوا أنفسهم لا يتحكمون في حياة رعاياهم ولا أموالهم . بل وجدوا مقاومة مرعبة للضرائب التي كانت ضرورية لا مندوحة عنها إذا شاموا لأعدائهم ومخالفاتهم السياسية أن تواصل . وأصبحت الشؤون المالية شجراً كريهاً في كل قاعة يجتمع بها مجلس . وكان العامل من الوجهة النظرية هو للملك لبلاده . فقد أعلن جيمس الأول ملك إنجلترا (١٦٠٣) أنه لا كان من الفكر والتجفيف أن يترس الناس على قنوة الله ، فإن من الوقاحة والاحتضار الكبير أن يترس أحد الرعايا على ما يستطيع الملك فعله ، أو أن يقول إن ملكاً لا يستطيع أن يفعل هذه أو تلك .

ولكنه وجد في الواقع - كما قدر تولد شارل الأول (١٦٢٥) أن يجد بصورة أقوى أمراً مما وجد أبوه - أن في ملكه عدداً كبيراً من أصحاب الأرض والتجار ، وهم أشخاص لهم وزنهم ولم ذكاؤهم ، قد رمحوا حذراً عديداً لطالب الملك ووزرائه ومقنضياتهم . كانوا على استعداد للرضا بحكمه إذا مكثوا هم أنفسهم أن يكونوا ملوكاً وأقبالا لأراضيهم وأعمالهم وتجارتهم وما إلى هذا بسيل . ولكنهم لا يقبلون هذا ذلك شيئاً .

وكان هناك تطور مماثل لهذا في كل أرجاء أوروبا . فن دون الملوك والأمراء كان هؤلاء الأقبال الصغار ، وأضي بهم أصحاب الأملاك والنبلاء والمواطنين (المادنين) الأغنياء ومن إليهم ، الذين كانوا يظهرون آنذاك لولاهم الأمير نفس المقاومة التي

أبداهما ملوك ألمانيا والمراوفا للإمبراطور . وكاتوا يرمون إلى تحديد الضرائب بقدر ما كانت تفسخ على أشتاتهم ، وأن يكونوا أحراراً في ديارهم وضياعهم . وكان من أثر انتشار الكتب والقرأة والزيادة الاتصال بين الناس ، أن تمكن هؤلاء الأتقيال للخصار ، أقيال الأملاك والتجارة من إنشاء مجتمع فكري متطور ودعم أركان المقاومة فيه بصورة لم يكن لما نظير في أية مرحلة من المراحل التي مرت بتاريخ الإنسانية كله . كانوا نزاعين في كل مكان أن يقلوموا الأمير ، ولكنهم لم يجدوا في كل بقعة نفس اليسر في المقاومة المنظمة . لأن الظروف الاقتصادية والتقاليد السبسية في الأراضي المنخفضة وإنجلترا جعلت هلمين للقرنين أول من جعل الخصومة بين العامل والمالك موضع البحث للوصول إلى حل ناسج لها .

وفي بادئ الأمر كان : جمهور القرن السابع عشر هذا ، جمهور أصحاب الأملاك ، قليل الاحتفال بالسياسة الخارجية . فلك أنهم لم يستثمروا أول الأمر كيف أنها تؤثر عليهم . فلم يريدوا أن يشتلوا أنفسهم بها فقد سلموا بأنها شئون الأمراء والملوك . ومن ثم لم يحاولوا قط التحكم في معقدات السياسة الخارجية ، ولكن حدث أنهم اشتبكوا مع النتائج المباشرة لهذه المخذلات . فقد اعترضوا على الضرائب القادسة ، وعلى التدخل في شئون التجارة ، وعلى المجلس الشخصي ، وعلى تحكم الملك في القضاء . وعلى أساس هذه المسائل زلوا حومة الكفاح ضد التاج .

٢ - الجمهورية الهولندية

كان انفصال الأراضي المنخفضة عن الملكية المطلقة بداية سلسلة من تلك المنازعات التي استمرت طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر . يد أنها كانت تحفظ في تفاصيلها اختلافاً بالغا نبهاً لخصائص المحلية والعنصرية ، ولكنها كانت كلها من حيث الجوهر ترمداً على السلطان الشخصي « للأمير » وعلى توجيه السياسي والديني .

كانت متعلقة الراين الأدنى بأكلها مقسمة في القرن الثاني عشر بين عدد من

صغار الحكماء ، وكان السكان من أرومة ألمانية دنيا (Low German)^(١) من دونها
أساس كلتي قديم ، ولتحالفهم عناصر داتسركية متأخرة عهداً شديدة الشبه بما في
بلاد الإنجليز من خليط . وكان الإعراب الجنوبي الشرقي لهذا الإقليم ينطق بلهجات
فرنسية ، على حين تنطق كتلة السكان بلغات فرزية وهولندية ولغات ألمانية دنيا
أخرى . ولقد ظهرت الأراضي المنخفضة ظهوراً كبيراً في الحروب الصليبية . لأن
جود فرى البويون (of Bouillon) الذي استولى على بيت القدس (في الحملة الصليبية
الأولى) كان بلجيكيّاً . كما أن مؤسس ما يسمى بالأسرة اللاتينية في القسطنطينية
(الحملة الصليبية الرابعة) هو بالدين أمير فلاندر . (وإن أطلق عليهم اسم
الأيباطرة اللاتينيين ، لأنهم كانوا يظهرون الكنيسة اللاتينية) .

ونمت هذه ضخمة في الأراضي المنخفضة إبان القرنين الرابع عشر والخامس
عشر : منها غنت وبروج وإبرو وأترخت وليدِن وهارم وما إليها . وتطورت في
هذه المدن حكومات عمالية بلدية ، شبه مستقلة وطبقة من رجال المدن المتعلمين .
ولن نشغل القارئ بما صنع بين الأمراء المالكة من صلف ربطت مشون الأراضي
المنخفضة بيوغنديا (فرنسا الشرقية) ، وانتهت إلى النزال السلطان الأعلى عليها
إلى ميراث الإمبراطور شارل الخامس

وفي عهد شارل انتشرت إلى الأراضي المنخفضة المبادئ البروتستانتية التي كانت
عند ذلك تم لآلانيا . واضطهد شارل الناس في شيء من الشدة ، ولكنه ما لبث في
(١٥٥٦) ، كما أسلفنا أن ترك الأمر إلى ولده فيليب (فيليب الثاني) . ومرحان
ما أصبحت ميامة فيليب الخارجية الناشطة - وقد كان مشفكاً بحرب مع فرنسا -
مصلو شر آخر يئنه وبين نبلاء الأراضي المنخفضة وأهل منها ، لأنه اضطر أن
يلجأ إليهم طالِباً المعونة . فنصب النبلاء العظام أنفسهم على رأس مقاومة شصية
حامة ، يزوجهم ولهم للصلوات ، أمير أورانيج ، وكوكتا لإحزوت وهورن ، وصلو
يستحيل فيها المصيرين بين الاضرار على فرض الضرائب والاعتراض على الاضطهاد

(١) راجع ص ١٢١ ج ١ من المجلد ٢ . والأدلة الألمانية هنا من قى كانت تسكن
سبل لآلانيا النبلاء المنخفض ولتتهم تسمى بالهوية الألمانية الدنيا . (القديم)

الدينى . روى أول الأمر لم يكن البلاء العظام من البروتستانت ، ولكنهم اعتنقوا ذلك المذهب عندما انتشرت حلة التراج مرارة أما الشعب فكان من قبل بروتستانتياً مصعباً .

وعقد فيليب اللزم على أن يحكم الأراضي المنخفضة وضمان أهلها جميعاً . فأرسل إليهم نجمة مختارة من الجنود الأسبان واستعمل على البلاد نيلاً اسمه ألفا ، وهو أحد أولئك الرجال ، الصارمين ، الذين لا تعرف فرحة إلى قلوبهم سيلاً والذين يحطمون الحكومات والملكيات . فطفق يحكم البلاد رداً من الزمان بقبضة من حديد ، ولكن اليد الحديدية نبت فيها تمس من جسم روحاً من حديد ، ففى (١٥٦٧) جهرت كل الأراضي المنخفضة بالعصيان . وأخذ ألفا يعمل القتل والانتهاك والمذابح على غير طائل . وأعدم الكونتان ليمونت وهورد ، فأصبح وليم الصامت زعيم الهولنديين الأكبر ، ومليكمهم فى الواقع .

واستمر الكفاح فى سبل الحرية زماناً طويلاً يتحله كثير من التعقيد ، ومن الجدير بالذكر أن العصاة ظلوا متعلقين فى كل أدوار الكفاح بالقول بأن فيليب الثانى إنما هو ملكهم - على شريطة أن يرضى أن يكون ملكاً مقبولاً لمحمود السلطان . ولكن فكرة الملكية المقيدة كانت فكرة كريهة المذاق لدى أصحاب التجارات فى أوروبا وتلك ، وأخيراً دفع فيليب بالمقاطعات المتحدة التى تطلق عليها اليوم اسم هولندا ، إلى التزوع نحو الحكم الجمهورى . وليلفظ القارئ أن ذلك التزوع ظهر فى هولندا وليس ' الأراضي المنخفضة جميعاً ' . ذلك أن القسم الجنوبى من الأراضي المنخفضة وهو بلاد البلجيك كما يسمى ذلك القطر الآن ، ظل حتى هاية الكفاح ولاية إسبانية وكاثوليكية العقيدة أيضاً .

ويمكن أن يتخذ حصار الكبار (١٥٧٣) كما يصنفه موقل^(١) ، مثالا على ذلك النضال المطويل المنطليج بين الشعب الهولندى الصغير وبين موارد الاستعمار الكاثوليكي التى كانت ما تزال كبيرة ضخمة . كتب ألفا إلى فيليب يقول :

(١) د كتابه "Fate of the Dutch Republic" .

ه إذا استوليت على آل الكثر فلن أدع فيها على قيد الحياة فرداً . وسوف أضيق
 النصل في كل رقة . . . والآل وقد مثلت أمام أعينهم مدينة هارلم المهرقة من
 أسلحتها والمهاجرة على عروشها ، وكأنها شبحاً يتنابأ لم يصيرهم ، فإن رجال
 الكفار الذين يعدون على الأصابع والذين أغلقوا عليهم أبوابها تجمشوا لأسوأ الظروف .
 وكان صديقهم البحر هو مناط أملهم الأكبر . ذلك بأن الفتحات المائلة التي يمكن
 بواسطتها غمر المقاطعة الشمالية بعباءة السرعة ، لم تكن إلا على بعد أميال قليلة .
 فلو أنهم فتحوا هذه البوابات وهدموا بعض جسور الماء لخطوا المحيط بحارب في
 صفهم . ومع ذلك فقد كانت مولفة الأهليين لازمة للحصول على تلك النتيجة ،
 إذ أن تلف كل الحاصل التي في الحقل يكون عند ذلك محققاً . وكانت للندية محوطة
 بالمحاصرين إحاطة وثيقة جعلت من السير عليهم أن يبدوا وصولاً يقوم بتلك المهمة
 الخطرة . وأخيراً تقدم لقيام بهذه المهمة تجار يدعى يترقان دوماي .

و سرعان ما تخرجت الأمور في داخل المدينة المحصورة . فقد كانت تحدث في
 كل يوم خارج الأسوار مناقشات غير حاسمة . ثم حدث آخر الأمر في اليوم
 الثامن عشر من سبتمبر أن أصغر الفون فريديك في الساعة الثالثة بعد الظهر أمراً
 بالهجوم ، بعد ضرب المدينة بالمذخبات صرباً متواصلاً دام اثني عشرة ساعة تقريباً .
 وبالرغم مما مر به من خيرة دامت حيلة شهور في هارلم فإنه ظل يعتقد أن من الحقن
 أن يأخذ المدينة اكتساحاً . وحدث الهجوم في نفس الوقت على كل من البرابطة الفريزية
 والبرج الأحمر في الجهة المقابلة . وكان على رأس الهجوم فرقتان من نخبة الجنود وصلتا
 وشيكا من لومبارديا ، وهما تزلزلان الجو بصيحات المرادها معينين عن تنهيم
 بنصرين قريب . وكانت تظاهرم قوة بطرقة من الجنود المنتظمة . بيد أنه لم يحدث
 قط في تلويغ هارلم القريب ، أن قويت هجمة بصلود أثبت جناناً وأشجع أنفلة .
 لأن كل رجل به نسمة من حياة كان متخذاً مكانه على الأسوار . وكانت الجماعات
 المهاجرة تقابل بالمذخبات والبرابطة والندارات ، وكان الماء الحار والقار والثرث المخل
 والرمصاص المصهور والجبر الحى تصب عليهم في كل لحظة صياً . وكانت مئات من
 الأطواق المقيورة والمهارة تلى بمهارة حول أعناق الجنود ، الذين حاولوا عبثاً أن

يخلصوا أنفسهم من تلك الأطواق النارية ، في حين أنه لم يكن أحد من المهاجين يكاد يضع قدمه على الثغرة حتى يلقاه مكان المدينة بالسيف والخنجر ويتكوه على أم رأسه في الخلق .

• وتجند الهجوم ثلاث مرات بحدة وقوة لا تليق وحده كذلك ثلاث مرات بمضادة وجلد لا هراة معهما ، واستمرت الماضفة هوجاء أربع ساعات ، ولم يغادر واحد من المدافعين مكانه طيلة تلك المدة ، إلا أن يسقط عنه صريماً أو جريحاً . وتفزع في البرق نضرة الارتلاد ، وانسحب الأسبان عن الأسوار منلحين تمام الانسحاب ، مخفيين وراسم في الخنادق ما لا يقل عن ألف قتيل ، أما أهل المدينة فلم يقتل منهم إلا ثلاثة عشر من السكان وأربعة وحشرون من الحماية . . . وقد روى حامل العلم موليز الذي صعد على ثغرة السور مدة لحظة قصيرة ونجا بحياته معجزة حين قذف به من الأسوار ، أنه لم يرتدما أشرف على المدينة خوقة ولا سرجا : بل شهد نقرأ من الناس البسطاء المظهر يرتدون عموماً ثياب صيادى السمك . ومع ذلك فإن هؤلاء الصالحين البسطاء قد دحروا عنكة جتود ألفا .

• وفي نفس الوقت كان الحاكم سونوى قد ضح كبحراً من جسور الماء ، فلتحلت الأرض في المنطقة المجاورة للمسكر تصبح بركا ، وإن كان الفيضان الناهم لم يحدث حتى آنذاك . ودب حبيب القلق في الجنود وامتلأت قلوبهم بالشكس والتردد . ولم تلهب جهة التجار حياء . . .

فإنه عاد إلى المدينة يحمل بعض الرسائل . ولكنه قد تلك الرسائل إما على وجه الصلدة أو التثبير - وهو في طريقه إلى المدينة - فوقعت في يد ألفا . وكانت تحوى وحداً صريحاً من خوف أورتاج بضمير اللاد بالماء نقرأ يحمل الجيش الأسبانى يأكله من المفرقين . وكان هذا الأمر يفرق في نفس الوقت معظم محصول المولنديين وماشيئهم . ولكن ألفا عندما اطلع على تلك الوثائق لم ينتظر حتى تفتح عليه بوابات أخرى . وسرعان ما أخذ رجال الكلاكربول يتصايحون ويهتفون - حين شهدوا الأسبان بأخطون أعية الرحيل والفرق .

وانضمت حكومة هولندا الحرة شكل جمهورية من الأشراف تحت رعاية بيت أورانج . وكان « مجلس الطقات States General » أقل تمثيلية المواطنين مأكلفها من البرلمان الإنجليزي ، الذى منقص عليك فيما على قصة كفاحه مع الحاج .

ومع أن أسوأ أدوار الكفاح انقضت بعد آلكار ، فإن هولندا لم تصبح مستقلة بالفعل حتى (١٦٠٩) ، ولم يحترف باستقلالها اعترافاً تاماً كاملاً إلا فى معاهدة وستغاليا فى (١٦٤٨) .

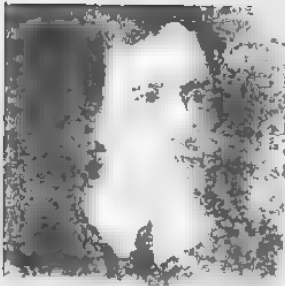
٣ - الجمهورية الإنجليزية

يبدأ فتراع التصريح الذى قام به مالك المقار متعضباً عدوان « الأمير » فى إنجلترا منذ عهد قديم يرجع إلى القرن الثانى عشر . ودور الكفاح الذى علينا أن ندرسه الآن إنما هو الذى ابتداء بمحاولات هنرى السابع والثامن وخلفائهما ، إدوارد السادس ، ومارى واليزابيث جعل حكومة إنجلترا ملكية شخصية (١) ، من الطراز الشائع باقارة الأوربية . واتسد الكفاح حدة عندما حدث تباً لمصادفات المصاهرة فى الأسرة المالكة ، أن أصبح جيمس ملك اسكتلند ، هو جيمس الأول ملك إنجلترا واسكتلندة على السواء (١٦٠٣) ، وأخذ يكلم على النوال الذى التبتناه عنه آنفاً من « حبه الإلهى » فى أن يفعل ما يشئى .

ولكن لم يحدث قط أن كان طريق الملكية الإنجليزية سهلاً معبداً . ففى كل المعاملات التى أقامها غزاة الإمبراطورية الشماليون والألمانيون كان هناك نقاليد لجمعية شعبية تجمع ممثلى الشعب ذوى النفوذ من الرجال لحفظ حرياتهم العامة ، ولم تكن تلك الجمعية أنشط فى أى مها حياة منها فى إنجلترا . فكانت تقرساً عقائدها الخاصة بجمعية « الطقات الثلاث Estates » وكان لأسبانيا كورنيزها . بيد أن الجمعية الإنجليزية كانت تقسم بسمة خاصة من ناحيتين : أولاهما أنها كانت تسند إلى

(١) الملكية الشعبية أو الفردية هى الاستبدادة المطلقة التى يجمع فيها الحكم فى شخص ثلاثة .

تصريح يتخذ صفة الوثيقة
وتحتوى على حقوق معينة
أولية وعامة ، ولانتيهما أنها
كانت تضم : فروس
مقاطعات ، متخين كما تضم
موايا عن المد منجيب
أيضا وكانت لخمعتان
القرسية والأسبانية تألفاد
من المنتصر الأخير دون
الأول .

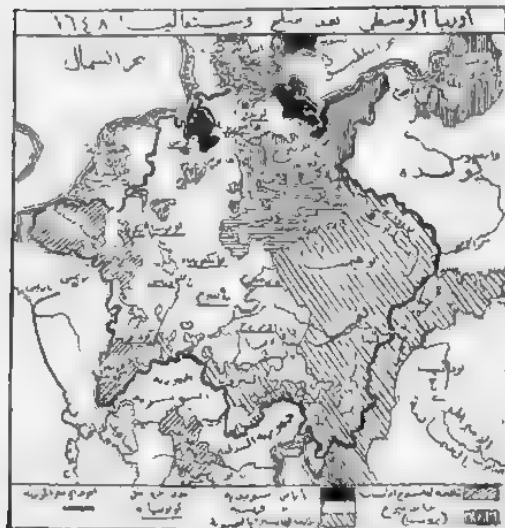


(مكل ١٦٩) صورة كرمبول

وهاتان الخصيعتان جعلتا البرلمان الإنجليزي قوة خاصة في كمامه مع العرش .
والوثيقة المعنية بها هي : ادجتا كارت ، أى العهد الأعظم : وهو تصريح أخذ غصبا
من الملك جون (١١٩٩ - ١٢١٦) ، وهو أخو الملك ريتشارد قلب الأسد
(١١٨٩ - ١١٩٩) وخليفته . وذلك بعد العميان الذى قام به البارونات في (١٢١٥) .
وهو يكرر عددا من الحقوق الجوهرية التي جمعت من إنجلترا دولة قانون لا دولة ملك .
وهو قد أبى على الملك التمسك على الممتلكات وحرية النخبة لكل نوع من أنواع
المواطنين - اللهم إلا أن يكون ذلك برخصة نظر ذلك المواطن .

فأما وجود مثل المقاطعة المنتخبين في البرلمان الإنجليزي - وهي النخبة الثانية
في حالة بريطانيا - فقد نجم عن بدايات بسيطة جداً ، وحيدة لامعة منها إذ يسو
أن الفرسان كانوا يستندون من المقاطعات أو أقسام الريف إلى المجلس الوطني ليشهدوا
بمقدرة تواجهم على دفع الضرائب . وكان يرفعهم إلى ذلك المكان من هم أدنى منهم مرتبة
من الأعيان وأصحاب الأملاك وشيوخ القرى في تواجهم في زمان يرجع إلى (١٢٥٤) ،
فينوب عن كل مقاطعة فارسا . فأهت هذه الفكرة ميسون دي مونت فورت ،

وكان في ثورة ضد هري الثالث ، خليفة جون . أن يدعو إلى المجلس الوطني
 عارضين عن كل مقاطعة ، وعماديين لكل مدسة أو كنيسة (١٦) . ورجل هذا
 العمل إدوارد الأول خليفه هري الثالث ، إذ أنه كان يلوح في نظره وسيلة ملائمة
 تمكنت من الاتصال المالي بالبلد الثامنة



(شكر ١٧٠)

وأبدي الفرنسيان ورجال المندى يادى لأمر قدراً جسيماً من عدم الرضا في

(١) البطر الأساقف سبعة أطقمها لثلاث من Borough رسماً ثلاث أطقم مرسلة
 لثلاثة البرمان . (الترجم)

حضور البرلمان ، ولكنهم أدركوا شيئاً فشيئاً القوة التي يملكونها في اتخاذ رفع الظلم عن الناس شرطاً لمنح الاعترافات المالية .

وكان هؤلاء يمثلون ملاك المقارن العامة في المند والريف يسمون باسم « العموم » Commons . وكانوا يعقدون جلساتهم ويناقشون في الأمور من زمن قديم جداً أو قبل منذ البداية ، بمنزل تام عن كبار اللorde والأماقة . وهكذا تمت في إنجلترا جمعية نيابية تمثيلية ، هي مجلس العموم ، إلى جانب جمعية أخرى من الأماقة والنبل هي مجلس اللorde . ولم يكن هناك فارق جوهري عميق يفرق بين هاتين الجمعيتين . إذ أن كثيراً من فرسان القاطعة رجال لم قيمتهم ووزنهم ، وربما بلغوا من الثراء والنفوذ مبلغ النبلاء . وبينهم كذلك أبناء للنبل وأشقائهم ، على أن مجلس العموم كان في جادة أمره هو الجمعية الأدنى إلى الشهية .

وأظهر هذان المجلسان منذ البداية ، وبخاصة مجلس العموم ، ميلاً إلى ادعاء الحق الكامل في فرض الضرائب على البلاد . وأخذ بالتدريج يوسع دائرة اختصاصهما من النظر في المظالم إلى نقد شؤون المملكة كلها .

ولما بترجمين المطالبات التي أملت بقوة البرلمان الإنجليزي وهيئة إيان حكم ملوك آل تيودور ، (أثنى هنري السابع والثامن وإدوارد السادس وماري ولينزايت) ، على أنه يتضح لتاريخ مما قلناه ، أنه عندما أعلن جيمس استيوارت آخر الأمر ادعاءه الصريح للحكم المطلق الأوتوقراطي ، وجد التجار والنبل والمهتامين المستقلون الإنجليزي ، بين أيديهم وسيلة تقليدية شرعية مخبرة لمقاومته لم يكن عند أي شعب في أوروبا نظيرها .

وهناك عصبية أخرى للنضال السياسي الإنجليزي ، هي انفصاله القوي عن الكفاح العظيم بين الكاثوليك والبروتستانت ، وهو الكفاح الذي كانت ميراثه مشبوبة في كل أرجاء أوروبا . حقاً إنه انحطت بالكفاح الإنجليزي مازعات تبينة واضحة المعالم جداً ، ولكنه كان في جوهره نضالاً صليماً بين الملك والبرلمان ، مجسداً في طبقة المواطنين أصحاب الأملاك الخاصة . على أن الشعب والناس كانوا من الناحية الرسمية

من الآخرين بالإصلاح اللبني كما كالا من البروتستانت . نعم إن كثيراً من الناس في الخطاب الأول (أي الشعب) كانوا بروتستانت ، من طراز يحترم الكتاب المقدس ولا يقيم وزناً لنظام الكهنوت ، وهو الطراز الذي يمثل الإصلاح اللبني كما تراه الشعوب ، وأن الملك كان الرئيس الإسمي لكنيسة من نوع خاص تعرف بالمشاء الرباني وتقوم على نظام الكهنوت ، وهي كنيسة إنجليزية الرسمية ، التي تمثل الإصلاح اللبني كما يراه الأمراء^(١) ولكن هذه التسمية لم تعجب بأية حال أسس الكفاح بالحرورية .

وكان الكفاح بين الملك والبرلمان قد وصل بالفعل إلى دور حاد قبل وفاة جيمس الأول في (١٦٢٥) ، ولكنه لم يبلغ ذروته ، ويصل إلى الحرب الأهلية إلا في حكم ولده شارل الأول . وفعل شارل بأضبط كل ما يتوخى من ملك في ذلك الوقت ، بالنظر إلى قلة الرقابة البرلمانية على السياسة الخارجية . فإنه زج بالملكة في حرب مع كل من أسبانيا وفرنسا ، ثم جاء يطلب من بلاده المدد آملاً أن يثلب الشعور الوطني على ما توتر في النفوس من كراهية طبيعية لإعطائه المال . فلما أن رفض البرلمان إمداده بالمال ، طلب من كثير من دعاياه بعض القروض ، وحاول أن يفرس على الناس ألواناً مماثلة من هذه القروض غير القانونية .

فأدى هذا بالبرلمان إلى إصدار وثيقة لا تشي أبداً (١٦٢٨) ، هي : ملتمس الحقوق *Petition of Rights* ، ذكره فيها بالهد الأعظم وأكد القيود القانونية على سلطة الملك الإنجليزي ، وأنكر حقه في جباية القروض من أي إنسان أو سجنه أو محايقته ، أو أن يزل جنوده على حساب الناس ، - دون اتخاذ الإجراءات القانونية الواجبة .

إن ملتمس الحقوق عرض قضية البرلمان الإنجليزي . والميل إلى عرض القضية ، كان على الدوام خصيصة من الخصائص الإنجليزية الملحوظة جداً . وعندما كان

الرئيس ولبنان أثناء الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٨) يمهّد لكل خطوة من خطوات ميلته بمذكرة ، كان يسير في نهج أعظم الضاليد الإنجليزية وقاراً .

وتصرف شارل مع هذا البرلمان تصرف النصف المتفطرس فحله في (١٦٢٩) ، وظل أحد عشر عاماً يحكم بلا برلمان . ويجمع الضرائب جميعاً غير قانوني ، ولكنها لم تكن تقي بغرضه وإذا أدرَكَ أن في الإمكان أن تستعمل الكنيسة أداة لنشر الطاعة ، عين لود رئيساً لأساقفة كانتربوري وبدا يصبح على رأس كنيسة إنجلترا ، وهو رجل من كبار رجال الكنيسة عدواني القطيع ، ويتطوى على كثير من صفات القسيس ومن يؤمنون بالحق الإلهي .

وفي (١٦٣٨) حاول شارل أن ييسط طابع الكنيسة الإنجليزية الذي يجمع بين البروتستانتية والكاثوليكية ، إلى ملكة الأخرى الإسكتلندية ، التي كان تباعدها وانضمامها من الكاثوليكية أمراً واحداً ، والتي كانت تتخذ صورة من المسيحية لا تقوم على نظام كهنوتي ولا تصرف بالمشاء الرباني ، وهي الكنيسة البريزبترانية Presbyterian^(١) ، التي تُلصق بوصفها الكنيسة القومية . فثار الإسكتلنديون ، وتمردت الجنود الإنجليزية التي جمعها شارل لمقاتلتهم .

وكان الإفلاس - وهو في كل الأزمات النتيجة الطبيعية لكل سياسة خارجية طموح - قاب قوسين منه أو أدنى . واضطر شارل حين لم يعد لديه مال ولا جنود جديرة بالثقة ، أن يدعو آخر الأمر برلماناً (١٦٤٠) . ولكنه حل ذلك البرلمان في السنة نفسها ، وهو المعروف بالبرلمان القصير . ثم حاول الاستعانة بمجلس من النبلاء في يورك (١٦٤٠) ، ثم استعفى في نوفمبر من نفس السنة آخر برلمان له .

واجتمعت هذه الميعة ، وهي البرلمان الطويل ، وهي في حالة تهيؤ للنضال . فقبضت على لود ، وليس أساقفة كانتربوري ، وآتهته بالحبس . ونشرت ما يسمى

(١) البريزبترانية هي كاتري الكنيسة الإسكتلندية الرسمية . وهي تقوم على إدارة الشؤون الدينية والكنيسة بواسطة الكهول والشيوخ سواء أكانوا من رجال الدين أم لا يكونوا . وقد قلست على تصاليف جون كاتلين . (المترجم)

بـ الاعتراض الأكبر ، وكان تقريراً مفصلاً شاملاً لقضية البرلمان ضد شارل . وأصدر البرلمان مشروع قانون 1311 - اتخذ به التدابير اللازمة لاجتماع البرلمان مرة في كل ثلاث سنين حل الأقل ، سواء استعاه الملك أم لم يستعده . وحاكم أكابر وزراء الملك الذين أعانوه على الحكم مثل ذلك الزمان الطويل بلا برلمان ، وبخاصة الإيرل سترافورد .

فظهر الملك لإنفاذاً لاسترافورد - مؤامرة للاستيلاء على الجيش فجاءه على لندن . ولكن المؤامرة اكتشفت ، وسارع البرلمان إلى إصدار مشروع القانون القاضي بإدانة سترافورد وسط عاصفة عظيمة من الهياج الشعبي . ودب الخوف من جاهر لندن إلى قلب الملك شارل الأول ، الذي لعله كان من أسفل من جلسوا على العرش البريطاني وأنشدهم خيانة . ولكي يموت سترافورد حسب الأصول القانونية الطبيعية ما لم يكن به من أن يوافق الملك على القرار . وافق الملك وقطعت رأس سترافورد .

وكان الملك في الوقت نفسه يأتمر في الخفاء ويبحث عن المعونة في مواطن غربية ، يشدها بين الإنجليز الكاثوليك وبين الثورة من الإسكتلنديين . وأخيراً لجأ إلى مظهر المتف ضعیف . فذهب إلى دار البرلمان ليقتل خمسة من أنشط خصومه . فدخل إلى مجلس العموم واحتل منصة الخطابة . وكان مستعداً لإلقاء خطبة جريئة من الحياة ، ولكنه عندما رأى أماكن خصومه الخمسة خالية ، أرتج عليه واضطرب وتكلم في جهل متقطعة . إذ علم أنهم لم يحضروا عن مدينته الملكية وستمنستر ، ولجأوا إلى مدينة لندن التي كان لها مجلس بلدية يحكمها حكاماً داتياً . وتحدث لندن . وبعد ذلك بأسبوع قام رجال حرس لندن المقربون بتوصيل هؤلاء الأعضاء الخمسة إلى دار البرلمان بوستمنستر في موكب عظيم من مواكب النصر ، ولكي ينجب الملك جو الصخب والمداء الذي صحب الحادث ، غادر قصر هوايت هول إلى وندسور . وعندئذ استند كل من الفريقين صراعاً للحرب .

وكان الملك هو الرئيس التقليدي للجيش وقد تجرت عادة الجند بطاعة الملك . وكانت لدى البرلمان موارد أعظم . ورضع الملك لواءه في موتتهام في مساء يوم مظلم حاصف من أغسطس (١٦٤٢) .

وعقب ذلك حرب أهلية طويلة عنيدة ، كان الملك فيها مستعوداً على أكسفورد والبرلمان على لندن . وكان التناح ينقل من جانب إلى جانب ، ولكن الملك لم يستطع قط أن يطبق حل لندن ، كما لم يستطع البرلمان أن يستولى على أكسفورد . وكان يقل من حزم كل من الخصمين وجود أتياع من المتحالفين للذين ه لم يكونوا يحبون الاشتطاط في الأمور .

وبرز من بين قادة البرلمان ، رجل اسمه أوليفر كرومويل ، كان قد جمع ثلة من القروان ولوضع إلى رتبة جنرال . ويصفه معاصره الفورد وأرويك بأنه رجل بسيط يرتدى بدة من قاشى هادى صانمها خياط رقيق رضى . لم يكن مجرد جندي مقاتل ، بل كان منظماً عسكرياً ، أدرك ما عليه كثير من القوات البرلمانية من حالة فنية ، وتصب نفسه لإصلاحها . وكان لفرسان الملك تلك التقاليد الجميلة ، تقاليد القروسية والقولاء . وكان البرلمان شيئاً جديداً عسيراً على الأفهام ليست له تقاليد تقاون بتلك . قال كرومويل : إن معظم جنودكم إنما هم خدعة وسقاء كهول واحنو القوي ، فهل تظنون أن أرواح مثل هؤلاء الأشخاص الأسافل الأذنياء ، تستطيع يوماً أن تقا تل المحتلابة الذين ملأ أعطالهم الشرف والشجاعة والكرم ؟ .

ولكن هناك شيئاً أقوى وأحسن من القروسية الجلابة في العالم ، وذلك هو الحياة النبيلة . ولذا نصب كرومويل نفسه ليجمع طرقة من الرهبانين الأتقياء . وكان لا بد لهم من أن يكونوا رجالاً جادين معتلين في حياتهم . وكان لا بد لهم فوق كل شيء من أن يكونوا رجالاً ذوي عقيلة قوية . فتجاهل جميع التقاليد الاجتماعية وجمع ضباطه من بين كل طبقة . قال : : إلى لأفضل أن أحصل على ضابط بسيط يرتدى بدة رضى حراء ، ويعرف الذى من أبطه يحارب ويحب ما يعرف ، على ما تسمونه جيشاً وليس بشيء عدا ذلك .

واكتشفت إنجلترا بين ظهرانيها قوة جديدة هي الحرم الحليدى . كان السعاة والحوذية وربابة السفن يتولون فيها قيادة عليا إلى جوار أبناء البيوتات . وأصبحوا اتنودج الذى حاول البرلمان أن يبنى على متواله من جليل جيشه يأكله . وكان

الحديثيون هم السمود المتقري « لنموذج الحديد » . واجتاح هؤلاء الرجال ألسنتهم
فرسان الملك من مارستون مورلى نيسي . وأغبراً وضع الملك أسيراً في قصة البرلمان .

ورغم ما جرى بذلت محاولات لتسوية الأمور هدفها ترك الملك في حرسه
بشكل ما ، ولكن شارل كان رجلاً قلدت عليه السوابق الخزنة ، فهو لا يقطع عن
تدبير الخطط ، « رجلاً بلغ من إفك أنه لا يجوز أن يبق به إنسان » . وكان الإنجليز
يضاقون نحو موقف جديد في تاريخ العالم ، وجب فيه أن يحاكم ملك حل حياته
شبهه وأن يقضى فيه بحكم .

والحق أن جميع الثورات - شأن هذه الثورة الإنجليزية - إنما تنفخها نحو السجدة
المتجورة تصرفات الحاكم ومحاولة استعمال القوة والحزم لستعلاء يتجاوز حدود القانون .
وتختلف معظم الثورات بحكم نوع من الضرورة نحو خاتمة أشد تطرفاً مما كان يستشف
من الخلاف الأصلي . ولم تكن الثورة الإنجليزية استثناء لهذا الأمر . والإنجليز بطبعهم
شعب ميال إلى الصلح والتضام بل هم قوم متردبون ، والراجع أن الغالبية العظمى
منهم كانت ما تزال تريد أن يظل الملك ملكاً وأن يكون الناس أحراراً ، وأن يرفع
الأسود والخراف بعضهم إلى جوار بعض في سلام وحرية . ولكن الجيش ذا الطراز
الجديد لم يكن في استطاعه أن يتراجع . فلن تكون هناك إذا ما عاد الملك إلى حرسه
خوة من الشفقة نحو هؤلاء السعاة والحوذية الذين وطئوا تحتلابة الملك بنجومهم . وهناك
شرح البرلمان في المفاوضات من جديد مع المحتال الملكي ، تدخل الطراز الجديد . فطرد
الكولونيل برايد ثمانين عضواً من أعضاء البرلمان الإنجليزي كانوا يميلون إلى الملك ،
ثم خلعت البقية الباقية غير القانونية وهي البرلمان الأبر (Rump Parliament) ، الملك
إلى الهاكة .

ولكن الواقع أن الملك كان مقدراً عليه من قبل قضاء لا مرد له . فلما أن رفض
مجلس القوردة قانون الهاكة ، أعلن البرلمان الأبر عند ذلك « أن الأمة إنما هي في
ظل الله مصدر كل السلطات العادلة » وأن « السموم في إنجلترا أصحاب السلطة العليا
في هذا الشعب » ، وإذا فرض المجلس الأبر أنه هو نفسه السموم - فإنه وأصل

المحاكمة . وحكم على الملك بأنه : طاغية وخائن وقاتل وحده لبلاده . . وأُخذ في صباح أحد أيام شهر يناير (١٦٤٩) إلى مشقة ، أقيمت خروج نواقل كاعة ولأفقه الخاصة في عرايت هول . وهناك قطعت رأسه . فأتى وعليه سبيل القوي وضرب من الإغراق على اللات نبيل - وذلك بعد إعدام استرلفورد بثانية أهوام ، وبعد ست سنوات ونصف مضت في حرب أهلية مدمرة ، سببها كلها تقريباً بلا استثناء خروجهم على القانون .

ولكن إن هذا الذي عمله البرلمان كان عملاً عظيماً مرحباً . فلم يسمح الناس بمثل عمله في العالم من قبل . نعم إن الملوك كثيراً ما قتل أحدهم الآخر ، وإنما كان قتل الأب أو الأخ والاختيال وسائل انحصرت بها الأمراء ، فأما أن يقوم فريق من الشعب ، ويحاكم ملكه في جده وتعمد متهماً إياه بعدم الولاء وإثارة الشر والخصيصة ، ويحكم بإعدامه ثم يقتله ، فأمر بث الدهر في كل بلاط في أوروبا . ذلك أن البرلمان الأبرز تجاوز ما يطبقه ضمير زمانه وفكراته . وكأنما خرج من إحدى الغابات سرب من الغطاء فأمر أحد الثور وقتله - وهي جريمة مخالفة للطبيعة . فلقد قيصر الروميا السقيز الإنجليزي من بلاطه . واتخذت فرنسا وهولندا تصرفات عنادية صريحة . ووقعت إنجلترا منزلة أمام العالم ، مبللة بؤنها ضميرها بجرمها .

ومضى روح من الزمان تيا فيه لمزايا الشخصية لأوليفر كرومويل ولنظام الجيش الذي أنشأ وقوته ، أن تصون لاجترة النهج الجمهوري الذي سلكته . وكان الإيرلنديون الكاثوليك قاموا بملجعة في الإنجليز البروتستانت النازلين في إيرلندا ، وعند ذلك قمع كرومويل بشدة عظيمة الإيرلنديين العصاة . وفيها حذا رجلاً بأصابعهم قتلوا أثناء الهجوم السيف على دروجيدا فإن ينوده لم يقتلوا إلا الرجال الذين يحملون السلاح بأبليسهم . ولكن فظائع المذبحة كانت ما تزال قوية الأثر في قعته ، ولذا لم تبد من جانبه أية راحة في المعركة ، ومن ثم لا تنحأ أفكاره بقدر لحيها في أذهان الإيرلنديين ، الذين يطول تذكركم لما يصيبهم من النوازل .

وبعد إيرلندا ، جاء دور اسكتلندا ، حيث مزق كرومويل جيشاً ملكياً في معركة دنبلو (١٦٥٠) .

ثم صرف انتباهه إلى هولندا ، وهي القطر الذي نهز في حالة فرصة الاتصالات بين الإنجليز واتخذها ذريعة لإيقاع الأذى بهم كتأخيرات له في التجارة . وكان الهولنديون آنذاك سادة البحر ، فكان قتال الأسطول الإنجليزي من ثم غير مضمون العاقبة . ولكن حدث بعد سلسلة من الخروب الحربية الصيدة أن طرد الهولنديون من البحار البريطانية ، وحل الإنجليز محلهم بوصفهم للقوة البحرية العظمى . وأصبح حتماً مقررًا على السفن الهولندية والفرنسية أن تخفى لها راياتها . وذهب أسطول الإنجليزي إلى البحر الأبيض ، وكان أول قوة بحرية إنجليزية دخلت تلك المياه ، فأصلحت كثيراً من الحيف الواقع على أرباب السفن الإنجليزية من توسكان ومالطة ، وأطلقت قنابلها على وكر القرصان التونسي وحطمت أسطول القرصنة - الذي تمود في لبام شارل وتراخي أن يصل حتى شواطئ كورنوال وديفون ليقطع الطريق على السفن ويحصل الرقيق إلى إفريقيا .

وتدخلت كذلك ذراع التجارة القوية لمساعدة البروتستانت في جنوب فرنسا ، وكان دوق ساكسوي بطارد هم ويفتك بهم . ثم وجدت كل من فرنسا والسويد والدانمارك أن من الحكمة أن يتخلص على نفورهم الأول من قتل المعاهل ، فصالحن مع التجارة . ونشبت الحرب مع أسبانيا ، ودمر الأميرال الإنجليزي العظيم بليك أسطول المعاهد^(١) الأسباني في تاماريف في إقدام وجرة لا يكاد يصلحها عقل . فإنه هاجم البطاريات البرية . فكان بذلك أول رجل جعل السفن تختش كريمة فلاح للشواطئ . (ومات في ١٦٥٧ - ودفن دير وستمنستر ، ولكن نبشت عظامه بعد حوطة الملكية بأمر من شارل الثاني ، ونقلت إلى كنيسة القديس مارجرت بوستمنستر .) تلك هي الصورة التي نحتها للتجارة لنفسها أمام عين العالم أثناء أيامها الجمهورية الوعيزة .

وفي اليوم الثالث من سبتمبر (١٦٥٨) توفي كرومويل أثناء عاصفة هوجاء لم يفتأ أن تبلغ من نفوس أصحاب الخرافات كل مبلغ . وما كادت يده القوية تجمد من

الحركة ، حتى تخالفت بريطانيا عن تلك المحاولة الساعية لأوانها لتحقيق إنشاء دولة
تتولى قوامها الأحرار من الرجال ، ففى (١٦٦٠) رجب الناس فى إنجلترا بعودة شارل
الثانى ابن شارل ، الشهيد ، بكل مظاهر حفاوة الولاء الشخصى المحبة إلى قلوب
الإنجليز ، وتراجعت البلاد عن كتابتها العسكرية والبحرية كأنها التائب إذ يستيقظ
ويصلى ويتكلم بعد حلم عنيف حاد . قضى على الهيريتان (المتطهرين) وانتهى
أمرهم . وعادت إنجلترا المرحمة سيرتها الأولى ، وفى (١٦٦٧) دخلت معن الهولنديين -
وقد عادت إليهم سيادة البحر ثانية - فى نهر التاميز حتى وصلت جرافنند Oravend
وأحرقت أسطولاً إنجليزياً فى الميلاوى (١) .

يقول بييس فى يومياته : « وفى الليلة التى أحرق فيها الهولنديون سفننا ، تعشّى
للك ضلاً مع مولان اللينى كاسيل مين ، وهناك جن جنونهم وهم يطاردون
فراشة مسكية » .

وتناول شارل منذ ساحة عودته (١٦٦٠) ، رمام شئون الدولة الخارجية بين يديه ،
و (١٦٧٠) عقد محالفة سرية مع لويس الرابع عشر الفرنسى ، تعهد فيها أن يجعل
السياسة الإنجليزية الخارجية تابعة تماماً لسياسة فرنسا مقابل جعل سنوى مقداره
مئة ألف جنيه . وكانت ديكرك التى سبق أن استولى عليها كروموويل قد بيعت قبل
ذلك إلى فرنسا . وكان الملك رياضياً عبقياً ، وله الولع الإنجليزي الصحيح بمشاهدة
سباق الخيل ، ولعل أبلغ آثاره فى الدلالة على خصائصه طلبة السباق فى نيوماركت .

وقد استطاع شارل بفضل فكاهته السهلة ، الاحتفاظ على سنى حياته بالعرش
البريطانى ، ولكنه وصل إلى ذلك بالتزام الحيلة وخطة التناغم والمسالمة ، حتى إذا
خطفه فى (١٦٨٥) أخوه جيمس الثانى ، الذى كان كاثوليكياً عتقياً ، وكان أغيب
عن أن يترك التحديد الخفى الذى يحد من سلطة الملكية ' إنجلترا ، عاد النزاع القديم
بين البرلمان والملك حاضاً أقوى .

(١) الميلاوى . بحر سمير بإنجلترا وصب فى بحر التاميز . (الترجم)

ونصب جيمس منه لإرغام مملكته على العودة إلى الاتحاد اللبني مع روما .
وإذ به في ١٦٨٨ بتخذ طريق الحرب إلى فرنسا . على أن اللوردة ألكسندر والتجار
والاحتلالية كانوا في هذه المرة أحرص من أن يسمحوا بأن يقذف بهم هذا الفرد على
المملك إلى أبنتى كولونيل برابيد آخر أوكرومويل آخر . وكانوا استنخوا آنفا ملكاً
آخر هو وليم أمير أورانج ليحل محل الملك . وتم التمييز مريباً . ولم تحدث أية حزب
احلية - اللهم إلا في لارلنتة - ولم تنطلق في البلاد أية قوة ثورية أكبر من هذه .

وليس هنا مجال البحث في دعوى وليم بالعرش ، أو بالحري في ادعاء زوجته
ماري به ، فإن هذا موضوع غني بحث - كما يقولون - ، ولا كيف حكم وليم
الثالث وماري ، ولا كيف حدث بعد ذلك أن الملك الأكرمل وليم حكم وحده ردهاً
من الزمان ، ثم انتقل العرش إلى آن (١٧٠٢ - ١٧١٤) أخت ماري . ويلاحظ
أن آن كانت تنظر بعين العطف إلى عودة الملك إلى أسرة استيوارت ، ولكن اللوردة
والموم الذين كانوا عند ذاك للسيطرين على الشؤون الإنجليزية ، فضلو أن يليم
ملك أقل كفاية . إذ كان في الإمكان أن يقام نوع من الادعاء على العرش لنتخب
هانوفر ، الذي أصبح ملكاً على إنجلترا باسم جورج الأول (١٧١٤ - ١٧٢٧) .
كان ألمانياً قحاً لا يعرف اللغة الإنجليزية ، واجتلب معه إلى البلاط الإنجليزي حشداً
من النساء الألمانيات والحشم الألمان ، وبمقلعه حلت بالحياة العقلية في البلاد فترة خود
ووكود وزان عنها الصقل ، ولكن انزال اللط عن الحياة الإنجليزية كان أعظم
ما يركبه لدى كبار ملاك الأراضي وأصحاب المصالح التجارية ، بل كان لليرة التي
من أجلها خاصة استعموه .

ودخلت إنجلترا مرحلة سميها اللورد بيكونزفيلد باسم مرحلة أوليجركية
البندقية^(١) ، وكانت ناصية السلطة العليا مستقرة بين يدي البرلمان الذي كان يسيطر
عليه آنذاك مجلس اللوردة ، وذلك لأن فن الرشوة ودراسة طرائق طبع الانتخابات ،

(١) الأوليجركية : هي حكومة مع سيطرة من الرجال تملك زمام السلطة العليا يدهي الدول .

(المعجم)

الذين رغبهما إلى درجة عالية السير دوبرت والبول ، ملبت مجلس العموم حربته وقوته الأصليتين . لأنه استخدم طرقاً خبيثة ماهرة قصرت الأصوات البرلمانية من الناخبين . فقد ترسل مدن قديمة تحوى نقرأ قليلا من السكان أو هي لا تحوى أحداً قط حضواً أو عضوين (فكان لمدينة ماروم القديمة ناخب واحد لا يقيم فيها ، وليس بها أحد من السكان وينوب عنها مع ذلك نائبان) ، حل حين لم يكن أحد يمثل على الإطلاق بعض المراكز الجديدة الآهلة بالسكان . وأفضى الإصرار على وجوب امتلاك الأعضاء موقعا عقارياً ضخماً ، أن زادت ضيقاً على فقير ، الفرض للناخبة للعموم الذين يتكلمون بلسان العامة معبرين عن حاجات القوة .

وعقب جورج الأول جورج الثاني (١٧٢٧ ~ ١٧٦٠) الشديد التمس به ، وموته أتبع لإنجلترا من جديد ملك مولود في إنجلترا ، وبسط على أن يتكلم الإنجليزية بدرجة من البهولة متوسطة وهو حفيده جورج الثالث . ومنحتك في فصل تال عن محاولة هذا الملك استرداد بعض السلطات الملكية الكبرى .

فك موجز قصة الكفاح الذي حدث بإنجلترا إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر بين العوامل الثلاثة الكبرى في مشكلة الدولة المصرية : أي بين التاج وأصحاب الأملاك الخاصة وتلك القوة المهيمنة ، التي ما تزال عمياء جاهلة ، وهي قوة الناس العوام انغلص . وهذا العامل الأخير لا يبدو حتى الآن إلا في اللحظات التي تنهز فيها البلاد اهتزازاً أشد ما يكون عمفاً ، ثم لا يلبث أن يعود إلى الأعمام . ولكن نهاية القصة بعد حتى ذلك الوقت نصرأ تاماً جداً لصاحب الأملاك الخاصة البريطاني على أحلام الحكم المطلق المكيافلي وخطته . وأصبحت إنجلترا وعلى رأسها الأسرة الحاكمة « جمهورية متوجة » ، حل حد تسمية جريمة التايترز لها في الآونة الأخيرة . فإنها صاغت طريقة جديدة للحكم ، هي الحكم البرلماني ، الذي يلكرنا من نواحي كثيرة بمجلس اللستات والجمعية التشريعية لدى الرومان ، ولكنه حكم أرسخ قديماً وأشد كفاية لاستخدامه طريقة التمثيل الثنائي مهما يكن ذلك الاستخدام محدوداً . وكان أن قدر لجمعيةها في ومنعت أن تصبح « أم البرلانات » في كافة أقطار العالم .

وفد أسك البرلمان الإنجليزي وما يزال ممسكاً بحبال التاج بوسط وغير من العلاقة بين ناظر القصر وبين الملوك المبروفنجنين ، وهم يرون في الملك شخصاً لرساميات غير مسئول ، ورمزاً حياً للنظام الملكي والإمبراطورى .

ولكن بظل الشيء الكثير من القوة كامناً في تقاليد التاج وهيته ، وإن في اعتلاء السلوك لجانوفرين للسعين بجورج ، ووليم الرابع (١٨٣٠) ، وليكتوريا (١٨٣٧) ، وإدوارد السابع (١٩٠١) وجورج الخامس (١٩١٠) وإدوارد الثامن (١٩٣٦) ، لأسلوبها يخالف تماماً ملوك المبروفنجنين النقصاء . فقد مارس هؤلاء الملوك جميعاً على درجات متفاوتة في شئون الكنيسة ، وللميات العسكرية والبحرية ، والسياسة الخارجية ، نفوذاً لم يقلل من شأنه كونه غير ندى حدود نموده .

٤ - انقسام ألمانيا واضطرابها

لم يحلب انصار الفكرة القتالة عيسية موحدة ، في أى قطر من أقطار أوروبا ، حواقب أوخم مما جره على ألمانيا ، وطبعى أن يتبادر إلى ظن الإنسان أن الإمبراطور ، وقد كان ألماني الأرومة ، في كل حالة الأسرات الأولى وحالة آل هابسبرج ، كان لا بد أن يتطور به الأمور حتى يصبح الملك القوى في دولة تتكلم الألمانية . حل أنه كلان مما جلبته المصادفة من نكد الطالع على ألمانيا ، أن لم يظل أباطرتها قط ألمانيين . لأن فردريك الثاني آخر سلاطة آل هوهنشتولفن ، كان كارأبتاً ، صقلاً نصف مستشرق . وأصبح آل هابسبرج بالمصاهرة والميل ، ممثلين في شخص شارل الخامس ، بورغندي الروح بادئ ذى بدء ، ثم أسبانيا . وبعد موت شارل الخامس أخذ أخوه فرديناند انفسا والإمبراطورية ، وأخذ ابنته غيليب الثاني أسبانيا والأراضي المنخفضة وجنوب إيطاليا . ولكن السلاطة النموية ، كانت كاثوليكية عنيدة في كملكها ، ممسكة بزمان معظم ميراثها على المجلود الشرقية متورطة لذلك أعققت الشروط في الشئون المغتفارية ودافعة الجزية للأتراك شأن فرديناند وخطيفته ، لذا لم تحضط لنفسها بأى سلطان على شئون الألمان الشماليين بما فيهم من نزعة إلى البروتستانتية ، وأواخر بطليقية وانجاء نحو الغرب ، وجهلهم بالخطر التركي أو عظم اهتمامهم به

وما كان أصحاب السلطان من الأمراء والنوفا والستخين والأساقفة الأمراء وأشباههم ، الذين كانت أملاكهم تطلّع أوصال ألمانيا في القرون الوسطى إلى مرقعة تكاد البصر بأجزائها المزقة ، - عمادتين في الحقيقة للوك إنجلترا وفرنسا على كانوا على الثغوب في مستوى كبار أصحاب الأراضي من اللوقات والنبلاء بفرنسا وإنجلترا . ولم يكن فيهم واحد حتى (١٧٠١) يحمل لقب ملك ؛ وكان الكثير من ممتلكاتهم أفعال في الحجم والقيمة من الأملاك الكبيرة التي يملكها بعض النبلاء البريطانيين . وكان مجلس النبلت الألماني شبيهاً بمجلس الطبقات (States General) أو ميلا لبرلمان ليس فيه نواب مستخرون . حتى أن الحرب الأهلية العظيمة التي شبت في نورفي ألمانيا ، وهي حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ - ٤٨) ، كانت في جوهرها أوتق قربي وشبهاً بالحرب الأهلية في إنجلترا (١٦٤٣ - ٤٩) ، وبحرب القرون (١٦٤٨ - ٥٥) ، (وهي عصبة النبلاء الإقطاعيين ضد الملوك في فرنسا) ، - مما يبدو على ظهرها لأول وهلة .

وفي كل هذه الحالات كان التاج إما كاثوليكيّاً أو قرصاً إلى الكلككة ، ووجد الأمراء المعاندون أن ميلهم القوي ، ينزع بهم نحو نزعة بروتستانتية . ولكن على حين حدث في إنجلترا وهولندا أن النبلاء البروتستانت والتجار الأغنياء لازوا في النهاية فوزاً مميّزاً ، وكان نجاح التاج في فرنسا أكل وأوى ، فإن الإمبراطور في ألمانيا لم يبلغ من القوة والسيادة مبلغاً كافياً ، ولا كان لدى الأمراء البروتستانت من الوحدة والتنظيم فيما بينهم ، مما يكفل لأحد الطرفين نصراً نهائياً . وانتهت الحال هناك بتزق أوصال ألمانيا .

ومما زاد الكفاح الألماني تعقيداً اشتياك شعوب غير ألمانية منوعة فيه ، وهي البوهيميون والسويديون (الذين كانت لهم ملكية بروتستانتية جديدة نشأت تحت جوستافوس لازا كشيخة مباشرة للإصلاح الديني) . وأخيراً تدخلت الملكية الفرنسية ، وقد انتصرت نهائياً على نبلاتها ، فضدت البروتستانت وإن كانت كاثوليكية ، رامية بذلك إلى غلبة راضعة هي الحلول على آل هابسبورج في رئاسة الإمبراطورية .

وقد ترتب على طول أمد الحرب ، وعدم جريتها على امتداد جبهة عديدة ،
تأثيرها في كل أرجاء إمبراطورية قوامها الرقاع : فن پروستات هنا وكاثوليك
هناك - أن تحولت إلى حرب من أقصى الحروب وأشدها تلعباً ، حرب لم تشهد
أوروبا لها مثيلاً منذ أيام الغارات الممجية . وليس يقوم شرها الخاص في القتال ، بل
فيما يلازم القتال من وبلاط . فلما حدثت في زمن تطور فيه التكتيك العسكري إلى
حد جعل المبتدئين العاديين غير ذوي غناء حوال المشاة المهرقين المدربين . فإن إطلاق
الجماعات النار دفعة واحدة من الفرائشات إلى مبعلة بضع عشرات من البنادق قضى
على القاموس الفردي الذو الدروع السيفيات ، بيد أن هجمات جموع الفرسان المنظمة كانت
ما تزال تستطيع أن تثبت فشل أى مشاة ، لم تصل في تدريبها إلى درجة كافية من الصلابة
الآلية . فإذ المشاة بقرايبناهم التي لا بد من حشو أنابيبها بين لحظة وأخرى لم تكن
تستطيع أن تقيم من النار سياجاً متواصلاً في بقشيت فرسان قوى عزم وصرامة قبل
وصول صدمتهم إلى هدفها وإزالم ضربتهم . ومن ثم كاد لزاماً عليهم أن يقابلوا
الصلصة وغوفاً أو راكمين خلف جدار براق من الخوازيق أو السونديات . وكان
لا بد لهم في هذا من تنظيم عظيم وخبرة كبيرة ، وكانت المنافع المبدئية ما تزال
صغيرة الحجم كما لم تكن وفيرة العدد جداً ، ولم تكن تقوم حتى آنذاك بدور
حاسم في الحرب . نعم لها كانت تستطيع أن « تشق خطوطاً » في صفوف المشاة ،
ولكنها لم تكن تستطيع في سهولة أن تعظمها وتبدها ، إذ هي كانت قوية العزم
بجدة التدريب .

وكانت الحرب في مثل تلك الظروف موكولة تماماً إلى جنود مدربين محترفين ،
وكانت مسألة أعطياتهم أمراً يعادل في أهميته لدى قواد ذلك الزمان أهمية مسألة الميرة
والنخيرة . وبينما الكفاح الطويل يحرق قلبه جرأ من طور إلى طور ، وتضام مع حنة
البلاد المالية ، كان قواد كل من الجانبين مضطرين أن يرجعوا بالانتباه على المدن
والقرى ، رغبة في أحد المؤن والتعويض عن متأخرات أعطيات جنودهم . ومن ثم
أنشد جندهم يصولون رويداً رويداً إلى مجرد مناصر تعيش على حساب البلاد نها
ولسلبها ، وأوجدت حرب الثلاثين سنة تقاليد من الانتباه والسلب بوصفهما عملة

قانونية في الحرب ومن انتهاك الحرمات بوصفه امتيازاً للجندى ، وهى تقاليد لوثر
ممنعة ألمانيا العليا حتى الحرب العظمى (١٩١٤) .

إن الفصل الأول من كتاب «مذكرات فارسى » *Memoirs of a Cavalier*
تأليف «دانيال ديفو» ، مما حوت من وصف رائع للذبحه ماجديبورج وحريقها ،
لتصير للقارئ فكرة عن طريقة الحروب في ذلك الزمان ، أحسن جداً من أى كتاب
رسمى في علم التاريخ . إذ بلغت البلاد من الخراب حداً حل الفلاحين على الكفاف من
الزراعة ، وكان ما يستطيع حصده من المحصولات السريعة غير المنتظمة ينفق فور
جمده ، وأصبحت جماعير غفيرة من النساء الطاريات والأطفال الجائعين من
يتبعون مسكرات الجيوش ، حشية من اللصوص إلى جانب الناهبين الأشد
خشونة وشراسة . فما أن انتهى الكفاح حتى كانت كل ألمانيا قد أمست خراباً يابياً .
ولم تنخص أوروبا الوسطى بملخصاً تاماً من هذه السرقات وللغنائم المنهرة إلا بعد
قرن من الزمان .

ولن يسمنا هاهنا إلا أن نذكر اسمى تلى (Tilly) ووالنتشين (Wallenstein) ،
قائدى الهب الكبيرين في جانب أسرة هابسبرج ، وجوستاف أدولف ملك السويد
أسد الشمال ونصير البروتستانت الذى كان يعلم بأن يعمل من بحر البلطيق « بحيرة
سويديّة » . ولكن جوستاف أدولف قتل ساعة نصره الحاسم على والتشين في
لوتر (١٦٣٢) ١ وقتل والتشين في (١٦٣٤) .

و(١٦٤٨) اجتمع الأمراء والسياسيون بين ظهراني ذلك اللعاب الذى حاكمه
أيديهم ، اجتمعوا لترقيع شئون أوروبا الوسطى في صلح وستفاليا . وبهذا الصلح
استعالت قوة الإمبراطور إلى شيخ أوغتيال ، وترتب على استعاق فرنسا للأتراس
أن وصلت إلى سر الراين . وأصبح في حوزة أمير ألمانى هو منتخب براندنبيرج سليل
آل هوهنزولرن قدر عظيم من الأراضى جعل بين يديه أعظم قوة ألمانية على قوة
الإمبراطور ، وهى قوة سرعان ما أصبحت (١٧٠١) ، مملكة بروسيا .

واعترفت معاهدة وستفاليا أيضاً بحقيقتين مقررتين من زمان ملده ، وهما الانفصال
عن الإمبراطورية والاستقلال التام لكل من هولندا وسويسرة

٥ - أمة الملكية العظمى في أوروبا

المتحمنا هذا الفصل بقصص قطرين ، هما الأراضي المحفظة وبريطانيا ، اللتين
نجمت فيهما مقاومة المواطنين الخاص لهذا الطراز الجديد من الملكية ، وهي الملكية
المكافئية ، التي أعطت تنافساً عن انبهار المسيحية الخلق . ولكن الملكية الفردية في
فرنسا والروسيا وفي كثير من أنحاء ألمانيا وإيطاليا - في سويسرا وتوسكاني مثلا
لم تُصمد وتظهر على مثل تلك الدرجة . بل الواقع أنها وُلدت نفسها بوصفها النظام
الأوروبي السائد أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . بل لقد كانت الملكية في
هولندا وبريطانيا آتية بأسباب استرجاع قوتها أثناء القرن الثامن عشر . (فلما
يولنت فلها ظروف خاصة ، وإنما لمعالجوها في فصل ثالث) .

ولم يكن ثمة ، عهد أعظم ، (ماجنا كارتا) في فرنسا . ولا كان الحكم
البرلماني بها مثل تلك التقاليد المحددة الضمالة . أجل كان هناك نفس تعارض المصالح
بين الحاج من ناحية وبين أصحاب الأراضي والحجار من ناحية أخرى ، ولكن هؤلاء
لم يكن لهم مجتمع (أى مكان اجتماع) معترف به ، ولا كان لهم أسلوب للوحدة
كريم . لقد شكلوا المعارضة لتاج ألوناً ، وأنشأوا عصباً للمقاومة ، - كذلك
شان ، القرون الوسطى ، الذين كانوا يكالسون الملك للشاب لويس الرابع عشر ووزيره
العظيم مارادين ، على حين كان شارل الأول يقاتل لاستمقاذ حياته في إنجلترا -
ولكن الأمر انتهى في (١٦٥٢) بأهم هزموا هزيمة نهائية بعد حرب أهلية . وعلى
حين حدث في إنجلترا عهد تأسيس بيت هانوفر أن مجلس اللوردات وتاجه مجلس

(١) - وب القرون : هي الحروب الأهلية الفرنسية (١٦٤٨ - ٥٢) وتقع في مرحلتين :
عقود برلمان باريس في (١٦٥٨ - ١٩) تحدي سلطات الملكية وثورة كبر للنبلاء برلمان كولينه
على حكم مارادين في (١٦٥٥ - ٥٢) . (للرجوع)



(ننگ ١٧١) سودا نوبس الرابع عشر

العموم صاراً يحكم البلاد ، فإن البلاط في فرنسا على العكس من ذلك كان بعد (١٦٥٢) هو صاحب السيطرة التامة على الأرستقراطية . وكان الكردينال مازارين نفسه يبنى على أسس مهددها له الكردينال ريشيليو معاصر جيمس الأول ملك إنجلترا .

ولنا سمع بعد زمان مازارين بأى نويل لونسى عظيم إلا أن يكونوا في البلاط حشداً للملك وموظفين . ذلك أنهم شرّوا وروّضوا - ولكن بشئ - والحق هو إلقاء عبء الضرائب على حاملي السلطة التي لا صوت لها . فكان كل من رجال الدين والنبلاء ، بل وفي الواقع كل إنسان يحمل لقباً - مغيب من كثير عن الضرائب . وأصبح هذا الظلم في النهاية أمراً لا مطلق ، ولكن الملكية الفرنسية لردعت ردها من الزمان ازدهار شجرة الفخر المضرة في الزايمير . وإنك ترى الكتاب الإنجليزي عند مفتاح القرن الثامن عشر ، وقد أطلوا يستفتون الأنظار إلى يومس الطبقات الدنيا الفرنسية وإلى ما يستمتع به الفقراء الإنجليزي ، في نفس ذلك الزمان ، من رتقاء نسوي .

على مثل هذه الأوضاع الآتمة أقامت ما عسانا أن نسميها : الملكية العظمى ، الفرنسية أسسها . فحكم لويس الرابع عشر للمقلب بالماهل الأعظم زماناً لا نظير له في الطول هو الثمان ومبهور سنة (١٦٤٣ - ١٧١٥) ، وأقام من نفسه نموذجاً يحذيه كل ملوك أوروبا . وكان يقوده يادئ الرأي وزيره للكيانفلي الكردينال مازارين . وبعد وفاة الكردينال أصبح هو نفسه يشخصه ونسبه وقصه : الأمير ، المثالي . وكان - في داخل حدود صفة القضيي - ملكاً ذا كفاية استثنائية ، وكان طامحه أقوى من شهواته الدنيا ، فبهر على بلاده الإفلاس بما انتج من مقلات سيامية خارجية شديدة النشاط أظهر فيها وقاراً حكماً ما يزال يستلحي إعجابنا . وكان أول ما يجتأبه من رغبة أن يربط أجزاء فرنسا بعضها ببعض وأن يمد حدودها إلى تهر الراين وجبال البرانس ، وأن يمتلئ الأراضي المنخفضة الأسبانية ، وكانت أحلامه البعيدة ترى في ملوك فرنسا خلفاء محتملين لشرلمان في دولة رومانية مقلمة يملأ صيحتها .

لنفسه قصر فرسايه الخاص متجاوزاً موارده المالية بالقدر الذي يسمح به رعاياه وداكتوه . وكان النبلاء في كل مكان يعملون بناء قصورهم أو يوسعونها وفق النموذج البلندي . وتطورت صناعة الأقمشة والأثاثات الجميلة المحيطة بالصنع وعظم شأنها ، وازدهرت فنون الترف في كل مكان ، فتمتعت أمثال من الرعام المزجج ، والقاشالي^(١) (Psalence) وأشغال الخشب المذهب ، وأشغال المعادن والجلد المضبوط بالخيوش البارزة ، وموميقي كثيرة وتصوير فلنتر ، وطباعة جميلة ونجويد موتي وطباعة مختلطة ونحور بدنية . وكان يسير بين المرايا والأثاث البديع جنس صجيب من البادة في شعور مصارة فضضة ملوونة بالمساحيق ، وسراير ومخمرات وهم يتأبطون على أحقاب عالية حمراء ، ويتكاثرون على عصي باخرة (١) هذا إلى ميدان أكثر إدهاشاً وإعجاباً ، تحت أبراج من الشعور المنطاة بالمساحيق وفي ثياب لها مقصات عظيمة من الحرير والساتان تحملها الأسلاك . وكان يتجلى وسط ذلك كله لويس العظيم ، خمس عاله . غير شاعر بالوجه المريلة المتجهمة المريعة التي كانت ترقبه من تلك الظلمات الدنيا التي لم تخفق ججبتها همس ضياءه .

وليس هنا مجال التعميل في قصة حروب تلك الملك وأعماله . وما يزال كتاب فولتير المسمى « عصر لويس الرابع عشر » أحسن ما كتب عنه وأصح من وجوه كثيرة . أنشأ الملك بحرية فرنسية كفوفاً لغزاة الإنجليز والولنديين . وهو حمل يعد مأثرة عظيمة للقصر . ولكن نظراً لأن ذكاه لم يسم قط عن محر مغريات ذلك الشراب الخادع ، لتو تلك القوة التي أصابت العقيلة السياسية في أوروبا ، وأعنى به الحلم بقيام « إمبراطورية رومانية مقدسة » تشمل العالم طراً ، لأنه تحول في متواله الأخيرة إلى استرضاء البايوية ، التي كانت حتى ذلك الحين معادية له . ونصب نفسه حرباً على روح الاستقلال والانفصال ، المثلة في الأمراء البروتستانت ، وأشعل نوار الحرب على البروتستانتية في فرنسا . فأبقت إلى خارج البلاد فراراً من اضطهاداته الدينية جماعات وفيرة العدد من خيرة رعاياه احتلالاً وأعظمهم قيمة ، حاملين معهم فنوناً

(١) القاشالي : هو ضرب من الخرف المتنازع على طبقة معينة من النبلاء لللون . (الترجم)

ومصانع . فإن صناعة الحرير الإنجليزية مثلاً ، قام بتأسيسها البروتستانت الفرنسيون . ونفذت إبان حكمه عملية « الدراجونات Dragonnades » وهي طريقة للاضطهاد شديدة فاعلة بوجه خاص . فكان بعض الجنود الأجلاف يتركون في منازل البروتستانت ، ويأمرهم بأن يفسدوا نظام حياة مضيفهم وأن يسيروا ناعماً على الشاكلة التي ترضيهم . وخضع لهذا النوع من الضغط ، كثير من الرجال لم يمسوا بكونهم ليخضعوا لهذا . والعنقاء ، خالصة النظام .

واقطع تعليم الجبل الثال من البروتستانت ، وكان الآباء حين أن يعلموا أولادهم تعليماً كاثوليكياً أو لا يعلمونهم البتة . ولا يدأخلك شك أنهم كانوا يعطونهم ذلك التعليم ، ولكن في سخر ونفخة صوت تنهب بكل ثقة فيه . وبينما الاضطهاد الأكثر تساعماً أصبحت في معظم أمورها مغلقة في عقيدتها الكاثوليكية أو البروتستانتية فإن الاضطهاد التي أثرت الاضطهاد برعاياها أمثال فرنسا وأسبانيا وإيطاليا ، بلغ من قسوتها لتعليم البروتستانت الشريف ، أن أصبح هؤلاء الناس في جل شأنهم مجرد كاثوليك معتنقين للكثلكة أو كاثوليك ملحدين ، مستعدين للانتقال إلى الإلحاد الخلل المطلق ما سحقت لهم الفرصة لذلك . وكان العهد التالي أي عهد لويس الخامس عشر هو عصر ذلك الأخير الربع فولتر (١٦٩٤ - ١٧٧٨) ، وهو عصر كان فيه كل إنسان في الجماعة الفرنسية مطابقاً للكنيسة الكاثوليكية ومتشياً معها ، على حين لا يكاد يكون فيهم واحد يؤمن بها .

وكان من مقومات الملكية للعظمى - بل من مقوماتها الفاعلة الممتدة - أن تنصر الآداب والعلوم . فأنشأ لويس الرابع عشر أكاديمية للعلوم متأسساً بها الجمعية الملكية الإنجليزية التي أنشأها شارل الثاني ومثلها جمعية فلورنسا . وقد زين بلاطه بالشعراء وكتاب المسرحيات والملاسة ورجال العلم . ولئن خرجت للطريقة من هذه الرعاية بالشئ القليل من الإلغام ، فإنها حصلت على كل حال على موارد مالية تعبت على التجريب والنشر مع قدر خاص من المية في أعين السوقة .

وكانت الجهود الأدبية في كل من فرنسا وإنجلترا ، متوالة تقيس على مثاله معظم الجهود الأدبية الأوربية أثناء تلك الفترة ، فترة الملوك الأعظمين ما بين صغير وكبير ،

وفرة اليونان الرغبة الكبيرة والمقشقات المجارية النامية . وكانت ظروف الأحوال
 يفرنا أكثر اعتماداً على الملكية منها بالهجرة ، ولقد تركزوا أساساً . وكان الكتاب
 قرونهم تعوزهم التقاليد العظيمة التي تليها تلك لروح الحرية غير المنظمة —
 دوح شكبير — إذ كانت الحياة الفنية الفرنسية تركز حول البلاط ، وكانت أشد
 من الإنجليزية إحساساً بالضبط وكبح الجراح . وهي لم تنتج أبداً أدباء من « السادة » أبناء
 الشعب أمثال « بنيان Bayen » الإنجليزي ، ولم يكن في متناول أيديها في القرن
 السابع عشر مثل ذلك السراح المطلق لروح الفرد والاشفاق الذي قامت عليه الجمهورية
 والذي يطلق مقال رجل مثل ملتون . وكانت نزعها أميل إلى مراعاة الصحة والقيود ،
 وكانت أمم خصوصاً لغزو مطمح للفلسف والنقاد المتسكبين بالقواعد . وكانت تخضع
 المادة للأسلوب . فكان تنظيم الأكاديمية لم يزد عبودها القرملة إلا تشديداً . وثرى
 حتى تلك القروق ، أن تشيع الأدب الفرنسي السابق على القرن التاسع عشر بالوصف
 الثاني الأدبي ، وكان به قد كتب بروح طالب ماهر يفضي الدرجات الرفيعة ، أكثر
 منه بروح رجل يشهد التعبير الصريح . فإنه أدب قوله الدرر البقية والمآسى والمهازل
 (التراجيديات والكوميديات) وقصص الرومانس^(١) والمباحث العقلية وكلها بارادة صحيحة
 مطابقة للأصول ، جوفاء خالية من الحورية بشكل خلوها العادة . ومن برروا بين
 ماركسي « الصحة » في الرومانس ، كوروني (Cornelie) (١٦٠٦ - ١٦٨٤) وراسين
 (١٦٣٩ - ١٦٩٩) . واتكسر مولير (١٦٢٢ - ١٧٠٣) كذلك على حصره
 بكوميديات يرها بعض الفئات غير ما ظهر في العالم . ويكاد الترق الوحيد من
 القراءة السهلة الناصحة اللطيفة الذي يلبو وسط الرياش الثقل للثلاث القاصر الملكية
 الفرنسية العظمى ، أن يوجد في مذكرات ذلك الزمان اللبية بالقبل والقيل والقصص .
 فهناك هذه ، وهناك تلوين بعض المسجلات القوية الاجتهادية والسياسية .

ومن أروع وأحسن ما سطر بالفرنسية أثناء ذلك الزمان ما قام به في خارج فرنسا
 فرنسيون محبوبون ومتمردون . فإله ديكاوت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) أعظم الفلاسفة

(١) الرومانس : قصص القلاع والقروية . [لترجم]

الفرنسيين عاش معظم حياته في ظلال أمن هولندا القوي . وهو الشخصية المركزية للقطعة بين مجموعة متنافسة من العقول المتألمة وأهل النظر ، نشط في أعمال مهول التوضي والتعديل والتغيير بمسبحة عصرهم المهلثة . وكان يطر علقاً فوق كل هؤلاء المبدعين ، وعوق كل الكتاب المعاصرين الأوربيين شخص فولتير العظيم ، الذي منتكلم عن اتجاهاته النحبة في فصل نال . وإن جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) - وهو روح أخرى منبوذة - بما قام به من هجوم عاطفي على الأخلاق للشكيلة واتخاذها العاطلي لطبيعة والحرية ملا أعلى ، ليقف مبرزاً بوصفه الروائي الأعظم في عصره ووطه . وسنزيد القراء عنه يياتا

وكان الأدب الإنجليزي في القرن السابع عشر مرآة تنكس همه الشؤون الإنجليزية الأقل قراراً وتكرراً ، وكان به من العنوان قلدو أكبر ومن الفصل قلدو أصغر مما الفرنسي . ولم يكن البلاط والمهاجرة الإنجليزيةان ليطما حياة البلاد القومية كما سطت المهاجرة والبلاط الفرنسيان . وربما أمكننا أن نضع مقابل ديكاوت ومدرسته ، باكون الذي سبق أن نبأناك عنه في يياتا عن النهضة العلمية ، ثم هوبز ولوك . وكان ملتون (١٦٠٨ - ١٦٧٤) ، يرتلى نوباً علقاً من اللواسات الإغريقية واللاتينية ، والثقافة الإيطالية واللاهوت البيوريتاني مع أيراد من المجد من تسج يديه . وكان هناك قلدو جسم من الأدب الحر خارج مجال النفوذ الكلاسيكي ، ولعله وجد أشد خصائص تغييره في كتاب تيفان « مسير الحاج Pilgrim's Progress » - (١٦٧٨) . وواضح أيضاً أن نواليف ديفو Deloe المتكررة (١٦٥٩ - ١٧٣١) الذي لم ينل بعد قلدو الحق من التقدير ، موجهة إلى جمهور يرى من تليليات العالم الأكاديمي وادعائاته ، وإنما جاء مؤلفه روبنسون كروزو ولحقاً من أحلم مبتكرات الأدب . وكتابه « مول فلاندرز Moll Flanders » إنما هو دراسة للأخلاق تستلهم الإصجاب ، وديفو هنا الكتاب وفيها كنه في التطورات الخيالية للتاريخ ، إنما يسبق كثيراً من الناحية الفنية كل معاصره . ويكاد يكون حل نفس مسواه ، قبللتج الحاكم اللاندي ومولف « توم جونز » . وكان صويل ريتشادسون بالغ الألفة الذي كتب « پاميللا وكلايس » ، شخصية عظيمة تالفة بين خالق الأدب الإنجليزي الحية في القرن

الثامن عشر ، وهو الأدب الذى لم يكن بأن يكون أدبياً ، وإلى هؤلاء الثلاثة جرت عادة النقاد أن يربطوا اسم « سموليت Smollett » ، وهو أدنى كثيراً . وبهذه الأسماء وباسم جان چاك روسومها ، تعود إلى الأهمية الرواية ، وهى البيان شبه الحقيقى عن طرائق العيش ، وعن الضرب فى أرجاء العالم ، وعن الالتقاء بالمسائل الخلقية ، وذلك بعد أن انخفضت يتنهوّر الإمبراطورية الرومانية . وتوفى حودتها بانطلاق سراح أنواع جديدة غير محدودة من الناس مبالاة إلى الاستطلاع فى شئون الحياة والخلق ، وهم أناس أوتوا شيئاً من وقت الفراغ ، وأناس تواقون إلى تكيل تجربتهم الخاصة بقصص منامرات من هم حل مشاكلهم . ذلك بأن الحياة أصبحت أقل وطأة وأكثر لذة .

وربما جاز لنا هنا قبل أن نحتم هذه الخاتمة الأدبية ، أن نلاحظ أيضاً ما عليه أدبسون (١٧٧٢ - ١٧١٩) ، من خواء رشيق بوصفه شخصية لها أثرها فى الأدب الإنجليزى ، وما للدكتور هويل جونسون (١٧٠٩ - ١٧٨٤) ، من رغبة فى التقصّد بمها الناس ، وهو مصنف أول قلموس إنجليزى . ولا يكاد يصلح للقراءة الآن من كتاباته القليلة شىء اللهم إلا تراجم قلّة قصيرة للشعر ، بيد أن أمثاله وغرابه أطواره قد بقيت لنا فى الكتاب الذى ألفه يوزويل عن تلويخ حياته جونسون . فلما لمسكتروپ (١٧٨٨ - ١٧٤٤) ، وكان كلاسيكى الاتجاه فرنسى الروح ، فإنه ترجم هويمبروس ثم تناول بقى للناسيب^(١) فحوّلها إلى شعر مقبل متزن . وصدوت أقوى كتابات هذا العصر ، عصر الرجال المؤدبين غير المتأثرين فى إنجليزية شأنه فى فرنسا ، عن روح انضمت فى نزاع عنيف مع النظام السائد ، بل مع نظام العلم بأكمله فى الواقع ، وهو موزت (١٦٦٧ - ١٧٤٥) ، مؤلف رحلات جيكير . وهناك « لورانس سترن L. Sterne » ، (١٧١٣ - ١٧٦٨) ، وهو رجل الدين الذى تكاد تنصل باسمه شهرة السوء والذى كتب « تريسترام شاندى » ، وعلم من نلاه من كتاب القصص مث حيلة متكررة فى فن الرواية . وقد استقى حيوته من عظمة القرنى رابليه السابق على العهد الكلاسيكى . ولسوف نقبس من

(١) الفلسفة الهابسية أو الربوبية Deleuze فلسفة خاتمة فلسفية تزامن بوجود الإله وتذكر

جيون المؤرخ في قسم تال ، وعند ذلك تحدثك ثانية عن التحديدات العقلية المعجية التي تقل تلك العصر عصر المستقبلية .

ومات الملك الأعظم في ١٧١٥ . وخلفه لويس الخامس عشر وهو ابن حبيبه وللقائد خير الكفء لشجاعة ملحقه للعظيم . اتخذ وضعة ملك وجلاله ، ولكن الشهرة الماسطة عليه كانت هي الشيء العادى الملازم لخصنا البشرى ، وهي طراد النساء الذى يخفف من خوف من جهنم بحثاً إلى الخرافات بسبب . فلما كيف أن نساء من أمثال الدوقة شاتوروه ومدام بومبادور ومدام دي بارى تسلطن على ملذات الملك ، وكيف أن الحروب كانت تشب والمخاضات تعقد وأن المقاطعات كان يماث فيها فساداً ، وآلافاً من الناس يقتلون بسبب غرور هاته الظطوفات ولحقاقها ، وكيف حدث أن كل الحياة العامة لفرنسا وأوربا تأثرت بالسلاسل والبغاء والاحتيال بسببين ، - فأمرور يتبين أن يطمها القارئ من مذكرات ذلك الزمان وصارت السياسة الخارجية العلوج في حكم لويس الخامس عشر يقدم ثلاثة صوب تحطيمها الهائى .

وقى ١٧٧٤ مات هذا اللويس بمرض الجذرى ، لويس المحبوب جداً كما كان ملقوه بسمونه ، وخلفه على العرش حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤ - ١٧٩٣) ، وهو رجل غنى حسن النية ، وصاحب طلبة نازية بديعة السديد ، وصانع أكتاف حلو على شيء من الهارة . فلما كيف أنه تبع شارل الأول إلى المقصلة لأمر سنبل به في قسم تال . إذ ينحصر كل اهتمامنا في الوقت الحاضر ، في الملكية العظمى إيلان مجدها .

وقد نستطيع أن نذكر من بين عملاى الملكية العظمى خارج فرنسا الملوك البروسيين أولاً وهم فردريك وليم الأول (١٧١٣ - ١٧٤٠) ، وابنه وخلفه فردريك الثانى وهو فردريك الأكبر (١٧٤٠ - ١٧٨٦) . وقصة الجيوش البعلية لأسرة هومزرن ، التي حكمت مملكة بروسيا ، مبتدئة من بدايات مغمورة غير مبرزة ، قصة مملكة ليس يمتنا أن نتبعها هنا . وهى قصة يجمع بين الحظ والعنف ، والندماوى الجريئة والخيانات المباشرة . ويمررها مع التقدير العظيم كتاب كارليل المسى ، فردريك الأكبر . حتى إذا وافى القرن الثامن عشر كانت للمملكة البروسية

قد بلغت من الأهمية حداً حددت معه الإمبراطورية ، وكان لها جيش قوى حسن التسيب ، وكان ملكها ممن أعطوا مكافئاً عظيماً من الثغائم وصانيتهم - وجعل فردريك من قصر بوتسدام ثرسايا آخر بلغ به حد الكمال . إذ هناك بلغت جنت سان سومي ، بنافوراتها وشوارعها المزودة بالأشجار وتحاليلها حد التخليد القوي ، تمودجها القوي ، وكان هناك كذلك القصر الجديد وهو بناء عائل من الطوب أنفقت في تشييده أموال طائلة ، وكذلك صوبة البرتقال (الأورتنج) ذات الطراز الإيطالي وفيها مجموعة من الصور ، وقصر من الرخام إلى غير ذلك . ومما فردريك بالفتاة إلى حد التأليف ، كما أنه أخذ يرسل فولتر ويستيفه حتى انتهى بهما الأمر إلى السامة للزيادة .

وكانت الإمبراطورية النمساوية مشغولة على الدوام ما بين مطرقة القرنين وستدان الأكراد حتى أنها لم تسطع أن تطور نموذج الملك الأعظم الحقن إلى عهد ماريا تريزا (١٧٤٠ - ١٧٨٠) (التي لم تحمل لقب الإمبراطورة لأنها امرأة) . وخلفها على قصورها في ١٧٨٠ جوزيف الثاني الذي تولى الإمبراطورية منذ (١٧٩٥ - ١٧٩٠) .

ويظهر بطرس الأكبر انقصت الإمبراطورية للسكوتية من تحاليلها القوية وفتحت إلى حين الجاذبية الفرنسية . وحقن بطرس على نبالة الشرقية وأدخل الثياب القوية . ولم تكن هذه إلا الرموز الخارجية للرغبة في القوة القوية . ولكن يحرر نفسه من الشعور الأسبوي وتقاليد موسكو ، التي لها - شأن بكين - مدينة جوانية مقدسة هي « الكرملين Kremlin » بنى لنفسه حاصنة جديدة هي بتروجراد على سفنق القلعة . وطبعاً أنه شاد لنفسه ثرسايا أخرى هي قصر اليترهوف على قرابة ثمانية عشر ميلاً من باريس الجديدة هذه ، مستخدماً في ذلك مهناً ميارياً فرنسياً ومنشأ شرفة (ثرسا) ونوافير ومساقط مائية وبها الصور وجنات وكل المظاهر المعرف بها . وكان من أبرز خلفائه إليزابيث (١٧٤١ - ١٧٦٢) وكاترين العظيمة ، وهي أميرة لثانية ، حاصت بعد الحصول على التاج بطريقة شرعية بحتة هي قتل زوجها ،

(١) الأودالميري أو صوبة البرتقال (Orange) - مبنى من الزجاج بسادته شير البرتقال

على النحو . (الترميم)

القصر الشرعي ، فاجترت إلى مثل عليا قرية تقليدية وحكمت البلاد بقوة عطية من (١٧٦٢ إلى ١٧٩٦) . فالتفت أكاديمية ، وتراسلت مع فولتير . وعاشت حتى شهدت نهاية الملكية العظمى ، في أوروبا وإعدام لويس السادس عشر .

ويضيق المقام عن مجرد تقديم قائمة بأسماء صغار الملوك الأعظمين ، في فلورنسا (توسكاني) وسافوي وماكسونيا والدانماركة والسويد . ولو راجعت كتاب دليل بيديكتر^(١) لشهدت في كل عاصمة قمرانيا جديداً باسم جنيد تقلد فرساي باريس ، وإن السائح لتأخذ الدهشة أثناء مروره في تلك القصور لعدة التقليد . وكذلك يضيق المقام من معالجة حرب الوراثة الأسبانية . فإن أسبانيا وقد أجهزتها فوق طاقتها مشروعات التوسع الإمبراطوري التي دبرها شارل الخامس وغليب الثاني ، وأضعفها ما أظهرته نحو البروتستانت والمسلمين واليهود من اضطهاد معصبي ، أخلت طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر تخطيطهما أوتيت من أهمية موقوتة في القشتون الأوربية وتعود ثانية إلى مستوى دول الدرجة الثانية .

كان هؤلاء الملوك الأوروبيون يحكمون ممالكهم كما يحكم نبلاتهم مزارعهم ، كانوا يتأثرون بعضهم بعض ، وكانوا سياسيين ، وبجدي النظر ، بطريقة أهد ما تكون من الواقع ، وكانوا يخوضون الحروب ويبدلون المصاراة الحيوية لأوروبا في سياسات سخيفة من العدوان والمقاومة . وانتهى الأمر بأن انفجرت عليهم من الأعماق عاصفة هوجاء . وكانت تلك العاصفة هي الثورة الفرنسية الأولى ، فإن غضبه الرجل العاوي في أوروبا أخذ نكلهم بنته وعلى حين غرة . ولم يكن ذلك إلا الانفجار الاختلاسي للثورة عظيمة من العواصف السياسية والاجتماعية ما تزال مستمرة ، وأهلها مستمر حتى يزول آخر أثر للملكية القومية المزعة ثم يفتح العام وتنتج السلوات ثانية على السلام الأعظم الذي سيظل اتحاد البشرية بجماء .

(١) دليل بيديكتر (Benedict) . كتاب يصدر بلدات أجنبية معتمدة عن أهم أقطار العالم منذ أتم ما جاء من القدي والأكبر . والعالم . (الترجم)

ينعم بسماعه . . . ويساير هذا كله التطور الذي لحق موسيقى الفرجينال^(١) ولا يقل عن ذلك في الأهمية وصول المكان وعائلتها وتكونوا قتلوا في قبورها . فلما وإن رجعت إلى عهد نيفن بروخر وأسرته أماني^(٢) في منتصف الأول من القرن السادس عشر ، إلا أنها قضت زهاء مئة عام تشق طريقها نحو القبول والرضا العام . ناهيك بأن ماس هازف اللورد كان في حصر بصل في ثلثه إلى ١٦٧٦ ما يزال مستطيماً أن يطمئن في « المكان الصارخة » - على حد تعبيره ، وأن يكتشف على نغم جنبها الطبول Viol الأكثر هدوءاً واستمراراً . بيد أن نطقها الأوجب ، وخفة حركتها العظمى وقوة تعبيرها الأشد وزخراً وتأثيراً فرضت نفسها وأصبحت شيئاً ملموساً على طولها للمنى . . . وبلغ من شأنها في إيطاليا موطنها الأصلي وإن حلوها في محاجة وعزفوا عليها في محاجة - أن اعترف لها الناس بأنها الآلة الوحيدة التي تستطيع أن تضارع الصوت الإنساني وثاقه^(٣) .

وقال إن التطور الموسيقي تأخر حيناً من الدهر بسبب التباين بالصالت المعنى والإحساس به في الأوبرا الإيطالية ، وكان لثنى القرن السابع عشر ، وبخاصة أصحاب صوت السوبرانو من الذكريان ، صيت يقارب في صوقيته وشأته ما لتجوم السينا الحصريين ، ومع هذا فإن تلك الفترة أظهرت موسيقى السانترو واسكرالاتي (١٦٥٩ - ١٧٢٥) الجميلة الوفيرة وهو البشر الممهد لموزار . وحدث في إنجلترا انضجار عظيم من النشاط الموسيقي بلغ أوجه في شخص يورسل (١٦٥٨ - ١٦٩٥) بعد فترة هدوء أثناء عصر الجمهورية . وفي ألمانيا أُنعت البلاط للصفوة وبقوات المدن الشعب الأثلاث بقدر لا يحصر له من مراكز الاسكولة الموسيقية ، وولد في ١٦٨٥ يسكوتينا يوهان سباستيان باخ وهاندل ، ليحصلا للموسيقى الألمانية إلى سمع الفنون والاستعلاء الذي قلدها أن تحافظ عليه طيلة قرن ونصف من الزمان .

(١) الفرجينال : آلة موسيقية صغيرة يلب عليها بومبة لهماثي (لوحة الأسابع)

(المترجم)

(٢) أسرة ألي (Amaldi) : اسم عائلة من صناع إيطاليا لكن دم مؤسس مدرسة

الكان الكرومونية . (المترجم)

(٣) آخر كتاب "Musical" من تأليف سير

يقول السير . ه . هادو : إنها بين جميع الملحنين قبل عصر ليندا أشلدام وأوتو هام ارتباطاً بزماننا هذا وإن صوتيهما ليرتآن في آذاننا بألف اللهجات وأدناها إلينا .

فأما بالسريتنا الذى سجل لنفسه آنفاً ذروة فى الموسيقى ، فإتته بالمقاييس مخلوق يعيش فى عالم آخر . إذ كان تابعاً على مفرق أسئلة موسى جوتة المرتلين الكنسية قبل عهد الآلات العظيم . وجاءت بحسب أسماء باخ وهاندل مجموعة من أسماء أخرى . فإن هايدن (١٧٣٢ - ١٨٠٩) ، وموزار (١٧٥٦ - ١٧٩١) وبيتهوفن (١٧٧٠ - ١٨٢٧) يقفون مبرزين بين هذه الكواكب ناكلاً . فذاك أن القبط العظيم للموسيقى المصرية كان يقال آنذاك حقيقاً جيلشاً واسع الجنبات . وما يزال بهى وبغيش . ولا يتسع المقام هنا إلا للذكر المؤقتين للموسيقين ثم نلن إليك بعد ذلك فى فقرة موجزة أو ما إليها جمعيات قليلة مركزة حول موسى القرن التاسع عشر وموسيقى أيامنا هذه . كانت هذه الموسيقى ، موسيقى القرنين السابع والثامن عشر إبان صنعها امتيازاً خاصاً لطلم صغير مقف - هو من فى البلاطات من الناس ، ومن فى مدن المقاطعات والصور الريفة من أناس يستطيعون أن ينظموا حفلات عزف ومن من الناس فى مدن نحوى لكبرها دور الأوبرا وحجرات العزف . وكان نصيبه للفلاح والمعلم من الموسيقى فى أوروبا الغربية قلداً مطرد للتناقص إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر أيضاً كانت هذه الأشكال البعيدة آخذة فى التطور . فذلك أن الفناء الشعبي كلى واضمحل وبدت عليه مظاهر التفرغ والضياع . وكان كل ما تبين للكافة من الناس من حياة موسيقية هو بضع أغان شعبية وبضع ترانيم . والراجع أن النهضة الدينية فى تلك الأيام ، ملجئة بشيء من قوتها النافذة إلى إطلالتها مراح الحاضر الفناء السجين . ولم يحدث إلا فى أيامنا هذه مع ظهور تطور ضخم فى الطرائق الآلية للإنتاج ونشر الموسيقى ، أن الموسيقى وقد صبحت بالصباغ المصري ودخلتها التنشوء والارتقاء وارتفعت فى علية الناس - تعود إلى نمط الحياة العادية . فأصبح من ثم باخ وبيتهوفن جزءاً من ثقافة الجنس البشرى العامة .

٧ - التصوير فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

إن فى التصوير والمهارة فى هذا الزمان شأن موسيقاه ، مرآة تنعكس الأحوال الاجتماعية فيه . وهو زمان تحطمت فيه التكررات وتمزق السلطان ، ولم تعد اعتبارات

المظهر (object) والروعة تسطر على الفن التصويرى . وقد نزلت الموضوعات الدينية إلى مرتبة ثانوية ، فجاءت عاجلها الناس عاجلها بوصفها أحداثاً صغيرة في قصة وليس بوصف كونها حقائق عظيمة هائلة . وتنحط أشكال الكتابات^(١) والرموزيات . فإن المصور يصور من أجل الرؤية لامن أجل الفكرة ولا من أجل الحقيقة . وتحل صورة الحقيقة والواقع محل صورة الأبطال أو صغر البطل الدينى على أنقى الشاكلة التي تحمل بها الرواية محل الملحمة ، والرومانس السليبية الخيال . والأستاذان المظنونان في تصوير القرن السابع عشر هما فيلا سكويز (١٥٩٩ - ١٦٦٠) ورامبرانت (١٦٠٦ - ١٦٦٩) . إذ يجلى اليأس أن الحياة كانت في نظرهما متكللة كلها لا تتفاوت إلا بمقدار ما تقدم إليها من عجايب ضايق أو رجب لتحقيق الخيال في الجلو والتور والمادة . وكان فيلا سكويز يقوم في البلاط الأسباني المشهور ، برسم الباباوات وللوك دون تملق ، ورسم الأتزام وللقلمين دون ما احتضار . ويحلى للرسم الدقيق التسطيل والتسجيلي (Documentary) مكانه في أشغال هذين للرجلين - وهما أول المصورين الصريين - لعملية إخراج إعمال للأثر ، وتركيز على وحدة الانطباعة وذلك على حساب كل الاعتبارات الثانوية . وكانت الصورة إلى ذلك العهد في حياة الناس الشديدة تمركز ، إما شاهداً يشهد بشيء أو حداثاً على شيء أو تمليفاً لشخص أو حلية لمكان ، فلما الآن فإنها أصبحت في بعدد عظيم من الحالات ، شيئاً في حد ذاته ، شيئاً يوجد من أجل نفسه . فالصور تُلَقَّن بوصفها صوراً وتجمع في معارض للصور . وتطورت المناظر الطبيعية (Landscape) تطوراً قوياً ، كذلك تصوير مناظر الحياة العادية (Genre)^(٢) . وصارت الصور العارية (Nude) تنقش شكل لطيف مشرق وفي فرنسا أصبح كل من واثو وفراجونار وغيرهما طبة الخاصة وتخلفهم بلمسة من التقديس الرقيق لحقائق الحياة الريفية . وإن الإنسان ليندرك في هذه الأشياء شواهد

(١) الكتابات (Allegory) نزلت من التصوير المبترى أو الرمزي يرى ليد مونت لى ظل من الحقيقة ومع ذلك هو موضوع في عالم الخيال . (المعجم)

(٢) البث (Genre) هو لفظ يطلق في نقاش التصوير على الصور التي تصور الحياة العادية من أشغال المناظر الغزلية أو القروية (المعجم)

ثم من مجموع قام مكون من أناس اثنين موقفين قوى أرواح جد ممتازة ، بقادرون الحياة ويتصلون شيئاً ما عن مياضنها وآلامها جميعاً .

ولم يبد عصر إلزابيث في إنجلترا أى تمحس في فنون التشكيل يطاول جهوده الأدبية والموسيقية . فهي إنما كانت تستورد مصورها ومبانيها . بيد أنه حدث في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أن خلقت الثروة المتجمعة والرخاء المتكاثف للبلدان أصابها تلك الدولة التي كانت حتى حين قطراً حل حامشاً للثنية الغربية . - أحوالاً تواتم ازدهار اليهود الذي ، حتى إذا ولى القرن الثامن عشر كان أمثال رينولدز (١٧٢٣ - ١٧٩٢) ، وجينزبرو (١٧٢٧ - ١٧٨٨) ودوسى من المصورين الإنجليز يستطيعون أن يطاولوا أى جهود معاصر .

وكانت هذه الفترة ، فترة للكمالات وطبقة الخاصة ، موانعاً أيضاً أعظم المواضع لتطور طرز معينة من العمارة . ذلك أن عمليات نشاطه من قبل في القرن السادس عشر ، كانت لا تزال تعمل عند ذاك بقوة متزايدة . وكان الملوك في كل مكان يبنون القصور ويبنونها بناءً ، وكان النبلاء والأعيان يبنون قلاعهم ويبنونها منازل أنيقة . فأما منازل المدن فقد شرع في العمارة في التفكير فيها على معيار أكبر . فأما فن العمارة الكنسية فإنه قوى . وأقصى جهود البلديات أهل أهمية نسبية ، والواقع أن المبنى الكبير للورد ، إنما هو القابض بيده على مفتاح الابتكار في ذلك العصر في هذا الشأن وفي غيره من الشؤون . وأتاح اختراق قسم عظيم من لندن في الحريق الكبير (١٦٦٦) ، لإنجلترا نهضة خاصة أصبحت للسير كرسطوفرين^(١) ، وإن كانت الوالية سانت بول وكاتدرائية لندن ، لتسجل دعواً بالغاً الأوج في العمارة الإنجليزية . وكان له الفضل على أمريكا إذ أرسل إليها تصميمات ليوت ريفية متوجة شيدت هناك ، كما أن حبقريته الخاصة طبعت أثرها في فن التصميم الأمريكي الباكر . وكان إيليجو جونز شخصية عظيمة قاتية بين المعاصرين الإنجليز في بواكير القرن السابع عشر ، وهذه قاعة الولايم التي قصد بها أن تكون نمواً من قصر في هوابت هول^(٢) لم يتم بناؤه - يعمل على ماؤها

(١) هوابت هول ، قصر بناه ولم يتمه سوى الثمن وصورة التيران في ١٦٩٨ . (التدريج)

لدى كل زائر لمدينة لندن . وكان كل من حلين الرجلين بل في الواقع كل المعالجين
 الإنجليز والفرنسيين والألمان في تلك الفترة ، يشتغلون على أساس النهضة الإيطالية
 التي كانت ما تزال حية مطورة ، وذلك أن كثيراً من أحسن المباني في ذلك
 الزمان كان من عمل إيطاليين . وحدث بالتدريج مع اقتراب القرن الثامن عشر
 من نهايته ، أن توقف التطور الحر الطبيعي لمعارة عصر النهضة ، إذ اعترضته
 موجة من الصلحائق الكلاسيكي . وكان لما قال الدراسات الكلاسيكية بمفارس أوروبا
 الغربية من مجسد للريعي ، تظهر بدا في ظهور نزعة متزايدة إلى تقليد نماذج إغريقية
 ورومانية . فإ كان يوماً ما من المنهات أضفى الآن عندها دفناً تجليداً غبلا
 للقول . وأصبحت البيوت المأهولة والكنايس والمتاحف تبنى على صورة للعبد
 الأثيني ، وحتى شرفات (ترامات) المنازل نفسها أخضعت لنظام أبهاء الأعمدة
 (Colonnades) . ولكن أسوأ ظوئها طلع النزعات القاتلة ، جاء في القرن التاسع
 عشر خارج حدود عصرنا الزمان هذا .

٨ - نمو فكرة الدول العظمى

ورأينا كيف ظهرت في الشؤون الإنسانية فكرة الحكم العالمي والمجتمع البشري ،
 ولخصنا كيف أن إغفاق الكنيسة المسيحية على اختلاف مذاهبها في توطيد وصيانة
 دينكم الفكريين ، فكرتي مومسها يسوع ، قد أفضى إلى إتيار خلق في الشؤون
 السياسية وانتقال إلى الأملية وقصر في الإيمان . ورأينا كيف أن الملكية الميكالية
 نصبت نفسها لمنافسة روح الأخوة في المسيحية ، وكيف أن الملكية للمكافئية تطورت
 في قسم كبير من أوروبا فأصبحت الملكيات العظمى والملكيات البرلمانية في القرنين
 السابع عشر والثامن عشر . بيد أن عقل الإنسان وعياله لا يشككان ناشطين ، لذلك
 فقد كانت تنسج انتساج الشبكة تحت سلطان الملوك الأعظميين مجموعة معقدة من
 الأفكار والتضاليد ، تهدف إلى اصطيد حقوق الناس والإسكان بها . تلك المجموعة
 المعقدة هي فكرة السياسة الدولية لا يوصفها موضوع معاملات بين الأمراء ، بل
 بوصف كونها موضوع معاملات بين نوع من الكائنات الخالدة ، هي الدول .

فذلك أن الأمراء يجيئون ويذهبون . فإن لويس الرابع عشر قد يختلف لويس خامس عشر متصيد لريات النمل والجمل ، وقد يختلف بدوره ذلك صانع الأقفال للملوى الفبي لويس السادس عشر . وجاء بعد بطرس الأكبر خلف مصائب من القيصرات . وكان أهم مظهر مستمر لآل هابسبرج بعد شارل الخامس ، في كل من النمسا أو أسبانيا ، تواملا لشقاء الفليطة والمليون القيمة والاضداد في المخزافات . وإن الفلطة الهيبية التي يبدى ملك مثل شارل الثاني ، لتجد من مدعياته هزواً وسخرية : فالأمة التي الأرسخ قلماً فهو أمباء وظيفة وقزير الخارجية ، وفكرات الناس الذين كتبوا من اختصاصات الدولة . وقد كان الوزراء يحافظون على استمرار السياسة أيام احتكاف ملوكهم ، وفي الفترات التي يخلف فيها العرش بين ملك وخلفه .

ولما فلانا نجد أن الأمير أصبح بالتدريج أقل أهمية في أذهان الناس من « الدولة » التي كان الأمير رأساً لها ، ومن ثم يحين الزمان الذي نقرأ فيه القليل فالأقل من مخطوط وأطباع هذا الملك أو ذاك ، ونقرأ أكثر من « مخطوط فرنسا » أو « أطباع بروسيا » . فلما نجد في عصر كانت فيه الضيقة الدينية في الحصار ، رجالاً يظهرن إيماناً جديداً جزئياً بحقيقة هذه الشخصيات المنوية . وذلك أن تلك الأبطال الضعيفة المبهمة وأعنى بها « الملوك » تسلطت غلبة إلى الفكر السياسي الأوربي ، حتى تسلطت عليه تسلاً كاملاً عند ختام القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر . وهي لا تبرح مقلدة عليه إلى يومنا هذا . وظلت القارة الأوربية مسبعة إيماناً ، ولكن عبادة رب واحد روحاً وحقيقة معناه الاتقاء إلى مجتمع واحد يضم كل زملاء الإنسان في تلك العبادة . ولكن الواقع العملي أن أوروبا لا تفعل ذلك ، بل إنها قد سلطت نفسها تسليماً تاماً لعبادة تلك الرطانة (Mythology) المعبية للملوك بالدولة . ومن أجل هذه الآلهة « الدول ذات السيادة » ، ومن أجل « إيطاليا » ، و« زعماء بروسيا » ، ومن أجل « فرنسا » ، و« مقلدات روسيا » ، ضمت بأجبال عديدة من الوحلة للمملكة والسلام والرخاء وأودت بحياة ملايين من الرجال .

والفترة إلى القليلة أو الدولة كخروج من الشخصية إنما هي نزعة قديمة جداً في العقل

الإنسانى . والكتاب المقدس حافل بمثل هذه الشخصيات أو الشخصيات المعنوية . فإن
 مملكة يهوذا وأدم وموآب ومملكة آشور (آشوريا) تبدو في الكتب المقدسة العبرانية
 كأنها هي أفراد . بل قد يكون من المستحيل في بعض الأحيان أن يقول المرء هل
 الكتاب العبرى يعالج شخصاً أو أمة ؟ ولا يخاف في أنها تزعم بدائية وطبيعية . ولكنها
 في حالة أوروبا العصرية ، ضرب من النكوص . فإن أوروبا في كتف فكرة « علم
 Christendom » المسيحية ضلعت مراحل كثيرة في سبيل الوحدة . وبينما كانت شخص
 قلبية أمثال « إسرائيل » أو « صورة » تمثل بالفعل مجسماً يعينه من القرابة الدموية ، وانساقاً
 يمينه في الطراز وثقافتاً في المصلحة ، فإن الدول الأوروبية التي نشأت في القرنين السابع
 عشر والثامن عشر ، كانت وحدات اتصالية تماماً . فالروسيا مثلاً كانت في الحقيقة
 مجموعة من أشد العناصر ثباتاً وعدم تجانس ، ما بين قوزاق وتتر وأوكرانيين
 وسكوفيين ثم انضم إليهم - بعد زمان بطرس - الاستونيون والفنلنديون . وكانت
 فرنسا في حكم لويس الخامس عشر تضم الأثراس الألمانية ومناطق بورغنلاند المتصلة
 حديثاً ، وكانت صحناً للهوجنوت المهيض الجناح وستنزفاً لحياة الفلاحين . فأما في
 « بريطانيا » فإن إنجلترا كانت تحمل على كاهلها الملكات المانوقية في ألمانيا كما
 تحمل إسكتلندا ، وأهل ويلز الأجانب غملاً ، والإنجليز الكاثوليك الممانين .
 وإن هناك دولاً كالسويد وبروسيا ، وأكثر منها في هذا بولنفة والنمسا ، وكلها تروح
 إذا نحن تتبعناها في سلسلة من الخرائط التاريخية ، - تنفصل وتتمدد ، وتغلف بزوجاتها
 وفوائها خارجاً وتصبح فوق خريطة أوروبا كما تمثل الألبا تحت الميكروسكوب .

ولو أننا تأملنا ميكولوجية العلاقات الدولية كما نراها متجلية في العظم الضبط بنا ،
 وكما يظهرها تطور فكرة « الدولة » في أوروبا العصرية ، لأدركنا حقائق يمينها على
 غاية الأهمية من الوجهة التاريخية عن طبيعة الإنسان . لقد قال أرسطو إن الإنسان إنما
 هو حيوان سياسى ، ولكنه في المعنى العبرى الذى لدينا عن كلمة « السياسة »
 وهي التي تشمل الآن سياسة العلم بأجسها ، ليس بأى حال شيئاً من هذا القبيل . وما
 تزال غرائز قبيلة السالة باقية فيه إلى يومنا هذا ، ولديه بعد هذا نزعة تنحصر إلى
 ربط نفسه وعائلته إلى شيء أكبر منهما ، أى إلى قبيلة أو مدينة أو أمة أو دولة .

ولكن هذه النزعة لو تركت ونفسها لكانت نزعة مبهة جد غير نقادة . ومهما يكن من شيء ، فإنه مبال إلى خشية وكراهية كل نقد يوجه لذلك الشيء الأكبر الذى يحيط بحياته والذي سلم نفسه إليه ، كما أنه مبال إلى تجنب مثل هذا النقد . ولعل في نفسه خوفاً شبه شعورى من الحركة التى قد ترتب على تعطيل النظام أو عدم ثقة الناس به . ذلك أنه الوسيط الذى يمد فيه نفسه أمراً مسلماً به . وإنه ليتقبل مبادئه أو حكومته مثلما يتقبل الأنف أو الخضم الذى حباه الحظ به . بيد أن ولادات الرجال : أخصى الجوانب التى يتحاذون إليها في الأمور السياسية ليست عطرية ، وإنما هى نتائج تربية وتعليم . ولكن التعليم الذى يتلقاه أغلب الناس في تلك الأمور إنما هو التعليم الصامت المستمر للمصادر عن الأشياء المهيطة بهم . فإن الناس يمدون أنفسهم جزءاً من التجربة المرحة أو الروسيا المقدسة . وهم إنما يشيرون على هذه العقائد ويقتبلونها كجزء من طبيعتهم .

الواقع أن العلم شرح يترك ولكن بقاية البطء ، إلى أى حد من العمق يمكن التعليم لمصنعي المفهوم بالاستنتاج والذي نغىء به الظروف العابرة ، أن يستكمل أو أن يُعَدَّلَ أو يصحح بالتعليم الإيجابي والأدب والجدال ، والخبرة المتقدمة قدماً صحيحاً . فحياة الفرد العادى الحقيقية هى حياته اليومية وأخصى بها الدائرة الصغيرة لمواطنه ومعاومه وجوعاته وشهواته وانفعالاته الخائفة . وهو لا يلزم عقله الشكوى أن يؤثر في الشؤون السياسية إلا عندما يوجه نظره إليها بوصفها شيئاً له أثره الحبور في تلك الدائرة الشخصية . ولا نكاد تكون هناك مبالغة في القول بأن الرجل العادى يفكر في الأمور السياسية بأقل قدر مستطاع ، وأنه يكف عن التفكير فيها بأسرع ما يستطيع . فالعقول الشديدة التطوع والقدرة الاستثنائية ، أو العقول التى استطاعت بفضل النمل المحفلى أو الترية المتنازعة بلوغ تلك العادة الطسية ألا وهى الرغبة في معرفة أسباب الأشياء ، أو العقول التى حزت فيها أو صلتها كارتة تسمية عامة حتى لتتوارىها إلى التخوف من الأخطار المقبلة ، هى وحدها التى تأبى قبول حكومات وظم مخيفة غير مقبولة واحتبارها مقبولة لأبأس بها لحد أنها لم تؤذ تلك العقول ولم تسبب لها ما يكدرها شخصياً . وإن الكائن الإنسان العادى لينسوى - حتى يأتى الوقت الذى

يستار فيه على تلك الشاكلة - تحت ظلال أية مناسطة بجماعية تجري في هذا العالم الذي يجد فيه نفسه ، كما أنه يتقبل أى تعبير أو رمز يواجه حاجته المبهمة إلى شيء أعظم وأكبر يمكن أن ترسو لديه ونطمئن إليه شئونه للتخفية وعائلته القردية .

فلذا نحن وعينا جيداً هذه التعديلات الواضحة التي قتل طيختنا ، لم يصبح مدناً سرّاً خافياً كيف أنه كما حدث أن فكرة النظافة المسيحية أنحدرت عالمية بين الناس عند موت في دركات المهانة وضياح الفضة بسبب اشتباكها القاتل بلعالمس القساوسة ومطامع البابوية من ناحية ، وبسلطان الأمراء من ناحية أخرى ، ومن ثم انقل حصر الإيمان إلى حصرتنا الزاهن حصر الشك وعلم الإيمان ، - فقد حول الناس مدار حياتهم من ملكوت الرب وأنحدرت الجنس البشرى إلى هذه الحقائق الماثلة بين أيديهم والأكثر في ظاهرها دوماً وحياة ، وهي فرنسا وإنجلترا والروميا القلمسة وألمانيا وبروسيا ، التي كانت حل الأكل تتجسم في شخص بلاطات ناشطة ، والتي كانت تحافظ حل القوانين ومظهر القوة بواسطة الجيوش والأساطيل ، والتي كانت تلوح برأياتها في هيئة جد ووقار تنمو لمرتبتها الجاه كما كانت راضة رؤوسها احتزازاً بالخمس همة منهم من لا يشبع بصورة منسقة عام الانساق مع الطبيعة الإنسانية .

ولامراء أن رجلاً من أمثال الكردينال ريشليو والكردينال مازارين كانوا يرون أنفسهم خطيئاً لغايات أعظم من غاياتهم هم ، ومن غايات ملوكهم ، إذ يطمعون فرنسا شبه القلمسة التي تصورها لم أغيلتهم . كما لامراء أيضاً أن هذه العادات العقلية اتسابت منهم إلى مروضهم وإلى هيئة الشعب العامة . وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان عامة السكان في أوروبا تتمسك بالدين ولم تكن وطنيتهم إلا شيئاً مهماً ، فما أن حل القرن التاسع عشر حتى أصبحوا وطنيين يكلبنهم . فلوحثت في حرية مزدوجة من حريات السلك الحبيدية الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية في آخريات القرن التاسع عشر ، أن شخصاً مخبر من الله لاستنار من العداوة قديراً أقل كثيراً مما تستديره السخرية بأحد من هاته المظروفات السجية : إنجلترا أو فرنسا أو ألمانيا . فللى هذه الأشياء نعلقت أذهان الناس ، نعلقت بها لأهم لم يبد في كل أنحاء العالم أى شيء آخر فتحت القوم بأن تتكلم به . ولذا كانت هي كلمة أوروبا بلغة الحياة

لقد رفضوا الحكومات ووزارات الخارجية إلى مضاف المثل العليا ، وحلوا منها
وطاظة ، هي وطاظة^(١) الدول ، وعجابتها وكراهياتها ومصلاتها ، واشتد تشيع خيال
لأوروبا وآسيا الغربية بها إلى حد أن كانت مصدراً تستقى منه أشكال تفكيرها .
ويكاد كل ما دون من التاريخ ، وكل الأدب السياسي في القرنين الأخيرين في أوروبا ،
أن تكون مكتوبة بنمط تلك اللغة والروح ، على أنه لا بد أن يأتي ذلك الزمان الذي
سوف يقرأ فيه جيل أوضح نظرة وأسمى بصيرة ويرى في شيء من الارتباك والحيرة ،
كيف حدث في المجتمع الأوروبي الغربي ، المكون في كل مكان (مع تنوعات طفيفة
جداً) من خليط عنصرى مشترك من الشعوب النوردية والأيبيرية وعناصر نازحة
سلمية ومغولية وهي تتكلم في كل مكان تقريباً لهجات محورة عن نفس اللسان
الآري ، ولها ماضٍ مشترك مشتمل في الإمبراطورية الرومانية ، ولشكال دينية
مشتركة ، وعادات اجتماعية مشتركة وفن وعلم مشترك ، وهي تتزوج فيما بينها
بحرية لا يستطيع إنسان معها أن يتكلم في أي عمق من جنسية (أي قومية) أي من
أولاد أحفاده ، كيف حدث أن كان في الإمكان أن تهيج في الرجل أقصى أنواع
الانفعال حول مسألة عظيمة فرنسا ، ونهضة وتوحيد ألمانيا ، وبعديات روسيا
واليونان المتنافستين على امتلاك القسطنطينية . وسوف تبدو هذه المنازعات عند خلق
غريبة لا سبب لها ، جنونية لا عقل فيها ، شأن ما اندثر ليلها من منازعات لا بينهما
الناس الآن أمثال التي اشتجرت بين الخضر والزرقي^(٢) ، الذين كانوا يملأون شوارع
بزنطة بالضجيج وسفك الدماء

وهذه الأطياف أغنى الدول عظيماً ما حطم تسلطها اليوم على عقولنا وحيواتنا
إنما هي - كما بين لك هذا الكتاب أوضح بيان - أمور لا ترجع إلى أقدم من القرون

(١) الرطاظة (Mythology) ، هي أسطورة أو حكاية تقليدية كبيراً ما تغير من حقيقت وأصلها
بداية لشعب بعينه ومن طريقة تفسيره لطوائف الطبيعة والتاريخية . (الترجم)

(٢) الخضر والزرقة : لفرقة زرادشتية قديمة من القسطنطينية كانتا تقاتل حرساً للبيعة . وكان
للزراع بينهما دائماً لا يتطعم (الفرقة ترمي كتاب الحضارة إلى الطبيعة في مجموعة الآلات كتاب) .

(الترجم)

الأخيرة قليلة بل هي مجرد ساعة واحدة أو دور عرضي في التاريخ المقصود المصمم لنوعنا البشري. وهي تسجل دوراً من أدوار الانكسار أو ضرباً من الانسلاخ من ركب التقدم ، ستما يسجل نهوض الملكية المكيافلية حالة تخلف وتقي عن سيطرة الركب . هي جزء من نفس دوامة العقيدة المضطربة المترددة تعرض سبيل اتجاهها العام وهو اتجاه أشد منها قوة وأبعد ما يكون عنها جملة وتفصيلاً : ألا وهو الاتجاه نحو الاتحاد الخلقى واللعنى للبشرية . لقد ارتد الناس حيناً من الدهر إلى أربابهم هؤلاء من قومية وإمبراطورية ولكن هذا لن يدوم إلا إلى حين . فإن فكرة « النولة العالمية » ومملكة الصلاح العظمى التي يصبح فيها كل كائن حي مواطناً ، كانت موجودة في العلم قبل ذلك بأقرب من السنين ، ولن تغادر العلم بعد ذلك قط . وإن الناس ليعطون أنها بين أيديهم وإن أبوا أن يتفروا بها . وإنك لتحص في كتابات وأحاديث الناس عن المثقون النبوية اليوم وفي المناقشات الجارية الدائرة الآن بين ظهراني المؤرخين والصحفيين السياسيين ، - كأنما بين يديك رجال ثمارون قد شرعوا يستيقنون ، ويدخلهم قهر شديد من استغاثتهم هذه . فهم لا يفتأون يتكلمون بصوت مرتفع عن « حجم » فرنسا و « كراهيتهم » ألمانيا وهي « سيادة بريطانيا العظمى في البحار » ، وهكذا وهكذا . . . شأن أولئك الذين يفتنون مترعين بكؤوسهم بالرغم من تواصل حبيب الاستماعة إليهم وخوفهم من زوال الخمار^(١) عنهم . وما تلك التي يخدمون إلا أرباب جنة . فإن الناس لا يريدون في البحر أو البر دولا تنقسم بالرفعة ، وإنما يصبون القانون والعلمنة . وإن ذلك التحلى الصامت الذي لا متلوحة منه ولا غير ، لموجود في أذهاننا وجود القهر وهو يبرز قه تمهلي وأناة ، ويظل ضياؤه خلال مصاريع حجرة مشوكة النظام .

٩ - جمهورية بولندية المتوجة ومصيرها

كان القرن السابع عشر في أوروبا قرن لويس الرابع عشر الذي كان هو وعظمت فرنسا والمرساي قطب الرضى في القصة . وكان القرن الثامن عشر بمثابة « قرن نهضة

(١) الخمر - كما ورد في العهد الربط : « ما غالت الإنسان من سكر الخمر » [الترجم]

بروسيا كدولة عظمى ، والشخصية الرئيسية في قصته هي فردريك الثاني ، اى فردريك الأكبر . ونجى قصه بولنلة مشفكة وتاريخه

كانت الشؤون في بولنلة ذات سمة خاصة وبولنلة بخلاف جيرانها الثلاثة لروسيا وبروسيا وملكنه آل هابسبورج في النمسا والمجر : لم تطور لنفسها ملكية عظمى . وغير وصف يوصف به نظام حكمها أن يقال إنه كان نظاماً جمهورياً له ملك ، اى رئيس يتخبط على الحياة . وكان كل ملك يتخبط على حدة . فكانها كانت في واقع الأمر أبلغ في روحها الجمهورية من بريطانيا ، ولكن روحها الجمهورية كانت أكثر أرسطراطية في شكلها . وكان لبولنلة تجارة طفيفة ومهنوعات قليلة للعدد ، وكانت قطراً زراعياً ما يزال به مساحات عظيمة للزراعة والغابات والأرض البراح ، فكانت لذلك قطراً فقيراً ، وكان أصحاب الأراضي فيها أرسطراطيين فقراء . وكانت حمرة سكانها فلاحين أذلاء جهلة جهلاء وحشياً ، وكانت تولى كللك جامعي خبيرة من اليهود الشديدي الإذفاق . وقد حافظت على عقيدتها الكاثوليكية . فكانها كانت — إن صح هذا التقدير — بريطانيا أخرى أرضية كاثوليكية فقيرة ، يكتنفها الأعداء من كل جانب مثل ما يكتنف البحر بريطانيا . ولم تكن لها على وجه الإطلاق أية نجوم معدودة ، فلا بحر ولا جبل . وبما زاد في مصائبها أن بعض ملوكها المتخفين كانوا حكماء أذكيا عدوانيين القزعة . فكان سلطانها يمتد شرقاً امتداداً ضيقاً إلى مناطق يسكنها كلها قروياً لروميون ، كما يشمل من ناحية الغرب بعض الرعايا الألمان .

ونظراً لأنها لم يكن لها تجارة عظيمة ، لم تنشأ لديها مدن عظيمة تقاس إلى مدن أوروبا الغربية ، ولا تكونت بها جامعات قوية تضم ثلث ذهابها بعضه إلى بعض . وكانت طبقتها النبيلة تعيش على ما كفله لها مزارعها ، دون الشيء الكثير من الاختلاط الشعبي . كانوا وطنيين القزعة ، ولديهم إحساس أرسطراطي بالحرية يتفق تماماً مع الإهتار المنظم الذي يمش فيه مولى أراضيهم — ولكن وطنيهم وحرمتهم كانتا غير قادرتين على إنتاج التعاون الفعال . كانت بولنلة يوم كانت الحروب أمر جمع للرجال والتحليل ، دولة قوية نسبياً ، ولكنها لم تستطع بأى حال أن تمنح تطوروات القرن

المسكبي الذي كان يتخلفن قوات دأمة من جنود محترفين ، المدة الصرورية في الحروب .
ولكنها على ما كانت عليه من الانقسام وقلة الاقتدار ، نستطيع أن نكتب في كتاب
حسابها بعض انتصارات جليلة بالذكر . فإن الهجوم التركي الأخير على فيينا (١٦٨٣)
قد قضى عليه الفرمان الهولنديون بقيادة الملك حنا سويسكي (الملك جون الثالث) .
(وكان هذا السويسكي نفسه قبل أن ينتخب ملكا ، أجيراً يتقاضى المال من لويس
الرابع عشر ، وكان قد حارب في صفوف السويسيين ضد وطنه) . ولا حاجة بنا
إلى القول ، أن هذه الجمهورية الأرستقراطية الضعيفة ، بانتخاباتها المتواركة الحدود
كانت تستدعي الطوائف من كل من جيرانها الثلاثة وكانت « الأموال الأجنبية »
وكل نوع من أنواع التدخل تصاب إلى البلاد عند كل انتخاب . وكان كل مواطن
هولندي ساخط منهم يمر - شأن الإغريق قديماً - إلى أحد الأعداء الأجانب ويصب
جام خصبه على وطنه الناكس الجليل .

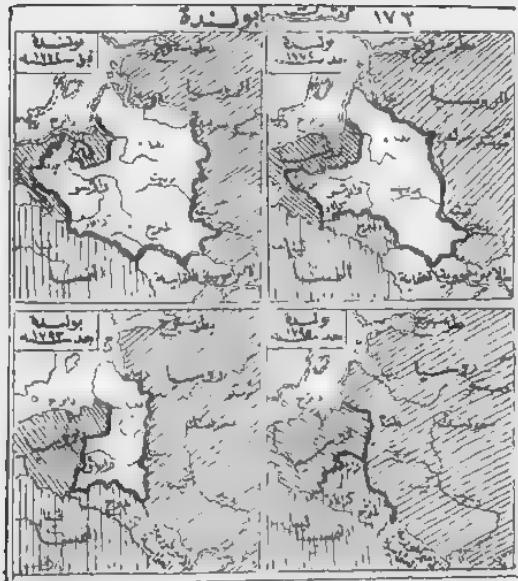
ولم تكن الملك الهولندي إلا سلطة صميفة جداً حتى بعد أن يتم انتخابه ، وذلك
بسبب خيرة النبلاء الهولنديين بعضهم من بعض . إذ هم شأن النبلاء الإنجليز كانوا
يفضلون الأجنبي ، ولأنه - نفس السبب - لم يكن له عماد من قوة أو عزوة يرتكز عليها
في البلاد . ولكنه خلاف البريطانيين لم تكن لحكومتهم نفس قوة التماسك التي كانت
تتميزها النبلاء البريطانيين الاجتماعات الدورية للبرلمان في لندن ، التي كانوا يسمونها :
« الحضور إلى العاصمة » . وكانت لندن مفتى المجهضات وما يطلوها من تجاج متواصل
بين المفكرات وبين أصحاب النفوذ من الأشخاص . ولم تكن لبلدية مدينة كلند ولا كان
فيها « هيئة اجتماعية » . ولذا فالواقع أنه لم تكن لبلدية حكومة مركزية على الإطلاق .
وما كان ملك هولندا يستطيع أن يعلن حرباً أو عقد صلحاً ، ولا أن يجبي ضريبة
أو يغير قانوناً دون موافقة مجلس اللدات ، (وكان لكل عضو بمفرده في مجلس
اللدات الحق في الاعتراض (Veto) على أى مقترح مطروح للبحث) . وما كان
عليه إلا أن يهتس ويقول « إنى غير موافق » فيسقط الموضوع ، بل إنه كان يستطيع
أن يحصل حقه في الاعتراض المطلق (Liberum Veto) إلى مدى أبعد من هنا . إذ
يستطيع أن يعترض على اجتماع المجلس ، وعند ذلك يحصل اللدات . فكان هولندا

لم تكن إذن مجرد جمهورية أرستقراطية متوجة مثل تلك البريطانية ، بل كانت جمهورية أرستقراطية متوجة مشلولة .

وكان وجود بولندية في نظر فريدريك الأعظم أمراً مثيراً يوجه خاص بسبب الطريقة التي كانت بها ذراع لبولندية تمتد إلى بحر البلطيق في دانزج ، وتفصل ممتلكاته الموروثة عن أجداده في بروسيا للشرقية عن أراضيه داخل الإمبراطورية . فكان هو من حرص كاترين الثانية قيصرية روسيا وماريا تريزا النمساوية - التي فاز باعترافها بهرماته لإياها من ميلنيزيا - على القيام بهجوم مشترك على بولندية .

واسمحوا الآن لخراطة أربع لبولندية أن تروى لكم القصة .

ويعد هذا الانتهاك الذي أصاب بولندية في (١٧٧٢) ، لم يفوئها تعبر كبير . إذ الواقع أن بولندية ولدت شعباً مناسكا في ليلة انحلالها . إذ حدث فيها تطور إن يمكن مريباً فقد كاد إلى ذلك جسيا سخفا في الطمير والأدب والفن . وشأ المؤرخون والشعراء بضة ، وقذف جانباً بالتصور القيم الذي جعل من بولندية دولة كلية واهنة . وألغى حتى الاعتراض المطلق ، وجعل النتاج وراثياً من أجل إيقاد بولندية من الملامرات الأجنبية التي كانت تصحب كل انتخاب ، وأنهم برلمان يحاكي البرلمان البريطاني . على أنه كان هناك مع ذلك عبود للنظام القديم في بولندية ، كرهوا تلك التغييرات الضرورية ، وطبيعى أن تعين الروميا وبروسيا هؤلاء المعترضين ، إذ كانتا لا ترغبان في نهضة بولندية . وجاء القسم الثاني ، وبعد كفاح وطني عنيف ابتدأ بالمنطقة التي سلبتها بروسيا ، ووجد في كوزكيوسكو (Kosciusko) ، زعيماً له وطلا وطنياً ، حدثت لزالة بولندية نهائياً من الخريطة . وبنا انتهى إلى حين من الزمان ذلك التهديد الألماني للملكية العظمى في أوروبا الشرقية . ولكن وطنية البولنديين تشتد تضرعها وتلافاً صفائهم لهذا الضغط . فلان بولندية ظلت مدة وعشرين سنة تكافح كفاح مخلوق مضطرب بالماء ، تحت تلك الشبكة السياسية



(شكل ١٧٢)

والعسكرية التي كانت تحكمها وتقل حركتها ثم هبت مائة في (١٩١٨) ضد نهاية الحرب العالمي .

١٠ - أولى تحالف على الإمبراطوريات وراء البحار

أدلتنا إليك ببعض البيانات عن ارتفاع فرنسا طوارج الرقعة في أوروبا ، وعن الاحتلال السريع لذلك السماء الرخو الذي تها الدولة الأسبانية وعن انفصالها عن

أفريقيا ، وقيام بروسيا . أما فرنسا والبرتغال وألمانيا وبريطانيا وهولندا ، فإن تنازها على الرعة في أوروبا قد امتد وتعد في كفاف على الممتلكات ورده البحر .

ذلك بأن اكتشاف قارة أمريكا وهي الضخمة اقلية السكان ، غير المتطورة والمكيفة تكيفاً زائماً لإقامة الأوروبيين واستغلالهم ، وما رافق ذلك من اكتشافات لمساحات عظيمة من الأرض البكر جنوبي المناطق الاستوائية الحارة في إفريقيا التي كانت حتى ذلك الحين تعد من معرفة الأوروبيين ، ثم التوصل على التصريح إلى معرفة أعالي جزيرة فيجي في البحر للشرق ، لم تحسبها حتى ذلك الحين المدنية الغربية ، — كانت بأكلها عملية عرض الهزات أمام أعين الإنسانية لم يسبق لها مثيل في التاريخ أجمع . وكأما ورثت شعوب أوروبا ميراثاً فاعراً باقياً . فإن صلهم تصاعف بصفة أربعة أضعافه . وكان لكل ما نرى بحاجته وقيصر . ولم يكن عليهم إلا أن يتسلموا تلك الأراضي وأن يواصلوا بها عيش الرأى ، وعند ذلك يتقدم ما هم عليه من فقر وتواضع تليد الحلم عند اليقظة . ولكهم ظنوا ذلك التراث الفاسد تلقى الورقة السحق الغربية . إذ لم يكن له لديهم من معنى إلا أنه طرف جديد تجل فيه للتزاحات العظيمة . ولكن أنى لنا ذلك المجتمع البشرى الذى يوتر الخلق والابحار على الموازنة ؟ وأي شعب في قصتنا بأجمعها تعاون قطع مع شعب آخر بينما كان يستطيع بأى ثمن أن يدبر المكابذ لإلحاق الضرر بذلك الشعب الآخر ؟ ابتدأت دول أوروبا الأمر « بادعاء » المديحيات الجنوبية للبوصة على الأقطار الجديدة . ثم تراءى بهم الأمر إلى منازعات مستفظة القوى . فإن أسبانيا صاحبة أول الادعاءات وأشدها ، والتي ظلت رديها من البحر « صيدة » ثلثي أمريكا ، لم تعد من ممتلكاتها بطريقة أحسن من أن تنزف دماء نفسها فيها إلى درجة الموت تقريباً .

ولقد ذكرنا كيف أن القابوية في آخر أدوار تمسكها بالسيادة العالمية ، قسمت القارة الأمريكية بين أسبانيا والبرتغال بدل أن تحافظ على الواجب المشترك لكل علم المسيحية بإنشاء حضارة عظيمة مشتركة في الأراضي الجديدة . وطبيعى أن يستخير ذلك حلوة الشعوب المهرومة . ومن ثم فإن رجال البحر الإنجليز لم يصيروا مديحيات الطرفين أى احترام ، ونصبوا أنفسهم ضد الأميان بوجه خاص . وحرك السويد

نزعهم البروتستانتية إلى تنوع من هذا القبيل . وما كاد الهولنديون يلقون عن أنفسهم نير أنيابهم الأسبان حتى نشروا قلوبهم عرباً ليسمحوا من البابا ، ويتألوا نصيبهم من خيرات العالم الجديد . فأما صاحب الجلالة الكاثوليكية الورعة ملك فرنسا ، فإنه لم يتردد إلا قدر ما يتردد أي بروتستانتي . فكانت كل هذه الدول مشغولة بتنافس في دعاويها على أمريكا الشمالية وجزائر الهند الغربية .

ولم تعد للمملكة للدانيمركية (وكانت آنذاك تضم النرويج وإيسلندة) ولا السويد شيئاً كثيراً جداً في هذا الحظاظف . فضم الدانيمركيون إليهم بعض جزائر الهند الغربية . ولم تصل السويد إلى شيء منها . وكان كل من الدانيمرك والسويد في ذلك الأوان غائصين في الشئون الألمانية . فقد ذكرنا آنفاً جوستاف أدولف « أسد الشمال » البروتستانتي ، وأشرنا إلى حملاته في ألمانيا وبولندة والروسيا . والحق أن هذه الأقاليم الأوروبية الشرقية تخص الطوائف المتصاعداً عظيماً ، وإن هذه القوة التي ربما كانت تكسب السويد قسماً عظيماً من العلم الجديد . قد حصلت لها محصولاً عظيماً من المجد في أوروبا . وسرعان ما سقطت تلك المستعرات الصغيرة التي أنشأها السويديون بأمريكا في أيدي الهولنديين .

وكتلك الهولنديون أيضاً ظنهم وقد شهدوا حيالهم الملكية الفرنسية تحت الكردنيال ويشلبو وتحت لويس الرابع عشر ، وهي تشق طريقها عبر الأراضي المنخفضة الأسبانية نحو مخومهم ، لم تكن إليهم المولود غير الملبدة ولا القوة المجهضة التي كانت بريطانيا من خلف بلج و بحرهما القضي « تستطيع أن تخلف بها في ميادين المغامرات وراء البحار .

وقضلا من ذلك فإن الجهود التي بذلها في صيل الحكم المطلق جيمس الأول ، وشارل الأول ، ووحدة شارل الثاني ، كان من أثرها أن دفعت خارج إنجلترا عدداً عظيماً من البروتستانت المتحمسين العقول ، بلجهموربي الروح ، وهم قوم أشداء ذوو وطنية قوية ولعلاق حية ، أقاموا في أمريكا ، وبوجه خاص في منطقة نيويورك ، بعيداً عن مثال الملك وشرائبه . فيما كانوا يظنون . ولم تكن السفينة « ماى فلوور » الأولى من السفن الأولى في قبض من سفن المهاجرين . وكانت من حسن طالع بريطانيا أنهم ظلوا تحت العلم البريطاني ، وإن كانوا مخالفين متشقين . فأما الهولنديون

فلم يرموا إلى أمريكا البتة مستقرين على نفس وفرة اللحد والرق ، وفك أولا لأن حكاهم الأسبان لم يكونوا بسحوا لم ، وثانياً لأنهم تملكوا بلادهم هم . ومع أنه حلت هجرة عظيمة للهوجوت البروتستانت لما اتوا عناب للراجوتاد واضطهاد لويس الرابع عشر ، فقد كان لم من هولندا والبلجربة ملجأ قريب . فانتقلت صناعهم ومهارتهم وجندهم وقناعهم إلى ذلك القطرين فكان هاهناهم وبخاصة البلجربة قوة أى قوة . وأسس القليل منهم المستقرات في كارولينا ، حل أن هله لم تستر فرنسية . فلها انتقلت إلى الأسبان أولاً ثم انتقلت آخر الأمر إلى الإنجليز . كذلك خصت المستقرات الهولندية ومها السويدية لبريطانيا . فأصبحت نيواستردام بريطانية (١٦٧٤) وتعدك اسمها إلى نيويورك ، كما قد يرى القارىء في كتاب واشنطن إيرفينج القمكة : « تاريخ نيويورك للجزء » . وتبين حال الأمور بأمريكا في (١٧٥٠) تيماً واضحاً جداً من خريطة كيفناها عن أخرى في كتاب « المصور الوسطى والحديثة » لروينسون^(١) . وقد تأسست دائرة النفوذ البريطانية على امتداد الشاطئ الشرقى من ساقانا إلى نهر سانت لورنس ، فلما نبولونديك وأراضى شمالية مرامية هي أراضي شركة خليج هلمون فقد اكتسبت من الفرنسيين بماهدة صلح . واحتل البريطانيون بربادوس في (١٦٠٥) ، وهي تكاد تكون أقدم ممتلكاتهم الأمريكية) ، واستحوذوا على جامايكا وجزائر جاما وهندوراس البريطانية من الأسبان . ولكن فرنسا كانت تطارد ميدياً عسكراً مزحجاً جداً ، وهو صيد يملو على الخريطة أشد عسكراً ولزاجاً منه في الحقيقة . فلها أنشأت مستقرات حقيقية في كويك ومونتريال في الشمال وفي يو أورليانز في الجنوب ، وتقدم مستكشفوها وملاحوا جنوباً وشمالاً ، يفتلون للماهدات مع الملود الأمريكيين بالسور السطيمة وضيغون المدحيات - دون أن يقيموا المدن - عبر القارة بأكلها خلف منطقة البريطانيين . ولكن حقائق الموقف لا تفتل على هذا النحر تمليلاً كاليا . فإن المستقرات البريطانية قد توطلت بها إلى أقصى حد إقامة طقة صلحة من الناس ؛ وكان عددهم يتجاوز بالفعل المليون . وما كان الفرنسيون في ذلك الزمان يذانون عشر ذلك البلد .

أجل كان لهم عدد من أذكىاء الرجال والمبشرين يعملون ناشطين ، على أنهم لم يكن من ورائهم مادة عظيمة من السكان .

وما يزال في الإمكان التطور على كثير من العلاقات القديمة لأمريكا في تلك الفترة ، وهي غرائط وضعت خصيصاً لإخافة البريطانيين واستكثرتهم حتى يقبها إلى «خط القرنين» في أمريكا . ونشبت الحرب في (١٧٢٤) . وفي (١٧٥٩) استولت القوات البريطانية وقوات المستعمرات بقيادة البحرال وولف على كويك وأتمت من فتح كنندا في السنة التالية . وما زالت (١٧٦٣) حتى كانت كنندا قد انتقلت نهائياً إلى أيدي بريطانيا . (على أن الجزء الغربي من إقليم لويزيانا الذي يكاد يكون لا حد له في الجنوب ، والمسمى باسم لويس الرابع عشر ، ظل خارج الدائرة البريطانية . فأخذته إسبانيا ، وفي (١٨٠٠) استردته فرنسا . ثم اشترته آخر الأمر (١٨٠٣) حكومة الولايات المتحدة من فرنسا) . وفي هذه الحرب الكندية ، حصل المستقرون الأمريكيون على خبرة جسيمة في فن الحروب ، وعلى علم بالتنظيم العسكري البريطاني عاد عليهم بعظيم المنفع بعد ذلك بزمن وجيز .

١١ - بريطانيا تسود الهند

لم يقتصر اصطدام الدولتين الفرنسية والبريطانية على أمريكا وحدها . بل إن أحوال الهند كانت في ذلك الزمان شديدة البخافية عظيمة القوة للمغامرين الأوروبيين . فإن الإمبراطورية المغولية الضليعة ، إمبراطورية بابر وأكبر وأورانغزيب ، كانت قد سارت في الانحلال شوطاً بعيداً . وما حدث كهذه كان موازياً ومماثلاً لما جد لألمانيا . فإن المغول الأكبر ، شأن إمبراطور الدولة الرومانية القديمة في ألمانيا ، كان ما يزال صاحب السيادة العليا شرعاً ، ولكنه كان بعد وفاة أورانغزيب ، يتولى سلطة اسمية ليس غير ، اللهم إلا في المنطقة المحيطة مباشرة لعاصمته . وقد حدث نهوض عظيم في المعنوية وفي الروح الوطنية . ففي الجنوب الغربي ثار على الإسلام شعب هندوكي هو المارانا (Maharatta) ، وأعاد للإرهابية حياة مائنة . ثم بسطوا سلطانهم حيناً من الدهر عرق مثل الهند الجنوبي بأجمعه . ونهوض حكم الإسلام في راجهستانا

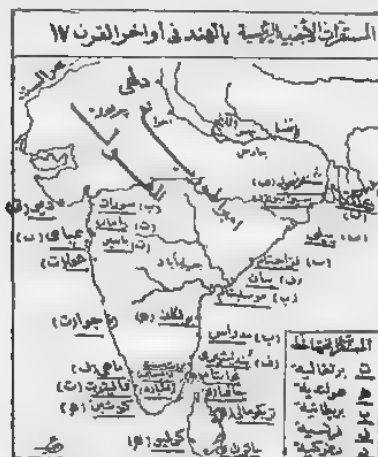
أيضاً وحلت محله الرحمانية ، وكان يحكم في سورتور وفي جايبور ، أمراء
 راجهوتانيون أقوياء . وكانت في أوده مملكة شيعية عاصمتها لكهنو . وكانت البنغال
 كذلك مملكة إسلامية منفصلة . ونشأت في بلاد البنجاب للقصبة في الشمال هيئة



(شكر ١٧٨٠)

دينية شائعة جداً هي المسيحية : الذين أعطوا أن الحكم العام لرب واحد وهاجوا انجيلها
 الهندوكية و القرآن الإسلامي على السواء وكان المسيحية في الأصل طائفة سلم ما لبثوا أن

احتلوا حلو الإسلام^(١) وحاربوا - موقعين أنفسهم في أول الأمر في أشد الكوارث - أن يرسوا مملكة الرب عبد الحسام . وفي هذه اصد المسبة المتبللة المتألفة القوضي وإن كانت ماهضة قوية حيوية ، سقط للفرور (١٧٣٨) غار من الشمال ، هو بادرشاه (١٧٣٦ - ٤٧) حاكم فارس التركاني ، الذي انتاب بجيوشه هارباً ممر خيبر ، موقفاً بكل جيش اعترض طريقه ، واستولى على قطي ونهبها ، وحمل من غنائم هائلة . وخلف شمال الهند معطاً ياماً إلى حد أن عدد عارات الهب الأخرى المتأجحة في العشرين سنة التالية لم يقل عن ست عارات في شمال الهند أنت جميعاً من بلاد الأفغان ، التي أصبحت دولة مستقلة عند وفاة بادرشاه . وواصل الماراثا محاربة



(شكل ١٧٥)

(١) سبق أن بدأ من عهد التتعة في العهد الثالث من الملام من ٦٦٢ هـ (١٢٦١ - ١٢٨١) -

ط ١) فيرجع إليها القارئ في موعده . (المراجع)

زماناً وزمام التجارة الهندية ملك خاص ليهم ، ويزت لشونة الهندية كسوق للأطوايه الشرقية . ومهما يكن من شيء . فإن القرن السابع عشر شهد الهولنديين قابضين حل هذا الاستكار . وكان للهولنديين وهم في أوج قوتهم مستقرات عند رأس الرجاء الصالح ، هنا إلى جزيرة موريشوس ، وإلى مؤسيتين في فارس ، والتي حشرة في الهند ، وست في سيلان ، وكانوا قد ثروا بحطامهم الحصنة في كل أرجاء جزائر الهند للشرقية . ولكن ما أبدوا من عزم أناني على حرمان التجار من أجنبية من الاستفادة من تجارة الشرق ، ألبأ الهولنديين والناحريين والفرنسيين والإنجليز إلى المنافسة العدائية . فكانت أولى الضربات التي كبلت لاستكارهم وراء البحار ، تلك التي وجهها بليك الأميرال الإنجليزي الجمهوري في المياه الأوربية . وكان كل من الإنجليز والفرنسيين عند مفتح القرن الثامن عشر في نزاع ومنافة قوية للهولنديين على التجارة والامتيازات في كل أرجاء الهند . وأنشأ الإنجليز مراكزهم الكبرى في ملراس وبمباي وكلكتا ، وكانت المستقرات الفرنسية الرئيسية هي بوندشيري وشانتو ناجبور .

وفي بادئ الأمر ، كانت كل هاته الدول الأوربية تأتي بوصفها مجرد متعرجين ، وكانت المؤسسات الوحيدة التي يحاولون تشييدها هي المخازن . ولكن حالة البلاد غير المستقرة ، والطرق غير الشريفة التي كان يقعها مناصوم ، جعلت تحصيلهم أنفسهم وتسلحهم شيئاً طبعياً ، وجعلهم هذا التسلح طغاء جلايين في أعين الأمراء المتنوعين المتقاتلين الذين كانت تضم الهند آنذاك بينهم . وكان مما يتواء تماماً وروح السياسة القومية الأوروبية الجديدة ، أنه ما يكاد الفرنسيون ينفسون إلى جانب ، حتى يجب أن ينحاز الإنجليز إلى آخر . وكان الزعم في الجانب الإنجليزي هو روبرت كلايف ، المولود في (١٧٢٥) والذي وصل إلى الهند في (١٧٤٣) . وكان خصمه الأكبر هو دوپيه . ولكن قصة هذا الكفاح الذي استغرق النصف الأول من القرن الثامن عشر أطول وأشد من أن يتسع لها هذا المكان . ولما وافت (١٧٦١) نظر الإنجليز وإفا لهم السيادة الكاملة على شبه الجزيرة الهندية . وغازت جنودهم في بلاسي (١٧٥٧) وبوركسر (١٧٦٤) بانتصارات رائعة فاصلة حل جيش البنغال وحيش أوده . وكان المصير الأكبر ، صاحب السيادة عليهم اسماً ، قد أصبح في الحقيقة ألويهم الحاضرة .

وكانوا يجهون الضرائب في مساحات عظيمة ، وكانوا يحتمون دفع الضرائب جزاء
لأية مأساة حقيقية أو خيالية .

على أن هذه الانتصارات لم تحرزها أيدي قوات ملك إنجلترا مباشرة ، بل فازت
بها شركة الهند التجارية ، التي ما كانت في الأصل حين إنشائها في حكم الملكة
إليزابيث ، إلا شركة من المهاجرين للحريين . واضطروا خطوة فخطوة أن يجمعوا
الجنود وأن يسلحوا سفنهم وعند ذلك وجدت هذه الشركة التجارية بما لها من تقاليد
الكسب والربح ، أنها لا تتجر فحسب في الأكوابه والأصباغ والشاي والخواهر ، بل
في الإيرادات الأمراء ومطبخاتهم وفي مقدرات الهند . جاءت لتشتري وتبيع ، ووجدت
نفسها تصيب قرصة هائلة . ولم يكن هناك من إنسان يتحدى تصرفاتها . أعجيب إذن
أن قادتها وضباطها وموظفيها ، كلا بل كتبها وجنودها الهاديين ، كانوا يعودون
إلى إنجلترا عمليين بالغنائم ؟ إن رجالا في مثل هذه الظروف وتمت رحمتهم أراضى
عظيمة غنية ، لا يستطيعون أن يميزوا بين ما يجوز أن يفعلوه وما لا يجوز . كانت
في أعينهم أرضاً عجيبة ذات شمس عجيبة الضياء . وكان سكانها السمر القاتمون
جنساً غليظاً ، يخرج عن محال عطفهم . وكانت معايلها ومبايها تبدو كأنما تضم
أركان حايير السلوك وهمة مخيفة .

وكانت خواطر الإنجليز في بلادهم تضطرب وتنبيل عندما يعود هؤلاء القادة
والموظفون إلى بلادهم ويتراشقون ياتهم السوءاء ما بين ابتزازات وقساوات . وأصلح
البرلمان قراراً بأرم كلايف . قضى على نفسه انتحاراً في (١٧٧٤) . وفي (١٧٨٨)
حوكم وارن هامستجس وهو مدير عظيم آخر الهند وقضى بهرأته (١٧٩٢) . وكان
ذلك الموقف موقفاً غريباً لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم . لأن البرلمان الإنجليزي التي
تحمه بحكم فوق شركة لندنية للتجارة ، كانت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم
وأكثر سكاناً من كل ممتلكات التاج البريطاني . وكانت الهند في نظر كتلة الشعب
الإنجليزي أرضاً شاسعة خيالية مخيفة لا يكاد يستطيع الوصول إليها . لم يذهب إليها
إلا أفراء الثيaban من المهاجرين ليعودوا إلى وطنهم بعد سنوات كثيرة سادة سبن أغنياء
جداً حادى الطبع جداً . وكان من الصبر على الإنجليز أن يتصوروا ماذا يمكن أن

تكون عليه حياة ملايين البشر الذين لا يحصرهم عدد في ضياء جسر الشرق . وكانت أعمالهم تأتي عليهم حل هذه الصورة . عطلت الهند شيئاً غير حقيق يشابه في غرابته الروايات الرومانسية ومن ثم كان من المستحيل على الإنجليز ، أن يقيموا أى إشراف ورقابة فعالين ، على تصرفات الشركة .

١٢ - تقدم الروسيا إلى المحيط الهادى

وعلى حين كانت شبه الجزيرة القطبية في الجنوب من آسيا تقع على هذا النحو تحت سلطان التجار البحريين الإنجليز ، كان يحدث في الشمال رد فعل آخر لأوروبا على آسيا معادل لذلك عظيم . ولقد سبق أن نبأنا القاري كيف استردت الدول المسيحية في الروسيا استقلالها من الرقطة (الحشد) الصيني ، وكيف أصبح قيصر الروسيا سيداً على جمهورية نوفجورود ، وأعبرناك في القسم الخامس من هذا الفصل عن بطرس الأكبر وهو ينضم إلى جماعة الملوك العظام ثم يسوق الروسيا في الواقع إلى أوروبا سوقاً . ونهوض هذه الدولة الكبرى التي تتوسط العالم القديم والتي لا هي بالشرقية تماماً ولا هي بالغربية تماماً ، نهوض ذو أهمية قصوى لقد رأينا الإنسانية . كذلك نأنتك في الفصل ذاته عن ظهور شعب مسيحي في السهوب ، هم القوزاق الذين كانوا حطاً فاصلاً بين زراعة بولندية وهنغاريا الإقطاعية من ناحية الغرب وبين التتار من ناحية الشرق . وكان القوزاق يمثلون شرق أوروبا المتوحش ، وكانوا في كثير من الوجوه لا يختلفون كثيراً عن القسم الغربي المتوحش في الولايات المتحدة إبان منتصف القرن التاسع عشر . فكل من ألتحق عليه صدر الروسيا حتى لم تعد تطيق أن تؤويه ، من أمثال المجرمين ثم الأبرياء المضطهدين ، وموالي الأرض الثالين ، وأعضاء الشيع الدينية ، والعنصر ، والأقارب والفقرة ، كانوا يلوفون بملجأ السهوب الجنوبية ، ثم يبدون حياتهم من جديد ويقاتلون من أجل الحياة والحرية ضد كل من الهولنديين ، والروسين ، والتتار على السواء . ولا مرة في أن لاجئين من التتار في الشرق كانوا ينضمون كذلك ويقيمون في حشد خليط للقوزاق . وكان أكبر هذه القبائل المرحلة الجديدة ، قوزاق أوكرانيا على نهر الدنيبر وقوزاق الدون على نهر الدون . وضمت

جولاء القوم على الحدود في بطء إلى الخلع الإمبراطورية الروسية ، على نفس الطريقة التي تم بها تحويل عشائر الأراضي المرتفعة (هابيلاند) في اسكتلندا إلى فرق أنشأتها الحكومة البريطانية . فتصروا أراضي جديدة في آسيا . فأصبحوا مسلحاً ضد قوة المغول المترجلين المضمحلة ، في التركستان في مبدأ الأمر ، ثم عبر سيبريا حتى نهر الصامور .

والحال الطاقة المغولية في القرن السابع عشر والثامن عشر أمر يصير علينا جداً أن نضمره . فلم ينقصر قرنان أو ثلاثة على أيام چانگيز وتيموولك ، حتى انحدرت آسيا الوسطى من فترة رقة عائلية إلى حالة كلال ووهن سياسي مفرط . ولعل تنبؤات في المناخ ، وأوبئة لم يسجلها التاريخ ، وعدوى من طراز يشبه الملاريا ، قد قامت بدورها في هذا التأخر الذي لم يشعوب آسيا الوسطى ، والذي ربما لا يكون إلا تأخرًا مؤقتاً إذا غلبت إلى معيار التاريخ العام . ويظن بعض النضات أن انتشار التعاليم البوذية من الصين إلى تلك الأصقاع كان له أيضاً أثر مهمل في نفوسهم . ومهما يكن من شيء ، فلم تعد شعوب التتار والترك المغولية عند حلول القرن السادس عشر محافظة على ضبطها نحو الخارج ، بل تحولت بهم الحال ، فأصبحوا هم اللذين يُغزون ويكفرون ويُسفكون إلى الخلف من كل من الروسية في الغرب والصين في الشرق .

وظل التوزاق ينتشرون نحو الشرق طوال القرن الثالث عشر من الروسية الأوروبية ويستقرون شيئاً تيات لم الظروف الزراعية . وكانت نطاقات من الصحينات والخطات تقوم مقام الخصوم المتحركة هذه المستقرات في الجنوب ، حيث كان التركمان لا يبرحون أفواه للشطين ؛ ومع ذلك فإن الروسية من الجهة الشمالية الشرقية لم تكن لها خصوم حتى وصلت إلى المحيط الهادئ نفسه . وكانت الصين في نفس الوقت في دور اتساع . إذ أن الغزاة المانشو ، بواقي الشؤون الصينية طاعة جديدة ، وأدى اهتمامهم بمناطق الشمال إلى توسع شالي عظيم لحضارة الصين وسلطانها في كل من منشوريا ومنغوليا . وهكذا حدث عند منتصف القرن الثامن عشر أن

تلاص (١) الروميون والصينيون في مغوليا . وكانت الصين في تلك الفترة تحكم
التركستان الشرقية ، والتبت ونيبال ، وبورما وأنام .

وكان عصر المانشو في الصين فترة نشاط أدبي جسيم أيضاً ، مماثل لمصور نظراتهم
في أوروبا وإن استغل عنها الاستغلال كله ، فإن الرواية الصينية والقصة الصينية القصيرة
ارتفعتا إلى مستويات عالية في الأسلوب والإمتاع ، وحدثت للدرامة الصينية تطورات
هامة . وصورت مناظر أرضية ممتازة كثيرة ، واخترعت للطباعة بالأنوان ، وعلم
الناس الحفر على النحاس من المرسلين اليسوعيين ، ولارتقى صنع الحرف (البورسلين)
الصيني إلى درأ لا مثيل لها من الرفعة . ولكن السمة الحاصلة لهذا الحرف انحطت
مع تقدم الزمن بالقرن الثامن عشر بسبب مسارعة القمعانية إلى تكييف أنفسهم
طبقاً لما كانوا يعنونونه الفوق الأوربي . وتواصل التصغير طيلة هذا القرن كله إلى
المراتب والقصور والصور الريفية التي للنبلاء والأعيان الأوربيين . وقلدت صناعة
الحرف الأوربية المتجات الصينية ونافستها ولكنها لم تنفعا قط . وابتدأت أيضاً بحارة
الشاي الأوربية .

سبق أن ذكرنا غزواً يابانياً للصين (أو بالحري لكوريا) . ولا تلعب اليابان
لها هذا علوانها هذا على الصين ، أي دور في تاريخنا قبل القرن التاسع عشر فإنها -
شأن الصين تحت حكم أسرة منج - قد نصبت نفسها في حزم وهزم ضد تدخل
الأجانب في شئونها . فكانت قطراً يخفى فدما في ظل حياته الحضارية الخاصة .
وهو غنوم غنياً محارباً ضد كل تدخل . وقد حدثناك عنها بالزور اليسير حتى
الآن لأن كل ما لدينا كان ذلك الزور اليسير . فإن تاريخها الجميل الجلاب الرومانس
الشعري يقف بمنزل عن الدرامة العامة للشئون الإنسانية . كالك سكانها في معظم أمرهم
من المنول ، بهم مسكة من شب أبيض شائق جداً يوحى بطراز نوردي بلدي ،
هو الأينو (Ainu) المشرون في الجزائر الشمالية . ويلاحظ أن مدنيتهما قد استمدت

(١) تلاصت الأشياء : تلاصت وتلاصت به أن كانت منفصلة .

كلها تقريباً من الصين وكوريا ، وأولها تطور خاص للنسب الصيني وكتابتها تكيف
الكتابة الصينية

١٣ - رأى جيون في العالم في ١٧٨٠

كنا ندافع في هذه الأقسام الاثني عشر السابقة عصر فرقة واصنام ، وقوميات
معرفة . وسبق أن شبا تلك الفترة في القرنين السابع عشر والثامن عشر بفترة ، عطل
وحظوا من الدعم الأعلى توقف فيها تقدم البشرية نحو وحدة تم العالم أجمع . وقد
حرمت حقول الناس طوال هذه الفترة من كل ، فكرة مرحلة جامعة ، فإن قوة دفع
الإمبراطورية قد بلغ من إحباطها أنه الإمبراطور لم يعد يريد عن فرد بين جماعة
من الأمراء المتنافسين ، كذلك ذهب حكم ، عالم المسيحية ، أذراع الرياح ، وكانت
الدول المتطورة تتدافع بالمتناكب في كل أرجاء العالم فاطية ، وانقضى حين من الدهر
كان يبدو أنه سوف تنقضي تتدافع بالمتناكب إلى ما شاء الله دون أن نعلم
بالإساسة أنه نازلة عظيمة . وقد وسعت المكتشفات البحرية العظيمة في القرن



الثامن عشر الموارد الإنسانية إلى حرجة
أنه بالرغم من انقساماتهم ، وبالرغم من
كانت تجره الحروب والسياسات على
شعوب أوروبا من حصاره وفتنباغ ،
فإن تلك الشعوب استتمعت بظلال
رغبات جسم متزايد . وراحت أوروبا
الوسطى تنقسم انتقاماً مطرداً مما حل
بها من جراء حرب الثلاثين سنة .

وإذا نحن القنا إلى التحلف نظرة

لدى تلك الفترة التي بلغت دروتها في القرن الثامن عشر ، كما قد نستطيع أن

(شكل ١٣٧) فريزر

تعمل ذلك اليوم ، ورأينا أحملها بالعلالة إلى القرون التي صيغها ،
 وإلى الحركات العظيمة في الزمن الحاضر ، استطعنا أن ندرك كم كانت
 أشكالها السياسية موقرة غير دائمة وعرضية طارئة وكم كانت ضئافاتها غير
 ثابتة . كانت لاجرم عرضية طارئة على صورة لم نسبق لأى عصر آخر ،
 وكانت عصر تمثل وإبلا لبل هي كانت توطأ سياسياً ، وتجميعاً لفكرات البشر
 وموارد العلم توطئة لجهود إنسانى أرحب . على أن العقل المعاصر لم يرها حل هذه
 الصورة . فإن إغناق الأفكار الخلاقة للعظيمة بشكلها الذى صيغت فيه في القرون
 الوسطى ، حاد الفكر الإنسانى حيناً من قديم عروما من عداية الأفكار الخلاقة ،
 فإن المتعلمين وذوى الخيال للتسيح أنفسهم كانوا يرون العالم بطريقة عارية من كل
 روعة ، فلم يعد في نظرم مكاناً تتفاعل فيه الجهود والمعاثر بل مشهداً تنتمس فيه
 التفاصيل القاترة حسن الجزاء . ولم يكن أصحاب العقول المحافظة والقائمة هم وحدهم
 الذين كانوا يضيئون - في علم حافل بالتنفريات السريعة - أكتاف هذا الاطستنان
 الذى يحزم ببلوغ الشؤون الإنسانية مرحلة الثبات والاستقرار . بل لقد أظهر نفس
 الفزعة أصحاب الفطن القوية المناقضة والثائرة ، وذلك لاحتناع وجود أى حركات
 تنم روح المجتمع وتشد أزره . فلهم أحسوا بأن الحياة السياسية تغيرت ولم تعد على
 ما كانت عليه من الصلبة الفاجعة ، فلها أصبحت كوميدياً مؤدبة . وكان القرن الثامن
 عشر قرن كوميدياً أصبحت في النهاية عابسة جهمة . ولا يكاد يتصور العقل أن ذلك العلم
 علم منتصف القرن الثامن عشر كان في طوله أن يتفج عظمه من أمثال يسوع الناصرى
 ولاجوناثا ولا لمرئيس الأيبسى ، ولا إغناطيوس ليولا . فلو استطاع الإنسان أن
 يتصور وجود جون هس آخر في القرن الثامن عشر ، فإن من المستحيل عليه تصور
 وجود أى إنسان لديه ما يكفى من الحمية لإحراقه . فلل يوم بدأت حركات يقظ الضمير
 بريطانيا التي تطورت إلى نهضة المهاجرين (Methodists)^(١) لانكاد تلمح في أوروبا
 أية بارقة شك تشير إلى أنه ما تزال توجد بين يدي مجنونا وأجهات عظيمة لا بد له

(١) المهاجرون ، مبلت مدينة كبيرة تملك من الحركة الإنجيلية التي لم يها دارل وجرن وويل
 في القرن الثامن عشر . (الترجم)

من إنحائها ، ولا أن اضطرابات هائلة كانت على الأبواب ، ولا أن اضطراباً لا حصر لها كانت تفتش بالسُّدة والظلام طريق الإنسان في الزمان والقضاء ، وأن قطعه لذلك الطريق لا بد له من أن يظل حتى النهاية جهداً عظيماً وريياً .

هاوندا في هذا التاريخ مرة بعد أخرى الاقتباس من كتاب «اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها» لجييون . ونحن الآن على أن نقف من آخر مرة ثم ستوده الله ، ذلك أننا وصلنا إلى العصر الذي كتب فيه ذلك الكتاب . ولد جييون في ١٧٣٧ ، وحصل آخر جزء من تاريخه في ١٧٨٧ . على أن لفقرة التي كتبها كتب فيما يرجع في ١٧٨٠ . كان جييون شاباً رقيق الصحة متوسط الثراء ، نال في أوكسفورد تعليماً جريئاً مقطوعاً ، ثم أمّ حواسه في جنيف ، وكان اتجاهه اللغوي في حياته فرنسياً حولياً أكثر منه بريطانياً . وكان كبير التأثير بالغزو العقلي للفرنسي العظيم الذي يشتهر باسم فولتير (فرانسوا ماري اربيه دي فولتير ، ١٦٩٤-١٧٧٨) . كان فولتير مؤلفاً هائلاً لبلد ولتشر ، فإن سبعين سقراً له تزين رفوف كتاب هذه السطور ، وهناك طبعة أخرى لمؤلفات فولتير ترفع العدد إلى أربعة وتسعين سقراً ، وكان أكثر ما يعالجه شئون التاريخ والشئون العامة ، وترسل مع كتابه العظيم قصيدة الروميا وفرديك الأكبر ملك بروميا ولويس الخامس حشرومظم الرجال البارزين في ذلك الزمان . وكان إحساس جييون وفولتير بالتاريخ قويا ، وكلاهما قد وضع آراهما في الحياة الإنسانية على أكل وأوضح وجه ، وواضح أنهما كليهما كانا يريان أن النظام الذي كانا يعيشان به وأسمى به نظام الملكية . ونظام الطبقات الرقبة الناعمة بالفراغ والامتيازات ، ونظام الأقوام المحضرين قريبا أصحاب الصناعة والتجارة ، ونظام العملة والفقراء والعمال المنحوسين بالأنعام والمنازل منزلة الإهمال ، كان يبدو أثبت طريقة للحيش وأما العالم طوال الدهر . فاعتفا سادئ الجمهوريين إلى حين ، وأحلا بسخراد من الإدعاءات المقدسة للملكية ، ولكن الروح الجمهورية التي راقت فولتير كانت «الروح الجمهورية المتوجه» في بريطانيا أثناء ذلك الزمان ، التي كان فيها الملك مجرد الرأس الرسمى ، وأول الاختلافية واحظهم .

وكان المثل الأعلى الذى يرفعان لواءه وبناءه هو المثل الأعلى القاتل بوجود علم مؤدب مهذب يكون فيه الرجال - وأخفى بهم الرجال ذوى السجايى العالية ، إذ ليس لقب هولاء وزن - في حجل من أن يكونوا قساة أو خلافاً أو متحمسين ، وتكون فيه مرائى الحياة فسيحة البغبات رشيقه الموائى ، والخشية من هزو الناس أقوى معين للقانون على صيانة السلوك اللائق وضروب التوازن والانسجام فى الحياة . وكان فولتير يعمل فى صدره استعداداً للكره المتوقد للظلم ، وما تدخلاته فى نعمة من يضطهدون أو يساء إليهم من الرجال إلا الأنوار الساطعة فى قصة حياته المديدة المنقطة . وإذا كان هذا هو الليل النحيف لدى جيرون وفولتير ، ولدى المصر الذى كانا يعيشان فيه ، فإن من الطبيعى لئسهما أن يحيا فى وجود الديانة فى العلم وبخاصة وجود الديانة المسيحية ظاهرة مريكة محيرة لا يكاد يوجد لها ما يبررها . وكان ذلك الجانب من الحياة ينمو لها فى مجموعه نوعاً من الخيل فى الكيان الإنسانى . وما ذلك التاريخ العظيم الذى ألقه جيرون إلا مهاجمة للمسيحية فى جوهره ، بوصفها السبب فى الحال للندهور والسقوط . فكان مجمد بلونوتوقراطية^(١) روما القسجة الفليظة ويتخذ منها مَكَلًا عليها حاول أن يثبتها فى عالم مكون من جنتانية مختلفين نشأوا على حرار القرن الثامن عشر ، كما بين كيف أن سقوطها أمام هجمات البرابرة القداميين من الخارج جاء نتيجة لقسادها الداخلى من جراء المسيحية . وقد حاولنا فى كتابنا التاريخى هذا أن نقيم معالم تلك القصة تحت ضياء أحسن وأحسن . وكان فولتير يرى فى المسيحية الرسمية « شنة L'infamie » ، وشيئاً يحد من حياة الناس ، ويتدخل فى أفكارهم ، ويضطهد المئات الذين لا يضررون أحداً . والواقع أنه لم يكن فى فترة السطى والخلو من النافع الأعلى . هذه إلا أثر ضئيل جداً من النور أو الحياة فى أى من مسيحية روما (الملكية) أو كنائس روسيا الأرثوذكسية الخاضعة وكنائس الأمراء البروتستانت . وكان من الصبر على الإنسان فى فترة هذا « الخلو من الدافع الأعلى » الذى يثقل الجوف فيها وجود كثرة من الأساقفة المذاهبين والمتساوسة المكررة - أن يدرك

أى نيران توقدت جرتها يوماً ما في قلب المسيحية ، وأى نيران من الشهوات السياسية والدينية لعلها ما تزال ممكنة للتوقد في قلوب الناس .

وأم جيون في نهاية سفره الثالث يباه عن تصدع الإمبراطورية الغربية . ثم تسأل عند ذلك هل تصاب الدنيا يوماً ما بانيار يماثل ذلك ؟ وأدى به ذلك إلى استعراض حال الفشتون الحاضرة له (١٧٨٠) وإلى مقارنتها بحال الأمور أثناء اضطهاد روما الإمبراطورية . وعنى أن من المناسب جداً لخطتنا العامة في هذا الكتاب أن نقبس هنا بعض فقرات من تلك الموازنة ، فما من شيء يستطيع أن يوضح خيراً منها الحال العقلية لدى المحركين المحررين في أوروبا إبان بلوخ ، فترة العطف والخلو من النافع الأهل ، في عصر الدول الكبرى أوجها من الناحية السياسية . وذلك قبل ظهور أول بوادر تلك القوى العميقة السياسية والاجتماعية ، قوى الضكك التي أتت في النهاية حالة التساؤل المستوفقة للنظر الموجود في عصرنا هذا .

كتب جيون من الانيار الغربي يقول : « ربما طبقت هذه الثورة الرهيبة تطبيقاً تاماً يعود بالهزة والعبء الثقيلة على عصرنا الحاضر . فلما من واجب الوطني أن يؤثر ويذكر مصالح وعهد وطنه وحده دون أى شيء حله . على أنه ربما أيسر للفيلسوف أن يوسع وجهة نظره ، وأن يعد أوروبا جمهورية واحدة عظيمة ، أو شك سكانها المتوحدون أن يصلوا إلى نفس المستوى من التأديب والتأديب . وسوف يستمر توازن القوى في التراجع ، وسوف يتطور على رخاء ملكتنا أو الملك المجاورة لها غير النحر ما بين تمام وتلك » ، على أن هذه الأحداث الجارية لا تستطيع بالضرورة أن تسددها بما يحرح سعادتنا العامة ، وأعلى بملك مجموعة القرون والقوانين وآداب السلوك ، التي تحيز الأوروبيين واستمراهم من الحس البشرى نخباً له جلواه العامة . فإن شوب الكرة الأرضية المتوحشين هم الأعداء المشتركين للجماعة الإنسانية المملنة ، ولما تسامل في تطلع الفتيق أما تزال أوروبا مهتدة بتكرار تلك التنازل التي سبق أن ألت بقوى روما ونظمتها . وربما وضحت نفس التملات سقوط تلك الإمبراطورية الجارية وشرحت الأسباب المحتملة لحالة الطمانينة النفسية التي نحن عليها اليوم .

« كان الرومان بمجهلة لدى الخطر المحقق لهم وعدد أعدائهم . وكانت المناطق وراء الراين والمانوب أى الأقطار الشمالية لأوروبا وآسيا غرامة بنهال لا يحصيها حصر من الصيادين والرعاة وهم قتلوا جشمون جياشون بالثورة والصبيان ، متصمون بالحرارة عند اشتباك القتال وهم أشوق ما يكونون إلى انهبان غار الكلدان والحد الذى ينقله من مجاورهم من شعوب عاملة . كان الظلم المتبرير يضطرم بدافع الحرب السريع الجياش ، وكان سلام بلاد الغال أو إيطاليا يتزلزل بما يثور فى الصين من ثورات . فراح الهون الذين كانوا يعمرون أمام عدو مظفر ، يمحطون وجهتهم الغرب ، وتزايد السيل وطبا يمن كان يضم إليهم من الأسرى والأحلاف . وانحلت القبائل الحاربة التى خضعت للهون ، روح اللزوم بدورها ، وكان طابور البرابرة الذى لا نهاية له يصفط على الإمبراطورية الرومانية بقوة منجمعة متكاثفة . ولئن دُمر الأولون منهم ، لقد كان المكان الشاغر يملؤه على القور مهاجون جدد . وليس فى المستطاع بعد ذلك أن نجى من الشمال مثل هاته الهجرات الغاثية . فأما السكود الطويل الذى يعزى إلى نقص عدد السكان ، فهو النتيجة السعيدة لتفهم الفنون والزراعة . فبدلاً من ألا تقوم بألمانيا إلا بصع ترى خشنة متاثرة تثاراً بعيداً وسط غاباتها ومستنقعاتها ، فإن ألمانيا تُصدر اليوم قائمة بالهبن وثلاثة مائة مسورة ، وتأسست على المنحدرات شمالاً الدنا عارك والسويد وهولندا المسيحية . ومد تجار الهانسا ومعهم الفرسان الشيون مستعمراتهم على امتداد ساحل بحر البلطيق ، حتى خليج فنلندا . ومن خليج فنلندا حتى المحيط الشرقى ، تصعد الروميا الآن شكل إمبراطورية قوية ممددة . ويستقيم الممرات والمواول والكور إلى ضفاف الفولغا والأوبى والينا ، وعُلِّمت أشد قبائل التار شراسة كيف ترتعد وتطيح .

« وكانت إمبراطورية روما راحة اليان بسبب تضام أعضاءها القويدين الكامل . ولكن هذا الاتحاد اشترى بضياع الحرية القومية والروح العسكرية ، وكانت الولايات الليلية وهى تملو من الحياة والحركة ، تتوقع أن تكون سلامتها على يد الجيوش والحكام المرتزة الذين كانوا ياتعمرون بأوامر بلاط بعيدة لشقة . وكانت سعادة مئة مليون من الأنفس تتوقف على الجندارة الشخصية لرجل أو رجلين ، ربما كانا طفلين من

أبعد عقولهم طراز تربيتهم وترفهم وسلطتهم الاستبدادية . وأوروبا اليوم متسعة إلى
 اثني عشرة مملكة قوية وإن تكن غير مصادلة ، ثلاث منها إمبراطوريات عظيمة ،
 هذا إلى حشد من الدول الصغرى ، وإن كانت مستقلة . فالفرص أمام مواهب الملوك
 والوزراء تضاعفت ، وذلك على الأقل بقدر تكاثر عدد حكامها . وربما تولى الأحكام
 في الشمال جولان آخر (أى مردريك الأكبر) أو صيراميس أخرى (يعنى كاترين
 الكبيرة قيصرية روسيا) ، على حين يظلب المجلس من جهة أخرى على أركادوس
 (لويس السادس عشر) ، وهو توريوس (شارل الثالث ملك أسبانيا) ، الحالمى
 على عرش آل بوربون . وقد أوفقت مساوى الطرفين عند حدها نتيجة لا للخوف
 والطمع من تأثير متبادل . فاكتملت الجمهوريات النظام والنيات ، وانطلوت
 الملكيات على مبادئ الحرية ، أو مبادئ المقصد والاحتفال على آخر تقدير ، ودسل
 إلى أشد المتاعب نقصاً شياً من معنى الكسوف والعدالة بفضل ماساد الزمان على
 الجملة من خلق حسن . وفي زمن السلم كانت سرعة تقدم العرنا والفتاحة تزداد
 بتنامى مثل هذا الحجم من التباين النشط . وفي زمن الحروب سهرس القوات
 الأوربية بتضال معتدل غير حاسم . علو حرج من صحراء التنازع متبرر ، فلا بد له
 من أن يفتح على التوالى فلاحى روسيا الأشده ، فجيوش ألمانيا العائده ، فبلاد فرنسا
 الشجعان فرجال بريطانيا الأحرار الحريى الحاد ، الذين لهم بحالقون من أجل
 دفاعهم المشترك . ولو أن البوابرة الظفرين حلوا الاسترقاق والتدمير حتى المحيط
 الأطلسى ، لثقت عشرة آلاف من السفن ضايا الجماعة المندة إلى حيث لا تنالا
 أبدىهم ، وعند ذلك تقتضى أوروبا مدمرة في العالم الأمريكى للى « مسحراتها ونظمها .

• والبرد والفقر وحياة المعطر والمتاعب تطلع على قوة البرابرة وشجاعته منته
 وحصانة . ولقد كانوا في كل عصر كلاً يوقع فادح المتاعب على أهل التأدب والسلام
 من أم الصين والهند وفارس ، الذين أهلوا وما يزالون يهلون أن يقيموا لأنفسهم
 عماداً يوازن تلك القوى الطبيعية بالاتجاه إلى موارد القن الصكرى . وكانت للدول
 الحربية اللزعة في الأرمان القديمة أمثال الإغريق ومقدونيا وروما ، تمتلئ حساً من
 الجنود ، فتمرن أجسامهم ، وتنظم شجاعته وتكثر من عددهم بما يحدث في قواتهم

من تطورات منظمة ، وبحول ما في حوزتها من حديد إلى أسلحة منية نافعة . ولكن هذا الاستعداد الحربى ما لث أن الحظ بالتدريج وبشكل غير محسوس يظهر قوانينهم وآداب سلوكهم . وأدت السياسة الضعيفة التى اتجهوا فيها قسطنطين وخطاؤه إلى تسليح للثورة البرابرة وتدريب شجاعتهم الحسنة على فنون القتال ، - فماد ذلك على الإمبراطورية بالخراب . ولقد غير اختراع البارود كل أصول الفن العسكرى ، والبارود يطوح للإنسان السيادة على أقوى عوامل الطبيعة شكية وهما الهواء والنار . ووضعت علوم الرياضيات والكيمياء والميكانيكا والمعمارة فى خدمة الحرب ، وأخذ كل خصمين متنازعين يطبقان على بعضهما البعض أحكم طرائق الهجوم والدفاع . وربما لاحظ بعض المؤرخين فى شيء من الغضب أن نفقة معدات الحصار قد تكفى لتأسيس مستعمرة مزدهرة والحفاظ علىها . ومع ذلك ليس فى استطاعتنا أن نتكبر لأن نخرب مدينة حمل لابد أن يتكلف ثمناً غالياً وأن تعرضه صعوبة كبيرة ، أو أن شعباً مجداً يجب أن نحصد ثمره ، التى تبقى بعد فناء والحلال الفضيلة العسكرية والتى تكون من عوامل ذلك الفناء . فالآن نهض المدافع والتحصينات حاجزاً منيعاً فى وجه خيل القتار ، كما أن أوروبا أسست بآمن من أية غارة مستقلة يشنها البرابرة ، إذ أنه يجب عليهم قبل أن يلقوا ويقهروا أن يشغلوا أولاً عن مجيئهم .

« فإن ماورك الثلك فى هذه الآراء ، أو تبثت خطأها ، فما يزال هناك مصدر متواضع الراحة والأمل . فإن مكتشفات الملاحين القدامى والمصريين والتاريخ الداخلى أو التخاليد لأشد الشعوب استقارة ، - تظهر المتوحش الإنسانى عارياً فى كل من جسمه وعقله ، وعجرباً من القوانين والفنون والفكرات ، بل من اللغة تقريبا . ومن هذه الأحوال الرؤيصة ، ولعلها على وجه العموم حالة الإنسان البدائية ، ارفع الإنسان شيئاً فشيئاً ، إلى السيطرة على الحيوان وإلى تسميد الأرض ، وإلى اختراق بطات المحيط ، وإلى قياس أطباق السماوات . وكان تعلمه فى تحسين وتدريب مواهبه العقلية والجسمية متروكاً غير منتظم ، بطيئاً بطناً لا نهائياً فى البداية ، متزايد السرعة بعد ذلك متضاعفاً درجة فدرجة . وكفى ثلث عصور الرهبة المضيق لحظات التحمل

مرجع . وأحست أجراء الكرة الأرضية المختلفة ظلمات النور والظلام . على أن خبرة أربعة آلاف سنة ، يجب أن توسع آفاق آملنا ، وأن تهمل من مخاوفنا . ولستنا بجاهدين أن يبلغ الكمال . على أنه من الممكن أن يفكر المرء وهو على جانب الآفة أن شعباً واحداً لن يتكسب إلى حالة هيجت الأصلية ما لم يتغير وجه الطبيعة .

هـ فقد اكتشف الفنون لأول مرة بثت الحروب والتجارة والحياة الدينية بين متوحشى الأزمان القديمة والعالم الجديد ، تلك الهبات التي لا تخدر ، بأن طغفت تنشرها نشرأ متعاقباً على الأجيال ، وإذا غلبت في الإمكان أبداً أن تزول . ولذا فإننا نستطيع أن نوافق على ذلك الاستنتاج السار القائل بأن كل عصر في العالم قد زاد وما يزال يزيد - في الثروة الحقيقية والسعادة والرفاه الذي يجنس البشرى وورثها زاد في نصيبه أيضاً .

١٤ - الهداة الدينية تشارف نهايتها

ومن أمتع مظاهر قصة أوروبا هذه في القرن السابع عشر ومستهل الثامن عشر ، أثناء دور الملكيات العظمى والبرطانية ، حانرا من الاستسلام التقي في العمال والفلّاحين . والظاهر أن نيران المصيانات التي شبت إبان القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر قد خمدت تماماً . ذلك بأن بعض التسويات الخشنة القمجة خففت من حدة الخلافات الاقتصادية في الفترة السابقة ، إذ أحدث اكتشاف أمريكا انقلاباً وتغيراً في معيار الأشغال التجارية والصناعة ، وأدخل إلى أوروبا فلرا ضخماً من المعادن النفيسة فصنعت قهراً ، وزاد في العمل ونوعه . واتسعت أسباب الشقاء إلى حين . ومرحين من الزمن لم تعد فيه الحياة والصلب شيئاً لا يطلق عند حماهير الفقراء . ولكن لم يحل هذا بالطبع دون وجود الكثير من الشقاء والظلم الفردي ، أن كان الناس يعيشون وإلى جوارهم على مدى الدهر كله الفقراء ، يد أن هذا الشقاء والظلم كان موزعاً متناثراً . فأصبح من ثم مهمة لا تصل إلى الآذان

وكان لحوام الناس في الفترة السابقة فكرة بقبولون حولها وهي فكرة الشيوعية المسيحية . وقد وجدوا في أمثال ويكليف من القساوسة والعلماء المشتهين قيادة مثقفة .

وإذا أن الحركة الداعية إلى نهضة في المسيحية استغذت قوتها ، وإذا أن العقيدة الثورية تكفمت في زعامتها عن يسوع الناصري إلى الأمراء البروتستانت ، فقد نصب مابين ذلك حماساً والتفاعل الذي تبا بين الأذهان الجديدة للطبقة المتعلمة وبين الأذهان الأمية . ومهما تبلغ ضخامة عدد الطبقة المهيضة الجانب ، ومهما يبلغ التطرف بشقاوتها ، فلن يكون في إمكانها القيام باحتياج فعال حتى تصل إلى التكل بواسطة تكوين فكرة عامة تجمع شمل أفرادها . لأن أصحاب الأذكار من مستوى للرجال وللقباء أئمة وأشد ضرورة لأية حركة ميسبة شعبية منهم إلى أية عملية ميسبة أخرى . فإن الملكية تعلم الحكم من طريق الحكم ، وإن للأوليبركية - من أي طراز كانت - لتعلماً تتفاه من إداوتها للشون ، ولكن ليس لدى الرجل العامي وأغنى به الفلاح أو الكادح أي تجربة في الشون الكبيرة ، فهو لا يستطيع أن يعيش ميسباً ينير خطمات المتعلمين وإخلاصهم ولاشادهم . فالإصلاح الديني أي الإصلاح الديني الذي نجح ووثق ، وأغنى به الإصلاح الديني للأمراء ، قد قضى بتعطيله للوسائل والفرص التعليمية على العالم الفقير وطبقة القسوس فضاء كبيراً وهم الذين جعلوا الإصلاح ممكناً بإقتناعهم بالجمهور .

هنا ولم يفك أمراء الأقطار البروتستنتية أن يدركوا منذ البداية أي عند ما استولوا على الكنائس الوطنية ، ضرورة الاستعداد على الجامعات أيضاً . وكانت فكرتهم عن التعليم هي فكرة الاستيلاء على أذكى الشبان واستخدامهم في خدمة سادتهم . وكان التعليم يعد حنكاً فيما وراء ذلك شيئاً ضاراً . وعلى ذلك لم يبق للفقير إلا وسيلة واحدة للتعليم هي الاستعانة بنصر يأخذ بيده . ويدهي أن جميع الملكيات المتعلمة كانت تشجع التعليم بطريقة هي بالمهرجانات أشبه ، فيها أقيمت الأكاديميات والجمعيات الملكية ، ولكن هذه الأوضاع لم تعد إلا طبقة صغيرة من العلماء متلاضمين ، وكانت الكتب كذلك تعلمت ألا تنق في المتعلم الفقير . كذلك حدث في الجمهورية العظيمة الاستعمارية الموجهة في بريطانيا ، نفس التناقص في الفرص التعليمية . ويقول هاموند في بيانه عن القرن الثامن عشر : « إن كلا من الجامعات القديمة ، كانت للأغنياء . وهناك قرية في ماكولي نصف حالة أكسفورد وما كانت عليه من بلغ

وأبته عند غنم القرن السابع عشر ، و عندما جلس مديرها اللوثي أورموثد الولود في ثيابه الوشاة على عرشه تحت السقف المشغوش في المسرح الشطرنجى^(١) ، يحيط به مئات من المتخرجين كل في ثياب رتبته ، حل حين كان يقدم إليه أنبل شيان إنجلترا في دعة ووقار بوصفهم طلاباً للدرجات الشرف العلية . لقد كانت الجامعة قوة ، لا بالمعنى الذى يمكن أن يقال به تلك الكلمة عن جامعة مثل جامعة باريس القديمة ، التى كان العلم فيها يستطيع أن يعمل البوابات يرتعدون لمرقاً ، بل بالمعنى القائل بأن الجامعة كانت جزءاً من الجهاز الأرستقراطى المعترف به . وما كان يصدق عن الجامعات ، كان يصدق عن المدارس العامة^(٢) . فلم يكن للتعليم في إنجلترا عهد عجيب ، بل مهد هيئة من الناس ، وليس مهد دولة ، بل مهد جنس من الحكام الملاك^(٣) . وكانت روح التبشير الدينى قد طارت التعليم في كل أرجاء أوروبا . وإلى هذا ، بل وأيضاً إلى تحسن الأمور بانتشار الرخاء ، ينسب طور الاستسلام هذا الذى ران على الطبقات الدنيا . فلأنهم قد عاينوا عقوبهم وألصقتهم ، وكان الطعام يقدم إليهم وكفى . وكان المجتمع أشبه شيء بمجىون مسلوب الحيوية في أيدي الطبقة الحاكمة .

وفضلاً عن ذلك فقد دخلت تغييرات جسيمة حل ما بين الطبقة والطبقة من تناسب . ومن أشق الأمور التى حل الموزج أن يقفوها في مجتمع ما ، تقدير القيمة النسبية للأُملاك الكلية ، التى تملكها في أى وقت أية طبقة خاصة في ذلك المجتمع . فإن هذه الأمور تغلب قلباً سريعاً جداً . وتلك حروب الفلاحين في أوروبا على دور تركز نسبى للأُملاك في أيدي فئة من الناس بينما تشعر جماهير من الناس أنها قد شردت عن أُملاكها وفصلتها حالة من السوء مشتركة . وبذلك تنهض خطة العمل الجمعى . وكان هذا هو الزمان الذى تسنمت فيه أسرة الفوجير^(٤) وأمثالها مرات للرفعة والرفاهية ، وهو زمان مالية دولية . ويبدو أنه قد صاحب الاستيراد المائل للذهب والفضة والطلع إلى

(١) المسرح الشطرنجى : نسبة إلى طبرت شطرنج ريمس أساقفة كليربورى في ١٦٦٣ بناء على نطقه بألفورد وقد صممه المهندس ون . (القرن جيم)

(٢) المدارس العامة Public Schools : هي المدارس الثانوية . (القرن جيم)

(٣) أسرة فوجير Fuggers : أسرة سوابية من التجار كانت تعيش في أميزبرج وبلغ من ثروتها أن كانت تطلق أسبائلاً حل جلوس ملوك ألمانيا السكينة . (القرن جيم)

أوروبا من أمريكا ، هو هذا لحالة لراه أوسع التشاراً بين الأفراد . وكان الفقراء حل
 حلهم التي هم عليها من الشغل والتماسة ، ولكن لم يكن هناك فقراء بمثل العدد
 الأول نسبياً ، كما أنهم كانوا مقسمين إلى أضرب عديدة من الطوائف التي لا نجسها
 أفكار مشتركة . فلما في بريطانيا العظمى ، فإن الحياة الزراعية التي فككها وزلزل
 أركانها مصادرات الأملاك إبان الإصلاح الديني ، قد استمرت من جديد في نظام زراعة
 المستأجرين يعيشون من دون ملاك للأراضي عظام . وإلى جوار هذه المزارع
 الكبيرة ، كان ما يزال يوجد أراضي كثيرة مشاعة لرعى سائمة القرويين الأفقرين ،
 كما كان هناك أراضي كثيرة تزرع قطعاً على أساس الملكية المشتركة للمجتمع .
 فلما للرجل المتوسط الحال ، وحتى النوع الأفقر منه من الرجال المرتبطين بالأرض ،
 فكانوا يعيشون عبثاً مطاعاً مقبولا في (١٧٠٠) . فإن مستوى الحياة وأخى به
 فكرة ما قد يطلق من العيش ، كان مع ذلك في ارتفاع أثناء سهل عهد الملكية
 العظمى . وبعد إنقضاء آن من الزمان ، تبدل على تركر الزود واتجاهها إلى أهل
 وكانا قد استوتفت . فإن ملاك الأراضي العظام أخذوا يضعون أيديهم على الأراضي
 ويطردون الزراع الأحرار الأفقرين ذرافات ، وتزايدت من جديد نسبة الفقراء
 ونسبة القوم اللذين كانوا يشعرون بأنهم يعيشون حياة من يحمل هم الفقر : وكان أكابر
 الرجال هم حكام بريطانيا العظمى اللذين لا ينازعهم منازل ، فغصبوا أنفسهم لإصدار
 قوانين - هي قوانين السياجات (The Enclosure Acts) - وهي التي كانت
 تنفص إلى مصادرة الأراضي غير المسوطة والأراضي المشاع ، لمصلحة كبار ملاك
 الأراضي قبل كل إنسان . وانحدرو صغار الرجال إلى مرتبة الأجراء كاسي الأجر
 بعرق البولين في الأراضي التي كانوا يملكون فيها في أحد الأيام حق القلاحة والرعي .
 ولم يصل القلاحة في فرنسا وأوروبا عامة إلى مثل هذه اللدوجة من الحرمان من
 ممتلكاته . فلم يكن هؤلاء هو صاحب الأرض بل الجاني ، فكان يُلغى إلى أرضه
 دفياً بل أن يدفع إلى خارج أراضيهِ .

وسمى مضي العهد بالقرن الثامن عشر يتضح لنا من ادب ذلك الزمان : أن
 معالجة شأن الفقير ، عادت فشلت أذعان الناس ثانية ، فلذا نجد كتاباً من متوقفي

الأدعان بين الإنجليز من أمثال ديفو (١٦٥٩ - ١٧٣١) وفيلدنغ (١٧٠٧ - ١٧٥٤) ،
 يفكرون أمن التفكير في هذه المسألة . ولكن لم يحدث حتى ذلك الحين انتماش
 الأفكار الداعية إلى الشيوعية والمساواة الموجودة في المسيحية البدائية . شأن ما كان
 يميز أورمان ويكلييف وهس (Hues) . فالدروتسناوية عند تمزيقها للكنيسة العامة ،
 مزقت روحاً من الزمان فكرة الفلاسف العام ، وحتى لو صح أن الكنيسة العامة في
 القرون الوسطى فشلت مثلاً تاماً في تحقيق تلك الفكرة ، فإنها كانت على كل
 حال رمزها .

وكان ديفو وفيلدنغ رجلين أوتيا خيالاً عملياً أشد نشاطاً من خيال جيون ، فأدركا
 شيئاً من العمليات الاقتصادية التي كانت قائمة على قدم في زمانها ، وكنكث شأن أوليفر
 جولد سميت (١٧٢٨ - ٧٤) ، فإن قصيدته « القرية المهجورة » (١٧٧٠) ليست
 إلا منشوراً في موضوع السياجات متكرراً في زى قصيدة . ولكن ظروف جيون لم
 تظهر قط الحقائق الاقتصادية أمام ناظره ظهوراً تاماً جلياً . فإنه كان يرى السلم في
 صورة كفاح بين التبربر والمدنية ، على أنه لم يدرك شيئاً من ذلك النزاع الآخر الذي
 كان (جيون) يظفوفقه ، وهو ذلك الكفاح الصامت غير المدرك ، كفاح عامة الناس
 ضد الرجال القادرين الأقوياء الأثرياء الأثابيين . فلم يدرك تجميع عوامل الضغط التي
 أركنت للظور أن تعصف بكل التوازن القائم بين « ممالك الإثني عشرة القوية غير
 المصادلة » أعني بين « إمبراطورياته المحترمة الثلاث » وما حولها من السفلة والرحائف
 من أصاغر المستعمرات من الأمراء والأدواق الحكام ومن إليهم . وحتى الحروب
 الأهلية التي ابتدأت في المستعمرات البريطانية بأمريكا ، لم توقظه إلى إدراك قرب
 نشوء ما نسميه اليوم « بالديمقراطية » .

وقد يظن القارئ بما قلنا بقوله حتى الساعة عن دفع الملوك العظام للمزارع
 الضعيف والفقير إلى خارج الأراضي ، وعن انصاف أرض المشاع وتركيز العقار
 في أيدي طبقة قوية شرمة ذات امتيازات ، أن ذلك كان كل ما يحدث في الأراضي
 الإنجليزية في القرن الثامن عشر إذ الواقع أنا اقتصرنا على ذكر أسوأ نواحي التغيير . وفي
 نفس الوقت الذي كان يحدث فيه هذا التغيير في الملكية ، كان يحدث تقدم عظيم في

الزراعة . وليس هناك إلا القليل من الفلك في أن طرائق الملاحة التي يستعملها
الملاحون ووضعوا اليد على الأرض والمزارعون الصغار ، كانت طرقاً عتيقة بالية
مضحية بالجهد وغير متجة نسيئاً ، ولأن الملكيات والمزروعات الخاصة الكبيرة التي
خطتها قوانين السجلات كانت أكثر إنتاجاً بكثير من الطرق القديمة (يقول حجة من
القضاة إنها كانت تنجح حشرين ضعفاً) . فلربما كان التغيير أمراً ضرورياً ، على أن ما فيه
من الشر لم يكن راجعاً إلى حلوله ، بل إلى أنه إنما حدث لكي يزهد الأثرياء
ثراء والفقراء عدداً . أما مثاله فإن المالك الخاص الأكبر قطع الطريق مودتها مختصاً
بها نفسه . فوَقعت المصخرة على المجتمع وإن استفادت هذه الطبقة القليلة العظيمة .

وهنا نبلغ واحدة من أعظم مشاكل حياتنا في الزمن الحاضر ، وهي مسألة
انحراف ثمار التقدم ومكاسبه عن طريقها للطبقي . فقد انقضت مئات من السنين -
ظهر فيها بتأثير العلم والبحث بوجه رئيسي ، تحسن متواصل في طرائق إنتاج
كل شيء - مخرباً محتاج إليه الإنسانية . فلو أن إحصاءات بالجماعة وعلمنا الإحتياج كنا
معادين الواجبات المعروضة عليها ، فلن يكون هناك أدنى شك في أن هذه الزيادة
الكبيرة في الإنتاج ، كانت تعود بالنفع على المجتمع بأكمله ، وكانت تتيح لكل فرد
قلواً من التعليم ووقت الفراغ والحرية لم تحلم الإنسانية قط بمثله من قبل . ولكن على
الرغم من أن مستوى المعيشة للعالم قد ارتفع ، فإن الارتفاع تم بمعيار صغير غير مناسب .
إذ أن الأغنياء طوروا لأنفسهم حرية وثراً لم يسدهما العالم من قبل ، كما تزايدت
نسبة الأضياء والخالدين من الناجحين وغير المتحسين في المجتمع ، على أن هذا يفضل
في تعطيل النفع الكامل المستفاد . إذ حدث ثمة كثير من المضحية التي لا غائلة تنجى من
ورائها ، فإن تجمعات هائلة من المادة والطاقة قد أنفقت في الحرب والاستعداد
لها ، وكمرس شيء كثير من الجهد في سبيل تلك الجهود غير الجديبة ، التي تنفق
في المنافسة القاسية في الأعمال التجارية . وظلت إمكانيات كبيرة بلا تطوير وتنمية
بسبب ما أبداه الملاك ومحتكرو السوق والمضاربون من معارضة لاستغلال الإقتصاد .
ولم تتناول العمليات التي ظل العلم والتنظيم يقربانها إلى تناول يد الإنسانية - تناولاً

منهاجاً^(١) ولم تستعمل إلى أقصى حدودها ، ولكن تحافظها الأبدى وتحافظها الأصابع -
ولاستمك بها لغامرون المقامرون واستخدمت لغايات أثنائية تمت إلى الغرور بسبب .
وكان القرن الثامن عشر في أوروبا وبوجه أخص في بريطانيا العظمى وبولندة عصر
للملكية الخاصة . وكان القتلح الملل فيه « يسمى الخاص »^(٢) الذي معناه في المارمة
العملية أن لكل فرد الحق في الحصول على كل شيء يستطيعه من أشغال المجتمع -
ولسنا نعرف في الروايات العادية والمسرحيات وما إليها من الأدب الملل لزمان على
أى إحساس بالترام الأفراد بأى شيء نحو الدولة في شئون الأعمال . إذ أن كل
إنسان منطلق « لتكوين ثروته » ، وليس هناك من ينكر أن من الملل أن يظل
الإنسان طفلياً على المجتمع غير منتج ، وأهل من هذا أن يشعر ماني أو تاجر
أو صاحب صناعة ، أنه يتناول لقاء خطماته الإنسانية لجراً أكثر مما ينبغي . كان
ذلك هو جو الزمان الملل . وهؤلاء اللوردة والمجتمعاتية اللين كانوا ينظفون أنفسهم
الشعب للشاع ، يفترضون امتلاك المشايخ التي تحت أراضهم ، ويحطمون صغار
المرارمين للملاك^(٣) والقلاحين حتى يصلوا إلى مرتبة الأجواء المصلين ولم تكن
تخافهم بعد هذا كله أية فكرة إلا أنهم إنما يعيشون حيناً جلييراً تماماً بكل كرامة
واستحقاق .

وكان يساير هذا التغيير في بريطانيا العظمى ، أقصى هذا الانتقال من فلاحية
الرقاع التقليدية والمراعى المشتركة إلى الزراعة الكبيرة الأكثر اعتماداً على العلم -
تغيرات عظيمة جداً في صناعة السلع . وكانت بريطانيا العظمى في القرن الثامن عشر
زحمة العلم في تلك التغيرات . فعلى ذلك الحين وعلى مسار التاريخ أجمع منذ بداية
الحديث ، كانت المصنوعات والمباني والصناعات في أيدي أرباب الحرف على وجه

(١) منهجياً : Methodically : أى منسجاً بترتيب المنطق في البحث العلمى . (الترجم)

(٢) الخاص الخاص أو المملد الفردى : Private Enterprise : جهود الأفراد في التجارة والأعمال الحرة .

(الترجم)

(٣) صغار المرارمين للملاك : Yeomen : وكانت ملكيتهم على حيلهم فقط أو محمولات يهود .

(الترجم)

معهم تفريق الإنسانية جـ ٤ -

المعوم وفي أيدي صغار الملمين (الأسطونات) الذين كانوا يشتغلون في بيوتهم الخاصة . وكانت تنظمهم نقابات ، وهم في معظم الأمور سادة أنفسهم وأصحاب أعمالهم . فكانوا يكرهون طبقة وسطى جوهرية مستديرة لها وزن . وكان بينهم المملون الذين كانوا يخرجون الأموال وما إليها ، ويزودون خبرهم بالتعليمات ، ويأطون السلطة التي تتم ، هل أنهم لم يكونوا محولين كثيراً . فلم يكن هناك أصحاب مصانع أخصياء ، بل كان أخصياء العلم قبل ذلك فزمان هم أصحاب الأراضي العظيم أو سلفوا القود أو المارمون لشئون القود أو التجار . ولكن حدث في القرن الثامن عشر أن بدأت طريقة جديدة هي تجميع مصانع بعينها وغبة في إنتاج أشياء بمقادير أكبر بطريقة توزيع نظائى للعمل ، وشرح صاحب العمل مجزأ من العلم (الأسطى) في أن يكون شخصاً هاماً . زد على ذلك أن الاختراعات الآلية أعطت نتج الآلات التي تسهل عمل الإنتاج اليدوى وتيسره ، والتي كان في الإمكان دفعها بقوة الماء ثم القود بقوة البخار . إذ ركب في (١٧٦٥) آلة وات Wall البخارية ، وهو تاريخ عظيم الأهمية في تاريخ الحركة الصناعية . وكانت صناعة القطن من أوائل المصانع التي تحولت إلى الإنتاج في المصانع (وكان ذلك في الأصل بواسطة آلات تنقلها المياه) وتلى ذلك صناعة الصوف . وفي نفس الوقت بدأت صناعة صهر الحديد إلى فحم الكوك المصنوع من الفحم الحجري وكانت حتى ذلك الحين تقتصر على أساليب صغيرة تعتمد على الفحم الباقى ، وابتدأت مصانع الفحم والحديد كذلك في الانتشار . وانتقلت صناعة الحديد من أوفس ساسكس (Sussex) وسرى (Surrey) المليئة بالغابات إلى مناطق الفحم . ولما ولدت (١٨٠٠) كان هذا الانقلاب في الصناعة قد صار شوطاً صالحاً وانتقل بها من الاتاج الضيق بما يصحبه من أصحاب الأعمال الصغار إلى الإنتاج الكبير في كتف أصحاب أعمال كبار . فنشأت في كل مكان مصانع تستعملت الماء بادئ بدء ثم تمت بقوة البخار . كان تغيراً ذا أهمية جوهرية في الاقتصاد البشرى . ومنذ فجر التاريخ كان صاحب المصنع وصاحب الحرفة كما قلنا نوعاً من أهل المدن أبناء الطبقة الحرفية .

فالآن حلت محل مهارته الآلة وصاحب العمل ، فأما هو فإنه أصبح إما

صاحب عمل يستخدم إبعاده ، ويرى درجات الغنى إلى حد التناوى بالطبقات
الغنية الأخرى ، أو ظل صاملاً وانحط سريعاً إلى مستوى العامل الأجير ،
ويعرف هنا التغير العظيم في القوتون الإنسانية باسم الانقلاب الصناعى أو الثورة
الصناعية . وقد بدأ ذلك الانقلاب في بريطانيا العظمى وظل ينتشر طيلة القرن التاسع
عشر إلى العالم أجمع

ومع تقدم الزمن بالثورة الصناعية ، انفتحت قوة عظيمة بين صاحب العمل
للتستخدم لغيره والعامل المستخدم الأجير . ففى الملقى كان كل عامل « منتج » بمعنى
النفس بأن يصبح يوماً ما معلماً (أسطى) مستقلاً . وبلغ الأمر بأصحاب الحرف الأرقاء
في بابل وروما أن كانت تحميم قواتين كانت تمكنهم من إختيار المال وشراء
حريتهم وإقامة عمل مستقل لأنفسهم . أما الآن فقد أصبح المصنع وحده وآلاته شيئاً
ضخماً باهظ الثمن ، بالقياس إلى قلعة الصانع المالية . ولما صار ثراءً على الأغنياء
أن يجمعوا لينشئوا متروعا . وكان الاتقان ومعدات المصنع وأحق بهما رأس المال ،
لازمين مطلوبين . ولم تعد إقامة الصانع « عملاً مستقلاً بنفسه » مطمئناً طليحاً لمهنة
الصانع . ومن ثم أصبح العامل منذ ذلك الحين عاملاً من مهنه إلى لحده . ونشأت عند
ذلك بالإضافة إلى أصحاب الأراضي والتجار والمالين الذين كانوا يمولون الشركات
التجارية ويفرضون أموالهم للتجار والقوة ، نشأت عند ذلك هذه القوة الناتجة من
رأس المال الصناعى - ومن شرب جديد من القوة في الثورة .

وإنما يحدث ذلك عما قليل ، كيف نهضت تلك القدييات حتى بلغت غمامها . وكان
الأمر المباشر للثورة الصناعية فيها حلت به من القطار ، أن أسست إستقالاتها ومرة
عظيمة بين حوام السكان الصناعيين غير المتعلمين الذين لا زعيم لهم والذين أصبحوا
الآن محرومين من الأملاك سرمانا يزايد أكثر فأكثر . فلما صار المزارعين
والفلاحين - وقد قضت عليهم قواتين السياجات وأخرجتهم من أراضيهم - فلهم
انتقلوا إلى المناطق الصناعية الجديدة ، وهناك انضموا إلى حارات أصحاب الحرف الذين
عضهم القناعة وانحطت مكانتهم في المصانع . وظهرت في الوجود مدن كبيرة مكدنة
من منازل قلعة . وما نزال أن إنساننا لاحظ في وضوح ، ماذا كان يحى في ذلك

الزمان . فالفكرة الأساسية لأرباب ملعب « المعنى الخاص » هي أن يلزم كل امرئ شأنه ، وأن يحصل على أقصى ربح في مسطاعه ، وأن يفضل كل ما عدا ذلك من حوالب . ونمت مصانع فيحة الشكل ، بنيت بأرخص ما يمكن من نفقة ، لتضم أكبر عدد ممكن من الآلات والمال . وتجمعت حولها شوارع تهيئ منازل للمال ، وقد بنيت بأرخص الأسعار ، دون أي إتساع ودون أي انفصال عن الجيران ، ودون أي مظهر من مظاهر الباقة والاحتشام تقريباً ، مع تأجيرها للمال بأتخص ليجار يمكن تخمينه عليهم . وكانت هذه المراكز الصناعية الجديدة ، بلامدارس ولا كائس يادى الأمر .

وكان البطلان الإنجليزي الذي عاش في المزيج الأخير من القرن الثامن عشر يقرأ السفر الثالث من جيون ثم يقبل على نفسه بالتهته لأنه لم يجد بوجوده منذ ذاك الحين أي خوف خطير من المسج المتبريرين ، على حين أنه على قيد بضخ خطوات من باب منزله كانت هذه المسجية الجديدة تشب وتمو ، كما كان هذا التحول ، الذي كان يحيل أبناء وطنه شيئاً حالكاً ممياً لا رجاء فيه ، يسير بأشد قوة وأقصاه .

الفصل الخامس والثلاثون

الجمهوريات الديمقراطية الجديدة بأمريكا وفرنسا

- ١ - حاصد نظام الدولة العظمى .
- ٢ - المستعمرات الثلاث عشرة قبل مصيرها .
- ٣ - الحرب الأهلية تقرض حل المستعمرات فرنسا .
- ٤ - حرب الاستقلال .
- ٥ - دستور الولايات المتحدة .
- ٦ - المظاهر السياسية للمستور الولايات المتحدة .
- ٧ - أفكار الثورة في فرنسا .
- ٨ - ثورة سنة ١٧٨٩ .
- ٩ - الجمهورية الفرنسية الموجهة ٨٩ - ٩١ .
- ١٠ - ثورة البلقية .
- ١١ - جمهورية البلقية ١٧٩٢ - ١٧٩٤ .
- ١٢ - حكومة الإدارة .
- ١٣ - توقف قصور ونهر الاشتراكية للصرخة .

١ - متاعب نظام الدولة العظمى

عندما كان جيون يهنيء منذ قرن ونصف من الزمان عالم الأناسى المهلين
المصطنعين بأن عصر الكوارث السياسية والاجتماعية قد ولى ، كان يهمل دلالات
كبيرة كنا نستطيع بعد أن موت بنا أحداث التاريخ وحققه الواقعة - أن نخبره
بأنها تحمل في طياتها النذر هزات وتقلقات أفسح نقلا من أى شيء توقعه . ولقد
نحزننا كيف أن كفاف أمراء القرنين السادس عشر والسابع عشر من أجل
الرفعة والمتاع تطور إلى كفاف أكثر مكرراً ودهاء ولقد تقصدا بين وزارات
الخارجية ، وهى في ثياب تنكبية تتشكل فيها شكل الدول العظمى ، وتتخذ منها
ممودات وعثلا عليا مع تقدم العهد بالقرن الثامن عشر . وتطور فن الدبلوماسية المقعد
المرضى الدعاوى . ولم يعد الأمير ، متآمراً ميكافليا بعمل في الخفاء ، وأصبح
يبرد الرمز المتوج لحظة ميكافلية . فالتفتت بروصيا والروسيا واتسا على بولندية
واقسمتها . وتورطت فرنسا في تدابير عميقة ضد أسبانيا . وخاطلت بريطانيا ، خطط
فرنسا ، في أمريكا واستحوذت على كنفا . وتفوقت على فرنسا في الهند . عند ذلك
حطمت أسرجل ، أمر عده الدبلوماسية الأوربية مزعجاً جداً . لأن المستعمرات

البريطانية في أمريكا رفضت رفضاً باتاً أن يكون لها بعد ذلك أى دور أو نصيب في لعبة الدول العظمى ، هذه . إذ أنهم دفعوا بأنهم قوم ليس لهم صوت ولا مصلحة كبيرة في هذه الخطط والمنازعات الأوربية ، ورفضوا أن يتحملوا أى نصيب من عبء الضرائب التي تجرها تلك السياسات الخارجية ، وكانت للتكرة المتسلطة عليهم هي أن الضرائب بلا تمثيل تباين استبداد وطفان .

وحتى من البيان أن هذا الحزم على الانفصال لم يتغير كاملاً سوى التخلي عن العقل الأمريكي منذ بداية هذه المطالب . فقد كان الرجال العاديون في أمريكا في القرن الثامن عشر مثلاً كانوا في إنجلترا في القرن السابع عشر ، في رضاء تام بل رغبة أكيدة في الواقع في ترك الشؤون الخارجية في يد الملك ووزرائه . ولكن كانت هناك رغبة تعادل هذه في القوة من جانب الرجال العاديين أنفسهم هي ألا تقرر عليهم الضرائب ولا يتدخل في شؤون انجماهم العادية متدخل . ولكن هاتين الرغبةين متعارضتان . فإن الرجال العاديين لا يستطيعون أن يتصلوا من السياسة العالمية وأن يستمتعوا في نفس الوقت بالحرية الخاصة ، ولكن تعلمهم هذه الحقيقة اقتضاهم أجيالاً لا تقع تحت حصر . وعلى ذلك فإن أول ما ظهر من اعتراض في العصيان الأمريكي على حكومة بريطانيا ، كان مجرد تلحز من الضرائب ، ومن التدخل الذي تبع بالضرورة السياسة الخارجية ، دون أى تمييز واضح لما كان ينطوي عليه ذلك الاعتراض . ولم يحدث إلا عندما بلغ العصيان ذروته : أن سكان المستعمرات الأمريكية ميزوا حقاً تمييزاً واضحاً أنهم رفضوا وجهة نظر الدول العظمى في الحياة . وكانت العبارة التي عبرت عن ذلك الرفض هي وصية واشنطنون « يتجنب التحالفات المورطة » . ومن ثم فإن المستعمرات البريطانية المتحدة بأمريكا الشمالية ظلت قرناً كاملاً وقد تحررت واستقلت تحت اسم الولايات المتحدة الأمريكية — بمائة نامة عن المؤامرات والمنازعات الملطخة بالدماء بين وزارات الخارجية الأوربية . وسرعان ما استطاعوا بعد (١٨٠٦ إلى ١٨٢٣) أن يعلوا صيحاتهم الانفصالي إلى سائر أجزاء القارة ، أو يعلوا للعالم الجديد أجمع وعظروا ، على من في العالم القديم من أصحاب مؤامرات التوسع الاستعماري ومدبري خطته . وعندما اضطروا آخر الأمر في

١٩١٧ أن يسلطوا ثانية إلى مجلد^(١) السياسة الدولية ، كان هدفهم من ذلك أن يزعجوا في مستقبل العلاقات الدولية ، بالروح الجليدة والأغراض الجليدة اللواتي مكثهم توضعهم من تطويرها . حل أنهم لم يكونوا مع ذلك أول من ترفع . فند مطاملة وسفاليا (١٦٤٨) حافظت ولايات سويسرا الاتحادية في معاملتها الجليدة على حقها في الانزاعل عن خطط الملوك والامبراطوريات .

ولكن لما كانت شعوب أمريكا الشمالية مقعدة الآن على القيام بدور في تلتريخنا تزايد أبعث ، فإن من الخير أن تقسم لم من عنايتنا قسماً أولى قليلاً مما قسمناه لتطورهم حتى الآن . ولقد سبق أن ألقينا نظرة إلى هذه المقصة في القسم العاشر من الفصل السابق . وسوف نزيلك من فورنا إيضاحاً — وإن كان ذلك في حدود أبسط للعالم — عن أحوال تلك المستعمرات ، التي كان عنايتها مياً في تلك المشايقة للملك بريطانيا العظمى ووزرائها في لعبهم السياسية ضد ملائقي الإنسان .

٢ - المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها

تبين الخريطة المرافقة امتداد المستعمرات البريطانية في أمريكا في النصف الأول من القرن الثامن عشر . والتظليل الأقم يمثل المناطق التي سكنت في ١٧٠٠ ، ويمثل التظليل الأنحف نمو المستعمرات (المستعمرات) إلى ١٧٦٠ . وسيرى القارئ أن المستعمرات كانت مجرد حافة من السكان على طول الساحل ، تمتد إلى الداخل شيئاً فشيئاً وتعرض سيلها جبال ألكيباني والجبال الزرقاء حتى تمتد حاجزاً خطيراً جداً . ومن أقدم هذه المستعمرات مستعمرة فرجينيا ، التي يخلد اسمها ذكرى الملكة إليزابيث ، ملكة إنجلترا العذراء . وأول حملة لإنشاء مستعمرة بالرجيليا قام بها السيد والتروال في ١٥٨٤ ، ولكن ذلك الزمان لم يكن يتم فيه استقرار مستديم ، ومن ثم ترجع بدايات فرجينيا الحقيقية إلى يوم تأسيس الشركة الفرجينية في ١٦٠٦ ، إلا أن حكم جيمس الأول (١٦٠٣ - ١٦٢٥) . وإن قصة جون سميت وموسى فرجينيا الأوائل وكيف

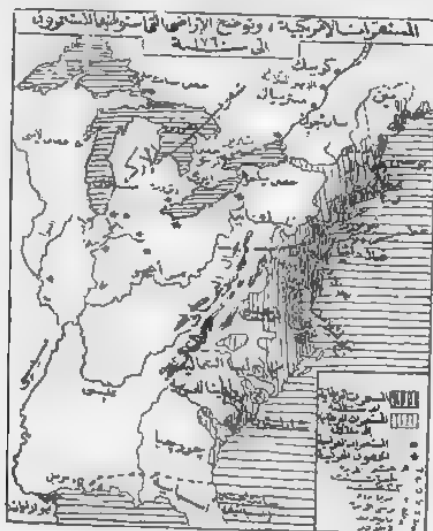
تزوجت الأميرة الخندية بوكاهونتاس من أحد رجاله الأماثل لتشكل نقطة أديبة كلاسيكية هي رحلات جون سميث^(١). ولقى الفرجينيون أول بوادر اليسار في زراعتهم الطبايق. وفي نفس الوقت الذي تألفت فيه الشركة الفرجينية، حصلت شركة بليموث على مرسوم يحول لها الاستقرار في الأراضي الواقعة إلى الشمال من مضيق بلزيرة الطويلة^(٢)، لورنج أيلند التي ادعى الإنجليز ملكيتها. ولكن الناس لم يشعروا يستقروا في المناطق الشمالية إلا في (١٦٢٠)، وذلك بموجب مرسوم جديدة. وكان المستعمرون في المنطقة الشمالية (نيو إنجلند) التي أصبحت كونكتيكت ونيوهمبشير ورود آيلاند وماساشوستس، رجالا لم طابع يخالف طابع الفرجينيين، لأنهم كانوا يروستات متفهمين مما أبلت الكنيسة الإنجليزية من مواضع، كما كانوا رجالا ذوي روح جمهورية لا مائل للسبب في مقاومة ملكية جيمس الأول أو شارل الأول النظمي. وكانت سفينهم الأول هي زهرة مايو May Flower التي أنشأ ركبها مدينة تيوبلوث في ١٦٢٠. وكانت أهم المستعمرات الشمالية هي ماساشوستس. وأدت القوازي في الطرائق الدينية واختلاف الفكرات عن التمسح الديني إلى تفرقة المستعمرات الثلاث البيوريتانية الأخرى عن ماساشوستس. ومما يوضح للمبار الذي كانت تقوم عليه الأمور في تلك الأيام أن ولاية نيوهمبشير بأجمعها قد ادعى تمييزها له شخص معين اسمه الكابتن جون ماسون، وأنه عرض أن يبيعها للملك (وهو الملك شارل الثاني في ١٦٧١) مقابل استيراده ثلاثمائة طن من النبيذ الفرنسي. مخافة من الكومس البحرية - وهو عرض رفضه الملك. واشترت ولاية ماساشوستس ولاية مين Maine المالية من ملهى ملكيتها بمبلغ ألف وميتين وخمسين جنيها.

وفي إبان الحرب الأهلية التي انتهت بقطع رأس الملك شارل الأول، كانت مواطنو نيو إنجلند منحازة إلى جانب البرلمان. وكانت فرجينيا من أنصار قرسان

John Smith's Travels (١)

Long Island Sound (٢)

الملك ، ولكن كان يفصل بين هاتين المستعمرتين^(١) ميثاق وخمسون ميلا ، ولذا لم يحدث بينهما احتكاك حاد . وبعد عودة الملكة في ١٦٦٠ تطورت قوى في الاستثمار



(شكل ١٢٨)

البريطاني بأمريكا إذ كان يشارل الثاني ومن حوله من خططاء شراة المال ، فضلا عن أن الحاج البريطاني قد راعى كل رغبة في أن يقوم بتجارب أخرى لقرص الصرايب غير المشروعة في أرض الوطن . غير أن العلاقات غير المحددة بين المستعمرات وبين

(١) استثمار والمستعمرات وأستعمرات : تشمل هنا تسمى وحد المؤلف في الإقليم به يصور كلمة (Settlement Colony) ولا يتولى من الاستثمار لحاق بل على من الإقليم والنمو (الترجمة)

التاج والحكومة البريطانية لاح فيها يواجر بعض الأمل في القيام بمغامرة مالية وراء المحيط الأطلسي . فحدث تطور سريع في المزارع الواسعة الرقعة وفي مستعمرات الملاك . وكان القود بالنيومور أقام قبل ١٦٣٢ مستعمرة لتكون للكانتوبك ملجأ يستمتعون فيه بالحرية الدينية تحت الإسم الجذاب ماري لاند ، إلى الشمال وإلى الشرق من فرجينيا . وعندئذ استقر هـ ين " الكويكرى (الذى أدى والده لشارل الثاني خدمات جليلة) إلى الشبان من فيلادلفيا وأنشأ مستعمرة بنسلفانيا . وقد حشد تحرمها الرئيسية مع ماري لاند وفرجينيا ، ريجلان هما ماسون وديكسون ، اللذان قلروا لخطهما . عط ماسون وديكسون ، أن يكون بالفعل خط تقسيم هاماً جداً فيما تلى ذلك من شئون الولايات المتحدة . ومن قبل ذلك سقطت كارولينا في أيدي الإنجليز فحكومتها في جهات متعددة . وكانت كارولينا هذه في الأصل مؤسسة فرنسية بروتستانتية غير ناجحة ، وكانت تسمى باسمها لشارل الثاني (كارلوس) ملك إنجلترا ، بل لشارل التاسع الفرنسي . وكان يمتد بين ماري لاند وتير إنجلترا عند من للمستعمرات الصغيرة الهولندية والسويديّة ، كانت المدينة الرئيسية فيها هي تيو أستردام . وقد استولى البريطانيون على هذه المستعمرات من الهولنديين في ١٦٦٤ ، ثم خسروها مرة ثانية في ١٦٧٣ ، واستعيدت بالمعاهدة التي أبرم بها الصلح بين هولندا وإنجلترا في ١٦٧٤ . وبنها هذا الساحل كله من مين إلى كارولينا (بمملكة بريطانية بطريقة ما أو بأخرى) . وكان الأسبان مستقرين إلى الجنوب ، وكان مقرهم الأكبر في قلعة سانت أوغستين في فلوريدا ، وفي ١٧٣٣ سكن مدينة سافانا رجل يحب للإنسانية هو : لوجل ثورب ، الإنجليزي ، وقد مست قلبه الرحمة بالفقراء المسجونين ولاء لديهم في إنجلترا ، ومن ثم أنقذ من السجن عدداً منهم فأصبحوا مؤسسي مستعمرة جديدة ، هي جورجيا التي أصبحت حصناً مبنياً يقف في وجه الأسبان . ومن ثم نجد عند منتصف القرن الثامن عشر هذه المستعمرات تحت يزاء الساحل الأمريكي وهي : مجموعة تيو إنجلترا المكوفة من نيويورك والبروتستانت الأحرار ، وهي : - مين (التابعة لماساشوسيتس) ، وتيو هيمشير وكونكتيكت ورود أيلاند وماساشوسيتس ، والمجموعة المنترحة من الهولنديين التي

كانت انقسمت آنذاك إلى نيويورك (وهو الإقليم الجديد لمدينة نيويورك) ونيو جيرسي وديلاوير (وكانت سويدية قبل أن تصبح هولندية ، وألحقت في أبكر أدولر تبعيتها البريطانية بنسلفانيا) ثم جاءت ماري لاند الكاثوليكية ، وفرجينيا الفرنسية ، وكارولينا (التي قسمت للوقت إلى شمالية وجنوبية) ثم جورجيا ومنشأه لوجي ثوب : ثم انتجاً إلى جورجيا بعد ذلك عدد من البروتستانت الثيوليين ، وهاجرت إلى بنسلفانيا أعداد ضخمة من طبقة صالحة من الزراع الألمان .

تلك هي الأصول المختلطة لمواطني المستعمرات الثلاث عشرة . ولابد أن قيام أية وحدة وثيقة فيما بينها في يوم من الأيام كان يبدو في حينه أمر غير متصور . يراقب الأمور في ١٧٦٠ احتلالاً ضيقاً جداً . وما زاد الأمر سوءاً أن اجتمع إلى القوارق السابقة فروق أخرى ولحمها المناخ . فإلى الشمال من خط ماسون وديكسون كانت الزراعة تمارس على أساس القواعد المتبعة في بريطانيا وأوروبا الوسطى وعلى يد زراع أحرار من البيض . واكتست المنطقة المسكونة في ميريكلند بشوب مشابهة للريف الإنجليزي ، ونشأت في مساحات مترامية من بنسلفانيا حقول وفور رغبة نشبه ما في جنوب ألمانيا . وكانت الظروف المعيزة في الشمال آثار هامة من النتيجة الاجتماعية . إذ كان لزماً على السادة ورجالهم أن يعملوا بدلاً بوضعهم سكان غابات خلفية (١) فتمت التسوية بينهم أثناء ذلك . أجل إنهم لم يبدأوا العمل متساوين . فإن قائمة السفينة « ماي فلاور » تحوى أسماء كثير من الخدم ولكنهم سرعان ما أصبحوا متساوين جيداً في ظل ظروف المستعمرات ، فكان هناك - مثلاً - متسع عظيم من الأرض يمكن امتلاكه بوضع اليد عليه ، وكان الخادم ينطلق ويأخذ الأرض مثل سيده وهذا أعطى نظام الطبقات الإنجليزي . ونشأت في أكتاف هذه للمستعمرات مساواة « في ملكات كل من الجسم والقل » . وظهر استغلال غرضي في الحكم على الأشياء تأخذ حمية الأنف لأي تدخل من جانب إنجلترا . ولكن ابتدأت زراعة القطن إلى الجنوب من خط ماسون وديكسون ، وكان المناخ

(١) الغابات الخلفية : أراضي غابية غير موزعة تقوم وراء الأرض المزروعة يتولى من الملك والمستعمرات ، (القديم)

الأدنى مشجعاً على إنشاء المزارع الضخمة وما بها من مناسر العيال . فحاولوا بادئ الرأي استخدام الأسرى من الجنود الحمر ولكنهم وجدوا بهم ميلاً شديداً إلى سفك الدماء البشرية . وأرسل كرومويل أسرى الحرب الإيرلنديين إلى فرجينيا ، وهو أمر كان له أثره البالغ في استرخاء أفضل المزارعين الملكيين على الجمهورية ومبادئها . وكان المحكوم عليهم يرسلون إلى هناك ، واتسعت التجارة في الأطفال المخطوفين الذين كانوا « يرسلون خفية » إلى أمريكا لكي يصبحوا صبياناً في صناعة^(١) لو عبيداً أرقاء . ولكن أثبت الأيام أن أوفق شكل من أشكال مناسر^(٢) العيال إنما هو منسر العبيد الزوج . وقد اجتلبت سفينة هولندية أول فوج من الزوج لك (جميعاً تاون) من ملدن فرجينيا في زمن مبكر يرجع إلى ١٦٢٠ . ولما واقت ١٧٠١ كان الأرقاء الزوج متشرين في كل أرجاء الولايات ، بيد أن فرجينيا وماري لاند والكارولينا كانت مناطق استخدامهم الرئيسية ، وعلى حين كانت المجتمعات في الشمال مجتمعات من ذراع غير كبيرى الثراء وغير كبيرى الفقر ، فإن الجنوب طور طرزاً من المالك الكبير ومجتمعاً أبيض من المشرفين وأرباب الحرف يعيشون على الصال الأرقاء . فكان العيال الأرقاء ضرورة اقتضاها النظام الاجتماعي والاقتصادى الذى نما في الجنوب ، وكان وجود الأرقاء في الشمال أمراً لا ضرورة له بل كان من بعض الوجوه أمراً مزعجاً . لذلك وجدت اعتراضات أصحاب الضائير الحية على الاسترقاق في جو الشمال عبالاً أرحب لتطورها واتدهارها . ولابد لنا من عودة إلى هذه المسألة ، مسألة انبعاث الرق من جديد ، علما أننا في التأمل فيما تنعرض له الديمقراطية الأمريكية من دواخى الارتباك . ونحن هنا إنما نلاحظها في بساطة بوصفها حلالاً إضافياً إلى ذلك الخليط المتناثر في المستعمرات البريطانية .

ولكن لئن كان سكان المستعمرات الثلاث عشرة أنواعاً شتى في أصولهم متخالفين في عاداتهم واتجاه عواطفهم ، لقد كانت تجمعهم معاً خصومات ثلاث : فكانت لم مصلحة مشتركة ضد الجنود الحمر . وتظاهروا رداً من الزمان خوفاً

(١) وهم الذين يبيع منهم الآن باسم تلاميذ متاعين . (الترجم)

(٢) مناسر العيال One Labour . هي حامات عيال التي تبيع لأداء عمل ما . (الترجم)

مشتركا من الفتح والسيادة الفرنسيين ، وكانوا في الثالثة - مشتركين بأجمعهم في
 للنضال ومدنيت التاج البريطاني والأثنية للتجارية للأوليجركية لبلشمة التي كانت
 تسيطر على البرلمان البريطاني والفتشون البريطانية : فأما الخطر الأول وهو اليهود ،
 فكان شرا مستديما ولكنه لم يزد قط عن مجرد تهديد ينذر بالشر : إذ إتهم
 ظلوا متحسين على أنفسهم : ومع ذلك فقلد ظهرت عليهم في بعض الأحيان
 احتمالات تبشر بالاستراج وتوحيد اليهود على معيار كبير . فإن الشعوب الخمسة في
 حصة للقبائل الإيروكوازية (Iroquois) (راجع خريطة مستعمرات ١٧٦٠) كانت
 حصة قبائل هامة جدا . بيد أنها لم تنجح في حل الفرنسيين على العمل ضد الإنجليز
 لكي تضمن لنفسها الأمان ، ولم يفتأ بين مرحلة العالم الجديد هؤلاء جانتكزخان
 هندي آخر . وكان العنوان الفرنسي تهديدا أخطر ، ولم يتم الفرنسيون أبدا بإنشاء
 مستعمرات في أمريكا على معيار يتنافس المستعمرات الإنجليزية . بيد أن حكومتهم
 انجهدت إلى تطوير للمستعمرات وإخضاعها بطريقة منظمة مرعبة . كان الإنجليز في
 أمريكا مستعمرين مستوطنين ، وكان الفرنسيون مرتادين ومغامرين ، وكلاء تجاريين
 وعيشرين وتجاراً وجنوداً . ولكنهم لم يرسوا لبناهم أساساً متيناً إلا في كندا : إذ أن
 رجال السياسة الفرنسيين كانوا يكون على الحرافط ويطلقون أحلامهم العنان .
 وإنك لواجب أحلامهم ماثلة في خريطتنا ، في سلسلة القلاع للسلسلة جنوباً ، من
 البحيرات العظيمة ، وشمالاً في أعلى المسيسي والأوهايو : وكان الكفاح بين فرنسا
 وبريطانيا كفاحاً شمل العلم أجمع . وقد فصل فيه في الهند وفي ألمانيا وعلى صفحة
 أطلى البحر^(١) . ويصلح باريس (١٧٦٣) أعطى الفرنسيون كندا لإنجلترا ، وتركوا
 لوزيانا لإسبانيا المتخوفة المشغولة بالدين . وكان معنى ذلك تخلى فرنسا تماماً عن
 أمريكا . وبزوال هذا الخطر الفرنسي أصبح المستعمرون أحراراً لا يوقهم عائق عن
 مواجهة عدوهم الثالث المشترك : - وهو تاج بلادهم الأصلية وحكومتها .

(١) أمال البحر : High Seas أجزاء البحر الموجودة في عرض البحر والتي تقع خارج المياه
 الإقليمية لأي قطر من القطر التي مرصها كما ينص القانون الدولي ثلاثة أميال . (الترجم)

٣ - الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضاً

لاحظنا في الفصل السابق كيف أن الطبقة الحاكمة في بريطانيا العظمى دأبت على وضع يدها على الأراضي والقبضاء على حريات العامة طيلة القرن الثامن عشر ، وعرفنا كيف تمخض جشعهم وعميتهم عن الثورة الصناعية^(١) الجليدية ، كذلك لاحظنا كيف أن البرلمان البريطاني بسبب انحلال أساليب التثليل النيابي لمجلس العموم ، أصبح في كل من مجلسه الأعلى والأدنى أي القردة والعموم ، مجرد أداة للحكم عن طريق كبار أصحاب الأراضي ، وكان كل من كبار الملاك هؤلاء والتاج ذا مصلحة حبيقة في أمريكا - الأولين منهم يوصفهم مؤرخون بمصلحهم الخاصة ، والآخر يوصفه مثلاً لاستغلال ملوك أسرة لستوارد ومشاريتهم من ناحية ، ويوصفه مثلاً للحكومة في بحثها عن موارد مالية للقيام بتفقات السياسة الخارجية من ناحية أخرى ، وطبيعي أن القردة والتاج لم يكن أحد منهم ينظر إلى التجار والزراعيين والعامة سكان المستعمرات نظرة فيها تقدير أكثر من نظره إلى صغار المزارعين وصغار الزراعين الملاك في أرض الوطن . والواقع أن مصالح الرجل العاوي (المادي) في كل من بريطانيا العظمى وفرنسة وأمريكا كانت في صميمها واحدة لا اختلاف بينها . فإن كلا منهم كانت تنصرف وتستغل نفس الميعة الحاكمة ، ولكن على حين كان العاصر والمعصور في إنجلترا متشاكبين تشاكاً وثيقاً في نظام اجتماعي وطيد ، فإن التاج وطالبي الاستقلال في أمريكا كانا يميلين ، وكان في مكتة الرجال هنا أن يتخللوا وأن يطورووا في أنفسهم شعوراً بالجماعة ضد علومهم المشترك .

هذا إلى أن المستوطن الأمريكي كانت له الميزة الخاصة ، ميزة امتلاكه لساناً وترجمانا مفضلاً قانونياً لمقاومة الحكومة البريطانية يتمثل في مجلس مستعمرته أو جمعيتها التشريعية ، التي كانت ضرورية لإدارة الشؤون المحلية . ولم يكن الرجل العاوي في إنجلترا - وهو الذي يحرره المستعمرات بما تستخلفه من ضروب الحيل والخداع من

(١) تسمى تلك النهضة الصناعية باسم الثورة الصناعية أو الانقلاب الصناعي . (الترجم)

التشيل الصحيح في مجلس العموم - أي لسان ناطق حته ولا أي مركز للعمل والتعبير
عن نفسه .

ولسوف بنضح فقارئ إذ يذكر تنوع المستوطنات أن الوضع هنا كان جين
القرص لسلسلة لانهاية لها من المنزعات ، وضروب العلوان وما يقابل ذلك من
التدابير المضادة . وقصة تطور الاغلاقات بين المستعمرات وبين بريطانيا قصة أشد
تعقلاً وأدق وأطول من أن تتسع لها خطة هذه « المعظم » . وحسبك أن المظالم كانت
تقع تحت عناوين ثلاثة رئيسية هي المحاولات المبذولة لفهم حصول المفاسد البريطاني
أو الحكومة البريطانية على أرباح استغلال الأراضي الجديدة ، والتضيقات المنظمة
على التجارة بنية الاحتفاظ بتجارة المستعمرات الخارجية كلها في أيدي بريطانية ، بمعنى
أن جميع صادرات المستعمرة لم تكن ترسل إلا بطريق بريطانيا ولم يكن يستعمل في
أمريكا سوى السلع البريطانية . وأخيراً نجىء محاولة فرض الضرائب بواسطة البرلمان
البريطاني بوصفه السلطة العليا القارضة للضرائب في الإمبراطورية . واضطر المستوطنون
الأمريكيون تحت ضغط هذا النظام الثلاثي من المضايقات ، أن يقوموا بقدو جميع
من التفكير السياسي العميق . وشرع رجال من أمثال باتريك هنري وجيمس أوتس
(Oats) في مناقشة المفكرات الأساسية التي تقوم عليها الحكومات والترابط السياسي على
نحر شديد الشبه بمناقشتها في إنجلترا في الأيام النظام أيام دولة كرومويل الجمهورية .
وأنطوا يشكرون كلا من الأصل المقدس للملكية والسياسة العليا للبرلمان البريطاني ،
وكان أن قال جيمس أوتس في ١٧٦٢ أشياء من أمثال التالي :

« خلق الله الناس جميعاً متساوين تساوياً طبعياً

والمفكرات القتالة باستلاء الإنسان على أخيه الإنسان فكريات تقليدية غير فطرية

وقد خلق الملوك لخير الناس ولم تخلق الناس لهم

وليس لأية حكومة أن تتخذ من رعاياها حيناً

وسع أن معظم الحكومات تصفية في واقع الأمر

وهي بناداً على ذلك لغة وفنسية للطبيعة الإنسانية .

في من واحدة منها تكون تصفية قانوناً وشرعاً .

وبعض هذه الأقوال نغرب في الموضوع بسهم بعيد المدى .

وقد بدأ هنا التخمير في أفكار الأمريكيين السياسية بفضل خيرة بريطانية . فإن هناك كاتباً إنجليزياً عظيم التأثير هو جون لوك (١٦٤٢ - ١٧٠٤) ، الذي يمكن أن يعد كتابه « مقالتان عن الحكومة المدنية » نقطة الارتحال الأساسية للفكرات الديمقراطية المصرية . كان أبوه جندياً من أتباع كروموويل ، كلية وقد تعلم في « كرايست تشرتش Christ Church » بأكسفورد إبان حقبة الجمهورية ، وقضى بضع سنين مبعثاً في مولدة ، وتكون كتاباته جسراً يصل بين التفكير السياسي الجريء في تلك الأيام بالجمهورية القديمة وبين الحركة الثورية في كل من أمريكا وفرنسا .

على أن الرجال لا بشرعون في العمل والتصرف على أساس النظريات . وإنما يحلو الناس إلى « العمل » على الدوام شعورهم بوجود خطر ما حقيقى أو ضرورة ما عملية . ولن تستقيم النظريات الأمور وتستقر في نصائها إلا بعد أن يكون العمل والتصرف قد هد « صرح العلاقات المتبعة كلها وأنتج أموراً جديدة محيرة . وعند ذلك توضع هذه النظرية في بوتقة الاختبار . فالتحلاف على المصالح والفكرات ، المشجع بين المستوطنين تحول إلى قتال لما أيلاه البرلمان البريطاني بعد صلح ١٧٦٣ من عند التصميم على فرض الضرائب على المستعمرات الأمريكية . وكانت بريطانيا تفرل في مجبوحة السلم وتهاك عليها الرفاهية من كل جانب ، فأحست أن أمامها فرصة بديعة لتصفية الحساب مع هؤلاء المستوطنين العصاة . ولكن كبار أصحاب الأملاك البريطانيين وجدوا إلى جوار قوتهم قوة نشاطهم لرامهم نفسها ، وإن اخفقت عنهم قليلا في غايتها - وهي قوة الطغ المتشعشع . ذلك بأن جورج الثالث الذي بدأ حكمه في ١٧٦٠ ، أسر على أن يكون في سلطانه ملكاً أكثر من سلطة الألمان . وكان يستطيع التكلم بالإنجليزية ، وكان يدعى أنه « مباه بأن يقب بريطانيا » ، وعندئذ أنه اسم لا بأس بأن يطلق على رجل لا تجرى في حروقه

نظرة واحدة معروفة من النعم الإنجليزي ولا الفوليزي ولا الاسكتلندي ٢١١
 وكان ينبغي إليه أن المستعمرات الأمريكية والمستعمرات وراء البحار عامة بما لها من
 مراسيم غير محددة - (بل عساها بلا مراسيم مطلقاً) - أما كن قد يستلج التاج
 لها أن يدعى السلطان وأن يحصل على الموارد المالية والطلقات التي تنكرها عليه
 إنكاراً باتاً الأرستقراطية القوية الثبوت على سلطانها في بريطانيا . فبلغ هذا كثيراً من
 نبلاء المويج (Whigs) (١) أن يسطروا على المستوطنين عطفاً لم يكونوا ليظهروه
 لولا هذا الطرف . ذلك أنه لم يكن لديهم أي اعتراض على استقلال المستعمرات
 لصالح صاحب المسمى الخاص (٢) البريطاني ولكن كانت لديهم اعتراضات
 قوية جداً على نفوذ التاج بذلك الاستقلال تقوياً يحمله على الفور مستقلاً
 مستغنياً عنهم .

من أجل ذلك لم تكن الحرب التي نشبت حرباً بين بريطانيا والمستوطنين بل
 بين الحكومة البريطانية والمستوطنين ، اعاز فيها قسم من نبلاء حزب الأحرار
 (المويج) وقدر جميع من الشعور العام في إنجلترا إلى صف هؤلاء المستوطنين .
 وهناك حركة مبكرة بعد (١٧٦٣) كانت ترمي إلى محاولة جمع الإيرادات لبريطانيا
 في المستعمرات بتحريم دفع الصحف وأنواع عظيمة من الوثائق . ولقيت هذه المحاولة
 مقاومة عنيفة ، زلزلت الرجة قلب التاج البريطاني ، فأنشئت قوانين للتعفة
 (١٧٦٦) . وقوبل إلغاؤها بمظاهر فرح صبا شىء من الشعب في لندن و
 ويجلي فيها من السرور القلبي ما لم يتجلى في المستعمرات نفسها .

ولكن موضوع قانون التعفة لم يكن إلا دوامة واحدة في سبيل مضطرب بتطافع
 هاويها نحو حرب أهلية . فكان يمثلو الحكومة البريطانية مستويين وراء عشرات من
 الحجج في أعلى الساحل وأسفله دالين على تحقيق سلطانهم وإبرازها وجعل

(١) المويج Whigs : حزب ظهر في القرن التاسع عشر فعلا لتباعد الطبقة الوسطى دائماً
 أصحاب الأوساخ من حزب الفوري (المطلقين أنصاراً) تسمى فيما بعد باسم حزب الأحرار . (الترجمة)

(٢) المسمى الخاص Private estates - المجهود أو الممتلكات الخاصة التي يقوم بها فرد
 أو المراد أو شركاته . (الترجمة)

الحكومة البريطانية كلاً فادحا لا يطلق . وكان إزال الخود في ضيافة المستوطنين كرها ، من ألدح الأمور ومائة عليهم . وكانت رودايلاند ناشطة بوجه خاص في تحديها لقيود التجارة . فلن سكان رودايلاند كانوا متجرين أحراراً - أي مهريين ، وقد حدث أن سفينة حكومية تسمى جاسبي (Gaspee) شحطت على أرض بروفيانس ، فهاختها واعتلى ظهرها واستولى عليها رجال مسلحون في زوارق ، ثم مالخوا أن أحرقوها . وفي (١٧٧٣) منع البرلمان البريطاني شركة الهند الشرقية ميزات خاصة في استيراد الشاي إلى أمريكا في لستائة تامة بنظام تجارة الشاي المستعمرات . وصمم للمستوطنون يحزم على رفض هذا الشاي ومقاطعته . ولما أن أظهر مستوردوا الشاي في بوسطن لإصراراً على إزال بضائعهم إلى الشاطئ ، سعد إلى سفن الشاي الثلاث حصبة من الرجال متكونين في زى المنود الحمر ، وألقوا بالشاي في البحر على ملا من جهود عظيم من الناس (١٦ ديسمبر ١٧٧٣) .

وشغل الطرغان طيلة ١٧٧٤ بجمع الموارد والأموال استعداداً للمركة للقطة . وقرر البرلمان البريطاني في ربيع (١٧٧٤) معاقبة بوسطن بإغلاق مينائها ، وأجهت التية إلى القضاء على تجارتها ما لم تقبل ذلك الشاي . وكان ذلك مثالا نموذجياً كاملاً لذلك الحزم ، الأحق الذي يترك الامبراطوريات يلدأ . ولكن يتم تنفيذ هذا التدبير بالقوة ، احتشدت الجيوش البريطانية في بوسطن تحت قيادة الجنرال جاج (Gage) واتخذ المستوطنون تدابير مضادة لذلك . وانفقد أول (كونيغرس) للمستوطنين بمدينة فيلادلفيا في سبتمبر ، مثلت فيه الثا عشرة مستعمرة هي : ماساشوستس ، وكونكتيكت ، ونيوهامبشر ، وود آيلاند ، ونيويورك ، ونيوجرسي وبنسلفانيا ، وماري لاند ، وديلاوير ، وفرجينيا ، وكارولينا الشمالية والجنوبية ، ولم تكن جورجيا حاضرة . وأصدر الكونيغرس تشيأ مع غير الثقايلد الإنجليزية وثيقة أبان فيها موقفه بأن أشهر (إعلان حقوق) . ولواقع أن هذا الكونيغرس كان حكومة تمرد وعصيان ، ولكن لم تضرب صربة واحدة حتى ربيع (١٧٧٥) . يوم جاء أول صفك للقضاء .

فإن اثنين من الزعماء الأمريكيين هما هانكوك وصمويل آدامز : قد أجهت لية الحكومة البريطانية إلى اعتقالهما ، وعما كتبها بتهمة الخيانة ، وكان معروفاً أهما في لكسينجتون ، على مسافة أحد عشر ميلاً تقريباً من بوسطن ، وفي ليل ٨ إبريل ١٧٧٥ أصدر جنرال أوامره بزحف قواته لاعتقالهما .



(شكل ١٧٩)

وكانت تلك الليلة من ليالٍ التاريخ العظيمة . فإن المستوطنين تنهبوا إلى حركة جيوش جنرال جاج ، عرفت مصابيح الإشارة فوق برج كنيسة في بوسطن وانسل رجلاهما داود وهول ريفير في قارب عبر الخليج الخلفي حتى يستطيعا أن يحصلا على جواذيب لكي يتحدرا المنطقة الريفية . كذلك نقل البريطانيون بالمدينة عبر الخليج ، وفيها هم يرحلون تحت جناح الليل إلى لكسينجتون كانت تسبقهم أصوات مدافع الإبلاد ورتين أجراس الكنائس . وبينما هم يدخلون لكسينجتون عند القمر ، شاهدوا مجموعة صغيرة من الرجال مصطفيين في تشكيلة عسكرية . والطاهر أن البريطانيين كانوا الياديين بإطلاق النار . فانطلقت طلقة واحدة ثم سبل من الطلقات ، وتراجعت اللة الصغيرة دون أن تقيح - فيما يظهر - على الطلقات تاركة في ماهر القرية نهاية من القتل وتسعة من الجرحى .

وعند ذلك سار البريطانيون إلى قرية كونفورد ، وهي وراة ذلك بعشرة أميال ، فاحتلوا القرية ووقفوا ثلة من الجنود على الكوبري القائم في ذلك الموضع . وفشلت الحملة في هدفها وهو اعتقال هانكوك وآدامز ، ويلوح أن القائد البريطاني عمير ماذا

يسفل بعد ذلك . وفي نفس الوقت كان جنود المستوطنين يضاطرون من كل جانب وصوب ومرعك ما وجد الحرس الرابطون على الكويرى أنفسهم عرضاً لنيران متزايدة انتهت بهجوم . وقرر التفهق إلى بوسطن . ولكنه كان تظهراً مدمراً . فقد هبت المنطقة كلها من خلفهم ، وأخذ المستوطنون في التجمع طول الصباح . وعندئذ أصبح جانب الطريق مزدحمين برماة حذاق يطلقون النار من وراء الصخور والسيارات والمباني ، وكثيراً ما حدث أنهم هجموا حتى غلوا على مسافة دانية بلغت مرمى السونكى . وكان الجنود في ثياب قمرزية وضاحية ، ذات واجهات صفراء وتراك وأربطة رقبة بيضاء ، ولا بد أن هذه الألوان كانت تبدو وضاحية ساطعة بالقياس إلى الألوان الحادة في أنحريات ربيع ببر إنجلترا ، كان ذلك اليوم مشرق الضياء حاراً شمساً ، وكان الرجال قد عليهم الإعياء من جراء سُرّاح طول الليل . وفي كل بضع ياردات يقع منهم رجل إما جريحاً أو متحلاً . على حين يسير الباقون قتالاً أو يصفون ليطلقوا النار من نار على غير جدوى . وكانت هناك في لكسينجتون أعداد بريطانية وملكمان ، وبعد استراحة وجيزة تواصل التفهق في نظام أحسن . ولكن الشعب استمر حتى الظهر ، وبعد أن عبره البريطانيون قائلين إلى بوسطن ، اتخذ جنود المستوطنين مراكزهم في كامبريدج وأخذوا أمهتهم لحصار المدينة .

٤ - حرب الاستقلال

بما ابتدأت الحرب . ولم تكن حراً تبشر بنهاية حاسمة . فلم تكن المستوطنين عاصمة واحدة ينفشون عليها عطياً ، بل كانوا منتشرين فوق ريف عظيم من خلفه برية لا آخر لها ، ولما كانت لهم قوة مقاومة عظيمة . وكانوا في غالب أمرهم تعلموا فن الحرب عند المنود . فكانوا يستطيعون أن يبيدوا القتال في نظام مكشوف وأن يشكروا بالمنود ويمزقهم بحركاتهم . ولكن لم يكن لديهم جيش منظم يستطيع أن يلقى البريطانيين في معركة عظيمة ، ولم يكن لديهم إلا القليل من المتاد الحربي ، هذا إلى أن عتدهم كان يُلْم بهم نقاد الصبر إذا طال بالحملة الأمد ، وبزعمون إلى العودة إلى مزارعهم . وكان لدى الإنجليز من الناحية الأخرى جيش حسن التدريب ، كما أعادتهم سيادتهم

على البحر لفترة على قتل هجورهم شمالا وجنوبا في ذلك الساحل الأطلسي الطويل .
 وكانوا في سلام مع العالم أجمع . ولكن الملك كان غيا شرمأ في تدخله في إدارة
 الأمور ، وكان القواد الذين يؤثرونهم يحفظه إما رجالا أحياء ، أو بآليات الشكينة ،
 أو طائشين من أبناء البيوتات ، والطبقة العالية . ولم يكن هؤلاء انجلترا محباً لهذا
 الامر . لذلك تركت جل اعتماد الحاج على لادته على توقيع الحصار البحري على المستوطنين
 والإغارة عليهم ومضايقتهم حتى ينحسروا ، أكثر من حل الفتح والاحتلال النهائي
 للبلاد . ولكن الوسائل التي استعملت وبوجه خاص استخدام الجنود الألمانية المأجورة
 التي كانت ماتزال تحفظ بقايد القادة المأجورة من حرب الثلاثين ، والجنود
 المساعدة الهندية الذين شقوا مساكن المستوطنات المنزلة - لم تغضب الأمريكيين من
 الحرب بقوما أضجرتهم من البريطانيين . فاما الكونجرس فإنه اجتمع لثاني مرة في
 ١٧٧٥ ، وأقر التصرفات التي أنشأها مستوطنو نيو إنجلاند ، وعين جورج واشنطن
 قائداً عاماً للجيش الأمريكي . وفي ١٧٧٧ بينا الجنرال برجون يحاول أن يتحدر من
 كندا زاحماً على نيويورك ، إذ انهزم عند مزرعة فريمان عند أعلى نهر المندسون
 الأعلى ، وأُحيط به واضطر إلى التسليم في ساراتوجا ومع جيشه كله . وشجعت هذه
 الكارثة الفرنسيين والأسبان على التدخل إلى الخلطة في صف المستوطنين . وقام
 الأسطول الفرنسي بالشيء الكبير في سبيل تخليل ميعة البريطانيين في البحار .
 وحصر الجنرال كونوليس في شبه جزيرة يوركوتون بفرجينيا في ١٧٨١ ، سلم بجيشه .
 وكانت موارد الحكومة البريطانية عند ذلك قد استنزفت ، إذ كانت تروح تحت
 عبء ثقل من الكفاح مع فرنسا وألمانيا في أوروبا .

ويلاحظ أن المستوطنين عامة كانوا في البداية من قلة الميل إلى نيل الملكية والمطالبة
 بالاستقلال التام بحيث ماثلوا حالة الهولنديين أثناء الدور الأول من اضطهادات فيليب
 الثاني وحاكماته . وأطلق اسم الراديكاليين على دعاة الاضطرار^(١) ، وكانوا قوما ينطب
 عليهم الصلابة في الديمقراطية ، كما قد نقول في انجلترا في أيامنا هذه ، وأدخلت

(١) الراديكاليون : كانت كلمة الراديكاليين تنطق في انجلترا في ذلك الزمان على أنصار
 الديمقراطية والإصلاح البرلماني (الترجم)

أرواحهم للتقدمية شيئاً من الخوف إلى قلوب كثير من المستوطنين الأكثر وراثة وثراء ،
الذين كان لامتيازات الطبقات ومكانتها سحر عظيم في أعينهم . ولكن انجليزياً مقتدرين
قوى المحجة هوثوماس بين Paine نشر في زمن مبكر من (١٧٧٦) بحثاً في فيلادلفيا
تحت عنوان « حسن التصرف » ، كان لما أثر هائل في الرأي العام . كان أسلوبها
أسلوباً بيانياً بليغاً إذا قيس بالمعايير المصرية . « إن دماء القتلى وصوت الطبيعة الباكي
تصبح ، أن قد حان وقت الانفراق ، وهلم جرا . . . ولكن آثارها كانت بالغة
القوة . فثابرت حولت الآلاف إلى فكرة ضرورة الانفصال . وما كاد انقلاب الرأي يبدأ
حتى انقلب بسرعة . »

ولم يتخذ الكونجرس إلا في صيف (١٧٧٦) الخطوة التي لا مرد لها : بإعلان
طلب الانفصال « وإعلان الاستقلال » ، وهو مثال آخر من تلك الوثائق المؤذجية
التي يعود الفضل في إنتاجها للبشرية للإنجليز خاصة . وقد سطره توماس جفرسون .
وما لبث بعد أن أدخلت عليه تغييرات وتعميمات متنوعة ، أن جعل الوثيقة
الأساسية للولايات المتحدة الأمريكية . وأدخل تعديلين جديران بالذكر على مسودة
جفرسون . فإثابته شملت حقاً حقاً على تجارة الرقيق ، وأمنى باللائمة على حكومة
أرض الوطن بالجملة لحيلولة دون المحاولات التي بذلتها المستعمرات (المستوطنات)
لإيقاف تلك التجارة . فحذرت هذه الفقرة وكذلك حظفت جملة أخرى عن
البريطانيين تقول : « يجب أن نحاول أن ننسى حينا السابق لم . . . فقد كنا نستطيع
أن نكون مجتمعين شيئاً حراً عظيماً . »

وفي قريب من نهاية (١٧٨٢) وقعت في باريس البند الأولية في المعاهدة
التي اعترفت فيها بريطانيا بالاستقلال التام للولايات المتحدة . وأعلن انتهاء الحرب
في ١٩ إبريل (١٧٨٣) أي بعد ثمانين سنة بالضبط من انطلاق بول ريشير بجواده
ولرنداد رجال جاج (Gage) من كونكورد إلى بوسطن . ووقعت معاهدة
الصلح نهائياً في باريس في سبتمبر .

٥ - دستور الولايات المتحدة

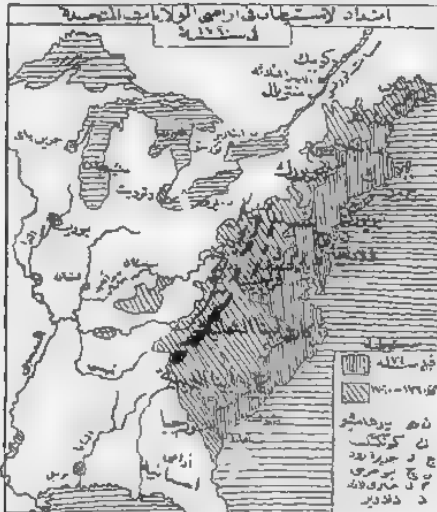
إن الطريقة التي أصبحت بها الولايات الثلاث عشرة مستقلة ، كانت من وجهة نظر التاريخ الإنساني ، أقل شأنًا بكثير من استقلالها الفعلي نفسه . وظهر في العلم بتوليد استقلالها ذلك ، نوع من المجتمع جديد . وكأني به شيئاً قصت عنه وضعة . كان حضارة أوروبية غربية انفصلت وتحررت من آثارها الإمبراطورية والمسيحية ، ولم يكن بها أى أثر للملكية ولا دين رسمى للدولة . وما كان بها حوفاة ولا أمراء ولا كوتات ، ولا أى ضرب من حملة الألقاب المدعنه من القصر والرفعة بوصفها حقاً . بل إن وحدتها نفسها لم تكن آنذاك إلا اتحاداً يقصد للدفاع والحريه . فكانت من هذه الوجوه بداية نظيفة في التنظيم السياسي لم ير العلم من قبل لها نظيراً . وإن غاية أية رابطة دينية تربطهم بعضهم إلى بعض بالحكمة بالتوجه بوجه خاص . فقد كان بها أكثر من واحد من أشكال المسيحية ، ولا مجال للشك في أن روحها كانت مسيحية . ولكن الأمر كان كما صرحت بذلك وثيقة رسمية في (١٧٩٦) تصريحاً لا ليس فيه وإن حكومة الولايات المتحدة ليست بأى حال مؤسسة على الديانة المسيحية ^(١) . فإن المجتمع الجديد قد توغل بالفعل والواقع حتى بلغ أصول الجماعة الإنسانية العادية المجرده . وكان ينبغي لوهاً جليداً من الجماعة الإنسانية ونوعاً جليداً من النبوة على تلك الأصول .

هنا كان يعيش ما يقرب من أربعة ملايين من الناس متناثرين فوق منطقة مترامية الأطراف ليس بينها من وسائل الاتصال إلا كل صعب شديد الصعوبة بطيء عظيم البطء ، وهم قوم لما يبرحوا قراء ، وإن كان أمامهم إمكانيات تشر بثروة لا نهاية لها . وقد نشطوا يعملون في واقع الحقيقة على سيار ضخمة أصحلاً إنشائية جليظة مثل تلك التي قام بها بالخيال والنظر الفلاسفة الأكلينيون قبل ذلك بألفين وعشرين قرناً .

(١) فقلنا من ملاحظة تريبول ، الطر تشكلت الشر الثالث : لفصل الناس مشر .

وهذا الموقف يشير إلى مرحلة محددة في فكك الإنسان من «سابقة والعرف»
 وخطوة محددة إلى الأمام تتجه نحو إعادته بناء ظروفه وإعادة واحة متعددة حتى
 تتلاءم وحاجاته وغاياته . كانت طريقة جديدة أخذت تصبح شيئاً عملياً في الشؤون
 الإنسانية . فإن دول أوروبا العصرية تطورت عما سقتها من أمم : نظاماً في (إلى
 نظام ، وعلى مهل وببطء . بلا حطة مرسومة . فأما الولايات المتحدة فلها عخطت
 مخطيماً واصطنعت اصطناعاً .

ومع ذلك فإن حرية الشعب الحديد الخلاقة ، كانت محددة تحديداً خطيراً
 جداً من ناحية واحدة . فم يكن هذا النوع الجديد من الدولة مبنياً على موقع محدد



موتاً . بل أن تكونه الاصطناعي لم يبلغ في صراحته مبلغ بعض المستعمرات الأثنية المتأخرة التي انطلقت من اللدبة الأم لتخطط وتبنى دول مدن جديدة تماماً ذات مسانير جديدة تماماً أيضاً . فكان لكل من المستعمرات الثلاث عشرة في نهاية الحرب دستورها الخاص ، وهو إما مثل مسانير كونكتيكت ورود أيلاند ، التي يرجع تاريخها إلى أولئك مراسيمها الأصلية (١٦٦٧) ولما أعيد تكوينه أثناء النضال ، شأن مسانير صائر الولايات ، حيث كان حاكم بريطانيا يلعب دوراً عظيماً في الإدارة . على أنا نستطيع أن نجد هذه التعديلات محاولات لها فضل الإسهام وتجاوب في الجهود الإنشائي العام .

وهناك أفكار مبعثة كانت تبرز بروزاً واضحاً جداً من فوق هذا الميود فن هذه الأفكار فكرة المساواة السياسية والاجتماعية . فهذه الفكرة التي رأيناها وهي تولد في العالم بوصفها فكرة مطرقة لا يكاد يصدقها عقل في العصر المحصور بين يوفيا ويسوع الناصري ، — قد توكدت الآن في أنفريات القرن الثامن عشر بوصفها معياراً عملياً للعلاقات الإنسانية . يقول البيان الأساسي في فرجينيا : « وإن كل الناس خلقوا بالطهارة أحراراً مستقلين » ، ثم هو يعضي في مرد « حقوقهم » والتوكيد بأن كل للموردين والمخاضين ليسوا إلا « مؤمنين على المصلحة العامة وخداماً لها » . ولكل الناس الحق المتساوي في حياصة الحياة على حريتهم . فأما الملك بحكم الحق ، والأرستقراطي ، « والعبد الطيحي » ، والملك اللوب ، « الله » ، قد انحطت كلها من هذه النخلة السياسية الأمريكية — بقدر ما تنحى إليه هذه التصريحات . وقدمت معظم الولايات لنظام الحكم فيها بمقتضيات شديدة بهذه . وقال إعلان الاستقلال إن « كل للرجال قد ولدتهم أمتهم مساوية » . وألك ترى في كل مكان توكيدات مصوغة في عبارات القرن الثامن عشر تقول بأن المجتمع الجديد سوف يكون — إذا استخلصنا التفسيرات التي أوردناها في فصل سابق (١) — « مجتمع لإضافة وليس مجتمع طاعة » . خير أن نحكى ذلك الزمان ، كانت لهم في صوغ عبارة ذلك الموضوع طريقة كادت

(١) انظر ص ٩٥٧ - ٩٦٢ من المجلد ٢ ط ٣ . وجميع الإضافة والمطامع من أهم النقط التي يجب التوقف أليها خاصة ولأنها لها في كل أجزاء العالم . (الترجم)

أن تبلغ حد السباجة والغلظ ، فلهزم تصوروا أن اللواتية تنطوي على ضرب من الاختيار القسري والقبول ، لم يحدث قط في واقع الأمر ، وهو الشيء المتسنى باسم العقد الاجتماعي . ألا ترى إلى اللديباجة التهودية في دستور ماساشوسيتس مثلاً ، كيف تذكر أن الدولة تراجعت لإختياري ، « به تعاهد الشعب بأجمعه مع كل مواطن ، وكل مواطن مع الشعب بأجمعه بأن يحكم الجميع بقوانين معينة ترمى إلى الخير المشترك » .

ولسوف يتضح الآن أن معظم هذه البيانات الأسلمية تقبل المنقشة . فالرجال لا يولدون سواسية ، ولا هم يولدون أحراراً ، بل هم يولدون حشداً أشد ما يكون تنوعاً ، وينشأون خليطاً متوطاً في شبكة اجتماعية حقيقة معقدة . ثم أين ذلك الرجل الذي يدعى التوزيع على أي عقد ؟ . فلن فاته ذلك وجب عليه أن يهجر العالم وحيداً . فلو فسرت هذه البيانات تفسيراً حرفياً ، لبلغت من الزيف والخطأ الظاهر ، حثاً يعمل من المستحيل الاعتقاد بأن الناس الذين وضعوها ، كانوا يقصرون منها أن تنسر حرفياً . وإنما هم أنشئوها لتبصير عن أفكار معينة خاطئة ولكنها مهمة أهمي الأهمية - وهي أفكار أصبحت العالم بعد انقضاء قرن ونصف من التفكير فيها ، في وضع يستطيع فيه أن يعبر عنها تعبيراً أحسن . والمدينة كما أوضحت هذه « المعالم » نشأت بوصفها مجتمع طاعة ، وكانت بالضرورة مجتمع طاعة . وكان الكهنة والحكام قد أساموا إلى الروح جيلاً بعد جيل . ثم حدث انكسار متواصل من الإرادة القوية جاء منحدراً من الثغابات والفيضات والسيوب^(١) . ذلك أن لروح الإنسانية ثلثت في نهاية الأمر ثورة تامة على الطاعات المعباه في الحياة المشتركة . كانت تبني - وكان ذلك بطريقة صحيحة جداً في بداية الأمر - الحصول على طراز جديد من الحضارة أحدث جلة وأحسن صنماً ، يكون في نفس الوقت « مجتمع إرادة » ، وكان من الضروري الوصول إلى تلك الناية أن يُعامل كل إنسان بوصفه سلطاناً على نفسه ؛ وكان لا بد أن يكون مركزه مركز الزمامة لا للمبودية . وكانت فلالته الحقيقية وأهميته الحقيقية

(١) الثعاص (Parshendi) : مصطلح جغرافي معناه الثغابات الخلفية المتبادلة الأشجار .

والسيوب (Steppes) : هي السهول القسيمة الخالية من الأشجار وإن نبتت بها الأعشاب ومثلها في جنوب شرق أوروبا وجنوب غربي آسيا . (الترجمة)

تعتمد على صفة الفردية . والطريقة التي حاول بها هؤلاء المهاقون لأمريكا السياسية أن يحصلوا على « مجتمع الإرادة » ذلك ، كانت طريقة مفرقة في بساطتها وضجاعتها . فقد منحوا الناس شيئاً كان بالنسبة إلى الزمان وبالنظر إلى الأحوال الأمريكية ، حتى الاقتراع واسع المجال جداً . ولكن الأحوال كانت تختلف بين ولاية وأخرى ، وكان أوسع حق للاقتراع في بنسلفانيا ، حيث كان كل فلاح ضرائب بالغ ذكر له الحق في التصويت ، ولكن إذا قورن الحال ببريطانيا ، لتبين أن الولايات المتحدة بأجمعها كانت أقرب ما تكون من منح حق التصويت لكل من بلغ مبلغ الرجال عند نهاية القرن الثامن عشر . وبذلك مؤسس أمريكا اليهود - وكانت جسيمة بالقياس إلى زمانهم طفيفة بالقياس إلى زماننا - الوصول إلى « تعليم » بسيط واسع الانتشار . أما « إعلام » المواطنين بغير ما يجري داخل بلادهم وخارجها ، فأمر تركوه للاجتماعات العامة والمطعمة الخاصة التي يملكها أي فرد ، دون أن تخالفهم - فيما يظهر - وخبرة أوتياي في هذين العاملين .

، وقصة دساتير الولايات المختلفة ودستور الولايات المتحدة على وجه العموم ، قصة معقدة جداً ، لنا بمستطعين أن نعالجها هنا إلا كأشده ما تكون للمعالجة زمحالةً والاضطراب . وأجلز الأمور بالذكر من وجهة النظر العصرية هي إغفال النساء بوصفهن محادئات (مواطنات) . وكان المجتمع الأمريكي جحشاً بسيطاً زراعياً في كثير أموره . وكانت معظم النساء متزوجات ، فلا غرو إذن أن يظنن بهولتين . على أن نيو جرسي سمحت لعدد قليل من النساء أن يطينن أصواتهن على أساس من المؤهلات العقارية . وهناك أيضاً نقطة أخرى ذات أهمية عظيمة ، هي القرار الذي كاد أن يكون إجماعياً بأن يتولى الحكم في البلاد مجلسان يقر كل منهما الآخر أو يكسبه على غرار مجلسي اللوردة والمعوم في بريطانيا . وكان لبنسلفانيا دون غيرها مجلس نيابي واحد ، الأمر الذي كان للناس يشعرون من أجله بأن تلك حالة شديدة الخطر مخالفة في ديمقراطيتها . وهندي أنه فيما هذا اللغج الجدل بأن التشريع يجب أن يكون بطيئاً كما يجب أن يتم بالمتكث والتثبت ، فإن من الميسر أن يجد المرء ضرورة لهذه الثنائية في المجالس . ويلوح أن المسألة كانت تقليداً جديداً أو (موضحة) انتشرت لدى مؤسسي الدساتير في القرن الثامن عشر أكثر منها حاجة ملحة مقبولة . فإن الأزدواج البريطاني كان تمسحاً قديماً .

فجلس الوردة وهو البرلمان أصلاً ، كان هيئة من « الكبراء » : وأعظم زعماء المملكة ؛ ثم جاء مجلس العموم بوصفه حاملاً جديداً ، ووصف أعضائه الهيئة المنتجة المتحدثة بلسان سكان المدن وأصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة . وكان مفروضاً في شيء من السجل في القرن الثامن عشر أن العامة مiale إلى الانتدفاع وراء المواقف الضاربة وأنها بحاجة ولا ريب إلى من يشكها ؛ وكان الرأي متجهاً إلى الأخذ بالديمقراطية على أن تكون ديمقراطية طلياً دائماً شكائهم^(١) قوة سواء أكانت مطلقة إلى أعلى الجبل أو منحدرة إلى أسفل . وكانت فكرة النخبة المنتفة هالة تحيط بتلك المجالس العليا ؛ فإنهم كانوا يتخفون على أساس من الاقتراع أضيق حدوداً . وهذه الفكرة الداعية إلى إنشاء مجلس أعلى يكون مغفلاً يعصم به ذوق القيمة من الرجال لا تروق المفكرين المصريين بنفس القوة التي كانت تروق بها أمثالهم في القرون الثامن عشر . ولكن فكرة المجلس الثنائي مكوناً على صورة ما أخرى ، ما تزال ولها أنصارها . فإنهم يرون بأن المجمع يحوز له - مع رجوع ذلك بتأثير عليه - أن ينظر في شؤنه من زاوية نظر - فينظر بواسطة أعين هيئة منتخبة لتمثل الحرف والصناعات والمهن والجماعات العامة وما إلى ذلك ، وهي هيئة تمثل الوظيفة ، كما ينظر من خلال أعين هيئة ثانية تختبها الجهات المحلية لتمثل تلك الجماعات . فلاتتخاب أعضاء الهيئة الأولى يعطى الرجل صوته على أساس مهنته . والثانية على أساس المي الذي يسكنه . وهم يشيرون إلى أن مجلس الوردة البريطاني إنما هو في الواقع ممثل للوظيفة ، تمثل فيه الأرض والقانون والكنيسة تمثيلاً غير متناسب مطلقاً ، على أن أصحاب الصناعات فيه وأرباب الأموال وكبار رجال الجماعات العامة وأهل الفن والعلوم والطب يمثلون مكانهم كذلك ؛ وأن مجلس العموم البريطاني جغرافي بحث في أصوله . بل لقد اقترح بعضهم في بريطانيا أنه يجب أن يكون هناك « نبلاء من المال » يتشبهون من بين زعماء نقابات العمال العظيمة . على أن هذه تأملات تخرج عن نطاقنا الحالي .

وكانت الحكومة المركزية الولايات المتحدة هيئة واحدة القوة جداً بادئ الأمر ، مكونة من كونجرس ينتظم على الولايات الثلاث عشرة ، التي تضمها بعضها إلى

بعض عناصر الاتحاد احتلاقي^(١) (كونفدرال) بينها . ولم يكن هذا الكونجرس إلا مجرد مؤتمر من مندوبين لولايات مستقلة ذات سيادة ، إذ لم يكن في يده مثلا سوى هيئة على التجارة الخارجية في كل ولاية على حدة ، ولا كان باستطاع أن يسك النقود ويجمع الضرائب بناء على سلطانه هو . وقد حدث عند ما ذهب جون آدامز أول وزير الولايات المتحدة في إنجلترا لمناقشة معاهدة تجارية مع وزير الخارجية البريطاني أن قول يطلب ثلاثة عشر مندوبا ، يمثل كل واحد منهم ولاية مختصة ؛ ثم اضطر أن يعترف بعدم قدرته على اتخاذ إجراءات ترتبط بها بلاده كلها . وعند ذلك شرع البريطانيون يتعاملون مع كل ولاية على حدة متخطين الكونجرس ، واحتفظوا بملكية عدد من المواقع على الأراضي الأمريكية حول البحيرات العظيمة بسبب عدم مقدرة الكونجرس على الاحتفاظ تلك الأقاليم حصصاً نهائياً . وأثبت الكونجرس على نفسه الضعف أيضا في مسألة أخرى مستعجلة خطيرة . إذ أنه تمتد إلى الغرب من الولايات الثلاث عشرة أراض لا نهاية لها كان المستوطنون يتطلعون سيلهم إليها في أعداد متزايدة أبداً . وكانت لكل من الولايات مديريات غير محصورة للتوسع غرباً . فكان من الواضح لكل رجل بعيد النظر ، أن استحكاك هذه المديريات مؤد على طول الزمان إلى الحرب ، عالم تستطيع الحكومة المركزية أن تحل توزيع الأنصبة . وبلغ الضعف بالحكومة المركزية وحاجتها إلى التركيز ، حدا أصبح معه أمراً مزعجاً وخطيراً بادياً ، حتى لقد جرت بعض مباحثات سرية ترمي إلى إنشاء نظام ملكي في البلاد ، وكلف ثنائيال جورهام نائب ماساشوستس ورئيس الكونجرس من يفتاح الأمير هنري البروسي شقيق فردريك الأكبر في هذا الصدد . وأخيراً دعى مؤتمر دستوري للاجتماع في (١٧٩٧) بـ فيلادلفيا ، وهناك وضعت الأسس الإيجابية للدستور الحالي للولايات المتحدة . ذلك أنه حدث أثناء السنوات الأخيرة تغير عظيم في الروح ، إذ فشا في الناس جميعاً شعور بضرورة الوحدة .

(١) الاتحاد الاحتلاقي أو الكونفدرالي : أطلق عليه الكلمة دلالة على معنى Confederation وهو الاتحاد بين الولايات كقضايا متشككة تحفظ به كل منها بسلطانها والحق الكبير من استقلالها وذلك بموجب من كلمة للاتحاد الوحدوي أو الفدرالي التي تعني على الاتحاد قائم بين الولايات . (الترجمة)

وعند ما وضعت مواد دستور الاتحاد الاحلاقي (الكونفدرالى) ، كان الناس يفكرون في فرجينيا وشعب ماساشوسيتس وشعب روتنا يلاتد وما إلى ذلك ، فأما الآن فظهر إلى الوجود فكرة جديدة ، هي « شعب الولايات المتحدة » . وحسب بيان أعلن أن الحكومة الجديدة بما لها من رئيس تنفيذى وأعضاء بمجلس شيوخ ورجال كونجرس وعسكرة عليا (التى أنشئت عند ذلك) ، إنما هي حكومة « شعب الولايات المتحدة » . كانت هيئة متدججة ولم تكن مجرد جمعية متجمعة . وكانت تقول « نحن الشعب » وليس « نحن الولايات » ، كما اشتكى ذلك بمرارة « لى « الفرجينى » . إذ هدد أن تكون حكومة اتحاد فدرالى Federal لا حكومة اتحاد احلاقي Confederate.

وأقرت الدستور الجديد ولاية بعد ولاية ، وفى ربيع ١٧٨٨ اجتمع بنىويورك أول كونجرس قام على الأسس الجديدة ، تحت رئاسة جورج واشنطن : الذى كان القائد الأعلى الوطنى طوال حرب الاستقلال . وعند ذلك مر الدستور فى طور من المراجعة جسيم ، وبُنيت مدينة واشنطن على تهر البوتوماك لتكون عاصمة الاتحاد .

٦ - المظاهر البدائية للدستور الولايات المتحدة

أسلفنا إليك فى فصل سابق وصفنا الجمهورية الرومانية ، وخطبها الجامع بين المظاهر المصرية المشوبة بالخرافات القائمة والسمة الوحشية البدائية - بأنها الصورة الثياندرالية التى تؤخذ بالدولة المصرية . وربما جاء وقت يد فيه الناس مستحذات للدستور الأمريكى وأجهزته العديل السامى للأكونات والمستحذات التى كانت لإنسان العصر الحجرى الحديث . على أنها أدت الفرض المطلوب منها أداة حسناً ، ونما شعب الولايات فى ظل حايثها حتى أصبح من أعظم المجتمعات التى ظهرت فى العالم إلى الآن ومن أشدها قوة وحضارة ، على أنه ليس فى ذلك ما يدعو إلى اعتبار الدستور الأمريكى شيئاً أقرب إلى الغاية النهائية وأبعد من قبول التغيير من طراز سكك حديد الشوارع التى تملو كثيراً من طرقات نيويورك السامة ، أو ذلك الطراز الممتاز البسيط من عمارة المنازل الذى ما يزال يعم فيلادلفيا . فإن هذه الأشياء أيضاً أدت الفرض

منها أداة حسنة ، وفيها عيوبها على أن في الإمكان إصلاحها وتحسينها ، لذا مستحذاتنا
السياسة فإن مستحذاتنا المنزلية والآلية بالضبط ، في حاجة إلى أن نتخذ إليها يد الصلح
للتواصل كلما نما العرفان والفهم .

ومنذ أن دعت خطة المنصور ، تعرضت فكرتنا عن التاريخ ومعرفتنا بسيكولوجيا
الجماعة لتطور جسيم جداً . فلما أخطأنا نرى في مصلحة الحكم والحكومة أشياء كثيرة
كان رجال القرن الثامن عشر حفا عنها ، وإذا أنهم كانوا شجعاناً شجاعة فتجمل
في تزعمهم الإنشائية تلقاه أي تكوين سياسي سابق لم ، فإن تلك التزعة الإنشائية
قصرت كثيراً عن حد تلك المرأة التي تترك الحاجة إليها في هذه الأيام الوصول إلى
حل هذه المسألة الإنسانية العظيمة ، مسألة إنشاء مجتمع إرادة مدن . فإنهم سلموا
بأشياء كثيرة نعرف اليوم أنها بحاجة أن تكون موضع أشد الدراسات الطبية تحقيقاً
وأن تلقى أشد ألوان الإحكام والصلح . ذلك أنهم كانوا يظنون أن كل ما عليهم
هو أن يغيثوا المدارس والكليات ، مع منحها منحة من الأرض للقيام بغفاتها ، وأنه
من الجائر عند ذاك أن تترك وشأنها . ولكن التعليم ليس عسياً يفت بقوة في أية تربة ،
وإنما هو محصول ضروري رقيق قد يذبل في سهولة ويقوى . ولذا لنعلم في هذا العصر
أن النقص في تطور الأجهزة الجامعية والتعليمية ، يشبه شيئاً من نقص التطور للمخ
والأعصاب ، الذي يوق نحو الكيان الاجتماعي كله . وإذا قمس مستوى التعليم العام
في أمريكا بالمعايير الأوروبية وبمعايير دولة ظهرت حتى الآن ، نجلى أنه مستوى عال ،
ولكن إذا قمس إلى ما يمكن أن يكون عليه حاله ، فإن أمريكا تعد دولة غير منظمة ،
كذلك أيضاً زعم آباء أمريكا هؤلاء أنه ليس عليهم إلا أن يتركوا « الصحافة » حرة ،
وعند ذلك يعيش كل إنسان في أسطع نور . فلم يدركوا أن في إمكان الصحافة الحرة
أن تطور نوعاً من الإرشاد والقياد المستورى بسبب حلاتها بأصحاب الاحتمالات ،
وأن في استطاع أصحاب الصحف الكبيرة أن يكونوا قرامسة يتقبلون كل رأي
وعطمين فالذي الشعور البدايات الحسنة . ويحيى في آخر الأمر أنه لم يكن مؤسسى
أمريكا أى معرفة بتقيدات التلاعب بالأصوات . فإن « علم الانتخابات » بأجمه كان
أبعد أن يتناوله وهمهم ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً من الحاجة إلى الصوت القابل

لنقل نوع طبع الانتخابات بواسطة المنظمات المتخصصة ، وكانت نتيجة الطرائق الصلبة التي كانوا يستعملونها - أن أصبح نظامهم السياسي فريسة عميقة لأجهزة الحزب الكبير التي سلبت الديمقراطية الأمريكية نصف حريتها ومعظم روحها السياسية . وأصبحت السياسة حرفة ، وحرقة وشيعة جداً . وانسحب كرام الرجال ومقتلروهم ، بعد الفترة العظيمة الأولى تاركين ميدان السياسة إلى الأعمال ، واحتلت روح الشعور بالدولة . وتحكم المحامي الخاص في كثير من الشؤون العامة ، لأن الفساد السياسي جعل المحامي الخاص أمراً مستحيلاً .

على أن نقائص النظام السياسي العظيم الذي خلفه أمريكيو فترة الثورة ، لم تظهر على الفور . فإن تاريخ الولايات المتحدة ليث أجيالا عدة ، تاريخ اتساع سريع وقدر من الحرية ، وسعادة سانحة وعمل نشط ، على حال لا نظير لها جيعاً في تاريخ العالم . وبالرغم من حدوث انحراطات كثيرة نحر علم المساواة وبالرغم من الكثير من قلة الحرية والكثير من الأخطاء ، فإن تاريخ أمريكا مع ذلك في المئة والخمسين السنة الأخيرة قصة تداخل في نصابها وشرافها قصة أي شعب معاصر آخر .

ولم يتبأ لنا في هذا البيان الموجز الذي كتبناه عن إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية أن نتجاوز إلا قليلاً مجرد الإشارة إلى أسماء جماعة العظماء الذين بدءوا هذه البداية الجديدة في التاريخ الإنساني . وقد ذكرنا أسماءهم حرصاً ، أو قل إننا حتى لم نذكر رجالاً من أمثال توماس بين وبنيامين فرانكلين وباتريك هنري وتوماس جفرسون وأبناءهم من أسرة آدامز وماديسون الكنتون هاملتون وجورج واشنطن . ومن الصبر على المرء أن يقيس رجال فترة مابين التاريخ برجال فترة أخرى . وقد يتأثر بعض الكتاب حتى الأمريكيين منهم بالأبهة المصطنعة التي تجلت في البلاطات الملكية الأوروبية وبالأعمال المنعرة المليئة بالهرج والزيف التي قام بها أشخاص مثل فردريك الأكبر أو كاترين العظيمة ، فيبدون لزاماً مومضى أمريكا هؤلاء صرباً عما قد يليه عملوا النعمة من خجل لزاماً شيء مصنوع بالمثل . فلنهم بشعرون أن بنيامين فرانكلين إنما يبدو في بلاط لورس السادس عشر في شره الطويل وثيابه البسيطة وخطه الماكر شخصاً يقتضيه الامتياز الاستغرافي نقصاً عزواً . ولكم إن جردوا حتى بدت

شخصياتهم ، لم يكد لويس السادس عشر يبلغ من المواعيد ولا من نيل العقل المده
 الكافي بجملة وصفاً لفرانكلين . فإذا كانت العظمة الإنسانية تقاس بالمستوى والليال
 والبرق ، فلا شك إذن أن الاسكتلندي الأكبر يقبوا من العظمة الإنسانية ذروتها .
 ولكن هل العظمة هي ذلك الأمر ؟ ألا يكاد للرجل العظيم أن يكون من اذا نول
 متعباً عظيماً أو تيات له فرص عظيمة — وما للمواهب العظيمة إلا فرص عظيمة —
 نعم الله وشعم إنعوانه بقلب ملؤه التواضع ؟ ولا ريب أنه يبدو أن علماً جماً من
 الأمريكي الزمن الثوري أولئك ، قد أظهروا الشيء الكثير من الاخلاص والتجرد
 من الأغراض . كانوا لا جرم رجلاً محمدين ، رجلاً ضيق مصومين من الزلل ،
 ولكنهم يبدون في جلتهم وكأنما كانوا يبنون بالحكم الشهي للمصير الذي يخلقون ،
 يبنون به في حد ذاته أكثر من حياتهم به كفاية شخصية أو غرور شخصي . ومن
 المستحيل علينا ألا نحولهم عظمة ذهنية ممتازة .

ولا ننكر أنهم كانوا عموماً المعارف ضيق التي النظر إلى الأمور ، إذ كان
 معلوم محدد زماهم وقبوحه . كانوا — شأننا جميعاً — رجلاً تنظرهم دوافع عظيمة ،
 قد نشأت في أدهانهم حوافز طيبة وسرت في أجسادهم أفكار عظيمة . ومن الباهر
 كذلك أن تلتطهم نزعات الفورة أو الكسل أو العنا أو الشر . ظر قدر الفورة أن
 يكتب تاريخاً حقيقياً كاملاً متفقاً لتكوين الولايات المتحدة ، لوجب أن يكتب في
 روح من السهولة والجلل كما تكتب ملهاة فائرة ترفع إلى أنبل الغايات . ولما نشأ
 حل الروح الإنسانية الجزلة المتطورة للتجربة في القصة الأمريكية ، قدر ما نشر عليها
 ممتازة رائعة لإذ تجارة الرقيق . وإذا نحن راعينا مسألة الهال بصفة عامة — وجدنا
 لرق غير محك مله الروح الجديدة في التاريخ العالمي وأحق بها الروح الأمريكية .

ابتدأت تجارة الرقيق في وقت مبكر جداً من تاريخ أمريكا الأولى ، وما من
 شعب أوروبي ذهب إلى أمريكا بعبداً برامة عامة من وزر ذلك الأمر . ومن الإنصاف
 أن ننظر في وقت لما يزل فيه الألماني في أوروبا من التاجية الخلقية كالمقاب يبريرة
 غيره — أن سجل الألمان هنا خبر السجلات وأنظفها من مله الرجعة . وقدك أول
 الأموال الصريحة ضد استرقاق الزوج تكون صادرة من مستوطنين للالين في
 حكام ذريع الصلابة جد .

بإسبانيا . ولكن المستوطن الألفاني كان يشتغل بواسطة عمل أحرار موق أرض
محتلة المتاح متوخة كثيراً في الشمال عن منطقة للزراع الكبرى ، فلم يكن واقعاً إذن
تحت تأثير مغريات عظيمة في هذا الشأن . ابتدأت تجارة الرقيق الأمريكية باسترقاق
الهنود لتشغيلهم في مناسر العمل بالمناسم وفي المزارع الكبرى . ومن عجب أن يلحظ
الإنسان أن لاس كاساس وهو الرجل الذي حرص على استيراد الزوج إلى أمريكا
الحلول في العمل عمل من تحت حايته من الهنود المملين ، كان بالفعل رجلاً طيباً
جداً عطوفاً على الإنسانية . ذلك أن الحاجة إلى العمال الذين يشتغلون في المزارع الكبرى
يجزوا الهند الغربية وفي مناطق الجنوب كانت حاجة حامية ملحة . وعندما ثبت أن الوارد
من الأمري الهنود غير كاف ، شخص المزارعون لا إلى الزوج لحسب بل إلى
السجون وملاهي الفقراء في أوروبا لتزودهم بالعمال الكادحين . وسوف يعلم قارئ
كتاب مول فلاترز من تأليف دانيال ديغو ، الرأي الذي كان يراه إنجليزى ذكى
القواد هند يواكير القرن الثامن عشر في عملية الرقيق الأبيض الفرجينية . حتى أن
الفرنجي جاء في وقت مبكر جداً فإن سنة ١٦٢٠ التي شهدت الآباء المهاجرات يتولون إلى
ألم في ليسوت بنفوايتلند ، شهدت هليوتا هولندياً يتزل إلى البر أول شحنة من الزوج
في جيمس تاون بفرجينيا . فكان عمر تجارة الرقيق الزوج يتأخر عمر نيوايتلند .
وكانت تلك التجارة نظاماً أمريكياً مضى عليه قبل حرب الاستقلال ما يربو على قرن
ونصف من الزمان . ونقد لها أن تواصل حياتها في كقاح مستمر الجزء الأكبر من
قرن الثامن عشر .

حتى أن ضائل المفكرين من رجال المستعمرات لم ترتفع قط تمام الارتياح إلى
هذه النتيجة ، وكانت إحدى أهم التي وجهها توماس جفرسون لتاج بريطانيا العظمى
ولوردتها ، أن كل محاولة تيلك لتحصين الحال أو الوقوف في سبيل تجارة الرقيق من
جانب المستعمرين كانت تحول دونها مصالح أصحاب الملكيات الكبيرة في أرض
الوطن الأم (أي إنجلترا) . وفي سنة ١٧٧٦ كتب الورد فارغوث إن للسوطيين
لا يمكن أن يباح لهم أن يمولوا دون تجارة لما مثل ذلك قطع السهم على الشعب
أو يبطئوها . وفتزت مسألة استرقاق الزوج إلى منزلة الصنادرة من الضمير العام

بفضل نشوء الحضرة الأخلاق التي حدثت إبان الثورة . وظهر البائس والضعيف واضحا ومُجانياً لعين الضل . لأن قانون الحقوق الفرنسي يقول : كل الرجال بطبيعتهم أحرار متساوون ، ومع ذلك فإذا خرج الإنسان إلى الهواء وجد العبد الزنجي يكسح في ضياء الشمس تحت سوط ، رئيس ، الممال !!! .

وما يشهد بالتضيق العظيم في الأفكار الإنسانية منذ أن انحلت نظام الإمبراطورية الرومانية أمام هجمات البرابرة أن أصبح في الإمكان أن يقوم الناس بمثل هذا البحث في زوايا قلوبهم وخبايا ضمائرهم . لأن ظروف الصناعة والإنتاج وحسن ملكية الأراضي قد حالت زماناً طويلاً دون حدوث إتفاقيات جديدة لنظام مناسير الأرقاء . ولكن الثورة ما لبثت أن دارت كره أخرى ، وكانت هناك مزايا مباشرة ماثلة تحصلها الطبقات المالكة والحاكمة من وراء امتعاش ذلك النظام القديم ، في النتائج والضياع الكبرى والأشغال العامة الكبيرة . فبث النظام ولكن قامت في وجهه معارضة عظيمة . وتماثل الأصوات منذ بداية ذلك الابتعاث باحتجاجات لم تبرح تزايد وتعتد . إذ كان استحياء تلك المادة مضاداً لضربة البشرية الجديد . وكان النظام الجديد لاسترقاق المناسير أسوأ في بعض مناحيه من أي شيء في العلم القديم . وما كان نظيماً مرحباً بوجه خاص ما كانت تؤججه تلك التجارة من حروب لاستيلاء الرقيق ، وما كان يجري من طراد الإنسان في إفريقيا الغربية ، ومن قساوات الرحلة الطويلة عبر المحيط الأطلسي . لأن هؤلاء المساكين كانوا يُجلبون في السفن وليس معهم في غالب الأمر ما يكفيهم من الماء والطعام ودون الرعاية الصحية الواجبة ودون أدوية على الإطلاق . حتى لقد كان الكثيرون ممن يستطيعون أن ينهضوا مع الاسترقاق على أرض الضياع الكبرى يرون تجارة الرقيق شيئاً لا تستطيع أن تسببه أخلاقهم . وكانت شعوب أودية ثلاثة مشتتة بوجه رئيسي بهذا العمل البشع : وهي بريطانيا وأسبانيا والبرتغال لأنها كانت أكبر ملاك الأراضي الجديدة في أمريكا . فأما البرامة النسوية للشعوب الأوربية الأخرى فترجع في الغالب إلى أن نصيبهم من الثمرات كان أصغر . كانوا يحصلون مائة مثلك ، فلو أتيت لما ظروف مائة كصرفت تصرفاً مائلاً .

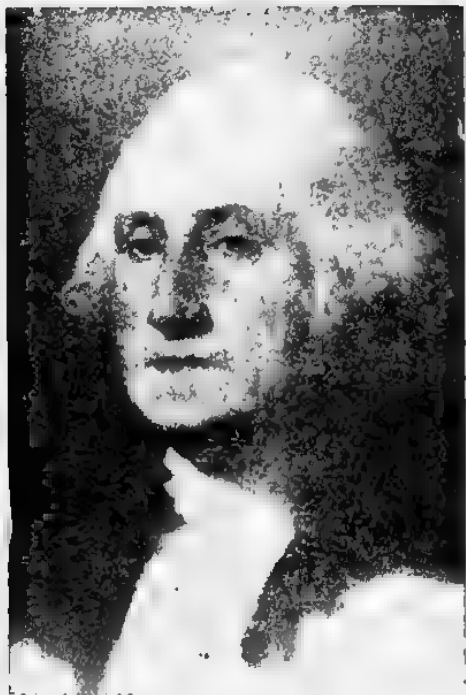
وقد ألم بانفوس هياح نشط طوال بفرء الأوسء من القرو الثامن عشر ضد اسرقاق الزنوح فى برىطانيا المعلى وى الولايات على لسواء . وقدر عدد الأرقاء فى البخلرة فى سنة ١٧٧٠ بخمسة عشر ألفا عد اسنجى اصحابهم معظمهم من جور الهند القرىة وفرجىنيا . وى سنة ١٧٧١ وعى الزرع إلى اسنحال نهای فى برىطانيا أمام اللورد مانسلىد . فإن زنجياً اسمه جىسى سومرس اسضراء مبدء من فرجىنيا إلى البخلرة . قرر ثم قىص علىه وأسء أسءداً صعباً إلى إحدى السس لكى يعاء إلى فرجىنيا . فاسنخلص من السفىة بحكم نص فى « قانون المثل *Habeas Corpus* » . وأعلن اللورد مانسلىد أن الرق حالة لا يعرفها القانون الإنجلرى ، وأنه حالة « بفسة » ، وعند ذلك حرج سومرس من المحكة رجلاً حراً .

وكان مسنور ١٧٨١ ماسوسس قد أعلن أن « النس جىماً بولدون أحراراً ومساوین » . وقام زنجى بعینه اسمه كواكو بوضع هذا النص نأ الاأنا فى ١٧٨٣ . وفى تلك السنة أصسأ أرض ماسوسس مثل أرض برىطانيا لاأنا مع الرق ؛ فكان مجرد للسول إليها معناه الاأنا إلى الحرىة . ولم نأ هذا السول فى ذلك الزمان ولاية أخرى من ولايات الاأنا . وفى أعءء ١٧٩٠ كانت ماسوسس هى الولاية الوحلة التى لم أسجل وجود « عىء واحد بها » .

وأراء الناس فى فرجىنيا جءىرة بالملاحظلة ، لأنها نأنا السنا عن الصعوباء الخاصة التى كانت نواجه الولايات البىنویة . فإن كبار رجال السیاسة الفرجىنین من أمثال واشنجون وجیمرسون كانوا یعلمون فى ذلك النظام ، ومع هذا فإن واشنجون كان بمالك العىء إذ لم یكن هناك أى شكل أسفر للسمة المنزلىة . ونشأ بفرجىنيا حزب قوى یأصر اعناق الرقیق « على أنهم



(شكل ١٨١) بسان فرانسىز



(سکر ۱۸۲) جورج واشنگٹون

كانوا بطلابون بأن يفادوا العبد للحقون الولاية في مدى سنة من الزمان وإلا
 احتجزوا خارجين على القانون . وكان من الطبيعي أن يزعموا من احتمال وجود
 مجتمع صمجي حر من السود ، الكثير من أمراءه مولودون بإفريقيا ومتشبهون بتقاليد
 أكثة لهم البشر وشعار دينية سرية مربعة - يقوم إلى جوارهم على الأراضي
 الفرجية . فلو أننا نأملنا وجهة النظر هذه استطعنا أن نفهم لماذا حدث أن عددا كبيرا
 من الفرنسيين مال إلى الاحتفاظ بكتلة السود في البلاد تحت الرقابة بوصفهم صيدا ،
 حل حين كانوا في نفس الوقت يمارسون تجارة الرقيق واستيراد أى دم جديد من
 إفريقيا معارضة صريحة . ومن اليسر على الإنسان أن يدرك أن السود الأحرار قد
 يصبحون بسهولة شوكة مضايقة ، والواقع أن ولاية ماساتوشس الحرة أخلقت
 الوقت حدودها في وجههم .

ومن هنا يوضح أن مسألة الرق التي لم تكن في العالم القديم سوى مسألة حالة ،
 أو وضع لأفراد بينهم مماثلة عنصرية^(١) ، قد انفردت في أمريكا مع مسألة مخالفة لها
 ولقد منها عفا هي مسألة العلاقات بين عنصرين من السلالة الإنسانية على طرفي
 تقسيم ، كما أنها حل أشد التباين في التقاليد والثقافة . فلو أن الرجل الأسود كان
 أبيض ، فلا مجال للشك في أن استرقاق الزنوج كان ينتج من الولايات المتحدة في
 مدى جيل واحد من مائة إعلان الاستقلال بوصفه نتيجة طبيعية للبيانات الواردة
 في تلك الإعلان .

٧ - الفكرة الثورية في فرنسا

تكلمتنا عن حرب استقلال أمريكا ووصفتها بأنها أول انفصال عظيم من نظام
 للولك الأوروبيين ووزارات الخارجية الأوربية ، وبأنها رفض مجتمع جديد لصناعة
 السيلة للمكافئية بوصفها الصورة المنبشرة للشئون الإنسانية . وما انقضت عشر
 سنوات حتى وافق ثورة ثانية أشد من الأولى إبطاءا بالشر ، ثورة قامت ضد هذه

(١) عنصرية (Racial) : تقوم على العنصر الإنساني وتولده أو تآكله . (الترجم)

الغلبة العجيبة : لعبة الدول العظمى ، وأخفى بذلك الصاحل المعقد بين البلاطات والسياسات التي أشرقت به عقلية أوروبا . حل أنه لم يكن في هذه المرة حركة انفصال بعيدة الشقة . حدثت هذه الفترة الثانية في فرنسا مهد الملكية العظمى وموطنها وقلب أوروبا ومركزها . وعلى التقدير من المستوطنين الأمريكيين اللذين اكتفوا بمجرد ابتذ الملك ، قام الفرنسيون بقطع رأس ملكهم سترسين على الثورة الإنجليزية . والثورة الفرنسية شأن الثورة البريطانية وشأن الثورة في الولايات المتحدة ، يمكن تضيق حتى مضاعفها الأولى منسلة في سماعات الملكية ومطامنها . فلن نخطط التوسع وأغراض الملك الأعظم وتدابيره ، امتلزمنا من الإخفاق على عتاد الحرب في كل أرجاء أوروبا ما يتجاوز كل تناسب مع طاقة العصر في الضرائب . ناهيك بأن ترف الملكية ومظاهر بلخها كانت تتكلف نفقات باهظة بالقياس إلى الإنتاج في ذلك الوقت . وقد حدث في فرنسا كما حدث بالضبط في بريطانيا وأمريكا أنه لم تكن الحكومة الأولى موجهة ضد الملك بوصفه ملكاً ولا ضد سياسته الخارجية بوصفها سياسة خارجية بل إلى ما يتسبب عنها من مضايقات وتكاليف تلم بحياة الأفراد ، كذلك لم يميز الناس تمييزاً واضحاً أن أصل الضرر ينحصر في تلك الأمور . وطاقة فرنسا القلبية على دفع الضرائب كانت لا محالة أقل كثيراً نسبياً من طاقة إنجلترا بحسب الإعانات المتنوعة التي كان يستمتع بها النبلاء ورجال الكنيسة . ولذا كان السبب الملقى إلقاء مباشر على عاتق عامة الشعب أثقل وأشد . وهذا الإحفاء جعل الطبقات العليا أحراراً للبلاط ، بل أن ينصبوا البلاط العناء شأهم في إنجلترا ، وهذا ساعد على إطالة أمد الحراب ، حتى إذا تنامي الأمر فعلا إلى درجة الانفجار ، كان الانفجار أهدأ حفاً وعزيقاً وتلعيراً .

ولم تكن هناك أثناء سنوات حرب الاستقلال الأمريكية إلا آمارات قليلة تؤذن بأن انفجاراً يوشك أن يحدث في فرنسا . أجل كانت الصلة متضخمة بين الطبقات الدنيا ، وكان النقد ناشطاً والهمك للناعا . والتفكير المنحصر الصريح وغيراً ، ولكن لم يبد هناك إلا أقل التذر بأن الوضع في مجمله وبشكل ما فيه من حرف وعادات واختلافات مألوفة ، قد لا يستمر في طريقه زماناً لا آخر له . كانت فرنسا تتجاوز في

استهلاكها كل طائفة لما حل الإحتاج . ولكن لم يكن هناك حتى ذلك الحين من يحس
آلام الوحدة إلا الطبقات التي ليس لها لسان تن به . وكان المؤرخ جيون يعرف
فرنسا غير المعروفة ، فقد كان بصيراً بباريس بصره بلندن ، ولكن خطأ لا يستطيع
أن يحس منه في الفترة التي اقتبسنا منها خطبة ارناب تبي بأن أياماً من الإحتلال
السياسي والإجتماعي وشبكة دائية . ولا ريب في أن العالم كان يزخر بالسخافات
والظلم ، ومع هذا فإنه من وجهة نظر الفكر العلم والحيثيات كان على درجة لا بأس
بها من الرفاهية كما كان يلوخ في حال لا بأس بها من الطمانينة .

ثم ظهر في فرنسا في ذلك الزمان فكر كبير من التفكير الحر والخطابة الحرة
والخطابة الحرة . وقام في فرنسا في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، مونتسكيو
(١٦٨٩ - ١٧٥٥) ضريباً لحون لوك في إنجلترا وإن تأخر عنه بعض الزمان .
فوضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت نفس القمص والتحليل الجوهرى
وبخاصة في كتابه «روح القوانين» .

وقد جرد الملكية المطلقة بفرنسا من هيبتها السحرية ، وهو يقاسم لوك لفضل
لذلك كبير من المفكرات الخطابة التي كانت حتى حينذاك محمول دون المحاولات
الواقعية المقصودة لإعادة بناء الجسامة الإنسانية . ولئن حدث في بداية الأمر أن
أقيمت في الأرض البراح المطلقة من ذلك الملم أكواخ هزيلة مفرطة في الضعف
بالغة النهاية في حلم الاستغفار ، فإن ذلك لم يكن راجعاً إلى خطئه هو . فإن الجليل
الذي قلبه في أواسط القرن الثامن عشر وأخرياته ، كان يفكر تفكيراً جريئاً
فيا قام به ذهنياً وعقلياً من عدم وإزالة . وتألفت جماعة من أذكى الكتاب هم
«الموسويين» - ومعتلهم ذوق أرواح نائرة من تخرجوا في مدارس اليسوعيين
المكاثرة - ونهضت تحت قيادة ديدرو (Diderot) لوضع الخطط لسلم جديد
(١٧٦٦) بوساطة مجموعة من المؤلفات . ويقول مالى (Mali) : «إن مجد
الموسويين ينحصر في كراهيتهم لكل جور وظلم وفي تشهيرهم بتجارة الرقيق ،
وحلم التسوية بين الناس في القضايت ، وضد العنقة ، والعمار الذي يجره
الحروب . . . وفيما كانوا يعملون به من التقدم الإجتماعي ، وما كان يخالفهم من

حطفت حل : دولة : الصناعة الناعمة التي شرحت تحول العالم نحوها : . وطوح أن
 غلبتهم الرئيسية تنحصر في مناصبتهم الأديان عداوة عباد . فأنهم كانوا يعتقدون
 أن الإنسان عادل بطبعه كفضه من ناحية السياسية ، على أن انقلاعه نحو الخدمة
 الاجتماعية وتكران الذات لا يتطور في العادة إلا بطريق تعليم يكون بالضرورة تعليماً
 دينياً ، ولا يدعمه إلا جو من التعاون الشريف . فأما المشكرات الإنسانية غير المنسقة
 فلها لا تؤدي إلى شيء سوى القوضى الاجتماعية .

وكانت إلى جانب الموسوعيين جماعة الاقتصاديين أو القزويروقاطيين ، الذين
 كانوا يقومون بأبحاث جريئة لجهة في شؤون إنتاج الطعام والبضائع وتوزيعها : وقد
 شهّر مؤلف « قانون الطبيعة »^(١) ، بنظام الملكية الخاصة من الناحية الأخلاقية واقترح
 إنشاء تنظيم شيوعي للمجتمع . كان هو البشير المؤذن بظهور تلك المدرسة الكبيرة
 المروعة ، مدعوة المتكرين الجاهلين^(٢) أو الخشدين في القرن التاسع عشر وهم الذين
 يحسم الناس تحت اسم الإشتراكيين .

وكان كل من الموسوعيين وغنلف فرق الاقتصاديين أي القزويروقاطيين يطلبون
 من تلاميذهم قديراً جدياً من التفكير الشديد الصيق . وثمة زعيم آين معطفاً وأقرب
 إلى قلب الناس هو روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) . أظهر مزيجاً جدياً من الصلابة
 المنطقية والحساسية العاطفية . وكان يبشر بالبدء بالخطب القاتل بأن حالة الإنسان البدائية
 كانت حالة فضيلة وصحة ، انحدر عنها نتيجة لنشاط التنافس والمزك والملمين
 ومن إليهم نشاطاً لا يكاد يبدو له سبب يفسره . وكان تأثير روسو اللغوي تأثيراً
 مفسداً للأخلاق على وجه العموم . إذ أنه لم يصب فقط بضرائه البناء الاجتماعي
 القائم بل مس كل تنظيم اجتماعي ، والظاهر أنه حين كتب عن « العقد الاجتماعي »
 كان ياتمس المآخيز لنقص ذلك العقد - الذي كتب عنه - أكثر مما يؤكد ضرورته .

(١) قانون الطبيعة : Code de la Nature .

(٢) الجاهلون : Collectifs . هم أنصار للفكر الجاهل المطلق الاشتراكية ، ولولا أنهم
 لا يدعون الثورة في عظمهم . ولهمهم يقدم كل الملكية الجاهلة لوسائل الإنتاج والجدال تحت حجة
 الحكومة . (للتفهم)

والإنسان بعيد كل البعد عن الكمال حتى أنه يصل لحد كآب يناصر متاصرة ظاهرة رأيا لا تالا بأنه لا إثم ولا جناح على من ينكر ديوتة ومن يتصرف في سلوكه الجفنى ، ويهرب من أهواء تعليم نفسه وخبره ويتطاشى ما يكلفه ذلك التعليم من نفقات ، ويقول إن ذلك السلوك ما هو إلا مظهر من مظاهر التفضيلة الطبيعية مع أن هذا هو الاتجاه الذى يكاد يكون عاما للأهواء ، ولذى ينبغي علينا أن نحسى أنفسنا منه وقاومه ، والإنسان كذلك بعيد من الكمال حتى أن كآبنا كهلنا يقلر له أن يكون صاحب ملهيب يتبعه جمهور كبير من الناس من كل الطبقات التى تستطيع قراءة ما يكتبه . وقد ساعدت هذه روسو للطيرة مساعدة كبرى على اشاعة طريقة عاطفية وشديدة الحرارة والتفروج فى معالجة المسائل السياسية والاجتماعية .

وقد لاحظنا من قبل أنه لم يحدث حتى اليوم أن يحدثا إنسانيا واحدا بدأ يوما عمله على أساس نظرى . فلا بد من أن يحدث أولا أنهار ما وحاجة إلى التوجه تسمح لنظريات بأن تتبرأ مكانها ، ولا بد أن كتابات وأحاديث المفكرين القرنين الثامن عشر والثموني ، كانت حتى ١٧٨٨ تلوح أمامنا لا تألر لما ولا قيمة من الناحية السياسية شأن اشتراكية ولیم موريس^(١) الجبالية (الإسطبقية) فى إنجلترا فى نهاية القرن التاسع عشر . فهناك فى فرنسا ، كان النظام الاجتماعى والسياسى يسير فى طريقه ثابتا ثوبا كآما مسجيش أبدا ، فكان الملك لفرنسى يخرج لقصص أو يصلح ساعاته ، وكان البلاط وعلم الطبقة الراقية يواصلان مملاتهما ، وكان للاليون لا ينون عن التجر وسائل التوسع لمشروعاتهم فى الائتمان ، وكانت الأعمال التجارية تزدى فى الخطأ وهى تسير فى عملية حل نفس امتداد طريقها القديم ليال ، ليهظها الضرائب والمكوس ، وكان الفلاحون يحملون الموم ويكسحون وقاسون الولايات ، وتتملى قوسهم بكراهية بالمة لقصر القليل . وكان الرجال يتكلمون ويمسحون أنهم يتكلمون دون جلوى . وكان فى الإمكان أن يقال أى شيء إذ كان يبدو أن لن يحدث أى شيء .

(١) ولیم موريس (١٨٢٨ - ١٨٩٦) : شاعر واقتصادي وفنان . تلم فى أكسفورد وتأثر براسكن . ألفا حسنا للاكاث وورد الجمارك وزعماره الكنائس وأسدركها شربة حيلة . (المرجع)

وجاءت في ١٧٨٧ أول رجة أصابت هذا الاستمرار للطمن الحياة في فرنسا .
 فإن لويس السادس عشر (١٧٧١ - ١٧٩٣) كان ملكاً غياً سيئ التعليم . وكان
 من سوء حاله أنه تزوج من امرأة حقا مبهلة ، هي ماري أنطوانيت شقيقة
 إمبراطور النمسا . وسأله انتصافها بالفضيلة والشفقة من المسائل التي تثير اهتمام طراز
 معين من كتاب التاريخ ، على أننا في غير حاجة إلى مناقشتها في هذا المكان . فكانت
 كما يقول بول وبريانت (١) « تمشي جنباً إلى جنب مع زوجها لا إلى جنبه » . وهي
 تكاد تكون غليظة القسيات ، ولكن وجهها لم يكن عادياً إلى حد يمنع أن يخذل
 وضع الملكة الجميلة الرومانسية الختالة . فلما أن استضفت سوارذ وزارة المالية في
 الحرب في أمريكا ، وعند ما كانت البلاد بأسرها تنقلب على حمر التمر والقتل ،
 نصبت كل سلطانها لفل أبدي وزراء الملك عن أية محاولة للاقتصاد ، ولتشجيع كل
 نوع من أنواع الإسراف الأرستقراطي ، ولإعادة الكنيسة والنبل إلى المركز الذي
 كانوا يتولونه في الأيام العظيمة أيام لويس الرابع عشر . وكانوا يريدون أن يخلعوا
 من الجيش الضباط غير الأرستقراطيين ، وأن يسطروا من سلطة الكنيسة على الحياة
 الخاصة . ووجدت في موظف من الطبقة العليا هو كالونى الخلل الأمل لوزير ماليها .
 فقد ١٧٨٣ إلى ١٧٨٧ ظل هذا الرجل العجيب ينتج النقود بطريقة تشبه السحر ، ثم
 تخفى هذه النقود ثانية بطريقة تشبه السحر أيضاً ، ثم انهار في ١٧٨٧ . وكان قد طبق
 القرض فوق القرض ، وعند ذلك أعلن أن الملكية ، أي الملكية العظيمة التي حكمت
 فرنسا منذ أيام لويس الرابع عشر - قد أفلست . ولم يعد في الطرق جمع لأي نقود
 جديدة . ولا بد من عقد جمعية من ذوي الرأي والمكانة في المملكة لتتخذ في الوقت .
 وقد تم كالونى إلى اجتماع ذوي المكانة ذاك ، وهو جمعية من العقادة والزعامة
 وجهت إليها الدعوة للإنقاذ ، مشروعا بأخط ضريبة مالية على كل عقار من الأرض .
 فالتار ذلك الأرستقراطيين إلى دوجة من الغضب عظيمة . فطالبوا بدعوة هيئة تعادل

حل وجه التقریب البرلمان الإنجليزى - - وهى « مجلس الطبقات States General » الذى لم يفتح منذ ١٦١٤ - وأسر ذور الكانة الفرنسيون على طلبهم ذلك دون أن يشعروا إلى أنهم سيفششون بذلك لساناً يجرعها يخالج من دونهم من الطبقات من قدام ، لا يحترمهم على ذلك إلا بحرية الاقتراح القائل بأنهم يجب أن يصححوا نصيباً من الثقال البلاد المالية ، ومن ثم اجتمع مجلس الطبقات فى مايو ١٧٨٩ .

وكان ذلك المجلس جمعية تضم على هيئة ثلاث : النبلاء ورجال الدين والطبقة الثالثة أى العامة . وكان حتى التصويت للطبقة الثالثة متعسباً جداً ، إذ كاد أن يكون لكل فافع ضرائب بلغ الخامسة والعشرين صوت ، (وكان قسامة الأبروشيات يحطون أصواتهم بوصفهم من رجال الدين ، والنبلاء الصغار بوصفهم نبلاء) . وكان مجلس الطبقات هيئة ليس لإجراءاتها أى تقاليد ولا سوابق . وأرسلت الاستشارات فى هذا الصدد إلى الخبراء بالشئون القديمة « أكاديمية المخطوطات » . وطلبت مناقشته الأولى حول مسألة هل له أن يجمع كهيئة واحدة أو كهيئات ثلاث ، يكون لكل طبقة فيها صوت معادل . ولما كان عدد رجال الدين ٣٠٨ والنبلاء ٨٥ والنواب ٦٢٢ ، فإن الترتيب الأول يضع الأغلبية المطلقة بين أيدي العامة ، ويحيطهم الترتيب الثانى صوتاً واحداً من ثلاثة . كذلك لم يكن لمجلس الطبقات مكان يتخذ فيه . فهل يجب أن يجمع فى باريس أو فى إحدى مدن المقاطعات ؟ واختيرت فرساي « بسبب الصب » . ووافق أن الملك والملكة كانا يقصدان أن يبالغا هذه الصبغة الفاترة حول المالية القومية مما يلزمهم لأى شئ « قليل مزعج » ، وأن يسمحا للمجلس بالتدخل فى نظامهما الإيجامى بأقل قدر استطاع . ولذا نرى الاجتماعات تتواصل فى قاعات مهلهلة ليس بأحد إليها حاجة أو فى صوبها البرتقال وملعب التنس وما إليها .

وكان أحد أصوات « رجل هو بالطبقة أو بالشخص أمراً واضحاً الأهمية الحيوية : وتجادل القوم فيه مدة ستة أسابيع . حتى إذا اقتبست الطبقة الثالثة يضع صفحات من كتاب^(١) مجلس العموم الإنجليزى ، راحت تملن أنها وحدها هى المنطة للشعب ، وأنه ينبغى ألا تنجى أية ضرائب من ذلك الحين إلا بعد إقرارها إليها . وعند ذلك

(١) أى أن الجمعية تلك وصلت سنه . (للترجم)

أطلق الملك القاعة التي كان يجتمع فيها ، وأعلن أنه يحسن بالتواب أن ينصرفوا إلى منازلهم . وبدلاً من ذلك اجتمع النواب في ملعب للنس مناسب ، وهناك أقسموا بيميناً هو يمين ملعب النس : - ألا يغرقوا حتى يفتشوا فرنسا دستوراً . واتخذ الملك مظهر القوة وحاول أن يفرق الطبقة الثالثة عنوة . ولكن الجنود رفضوا أن يطبقوا . وعند ذلك خضع الملك بشكل فجائي لخطر وقبل الجيأ القتال بأن الطبقات الثلاث يجب أن تناقش كلها وتعطي صوتها بصفاتها جمعية وطنية ولحقة . وفي نفس الوقت نقلت إلى ترساي بمعرضي ظاهر من الملكة ، فرق أجنبية تعمل في خدمة الجيش الفرنسي ويمكن أن يعتمد عليها في العمل ضد الشعب ، إذ استسلمت تلك الفرق من الأقاليم تحت قيادة المارشال دي بروجلي ، وأعد الملك العدة للراجع في منصفه . وعندئذ تمردت باريس وفرنسا ، وقررد بروجلي في إطلاق النار على الجماهير . وأقيمت حكومة مدنية مؤقتة في باويس وفي معظم المدن الكبيرة الأخيرة ، وأنشأت تلك الحكومات البلدية قوة مسلحة جديدة من الحرس الأهلي ، وهي قوة معدة أولاً وبشكل ظاهر لمقاومة قوات العرش :

وكان عصيان شهر يولية ١٧٨٩ هو في الحقيقة الثورة الفرنسية القماعة . وأخذ شعب باريس عنوة سجن الباستيل الجهم لقاء مقاومة ضعيفة جداً . وانتشر التمرد سريعاً إلى كل أرجاء فرنسا . وأحرق الفلاحون في المقاطعات الشرقية والغربية كثيراً من قصور النبلاء ودمروا صكوك القابهم ، وقطعوا أصحاب القصور أو طردوهم عنها . وانتشر العصيان في كل أرجاء فرنسا . ولم يمض شهر حتى كان نظام هيئة الاستغرافية الهالي القديم قد انهار ، وفر إلى الخارج كثير من كبار الأمراء ورجال البلاط من حزب الملكة . ووجدت الجمعية الوطنية نفسها تدعى لإنشاء نظام جديد ميامي واجتماعي لعصر جديد .

٩ - الجمهورية الفرنسية المتوجة ٨٩ - ٩١

كانت الجمعية الوطنية الفرنسية أقل توليقاً بكثير في ظروف عملها من الكونجرس الأمريكي . فقد كان ذلك الكونجرس يجد بين يديه نصف لارة يتصرف فيه بملء

حريته ، وليس أمامه من خصم يعارضه إلا الحكومة البريطانية . وكانت منقلاؤه
 اللبينة والتصلبية متنوعة ، وهي في مجموعها خير ذات قوة كبيرة ولكنها تنطوى في
 الحملة على الود والصداقة عمود . وكانت الثقة نائية بينه وبين الملك جورج في إنجلترا ،
 وقد أخذ يتحدر في بطنه بحر حالة من البلاهة . ولكن معاملة أحكام الدستور وبجمله
 فعلا اقتضت من الولايات المتحدة سنوات كثيرة . وكان الفرنسيون من الناحية
 الأخرى محولين بيجران ميلين إلى المدعون لم فكريات ميكافلية ، ويحتم على
 صندورم ملك وبلاط يصران على عمل الشر ، وكانت الكنيسة هي موحدة منظمة
 ترتبط بالنظام القديم ارتباطاً لا انفصام له . وكانت الملكة على ترسل متواتر مع
 الكونت دالتوا والدوق دي بربون والأمراء المبعوثين الآخرين الذين كانوا يحاولون
 أن يحصلوا النساء وروسيا على مهاجمة الشعب الفرنسي البليد . هذا إلى أن فرنسا كانت
 من قبل ذلك قد انقضت على حين كانت الولايات المتحدة موارد لانهاية لما لم تحدد
 إليها يد التنمية بعد ، وكانت الثورة ياتقاسمها على تغيير نظام ملكية الأراضي والعمل
 بالأموات قد انتجت اضطراباً اقتصادياً ليس له مثيل في حالة أمريكا .

تلك هي صعوبات الموقف التي لم يكن إلى تجنبها ميل . ولكن الجمعية عثقت
 نفسها بالإضافة إلى ذلك بصعوبات أخرى . فلم تكن هناك إجراءات منظمة . على
 حين كان مجلس العموم الإنجليزي ما يربو على خمسة قرون من خبرته في عمله .
 وبعيداً ما حاول ميرايو أحد كبار عظماء الثورة الأول ، أن يحمل إغوائه على
 اقتباس القواعد الإنجليزية الموجهة بمجلس العموم . ولكن شعور الزمان كان ميلا
 بكثرة إلى الصباح والقطاعات الدرامية ، وما شاكل ذلك من إظهار « التفضيلة
 الطبيعية » . ولدت الفوضى الصرت على أعضاء الجمعية وحطم . قد كانت هناك
 شرقة كبيرة الزولر - شرقة فاقت في كبرها كل حد مناسب ، فمن ذا الذي يمنح
 للوطنين الأحرار من أن يكون لهم صوت في الرقابة القومية ؟ ومن ثم كانت هذه
 الشرقة نفس يجهور من الناس تواف إلى الاستمتاع « بمشاهدة التهاور والتصورات » ،
 مستند للتصفيق أو الصباح لإسكات الخطباء للتكلمين من تحت . اضطروا الخطباء
 الأوسع مقدرة أن يلعبوا لأصحاب الشرقة ، وأن يسلكوا سبلا عاطفية مثيرة

الحراس . وكان من السهل إبان الأزمات أن يتدخل كل من شاء حاجة من الفخاه يقضون على المناقشة .

على هذه الشاكلة شرعت الجمعية وهي مغולה الأيدي في القيام بواجبها الإنشائي . وفي اليوم الرابع من أغسطس أحرزت نجاحاً لحاداً عظيماً . فاصدرت - يقودها كثير من أحرار النبلاء - سلسلة من القرارات ، تلتها نظم موالى الأرض (Sertis) والامتيازات والإحفاء من الضرائب ، والشعور ومحكم الإقطاع - (ومع هذا فإن هذه القرارات لم تتدخل حين التنفيذ في أجزاء كثيرة من البلاد إلا بعد ذلك بثلاث سنوات أو أربع) . وذهبت الألقاب فيما ذهب . وقبل أن تصبح فرنسا جمهورية يزمن مفيد كان من الجرائر أن يوقع النيل باسمه مقروناً بلقبه . وحبت الجمعية نفسها طوال أسابيع ستة (استمع فيها علم البيان بفرص ذهية لانهائية لما ١٩) ، على صرخة « إعلان لحقوق الإنسان » على قرار قوانين الحقوق التي كانت هي التوطئة الإنجليزية للمهنة للتغيير المنظم . وشرع البلاط في نفس الوقت يسير المؤامرات لإحداث انقلاب رجعي وشعر الناس أن البلاط بأثرهم . وحدثت القصة ما هنا في خطط فيليب دورليان ابن عم الملك وتلميذاته النحلة الخبيثة ، وكان يأمل أن يستخدم الخلافات الحلول على لويس على العرش الفرنسي . وضحت خطائهم في الياله وروبال Palais-Royal للجمهور ، وأصبحت مركزاً عظيماً للمناقشات المتطرفة . وحل وكلاؤه الشيء الكثير لإذكاء حدة شبهات الشعب نحو الملك . وبلغت الأمور حدّاً لا يطاق بسبب نقص في المواد الغذائية اعتبرت حكومة الملك مسئولة عنه .

وسرعان ما ظهرت بفرساي القرقة الثلاثرية^(١) للموالية للملك . وكانت العائلة الملكية تلجأ للتدابير لتزاد بعنا عن باريس - لكي تتحلل من كل شيء أبرم وتعيد الاستبداد والتبذير . فارتفع المالكين المصوريون أمثال الخراف لا غابيت أياما اتزعاج . وحدث في ذلك الوقت أن اندلع غضب الناس حادة قلة الطعام ، ونحوه في

(١) فاندرو Flandern هو الاسم الذي كان يطلق قديماً على المنطقة الشمالية الشرقية من فرنسا وعلى بعض أجزاء من بلجيكا وهولندا . (الترجمة)

دور انتقال هن إلى غصية قوية ضد ما يتهدد القوم من الحركة الرجعية الملكية . إذ كان الاحتضاد السائد أن قصر فرساي يضم قلداً وفيراً من المواد الغذائية ؛ وأن الأطعمة كانت تخزن هناك بعيدة عن أيدي الجمهور . وكان الإضطراب قد غلب على حقول الجمهور بسبب شائعات لعلها كانت مبالغاً فيها ، عن إقامة مأدبة حديتاً في فرساي ، تجل فيها المداهمة للشعب . وإلحکم بعض المنتفضات من وصف كارليل لهذه المأدبة الفاضحة .

« سمع بقاعة الأوبرا . وسوف تصبح قاعة هرقل حجرة استقبال . ولم يقف الأمر عند حد ضباط غلاتور . بل تعداه إلى الضباط السويسريين ، السويسريين المنة . كلايل ضباط الحرس الوطني لفرساي ، من كان منهم يحمل في قلبه مسكة من الولاء يحضر المأدبة . وسوف تكون وليمة قل نظيرها .

« والآن هب أن هذه الوثيقة أمضى أن القسم الوقور منها قد تم ، وأن الوجهة الأولى قد احتضيت . وحباً أن غيب الولاء المألوف قد شرب ؛ فجاه غيب صحة الملك ؛ ثم نجب للملكة في صفات تصم الآذان ؛ وألفظ نجب الشعب أو قتل ثبيل ... وانقرض أن الشبانبا تفيض أنهاراً ، ويصحب ذلك خطاب كلها شجاعة وإقدام ، ولكنه إندام السكرارى المضمورين ، هذا إلى عزف آلات موسيقية ؛ ويأخذ خفاف الأحلام في رفع عقيرتهم أكثر فأكثر كل يطول أضاء خفة ويطاوله ضجة وعبجا . فأما صاحبة الجلالة وهي تيلو الليلة عززوة القواد بشكل غير عادي (وصاحب الجلالة جالس قد ملأه القنص في طول يومه بالتبذل) ؛ فهم يجبرونها أن منظر الويفة سيدخل إلى قوادها السرور . انظروا إليها إنها تدخل هناك خارجة من حجراتها المتأخرة خروج قصير من بين أطباق الغنام ، هذه للملكة الفاضلة أهدى ملكة على عرش الأندلس ؛ يسير إلى جوارها الزوج الملكي ، وولي العهد الصغير بين فراعصا . وها هي ذى تزول من المقاصير ، بين مظاهر الروعة والتمثلة والتهايل ، وتسير حول المناضد سير الملكات ؛ وهي تحنى رأسها برشاقة ؛ وتظهر نظرات ثم من الحزن والأمل ، بخالطه مع ذلك معنى الشكران والإقدام ، وعلى صدرها الأمل الحنون مقعد رجاء فرنسا المنتظر . ثم تعرف بالحقبة للموسيقية : باريكارد -

يا - يا - ملكي ، إن العلم يتقل - عثك . فهل يستطيع الإنسان أن يفعل أكثر من أن تتألم به المواقف إلى أقصى حد شفقة وولاء وشجاعة ؟ وهل يستطيع التنبؤ لشبان غفاف الأحلام إلا أن يظهروا بواسطة قبحاتهم اليوربونية البيضاء ، التي سلبتها إليهم الأناجيل الجميلة ، وبتلويع السبوف التي استلثت تقسم على عمة الملكة ، والنوم على القبعات القومية بالأكلام ، ويتسلق المقاصير التي قد يصلونها أصوات لتلخل أو لحجاج ، وبالصياح بأنكر الأصوات وأشد الحق وقندان الرشد في التلخل والتلجج - مبلغ الحالة الجوفاء العاصفة التي هم عليها أثناء تناولهم الخب ؟ .

« وليلة طبيعية ، هي في الأوقات العادية أمثلة لا ضير فيها ولكنها الآن كعالة . . . فإن ماري انطوانيت المسكينة قد تجمع حولها لصحاء السوء ، وحلت بها في المرأة من حلة الطبايع ، وحرمت بعد نظر الملوك ! فالأمر إذن طبيعي جداً وهو مع ذلك من الحفاقة بمكان . ففي اليوم التالي تصرح جلالتها في خطبة رسمية عامة أنها متهمة يوم الخميس . . . ولنضع مقابل هذا تصوير كارليل لحالة الشعب .

« تسيفت والأمومة ، في حسيحة الإثنين في طوابق الطرح القلعة ، تقسم أطفالاً ليكون طالين الخبز . ولا بد للأمومة من الإطلاق إلى الشوارع وإلى صفوف (طوابق) باعة الخضير والخبازين . حيث تلتقي بأوممة قد أغرت بها الحمصة ، وهي مليئة بالعطش عليها والإكارة لها . يا لنا من نساء قصصات ! ولكن بدلاً من الوقوف في صفوف الخبازين لماذا لا نذهب إلى قصور الأرستقراطية التي هي الشر كله ؟ ها هنا Allons . ولنجمع . ها إلى دار البلية . . . وإلى فرساي . . . »

وحدث في باريس الشيء الكثير من الصياح والخبى واللقاب ، قبل أن تحققت هذه الفكرة الأخيرة . وظهر فرد اسمه ميار له قدرة على التنظيم ، وانشغل نفسه نوعاً من الزعامة . وليس هناك أقل ريب في أن زعمه القوية ، والجزال لافايت بوجه خاص ، قد استمضوا وتنظموا هنا الإنشجار للحصول على تلك ، قبل أن يفلت من أيديهم - كما أفلت شارل الأول إلى أكسفورد - لينأى حرباً أهلية . وشرعت المظاهرة وقد تقدم الأصيل ، سير رحلتها للكونة من أحد حشر ميلا .

وما نحن مود إلى الاتخاس من كارليل :

« كان مايار Mailard قد أوقف من يهودهم من المشردين المشعين على قفة آخر
تل ، وعند ذلك تبدو لعين الرافئ المتسجب فرساي وقصر فرساي وميراث الملكية
المتراس الأطراف . ومن على بعد في الناحية اليمنى فوق ماوى (وسان جرمين إن لاي)
حتى الناحية الأخرى نحو ولمويتة ، إلى اليسار ، مناظر كلها جمال ، وهي ترقد في
رقق ، كأنها ينجم عليها الحزن في أحضان ذلك البحر المسم الرطب ، وأمامنا تبدو عن
كتب فرساي قديمها وجديدها . وبينهما ذلك الشارع العريض الظليل شوارع فرساي ،
وهو شارع شجرة ضمن الإبراق ، وحجب يبلغ عرضه فيما يقربون ثلاثمائة قدم ، وقد
امتدت به صفوفه الأربع من شجر الدردار ، ثم يبدو بعد ذلك قصر فرساي ،
منتهية بيجات ملكية ومروج فناء وبرك صغيرة متألقة ، وعرائش عظيمة عدا بيوت
التيه (لا يراى) ، وبجموعة وحوش ضارية والبرايون الكبير والصغير ، ومساكن
عالية الأبراج ، وأماكن مودقة ممتعة ، يسكنها كفة هذا العالم السفلى . ومع ذلك
لا يمكن أن نستبعد منها الموموم القاتمة الشوهاء ، وإليها كان الحرج المشرود يتقدم
آنذاك . مسلحاً بالقضبان ذات الرموس . وسقط المطر عندما حيم السماء .

فانظر ثم الميدان كله وقد تغطت جميع جنباته القصبة ، بيماعات من نساء القلرات
يقطرن من ماء المطر ، ومن رجال من الدماء الأسافل ناحل الشعور وهم مسلحون
بالبلط ، والخوازيق الصلبة والقرايينات القديمة ، والمراوات ذات الحدد
(Bastons ferres) والعصى التي تنهى بسكاكين أو نصال سيوف ، ونوع من الخفاطيف
التي اصطعدوها بأيديهم ارنجالا ، وليس يبدو عليهم إلا أنهم عصاة جلياح . وبهز
المطر والحرس الخاص يتخلل غملا بخيله ومط الجواهر التي تضع عليه كالأنمي ،
وتسفر منه وهو يهيج ويستقير من أمامه من الجماعات ما يفرق هاهنا لكي
يتجهز هناك .

« ويحيط عدد لا يحصر له من النساء القلرات بالرئيس والوفد ، وبصرون على
اللعاب معه : ألم يرسل جلالة بنفسه بعد أن نظر من التافذة ، من خرج ليسأل
حما تريد ؟ تريد الخبر . والكلام مع الملك ، ذلكم هو الجواب . ويضاف إلى الوفد

بين الصخب الشديد والخطبة اثنتا عشرة امرأة ؛ ثم يسرن مع مظفرات عبر الميدان .
وبين جماعات متفرقة من الحشد ، ورجال من الحرس الخاص ، يتحركون بجيادهم
تحت النظر المتهمر .

والخبر . . . مع عدم الإكثار من الكلام ، . . . طلبات طبيعية .

وتردد على الأسماع أيضا أن العريات الملكية أخذت تشد إليها الخيول ، كأنها
هي ذاهبة إلى مدينة منز . وقد ظهرت بالفعل عند البوابة النطقية عربات سواء
أكانت ملكية أم لم تكن . بل إنهم أبرزوا أو استشهدوا بأمر كتابي من بلدية
فرساي - وهي بلدية ملكية وليست ديمقراطية . ومع هذا فإن داوريات فرساي
أدخلها ثانية ، بأمر مشدد إليهم من ليكراتير اليقظ . . . وهكذا استولكت
أشباح الليل ، بين السجيج والطر ، أصبحت كل الليرات مشمة مظلمة . وهي
أصبحت ليلة شوهلت في تلك الأماكن . وربما كان ذلك منذ ليلة بارثولوميو^(١)
عند ما كانت فرساي - كما كتب ذلك باسومبير - قصيرا هزيلة ، فأتانا
بشيتاوة أورغيوس^(٢) ليضطر بلعمة من لواتره الشجية هاته الجماعير المجنونة إلى
التزام النظام ! إذ كان يبدو أن كل شيء هاهنا قد تشتت وتبدد وخرج عن موضعه
خروجاً بعيداً . وأخذ أهل الناس قلداً في الدنيا - كأنما يحلبهم تيار إلى أسفل -
يتصلون بأدنى الناس . أخذت دماء فرنسا وزعانفها وأندالها تطيف بملكية فرنسا
وأقليلها . ورغمت المراوات قوات الرعوس الحديدية حول الحاج لغاية أخرى غير
حراسه ! وانطلقت مع السباب للوجه للحرس الخاص ترميه بالسطلل للدماء والمضادة
الوطنية ، مدمعات قائمة ترجع اسم الملكة .

ويعتصم البلاط مرتدا لا يقدر على شيء : ويقلب رأيا مع تقلب أهواء الميدان ،

(١) بارثولوميو : يخبر الكاتب هنا إلى ملعبة المريجيتوت التي حدثت بباريس في عيد القديس
بارثولوميو في ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ بأمر الملكة كاترين دي ميديس . (لترسم)

(٢) أورغيوس : تمثله الأساطير في صورة أهرق ضار قبل عور ، وهو يبدل قيثارة كلان ويسمى
بسماء أنفها لا الكائنات الحية وحسب بل إن الأتله والمصور كلكت تطرب بشيء لذلك وتنتعج
أرواحه . (لترسم)

ومع تنوع ألوان الشائعات الآتية من باريس . شائعات تأتي متكاثفة تنفي آونة من السلم وأنا من الحرب . ويتشاور نيكرو والوزراء كافة ، فلا يخرجون بتيبة . والتفاهات تحتطسها عاصفة هوجاء من هجمات : لسوف تفر إلى مزايل لن نفرا ونحاول المركبات الملكية الخروج مرة ثانية . . . وإن كان ذلك مجرد المحاولة . على أنها تدفع إلى الداخل مرة ثانية ، تسلمها دوريات ليكواتر ،

ولزام علينا أن نحيل القارئ إلى كارليل ليطلعهم بقدم الحرس الوطني ليلان تحت قيادة الجنرال لافاييت نفسه ، وبالمساومة بين الجمعية والملك ، وانفلاق نار القتال في الصباح بين الحرس الخاص والمحاصرين الجياع ، وكيف دخل الآخرون القصر حنة ولوشكوا أن يعملوا في الأسيرة المالكة ذبحاً . وجاء لافاييت وجنوده في الوقت المناسب فحاولوا دون ذلك . ووصلت للجمهور الجائع من باريس في الوقت للملائم هريات عملة بالجز . وأخيراً استقر الرأي على وجوب ذهاب الملك إلى باريس .

١ إن عسير للمراكب الاحتفالية أمر لم يشهد علناً من القليل ، فهناك مواكب القصر والترحيب بالأبطال لدى الرومان ، وهناك دق الصنوج الكابرية ^(١) Cathari والمراكب الملكية والجنائزات الإيرلندية ، ولكن هذا الركب المتعلق بالملكية الفرنسية وحى تسيير إلى مهدما أمر يتظرنا نقشه . فلي أحتاد آميال عديدة بعرض يتلافى في زوايا القصور والابهام . - ذلك أن كل المنطقة المحاورة تتجهز لتطعم . يسير الجمع في بطء ويركد في مضيق حتى ليكاد يأمن ، كأنه بحيرة بلا شواطئ ، ولما مع ذلك بحسب ضجة تشبه ضجة شلالات نياجارا ، أو تشبه بابل وبندلام ^(٢) . وعملت ضرب بالأرجل في الماء ودوس بها على الأرض . ثم ارتفع أصوات بالهتاف والصييح وإطلاق وإبل من طلقات القرايينات ، إنها أصلى قطعة من القوسى شوهدت في تلك القصور الأخيرة ! حتى تصب نفسها رويداً رويداً ساعة حصة

(١) الكابرية Cathari : مجموعة من الألف كانت تدين في الأزمنة القديمة بأسيا القصور وأجزاء من بلاد اليونان . وكانت قوى شيطانية في العالم السفلي كما كان يعتقد أنها تمتلك في الحسوة . (المعجم)

(٢) بندلام : أقيم مستشفى للمجانين بأوروبا . (المعجم)

النسق المتكاثفة ، في باريس المنتظرة ، بين صف مزدوج من الوجوه يمتد من ياتى إلى
فار البلدية .

، تأمل هذا : عقدة من جند الحرس الوطنى ، من خلفها أوتال من المدفعية ،
ورجال يحملون الرماح ونساء بالحرايب ، يركبون المدافع والعربات والمركبات ،
أو يسرون على الأقدام . . أرخفة قد رشقت على سن السونيكيات ، وغصون
عصراء قد رفعت في ألابيب البنادق . ثم يأتى بعد ذلك المركب الرئيسى ، حصون
حرية محملة بالقصص ، أقرست لهم من غازن لمراسى انخاساً للسلام . يسر من خلفها
جاعة لا وجهة لهم من رجال الحرس الخاص ، وقد غلبت عليهم الفلة وهم في قبسات
الحرس المشاة (الجرينادير) . ومن خلف هؤلاء مباشرة تاتى المركبة الملكية . ثم تاتى
مركبات ملكية . إن هناك هبة من النواب الوطنيين كذلك ، يجلس ن بينهم ميريو
وهو لا يندى أية ملحوظة . ثم يأتى خليط من الحابل والقنابل يسرون كأنهم حرس
المؤخرة ، من الفلاندرين ، والسويسريين والفلة السويسريين وآخرون من الحرس
الخاص وقطاع طرق وكل من لا يستطيع أن يتقدم إلى الأمام .

ولما بين أطواء هذه الجموع تفيض بغير حدود أهالى حتى مانت أنطوان وكنية
الكثرد النسابة . ويسير النساء بوجه خاص حول المركبة الملكية . . منشحات بالألوان
الضلابة وهن يفتن أغاني كلها المز والمز ، ويشرن بإحدى أبدين إلى المركبة الملكية
التي يقصدن بها ذلك المز ، ويشرن باليد الأخرى إلى عربات الأطعمة ، وتعلن
هذه الألفاظ : تشجعوا أيها الإخوان ! : لمن يحتاج بعد الآن إلى الخبر ، إننا محضرون
لكم الحجاز والحجازة وابن الحجاز .

• ويلوث المطر الألوان المظلمة ، ولكن هيب السرور متجد لا يستطيع إطفاءه أى شيء .
لم يصبح كل شيء الآن على ما يرام ؟ قال بعض هؤلاء النساء القويات بعد ذلك
يضع أيام - آه بسلام يملكنا الطيبة ، لا تعودى إلى الحياة مرة أخرى حتى
تجلك كلنا ! .

كان ذلك هو يوم ٦ أكتوبر ١٧٨٩ . وأقامت الأميرة المالكة في الطولى قرابة

سنتين لم يكثر صفوحا أثناءها مكدور . فلو أن البلاط حافظ على هذه الطائى مع الشعب ، لظل الملك كان يموت هناك وهو بعد ملك . حافظت الثورة الأولى على كيانها من ١٧٨٩ إلى ١٧٩١ ، وأصبحت فرنسا ملكية مقيدة ، واحتفظ الملك بسلطان مقوس في قصر التويلرى ، وطفقت الجمعية الوطنية تحكم قطراً شمله السلام . فلو أن القارئ رجع إلى خرائط بولندة التي قلعناها في الفصل السالف ، لعرف ما كان يشغل روسيا وبروسيا واتصا في ذلك الأوان . فعلى حين كانت فرنسا تنشئ التجارب في جمهورية متوجة في الغرب ، كان يجري آخر تقسيم للجمهورية المتوجة^(١) في الشرق . وماذا لو أمهلت فرنسا قليلا .

وإذا نحن تذكرنا عدم خبرة الجمعية ، والظروف التي كانت تعمل في كنفها ، والتغيرات المحيطة بكل شئونها ، وجب علينا أن نسلّم بأنها قامت بقدر جميع جهداً من العمل الإثنائى . وكان الشيء الكثير من ذلك العمل سليماً قوياً وما يزال باقياً إلى اليوم ، وكان كثير منه تجريبياً . فهدم ونقص . وكان في بعضه الكوارث . فحمت نخبة قانون العقوبات ، والنفى التمييز ، والحبس الحسنى ، والاضطهادات الدينية . وأعطت مقاطعات فرنسا القديمة : نورمانديا وبرغنديا وأشباههما مكانها لمائتين محافظة أو قسماً لإداويا وجعل باب الترقى إلى أقصى رتب الجيش مفتوحاً للرجال من كل الطبقات . وأقيم نظام بديع بسيط من الحاكم ، ولكن لفه كثيراً أن القضاء كانوا يمينون بانتخاب شعبي ولأجل قصير . فكان هذا الأمر يعمل من الجمهور نوعاً من محكمة استئناف نهاية ، واضطر للقضاء — شأن أعضاء الجمعية أن يظفروا لأهل للفترة^(٢) . وامشرت الدولة على جميع ما كان للكنيسة من أملاك حائلة وأعطت تدبيرها بنفسها . وقوضت كل المؤسسات الدينية التي لا تشغل بالتعليم أو الإحسان ، وجعلت ممتلكات رجال الدين فرضاً على الأمة . ولم يكن هذا في حد ذاته شيئاً تكرهه الطبقة الدنيا من رجال الدين بفرنسا ، الذين كانوا في غالب

(١) يريد بها المرافعة مرة بولندة التي اكتسبتها تلك الدول الثلاث . انظر المجلد ١١١٦ وما بعده (المترجم)

(٢) وهو تسيير مجزئ ، مدة كل دورة الحسول كل التمية بأمره وملاوة لوائح العمل وتجهيزاتها وأمراتها . (المترجم)

الأحبار يتناولون أجوراً يمتد بشكل فاضح بالموازاة إلى رؤسائهم الأكثر ثروة . ولكن أضيف إلى ذلك أن وظائف القسيسين والأساقفة جعلت بالانتخاب ، وهو أمر أصاب الفكرة الأساسية للكنيسة الكاثوليكية في العصور ، وهي التي كانت تمركز كل شيء حول البابا ، والتي تأتي فيها السلطة من أعلى إلى أسفل . والواقع العملي أن الجمعية الوطنية أرادت أن تجعل الكنيسة الفرنسية بروتستانتية بضرورة واضحة ، بروتستانتية في التنظيم إن لم يكن في المادى . وحدثت في كل مكان مناقشات ومنازعات بين قسوس الدولة الذين أنشأهم الجمعية العمومية وبين القسيسين المعادين (الذين لا يخلعون الحجاب) ، الذين اعتصموا الولاء لروما .

وهناك شيء عجيب فعلته الجمعية الوطنية فكان من أثره أن أضفى من قبضتها على زمام الأمور . إذ أنها أصدرت مرسوماً يقضى بأن لا يكون أى عضو من أعضائها وزيراً تنفيذياً . وكان ذلك عاكسة منهم للدستور الأمريكى ، حيث الوزراء هناك أيضاً منفصلون عن الهيئة التشريعية . وكانت الطريقة الإنجليزية تقضى بأن يكون كل الوزراء أعضاء في الهيئة التشريعية ، وأن يكونوا على استعداد للإجابة على الأسئلة وتقديم الحساب عن تصرفهم للقوانين وإقرارهم لشئون الشعب . فلما كانت الهيئة التشريعية تمثل الشعب ذا السيادة ، وجب إذن ولا شك أن يكون الوزراء على الوثق إتصالاً بسلطانهم . وتسبب عن فصل الهيئة التشريعية عن التنفيذية بفرنسا حدوث كثير من سوء الفهم وعدم الثقة . إذ كانت السلطة التشريعية تمرزها السيطرة والسلطة التنفيذية فقيرة في القوة المادية . فأنضى هذا إلى أن أصبحت الحكومة المركزية غير فعالة إلى حد أنه كانت تكتشف في كثير من النواحي في ذلك الزمان كوميونات (أحياء) ومدن يقرن أنها مجتمعات تحكم نفسها بنفسها أو تكاد ، فكانوا يقبلون أوامر باريس أو يرفضونها حسب ما يحلهم هوام ، وبأبواب دفت للضرائب ، ويقسمون أرض الكنيسة طيناً لمشايخهم المحلية .

٩٥ - ثورة اليقافة

من المحلل جداً أنه لو أن الجمعية الوطنية حصلت على عون من الخارج لتجلى فيه الإخلاص ووطنية يتبدى فيها التصقل من جانب السلاء ، فحسب أن كانت تلك الجمعية

تصنّف في طريقها حتى تصل إلى شكل ثابت للحكومة برلمانية لفرنسا - بالرغم من شرفاتها العالمية المصجج وبالرغم من غلبة روح روسو عليها ومن ضوولة خبرتها - وكان لها في مبرايور رجل دولة له بصيرة نافذة باحتياجات المصر. وكان يعرف مواطن القوة والضعف في النظام البريطاني ، وكان جلياً أنه قد نصب نفسه كبؤس في فرنسا نظاماً سياسياً مماثلاً للإنجليزي على أساس اقتراح أصبح عمالاً وأشدّ أمانة وشرفاً . حقاً إنه قد استمرّ نوعاً من الغزل الرومانتي^(١) مع الملكة وكان يلقاها خفية ، ويصرح عنها جداً غير مارج أنها هي « الرجل الوحيد » حول الملك ، ويكاد في هذا الأمر أن يصم نفسه بالنباء والحفاة . حل أن خطه كانت تقوم على نطاق أوسع كثيراً من نطاق سلام الثوري الخفية : ولا شك أن فرنسا فقدت بموته ١٧٩١ واحداً من أشد سياسيينها قدرة بناء ، وكذلك فقدت الجمعية الوطنية آخر فرصة للتعاون مع الملك . وحيثما وجد بلاط ملكي كان هناك في العادة التآمر ، وكانت تدبيرات الملكيين وبث الملكيين الشر آخر قصة يضحونها في كفة الميزان ضد الجمعية الوطنية . ولم يكن الملكيون يهتمون بمبرايو ولا كانوا يهتمون بفرنسا ، وكل ما كانوا يريدونه هو الرجوع وكفى إلى فردوس امتيازاتهم المقدود ، وإلى صلتهم ، وسرفهم الذي لاحظه . وخيل إليهم أنهم لو استطاعوا قطع أن يقدوا الأمور على حكومة الجمعية الوطنية ليجعلوا إدارتها للشئون أمراً مستحيلاً ، فإن النظام الرعيع التنفّر عظام الدولة لتقديمه لا بد أن يبعث من جديد حية معجزة من المعجزات . ولم يتألمهم أي إغراك للاحتيال الآخر وهو هوة الجمهوريين للتطرفين التي كانت فائرة فائها تحت أقدامهم .

وفي إحدى ليالي شهر يونيو من ١٧٩١ ، حدث بين الساحة الحادية عشرة ومتصف الليل ، أن الملك والملكة وطفلهما إتسلوا متنكرين من قصر الثوري ثم اختفوا باريس وجلين ، وتاروا من شباك المدينة إلى الشرق ، حتى وصلوا

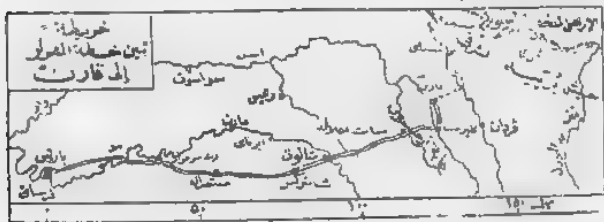
(١) في تلك الفترة إلى رواية سبين زينا التي عني الملكة فيها نيل (إجلية) مثلاً طرياً .
(المترجم)

آخر الأمر إلى حرب مسلحات مملعة لتقلهم إلى شالون . كانوا يفرون للانضمام إلى جيش الشرق إذ كان جيش الشرق « ماليا » أى أن كائنه وضباطه على الأكل كانوا على استعداد للتخلي عن فرنسا والانضمام إلى الملك وبلاطه . وهكذا وصلنا آخر الأمر إلى المظاهرات التي تروى لواء الملكة ، ويستطيع الإنسان أن يتخيل وضعهم الفشوة والسرور يوم القنة الصغيرة والكميال يبعد بينها وبين باريس . وكان ينتظرهم فوق التلال البعيدة ، التوقيع والاحتفاء العظيم ولم الأيدي ثم تأتي العودة إلى فرنسا . وإطلاق بسير النار على دهماء باريس ويضرب طلقات من المدافع إذا استلزم الأمر وإعدام بعض الناس وإن لم يكونوا من ذوي المكانة . وعهد إرهاب أيضاً^(١) يستمر أشهراً قليلة . ثم يعود كل شيء فيصبح على خير ما يرام . وربما عاد كالرقي أيضاً ومعه تغييرات مالية جديدة . وكان في ذلك الوقت مشغولاً يجمع المند من بين ظهراني الأمراء الألمان . وهناك عدد جم من القصور لا بد من إعادة بنائها ، ولن يكاد يكون في استطاع القوم الذين أحرقوا أن يتشكروا إن وقع عبء إعادة بنائها ثقيلاً فاهماً نوعاً ما على أعتاقهم القلعة .

على أن كل هذه الآمال الزاهية المرجوة ما لبثت حتى تعطلت في تلك الليلة تحطماً قاسياً عند ثارن . فإن صاحب دار خيل البريد عرف الملك في سانت مين هول ، وبينما الليل يرعى سلوله كان يتلقى في جو الطرق المؤدية شرقاً وقع ستايك خيول الرصم وهم يوقفون البلاد ومحاولون أن يقطعوا الطريق على الفارين . وكان هناك خيل أخرى على أهبة الانتظار في القرية العليا من ثارن وكان الضابط الشاب للشرطة بالتوبة قد انصرف من الملك فقرة الليل وآوى إلى فراشه . - حل حين ظل الملك المسكين مدة نصف ساعة في القرية السفلى وهو يتنازع حرقياً ثياب النديم - مع الحوذي والسواس الذين كانوا يتوقعون أن يحلوا أبدانهم في القرية السفلى ويرفضون أن يتقدموا بالقرية خطوة واحدة . وأخيراً رضوا أن يواصلوا السير . ولكن رضاهم جاء بعد ثورات الألوان . فإن القنة الثقيلة

(١) كان اللون الأبيض شعار آل بوربون . (القديم)

وجدت هناك ناظر العرياء، ساءت من هولاء - بعد أن سبقها والمواس في حاجهم
 بمجادون - ومعها ثلة قد جمعها من الجمهوريين المصريين في غارون^١ وانظر بها
 عند الخسر الموصل بين جرفي المدينة . وأقيمت على البحر المدرس . وصوت
 القريبات إلى المركبة - وقبل لم فيها : هـ جواز سفركم^٢ ! عندئذ سلم الملك
 بدون مقاومة . وأعلنت العنة الصغيرة إلى منزل أحد موظفي القرية .
 فان الملك هـ حساً ! عاناً دأبب أيديكم^٣ ! هـ ثم ذكر كذلك أنه جوعان . وأثنى
 أثناء تناوله الطعام على التيزيد وقال : بيب ممتاز جداً هـ ولم يسجل أحد لنا
 ما قالت الملكة . وكانت هناك جنود ملكية على مفربة من المكان ولكنهم لم يحاولوا
 أن ينفذوا الملك . وأخذ جرمس الخطر يدق وأصابت القرية نفسها بحرزا
 من الميخنة .



(شكل ١٨٨)

ومن ثم عاد إلى باريس حل العربية الملكية مهيضاً ذليلاً ، وقابله جامهر
 صغيرة في صحت وسكون . إذ سرى بين الجماهير التذير بأن من اجترأ على إهانة
 الملك جلد ، ومن هتف له يقتل . . . =

لم بحث إلا بعد هذه المفارقة الحقة أن استولت فكرة الجمهورية على أذهان
 الفرنسيين . أجل كانت مخالجات الناس لا ريب قبل هلم الفرار إلى قارون^٤ عاطفة مبهمة
 نحو الجمهورية ، ولكن لم يكن أن يكون في فرنسا أحد من الناس يجهر برغبته في
 إلغاء الملكية . وقد حدث حتى في شهر يولية يوم لم يتفرض على الفرار إلا شهر واحد ،

حين عقد احتفاح عظيم في شان دى مارس (Champ de Mars) : لتضيد القيام على مرمى
بمزل الملك أن فرقت السلطات عمله ، وقتل فيه خلق كثير ، ولكن هذه مظاهر
الحزم لم تحل بين الدرس المستفاد من ذلك القرار وبين التظل إلى أذهاب الرجال .
وكما حدثت في إنجلترا في أيام شارل الأول فكنكك حدث الآن في فرنسا ، أن
أدرك الناس أن الملك لم يكن ليؤمن - وأنه مصلو خطر . وقويت شوكة البعابة
يسرعة . وشرع زعمائهم روبسبير وسانتول ومارا الذين كانوا بلوحدون حتى آنذاك
غلاة متحيلين ، أن يتسلطوا على الشؤون الفرنسية .

وكان هؤلاء البعابة نظير الرادبكالين الأمريكيين ، وهم رجال ذوو فكرات
تقدمية ضاربة غير مروضة . وهوم قوتهم على حلوم مما يعوق الناس من مال
أو سلطان وأن لهم مضاء واستقامة . كانوا رجالا فقراء ليس لديهم ما يحشون
فقده . وكان حزب : « الاتحاد » والتضام مع بقايا النظام القديم يقوده رجال من
ذوى المكالة الوطنية أمثال الجنرال لافاييت ، الذى سز نفسه في شياه بقتاله مطوحا في
صفوف للمستوطنين الامريكيين ، وميرابو وهو أرسقراطى كان على استعداد أن
يصرخ نفسه على فرار أرسقراطية الإنجليز الأحناء الواسع النفوذ . بيد أن روبسبير
كان محاميا شابا فقيرا ذكيا من أراس ، كان آمن ما يملكه هو إعانه بروسوا
وكان دانتون محاميا هو الآخر باريس ، ولكنه لا يكاد يفوقه ثراء ، وكان شخصا
ضخما كثير الإشارة بليغ العبارة مبالا إلى الأسلوب الخطابي ، فأما مارا فكان
رجلا أسن منهما وكان سويسريا على شىء من الاعتزاز العلمى وإن عادلهما في انطلاق
مراحه من كل ما يكتلى الناس من الاموال والممتلكات . قضى سنوات عديدة في
إنجلترا وكان يحمل شهادة الدكتوراه الفخرية في الطب من جامعة سانت أندروز ،
وله في علم الطب بعض مقالات قيمة نشرها بالانجليزية . وكان كتابه في علم
« الفوزنى موضع إعجاب كل من بنيامين فرانكلين وجيه . فهذا هو الذى يسميه
كارليل « الكلب الكلب » و « القطيع » و « القار » و « مطيب الكلاب » . ولعل
هذه الكنية الأخيرة بجات من قبيل الاعتراف بفضل علمه !

دعت الثورة مارا أن يخوض غمار السياسة ، وكانت أقدم ثمار فريجه التى

أدلى بها في معلمان جدلا العظم تحتار بالسداد وسلامة التفكير . وكانت تنشر في فرنسا فكرة خاطئة تقول بأن إنجلترا أرض حرية . ولكن مقاله إلى جعل عنوانها « عيوب القصور الإنجليزية » تبين حقيقة الأوضاع الإنجليزية . وقد جن جنونه في سلبه الأخيرة لأصابته بمرض جلدي لا يكاد يطاق انتقل إليه عندما كان محبباً إبان الثورة في مجاوى باريس فراراً من هوالب اتهاهم الملك ووصفه إياه بالخيانة بعد فراره إلى شارن . ولم يكن يستطيع أن يسمح شرارد فنت للكتابة إلا وهو جالس في حمام حار . لقد لقي معاملة شديدة وقامى الآلام ، فأصبح شديداً قاسى القنود ، ومع هذا فإنه يبرز في التاريخ بوصفه رجلاً ذا نزعة متنازلة . ويلوح أن فترة بوجه خاص كان يستثير منغرية كلرليل منه .

« يا لطول الطريق الذي يقطعه ! ! ! » وما هو الآن مجلس عند غرابة الساعة السابعة والنصف ، وهو يسلق نفسه في حمامه ، متفرح بالجسد ، مصاباً بالسقام ، مريضاً بحس الكورة . . . رجلاً حليلاً مضى مغرلاً في العلة والفضى ، فقيراً مملقاً منه من القنود ما يعادل بالضبط أربعة قروش وستة مليات من العملة الورقية ؛ مع حمام حل صورة حذاء ، ونفس للكتابة حين ثلاثة أرجل ، ومتاعب ، ومعه غسالة قنوة تقوم بمراحي يته . . . ذلك هو مسكنه وممره في شارع علومة الططب . وإلى هذا المكان دون أى مكان آخر اقتاده سيده . . . أصبت ! فإن هناك طرفة ثانياً ، وإن هناك لصوتاً موسيقياً لامرأة ، وهى تأبى أن تحرم النحول : إنها هى المواطنة التى تريد أن تؤدى لفرنسا خدمة . وإذا سمع ماراً الحوار من اللداخل ، يصبح أن لخطيبها . ويؤذن للشرلوت كورداى بالنحول . »

وقد عرضت البطلة الشابة أن تقدم إليه بعض المعلومات الضرورية حول الثورة التى قامت ضدهم في كائين ، وبينما هو مشغول في تدوين ما أدلت به من حقائق ، طعته بسكين كبيرة ذات محمد (١٧٩٢) . . .

تلك صفة معظم زعماء حزب الجاقيه . فلانهم كانوا رجلاً لا أملاك لهم ، ورجلاً لا قيد من ثم يغفل أبليهم . وكانوا أقل ترابطاً بعضهم ببعض وأقرب إلى الطبيعة الاصلية من أى حزب آخر . وكانوا على استعداد أن يدافعوا بفكرات الحرية والمساواة إلى غاية منطرفة منطقية . وكانت معايير الفضيلة الوطنية ضلهم حالية وخشنة وكان

هناك شيء غير إنساني حتى في حينهم لحب الخير ، وكانوا متعصبين بما يرون من ميل المستغلين إلى تعليف الأمور وتسكينها ، وإلى إلقاء العامة في حالة احتياج هونا ما وإلزامهم احترام الغير شيئاً ما ، وأن يحلوا الملكية (وقوى الاعتبار من الرجال) موافقين قليلاً ما ، وقد أهتمهم عبارات مذهب روسو عن الحقيقة التاريخية القائلة بأن الإنسان يكون بطبعه إما ظالماً أو مظلوماً ، وأن الناس لن يحلوا سعداء أحراراً إلا ببطء بواسطة القانون والتعليم وروح المحبة في العالم .

وبينا حدث في أمريكا أن سيج ديمقراطية القرن الثامن عشر كانت في جلبها مستهضة للناس معينة لم ، لأنها كانت بالفعل أرض المساواة العملية في الهواء الطلق ما انحصر الأمر بالبيض من الرجال ، فقد انتجت هذه المبادئ في فرنسا خطيلاً جنونيا خطراً على سكان المدن لأن أجزاء جسيمة من مدن فرنسا كانت أحياء مقبرة مليئة بأقوام ممن جردوا من أملاكهم وألحقت لعناتهم وألحقت مرتبتهم وتحررت أرواحهم . وكانت جامعة باريس بوجه خاص في حالة بأس عظيمة ، لأن صناعات باريس كانت في معظمها صناعات ترف . وكان الشيء الكثير من أهلها من النوع الضحل الذي يعيش على نقائص الطبقة الراقية ورفائنها . والآن وقد ولى حلم أهل النعم وقعب إلى ما وراء الحدود ، وصار الحال إلى التضييق على المسافرين ، ودخل الاضطراب الأعمال ، أصبحت المنيعة مليئة بأقوام حاطلين خاضعين . ولكن للمكئين بذلك أن يدركوا حقيقة هؤلاء اليعاقبة وما هم عليه من أمانة عظيمة وما هم من سلطان خطر على خيال اللعاه ، قد بلغ من اغترارهم بأنفسهم أنهم ظنوا أن في إمكانهم أن يشغلوا منهم أداة يعملون بها . وكان موعده لإحلال الجمعية التشريعية على الجمعية الوطنية تطبيقاً للمنتور الجديد قد قرب أوائه ، وعندما اقترح اليعاقبة بقصد تخزيق عمل المظلمين ألا يكون لأحد من أعضاء الجمعية الوطنية الحق في عضوية الجمعية التشريعية ، انضم إليهم المكبون في جنك عظيم وأقبلوا الانفراج . فلك أنهم أدركوا أن الجمعية التشريعية وقد اجتحت منها على تلك الشاكلة كل تجربة وتجربة ، سوف تكون ولا مبرية هيئة ذات كفاية من الناحية السياسية . وعند ذلك يعود عليهم

والإفراط في الشر بالخير العميم ، ، وعند ذلك تعود فرنسا قهوى صريعة لأمعين لها في أيدي ساداتها الشرعيين . هكذا دبروا وقتلوا . بل لقد فعل الملكيون أكثر من هذا . فلأنهم ناصروا انتخاب أحد اليعاقبة عمدة باريس . وكأني بهذا . التصرف في ذكاه من يطلب إلى منزله نمرأ جائعاً ليقنع زوجته بحاجتها إليه . وهي هيئة أخرى خفف مستعدة عن كلب وإن لم يحسب هؤلاء الملكيون حسابها ، وكانت أحسن حيلة من البلاط وأقدر على التقدم على الحلول على جمعية تشريعية غير فعالة ، تلك هي كوميون باريس (أي هيئة البلدية) القوي وهي هيئة قوية النزعات البحتوية مقرها دار البلدية .

وكانت فرنسا ما تزال حتى ذلك الحين تستظل السلام . فلم يهاجمها أحد من جيرانها ، لما بدا لهم من إضعافها نفسها بانقساماتها الداخلية . فأما الضحية التي قامت الألام من جراء ارتباك الحالة في فرنسا فهي بولندة . ولكن لم يكن لدى جيرانها مانع يحول دون إهانتها وتهديدها وتمهيد السبيل لاقتسام تام عندما بحلولهم ذلك . واجتمع ملك بروسيا وإمبراطور النمسا في بلتيز PHILIZ ١٧٩١ : وأصدرا تصريحاً يقولان إعادة للنظام والملكية في فرنسا أمره أصحته لدى كل الملوك . وسمح الجيش من المهاجرين ونبلاء الفرنسيين وصراتهم وهو جيش يتكون في معظمه من الضباط - بالتجمع على مسافة دانية من الحدود . :

وكانت فرنسا هي البادئة بإعلان الحرب على النمسا . وكانت الدوافع التي تحلبت نفوس من ناصروا هذه الحركة دوافع متنازعة . فإن كثيراً من الجمهوريين كانوا يربطون في ذلك لأنهم كانوا يشتبهون أن يروا قوى قرياهم سكان بلجيكا وقد تحرروا من التير النمساوي . وكان كثير من الملكيين يرغبون فيها لأنهم كانوا يرون في الحرب احتمالاً لإعادة هيئة الملكية وسلطانها . وعارضها مارا معارضة مريرة في صحفته صديق الشعب (L' Ami du Peuple) لأنه لم يكن يرغب أن تتحول الحملة للجمهورية إلى هي حرب . وقد طوته غريزته من نابليون . وفي ٢٠ إبريل ١٧٩٢ جاء الملك إلى الجمعية وانتهج بين مظاهر الاستحسان العظيم إعلان الحرب :

وابتدأت الحرب بكارثة . فإن جيوشاً فرنسية ثلاث دخلت بلاد البلجيك ، فهزم اثنان منها هزيمة منكرة ، وترجع الثالث وكان بقيادة لايبنت . وعند ذلك أعلنت بروكسل الحرب مؤازرة منها للنمسا ، واستمدت الجيوش المتحالفة لغزو فرنسا تحت قيادة اللوق يرتزويك . وأصدر اللوق إعلاما من أشد إعلانات التاريخ نزقا ؛ فإنه قال إنه يغزو فرنسا ليعيد سلطان الملكية إلى نصابه . وإن أية إهانة أخرى تلحق بالعرش الفرنسي سينظم لها من الجمعية التشريعية وباريس « بالإعدام العسكري رميا بالرصاص » . وكان هذا كافيا لتحويل أشد الفرنسيين ملكية إلى الملعب الجمهوري - لمدة الحرب على الأمل .

وكان الدور الجديد من أدوار الثورة : وهو الثورة الديمقراطية ، هو اثره للبشارة لهذا الإعلان . ذلك أنه جعل من الحال استمرار جهود الجمعية التشريعية ، التي كان يسلط عليها الجمهوريون النظاميون (الحبروتليون) والملكيون ، كما جعل من الحال بقاء الحكومة التي أخذت ذلك الاجتماع الجمهوري في الثاني دى مارس وتعبت مارا حتى اختفى بالمجاري . واجتمع للعصاة في دار البلدية ، وفي ١٠ أغسطس قامت بلدية (كوميون) باريس بهجوم على قصر اللويلي .

وتصرف الملك بقاءه جميع ، وبذلك الإحتفاف بالخير الذي هو من امتيازات الملوك . وكان معه حرس سويسري مكون من ألف رجل كما كان معه حرس أهل ولاؤه غير مضمون . فحصد صمرا مهما حتى ابتدا إطلاق النار ، ثم انتقل إلى دار الجمعية وهي المباردة له ليضع نفسه وعائلته تحت حمايتها ، وتركاً حرمه السويسري يقاتل . ولا شك أنه كان يطمح في إلقاء الشقاق بين الجمعية وكوميون باريس ، ولكن لم يكن لدى الجمعية قوة من روح المقاومة التي كانت تمتنع بها دار البلدية ، ووضع اللاجنون الملكيون في مقصورة (لوج) مملئة للصخبين (وكانت تصل بها حجرة صغيرة) ، وهناك ظلوا ستة عشر ساعة بينما كانت الجمعية تتناقل في مصيرهم . وكانت تلوح في الخارج أصوات معركة ضعيفة ؛ وكان يحدث بين الآونة والأخرى أن تنكسر إحدى النوافذ . وكان السويسريون التمساء يقاتلون ويظهرون إلى الجنود ، إذ لم يكن أمامهم من سبيل إلى غير ذلك .

ولم يجرؤ الجمعية على متاصرة الحكومة في تكرار ما عمله في شان دي مارس في شهر يولية : إذ كانت قوة الكومبون الشرسة تسلط عليها . ولم يجد الملك في الجمعية أية راحة لمراده فإنها صفتة وتناقشت في إيقافه عن العمل . وقاتل السريسيون حتى تلقوا من الملك أمراً بالكف عن القتال . وعند ذلك أعمل الجمهور فيهم قتلا حتى قضى على معظمهم ، أن كان النصب قد بلغ به حد التوحش من إجراء سلكه القمام الذي لا ضرورة له ، وأن كان جنونه قد جن إلى حد لم يعد معه إلى ضبطه ميل .

وكانت المحاولة الطويلة المملة لصوغ لورس في الثالب ، البروتشي (١) ولاستخراج جمهوري شريف متوج من ملك مطلق غير قابل للتكيف ، - قد قاربت آنذاك خاتمتها الهزنة . فإن كوميون باريس كان قد تسلّم بالفعل مقاليد السلطان في فرنسا . وأصدرت الجمعية التشريعية التي لحقتها تغير ظاهر في شعبيتها ، مرسوماً يقضى بإيقاف الملك عن القيام بعمله ، ولودعته المبد ، واستقبلت به لجنة تنفيذية ودعت مؤتمراً وطنياً لإنشاء دستور جديد .

وعندئذ أخذ توتر فرنسا الوطنية والجمهورية بصيغ شتاً لا يطاق . وكان كل ما تمتك من جيوش يتسرح منهزماً على الطريق المؤدية إلى باريس في حالة بأس واستسلام (الخريطة ١٨٥) . وسقطت لونجوى (Longwy) ، وعقبها قلعة فردان العظيمة ، ولم يكن يبدو هناك أي احتمال لإيقاف تقدم الحلفاء على العاصمة . وارتفع الإحساس بالهزيمة للكلية إلى حد ملأ الناس بقساوة الرعب . وكان لا بد على كل حال من إسكات اللكين وغل أبيدهم ولدهايم حتى يخفوا عن الأنظار . ونصب كوميون باريس نفسه لمطاردة كل ملكي يمكن التور عليه ، حتى اكتظت بهم سجون باريس . ورأى ماراً شبح المذبحة مقبلاً . فحاول أن يفوز بإنشاء محاكم الطوارئ قبل أن يفوت الأوان بقصد تمييز البريء من المذنب في هذا المحيط العظيم

(١) أي ملكاً بلا سلطان كلك الميروليين الذي كان يهول السلطة الفعلية دونهم تكثر العصر .

(المرجع) . (٢ ط ٢) .

من الثأرين ، والمثبة فيهم والسراة غير المنعبر . ولكنهم مجاهلوه ، وحدثت في أوائل سجنهم المذبحة التي لا يد منها .

ابتدا الأمر على حين فجأة بأن عصاية من الرجال كانت تسوق على أحد السجناء ثم على الآخر وهكذا . ثم تشكل ضرب من الهاتم المرتجلة القبية . على حين يجمع في الخارج صنف من الدماء الفسارية مسلحاً بالسيف والخوازيق والبلط . وكان السجناء يقتادون من زواراتهم واحداً بعد الآخر لا فرق في ذلك بين رجل وامرأة ، ثم يستجرون استجواباً وجيزاً ، ويمس عنهم بصيحة : لتجيا الأنة Vive La Nation ، أو يقذف بهم إلى الدماء على الأبواب . وهناك كان الجمهور يدافع ويقاتل ليحدث في الصحة جرحاً أو يصيبها بطعنة . وكان المحكوم عليهم يطعنون ، ويمزقون إرباً ويضربون حتى يقضوا بحبهم ، وكانت روعهم تحز وترفع على الخوازيق وتحمل في أرجاء المدينة وتلقى أجسادهم للفرقة جانباً . وهناك قبض على الأمير دى لابلال التي تركها الملك والملكة في قصر التويلرى . وعلت رأسها على رمح إلى المبد لتراها الملكة .

وكان في زوارنة الملكة إثنان من الحرس الوطنى ، رغب أحدهما في أن يعطها تنظر من النافذة لتبصر هذا المشهد العظيم ، ولم يوجب زميله راحة بها أن يسمح لها بفعل ذلك .

وفي نفس هذا الوقت الذى كانت هذه المأساة القموية تجري فيه في باريس ، كان الجنرال الفرنسى دوموريه يهرج بأحد الجيش سرحاً من فلاندر إلى هابة الأرجون ، ويرد جيوش الحلفاء إلى ماوراء فردان . وحدثت عند غالى في ٢٠ سبتمبر معركة انطوت في الغالب على تبادل إطلاق المدافع . وأوقف تقدم بروسي لم يكن مصحوباً بالزم ، وثبتت المشاة الفرنسية في مكانها ، مذ كانت مدفعيتهم غيراً من مدفعية الحلفاء : وظل دوق برتزويلك بعد ذلك عشرة أيام وهو يقدم رجلاً وبوخر أخرى ، ثم أحل يفسحب إلى الراين . وكانت أعتاب شلمانيا الحامضة قد نشرت الفوسنتاريا في الجيش البروسي . ومعركة غالى هذه -

ولم يكن لتعدد كثيراً تبادل إطلاق المذاق - إحدى معارك التاريخ الفاصلة .
وتم إلقاء الثورة .

والثام المؤتمر الوطني في ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ ، وأعلن من ثورة الجمهورية .
ولم تكد تلك الأحداث تنتهي حتى تمت محاكمة الملك وإعدامه كتجوع من الضرورة
المنطقية . مات الملك بوصفه رمزاً لا بوصفه رجلاً . إذ لم يحلوا أمامهم غير ذلك
شيئاً جعلونه به ، ياله من مسكين ، فإنه كان يسد مسالك الأرض . ولم تكن فرنسا
تستطيع أن تدعه يذهب ليشتري المهاجرين ، ولا هي بمستطبة أن تمنحه من إحدث
الشر في بلادها ، فكان وجوده مصدراً تهديداً لها . وكان ماراً قد حض في غير موادة
على القيام بهذه المحاكمة ، على أنه - بظفره النفاذة - لم يكن يريد تقديم الملك
إلى المحاكمة قبل أن يوقع الدستور ، لأنه يكون قبل ذلك ملكاً فعلياً ، ويكون فوق
القانون وبذلك لا يمكن أن يكون غير شرعي . كذلك لم يكن ماراً ليقبل السماح بالظلم
في محاسن الملك . . . والواقع أن ماراً قد لعب في الموضوع من أوله إلى آخره دوراً
مريباً عبر أنه دور حادق في الغالب ؛ كان رجلاً عظيماً ، ذا ذكاء لطيف ممتاز ،
في إلهاب من نادر ، يعصف به ذلك البغض العضوي المستقر في الدم ، والذي
ليس من غار لثقل بل الجسد .

وقطعت رأس لويس في يناير ١٧٩٣ . احتزت بالمقابلة لأن المقابلة (الجلوتين)
أصبحت منذ أغسطس السابق أداة الإعدام الرسمية في فرنسا . وكان دانتون فيما أخذ
لنفسه من دور الأسد ممتازاً جداً في هذه المناسبة . فلقد زار بأجهر صوته قائلا :
« يريد ملك أوروبا أن يتحدونا ، وما نحن أولاء نلقى إليهم رأس أحد الملوك » .

١١ - جمهورية اليقاقة ١٧٩٢ - ١٧٩٤

ثم جاء بعد ذلك دور غريب في تاريخ الشعب الفرنسي . لقد توقد وميض لب
عظيم من التحمس لفرنسا والجمهورية . وانطلقت التزام على وضع حد لروح
المسألة داخل فرنسا وخارجها ، في الدليل أزمع تقوم القضاء على الملكيين وكل
شكل من أشكال حكم اللواة ، وفي الخارج ، صموا أن تكون فرنسا حامية كل

الثوريين ومعتهم . ولابد أن تصبح أوروبا كلها بل الدنيا كلها جمهورية في تكوينها . وانتال شباب فرنسا إلى الجيوش الجمهورية اثباتاً . وانتشرت في كل أرجاء البلاد أضية جديدة مدعشة وهي أغنية لا تزال تزل في إحياء الدم فعل الصبياء هي « المارسيليز » . وقد خرجت إلى الهواء الجيوش الأجنبية تلقاء هذه الأنشطة وطوابير الوثابين من حملة المونكي الفرنسيين ومناقمهم المطلقة في حملة . وقبل أن تأتي خاتمة ١٧٩٣ كانت الجيوش الفرنسية قد بلغت مدى تجاوز كل ما أحرزه الملك لويس الرابع عشر ، وإذا هم يطأون في كل مكان أرضاً أجنبية . كانوا في بروكسل وكانوا بجناحاً ساحقاً ، وأغاروا حتى مايناس Mayence ، واستولوا من هولندة على لشل . وعند ذلك فعلت الحكومة الفرنسية فعله خرقاء . إذ كان أسخطها طرد مثلها من إنجلترا عند إعلان لويس ، فأعلنت الحرب على إنجلترا . كانت عملة محرقه لأن الثورة التي أعلت فرنسا مشاة جديدة متحسة ومدفعية رابية منحورة من ضباطها الأرستقراطيين ومن كثير من التقاليد الموروثة ، قد أفسدت نظام بحريتها وكان للانجليز السيادة في البحر . ووجد هذا الاستغزاز كلمة إنجلترا كلها ضد فرنسا ، بعد أن كان هناك في بداية الأمر حركة منحورة كبيرة تطغى على الجمهورية .

ولنا بمقتضى أن نضبط في أي تفصيل حديث القتال الذي قامت به فرنسا في السنوات القليلة التالية ضد محالف أوروبا . فأزاحت النمسين إلى الأبد من بلجيكا ، وحولت هولندة إلى جمهورية . وسلم الأسطول الهولندي وقد تجمد حوله الماء في بحر الشمال ، لحفة من القرمسان دون أن يطلق من مناقبه قنبلة واحدة . وتوقفت هجمات الفرنسيين نحو إيطاليا ودحا من الزمان ، ولم يحدث إلا في عام ١٧٩٦ أن جنرالاً جديداً هو نابليون بوناپرت ، إقناده الجيوش الجمهورية للهلهلة الثياب مظفرة عبر يمحوت إلى مانتوا وفيرونا . ولا يستطيع كتاب معلم تاريخية أن يصور لك الحملات بدقة ، غير أنه ملزم أن يلحظ الصفة الجديدة التي ظهرت في الحرب . كانت الجيوش المتهرة التقليدية محارب لا غاية لها إلا القتال ذاته ، وتسمى في بطه وتواخ ، كالمال الذين يشتلون بالساحة ، وكانت هذه الجيوش للمدعشة الجديدة محارب من أجل النصر - وإن كان جائعة ظمئة . وكان أعلامهم يسونهم « للفرنسين

البلد . يقول من . و . تكسون (١) . كان أشد ما أدهش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين وسرعتهم في الواقع أنه ما كان يعرف هذه الجيوش المرتحلة أى عائق فكان من الصعب الحصول على حياض سبب انعدام لاد . وكان في غير الامكان نفيها بسبب العدد المثل من كهرتات التي لا مبر عنشد من الاحتياج إلى ، وكانت كذلك غير ضرورية لأن الماع التي طالت سبت نسل ابعد زوافات لوذا



(شكل ١٨٤)

من الجيوش المحرقة ، كان يتحملها رجال ١٧٩٣ - ١٧٩٤ ضروريين معطين . كما أن المدد هذه الجيوش التي لم يسمع الناس حتى ذلك الحين مثل حجمها لم يكن من المستطاع حله في قوائم ا وسرعان ما تعلم الفرنسيون ه فكرة العيش على حساب البلاد . وبدأ تهبت ١٧٩٣ مولد طريقة الحرب العصرية : سرعة الحركة والتطور

(١) في مقاله ه الحرب الفرنسية الثوري ه بالومرعة البريطانية القلمه انه مشرة

الكامل القوة الوطنية ، والمجود^(١) في العراء والاعتماد في الميرة على البلد المقهور وحشد القوات وإجبار الأهالي على تقديم ما يلزم للجيش ، وذلك كله مقابل الداورات الحنرة ، والجيوش الصغيرة المحترقة ، والحيام والبحرايات الكاملة والألاعيب الدينية . وكان الأولون يحطون روح الجسم في الأمور ، ويمثل الآخرون روح الخطر بالقليل للحصول على القليل .

وبينا كانت هذه الجيوش (المرموم) المتحمسة في أسماها الزالية فتشد « المارميلييز » وتقاتل من أجل « فرنسا » ، دون أن يتضح لها تمام الفوز فها يبدو ، هل كانت تنهب الأبطال التي انزالوا إليها أو تحررها ، - كانت الحماسة الجمهورية في باديس تبذل نفسها بطريقة أقل مجداً وكرامة بكثير . وكان مارا وهو الرجل الوحيد ذو اللكاه القاهر يربى العقابة قد أصابه الجنون بسبب ذاعة العصال ، وسرعان ما قتل . وكان دانتون سلطة من الصواص الوطنية ، فلم ين عندئذ غير روسبير ونصبه الراسخ للوطيد ، فسيطر على الموقف . ومن العسير أن يفهم الإنسان في هذا الرجل برأى ، كان رجلاً ضعيف البنية خولاً بطبعه مغروراً صلفاً . ولكن كان فيه ألزم مواهب القوة وهي الإيمان . كان يعتقد لاق وب يأنه الناس ، بل في كائن على بعته ، وكان يرى روموتياً لذلك الكائن . نصب نفسه لإنقاذ الجمهورية على الشاكلة التي يراها ، وكان يتوهم أنه ليس في مستطاع أحد إلا زياه أن يتقدها . وبلا أصبح يعتقد أن بقاءه في دست الحكم إنقاذ للجمهورية . وكان يشير إلى أن الروح الحية في الجمهورية قد نشأت عن مذبحه للملكيين وعن إعدام الملك . وحدثت ثورات كثيرة : تبث واحدة منها في الغرب في محافظة لانماندية ، حيث ثار الأهالي ضد التجيد وضد طرد رجال الدين الأصليين من ممتلكاتهم ، وكان بقودهم فيها بعض البلاء والقيسين ، وأخرى في الجنوب حيث ثارت ليون ومارسليا وسمح ملكيو طرولون لحامية إنجليزية وأساتية بالنزول فيها . وكأنها ليس هناك أي جواب فعال على هذه الثورات إلا مواصلة قتل الملكيين . ولم يكن هناك شيء أحب من

(١) المجرد : أي عبد المذود على الأوس هوذا حام ولا لوقم مسكرات .
(المترم)

ملا إلى مساواة أفئدة سكان أحياء باريس الوضيعة . واحتلت محكمة الثورة تعمل
جهداً ، وابتدأت عملية دبح متواصلة .

وقد نفذ حكم الإعدام في مدة ثلاثة عشر شهراً السابقة على يولية ١٧٩٦ في
١٢٢٠ شخصاً ، ونفذ الاعدام في الأسابيع السبعة التالية في ١٣٧٦ شخصاً ، وجاء
اختراع المقصلة في أنسب الأوقات لهذه الحالة التي ألت بمزاج الناس . وقضت
المقصلة على الملكة ، وكذلك قضت للمقصلة على معظم خصوم روبسبير ، وقضت
المقصلة ١١ ... على الملحدين الذين أنكروا وجود أى كائن على أسمى ، وقضت المقصلة
على دانتون لأنه رأى أن قد بولج في استعمال المقصلة ١١ . ٢ . . وكانت هذه الآلة
الجليلة المهنبة تحز يوماً بعد يوم ، وأسبوعاً بعد أسبوع ، الرؤوس ثم المزيد من
الرؤوس ثم المزيد . وكان حكم روبسبير يعيش فيما يبدو على الدم ، ويتطلب منه
المزيد والمزيد ، كما يتطلب ملحن الأفيون المزيد منه فلزيد ١١ ؟ . . .

وكان دانتون ما يزال هو دانتون ، إذ كان غضبناً فوق المقصلة وكان موقفه
عليها مثالياً . قال : لا ضعف يا دانتون ١ .

وأعجب شيء واحداه إلى الضحك أن روبسبير كان شريفاً شرفاً لا يتطرق إليه
الشك . بل لقد كان أشرف بكثير من أى فرد من جماعة الرجال الذين خلقوه وكان
يطيف به إلهام يث فيه رغبة حلوة في إنشاء نظام جديد للحياة الإنسانية . وأعطت
لجنة الأمن العام وهي حكومة الإثنى عشر لظوائراً وهي التي كانت عند ذلك دفعت
بالمؤتمر جانباً ، تقوم بعمل إنشائي بالقدر الذي استطاع أن يستنبطه غا روبسبير .
وكان المعيار الذي حاولت أن تقيم عليه عملها البناء هاللاً شخصاً . فإن كل المسائل
المعلقة التي لا بد لنا اليوم من الفكاح وإياها قويت بطول مرمية سطحية ضحلة .
وبلغت محاولات للتسوية بين الناس في القمار . قال القديس جوست : الأراء شتى .
فضربت الضرائب على أملاك الأغنياء أو سمودرت لتقسيمها بين الفقراء . وكان لابد
من أن يحصل كل رجل على منزل آمن ومورد رزق وزوجة وأولاد . وكان التعامل
جديراً بأجره ، ولكن ليس له الحق في الحصول على منفعة من المنافع . وجرت
محاوله لإلغاء الربح إلغاء تاماً ، وهو الحافز للمحسن القبح لمعظم أعمال التجارة بين

الناس منذ ابتداء الحضارة الإنسانية . والريح هو العنصر الاقتصادي الذي ما يزال يشكل علينا إلى اليوم . وصدرت قوانين عتيقة ضد الاستغلال بالسوق السوداء بفرنسا في ١٧٩٣ . وجدير بالذكر أن إنجلترا وجدت نفسها في ١٩١٩ مضطرة أن تصدر قوانين أشبه ما تكون بذلك . ولم يقتصر هم حكومة البعثة فقط على مجرد إعادة تخطيط النظام الاقتصادي - في معالم صريحة - بل تجاوزته إلى النظام الاجتماعي كذلك . فجعل الطلاق في نفس سهولة الزواج ، وألغى التمييز بين الأطفال للشرعيين وغير الشرعيين . واستحدث تقويم جديد ، مع أسماء جديدة للشهور وأسابيع مكونة من عشرة أيام وما إلى ذلك - وقد أزيل كل ذلك منذ زمن بعيد ، وكذلك أُنْخِط العملة السجدة والورازين والمقاييس للعقد بفرنسا القديمة مكانها للطريقة العشرية البسيطة الواضحة التي لا تزال موجودة . . . وشملت بعض الفئات المتطرفة قترح إلغاء الله ، فيما يلحق من التنظيم الأخرى تمام الإلغاء ، واستبدال عبادة العقل به . وأقيمت بالفعل حفلة للعقل بكنائس نوتردام انحلت فيها إحدى حصان المثلثات وبه للعقل . ولكن روبسيير وقف في وجه هذه الحركة إذ أنه لم يكن ملحداً . قال : إنما الإلهاد نزهة لرستراطية ، فأما الفكرة القاطنة بذلك للكمال المثل الذي يراقبه البريء المظلوم ويكلؤه ويحافظ الحرم الظاهر ، إنما هي بالضرورة فكرة الشعب . ولنا قضى بالخصلة على هيبر Hebert ، الذي احتفل بعيد العقل . كما قضى على كل أفراد جماعته .

وأم روبسيير مع تقدم صيف ١٧٩٤ قس . ملحوظ من الاضطراب الذهني . كان مهتماً اعنى الاهتمام بديانته . (وكان احتفال المشقة فيهم وإعلاهم يجري آنذاك على أتم نشاط . فكان الأراهاب ، يجلب في شوارع باريس في كل يوم بزيات لليلية بالهكوم عليهم) . وقد حل روبسيير للزعم أن يصدر مرسوماً بأن فرنسا تؤمن بكانن على أمسي ، كما تؤمن بذلك المبدأ الباحث الطمأنينة في القوم : مبدأ مخلود الروح . وفي يونيو أقام عيداً عظيماً هو عيد كائنه الأمسي . وسار إلى المكان دى مارس موكب ترأسه وهو في ثياب زاهية يحمل باقة عظيمة من الأزهار ومستابل للقمح . وأحرق في مشهد وفور وهيب تماثيل من مادة قابلة للاحتراق تحمل الإلهاد والرقيلة ، ثم نهض في مكانها بطريقة آلية ماهرة وبشء قليل من

السرير ، تنثال للحكة غير قابل للاحتراق . وألقيت الخطبة - وألقى هنري روبسيير
أمرها - ولكن ظاهر أنه لم تجر أية عبادة

وعند ذلك الحين بدت على روبسيير بوادر الرغبة في التأمل بعزل عن شئون
العالم . فظل شهراً كاملاً بمنأى عن المؤتمر . وحدث في أحد أيام شهر يولية أنه
حضر وألقى خطبة عجيبة انزلت بشكل واضح بقرب حدوث محادثات جديدة .
قال : « إني وقد شخصت بيمرئ مذكراً في مجموع تلك الرذائل التي تموضها سيل
لثورة الجوارف ، كنت في بعض الأحيان تأخفني رحلة الخوف من أن أندس من
جيرة الشريرين النجسة . . . وإني لأحرف أن من السهل على عصية الطفلة في العالم
أن يتكاثروا على فرد بمفرده ، غير أني أحرف كذلك ما هو واجب الرجل الذي
يقدر أن يموت دفاعاً عن الإنسانية . »

ومعكنا استطرد حتى وصل إلى جباوات مبهمة كان يبدو أنها تهدد كل إنسان .
واستمع المؤتمر هذه الخطبة في صمت وسكوت ، ثم حدثت عندها قدم اقتراح
بطلبها وتوزيعها ، أن جاز بصياح الغضب وأبى السماح بذلك وخرج روبسيير في استياء
مرير وذهب إلى نادى أنصاره ، وأعاد تلاوة خطبته عليهم ! وامتلكته تلك الظلة
بالكلام والمقابلات والاستعداد للفد ، وفي اليوم التالي انقلب المؤتمر على روبسيير .
وعنده شخص اسمه تاليان بخضيره . ولما حاول أن يتكلم صاح به الأعضاء حتى
أسكوه ، ودق الرئيس الجرس في وجهه . وقال روبسيير : « يا رئيس السفن إني
أطلب الكلمة ! » وأبيت عليه الكلمة . وعانته صوته . فأخذ يسعل ويصخب وصاح
بهمهم « إن دم دانتون يمتنحه » . فوجهت إليه التهمة . واعتقل هناك للوقت ومنه أهم
أحواله شأنًا .

وعند ذلك تارت ضد المؤتمر ثلاثة دار للبلدية وكانت لا تزال قوية النزعة
اليقينية . وأخذ روبسيير ورفقاؤه عنوة من أيدي أسرهم . ومرت ليلة حدث فيها
التصحيح والرحف ثم الزحف المتضاد ، وأخيراً التحقت قرابة الساعة الثالثة قوات المؤتمر
بقوات بلدية باريس خارج دار البلدية .

وكان هنريو ، قائد الحفابة يرقد محموراً في الطابق الأعلى إثر يوم قضاء منهما في العمل ، وعقبت ذلك مفاوضات ، ثم انحازت جنود الكوميون بطررد قليل إلى صف الحكومة . وتصايح القوم في انفعال وطني وأطل أحسنهم من نافذة يشار إلى البلدة . ووجد رويسير وأخر من يق معه من إخوانه أن جرحهم انفضوا من حوكم وخانوم وأوقسوم في الترخ . وأتى إثنان أو ثلاثة من هؤلاء الرجال بأنفسهم من إحدى النواقل ، وأحدثوا بأنفسهم إصابات مروعة على الأسوار الحديدية دون أن يقتلوا أنفسهم . وحاول آخرون الانتحار . والظاهر أن أحد الجنود أصاب رويسير برصاصة في الفك الأسفل فقد وجلوه يحملن شخصتين وسط وجهه شاحب كان نصفه الأسفل من الدم .

وأحب ذلك سبع عشرة ساعة قضاها في الألم للبرح قبل أن يحين نهايته . ولم يلبس بكلمة طوال تلك المدة ، إذ كان فكه مربوطاً ربطاً خشناً يقطع قشرة من القماش ، والقيده هو ورقاقه ، والأجسام المهشمة المتضررة لأولئك الرجال الذين قفزوا من النوافذ - وكانوا في مجموعهم اثنين وعشرين رجلاً - إلى المقصبة بدل الذين قضى بإعدامهم في ذلك اليوم . وكانت حياة ماضيتين معظم الوقت ، ويقول كارليل إنه فتحهما فرأى السكين الضخمة ترضع من فوقه وأخذ يقاوم ويتصلص . كذلك حدث فيما يظهر أنه صرخ عندما رفع الجلاد حته ضيافته . ثم هوت السكين مرمية رحيمة . وانتهى عهد الارهاب . ومنذ البداية حتى النهاية كان عدد المحكوم عليهم والمعلمين أربعة آلاف إنسان .

١٢ - حكومة الإدارة

بما يشهد بالحكومة المائلة والغير العميم في طوقاد لكل الطبا والمقاصد الجديدة التي أطلقت الثورة القرسية أسرارها إلى علم الجهود العملية ، أنها كانت لا تزال تستطيع أن تفيض بسبل خلاق بعد أن رأى الناس لها صورة ممسوحة وسفروا منها حين تطلت في شخصية رويسير وحياته المبهجين المضحكين . ورويسير صاحب

خلال العمليات الفريعة المشهورة التي صيغت منها كبرياؤه وأثابته الخارجة من كل مقول ، وهو الذي سود وطينت بالدم والرعب كل آمالها وما ينتظر منها ، ومع ذلك فإن قوة هذه الأفكار لم تتعمر . إذ أنها تحملت الاختبارات القاسية التي أُلئت بها أثناء مرضها حتى تلك الصورة المضحكة البشعة . وظلت الجمهورية بعد سقوطه تحكم حرة لا يهاجمها مهاجم منيعة لا يتال منها أحد مثالا . ولكن لم يكن لها من زعيم يقودها ، وذلك أن خلفاءه كانوا جماعات من رجال مكورة أو عاديين ، وواحدت الجمهورية الأوربية كفاحها مدة من الزمان ، ثم لم تلبث حتى سقطت ثم نهضت ثانية ، ثم سقطت ونهضت ، ما تراك تكلف ، وهي ترتطم بالعراقيل وتشترك في الأحابيل خبر أنها منيعة لا تفهر .

ومن الغريب أن تذاكر القارئ في هذا المقام بالحجم الحفني لثور الإرهاب هذا ، الذي يروح الأخيصة أيما ترويع ، والذي يولع فيه بناءً على هذا مبالغة هائلة بالقياس إلى بقية الثورة . لهذا ١٧٨٩ إلى أعريات ١٧٩١ كانت الثورة الفرنسية عملية مستظمة ، ومنذ صيف ١٧٩٤ كانت الجمهورية دولة مستظمة مظفرة . ولم يكن الإرهاب من عمل البلاد بأجمعها ، بل مما جته أيدي رعايا المدينة الذين كانوا مدينين بوجودهم ووحشيتهم إلى سوء الحكم والظلم الاجتماعي في الدولة البائدة ، وما كان انضجار حكم الإرهاب ليحدث لولا إصرار الملكيين على خيانتهم وعدم ولائهم ، وإصراراً آثار المتطرفين إلى درجة الجنون ، وحل كتلة الجمهوريين المحتلين على عدم التدخل . وكان خيرة الرجال مشغولين بقتال الفسويين والملكيين على الحثوث . ويلبى لنا أن نتذكر أن مجموع من قتلوا في حكم الإرهاب وصل في غاية جملة إلى بضعة آلاف قليلة ، وكان بين هؤلاء الأعداء ولا ريب عدد كبير من خصوم الجمهورية العاملين ، الذين كان يحق لها أن تعظمهم قياساً على معايير ذلك الزمان . وكان من بينهم من الخونة وصناع الشر أمثال فيليب دوق أورليان ، صاحب قصر ، الباليه رويال ، الذي أعطى صوته عملاً موت لويس السادس عشر .

ولقد ضاع من الأرواح على يد القواد الإنجليز وحدهم في يوم الختاح ما يسمى باسم هجوم السوم في يولية ١٩١٦ ، أكثر مما ضاع في الثورة الفرنسية كلها منذ بدايتها .

وإذا لنسمع كثيراً عن شهداء حكم الإرهاب لأهم كانوا قوماً من قوى المكافحة والمقاومة والحرية الطيبة ، ولكنه أثر خرب من العناية حول ما قاسوا من عذاب . ولكن علينا أن نوازن في أفهامنا بين ذلك وبين ما كان يجري في معجون العالم عامة في ذلك الزمان . فعندما كانت مقاليد الحكم في فرنسا بيد الإرهاب ، كان يقتل في إنجلترا وأمريكا بحرائر ارتكبت ضد الممتلكات - وغالباً ما كانت جرائر ثاقبة جداً - عدد يعوق كثيراً عدد من حكمت عليهم محاكم الثورة في فرنسا بسبب الحياة للدولة . وبدى أنهم كانوا في الواقع أناساً عاديين جداً ، ولكنهم قاسوا آلاماً على طريقهم المحنة . فقد حدث مرة أن شنت ثلاثة في مارسيلوس ١٧٨٩ لأنها أغلقت بالإكراه قبة وحدها ومثابتك من فتاة أخرى لقبها في الطريق . كذلك وحده هوراد محب الإنسانية (قرابة ١٧٧٣) عدداً من الأفراد الأبرياء محجوزين في السجون الإنجليزية بعد أن حوكموا وحكم ببراءتهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يدعوا لجرة السجن . وكانت تلك السجون أماكن قلوة لا تخضع لأي رعاية فعالة . وكان العذيب لا يزال يستعمل في الممتلكات الهانوفرية لصاحب السلالة البريطانية الملك جورج الثالث . وظل يستعمل في فرنسا حتى عهد الجمهورية الوطنية . فالحن أن هذه الأمور كلها تشير إلى مستوى العصر عامة .

وليس فيما قبل ما يدل على أن أي امرئ قد عليه عمداً رجال الثورة الفرنسية أثناء حكم الإرهاب . فإن هؤلاء المئات القلائل من السراء الفرنسيين قد تردوا في حفرة كان يطيب معظمهم نفساً بأن يحضر للآخرين . كان الأمر فاجعاً لاجرم ، ولكن لم يكن فيه فاجعة عظيمة إذا فليس يجير التاريخ العام . فإن الرجل العادي في فرنسا كان أوسع حرية وأوسع رزقاً ، وأشد سعادة وإن حكم الإرهاب ، مما كان في ١٧٨٧ .

وإذا استعرضنا قصة الجمهورية بعد صيف ١٧٩٤ وجلدناها قصة معتلة لمجموعة من الطوائف النيبالية التي اتخذت لنفسها براسج وأعدائها لا حصر لها ، منها ما هو جمهوري ، راديكالي ومنها ما هو ملكي رجعي ، غير أنها كانت تظلها رغبة عامة في إقامة نظام ما محدد فعال وإن كلفها ذلك نفواً جسيماً من الإذعان والتساهل . وأحدث

الحيابة والمليون سلسلة من القطن ، إذ بلوح أنه كان هناك في باريس ما عسانا أن نسميه اليوم باسم طبقة مشاغبي الشوارع ، وهي على أتم الاستعداد للخروج للقتال والتهب في صف أي من الطرفين . ومع هذا فإن المؤتمر أُنشج حكومة ، هي حكومة الإدارة المكونة من خمسة أعضاء ، والتي حافظت لفرنسا على تماسكها أمد خمس سنوات . وقضى على آخر فئة وأشدها خطراً في أكتوبر ١٧٩٥ ، بمهارة فائقة وحزم نافذ من يد جنرال شاب ناهض هو نابليون بونابرت .

كانت الإدارة مظفرة في الخارج ، غير أنها كانت حاملة غير خلائقة في الداخل ، إذ كان أعضاؤها أحرص على الاستمساك بحلاوة الوظيفة وأجسادها ، من أن يعدوا صتوراً يخيلهم من العمل ويحل غيرهم محلهم ، وكانوا أنشون من أن يسلموا لغيرهم مقاليد عملية إعادة الإنشاء الاقتصادية والمالية التي تتطلبها حالة فرنسا . ولنا بحاجة أن نذكر إلا إسمي رجلين منهم — أحدهما كارنوه (Carnot) الذي كان جمهورياً شريفاً ، وباراً (Barres) الذي كان لهماً بشكل ملحوظ . وقد كون حكمهم هذا الممتد خمس سنوات قصة صعبة مقلت بين قصول هذا التاريخ الحافل بالتغيرات العظيمة . فإنهم تناولوا الأمور كما وجعلوها . ولعبت حامية الدعاة لثورة دوراً عظيماً في حمل الجيوش الفرنسية إلى هولندة وبلجيكا ، وسويسرا وجنوب ألمانيا ، وشمال إيطاليا . كان الملوك يطرحون في كل مكان وتقام في أماكنهم الجمهوريات .

ولكن حامية تلك الدعاة التي أثارها حكومة الإدارة لم تحل دون انتخاب كنوز الشعوب المهروسة بغية تخفيف ما تلقاه الحكومة الفرنسية من الإضطراب والسر للال . وأصلحت حروبهم تنحدر رويداً رويداً من صفتها كحرب حرية مقلدة ، وتقرب أكثر فأكثر من حروب الحكم لبائد الطوائف . وكانت للسياسة الخارجية آخر ما كانت فرنسا ترغب في التجرد منه من مظاهر الملكية العظمى . وإنا نستطيع أن نتبين أن تلك السياسة ظلت على نفس قوتها الأولى أثناء حكم حكومة الإدارة كأنما لم يحدث هناك أية ثورة .

١٣ - توقف التعمير وفجر الاشتراكية العصرية

لقد اقتربت الآن ساعة انحسار هذا الفيض الدافق من الثورة في العالم ؛ ذلك الفيض الذي خلق جمهورية أمريكا العظيمة وعدد بأن يضر بطوقانه كل الملكيات الأوربية . وكان شيئاً قد اندفع إلى أعلى من دون سطح الشئون الإنسانية ؛ وذلك جهداً جباراً ؛ ثم ما لبث أن تلاشى يدها إلى حين . وجرف أمامه كثيراً من الأشياء المهجورة والضارة ، ولكن بقيت من بعده أمور كثيرة ضارة غير عادلة . ثم إنه حل مسائل كثيرة ، ولكنه ترك الرغبة في الزمالة والنظام تواجه مسائل أكثر ضخامة لم يبد عليه أنه يجاور حلده هناك السرحان . وذهبت أشكال معينة من الاحتيازات ، كما ذهب الكثير من ألوان الاستبداد والاضطهاد اللذين . وعندما انحست أشياء للحكم البائدة هذه ، بدت كأنها لم تكن لها أبداً أية أهمية ، وكل ما كان يهم فعلاً هو أن الرجال العاديين بالرغم من تمسكهم بالأصوات الانتخابية وحسن الاقتراع ، وبالرغم من كل فضائل قومهم وجهودهم ، كانوا ما يزالون لا هم بالأحرار ولا هم بالمستعدين بفسط معادل من السعادة ، وأن الوعد المائل الموعود والأمل في تنوير أكتاف عالم جديد وهما الأسران اللذان جاءت الثورة بهما ، ظلا وهماً لا ظل لما من الحقيقة .

ومع هذا فإن موجة الثورة هذه قد حققت تقريباً كل شيء فكره الناس تفكيراً واضحاً قبل عينيها . ولم تكن تفشل الآن بسبب امتناع الناس ، بل بسبب امتناع الأفكار المدروسة المصقولة . فقد جرقت إلى الأبد كثير من الأشياء التي طالما توفقت للنظم الإنسانية . والآن وقد جرقت وانتهى أمرها ، بات واضحاً لكل نبي حينئذ ، كم كان الرجال غير متأهين لتلك التبركات الخلاقة التي ألتاحتها لهم هذه الإزالة . وما ضرت الثورة إلا فترات عمل ؛ وفيها يحصد الرجال ثمار الأفكار التي نمت أثناء أحوال فترات الهدوء بين الثورات . إنها لتترك الحقول نظيفة مستعدة لموسم جديد من مواسم الغناء ، ولكنها لا تستطيع أن تنجح على الصحابة أفكار جديدة منصجة لتقابل بها لغزاً غير متوقع .

وكان طرد الملك والتبيل ، والتقسيم وقاضي محكمة التفتيش ، وصاحب الأراضي

وجاء الصرايب وملاحظ الأشغال ، قد غادر كتلة الناس يواجهون لأول مرة بعض فوضى معينة جوهرية جداً للتركيب الاجتماعي ، وهي العلاقات التي سلموا بها من قبل ولم يدركوا البتة ضرورة التكبير الشديد وإطالة النظر فيها . وظهر أن النظم التي كانت تبدو قطعة من طبيعة الأشياء ، والأمور التي كان يبدو أنها تحدث نتيجة لذلك النوع من الضرورة التي تطلع النجم وتأني بالرييح — ظهر أنها كانت أموراً إصطناعية يمكن ضبطها والتحكم فيها ، لولا ما هي عليه من التقيد المريب ، كما يظهر أنها الآن وقد ألفت الروتينات القديمة وتخلص للناس منها ، — أصبحت في أمس الحاجة إلى يد تضبطها وتبين عليها . ووجد النظام الجديد نفسه تلقاء آثار ثلاثة ، كان غير مستعد مطلقاً لحلها : وهي الملكية والعملة والعلاقات الدولية .

وستناول هذه المسائل الثلاثة بالترتيب ، ونسأل عن ما هيها وكيف نشأت في القشتون الإنسانية ؟ فإن كل حياة إنسانية تتصل بها اتصالاً عميقاً ، كما أن حلها بحسبها سلباً مباشراً . ولحقق إن البنية الباقية من هذا التاريخ ستصبح من الآن بشكل واضح يزداد وضوحاً كل يوم ، تطوراً للمجهودات المبذولة لحل هذه المسائل ، أو بمعنى آخر أن هذا التاريخ ، سيصبح من الآن جهداً غايته ، ضمير الملكية ، وتأسيس العملة ، وإدارة دولاب العلاقات الدولية ، — على شاكلة تجعل في الامكان إنشاء مجتمع من الإزافة على أن يكون سعيداً وتقنياً ، يتم العلم أجمع . لهذا الألفاظ الثلاثة التي يرمز لها صحت ، أي حول ، القدر ، والتي يجب على الدولة الإنسانية أن تهجد لها جواباً وإلا كان ملكها الهلاك .

وننشأ فكرة الملكية من غرائز المقاتلة في النوع البشري . فقبل أن كان الانسان إنساناً بزمان منبد كان القرد الجلد مالكا . والملكية البدائية هي ما يقاقل للوحش من أجله ، فالكلب والعظمة ، والجرة ووجارها ، والفزال المأخور وسريه ، كل هذه ميكنيات يتوهج أولرها . وليس ثمة تعبير أسخف في علم الاجتماع من عبارة « الشيوعية البدائية » . فإن الرجل الممن في قبيلة المائلة في الأزمان المبكرة من العصر الحجري القديم (الباليوليثي) كان يصر على ملكيته في زوجاته وبناته وأحواله ولعائله المرقى المحيط به . فلو دخل أي رجل إلى حاله للرقى المحيط به لقاتله ، والنجم

إن استطاع . ونمت القليلة على مر العصور ، كما بين ذلك أنكنسون نيباناً مقتناً في كتابه « القانون البدائي »^(١) . وكان نوعها نتيجة للقاصح الشرعي الذي أبداه الرجل لمن نحو وجود الشبان الأصغر منه سناً ، ونحو ملكيتهم للزوجات اللاتي يؤمرن من خارج القبيلة ، والآلات والحل التي كانوا يصنعونها والصيد الذي كانوا يقتلون . ونمت الجماعة الإنسانية بفضل التوفيق بين ملكية هذا الفرد وملكية ذلك . كان ذلك التوفيق في أكبر شأنه توفيقاً ومخالفاً اضطر الرجال إليه اضطراراً بسبب ضرورة دفع قبيلة أخرى إلى خارج صلبهم المرئي المحيط بهم . فلئن لم تكن التلال والغابات والأنهار أرضك أو أرضي ، فلنك لأنه كان لازماً أن تكون أرضنا . وإن كلا منا ليؤثر لو أنها كانت « أرضه هو » ، ولكن هذا لا يمكن العمل به . في تلك الحالة يقوم الرجال الآخرون بتعديرتنا . فكان الجماعة الإنسانية إذن ، إنما هي منذ بدايتها تخفيف لغلوها الملكية . والملكية في الوحش الضاري وفي الموحش البدائي كانت أخذ حصة منها في العالم الملعن اليوم ، فهي في غرائزنا أقوى حفرساً منها في حقوقنا

وليس هناك اليوم تحديد لنطاق الملكية عند الموحش القهري ولا الرجل خير المعلم . ومن الخير لنا أن نتذكر فوما أنه ما من إنسان يزيد بعده اليوم على أربعة جيل من جده الموحش البدائي وكل ما تستطيع أن تقاوم من أجله إنما هو شيء أنت قادر على امتلاكه : - من النساء وعن قبيح عليهم من الأسرى ومن الضواري المصيدة . ومن مسائل الغاية ومن مآخذ الحبر لك غير ذلك . ومع نحو المجتمع ، وتولى ضرب بدائي من القانون الحد من القتال القاتل ، طور الناس طرائق لحشة وسريعة لإقامة الملكية . فصار الرجل يقدر أن يملك ما كان أول من صنعه أو وضع يده عليه أو ادعاه . وكان يبدو طبيعياً أن كل ملين لا يستطيع تسديد دية لا بد أن يتلو ملكاً لذلك ؟ ويبادل هذا في جرياته على الطبيعة أن الرجل بعد ادعاه احتلاك رقعة من الأرض ، لا بد له من تجميع حصص مالية على كل رجل آخر يريد استعمالها . ولم يخلت إلا مع لبطه الشديد ، ومع بزوغ فجر احتمالات الحياة المنظمة وظهور بواكيرها على الناس ، أن اجتدا الناس يرون في هذه الملكية غير المحدودة لأي شيء كان -

مصدر لزجاج ومضايقة لهم . وألقى الرجال أنفسهم يولون إلى علم مملوك كله ومدعى ملكيته كله - لا يل وجعلوا أنفسهم مملوكين أو مدعى ملكيتهم . ومن العسير الآن علينا أن نقف أثر الكفاحات الاجتماعية في المذنيات الأكد قديماً ، غير أن التاريخ الذي حدثناك به عن الجمهورية الرومانية يكشف لك مجتمعاً يستيقظ على فكرة أنه ربما غدا الذين مضايقة عامة ، ولا بد عند ذلك من إنكاره والامتناع عن أدائه ، وأن الملكية غير المحمودة للأرض إنما هي كذلك مضايقة من المصايفات . ولنا نجد أن مملكة بابل (بابلونيا) عمدت في عهدنا المتأخر إلى تحديد حقوق الفرد في امتلاكه الأرقاء محبباً شديداً ، وأخيراً نجد في رسالة ذلك الثوري العظيم ، يسوع الناصري ، هجومياً وطنياً في الملكية لم يوجد مثله قبل ذلك أبداً . قال « أيسر أن يمر بالعمل من ثقب الإبرة من أن يدخل غنى (مالك العقارات العظيمة) ملكوت السموات » .

ويلوح أن العالم ظل طوال الخمسة والعشرين أو الثلاثين قرناً الأخيرة يوجه سهام النقد بلا انقطاع للمقدار الذي يمكن السماح به من الملكية . وما نحن بعد انقضاء سبع حشرة من السيد على يسوع الناصري ، نجد كل العالم المستنل بالتعاليم المسيحية مقتنعاً بأن الملكية في الأشخاص أمر لا يمكن أن يكون ، إذ حدثت من ناحية هذا الأمر انقلاب في الضمير العام . وكذلك الفكرة القائلة ، بأن الرجل يستطيع أن يفعل ما يشاء فيما يخصه ، قد هُزئت هزاً واضحاً كبيراً وضعفت ضعفاً ملموساً بالعلاقة إلى أنواع أخرى من الملكية . على أن هذا العالم الذي نشهد في نهاية القرن الثامن عشر ، لم يبلغ بعد في هذه المسألة إلا مرحلة الشك والإمتسار . ذلك أنه لم يكن لديه شيء واضح وضوحاً كافياً يستطيع أن يتخله أساساً يعمل عليه ، فضلاً عن شيء مستقر استقراداً كافياً . وكان من أوائل دوافعه حفظ الممتلكات من أن يعيث بها جشع الملوكة وتبذيرهم وحمايتها من استغلال النبلاء الفاسدين . وقد شبت الثورة من أجل الحفاظ على الملكية الخاصة . ولكن مبادئ المساواة التي اتخذت ، دفعت بها في تحركات النقد والتجريح للملكية التي نهضت لحمايتها . إذ كيف يستطيع الرجال أن يكونوا أحراراً متساوين بينما العدد الجرم منهم ليس لديهم أرض يعيشون

عليها ولا شيء يطعمونه ، كما أن الملاك لا يرغبون بإطعامهم ولا بإيوائهم ما لم يكتبوا كدباً شديداً مسرفاً - تلك هي شكوى الفقراء .

وكان رد الجعالة على ذلك للفر أن أكبوا على التخصيم . فلهزم أرادوا أن يشلوا أزر الملكية ويضمموها . وكان هناك من قبل في القرن الثامن عشر قوم يرمون إلى نفس الغاية وإن كان ذلك بطريق آخر ، هم جماعة بدائية بعينها من الاشتراكيين - أو بمعنى أدق من الشيوعيين - كانوا يريدون أن يلغوا الملكية الخاصة إنمائها تماماً . وكان على الدولة في رأيهم أن تملك كل الممتلكات . ولم يشرع الناس إلا بعد مضي فترة كبيرة من القرد التاسع عشر ، يدركون أن الممتلكات ليست شيئاً واحداً بسيطاً . بل هي مركب عظيم من الملكيات ذات القيم والأهميات والدرجات المختلفة . وأن كثيراً من الأشياء (من أمثال بدنة الإنسان وأدوات الفنان والياب وغرش الأسنان) إنما هي ممتلكات شتعية بصورة عميقة جداً ولا علاج لها أبداً . وأن هناك تطلقاً عظيماً من الأشياء أمثال السكك الحديدية والآلات ذات الأنواع المختلفة والمنزول والمعدات المرروعة وزوارق المصايد وكل منها بحاجة أن يلقى منا تاملًا خاصاً جداً لتقرر إلى أي درجة ونحت أي حدود يمكن وضعها تحت اسم الملكية الخاصة ، ولدى أي حد يقع في نطاق الملكية العامة ويمكن أن نثيرها وتوحيدها الدولة خدمة للمصلحة العامة . ونحن نمتاز اليوم على الجبل الثوري الأول بغير كبير من الأبحاث التي دارت في مدى السنوات المئة والثلاثين الأخيرة ، ولكن حتى هذا الأدب المسطر في الملكية ولقد الموجه إليها لا يزال إلى اليوم نخباً هاملاً حتى الوطنيين أكثر منه حليماً مقرراً . وكان من المستحيل والحالة هذه أن تستطيع فرنسا القرن الثامن عشر أن تنتج أي مشهد آخر هذا تلك الحركات الشعبية الفاضلة المرفيكة الراضة في حرمان الملاك من أملاكهم ، وهنا شهد طبقات من الملاك الصغار والكبار الذين يستمسكون بما لديهم استمسكاً للعاصب المتجههم مطالبين قبل كل شيء بضمان الملكية .

وبما يتصل أوثق اتصال يمشو فكرة الملكية في أذهان الناس هو موضوع مكرانهم من العملة . فإن كلا من الجمهوريين الأمريكيين والفرنسية أصيبت من جراء هذا

الأمر بمناصب خطيرة . ولذا لتعالج هنا أيضاً أمراً ليس بالحق اليسير ، بل هو نخرة من العرف النجس والأوضاع التقليدية والقوانين والعادات العقلية الفاسية ، التي نشأ عنها مسائل تسمح بأى حل يقوم على أسس بسيطة ، والتي هي مع ذلك صالحة أهمية حيوية في حياة المجتمع اليومية . وصحة الاعتراض الذي يتناوله الرجل مقابل اشتغاله يومياً ، ذات أهمية أولية تماماً ، كما هو بين ، في حل الجهاز الاجتماعى . وهناك نوعان من النمو تماماً بالتدريج على كثر التاريخ الإنسانى ، هما ملاحظة في المعادن النفيسة ونمو العملة نمواً انتخب به الناس عملياً أن العملة الجيدة يمكن الاحتفاظ بها إلى امتلاكها قوتها الشرائية في أى مكان .

ولما كان استقرار ذلك الاحتفاظ متوسطاً ، فإنه تعرض لتأزمات وارتباكات جسيمة جداً ، نتجت عما كانت تعتمد إليه الحكومات من خفض العملة ومن استبدال النقود المعدنية الفعلة بالوعود الورقية باللفظ . فما كانت تحدث زلزلات سياسية واجتماعية خطيرة ، حتى أخذ نظام النقود يعمل بصورة متزايدة غير مضبوطة .

وقد ابتدأت كل من الولايات المتحدة والجمهورية الفرنسية حياتها في دور عصر مالى . وكانت كل من الحكومتين تقترض للنقود وتصدر وعوداً ورقية بدفع الفوائد ، وهى فوائد تفوق ما كانتا تستطيعان جبايته في غير مشقة . وأفضت كل من الدولتين إلى الشيء الكثير من الإلتفاف والإلتراضى العام المستجيب ، وأدت في نفس الوقت إلى انقطاع في عملية الزراعة والإنتاج زاد في إقصاء الثروة الحقيقية التي يستطيع فرض الضرائب عليها . وإذا أن كلا من الحكومتين لم تستطع أن تواصل الدفع بالذهب ، فقد لجأت إلى إصدار العملة الورقية (البنكوت) ، التي تعد فيها بأن تدفع بضمين الأراضي غير المتطورة (في أمريكا) أو أراضي الكنيسة المصادرة حديثاً (فرنسا) . وتجاوز القدر الصادر في كل من الحالتين حد ثقة الناس في الضمان الجليد تجاوزاً بعيداً . وهرب الذهب من الأسواق حيث أخفاه مكره الناس ، أو أرسل إلى الخارج لسدبداً لأغراض البضائع المستوردة ، ووجد الناس أنفسهم يحصلون أنواعاً مختلفة من الصكوك وورق البنكوت بدل العملة وكلها ذات قيمة متناقصة غير محققة .

ومهما يكن شأن أصول العملة من التصيد ، فإن آثارها العملية والقابلة التي لا بد لها من خدمتها في المجتمع يمكن أن تذكر هنا بطريقة إيجابية . فإن النقود التي يتلقاها الرجل عن عمله (حقيقياً كان أم جسيماً) ، أو من التخلي عن ملكيته مقابل بضعة استهلاكية لا بد أن تستطيع في النهاية أن تشتري له ولاستهلاكه قدرًا يماثل ذلك بالتقريب من السلع المستهلكة . (وللمظة ، السلع المستهلكة ، عبارة عما أن تفهم على أوسع معانيها بحيث تمثل حتى إحدى الرحلات ، أو الاستماع إلى محاضرة أو حضور إحدى المسرحيات أو السكن أو الاستشارة الطبية وما إليها من الأشياء) . فإذا ضمن كل فرد من المجتمع توفر هذه الأشياء له ، وضمن أن النقود لن تسقط قوتها الشرائية - فإن العملة وتوزيع البضائع بالتجارة تكون عندئذ في حالة سليمة مرضية . فعند ذلك ، وعند ذلك فقط ، يشغل الرجل مسرورين راضين .

والحاجة الحتمية إلى ذلك الاستقرار وذلك الثبات في العملة ، إنما تقوم بناءً على هذا في المعاني الثلاثة (Datum) التي منها يجب أن تبدأ الدراسة العملية للعملة والرقابة عليها . ولكن لا بد دائماً من وجود التقلبات في قيمة العملة ولو في خلال أئمت الأحوال وأوضاعها . فإن صفات جلة السلع القابلة للشراء والاستهلاك في العالم وفي أقطار متنوعة ، تختلف من سنة إلى أخرى ومن فصل إلى فصل ، ولعل الحريف زمن حيرات ووفرة بالموازنة إلى الربيع ، فإذا حدثت زيادة في السلع التي يمكن الحصول عليها في العالم تزداد القوة الشرائية للعملة - ما لم يرافق ذلك زيادة في مقدار العملة ، فإن كان هناك من التلبية الأخرى نقص في إنتاج السلع الاستهلاكية أو تدمير عظيم غير مبرح في السلع الاستهلاكية ، شأن ما يحدث في الحروب ، نقص نصيب جلة السلع الاستهلاكية بخلاف ما يبلغ من المال ، ثم تعلقو لاهالة الأسعار والأجور . فربما حدث في الحروب المصرية أن انضجار قنلة كبيرة واحدة ، وإن لم تصب شيئاً ، يستهلك من العمل والمواد ما يماثل الذي أخذ الرجال بالتقريب أجرة منزل ريفي ظريف أو خففة حطلة سنوية . فإن أصابت القنلة شيئاً ما ، وجبت إضافة ذلك التدمير الآخر إلى النقص في السلع الاستهلاكية . ولقد كانت كل قنلة تنفجر في الحرب العظمى

تقصي جرماً يسيراً من القوة الشرائية لكل عملة في العالم بأجمعه . فإن كان هناك أيضاً زيادة في العملة أثناء فترة تسلط فيها السلع الاستهلاكية ولا تستبدل تمام الاستبدال يغيرها - وضرورات الحكومة الثورية والعامة على الحرب نكاد نطلب ذلك على الدوام - نكون لزيادة عند ذلك في الأسعار والميرط في قيمة للعملة المدفوعة أجوراً ، أكثر وأكبر .

وقد جرت العادة كذلك بأن الحكومات تضطر مدفوعة بتلك الشدائد إلى اقتراض المال ، أحياناً تصدر أوراقاً تحمل الفائدة بضمين رغبة المجتمع العام ومقتوته على تحمل الضرائب .

وتكون مثل هذه العمليات على درجة كبيرة من الصعوبة إن كان من يقوم بها رجالاً على تمام الشرف يقومون بها في حراصة ، تحت كامل ضياء العلانية والمعرفة العلمية . ولكن هذا الأمر لم يحدث البتة حتى يوماً هذا ، ففي كل آن ومكان نجد الأثافي البارز أي الصف الشري من الرجل الفنى ، يحاول أن ينحرف بالأمور قليلاً نحو مصلحته الخاصة . كذلك يجد الإنسان في كل مكان الأثافي الفنى ، على أمة الاستعداد للتشرب بالخوف والتخاف ذعراً . ومن ثم تكشف لنا الدولة على الفور وقد فلتحتها وفرة في العملة ، التي هي في واقع الأمر بمثابة دين لا بدفع القوائد ، كما يهبطها كذلك عبء فوائد القروض . ويبدأ كل من « الائتمان Credit » والعملة في التناحي والتقلب الشديد مع تسخر (تناقص) الثقة العامة . وقد نستطيع أن نقول عنهما عندئذ إنها في حالة انحلال معنوى خطي .

والعاقبة النهائية للعملة أصبحت بنجام الانحلال المعنوى هي إضافة كل عمل وكل تجارة لا يستطيع مواصلتها بالدفع شيئاً أو مقايضة . فإن الرجال يرفضون عند ذلك أن يعملوا ، اللهم إلا مقابل الطعام والياب والسكن والدفع شيئاً والتبعية المباشرة لعملة منحة انحلالاً معنوياً جزئياً هي ربح الأسعار وجعل التجارة أمراً عسيراً خطراً ، وملء نفوس العمال بالريب والشكوك والتشيز الهياج . ففي مثل هذه الظروف يميل الرجل الذكي إلى إبقاء النقود في حوزته إلى أنصرأد ممكن ، فهو يطلب أقصى ما يستطيع في مقابل حقيقته التي بين يديه ، ويشقى مرة ثانية

حقيقة أخرى بأسرع مستطاعه لكي يباع ما بينه وبين تلك المادة القابلة للهلاك ، وأغنى بها العملة الورقية . ويكابد كل أرباب الدخل الثابت والرصيد المدخر ويقاسون من غلاء الأسعار ، ويعد الأجراء ولبيب خضيم يزدد في كل آن أوارا ، أن القيمة الحقيقية لأجورهم في تناقص مطرد .

ومن الواضح أن تلك حالة يحتم فيها الواجب على كل شخص ذكي أن يبذل اللون ويقوم بمجهود في سبيل إعادة الأمور إلى نصابها وبث الطمأنينة في نفوس الناس . على أن كل تقاليد المسمى الخاص ، وكل أفكار الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، اتجهت إلى تبرير أعمال ذوى الذكاء الشديد والمهرة من الناس الذين نصبوا أنفسهم لتجميع الإعدامات ، والألقاب والأمالك المضمونة في خلال العواصف والزلازل والثقلات التي تحدث أثناء انهيار هذه العملة . ومن هجب أن الرجال المدركين لحقائق في العلم والدين كانوا ينصبون أنفسهم في إخلاص وبساطة لإعادة ما للعملة والائتمان من أحوال شريفة يمكن التعامل في ظلها ، كانوا رجالا ظلي المدد ، عديمي الأثر . فإن معظم رجال المال والمضاربات في ذلك الزمان كانوا يلعبون دور رجال كورنوال^(١) دون وهمي منهم إلى ما في ذلك من قلة الشرف ، بل يفعلونه فيما يبلو بأنهم أنواع الاستعصان اللئالي وأكل مظاهر رضى زملائهم . لقد كان هدف كل شخص ذكي ماهر أن يجمع أكثر ما يستطيع من الثروة القابلة للتحويل ، وعند ذلك ، وعند ذلك فقط ، يسد إلى تدبير وسيلة تؤدى إلى التوطيد السياسي ، وتضار له ملكية ما جمع أهود ما تكون عليه نقما . فهذه هي عوامل جو اقتصادي رديء على بالشكوك والعصية المضمونة وبخسح والمضاربات . . .

فأما الاتجاه الثالث الذي اتجهت نحوه دون أن تصد له بفكرات نيرة واضحة ، وهو مسألة العلاقات الدولية ، فقد قلوا عليها فيه تطورات تعاملت أسوأ التفاضل وأجلبه لكوارث مع هذه الحالة ، حالة المغامرة المالية والاقتصادية

(١) يعبر الكاتب هنا إلى ما كان يفتد سكان كورنوال بمررب التجارة ، إذ يستخرجون السفن ويجمعونها بالألوار لتطرح على طاقم فيها . (الترجمة)

وهذا الخطاف والارتباك وانشغال بالهم بما أصاب ملكيتهم الخاصة ومركزهم التقليدي في بلادهم ، من انزلاق حير للقول . فقد وجدت الجمهورية نفسها يوم ميلادها متبكة في حرب . وقد ظل الجيتلون الجدد دسماً من الزمن يخوضون بحمار هذه الحرب بوطية وحادة لم ير العالم لها في تاريخه نظيراً . ولكن لم يكن في الإمكان أن يستمر هذا الحال إلى الأبد . ووجلت حكومة الإدارة نفسها على رأس بلاد فائحة ، ولكنها كانت من الطاحية اللطيفة في عسر مالى واضطرابه لا يطاقان ، ووجدت نفسها تحل أراضي أجنبية غنية مليئة بثروة يمكن الاستيلاء عليها ، عامرة بالقرص المادية والمالية . وحمل كل منا في طياته طيمة مزدوجة ويطلع أن الفرنسيين بوجه خاص قد تطوروا بشكل متطويع متسق (سيمترى) في حمل كلتا الطيختين . فقد جاءت فرنسا إلى هذه الأقاليم المثررة مُحَرَّرًا ومعلماً وكانت استنادة الإنسانية في الروح الجمهورية . ومن ثم أصبحت هولندا وبلجيكا تسميان بالجمهورية البلانقية ، وأصبحت جنوا وملحقها الرثييرا بالجمهورية الليجورية ، وغدا شال إيطاليا الجمهورية السزاليينية ، وغير اسم سويسرا إلى بالجمهورية الملقائية (Helvetic Republic) ، وصحيت روما وميلوز (Mulhausen) ونابولي جمهوريات . فإذا تجمعت هذه الجمهوريات حول فرنسا لأنها كانت على أن تكون مجموعة من كواكب الحرية التوامع تعود العالم وتهديه . تلك هي الناحية المثالية في الموضوع . وفي نفس الوقت تقدمت الحكومة الفرنسية ، والأفراد الفرنسيون مجتمعين مع الحكومة للقيام باستغلال كامل استفادى لموارد تلك البلاد المحررة .

ولما تبدأ فرنسا الجديدة في مدى عشر سنوات من اجتماع مجلس الطيقات أن تتخذ لها شيئاً حقيقياً بفرنسا القديمة . بل هي أشد حشواتاً وأنشط قوة ؛ وهي تترلى فوق رأسها قلنصوة الحرية في مكان التاج ؛ ولها جيش جديد غير أن ليسها أسطولا عظيماً ؛ وإن لها لأتاساً أخنياء جلدأ مكان الأخنياء القدماء ، ولها فلاحون جند بكادون يكسحون أكثر من سابقهم ويلحقون ضرائب ألدح ؛ وفيها سياسة خارجية جديدة عجيبة الشبه بالسياسة الخارجية القديمة الملقاة ؛ ولم يظهر لها العهد اللعبي عهد المسح المنتظر .

الفصل السادس والثلاثون

سيرة نابليون بونابرت

- ١ - أسرة بونابرت في كورسيكا .
- ٢ - بونابرت طالباً جديداً .
- ٣ - نابليون قسلاً أول ١٧٩٩ - ١٨٠١
- ٤ - نابليون الأول بيمبراطوراً من ١٨٠٤ - ١٨٢٥
- ٥ - المنا بوم .
- ٦ - حملة أوروبا في ١٨١٥ .
- ٧ - طراز الإمبراطورية .

١ - أسرة بونابرت في كورسيكا

ما نحن أولاء نصل الآن إلى شخصية من أشد شخصيات التاريخ إثراً ومسطراً ، هي شخصية مظهر مُعْظَم ، يبدو أن نصته تظهر في نصاعة خارقة للعادة التفاضل العام الخلقى الفخيق بين الأناثية والكبرياء والشخصية ، وبين مرجحات المصلحة المشتركة الأشد ضعفاً والأكثر تسامحاً . وإنك لتلاحظ قبالة هذه الخلقة المكونة من الارتباك والحمية والأمل ، أي قبالة هذه القارة الأوروبية والدولة الفرنسية المتهككين اللامعنين ، وهذا الفجر الماصف الضخم ، ظهور هذه الشخصية الضئيلة القديمة الطراز بما لها من الصلابة والتمسك والكفاية وعدم الاستعسك بمبادئ الشرف مع الليل إلى التقليد والسوقية المقتلة . ولد في ١٧٦٩ بجزيرة كورسيكا التي كانت ما تزال نصف صيبية . وكان ابناً لرجل غير ذي شأن تقريباً ، وهو عم كان في بادئ أمره وطنياً يناضل الملكية الفرنسية ، التي كانت تحاول أن تخضع كورسيكا ، ثم انقلب عند مولده على وطنه وانضم إلى صف المغير الغاصب . وكانت أمه ذات طيبة أقوى ، معتمدة الوطنية ولها قوة شكبية ومقدرة في الكياسة وتدبير الأمور . (كانت تضرب أولادها بالقرعة ، حتى لقد ضربت نابليون ذات مرة وهو في السادسة عشرة) . وكان هناك إخوة وأخوات كثير ، وظلت العائلة تلاحق الحكومة الفرنسية بالأحاف في طلب المكافآت والوظائف . ولما هنا نابليون فإن العائلة تبدو

عائلة وجالسة ، هادئة تماماً ، كان ماهراً ذكياً سيئ الخلق معكبراً خطيباً . اكتسب من أمه وطنية (رومانية) كورسيكية .

حصل بفضل رعاية محافظ كورسيكا الفرنسي على تعليم ابتدائي بمدرسة بريين Brienne العسكرية ثم بالمدرسة الحربية بباريس ، ومنها انتقل إلى الكلية في ١٧٨٥ . كان تارماً جتهداً لكل من الرياضيات والتاريخ ، وكانت ذاكرته قوية قوة خاطرة ، وكان يدون ملحوظاته في خلاصة ضخمة ما تزال موجودة . ودلائل للكلمات التي لا تظهر فيه أي ذكاء استثنائي ، كما أنها تحتوي كذلك على قطع صغيرة من الانشاء الأصيل - حول الانتصار وما يمثله من موضوعات المراقبين . وقد وقع في حبائل محروسو منذ زمن مبكر ، ثم تأندت حساسية رغباً وتطور في نفسه الاحترار لقائد المدينة . وكتب في ١٧٨٦ نشرة ضد سيس سويسرى هاجم روسو . وكان يحلم بكورسيكا المستقلة المنحرة من نير الفرنسيين . ثم أصبح مع شيوخ الثورة جمهورياً متحمساً ونسيراً للنظام الجديد في كورسيكا . وظل يقوياً بضع سنوات حتى سقوط روبسبير .

٢ - بوناپرت قائلاً جمهورياً

وسرعان ما ذاع صيته بأنه ضابط نافع مثقل ، وقد استطاع يومئذ شقيق روبسبير الأصغر أن يحصل على أول فرصة يتر بها أمره في طولون . وكان المليون قد سلموا طولون لبريطانيين والأسبان ، واحتل أسطول متحالف ميناءها . وأعطيت لبوناپرت قيادة للكلية ، واستطاع الفرنسيون بقيادته أن يرموا الحلفاء على مفارقة الميناء والمدينة .

ثم حين بعد ذلك قائلاً للكلية في إيطاليا ، ولكنه قبل أن يتسلم مقاليد عمله اكشهر الجورينا في الألق أن موت روبسبير قد يغير مصيره أيضاً ، فوضع تحت الاحتقال يومئذ يقوياً ، وظل خطر المقصلة هماً بريقته ودعاً من الزمان . ثم انتشع ذلك الخطر . وحين قائلاً للكلية في غارة على كورسيكا لم تأت بغائلة ، ثم ذهب إلى باريس (١٧٩٥) وحر في حال رثة . وتصف ملهم جوتو في مذكراتها وجهه المزبل

ومظهره الرث في ذلك الزمان ، وشعره : الأثعث من الشعر يتدلى فوق بمنطقه الرمادي ، وينفذ العاطلين من التفار وحلله السىء اللعان . كان ذلك زمان إجهاد وإنتكاس أعقبا مساوات الجمهورية اليهودية . يقول مولاندرورز : كان نجم الحرية قد أضاء بأقل في باريس لقاء إشراق عطارد (Mercury) والمريخ (Mars) والزهرة (Venus) ، أى المالبية والياب العسكرية والباء الاجتياهي . وكان خيرة الرجال الساديين يعملون في الجيوش وراء الحدود . ولقد سبق أن ذكرنا من قبل آخر ثورة السلكيين في ١٧٩٥ . ومن حسن طالع لاهيوت أنه كان في باريس في ذلك اليوم ، تلقى في حله للسألة نهزمه الثانية . فأنفذ جمهورية الإدارة .

وأثرت كفايته في كارنو أيضا تأثير ، وهو أحد المديرين لستقامة فأصبح به . زد على ذلك أنه تزوج من أرملة شابة حسنة ، هي مدام جوزفين دي بوعارنية ، وكان لما سلطان عظيم على براه (Barres) . والرجح أن هذين الأمرين هما اللذان ساعداه على الحصول على القيادة في إيطاليا .

وليس أمامنا هنا متسع لقصة حياته التراكبية في إيطاليا (١٧٩٦ - ١٧٩٧) ، ولكن لابد لنا من كلمة أو اثنين عن الروح التي تمت بها تلك الحملات على إيطاليا ، لأنها تبين أنصح تبيان ، تلك الروح المزدوجة لفرنسا وناهيون ، وكيف أعلت النكرة للثالية الجمهورية في النحوب لقاء الظروف العملية القاهرة . فإنه أعلن على الإيطاليين أن الفرنسيين إنما يقتلون لتعظيم أفعالهم - وكانوا عند قولهم : ... على أنه يكتب إلى حكومة الإدارة يقول : « لسوف نجني عشرين مليوناً من الفرنكات ، نحسم على الأعمال دفعا في هذه البلاد ، لأنها من أغنى بلاد العلم » . فلما جنوده فإنه خاطبهم بقوله : « إنكم جياح وتكادون تكونون حرة . . . ولاني لأقودكم إلى أعصب سهل في العلم . ولسوف نجنون هناك مدناً عظيمة . وولايات غنية وشرفاً ومجداً وثروة . . . »

ونحن البدر مططورون لاجرم - على طليحة مغلطة كهذه ، بيد أن هذه التقررات التي كتبها شاب في السابعة والعشرين ، يلوح أنها تظهر الطلاء النعبي الموه للمثالية العليا للشرقة وقد زال عنها وتصل في من جبكرة تيكبر خير حادى .

وكان نجاحه في إيطاليا زائفاً كاذباً . وكانت رغبته في اللحاق إلى إيطاليا راجعة إلى أنه كان يتوقع أن يجد فيها أشد الأعمال استعجالاً له ؛ فخطاير بوظيفته في الجيش برفضه أن يقبل العمل المضني في قيادة حملة على العصاة في لاتفيا . وكان قد أكسب طويلاً على قراءة تراجم بلوتارك^(١) والتاريخ الروماني ، فكان خياله البالغ النشاط متلبهاً عند ذاك بالأسلام ، أحلام إنبعاث الفتح الشرقية للإمبراطورية الرومانية . تخلص نابليون من جمهورية البنتيقية بأن مزقها بين فرنسا والنمسا ، محضلاً لفرنسا بالجزائر الأيونية والأسطول البندق . وقد أثبتت الأيام فيما بعد أن هذا الصلح المسمى صلح كامبو فورميو كان صفقة خاسرة لكل من الطرفين . فقد اشتركت جمهورية فرنسا البعيدة في قتل جمهورية قديمة — وألفظ نابليون رأيه مخالفاً بذلك صيحة مسخط وإنكار تعالت في فرنسا — وحصلت النمسا على مقاطعة فيليشيا ، وهي الأراضي التي قدر عليها في ١٩١٨ أن تنزف فيها حتى تموت . وكانت هناك كذلك فقرات سرية اتفقت فيها فرنسا والنمسا على الحصول فيما بعد على الأراضي الألمانية الجنوبية . ولم يكن الحلم بالتوسع الروماني نحو الشرق هو وحده الذي كان آنذاك يعمل عمله في عقل نابليون . فهذه هي أرض تيمصر نفسها ، وكان تيمصر مثالا سبياً لذلك الجنرال الموفق في جمهورية صير وطيمية .

وكان تيمصر قد عاد إلى روما من بلاد الغال بطلاً وفاتحاً . فكان مقلده يريد أن يعود من مصر والمند مظفراً كذلك ، ومن ثم تكون مصر والمند هي بلاد الغال بالنسبة إلى نابليون . وكانت عناصر الفشل تهملق بعينها في وجهه . إذ كان الطريق إلى مصر والمند بحرياً ، وكان البريطانيون بالرغم من حطوث تمودين بحريين قريبين العهد ، أقوى سيطرة في البحر من الفرنسيين . زد على ذلك أن مصر كانت جزءاً من الإمبراطورية النمساوية ، ولم تكن هذه بأى حال دولة يستهان بها في تلك الأيام . ولكنه مع ذلك أقنع حكومة الإدارة ، التي كانت بهرتها في إيطاليا أعماله العظيمة

(١) تراجم بلوتارك . وهو كاتب إغريقي ولد في سيرونيا ، وكان يلقى المحاضرات بروما في عصر مادريان . وكتابه التراجم الثلاثة يتكون من أدياج مقابلة من مع القادة والسياسيين الإغريق والرومان عليها مقارنات بين كل اثنين . (لترجم)



{ تكل ١٨٥ }

بالساح له بالدهاب . وخرجت أرمادا^(١) من طولون في مايو ١٧٩٨ واستوت على مالطة ، ومن ثم طردها ، أن نجحت الأسطول البريطاني ووصلت إلى الإسكندرية فأرسل جنوده على عجل ، ولم تلت معركة الأهرام أن جعلت سيداً على مصر .

وكان الأسطول البريطاني الرئيسي في ذلك الوقت في طاهر المحيط الأطلسي قاذة قدس ، ولكن أمير البحر كان أمد قوة من حيرة سفته ، بقيادة الفيس أمير ل نلسون - وهو نابغة عظيم في الشؤون البحرية يوغ نابليون في الأمور العسكرية البحرية - أرملة يستعب الهارة الفرنسية الصغيرة وينارها ، واتفق نلسون حباً من الزمان يبحث عن لأسطول الفرنسي بلا حدود ، حتى وجده أخيراً في مساء يوم أول أغسطس راسياً في خليج ، أن فير ، فأخذ على شرة ، إذ كان كثير من الرجال على البر وكان ثمة مجلس متقدماً في سببه القيادة . ولم تكن لديه خرائط ، وكانت قيادة السفن في مياه ضحلة تحت أنوار الأصيل الكافية أمراً محفوفاً بالخطار . ومن ثم استنجد الأميرال الفرنسي أن البريطانيين لن يهاجموه قبل طلوع الصبح ، ولذا لم يصح في استدعاء رجاله الموجودين على البر إلى معنهم حتى فأت الأوان ، ومهما يكن من شيء ، فإن نلسون أخذ بضرب من فوره مخالفاً بذلك نصيحة كثير من قواده . ولم تشحط منه إلا سبعة واحدة فقط . فدللت بذلك بقية الأسطول على

(١) حملة صرية من سفن الحرب . (الترجم)

المخطة الفسطة . وتحرك الأميرال بسفنه هاجماً في خط مزدوج قرب غروب الشمس ، فوضع الفرنسيين بين يدين . وأرغى الليل مدوله وقد التحم الطرفان في المعركة ؛ وكان القتال يهدو ويهزم تحت جنح الظلام حتى أضاء المكان من نوره بلهب السفن الفرنسية المحترقة ، ثم يومض سفينة القيادة الفرنسية الأورينت (L'Orient) . وقد انفجرت . . . ولم يقتصف الليل حتى كانت معركة النيل قد انتهت ، وكان أسطول نابليون قد تضرر . وبذلك انقطع الطريق على نابليون إلى فرنسا .

ويقول هولاندروز قلاً عن تيير Thiers : إن هذه الحملة المصيبة كانت أشد المحاولات التي سجلها التاريخ هوجاً وتسرماً . فقد غدر نابليون في مصر والعرب وتجمعوا عليه والطاعون يقتك برجاله : ومع هذا فإنه استمر رديماً من الزمان بواصل القيام بهذه الخطة الشرقة . فأحرز في يافا نصراً ، وإن كانت تعوره الميرة فإنه أحمل اللدبح في كل أسراه . ثم حاول أن يستولى على عكا ، حيث استعملت ضده مدفعية الحصار الخاصة به ، وكان البريطانيون استولوا عليها في البحر قبل ذلك بزمن يسر . حتى إذا عاد إلى مصر خائب للمضى قد أمسقط في يده ، فإنه أحرر فرساً عتيقاً على جيش تركي عند أبي قير ، ثم تحمل بعد ذلك عن جيبه في مصر - ولكن ذلك الجيش بقي يقاتل حتى عام ١٨٠١ ، حتى استسلمت قوة بريطانية - وفر نابليون بجلائه إلى فرنسا ١٧٩٩ ، وقد بما بأعجوبة من أن تأسره طرادات بريطانية بالقرب من صقلية .

وقد لقي في هذه المشروع من الاخفاق ما يسقط كل ثقة بأي قائد - لو أن أمر تلك الاخفاق حُرِف . بيد أن الطرادات البريطانية التي أوشكت أن تلقى عليه القبض هي التي أعانته على إخماد نيبه إذ منعت تسرب أي علم بحقيقة الموقف في مصر إلى مسامع الشعب الفرنسي . فاستطاع أن يقيم ضجة عظيمة حول معركة أبي قير وأن ينجي فشله في عكا . ولم تكن الأمور في فرنسا في ذلك الحين على ما يرام . إذ منيت بالحرايم العسكرية في مواطن عدة ؛ ففزع منها أكثر إيطاليا ، وإيطاليا بما حرمته يدا بوتابرت ، فأدى هذا إلى اتجاه الأنظار إليه بوصفه المنقذ الطبيعي

الموقف ، هذا إلى أنه حدث الشيء الكثير من الاختلاس ، وأن أحرار بعضها أعطت
تخريب إلى الناس فكانت فرنسا في أحد أدولر فضائعها المالية ، ولم يكن نابليون
قد امتدت يده إلى أي مال ، فكان الجمهور من ثم في تلك الحالة الكلية حالة
التعب المعنوي التي يطلب عندها الرجل القوى المتين ، الرجل المدهش لقد المستحيل
المتان ، الذي ينزل على قلب الأمة نزول البسم والبريق ، ويفهم بكل شيء لكل
إنسان . وأخذ الناس يقدون في روح أنفسهم أن هذا القوي الحسن الظاهر ذا الوجه
الجامد ، الذي أعادته العناية الإلهية من مصر - إنما هو الرجل القوى الأمين
المفتود - وأنه واشنجتون آخر .

واستجاب نابليون لطلب زمائه وفي مؤخرة ذهنه صورة يوليوس قيصر
أكثر منها صورة واشنجتون . وظهرت مؤامرة محكمة لاسينال حكومة الإدارة
بثلاثة « قناصل » يكون نابليون كبيرهم - وكان بكل إنسان في ذلك الزمان
يتلو أكثر مما ينبغي في صفحات التاريخ الروماني يقرأها ويستوعب ما فيها
والقيام بهذه المؤامرة عمل أعقد من أن يتسع له هذا المكان : وقد تضمن
حل طريقة كرومويل تثبيت المجلس الأدنى (أي مجلس الخمسة) ، وفي هذا
الامر قد نابليون وباطلة جانبه . فإن للتوابع صاحباه ودفعوه ، حتى ليروح
أن الحرف داخله . فكاد أن يفسى عليه وأخذ يسم ويلجج وأرتج عليه فلم
يمر كلاماً . ولكن أخاه لوسيان أقعد الموقف ، بأن استقدم الجنود وفرق
المجلس . على أن هذه الورطة الصغيرة لم تؤثر في نجاح الخطوة التالية . ونزل
القناصل الثلاثة في بناء قصر لوكسمبرج ، ومعهم قوميسران إثنان لإعادة
وضع الدستور .

وأخذ نابليون يعمل حياض رمليه والقوميسرين يمشى الجرافة والصلف بعد
أن عادت إليه كل تحتة بنفسه وبعد أن تحقق من تسرة الشعب له وأنشء
دستور جعله الموظف المتعبد الأكبر وقلب الفصل الأول ، وغوله سطت هائلة .
وكان لزاماً أن يكون هو نابليون ، إذ كان ذلك منصوحاً عليه في صلب
الدستور . وكان على أن يعاد انتخابه أو يستبدل بغيره بعد إنقضاء عشر سنوات

وكان على أن يساعد مجلس الدولة ، يعينه هو نفسه ، ويكون من حقه أن يفشى التشريعات وأن يرسل مقترحاته إلى هيتين ، هما لجنة التشريعية (التي كانت تستطيع أن تعطي أصواتها في الموضوعات دون أن تأتينا) وهيئة الكوميون (The Tribune) (وكانت تستطيع أن تناقش المسائل دون أن تعطي فيها صوتاً) ، وينتخب الهيئتين مجلس شيوخ أعضاؤه معينون من بين أفراد طبقة خاصة هي « ذوى المكاة » في فرنسا : الذين كان ينتخبهم « ذوى المكاة في المديرية أو المحافظة » الذين كان ينتخبهم « ذوى المكاة » الكوميون « الذين كان ينتخبهم الناخبون العاديون ؟ وكان الإقراع على انتخاب ذوى المكاة في الكوميون حقاً مباحاً للجميع . فكان هذا هو المظهر الوحيد للديمقراطية في هذا الحرم الملحد للحير ١١ -

وكان هذا الدستور في معظم أمره الفكرة المشتركة لقبلسوف حليل هو « ميايس Steyès » (أحد القناصل الثلاثة) - بالإشتراك مع بوناپوت . على أن فرنسا بلغ بها الإعياء من متاعها وجهودها ، وبلغ من ثقة الناس في فضيلة واقدار هذا الرجل مبعوث المقادير ، أنه عندما حدث في مطلع القرن التاسع عشر أن قدم هذا الدستور إلى البلاد أكره ٣,٠١١,٠٠٧ صوتاً ضد ١٥٦٢ . لقد وضعت فرنسا نفسها بين يدي بوناپوت وضمناً مطلقاً وأعلنت العدة لأن تعيش في سلام وسعادة ومجد .

٣ نابليون قنصلاً أول ١٧٩٩ - ١٨٠٤

وليس هناك من وجه للتك في أنه منحت هنا فرصة لم تمنح قط لرجل في العالم من قبل . فهنا منصب قد يتقوس له ظهر أى امرئ إشفاقاً من نفسه على نفسه ، وأن يبحث في زوايا قلبه ، وأن يخدم الله والإنسان بأقصى استطاعه . إن النظام القديم قد قضى أو كاد ، وأعلنت قوى حجية جديدة تنلخ في أرجاء العالم تبحث عن شكل تصوغ فيه نفسها وقائد يوجهها . وكان الرشد المستنير والأمل المقود تصهورة عالمية وسلام على دائم بداعيان أفئدة جمهور خفير من ذوى الأذعان المزججة . وكانت فرنسا بين يديه وكانت أداة طيعة له يفعل بها ما يشاء وهي أرغب

ما تكون في الملام ، غير أنها شاحنة الحرب شحوذ مهتد بمثال . ولم يكن يعوز هذه الفرصة العظيمة إلا الخيال التليل . وإذا مات نابليون ذلك فإنه لم يكن يستطيع إلا أن يلبثر بجلاء على فئة جيل الهزات ذاك العظيم ، كما يبتخر الديك الفخر فوق تل من الروث . فإن الشخصية التي يكونها لنفسه في التاريخ شخصية بها ما لا يكاد يصلقه عقل من الغرور بالنفس والاحتقار الوقاح لكل من وثقوا به وعلم الاكتراث بهم . وجنون عظمة يقلد به قيصر والإسكندر وشمرلان بتليد القدرة ، لولا أنه خفسب بالدماء الإنسانية الركية لكان مبعث السخرية والاستهزاء . حتى جاء ، كما يقول شكسبير هوجو بطريقته الخائلة « يوم ضاق فيه الله به ذرعاً » ، فخلد به ركلا بالأرجل ليختم آياته في ركن منزل يشرح ويشرح كم كانت أشع أعطائه مسرحاً للذكاء والمهارة وهو يربص في أرجاء جزيرته الحارة الموحنة متصبلاً للظهور ويتشاجر شجاراً وضيقاً مع سجان متحط التربة م يكن يوليه « الإحترام » اللائق .

ولم حله كتنصل أول أقل أحوار حياته مرة . فإنه تناول في يده للشون العسكرية التي تقوضت أثناء حكم الإدارة . وبعد حلة معقدة في شمال إيطاليا ، بلغ بالأمور إلى نصر حاسم عند مانتو قرب اليسانديا في (١٨٠٠) . وكان نصراً قارب في بعض أوقاته أن يكون كارثة كبيرة . وفي ديسمبر من السنة نفسها أوقع الجنرال دورو (Moro) هزيمة ساحقة منكزة بالييش النمسي قرب هومليندن ، في ظروف تكففت فيها عوامل التلج والوحل والجوال لتفطج الريب فلو أن نابليون فاز بهذه المعركة لاحقت من بين أبرز مآثره وأعلاها كعباً . وهذه الأمور حلو السلم المرجو أمراً ممكناً . وفي ١٨٠١ تم التوقيع على الخطوة الأولى للمهددة للصلح مع إنجلترا ونمسا . وانتهى للصلح مع إنجلترا بمحاكمة أمان في سنة ١٨٠٢ . وصار نابليون مطلق اليدين يستطيع أن يفرغ لمن السياسة والتدبير لتتلاق المبدع الذي كانت فرنسا - وأوربا بأجمعها من وراء فرنسا - في أشد الحاجة إليه . لقد أتاحت للحرب لفرنسا أن تعد رقعة أرضها وتوسع حدودها ، وبمقتضى المعاهدة مع إنجلترا استرجعت فرنسا إمبراطوريتها في المستعمرات وأصبحت

في حالة أمن تتجاوز أقصى ما كان يحلم به الملك لويس الرابع عشر . وكان الباب مفتوحاً أمام ناپليون لكي ينتج ويدعم نظام الأمور ويصنع دولة عصرية تكون نبزاً ومصلحاً وحياً وإلهام على كل أوروبا والعالم قاطبة .

على أنه لم يحاول أن يعمل شيئاً من هذا القبيل . إذ كان خياله المزيّل المقلد حليماً يحلم أن يكون هو قيصر من جديد . فكان يدبر الخطط لجعل نفسه إمبراطوراً حقيقياً ، يضع على رأسه التاج ويحمل مناقبه وزملاءه في المهرمة وأصدقائه عند موطنه قديمه . ولم يكن هذا يمنحه أية قوة جديدة ليست في يديه حتى آنذاك ، على أن ذلك يكون شيئاً أعظم أبهة وأشد فخامة ، يكون شيئاً يدهش أمه . فيألفا من استجابة يستجيب بها رأس من هذا النوع للتحدى الرائع الخلاق في ذلك الزمان ١١٤ .

ولكن لا بد أن تلوح فرنسا قبل كل شيء في مدارج الرخاء . إذ من الحق أن فرنسا البائسة لا تطيق وجود إمبراطور . فنصب نفسه لتنفيذ مشروع قديم لطرق كان لويس الخامس عشر أقره ، وأنشأ القرح تقليداً منه لفرنس الإنجليزية ، ثم أحاد تنظيم البوليس ووطد شئون الأمن في البلاد . وتجهداً لمشهد مرامته الشخصية ، نصب نفسه لجعل باريس تبدو في شكل روما بملها من عقود كلاسيكية وعمد كلاسيكية . ونشأت في تنظيم البنوك خطط جديدة تستدعي الإعجاب ، طمسها . وكان في كل هذه الأمور مساهراً لزمانه ، لأنها أمور كانت لا بد آتية مع قدر من الإستبداد أقل -- وقدر من التمرکز أفضال ، ولولم يولد ناپليون قط . ونصب نفسه لإخضاع الجمهوريين الذين كان يدبر الخطط للمنون على معتقداتهم الجهورية . فسمح بعودة المهاجرين على شريطة أن يقدموا التوكيدات الرضوية على احترام النظام الجمهوري . وكان منهم كثير يرغبون أشد الرغبة في العودة على مثل تلك الشروط وأن يدمروا آل بوربون وثأنهم ويعلمهم في سجن كان . ثم توصل إلى صلح عظيم أبرم به « ميثاق Concordat » مع روما . تعهدت به أن تناصره وتعهد أن يعيد سلطانها في الأبروشيات . إذ كان يرى أن فرنسا لا يمكن أن تكون طيبة سلسلة القياذ ، وأنها لن تستطيع أن تطبق ملكية جديدة من غير الدين . قال :

« كيف تستطيع أن تجمد في دولة نظاماً من عبر الدين ؟ فالجماعة الإنسانية لا تستطيع أن تعيش من غير الضاوت في الزوال ، الأمر الذي لا يمكن أن تقوم له قائمة مستديرة عمزول عن الديانة . ففصلنا يونسك أحد الرجال أن يقضي نعه جوعاً إلى جوار آخر مريض بالكفة والبشم ، فإنه لا يستطيع أن يرضى بهذا الفارق ما لم تكن هناك سلطة تعلن أن الله إنما يريد ذلك كذلك ، ولا بد العلم من أن يحوى الفقير والغنى ، ولكن تقسيم الأشياء في العلم الآخر وى كل الأبدية الخالصة سيكون على أساس مخالف . وكانت الديانة في رأيه وبخاصة الديانة من الصنف الكاثوليكي المتأخر ، مادة ممتازة يستطيع بها تكين العامة . وكان في أيامه العقوبية الأولى قد طعن في الدين لنفس ذلك السبب .

ورثة عمل جليل آخر يدل على مجال خياله وتقديره الطبيعة الانسانية وذلك هو نظام « جوقة الشرف Legion of Honour » ، وهى خطة للاتعام على الفرنسيين بقطع من الشريط ، خطة دبرت تدير ؟ عكساً مسجياً بقصد تحويل طرد دوى الطموح من الرجال عن القيام بتصرفات هدامة .

كذلك اهتم نابليون بالدعاية المسيحية . وهى ذى فكرة نابليون عن قوائد المسيح السياسية ، وهى فكرة نطلمخت بها كل العثات الدينية الفرنسية منذ ذلك الحين . قال : « قد انجحت رغبى إلى إعادة إنشاء مؤسسة الإرساليات التبشيرية الأجنبية » إذ أن المبشرين الذين ربما كانوا قوى مع كبير لى في آسيا وإفريقيا وأمريكا ، وذلك إلى سلكهم بمعرف كل الأراضي التى يزورونها . ولن تقف قدامة ثيابهم عند حد حاجتهم بل سوف تحقق واداءها أبحاثهم السياسية والتجارية . ولن تكون روعا بعد اليوم مستقر لجامعة مؤسسة الفرنسيين ، بل باريس .

ألا ترى في هذا أفكار تاجر لصى لأفكرات رجل دولة ؟ وعلاجه لمسألة التعليم يُظهر في وضوح عمانية عن حقائق القصر الحديد المنشق من حوله . فلما التحم الأول فإنه أهله إحصالاً يكاد يكون تاماً ، فتركه لتضمير السلطات المحلية ، كذلك قرر أن المعلمين يجب أن تنفع روايتهم من مصروفات الخلائط ، وواضح أنه لم يكن يرغب في أن يتعلم عامة الناس للعلم ، إذ لم تكن لديه أية بارقة إدراك ولو شاطفة عن

(١٢ - ١٣)

السبب الذي من أجله يجب أن يتعلموا ؛ ولكنه كان يتم بتزويد المدارس الفنية والملايا بالمال ، لأن دولته كانت في حاجة إلى خدمات رجال أذكى واسمى الإطلاح يسمون وراء مصالحهم الفنية . وكان منا تراجعا يبعث الدهول ، عن الخطوة العظيمة التي كتب مسودتها للجمهورية كوندورسيه^(١) في ١٧٩٢ ، مجلة لإقامة نظام كامل من التعليم المجاني للشعب بأكله . وتحقيق الأيام في بطنه ولكن بشيات واستمرار مشروع كوندورسيه ؛ فإن الامم المنظمة في العالم تضطر أن تصبه موضع للتفكير والتعميق رويداً رويداً . ونخرج ومثال ناپليون من تطلق إهتمامنا . أما تعليم زوجات وأمهات جنسنا فنونكم حكمة ناپليون فيه : « لست ممن يعتقدون أن بنا حاجة إلى أن نكتب أنفسنا بعمل خطة لتعليم الإناث الصغيرات ، فليس في المستطاع أن يربين أحدٌ خيراً من أمهاتهن . وليس التعليم العام مناسباً لمن ؛ لأنهم لا يطلبن قط للعمل العلم ؛ وإنما الاخلاق هي لكل في الكل لمن ، والزواج كل غايتهن » .

ولم يكن الفصل الأول أعطى على النساء في قوانين ناپليون (Code Napoléon) . إذ لم يكن يباح للزوجة مثلاً أن تصرف في أملاكها ، بل كانت (أي الزوجة) في يد زوجها . وكان هذا القانون في معظمه من عمل مجلس الدولة . ويلاحظ أن ناپليون كان يسلط مناقشات ذلك المجلس ويمتاقها أكثر مما يساعدها . وإنه ليجتاح المجلس غارياً بلا سابق إخطار ؛ ويتكرم على أعضائه بإلقاء محاضرات طويلة مسببة ، كثيراً ما كانت تخرج من الموضوع قيد الدرس خروجاً تاماً . وكان المجلس يستمع إليه باحترام عميق ؛ إذ كان ذلك هو كل ما يستطيع المجلس أن يفعله . وإنه ليستيق مستشارية إلى ساعات متأخرة من الليل ، مخالفة لكل مفضل ، ويظهر اقتضاراً ساذجاً يشتره الفاتحة على السهر . وقد تذكرت تلك المناقشات بارتياح عجيب إبان

(١) كوندورسيه (١٧٤٣ - ١٧٩٤) : فيلسوف ورجل دولة فرنسي . اشترك في إنشاء المدرسة وأكسبه مفاقه في نظرية الإسكانيات شهرة واسعة ، انضم إلى الثورة وانتخب عضواً في الجمعية التشريعية (١٧٩١ - ١٧٩٢) ، وكانت سلكه التي كتبها من واجب الدولة في التعليم أساساً لنقطة فرنسا التعليمية . علوه وإن كان من رجال الثورة في قتل الملك ، فأفقد منه . وناقش عليه في النهاية وجد صيغاً ، وأوله تمرد السهر . (لأوسم)

منه الأخيرة ، ولاحظ في إحدى المناسبات أن مجده وفخاره لا يقوم على كسبه
أربعين معركة بل على إنشائه قانون نابليون . . . وكان قانونه هذا شتبا حسنا ، يفلح
ما ذهب بالمعربات القانونية الصعبة القديمة ، وأحل عليها الواضحة البين من البيانات ،
فإنه جمع شتات عسكرة هائلة غير منتظمة من القوانين القديمة والجديدة ثم مسحها
ووضعا . والقانون شأن كل عمله الإنشائي ، كان يهدف إلى الكفاية المباشرة ، فإنه
وضع التعريف للأشياء والملاقات ، حتى يشرع الناس في العمل عليها بلا مناقشة
جديدة . وما يقلل من أهميته للمباشرة الصلبة أنه كثيرا ما كان يعرف تلك الأشياء تحريفا
خاطفا . ولم يكن وراء عملية التفتين هذه أية قوة ذهنية تهتم كشيء متميز عن النشاط
الذهني . إذ أنها سلمت بكل شيء قائم : « إن جلالته لا يعتقد إلا في الوجود » (١) .
والواقع أن الأفكار الجوهرية الأساسية للمجتمع المدني ، وقواعد التعاون الإنساني
كانت تمر في مرحلة إعادة تشكيل قطعا ومناوفا نابليون - ولكنه لم يشعر بذلك
الأمر أبدا . وكل ما فعله أنه قبل دورا من أدوار التعبير . وحاول أنه يشبه إلى الأبد .
ولا تزال فرنسا إلى يومنا هذا مقلدة مشدودة الوثاق بهذا الصديري الضيق الذي
يرجع به العهد إلى أوائل القرن التاسع عشر ، والذي حشرها فيه نابليون . ذلك بأنه
ثبت أحوال النساء وثبت أحوال الرجال وأحوال الفلاحين ، ولا يزالون جميعا
يكافحون إلى يومنا هذا بين خيوط شبكة تعريضاته الجامدة . وتقدم نابليون في نشاط
وقوة نصب دعتة الجامد الصاق الضيق الأفق لكي يستنهي قوة فرنسا ويشد من
عزمها . ولم يكن ذلك الاستنهاض إلا جزءا من الخطط الأعظم شمولا التي كانت
تملا جوانب نفسه وتسلط عليها . فقد اتجه خياله اتجاه الأصرار والعزم إلى « تبصيرية
Caesarism » جديدة . وفي ١٨٠٢ جعلهم يمينونه قسما أول على الحياة مع
إعطائه حق تعيين خلف له ، وترتب على مرابه الواضحة إلى إلحاق هولندا وإيطاليا
بفرنسا بالرغم من الترامات في المعاهدات بأن يتركهما منفصلتين ، أن أخذت مساهمة
ألمانيا ترنسج ترعما شديدا منذ البداية بلانها . ولما كان من الضروري أن يشر عليه
خطه حربا مع إنجلترا ، فقد كان يحدو به أن يترتب بأي ثمن حتى يرتفع يبحرته

إلى حد الخوف على البحرية البريطانية . فإنه كان مطلق اليد يتحكم في موارد عظيمة لبناء السفن ، وكانت الحكومة البريطانية حكومة واحدة ، وكانت سنوات ثلاث أو أربع كافية لتحويل كافة الميزان . ولكنه بالرغم مما لقي في مصر من تجربة شاقة قاسية ، لم يدرك قط أهمية القوة البحرية . وفي ١٨٠٣ عجل استلاله لسويسرا بالأزمة ، وبشيت الحرب من جديد مع إنجلترا . فقد حدث أن الوزير الضعيف أديسون أخل مكانه في إنجلترا لولم يث الأعظم منه مقلدة . ومنذ تلك الساعة أصبحت بقية قصة نابليون تدور حول تلك الحرب .

وقد ظل القنصل الأول أثناء مدة القنصلية يعمل ناشطاً على زيادة ثروات إخوته وأخواته . وهو أمر يتصل إلى الضرر البشرية بسبب قوى وعمت إلى حب المشورة وإلى المزاج الكورسيكي كما أنه منعنا في أن نفهم بالضغط كيف كان الرجل يفكر منصبه والثروات المائلة بين يديه . وهناك عامل ضخم في تكوين نابليون هو الرغبة في أن يدهل ويلهتني ويروج أذهان آل بوناپرت وجيرانهم ويخضعها لسلطانه . فكان يرقى إخوته بشكل يثير الصلح إذ أنهم كانوا رجالاً عاديي جداً ولكن شخصاً واحداً كان يعرفه حق المعرفة لم تعالجه المحبة ولا داخلته الروعة ولا الخضوع . وكان ذلك الشخص هو أمه . كان يرسل إليها المال لتنفقه وتحدث به جيرانها ، وكان يحضها على أن تتخذ لنفسها مظهرأ عظيماً . وأن تعيش العيش الذي يقتاسب وأم مثل هذا الإبن المصحب الذي يهر العالم حزناً .

غير أن السيدة الوقور التي قرعت بالمقرعة رجل الأقدار وهو في سن السادسة عشرة ، لأنه لعبت وجهه لحته ، لم تنبه ولم تتخذه له عند سن الثانية والثلاثين . قد تستطيع فرنسا كلها أن تمده ولكن الأم لم يساورها أي وهم بخادع من قبله . فكانت تضع القود التي يرسلها جاناً ، وتواصل الخصى على اقتصاصها المعتاد . قالت : « عند ما ينهي كل شيء سيكون لأخطري هنا موضع سرورك » .

٤ - نابليون الأول : إمبراطوراً ١٨٠٤ - ١٨١٤

لن نصل لك القول في الخطوات التي غداها نابليون إمبراطوراً . وكان توجيهه ابتداءً للقديم هو أشد ما قد يتصوره العقل من ابتعاد القديم خرقاً للمعتاد . ولم يعد

قيصر هو نموذجة المخطئ ، بل كان نابليون عند ذلك هو شرلان . فإنه توج
إمبراطوراً : حقاً إنه لم يتوج في روما ، بل في كاتدرائية توتردام بباريس ،
ولم يحضر البابا بيوس السابع من روما لقيام بطقوس الاحتمال ، ولا بلغ الأمر
أوجه أخذ نابليون الأول التاج بيده وفضع البابا جانباً ، وتوج نفسه بنفسه . وبذلك
تكون نصيحة شرلان للويس^(١) قد أوتيت آخر الدهر ثمارها . وفي سنة (١٨٠٦)
اجتمع نابليون قطعة أخرى وقورة من الماضي السحيق ، إذ أنه لا كان ما يزال
يتعقب خطى شرلان ، فانه توج نفسه بتاج لوماردى الحديدي في كاتدرائية ميلان .
وعتدله صار لزاماً على الجمهوريات بنات فرنسا الأربع أن يصحن ممالك : ففي
١٨٠٦ نصب الأخ لويس في هولندا والأخ جوزيف في نابولي . على أنه قصة
الممالك التابعة التي خلقها في أوروبا ، قصة أعقد وأعصر عمراً من أن تحمليها
هذه المحل ، وإن كان هذا العبث بالحمود عونا على ماتلا ذلك من توحيد
إيطاليا وألمانيا .

ولم يمرر هذا الحلف الذي تم بين شرلان الحفيد وليو الحفيد ، زمناً طويلاً
جلداً . ففي ١٨٠٧ شرع تتحدى البابا ويصفط عليه . وفي ١٨١١ جعل منه أسيراً
مضيقاً عليه في فونسلو . ولا يبدو أن هذه الإجراءات تطوى على حكمة كبيرة .
فإنها نقرت منه الرأي العام الكاثوليكي ، كما نقرت منه توجيه الرأي العام المتحرر .
وبذلك كف عن أن يكون نصيراً وممثلاً للتقدم والحديد على السماء . فأما الحديد
فقد خان ، وأما التقدم فقد فشل في اكتسابه . وأخيراً لم يعد يمثل لحداً إلا نفسه .

ويبدو أن سياسته الخارجية لم تكن تطوى إلا على مثل ذلك القدر الضئيل من
التعطل ، فإنها زجت آنذاك أوروبا في عمرة دورة جديدة من دورات الحرب .
ولما كان قد اختطف مع بريطانيا العظمى في أواسد مبكر جلداً فإنه حشد جيشاً عرمرماً
في بولونية (Boulogne) ليغزو به إنجلترا ، غير ناظر إلى الموقف البحري . بل لقد
بلغ به الأمر أن صك مدياة وأقام عموداً في بولونية تخليداً لذكرى نصرته في غروته

(١) هو لويس الورع ابن شرلان . انظر الكلام من ٨٠٤ - ٢٥٣ (الترجم)

المنتظرة . وكان دبر بطريقة نابليونيه محصة أن يجمع الأسطول البريطاني ويستدوجه بعيداً ، وأن يهرب بجيش بولونية ذلك عبر مضيق المانش على أسطول صغير من الأكرامات والزوارق ، وأن تؤخذ لندن قبل أن يعود الأسطول . وفي نفس الوقت اضطرت النمسا والروسيا لإزاء اعتداءاته في جنوب ألمانيا ، إلى عقد تحالف وطيد مع بريطانيا ضده . وفي ١٨٠٥ وقعت صريتان قاتلتان على كل أمل له في النصر النهائي ، أنزلهما به أمير البحر البريطانيان كالدو ونلسون . فإن الأول أُرل في يولية هزيمة منكرة بالأسطول الفرنسي في خليج بسكي ، وفي أكتوبر دمر الثاني أسطول فرنسا وأسمانيا المشتركة في معركة الطرف الآخر . ومات نلسون بته واثمة وهو مظفر فوق سفينة النصر . . ومنذ تلك اللحظة استعكم للمداء مريراً بين نابليون وبريطانيا ، وهي في منه لا تستطيع أن يصل إليها ولا أن يقهرها ، بينما كانت هي تستطيع أن تضربه هنا أو هناك على اعتداد كل شواطئ أوروبا .

وتكثف نابليون الخبر وأبقى أثناء ذلك الجرح القاتل الذي أصابه في الطرف الآخر . بضع سنوات عن مسامح الفرنسيين . وكل ما سمعه هو أن العواصف قد مبيت لنا خسارة بعض السفن الحربية بعد قتال آخر ، وبعد انتصار كالدرسحب نابليون جيشه من مدينة بولونية على عجل ، وانسحب به عبر أوروبا وحرّم الفرنسيين في « أولم » « أوسترلتر » ودخلت بروسيا الحرب ضده في هذه الظروف المشؤمة . فهزمت هزيمة تامة وحطمت قواها في معركة يينا (Jena) (١٨٠٦) . ومع أن النمسا وبروسيا قد كسرتا فإن روسيا كانت ما تزال قوة مقاتلة ، وخصصت السنة التالية للملك الخصم الأصعب مراساً الأبد مثالا الأعصر مدخلا . ولستا بقاديرين أن نتعقب في أي تفصيل صمودات الحملة البولندية على روسيا ، ولقي نابليون شراً كبيراً في سكتسك التي أعلن في باريس أنها نصر عظيم . وكذلك في مثل هذا الشرقي إيلاو (Eylau) . ثم دمر الروس في فريدلاند ١٨٠٧ . ولم يكن حتى ذلك الوقت قد مس الأرض الروسية بنفسه ، وكان الروسيون لا يزالون غير مقهورين كالبريطانيين سواء بسواء ، ولكن صنعت عند ذلك لنابليون بارقة عجيبة من الحظ الحسن . فإنه استطاع بواسطة خيط من التعاصر والحداد والمداينة ، أن يضم إلى



(۱۳۱۹)

جانبه قيصر روسيا الشاب الطموح اسكندر الأول - إذ كان منه لا يجاوز الثلاثين - وأن يحسك على عقد تحالف معه . وتلاقى الامبراطوران على عوامة في وسط نهر النيمس قرب تيلست (Tilsit) . حيث تفاهما .

وكان الاسكندر تشرب بالنبيء الكثير من النزعة التحررية أثناء تلقيه العلم في بلاط كاترين الثانية . وكان يناصر بكل قواه الحرية والتعليم ونظام العالم الجديد - شريطة خضوعها لاستلامه هو . قال أحد خلطائه في مستهل شبابه : إنه يسره أن يرى كل إنسان حراً ، على شريطة أن يكون كل إنسان مستعداً أن يفعل بحرية ما يريد به القسط . وقد أعلن أنه مستعد أن يلغى نظام « موالى الأرض Serfdom » وإن كلفه ذلك رأسه تمناً - لو حدث فقط أن تفدعت نتيجة لذلك أسباب الحضارة . وقال إنه يخوض الحرب مع فرنسا لكي يمرر الشعب الفرنسي - لأن نابليون كان طاغية مستبداً . وبعد معركة فريد لاند أخذ يبعث نابليون تحت ضياء جديد . تلاقى هذان الرجلان بعد تلك المزيعة بأحد عشر يوماً ، وكان الاسكندر يمر ولا ريب في حالة من التعظيم التبريري الموافق لطبيعة أبناء طرازه حين يكونون في حالة مزاجية من الضمير .

ولا بد أن المقابلة كانت مرضية تمام الارضاء لنابليون . فقد كان ذلك أول لقاء له مع أحد الأباطرة على أساس من التكافؤ . وخلق في الجورخيالان من فوق ظهر تلك العوامة في تيلست . قال الاسكندر : « ما هي أوروبا ؟ إنما نحن أوروبا » . تناقشا في شئون بروسيا والنساء متأثرين بهذه الروح ، وتفاهما تركيا مقلداً ، وديرا أمر غزو بلاد الهند ، بل الواقع أنهما دبرا غزو معظم آسيا وأن تأخذ روسيا خذلة من السويديين ؛ على أنهما أعفلا تلك الحقيقة المرة وهي أن القسم الأكبر من العالم مكون من محر ، وأن الأسطول البريطاني كان عند ذاك يسيطر على البحار غير منازع . وكانت بولندة قاب قوسين أو أدنى ، وهي على آتم استعداد لأن تنور وتكون حليف فرنسا المحمسين لو أن نابليون رغب فقط في هذا . على أنه كان عن بولندة في حماية تامة . كان يومه يوم رؤى لا رؤى فيه . وقد أخفى نابليون في نفسه فيما يبدو حتى في ذلك اليوم ، تلك الفكرة البحرية بلد يتزوج يوماً ما أميرة روسية ، أميرة

حقيقية . على أنه ما لبث حتى تعلم بعد ذلك في ١٨١٠ - أن في هذا تجاوزا لحدوده
بعض الشيء . . .



(شكل ١٨٧) جنرال سكندر الأول

وحدث بعد ثلاث سنوات
ملحوظ في صفات نابليون ،
فإنه أصبح أكثر انفتاحا وأقل
صبورا على العقبات ، واشتد به
استبداد فكرة سيد العالم الذي
مآته الأقدار ، وتزايدت مضايقة
لكل من لقيه . وفي (١٨٠٨)
ارتكب غلطة خطيرة جدا . فإن
أسيانيا كانت حليفه اللدليل ،
وكانت تحت مطلق تصرفه تماما ،

ولكنه رأى من المناسب أن يطلع حاكمها اليوريوني لكي يرفق إلى عرشه أخاه جوزيف
من عرش الصقليين^(١) . وقد فتح البرتغال من قبل على يد أن يوحده تحت تاج أخيه
كل من الملكيتين البرتغالية والأسيانية . ومن ثم ثار الأساد عليه وحق وطغى
مناجيج ، وأحاطوا بميش فرنسي في بايلن ، وأجبروه على التسليم وكان ذلك ثمة
مدهشة في سيرة النصر القرنى المتواصل .

ولم يناما البريطانيون عن التباطؤ موطنه التقدم الذي أناسه هم تلك الثورة . فقد
نزل في أرض البرتغال جيش بريطاني بقيادة السير آرثر ولزلي (المسمى بعد ذلك
باسم اللوق ولينجتون) وهزم الفرنسيين في ليمبرو . وأجبرهم على الإسحاب إلى
أسانيا . وأثارت أخبار هذه الهزائم هياجا عظيما جدا في انخراط في الدنيا والنساء ،
وعاد القيصر فأظهر إزاء حليفه قلرا أكبر من الفطرسية

(١) الصقليين ملكة كانت تتكون من صقلية وجنوب إيطاليا (نابول) (الترسم)

جانبا ، وألغوا الامتيازات ونظام مولى الأرض ، ونظموا التعليم الشعبى ، والوطنية الشعبية ، وأتموا تحريراً وكان هذا فى واقع الأمر بلا نزاع داخلى - كل شيء حصلت عليه فرنسا فى ١٧٨٩ . ولما وافق ١٨١٠ كانت هناك بروسيا جديدة ، هى التواة لألمانيا الجديدة . وعند ذلك أخذ الإسكندر وقد قُتلت فى روجه فيها يعلو أحلام القيادة العالمية - بنحدر من جديد وضع صديق الحرية . وفى ١٨١٥ حدث لحكاك جديد بسبب إعراض الاسكندر على مطامع نابليون فى الزواج . ذلك أن نابليون كان قد أخذ عند ذلك بأسباب الطلاق من معيته القديمة جوزفين ، لأنها لم تعف ولما يضمن استمرار الملك فى أسرته . والآن وقد أبيت على نابليون أميرة روسية بل الواقع أن الإسكندر حفره وذكره بضعة مولده ، فإنه اتجه شطر النمسا وتزوج الأرشيدوقة مارى لوز . ذلك أن رجال السياسة المنسويين قرأوه قراءة صادقة . وكانوا على أشد الاستعداد للاقاد أميرتهم إليه . وبهذا الزواج أوقع نابليون نفسه فى أيديهم من أجل نظام الأسرة المالكة . وربما كان يستطيع أن يكون مكون عالم جديد ، ولكنه آثر أن يكون صبرا للعالم القديم .

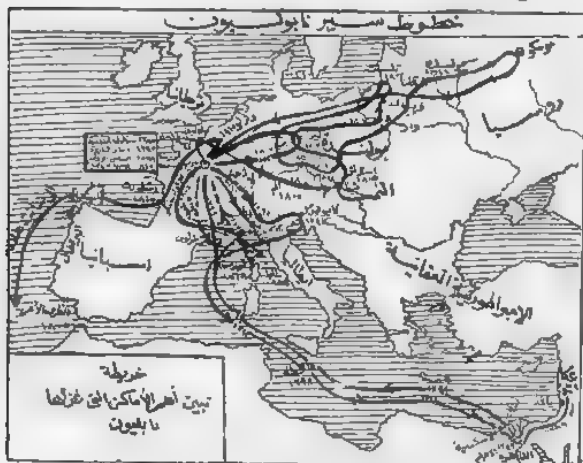
وكان السكين الطالبين داخل الروح والانعطاط شئونه . فلم يعد بعد قائد الثورة ومكمل ما فاتها ، ولم يعد بعد ذلك هو الروح الجسد لعالم مولود من جديد ، بل كان مجرد صنف جديد من أصناف الأونواقراطى أشد فجاجة . وقد باعد ما بينه وبين كل قوى النفوس الحرة من الرجال ، كما استمدى حداوة الكنيسة له . فكان الملوك واليعاقبة فيه على رأى واحد مضى ضلله عند ما بلغ قرأى حد القضاء عليه . وكانت بريطانيا عند ذلك هى خصمه اللود ، على حين كانت تتأجج فى أسبانيا روح لا بد أنها ميسورة القهم لكل كورسيكى ، ولم يكن الأمر بحاجة إلا إلى شيء واحد هو الانفصال عن الاسكندر الأول لئلى تلغ هذه الامبراطورية امبراطورية الخناع والمناظر المسرحية دفعا يلعنوها ويسقطها . وجاء انقلاب . وكانت مشاعر الاسكندر نحو نابليون على النوام مبهمة غلظة جداً ، فإنه كان يحسد نابليون بوصفه منافساً ويحضره بوصفه عصامياً وضيق الثبث . زد على ذلك أن الاسكندر كان يشككه نوع من السلطة المبهمة الماطلية ، وقد غلبت عليه نزعة تدين صوفية ،

وانضمت نساوره فكرة رسالة تدعوه والروسيا معاً إلى اجتلاب السلام إلى العالم
بشخص نابليون . على أن اجتلاب السلام إلى أوروبا ، لم يكن يتناقض في رأيه مطلقاً
مع ضم بولندة إليه ، واستلحاقه معظم بولندة واستيلائه على أجزاء عظيمة من
الامبراطورية التركية ؟ وكان يرغب بوجه خاص أن يعيد التجارة مع بريطانيا ،
التي كان نابليون مصراً على انقطاعها . وذلك أن تجارة ألمانيا جمعت ثققلت ، وأن
طبقات التجار الألمان كانت في غيظ شديد من « النظام القاري النابليوني » ، الذي
يرى إلى القضاء على بريطانيا بطرد كل البضائع البريطانية من أقطار أوروبا بجمع .
وكابدت روسيا من جراء ذلك عناء كثيراً ولعلها خافت أكثر من ألمانيا

وجاء الشقاق في ١٨١١ ، عندما انسحب الإسكندر من « النظام القاري » . وفي
١٨١٢ اجتمعت جموع هائلة من الجنود تبلغ في مجموعها ٦٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وأخذت
تتحرك نحو روسيا تحت القيادة العليا للأمير بطور الجليل . وكان نصف هذه القوة تقريباً
من الفرنسيين على حين جمع الباقون من حلفاء فرنسا والشعوب الخاضعة لها . كان جيشاً
عظماً أشبه شيء بجيش دارا أو جيش قباز . وكانت الحرب الأسبانية ما تزال على قدم ،
ولم يتم نابليون بأي جهد لإنهائها . وقد انقطعت من فرنسا قوة يبلغ مجموعها ربع مليون
رجل . فتفق طريقه مقاتلاً عبر بولندة والروسيا إلى موسكو قبل حلول الشتاء -
وظلت الجيوش الروسية تمتنع في جبل شاتنا من قتاله - وأصبح مركزه خطراً
خطورة واضحة حتى قبل أن يطبق عليه الشتاء . فاستولى على موسكو متوقعاً أن
يضطر ذلك الاسكندر إلى عقد الصلح . ولكن الاسكندر لم يرغب في عقد الصلح ،
ووجد نابليون نفسه في مركز هو أشبه شيء بمركز دارا في جنوب روسيا ، قبل
ذلك بألفين وثلاثمائة من السنين . وكان الروسيون وهم ما يزالون بعد غير مغلوبين
يهاجمون مواصلاته ويفنون أفراد جيشه - يساعدهم في ذلك المرض ، فهلك من
رجاله خمسة عشر ألفاً حتى قبل أن يصل إلى موسكو . ولكن كانت تنوزه حكمة
دارا فلم يرغب في الضيق . وظل الشتاء معتدلاً مدة طويلة طولاً غير عادي - فكان في
في مقدوره أن ينجو . ولكنه بدلاً من ذلك أقام في موسكو يدبر المخطط المسجلة .
فقد كان قبل ذلك سعيد الحظ سعادة عجيبة في كل مقارناته السابقة مع العدو ،
وقد نجح من مصر نجاة لا يستحقها ، وأقله من التحطم في بريطانيا الانتصارات

البحرية البريطانية ، ولكن هذا هو ذا قد وقع في الفخ مرة أخرى ، وما كان لينجرح هذه المرة . وبطله كان يقضي أن يقضي الشتاء في موسكو . ولكن الروسيين طردوه بسحب البنادق طردوا البنادق من أكتوبر ، إذ ضربوا النار في المدينة وأحرقوا معظمها .

تأخر به الأولون في أكتوبر ، بل تأخر به أكثر مما ينبغي ، قبل أن يصح عزمه على العودة . فحاول محاولة عبر عديدة أن يتفرق طريقه إلى حط تراجع جديد إلى الخنادق للفرار . ثم حول وجهة من نعى له من جيشه اللجب نحو القطر الذي عاثوا فيه فساداً أثناء تقدمهم . وكانت السمات الخشامية تفصلهم عن كل أرض مائية . ولم يكن الشتاء متعطلا . وظل الجيش الهرم أسوأ وهو يكافح بين الوحول ، ثم جاء الصقيع الشديد ألوماً ثم تهاطت أوائل ندف الثلج ، ثم الثلج فالثلج



وأخذ النظام ينحل وريداً وريداً . وانتشر الجيش الجائع يبحث عن الميرة حتى أصبح مجرد ثل من المخبزين . وقام الفلاحون عليهم دفاعاً عن النفس على أقل تقدير وأنزلوا بكنون لم في الطرقات ويقتلونهم . وكانت نخامة من الراكبة الحفيفة ما نزلت تلاحقهم وتصيب منهم على الشاكلة الإسكيبية^(١) . وهذا القهقر من أكبر مآسي التاريخ .

ولم يلبس ظهر ناپليون في ألمانيا ومعها هيئة قيادته وثلة من الحرس والأتياع ، ولم يحضر معه جيشه ، وإنما كانت تتبعه فقط شراخم تجرسيها جراً ، وقد قلقت كل سنوياتهم . ولكن الجيش العظيم المتفوق بقيادة موراء وصل إلى كوتجسبرج في حالة انتظام ، بعد أن لم يبق منه إلا ألف من الرجال من قرابة السبعة ألف . وتراجع موراء من كوتجسبرج إلى بوزن . وكانت الفصيلة البروسية قد استسلمت لقروس ، وانفصل عنه الضمويون واتجهوا جنوباً نحو وطم . وفي كل مكان كان اللاجئين المتناثرون والثرثياب الخزيلا الأجساد الذين ضمهم الصقيع ينفثون أخيار للكارثة .

لقد تبدد سحر ناپليون أو كاد . فخر مهرولا إلى باريس . وشرح ينظم مجندين جديداً ويجمع جيوشاً جديدة بين حطام إمبراطورته العالمية . وانقلبت عليه النساء ١٨١٣ ، وكانت أوروبا يأكلها نواقة إلى الثورة على مؤمن الحرية الذي قصر في حقوقها وفرط في أمانتها ، ولم يخرج عن مجرد معتصب محض . لقد انحلى عن النظام الجديد ، فالآن دمره النظام القديم ، الذي أنقذه وابسته . وثارت بروسيا ، وابتدأت حرب التحرير ، الألمانية وانضمت السويد إلى زمرة أعدائه . وثارت هولندا بعيد ذلك وكان موراء مح في بوزن حول نواته المنظمة أربعة عشر ألف فرنسي . وتراجعت هذه القوة خلال ألمانيا ، كما قد يتراجع رجل تجراً على المرور وسط قصص على "بالسباع المخدرة فوجد آثار التخدير قد انحلت للبحر . وفي الربيع تناول ناپليون القيادة العليا على جيوش جديدة ، ثم كسب معركة عظيمة عند درسلدن ، ثم يلوح أنه قد أصيب رجحاً من الزمان بتشتت وانهاك في فواه التفكير والعنوية . فأصبح سريع التأثير بشكل جنوني ، ثم انحلت ثل به أحياناً حالات

(١) الإسكيبية أو الاعتفوية أنظر ص ٢٤٢ ج ٢ من العالم ط ٢ (المترجم)

من الجلود ، فإنه لم يفعل إلا القليل ، أو لم يفعل شيئاً على الإطلاق يشفع به معركة درسدن . وفي مجملها نشبت « معركة الأمم » حول ليبزج وبالقرب منها ، وانضم السكسون في أحقاب ذلك إلى الحلفاء وكانوا حتى ذلك اليوم يقيمون نجمه . ولم تنته السنة حتى كان الفرنسيون يترجعون إلى فرنسا متحجرين .

وكانت ١٨١٤ هي حملة الختام . فاجتاحت فرنسا من الشرق والجنوب . فصر الراين السويديون والألمان والنمسيون والروسيون ، وجاه البريطانيون والأسبان من فوق جبال البرانس . وأخذ نابليون يقاتل مرة أخرى قتالاً زاجياً راثماً ، ولكنه قتال غير مجد . على أن الجيوش الشرقية لم يستطع أن تهزمه قدر ما استطاعت أن تشق طريقها إلى جوارها ، واستسلمت باريس في مارس . ولم يمض طويل حتى تنازل الإمبراطور في فونتبلو من العرش وكانت تقضى على حياته جاعة من الرعاع الملكيين في بروكسلين وهو في طريقه إلى الخارج .

٥ - المئة يوم

تلك هي الحادثة الطبيعية الصائبة لحياة نابليون^(١) . وما قد قضى عليه آخر الأمر . فلو كانت هناك حكمة حقيقية في نصريف الشئون الإنسانية ، لوجب علينا الآن أن نمجدك من تمرکز العلم الإنساني والإرادة الإنسانية ، ونؤمرها على أداء الواجب الذي قطعت حياته حبل أدائه وأحس به واجب إنشاء نظام عالمي للمدالة والجهد الحر بدل النظام القديم القلبي . ولكننا لسنا بمحدثيك عن شيء من هذا القليل . فقد كان العلم والحكمة غالبيين عياباً ظاهراً ملموساً عن مجلس الحلفاء العظيم . وولدت إليه النزعة الإنسانية المهمة والفرور الحالم عند القيصر الإسكندر ، ووافاه آل هابسبرج النمسيون الضعفاء ، وآل هوهنزولرن البروسيون المنضبون ، ووذلت عليه تقاليد بريطانيا الأرستقراطية وهي ما تزال وجلة للروع من الثورة .

(١) للاسطة هنا أن للوف يشبه في أسكاته على نابليون ويقصر عليه ويقل من أهميته ويهضم قدره فخره ، بل ويكاد يهضم فيه عنه ما سطره وما أدركه من خرج وزمنا عن لزعة الانصاف التي استقر بها ، أم دلت عليه النزعات البريطانية ؟ . (المترجم)

وضميرها لا يبرح متحرقا متضلا بما يهتله من أراضي عامة منتصبة وأطفال مصانع مكشودين عملا . ولم يحضر المؤتمر أى شعب من الشعوب بل توافى له الملوك ووزراء الخارجية دون غيرهم . ولم يكده المؤتمر يجتمع حتى أقبل الدبلوماسيون على العمل على عقد الصفقات والمعاملات السرية كل من وراء ظهر أخيه . وبين مظاهر الضخامة والجلال التى لا يعلو عليها شيء ، اجتمع المؤتمر فى فيينا بعد زيارة شرف فخمة أحادها ملوك الحلفاء للندن . وكانت الناحية الاجتماعية من المؤتمر قوية جداً ، فقد كثرت فيه السيدات الحسان ، وتآلفت به مجموعة زاهرة من النجوم وأصحاب البدلات الرسمية ، وأقيمت به ما لا نهاية له من المآدب وحفلات الرقص ، وروى فيه فئس جارف من التواثر والكلمات المشرقة اللامعة . وكان أذكى أفراد المجتمعين روحاً شخص بعينه اسمه تاليران ، وهو أحد أمراء نابليون ، كان حقاً رجلاً ذكياً جداً ، عمل قسماً قبل عهد الثورة ، وهو الذى اقترح ما قامت به الثورة من مصالحة لملوك الكنيسة ، وهو الذى كان الآن داهية لى إعادة آل بوربون ؟ !

وأضاع الحلفاء الذين من الزمان فى ساذغات تجل فيها الطمع والجشع مزايدين + وعاد آل بوربون إلى فرنسا . وعاد معهم بقية « المهاجرين » *Emigrés* ، وهم أشوق ما يكونون إلى التقى والانتقام . وكأما دفعت أمانة عظيمة جانباً — لا لشيء إلا لكى تكشف السر عن حشد من الأنايين الأكثر دناءة ونسبة . كان للملك الجديد أخا لويس السادس عشر ، وما كان أشد تلهفه إلى التمسى باسم لويس الثامن عشر بمجرد أن علم بوفاة ابن أخيه (لويس السابع عشر) فى المعبد . كان مصاباً بالقرص ، وبلداً . ولعله لم يكن من ذوى المقاصد السيئة ، غير أنه كان دمرأ يمثل النظام القديم البالى ، فأحس كل ما هو جديد فى فرنسا بتأثير الرجعية الضيل الذى لازم مجيئه . لم يكن ذاك تحريراً ، بل استبداداً وطنياناً جديداً ليس غير . بل هو طغيان تقبل وضع يدلا من آخر نشيط رائع .

أليس أمام فرنسا من أمل غير هذا ؟ وأظهر آل بوربون حقلاً خاصاً لجزء كبار ضباط الجيش العظيم ، وكانت فرنسا فى ذلك الحين خاصة بأسرى الحرب العائدين ، الذين وجدوا أنفسهم فى ظل نخامة قائمة . وقد أرسل نابليون لى إمبراطورية

صغيرة في جزيرة إلبا يصزى بها عما أصابه . وكان على أن يظل ملقبا بالقب
الإمبراطوري وأن تكون له دولة بعينها . فإن غروسيه الإسكتلر . أو هوايته .
أبت إلا أن يعامل متافه المخلوع هذه الميطة . وانتزع آل هابسبرج من إمبراطورته
المابسرجية - فذهبت راضية قريفة العين إلى فيينا ، ولم يرها ناپليون بعد
ذلك أبداً .

وبعد أن قضى ناپليون في إلبا أحد عشر شهراً قدر أن فرنسا ضاقت ذرعاً
بآل بوربون ، فاحتال حتى أظلت من السفن البريطانية التي كانت تراقب جزيرته
وظهر في كانفرنسا ليقوم بتأخر لجة له مع القادر . وكان مسيره إلى باريس
موكب نصر عظيم ، وطأ فيه بقدميه القباب البريوية البيضاء . ثم خدا ، أمد منه
يوم ، وهي فترة للث يوم ، سيلاً على فرنسا من جديد .

وأثارت عودته حالة ارتباك لدى كل فرنسي شريف . فمن ناحية كان ثمة
هنا المظالم التي عان الجمهوررية ، وكان هناك من الناحية الأخرى ذلك السبب
السمح الذي جلبه حومة الملكية القديمة . ولم يكن الحلفاء يقبلوا أن يحدث أي تجارب
جديدة في موضوع الجمهوررية . ومن ثم كان الإحتيال تتقدم بين أمرين :
إما ناپليون وإما آل بوربون . أصحيب إذ أن تكون فرنسا على الإجمال في صف
ناپليون ؟ وما هو فائدة حاد مقترفة بأنه تنقير وأصبح رجلاً آخر ، فلن يكون
ثمة أي طينان ، ولسوف يحترم النظام الممتوري .

جمع جيشا ، وبذلك بعض الميولات في ميليل السلام مع الحلفاء ، على أنه
ما لبث محتلاً وجد حله اليهود غير عينية ، أن تقدم لضرب البريطانيين والموندنيين
والروسين في بلاد البلجيك ضربة سريعة ، مؤملاً أن يزمهم قبل أن ينضم إليهم
الضريون والروس . فأوشك أن يصل إلى غرضه هذا تقريباً . فإنه كسر الروسين
حتد يلين (Lelien) ، وإن لم يكسرهم بالقدر الكافي ، وبعد ذلك حزم هزيمة لا أمل
له بعدها نتيجة لصلابة عود البريطانيين بقيادة ولتجن عند وشرلو (١٨١٥) ،
على حين وصل البروسيون بقيادة بلوغرو وألقوا على جناحه الأيمن وقد تقدم
النهار . وانتهت معركة وشرلو بتشتيت فعل جيشه ، وغادرت ناپليون بلا معين

وبلا أمل . وأعرضت عنه فرنسا مرة ثانية وكان كل إنسان انضم إليه تواقا عند ذلك إلى مهاجمته والتجربته منه حتى يحرق القلعة التي ارتكب . وأمرته حكومة مونت في باريس أن يقادر البلاد ، وأمهته أربعاً وعشرين ساعة يتم فيها ذلك

فحاول أن يلعب إلى أمريكا ، ولكن ميناء روتشور التي وصل إليها كانت تراقبه للطرفحات البريطانية . والآن وقد رخصت عن أهل فرنسا غشاة الأوهام ، وعادت فأصبحت على مضض ملكية من جديد ، فلما قامت تلاحقه في حرارة ، فاحتل ظهر منحرة بريطانية ، هي البلروفون طالباً أن يقبل لاجئاً لائناً ، ولكنه في الواقع حومل كأسير . فأنفذ إلى بليموث ثم حل من بليموث مباشرة إلى جزيرة سانت هيلينا للندارية الموحدة .

وحتاك بقي حتى وفاته متبع بالمرطان في ١٨٧١ ، بعد أن كرس نفسه بوجه رئيسي لتحصير مذكراته ، التي كانت خطته فيها أن يعرض كبريات أحداث حياته تحت ضياء ساطع جذاب ، وكان رجلاً من معه يستجلان محادثاته ، ويتبعان التطباعتها مع .

وراجعت هذه المؤلفات رواجاً عظيماً في فرنسا وأوروبا . وظل الخلف القلعي بين ملوك روسيا وفرنسا وبروسيا (التي دعى ملوك آخرون للانضمام إليه) يعمل عمله بمشقة كبيرة في ظلال وهم باطل بث في دوعهم أنهم يوم هزموا نابليون قد هزموا القوة ، وأرجعوا ساعة القتل أدرجها ، وأعادوا الملكية السطلي إلى أيد الأتئين . ويشال إن الوثيقة الرئيسية لخطه الخلف المقدس وصحت يوحى من البارونة فون كروغز ، التي يعلو أنها كانت نوعاً من المدبر الروحي للإمبراطور الروسي وكانت يبايتها كما يأتي : « باسم الثالث المقدس الذي لا تنقسم هراه » ، وكانت تلزم الملوك المشتركين فيها ، « بأن يعملوا أنفسهم بحر رعاياهم وجيوشهم في مكان تولد من العاطلة » وأنهم « إذ يعد أحدهم الآخر مواطناً له » ، بشد أحدهم لآخر الآخر ، ويمعن الدين الحق ويحضون رعاياهم على التوبة أنفسهم وتدريبها على القيام بالواجبات المسيحية . ويصرح الخلف بأن المسيح هو الملك الحق لكل الشعوب المسيحية ، وحسناً نستطيع أن نلاحظ أنه

كان بناء على هذا ملكاً مبروفاً بكل معاني الكلمة ولا سلطان له إزاء هؤلاء الملوك المترفين في دست الأحكام والدين هم لديه بمثابة معلمين^(١) للقصر ؟ . ولم يكن ملك بريطانيا أى سلطة تحول له أن يوقع هذه الوثيقة ، ولم يطلب أحد إلى البابا ولا السلطان أن يوقعاها ، وانضم إليها سائر ملوك أوروبا بما فيهم ملك فرنسا ، على أن ملك بولندة لم يوقع لأنه لم يكن ثمة ملك لبولندة ١١ ، وذلك لأن الإسكندر قام وهو في حالة من حالات اللذول الورع فالحق ببلاده معظم بولندة ١ . ولم يصبح الحلف المقدس أبداً مخالفة قانونية بين الدول . بل حلت محله عصبة أمم خفيفة ، هي : اتحاد أوروبا ، الذي انضمت إليه فرنسا في ١٨١٨ ، والذي انسحبت منه بريطانيا في ١٨٢٢ . وعقب ذلك فترة سلام وصف في أوروبا . وكان كثير من الناس يميلون في تلك الأيام التي انقطع فيها حيل الأمل أن يرمضوا حتى نابليون نفسه بنظرة إحسان ، وأن يقبلوا منه إدعائه بأنه عندما كان يؤيد حق ، كان يؤيد حق الجمهورية وفرنسا ، على طريقة لا يمكن تصورها . ونمت بعد وفاته غلة تعلمه شيئاً ذا بطولة صوفية دينية .

٦ - خريطة أوروبا في ١٨١٥

ظلت فكرة الحلف المقدس ، والاتحاد الأوربي الذي تمحى عنه ذلك الحلف ، وسلسلة المؤتمرات والاجتماعات التي عقب الاتحاد ، مخالطة منذ أربعين عاماً على سلام مرعزع الأركان في أوروبا التي خرجت من الحروب صهبة القوى . وهناك أمران رئيسيان حالان هذه الفترة وبين أن تكون سلاماً اجتماعياً ودولياً كاملاً ، ومهدا السيل لدورة الحرب التي ولدت بين ١٨٥٤ ، ١٨٧١ . وكان أول هذين الأمرين هو ميل البلاطات الملكية المختصة إلى استرداد الامتيازات غير العادية ، والتمسك في حرية الفكر والكتابة والتعليم . وكان الثاني هو مجموعة الحدود المستحيلة التي رسمها الدبلوماسيون في فيينا .

(١) عند القصر : في ذلك إشارة إلى تاريخ بين شارل مارتل لليرجع إليها القارئ ص ٨٢٦ ج ٢ من المجلد ٢ . حيث كان الملك اسماً للأسرة المبروفاة ومقاربه الحكم كلها به عائلته القصر التي يتولاها باسم الملك . (الترجمة)

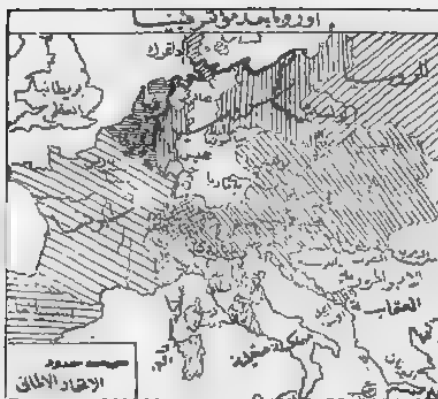
وكان ميل الملكية إلى الرجوع إلى الأحوال القديمة البائدة واضحاً أولاً وبوجه خاص في أسبانيا . حتى لقد بلغ الأمر هناك أن أعيدت محاكم التفتيش . فأما عبر المحيط الأطلسي ، فإن المستعمرات الأسبانية حلت حلو الولايات المتحدة وثارت على نظام الدول الكبرى الأوربي ، عندما نصب نابليون أخاه جوزيف ملكاً على أسبانيا في (١٨١٠) . وكان زعيم الاستقلال واشتجوتون أمريكا اللاتينية هو الجنرال بوليفار . ولم تستطع أسبانيا أن تجمع هذا المصيان ، فطال به الأمد مثلاً طال بحرب استقلال الولايات المتحدة ، وأخيراً تخلت أخيراً باقراح يتسنى وروح الحلف المتقوس ، تذكر فيه أن من واجب ملوك أوربا أن يساعدوا أسبانيا في كفاحها ذلك . فعارضت في ذلك بريطانيا في أوروبا ، فأما في أمريكا فإن العمل السريع الذي قام به رئيس الولايات المتحدة الرئيس مونرو في (١٨٢٣) ، هو الذي قضى على مشروع هذا الاسترخاء لسلطان الملوك قضاء نهائياً . فإنه أعلن أن الولايات المتحدة تمد أي بسط للنظام الأوربي في نصف الكرة الغربي عملاً علانياً . وبهذا نشأ مبدأ مونرو ، الذي ضد نظام الدول الكبرى عن أمريكا قرابة مئة من السنين ، وصحح للدول الحليفة في أمريكا الأسبانية بأن تكون مقدراتها على الشاكلة التي ترغيبها . ولئن قللت الملكية الأسبانية مستعمراتها ، فقد كانت على الأقل تستطيع تحت حماية الإتحاد الأوربي أن تفعل ما تشاء في أوربا . وأحمد جيش فرنسي فئة شعبية كانت في أسبانيا في (١٨٨٣) ، بانتداب من أحد المؤتمرات الأوربية ، وفي الوقت ذاته قامت أيضاً ثورة شيت في نابلي .

وفي (١٨٢٤) مات لويس الثامن عشر ، ونخلقه كونت أوتوا الذي رأيناه مهاجراً يرفرف ويحوم من فوق الحدود الفرنسية في (١٧٨٩) فأنخلد لقب شارل العاشر . وتصب شارل نفسه قديم حرية الصحافة والطمعاب وإعادة الحكم المطلق ، وأخذ الصوت بالموافقة على اعتماد بلون قرنك لتعرض التبلاد عن إحراق قصورهم ومصادرة أملاكهم في (١٧٨٩) . وفي (١٨٣٠) ثارت باريس ضد هذا الملك الذي يتمثل فيه النظام المعهود^(١) ، وتطلب به لويس فيليب ابن فيليب دوق أورليان

(١) ورد في حجم الترييد ماله ، واليهود : القديم لصيق الذي مر عليه عهد طويل . .
(الترجم)

المعروف ، الذى حكم عليه بالإعدام أثناء حكم الإرهاب . ولم تدخل فى هذا الشأن بقية للكيانات الأخرى بأوروبا ، إذ واجهها استصمان على من يوطانيا العظمى والنيابو تحريرى قوى فى ألمانيا والنمسا . ومهما يكن من شئ . فإن فرنسا كانت ما تزال محظوظة بالنظام الملكي . وظل هذا الملك الشاب لويس فيليب (١٨٣٠ - ١٨٤٨) هو ملك فرنسا الممتدوى أمد ثمانية عشر عاماً . ولكنه سقط فى (١٨٤٨) وهى سنة عظيمة الأحداث فى أوروبا ، وصنطك عنها فى الفصل التالى .

تلك هى التارجمات المقلقة الى أمت يصلح مؤتمرا لينا ، والى آثارها التصرفات الرجعية لتصار الملكية . فإن التارجمات التى نشأت عن خريطة الديبلوماسية غير المدروسة دراسة علمية تسببت فى تجمع القوى بتعدد أكثر ، ولكنها كانت أهد خطراً على سلام البشرية . فإن من أكثر الأمور حسراً ومضايقة أن يلبس السياسى شئون الأوام غشيقين حصراً يتكلمون لغات عظيمة ويقرءون من ثم أهداً مختلفاً ولم أفكار عامة مختلفة ، وخاصة إذا بلغت هذه القروق والإختلافات حد السخط بسبب المنازعات الدليية . وليس فى طرق أى شئ . المهم إلا بعض المصالح القوية المياداة (من أمثال إيجابيات النطاق المشترك لدى مكان مويسرا البلجيين) ، أن يبرر إقامة ترابط وثيق بين شعوب متباينة فى لغاتها وحقاتها ، بل إن مويسرا ذاتها يقوم بها أقصى درجات الحكم الذى اهل استقلالاً . وعندما تمت فى النهاية تقاليد الدولة الكبرى وتوارى الرباب فسمى هؤلاء السكان السويسريون أن ينجليوا نحو وشائجهم الطبيعية فى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا . وعندما يكون الحال كشأنه فى حقولنا حيث يخط السكان مختلفاً موزعاً إلى رقاع صغيرة من القرى والنواحي ، فتتبدل تحم الظروف قيام نظام الككتونات . ولكن إذا نظر القارئ إلى خريطة أوروبا كما رسمها مؤتمرا فيينا ، رأى أن هذا المجلس كان كمن يرسم خطة الوصول بالسخط اهل إلى أقصاه . فإنه حذر الجمهورية الموندية ، ثم راح يجر ما فاع ، فجمع بين المونديين المروستانت وبين الكاثوليك المتكلمين بالفرنسية الذين كانوا فى الأراض المنخفضة الأسبانية (البسوية) . وأقام بهما مملكة للأراض المنخفضة . ولم يكف بأن يسلط جمهورية البنتبة القديمة فقط ، بل كل اهل إيطاليا حتى ميلان



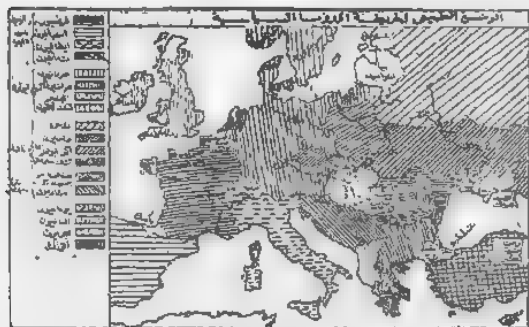
(شكل ١٩٠)

للمسويين الناطقين بالألمانية . وأصبح منطقة السافويا الناطقة بالفرنسية مع أجزاء من إيطاليا بقية لإرجاع مملكة سردينيا . وكانت مبراطورية النمسا والمجر من قبل ذلك خيطاً به ما يكتبه من عوامل التفرج من الجغرافيا المتنازعة عبر لقسنة ما بين المابين ومجرين ونشيكوسلوفاك ويوغوسلاف ورومانيين وانضم إليهم الآن الإيطاليون ، ثم جعلها أحداث (١٧٧٢ ، ١٧٩٥) أكثر استحالة مما كانت . فأما البولنديون الكاثوليك ذوو الروح الجمهورية فقد أسسوا يصفه رئيسية إلى حكم القيصرة الأقل حصارة وصاحب الدين اليوناني الأرثوذكسي ، هذا أن أجزاء هامة منها ذهبت إلى بروسيا للبروتستانتية . كذلك شئت قدم القيصرة لها احتازره من بلاد الفنلنديين المختلفين عنه اختلافاً كلياً . ورُبط الشعبان غير المتشابهين الروماني والسويدي تحت حكم ملك واحد . وتمركزت ألمانيا - كما سبى القارئ - في حالة ارتباك خطيرة بوجه خاص . فقد كانت كل من بروسيا والنمسا داخليتين جزئياً وخارجيتين جزئياً في اتحاد كنفدرالى

(Confederation) الألماني كان يضم عدداً كبيراً من الدول الصغرى . ودخل ملك
 النمسا على مائدة الاتحاد الكفخدول بسبب وجود ممتلكات له في ذلك الاتحاد
 تحكم الألمانية في هولتين . وأدخلت لسمبورج في ذلك الاتحاد الكفخدول الألماني ،
 مع أن حاكمها كان كذلك هو ملك الأراضي المنخفضة ، ومع أن كثيراً من سكانها
 كانوا يتكلمون الفرنسية . وهنا تلمس اخفالاتاً تماماً لحقيقة واقعة هي أن القوم الذين
 يتكلمون الألمانية وينتجون فكراتهم على الأدب الألماني ، وأن القوم الذين يتكلمون
 الإيطالية وينتجون فكراتهم على الأدب الإيطالي ، وأن القوم الذين يتكلمون البولندية
 وينتجون فكراتهم على الأدب البولندي سوف يكونون جميعاً أسد حلالاً ويكونون
 من أحمق الناس على سائر الإنسانية فضلاً وسعونة وأقلهم بها شراً وضراً ، إنهم
 أحادوا شترتهم على تراكيب لغتهم طغى لسانهم الخاص . أحسب إذن أن
 تكون من بين أشد الأغنيات قبحاً في الناس في ألمانيا أثناء تلك الفترة ، أغنية
 تصرح بأنه حينما كان اللسان الألماني يتكلم ، كانت أرض الأجناس الألمانية .

ولا يزال الناس حتى في يومنا هذا كارمين أن يتولوا بأن مناطق الحكم
 ليست من الشؤون التي يجوز فيها المساومات والتفاعلات بين القياصرة والملوك
 ووزارات الخارجية . وهناك « خريطة ضرورة سياسة للعالم » تتعالى فوق كل هذه
 الأمور . وثمة طريقة أخرى هي « أحسن الطرق للاستقامة » يقوم بها أي جزء من أجزاء
 العالم إلى مناطق إدارية ، وذلك بالنظر إلى لغة وجنس سكانها ، وإله لما يهتما جميعاً
 أن نضمن وجود هذه الأقسام وأن تؤسس أشكال الحكومة تلك بصرف النظر تماماً
 عن الديموماسيات والرايات ، والمصالحات ، والولاءات ، الميولامية الانفصالية ،
 وعن خريطة العالم السياسية الموجودة اليوم . وخريطة العالم السياسية المنطلقة حسب
 الطبيعة تأتي إلا أن تغد . وهي تضطرب وتتحرك غملاً من دون الخريطة السياسية
 الاصطناعية كما يتملج جبار في وضع لا يبرحه . ففي (١٨٣٠) قامت بلاد البلجيك
 الناطقة بالفرنسية - وقد حفرتها الثورة في فرنسا - ففارت على شريكها الهولندية في
 ملكة الأراضي المنخفضة . وصارحت الدول إلى تمكين هذا الموقف وقد أزعجها إمكان

قيام جمهورية بها أو إستقلالها إلى فرنسا ومنحت البلجيكيين ملكا هولنديا الأول أمير ساكس كوبرج جوتا . وحسب كذلك في (١٨٣٠) ثورات لم يكتب لها التوفيق بإيطاليا وألمانيا ، وفئة أشد خطورة بكثير في بولندة الروسية . وقامت في وارسو حكومة جمهورية وصمدت عاما كاملا سجال نيقولا الأول (الذي خلف الإسكندر في ١٨٢٥) ، ثم قضى عليها عند ذلك بعنف وقساوة كبيرين . وصدر قرار بترحيم اللغة البولندية ، واستبدلت بالكنيسة الكاثوليكية الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية بوصفها الديانة الرسمية للدولة . . .



(شكل ١٢١)

وهناك انفجار في خريطة العالم السياسية المطابقة للطبيعة حدث في (١٨٢١) ، وانتهى بالحصول على متاصرة إنجلترا وفرنسا والروسيا . وكان ذلك الانفجار هو ثورة اليونان ضد الأتراك . ذلك أن اليونانيين ظلوا يقاتلون خلال المستعمرات أمدهت سنوات ، على حين وقفت حكومات أوروبا تنظر إليهم متفرجة . واحتج الرأي الحر على هذه الجمود ، وانضم إلى الثوار المتطوعون من كل دولة أوروبية ، وانتهى الأمر بأن قامت بريطانيا وفرنسا والروسيا بعمل مشترك . فدمر الأسطولان الإنجليزي

والتونسي الأسطول التركي في معركة نورين (١٨٢٢). وغزا القيصر تركيا . وأعلنت حرية بلاد اليونان بمحاكمة أدنة (١٨٢٩) ، ولكن لم يسمح لها بأن تواصل قتالهما بالجمهورية القديمة . وانتقلت الدول لبلاد اليونان ملكاً ألمانيا هو أمير بالاري اسمه أوتو - فخلت عليه أوامم آخره حول حقه القلص ، وتبد في ١٨٦٢ - وأقيم حكام مسيحيون في الولايات الثانوية (التي هي الآن رومانيا) ، وصربيا (وهي جزء من منطقة يوغوسلافيا) . وكان هذا إذعاناً جزئياً لخريطة السياسية للمواقفة الحقيقية ، ولكن كان لابد من صفك الدم الكثير قبل أن طرد التركي طرداً تاماً من هذه الأراضي . وبعد ذلك يزمن يسير قامت الخريطة السياسية للطائفة لطيفة تنادي بحقوقها في ألمانيا وإيطاليا .

٧ - طراز الإمبراطورية

انكسرت محاولة نابليون إعادة الإمبراطورية الرومانية إنكماساً تبدت فيه الأمانة البالغة في فن العمارة والنياب والآلات وفي التصوير في تلك الفترة . وقد قلّموا في كل هذه الأمور بمحاولة إضمار الأشكال والروح المطابقة لواقع روما الإمبراطورية . وكانوا أخذت من المصنف ألبه الرأس الشمالية ولباب السيدات وبحرجهت تسمى في الطرقات . وأخذت جميع الأعمدة وأقواس النصر تنادي وتبخر في طريقها إلى أعظم مواقع المدن الكبرى كالقبة . وفازت باريس بقوم النصر ولعلتها لندن على الفوز فكان لها قوس الرخام (Marble Arch) . وانقضت من التواجد تطورات البروق (الباروك)^(١) والركوكو^(٢) في مبدئي النهضة لأن الناس فضّلوا عليها وأجهات

(١) كلمة باروك مأخوذة من الكلمة البرتغالية Barroco ومعناها المتورمة غير منتظمة الشكل وذلك في الاصطلاح التي حل طراز حاس شبه الخزوف شاح في أودها بين عامي ١٦٠٠ - ١٧٢٠ أو ١٧٦٠ والكلمة من أصل عربي هو لفظ « باروك » . (لترجم)

(٢) وركوكو : مأخوذة من الكلمة الفرنسية Rocaille ومعناها الحصى على شكل فسحة وهو أسلوب في الفنون الخزفية يطلق على زخرف يتألف من الأسلاك والأشجار وله شاح منذ عام ١٨٢٠ بعد غنى الطراز الباروكي . (لترجم)

أشعري أقسى وأجس مظهرًا . وكان كاثوليك الإيطالي هو المثال العظيم لذلك الزمان . وكان دافيد يطرببه لأشكال الأبطال المرأة . وتولد إنجرس " (ingress) أميرات تابلون على صورة دهب منازل ورومانيات ودهب رومانيات . وعائيل لندن العامة تمثل ساحة تلك الفترة وملوكها الموقرين في أشكال أعضاء السناتور والإباطرة . وعندما انتشرت الولايات المتحدة تصحياً لخاصتها الأعظم ، كان من الطبيعي أن تختار فيه النسب وأن تضع في محالبه سهم المشتري^(١) .

الفصل الثاني والثلاثون

حقائق القرن التاسع عشر وخيالاته

- ١ - الانقلاب الآك .
- ٢ - العلاقة بين الانقلابين الآك والصنعي .
- ٣ - انجيل الفكرات في ١٨٤٨ .
- ٤ - تطور فكرة الاشتراكية .
- ٥ - صوب الاشتراكية بوصفها خطة الحياة .
- ٦ - كيف أثر مذهب ماركس في الفكرات .
- ٧ - نظرية القومية .
- ٨ - المهرس الكبير في ١٨٥١ .
- ٩ - حياة ناهليون الثالث .
- ١٠ - انكلون والحرب الأهلية في أمريكا .
- ١١ - الحرب الروسية التركية وساحة برلين .
- ١٢ - القديس الكلف على الإمبراطوريات وراه البحار .
- ١٣ - سابقة الخلية في آسيا .
- ١٤ - تاريخ اليابان .
- ١٥ - نظام حرية التوسع وراه البحار .
- ١٦ - الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤ .
- ١٧ - التصوير وقتت وقلمة في القرن التاسع عشر .
- ١٨ - كوميتي في القرن التاسع عشر .
- ١٩ - هوس القصة إل للربة العليا في العصر .

١ - الانقلاب الآلي

تبدو حياة ناهليون الأول وشخصيته في مؤلفات القرن التاسع عشر التاريخية ضئيلة لا تتناسب وأهميته . فإنه كان قليل الأهمية بالنسبة للحركة الرجعية السائرة قلحاً بالشئون الإنسانية نحو الأمام . ولم يزد عل أن كان مقاطعاً لتلك الحركة ومذكراً بالشروط الكلية ، كما كان أشبه شيء . ياكترها بعض الأويته . ولو نظرنا إليه حتى من زاوية الأويته واحترناه ياكترها ، فإنه لم يكن بها في المقام الأول ، فإنه قضى على حشد من الأخص يقل عما قضى عليه وياه الأنكلوترا في سنة ١٩١٨ ، وأصبح من التزيق السياسي والاجتماعي أكل مما أنتجه الطاعون في عصر هينيان .

لم يكن يد من ظهور تمثيلية الصغيرة على المسرح بين فصول المسرحية الكبرى ، ولم يكن متدوحة من حدوث تلك التسوية الأوروبية للرقة التي تقبدي في الاتحاد الأوربي ، ذلك أنه لم يكن هناك مجموعة مدروسة من المفكرات يمكن أن يقام عليها علم جديد . وإن الاتحاد الأوربي نفسه كان ينطوي على عامل من عوامل التقدم . فإنه على الأمل أطرح جانباً روح « الفردية » الملحة في الملكية المكابلية وأعلن أنه توجد دولة إنسانية أو على الأقل دولة أوروبية . فلئن قسم ذلك الاتحاد العلم بين الملوك ، فإنه أدى تحية التجلة والإكبار للوحدة الإنسانية وخضعة الله والإنسان .

والواجب النائم الأثر الذي كان على الإنسانية أدلوه ، قبل أن يكون في الإمكان إقامة أي بناء سياسي واجتماعي جديد مستديم ، وهو الواجب الذي ما تزال القطعة الإنسانية منشغلة به رغم ما ألم به من فترات التوقف والمقاطعة وما أساط به من مظاهر انقصب والشغب - كان وما يتكش هو واجب إنتاج وتطبيق : « أ » علم الملكية يكون أساساً تبنى عليه الحرية والعدالة الاجتماعية ، « ب » علم للعملة يتضمن وجود وسيط اقتصادي كفء ، « ج » علم لأصول الحكم والعمليات الاجتماعية ، يستطيع به الناس في كل مجتمع أن يتعلموا كيف يتولون مصالحهم المشتركة يتوافق وانسجام ، « د » علم للسياسة العامة يمكن أن يقضى على ما في الحروب بين الجنس والجنس ، والشعب والشعب ، والأمة والأمة ، من التمييز والإسراف الشديد والمساوات النطيحة ، ويمكن به أن توضع بفضل مصالحي البشرية المشتركة تحت رعاية مشتركة ، وفوق كل شيء : « هـ » علم يكفل قيام نظام للتعليم شامل للعلم قاطبة يدعم إرادة الناس ومصالحهم في مفاصلهم الإنسانية المشتركة .

فأما صناع التاريخ الحقيقيون في القرن التاسع عشر ، وهم القوم الذين سوفه تحدّد حواقب أعمالهم الحياة الإنسانية مقدماً لمدة قرن كامل من الزمان ، فقد كانوا هم أولئك الذين روجوا لهذا الجهد الخالص البناء وأسهموا فيه . فلوقيس إليهم وزراء الخارجية ورجال الدولة والسياسيون في تلك الفترة لما زادوا عن فئة من التلاميذ المشاهير الذين يصلون أحياناً إلى حد إسراف النار والإسراف ، أو

يضع نفر من مراقبي الماعن ، الذين يمشون هنا وهناك ويمشون شراً موقوتاً بين المواد البالية على أرض بناء عظيم لم يفهموا كنهه .

وعلى حين أن عقل المدنية الغربية في القرن التاسع عشر بأكله ، وهو العقل الذي أطلقته النهضة من عقائه ، ظل يُجمِّع طسه لأداء واجب التمييز الاجتماعي والسياسي الخلاق الذي ما يزال عليه عبء القيام به . فقد غمرت العالم موجة تغير علم في القوة البشرية وفي أحوال الحياة المادية التي أبحاث سبل وجودها بالجهود العلمية الأولى لهذا العقل المحرر .

وابتدأت نبوءات روجر باكون تعيش في علم الحقيقة . فإن المعرفة والحققة للجمعة لدى الأجيال القليلة المتعاقبة من الناس الذي حلوا لواء التنمية العلمية ، قد أخذت عند فاك توتى ثماراً كان في مستطاع العامة من الناس أن يفهموها . وكانت الآلة البخارية هي لشدة تلك الثمار الأولى وضوحاً . وكانت أولى الآلات البخارية المستعملة في القرن الثامن عشر مضخات تستعمل في صرف المياه إلى خارج مناجم الفحم المحفزة حديثاً . وكانت مناجم الفحم هذه تشغل لاستخراج الكوك بنية استعماله في صهر الحديد الذي كان الفحم النباتي المتخذ من الخشب يستعمل فيه آنفاً . وإلى جيمس وات وهو صانع آلات دقيقة في جلاسجو يرجع الفضل في تحسين تلك المضخة البخارية ، وجعل استعمالها للرفع للمكينات أمراً ممكناً . وقد وضعت أول آلة استعملت لهذا الغرض في مصنع لتسيج القطن بروتجهام في (١٧٨٥) .

وفي (١٨٠٤) كيف ترقيشيك آلة وات وجعلها صالحة لأعمال النقل ، وأنشأ أول قاطرة . وفي (١٨٢٥) صنع لسفر أول خط حديدي بين ستوكتون ودارلنجن . وما تزال الآلة الأصلية وهي (القاطرة رقم ١ ، ١٨٢٥) ترين رصيف محطة دارلنجن . وما وافق منتصف القرن حتى كانت شبكة من الطرق الحديدية قد حمت كل أرجاء أوروبا .

هنا حدث انقلاب فجائي فيما ظل زمالاً طويلاً حالة ثابتة في الحياة الإنسانية ، وأضحى بذلك أقصى سرعة لنقل البرى . وقد سافر نابليون بعد كاركاته الرومية من قرب فيينا إلى باريس في ٣١٢ ساعة ، وهي رحلة تقارب الألف والأربعمائة من

الأميال . كان يسافر مستمتعاً بكل ما تصوره العقول من الميزات ، وكان مطلقاً
 مسيرته يقل عن خمسة أميال في الساعة . وذلك في حين أن الركاب العادي لم يكن
 يستطيع أن يقطع هذه المسافة في ضعف هذا الوقت . وكانت هذه السرعة تقارب
 نفس سرعات السفر القصوى التي كانت ممكنة بين روما وبين بلاد الغال في القرن
 الأول للميلادى ، أو بين سارديس وسوسا في القرن الرابع ق . م .

ثم جاء على الضجاء تيمبر هائل . فإن السكك الحديدية خفضت هذه الرحلة
 لأى راكب عادى إلى ما يقل عن ثمانية وأربعين ساعة ، أى أنها خفضت المسافات
 الأوروبية الرئيسية إلى ما يندى عشر ما كانت عليه . وجمعت من الممكن القيام بالعمل
 الإدارى في مناطق تكبر بمسيرة أضعاف ما كان في الإمكان إدارته حتى ذلك الحين
 بواسطة إدارة واحدة . وما يرح للفرز الكامل لهذا الاحتمال في أوروبا ينتظر الأيام
 التي تحققة . فإن أوروبا ما برحت تقسمها شبكة خطوط رسمت في عصر الحصان
 والسكة الزراعية . وكانت آثار ذلك الحدث في أمريكا صريعة مباشرة . وكان معنى
 ذلك لدى الولايات المتحدة الأمريكية الزراعية غرباً ، هو إمكان وجود إتصال مستمر
 بواشنطن ، مهما تكن للمسافة التي تنقلها الحدود عبر القارة . وكان معنى ذلك
 هو الوحدة التي نصان على ميثاق كان لولاها من أضرب المستحيل .

وكان ظهور الزورق البخارى أسبق قليلاً من الآلة البخارية في مراحلها الأولى .
 وكان هنالك زورق بخارى هو (شارلوت ديلاس) ، ينقل في قناة (الفتوت
 والكلايد بانجلترا) في (١٨٠٢) ، وفي (١٨٠٧) كان لأمريكى يدعى فالتون ياخرة
 معدية ، هي الكلبرمونت بها آلات مصنوعة ببريطانيا ، وكانت تسير في نهر الميسون
 أهل نيويورك . وكانت أول سفينة بخارية سارت في البحر أمريكية كذلك وهي
 «الفينكس» التي كانت تسير من نيويورك (هوبوكن) إلى فيلادلفيا . وكذلك
 كان شأن أول سفينة تستخدم ليغار (وكان لها أيضاً فلولج) عبرت الأطلسي ،
 وهي السفانا (١٨١٩) . وكانت كل هذه زوارق ذات عجلة رافعة ، ولكن زوارق
 العجلة الرافعة لا تصلح للعمل في عرض البحر الثقيلة . فإن الطائرة الرافعة سهلة
 التكسر ، وعند ذلك يصبح الزورق عاجزاً أشل .

وظهرت عقب ذلك السفينة البخارية ذات الداسر الأولى (١) وكان لا يد من التغلب على كثير من المصاعب قبل أن أصبح الداسر الأولي شيئاً عملياً يمكن الانتفاع به . ولم تشرع حوالة السفن البخارية في أن تزيد على حوالة السفن الشراعية إلا بعد أن بلغ القرن منتصفه . وبعد ذلك أسمى التطور في النقل البحري سريعاً . وأخذ الناس لأول مرة يعبرون البحار والمحيطات وهم حمل شيء من التحقن من موجد وصولهم . وكان عبور الأطلسي قبل ذلك مغامرة غير محققة تمتد أسابيع كثيرة قد تترامى إلى الشهور ، فلم تزل السرعة فيه تزداد حتى خضعت مدته في (١٩١٠) في حالة أسرع البواخر ، إلى أقل من خمسة أيام ، مع إمكانية تحميد ساعة الوصول على وجه التقريب . وشمل نفس هذا التخصيص في الزمن ونفس هذا التحقن من المواصلات الإنسانية جميع محيطات العالم وبحاره .

ومما يطور البحار على سطح الأرض وفي عباب الماء ، ظهور أمر آخر جديد رائع أضيف إلى تسهيلات التواصل البشري ، ونشأ عن أبحاث « فولتا » و « جالفاني » و « فاراداي » في الظواهر الكهربائية المتنوعة . وظهر التلغراف الكهربائي إلى عالم الوجود في (١٨٣٥) ووضع أول سلك بحري (كابل) تلغرافي تحت أخطاب البحر في (١٨٥١) بين إنجلترا وفرنسا . ولم تحض بضع سنوات حتى كان نظام التلغراف قد عم العالم المتمدد بأكمله ، وبدأ أصبحت الأخبار التي كانت حتى ذلك اليوم ترحل متابعة من موضع إلى موضع تنتشر في كل أرجاء المعمورة في وقت واحد هويماً .

وقد كانت هذه الأشياء وأعني بها السلك الحديدية البخارية والتلغراف الكهربائي أخذت المستحبات روعة وثورة لدى أذهان عامة الناس في منتصف القرن التاسع عشر ، على أنهما لم يكونا إلا أبرز وأصحج تأثير عملي أشد منهما اتساعاً وعظماً . وأنشئت المهارة والمعرفة الصناعية التكنيكية تطوران في سرعة غير مألوفة ، وإلى حد ضيق مألوف إذا قيس تقدم ذلك العصر بتقدم أي عصر سابق عليه .

(١) الداسر الأولي (Screw) أو دافع القروبي : هو مرواح (Propeller) ويستعمل في دفع السفن أو المراكب ، (الترجمة)

وانبسطت قدرة الإنسان على المواد الإنشائية المتنوعة وكان انبساطها في البداية أقل ظهوراً بكثير في حياته اليومية ، ولكنه أصبح آخر الأمر على درجة عظيمة من الأهمية . وقبل أن يتصف القرن الثامن عشر كان الحديد يستخلص من خامه بواسطة فحم الخشب ، وكان يتناول قطعاً صغيرة ثم يطرق ويصاغ في الشكل المطلوب . كان مجرد مادة يصل فيها صانع . وكانت جودة نوع الحديد وطريقة معالجته تعتمد اعتماداً حاداً على خبرة الصانع القرد وضبطه . وكانت أكبر كل الحديد التي يحتاج معالجتها في مثل تلك الظروف تصل في أحظ شأنها (في القرن السادس عشر) إلى طين أو ثلاثة . (فكان هناك إذن حدٌ أهل مخلود جداً لحجم المنبع) . ونشأ القرن العاشر^(١) في القرن الثامن عشر وازداد تطوراً باستخدام فحم الكوك . ولما نجد قبل القرن الثامن عشر صفائح الحديد المسحوبة (بين الترافيل) (١٧٢٨) ، ولا الأسياخ والتضبان المسحوبة (بين الترافيل) (١٧٨٣) . وجاءت مطرقة د نازميث البخارية في زمن متأخر هو (١٨٣٩) .

ولم يستطع العالم القديم أن يستعمل البخار بسبب تلغره في علوم المعادن والتعدين . فلما الآلة البخارية حتى المصنعة البدائية ، فلم يكن في الإمكان تطويرها قبل أن تكسر صفائح الحديد . وتبدو الآلات الأولى لعين الرائي الصوري قطعاً من الحديد الخشونة سمجة مسجوبة لأحد الرثاء ، ولكنها كانت أمضى ما يستطيع حلم اللعنتيات أن يخرجه في ذلك الزمان . وجاءت طريقة د بيشر^(٢) في زمن يقارب في تأخره (١٨٥٦) ، ثم تلتها على الفور (١٨٦٤) ، عملية الأتون المصنوع الذي كان في استطاع إذابة الصلب وكل أنواع الحديد فيه ، وتفتيتها وصباها بحالة وحل مقياس لم يسمح الناس فيما حتى آنذاك . ولقد يستطيع الإنسان اليوم أن يرى في القرن الكهربائي أمثلاً من الصلب الوهاج الميض بالحرارة وهو يتهدد حديد الجبل المثل .

وليس في مراحل التقدم الإنساني العملية السابقة ما يملك في حواثيه ما يملكه الإنسان اليوم من تلك السيادة التامة على كل حالة من الصلب والحديد وعلى تكوينها ودرجة جودتها . وكانت السلك الحديدية الأولى والآلات المبكرة يجمع أصلها

(١) القرن العاشر (Blast-Furnace) هولند لصهر الحديد وتلغ فيه المواد الصلبة . (الترم)

بمجرد اتصالات الوسائل الحديدية لمعالجة الفلزات^(١) . وسرعان ما ظهرت صفى الحديد وقصلب والكبارى الضخمة ، وطريقة حديثة لبناء بالفرود على مدار هائل . وأدرك الناس بعد قوات الزمن الطويل أنهم كانوا يصممون مسكنهم الحديدية على مقياس سعة^(٢) يجعل في الخوف المفرط ، وأنه كان في استطاعتهم أن يظلوا أسفادهم على أساس قدر أوفى من الثبات والراحة باستعمال مقياس سعة أعظم كثيراً من الموجود .

ولم تكن هناك في العالم قبل القرن التاسع عشر أية سفن تتجاوز حولها أقين من الأطلان . وليس هناك اليوم أى عجب في وجود باخرة ذات حيين ألف طن . ومن الناس من يهزون بهذا المصنوع راعين إياه تقدماً في عهد الحجيم ، قبط ، غير أن هذا النوع من الزواية إنما يدل على ضيق أقدامهم .

فليت السيفنة الطبيعية ولا المبنى ذو الميكل الفولاذى صورة مصححة من سفينة اللاضى الصبورة أو بناء اللاضى الصغير كما يجهلون ، وإنما هى شىء مختلف في نوعه ، يبقى بناماً أخف وأقوى ، من مواد أجود وأمن . ويدل أن تكون شيئاً يعتمد على السوابق والحساب التقريبي ، إذا بها شىء يرجع إلى حسابات دقيقة مفصلة . ففى المنزل أو السفينة القديمة ، كانت المادة هى للقبلة - فكان الحال يقتضى أن تطاع المادة وما يلزمها طاعة الحديد ، فأما السفينة الحديثة أو للمنزل الحديد فقد قضى فيها على ناصية المادة وغُيِّرت معاملها وضبطت أصولها . تصور ذلك القمح والحديد والرمل المستخرجة من المهاجر والمناجم ، وهى تؤخذ وتخل ، وتصهر وتصب لكي تقام آخر الأمر برجاً^(٣) رقيقاً يرائى من الصلب والزجاج يعلو على المدينة المزدهرة بستمته قديم ! وهذه التفاصيل عن تقدم معرفة الإنسان بالخواص الفيزية للصلب وتأنجها قد

(١) علم الفلزات (Metallurgy) : هو العلم والصور للبحث على المعادن ، بما في ذلك استغلالها من عابها وتنقيها وخلطها سبائك وتشكيلها ومعالجتها ودوامه تكويها وبنائها وخواصها .
(الترجم)

(٢) مقياس سعة (Gauge) مسافة ما بين القشبان . (الترجم)

أدلتنا بها على سبيل المثال والتوضيح . وفي إمكاننا أن نروى لك قصة مماثلة لهذه عن التلواصق الفلزية للحاس والقصدير وعن عدد صغير من المعادن تجزئ بها يذكر اثنين هما النيكل والألومنيوم ، وهما معلمان لم يكونا معروفين قبل النطاق فجر القرن التاسع عشر .

وإنما يعود إلى هذه السيادة العظيمة الثانية على المواد ، أعني على الأنواع المختلفة من الزجاج وعلى الصخور وأنواع (اللياس) وما إليها ، وعلى الألوان والتكوين ، الفضل في إحراز الإنسان أهم انتصاراته في الثورة الميكانيكية حتى هذا اللون . ومع هذا فلما ما تزال في مرحلة إجتاه أول بواكير ذلك الأمر . لدينا القوة ، ولكن ما يزال علينا أن تعلم كيف نستعمل قوتنا . وكثيراً ما كانت هبات العلم هذه تستخدم استخدامات سوية أو قبيحة اللوح أو مبرجة أو مبرجة حقاً أو شنيعة . ولم يكن كذلك الفئتان ولا الفئتان المنفردتان^(١) أن يشرعا حتى الآن في العمل في الأضراب النهائية للمواد التي هي الآن بين أيديهما .

وتما علم الكهرباء الجديد عمواً مماثلاً لهذا التوسع في الاحتمالات الميكانيكية . ولم يحدث إلا في العقد الثامن من القرن التاسع عشر أن شرعت هذه المجموعة من الأبحاث العلمية أن توثق ثماراً تؤثر في العقل السوي . ثم جاء يفتة كل من النور الكهربائي والجبر الكهربائي ؛ وشرعت عقول الناس العاديين تدرك أن في الإمكان تسليج (Transmutation) القوى ، أعني احتمال إرسال القوة التي يمكن تحويلها إلى حركة ميكانيكية أو ضوء أو حرارة حسياً يحترق الإنسان ، على امتداد مسك من النحاس ، كما ترسل المياه داخل الأنابيب .

وكان البريطانيون والفرنسيون في صلب الأمر هما الشعبان القائلان للعالم في مضمار هذا الإختصاص المرفق العظيم . ولكن ما هم إلا الذين تعلموا الذلة في حكم نابليون أن أظهروا الوقت من الحماسة والقلب في البحث العلمي ما جعلهم يدركون

(١) انقلد هي (Adopter) للمدة كلفة المناس . (المرم)

هؤلاء القادة . وكان العلم البريطاني في معظم أفرع من خلق رجال من الإنجليز والاسكتلنديين^(١) الذين يشتغلون خارج مراكز الحلقة العادية .

وقد أسبقنا إليك من قبل كيف أن الجامعات في إنجلترا قل عليها الإقبال الشعبي بعد الإصلاح الديني ، وكيف أنها أصبحت وقفاً على النبلاء والأعيان كما صارت الحصن للنخب للكنيسة الرسمية . وتغلقت عليها روح إدهاء كلاسيكية ران عليها الغباء والتفاخر بالفخامة ، كما أنها تسطت على مدارس الطبقي الوسطى والعلية . وكانت المثرة الوحيدة التي تعرف بها هي الإلمام بنصوص لفترات من الأدب الكلاسيكي اللاتيني والإغريقي لئلا لا يتكوى على نقد ولا تمحيص ، وكانت أمانة حسن الأسلوب هي وفرة ما فيه من اقتباسات وإشارات وعبارات ، شجيرة جاملة .

ومن ثم توأصل التطور المبكر للعلم البريطاني ، بالرغم من هيئة التعليم الرسمية ، ورغم أنف السلاوة المبررة التي أهداها أصحاب مهنتي التعليم والكنهوت . كذلك تسطت على التعليم الفرنسي تقاليد اليسوعيين الكلاسيكية ، ورتب على ذلك أنه لم يصر على الألمان أن ينظموا هيئة من البعثة ، كانت صغرة بالنسبة لاحتياجات الموضوع ، ولكنها كبيرة بالنسبة إلى القوة القليلة من المترجمين والتجريبين البريطانيين والفرنسيين . ومع أن هذا العمل عمل البحث والتجريب كان آخذاً بأصابع جعل بريطانيا وفرنسا أخفى بلاد العالم وأقواها ، فإنه لم يكن يعامل رجال العلم والاقتصاد أغنياء ولا أقوياء . وهناك ضرب ضروري من الروح غير الدينية يحيط برجل العلم الخالص لعله . فإنه أشد انشغالا بمباحثه من أن يدبر ويخطط وسائل يستطيع أن يمر من ورثتها للمنام .

وبناء على ذلك تقع عملية الاستغلال الاقتصادي لاكتشافاته بشكل سهل جداً وطبيعي جداً في أيدي طراز من الناس أكثر ميلا إلى الاقتناء والاحتياز . وكان كل دور جديد من أدوار التقدم العلمي والتكنيكي ينتج في بريطانيا العظمى محصولاً

(١) ولكن للاحظ القارئ بولام والمير . م . هاتون يوسفهما من رجال العلم المبرزين

جديداً من الأغنياء الذين كانوا من تمام الرضا عن أنفسهم بحيث يتركون الأوزة الذهبية البيض تموت جوعاً ، وإن لم يظهروا كما فعل العلماء للدرمانيون ورجال الأكليروس نفس الرغبة الخاصة في إهانة أوزة البيض الذهبي القوي وكطها . كانوا يرون أن المخترعين والكتنشين يعبثون بحكم الطبيعة لكي ينضج من وراثتهم من هم أشد منهم ذكاءً ومهارة .

وكان الألمان أكثر منهم حكمة بقليل في هذا الأمر . فإن العلماء الألمان لم يظهروا نفس الكراهية العنيفة نحو العلم الحديدي بل صحموا له بالتطور . كذلك لم يكن بخالجات الألمان صاحب الأعمال والمصنع نحو مواطنه العلم نفس ما كان بخالجات مناقه البريطاني من احتقار العلماء . كان هؤلاء الألمان يعتقدون أن المعرفة ربما أصبحت عصبولاً مزدوجاً يستجيب للمحسبات . لذلك سلموا للذهن العلمي يقدر معين من الفرصة بنهز ، فكانت مصروفاتهم العامة على أعمال البحث أكبر نسبياً ، وجوزى هذا الإنفاق أولي الجزاء

وما بلغ القرن التاسع عشر نصفه الثاني حتى كان العالم الألماني قد جعل الأمة الألمانية لغة ضرورية لكل طالب علوم يرغب في أن يكون على العوام في الطبيعة محلياً آخر إنتاج في فرع علمه ، وأحرزت ألمانيا في قروح معينة من العلوم وفي الكيمياء بوجه خاص تفوقاً حقيقياً جداً على جيرانها الغربيين . وأخذ الجهد العلمي في ألمانيا في التقدمين السابع والثامن يحدث آثاره في ثمانينات القرن ، وأخذ الألمان يسبقون بريطانيا وفرنسا سقاً متواصلاً في النجاح التطبيقي التقني (التكنيكي) والصناعي . ومن المستحيل في معالم التاريخ مثل هذه أن تنقب شبكة العمليات العقلية المركبة التي أدت إلى هذا التوسع المتواصل في المعرفة والقوة التي يجري الآن في العلم . وكل ما نستطيع فعله هنا أن نستعرض الصفات القارعة إلى أبرز نقاط التحول التي اقتادت آخر الأمر وزلافة ، الشؤون الإنسانية إلى ما هي عليه من حال التضخم السريع .

وقد حدثناك عن أول فلكك للتطلع الإنساني ، وعن بدايات البحث والتجريب .

المنظم . كذلك حدثنا كيف حدث عند ما جاء النظام الرومانى البوتوراطى^(١) وما ترتب عليه من روح استعمارية ثم ذهب من العالم ثانية - أن نجدت عملية البحث هذه . وحدثناك عن إطلاات البحث من الاستخفاء والاستفادة الشخصية إلى فكرة النشر وإلى الإخوة فى المعرفة ، ولا حظنا تأسيس الجمعية الملكية البريطانية ، والجمعية الفلورنسية ، وأشباههما بوصفهما نتيجة هذا التنظيم للفكر على أسس « الإشتراكية » . كانت هذه الأمور هى جلور الإهتلاب الميكانيكى ، وما دام جلور البحث العلمى الصروف حياً ظن يفت تقدم ذلك الإهتلاب عند حد . وربما جاز لنا أن نقول إن الثورة الميكانيكية ذاتها ابتدأت باستهلاك ما فى إنجلترا من الخشب فى مصانع الحديد . وأفضى ذلك إلى استعمال الفحم ، وأدى مجرى الفحم إلى المصحة البسيطة ، وأدى التحول بالمضخة على يد « وات » إلى آلة تدفع الماء كبات ، إلى ظهور القاطرة والسفينة البخارية . وكان ذلك هو للنور الأول من أدوار توسع عظيم فى استعمال البهلر . وابتدأ دور ثان للثورة الميكانيكية بتطبيق العلم الكهبرى على المسائل العملى وعلى تطوير الإضاءة الكهربية ونقل القوة والحر

ومعة دور ثالث لا بد من تميزه ، جاء عندما ظهر فى العقد التاسع طراز جديد من الآلات ، وهى آلات حلت فيها قوة القند فى خليط مضجر على قوة القند فى الخلور . ولم تلبث الآلات الخفيفة العالية الكفاءة التى أممبعت بملك فى جبر الإسكان إن طبقت على السيارة ، وتطورت آخر الأمر حتى بلغت درجة عالية من الخفة والكفاءة تجمل الطيران شيئاً عملياً ، والطيران فكرة كان معروفاً منذ زمن بعيد أنها ممكنة .

وكان جهد إنخوان رايت فى أمريكا ذا أهمية أولية فى هذا الميدان . ومضلا عن هذا فإن الأستاذ لانجل التاسع لشهد سيمسون بانيويورك تمكن فى زمن يرجع إلى (١٨٩٧) من صنع آلة الطيران ، وإن لم تبلغ من السعة حد حل جسم إنسانى . فأما مجهوده الثانى وهو طائرة كاملة الحجم ، فقد فشل فى محاولاته الأولى ، ولكن كودريس وفق بعد لإختلال تعبيرات عظيمة جداً عليها ، إلى الطيران بها بجناح يمد

ذلك يضع سنين . حتى إذا وافق (١٩٠٩) أصبح في إمكان الطائرة أن تعمل في النقل
الإنساني . وكانت بواحد بعض التوقف في زيادة السرعة الإنسانية قد لاحت في
الأفق مع إحكام السكك الحديدية والانتقال بالسيارة في الطرق ، ولكن جاءت
مع آلة الطيران تحقيقات جديدة في قيمة المسافة بين نقطة على سطح الأرض
ونقطة أخرى . وقد كانت المسافة بين لندن وإدنبرة تستغرق ثمانية أيام في القرن
الثامن عشر . وفي (١٩١٨) قلعت لجنة النقل البحري البريطانية تقريراً تقول فيه إن
الرحلة من لندن إلى ملبورن وهي نصف الدورة الكاملة حول الأرض ، يرجح أن
يمكن في بضع سنين أن تتم في نفس مدة الأيام الثمانية .

ونبذنا ألا نبأ في التشديد على هذه التحقيقات الرائعة في المسافة الزمنية بين
مكان وآخر فها هي إلا مجرد مظهر واحد من مظاهر تكبير الاحتمالات الإنسانية
أعظم عمقاً ولشد ضخامة . فكل علم الزراعة والكيمياء الزراعية مثلاً أصابا أطواراً
من التخطم مماثلة لهذه تماماً إبان القرن التاسع عشر . وبلغ من تعلم الناس تحصيل
الأرض أن أنتجوا أربعة أضعاف وخمسة أضعاف المحاصيل التي كانوا يحصلون عليها
من المساحة نفسها في القرن السابع عشر . وكان هناك تقدم أشد خرقاً لقياس في
العلوم العالية . فارتفع معدل متوسط العمر وزادت الكفاية اليومية وتناقص صياح
الحياة بدءاً بسبب سوء الصحة .

من أجل ذلك كله يجتمع لنا الآن تبدل تام في الحياة الإنسانية يبلغ من ضخامته
أن يكون طوراً جليداً في التاريخ . فقد أوجد الإنسان هذه الثورة الميكانيكية فيما يرى
على القرن بقليل . وقام الإنسان إبان تلك المدة بخطوة في أحوال حياته المادية أسرع
من كل ماخطاه في جميع الفترة الطويلة المصبورة بين المرحلة الباليوليتية (العصر
الحجري القديم) وعصر الزراعة ، أو بين أيام يهي في مصر وأيام جورج الثالث
وظهر إلى عالم الوجود هيكل جديد هائل للشئون الإنسانية . ومن الواضح أنه
يتطلب إعادة تفسيق طرائقنا الاجتماعية والاقتصادية من جديد . بيد أن هذه
التفسيقات الجديدة المطلوبة قد ترتبت بالضرورة على تطور الثورة الميكانيكية ، وهي
ما تزال حتى اليوم في مراحلها الافتتاحية لما تتجاوزها .

٢ - العلاقة بين الإنقلابين الآلى والصناعى

ينجح كثير من كتب التاريخ إلى الخلط بين ما سمناه ها باسم الإنقلاب الآلى ، الذى كان شيئاً جديداً تمام الحدة فى الخبرة الإنسانية ناشئاً عن تطور العلم المنظم ، وكان خطوة جليدة نشب لإختراع الزراعة أو اكتشاف المعادن ، وبين شيء آخر غفلت تعلم الاختلاف فى مصادره وأصوله ، شيء كان له من قلى سابقة تاريخية ، هو التطور الاجتماعى والمالى الذى يسمى الإنقلاب الصناعى أو الثورة الصناعية .

كانت العمليات تسيران جنباً إلى جنب ، وكانت تفاعلان بعضهما مع بعض تفاعلاً مستمراً ، ولكنهما كانتا غطفتين لهماً وروحاً وجوهرأ . إذ لم يكن بد من أن يحدث لإنقلاب صناعى من مرجع ما ، ولو لم يوجد الفحم الحجري ، ولو لم يوجد البخار ولا الماكينات ، ولعله كان سيقتضى هذه الحالة بقية أشد ، خطى التطورات المالية والاجتماعية التى حدثت فى السنوات المتأخرة للجمهورية الرومانية . ولعله كان بعيد قصة المزارعين الأحرار المشردين عن أملاكهم ، وقصة مناصر العمال ونظام المزارع الكبيرة والثورات المالية الكبرى ، وإحدى العمليات المالية المتوضعة المجموع .

والواقع أن طريقة المصنع فلما جاءت قبل ظهور القوة والماكينات . فكان المصانع لم تكن ثمرة للآلات ، بل « لتضم العمل » . فإن العمال المبرهن المكلودين كانوا يصنعون أشياء من أشكال قبعات السيلفات وصناديق الورق القوي والآلات ويقومون بتلوين الخراط وصور الكتب وما إليها ، قبل أن تستعمل المجلات المالية نفسها فى العمليات الصناعية . وكانت هناك مصانع فى روما فى أيام أوغسطس ، فإن الكتب الجديدة مثلا كانت تلى على صفوف من الناس فى مصانع الأوراق . وسوف يدرك كل لبيب من دارسى للكتاب الإنجليزى دانيال ديفو ونشرات فيلدنج السياسية ، أن فكرة جمع الأفراد كالقطع فى أماكن لينتشلوا أحشاداً فى كتب رزقهم ، كانت لمراً سبقت معرفته فى بريطانيا قبل نهاية القرن السابع عشر . وهناك من الإشارات ما يدل على هذا حتى فى زمان يرجع فى قلمه

إلى أيام البوتويا^(١) التي أعقبتها الميرتوماس مور (١٥١٦) . كان الانقلاب تطوراً اجتماعياً وليس ميكانيكياً .

وكان تاريخ أوروبا الغربية الاجتماعي والسياسي إلى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر يرسم في الحقيقة نفس الطريق الذي سارت فيه الدولة الرومانية في القرون الثلاثة السابقة على ميلاد المسيح . وكانت أمريكا من نواح كثيرة أسبانيا الجديدة . وكانت الهند والصين مصرّاً جديدة . حل أن الإنقسامات السياسية في أوروبا ، والثورات السياسية ضد الملكية ، وحناد العامة وربما أضيف كذلك قابلية اللاداء الأوربي الغربي العظيمة لتلقى الأفكار والمستحضات الميكانيكية ، قد حولت العملية إلى وجهات جديدة تمام البحدة ، وبفضل المسيحية بوجه خاص انتشرت أفكار التراط الإنساني انتشاراً أعم وأعظم في هذا العالم الأوربي الأحدث جدّة ، ولم يكن للسلطان السياسي مركزاً إلى هذا الحد . ومن ثم سارع الفتيش من الرجال التوافق إلى التواء ، فوجه كل هم عن طيب خاطر منصرفاً من فكرة الرقيق وناصر التمال إلى فكرة القوة الميكانيكية والماكنية .

أما الثورة الآلية (الميكانيكية) أي عملية الإختراع والاكتشاف الآلي ، فكانت شيئاً جديداً في الخبرة الإنسانية ، وقد سارت في سبيلها غير حابئة بالمواقب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والصناعية التي عصى أن تثرب عليها . فأما الثورة الصناعية من الناحية الأخرى ، شأن معظم الشؤون الإنسانية الأخرى ، فقد لم بها وما يزال يلم بها الصيق المتكاثر من التعبير والإنحراف بسبب التغير المستمر في الأحوال الإنسانية الناشئة عن الثورة الميكانيكية . ويتحصّر الفلوق الضروري بين اختزان القاطع للقطرة من الأموال ، وإيادة حصار للزارعين وصغار رجال الأعمال ، وطور المالية الكبيرة في القرون المتأخرة للجمهورية الرومانية من ناحية ، وبين الحالة لشديدة المائلة لتلك والتي قوامها تركز وموس الأموال في القرن الثامن عشر

(١) البوتويا : جزيرة عمالية تصورهما الميرتوماس مور حلوة لأكل التظم السياسية والدينية والقانونية والاقتصادية . واسمها الأصل بالبرية الطويل . (القديم)

وقلتع هشر من الناحية الأخرى ، ينحصر في الفارق العميق في خصائص العمل التي كانت الثورة الميكانيكية محدثها .

كانت القوة في العالم القديم هي قوة الإنسان ، فكان كل شيء يعتمد اعتماداً مطلقاً على قوى الدفع في العضل الإنساني ؛ عضل الجهلة ولقهورين من الرجال . وكان قليل من العضل الحيواني قوامه ثيران وحيل البحر وما إليها يضاف إلى عمل الإنسان . فأنى كان هناك حبل لابد من رفعه قد كان للرجال هم الذين يرفعونه ، وأنى وجب أن يقطع حجر ، كان للرجال يقدونه ، وأنى لزم حرق حقل من الحبوب ، كان للرجال والثيران يحرثونه ، وكان المبادل الروماني السفينة الحربية هو الغليون (Galley) أى السفينة القديمة بما فيها من صفوف المجدفين المكشوفين

وكانت نسبة ضخمة من أفراد البشرية تستخدم في المدينيات الأولى في العمل الشاق الآلي البحت . والمكينات المدفوعة بالقوة لم يبد فيها عند البداية ما يبشر بأمل في فكك الإنسان من رتبة مثل هذا السناء العضلي الذي لا ركاه فيه . فكانت جامعات عظيمة من العمال تستخدم في حمر القنوات ، وفي عمل مطوح السبك الحديدية وجسور (١) الأنهار وما إليها . تزايد عند عمال للتخمين تزايداً هائلاً . ولكن اتساع التسهيلات وإنتاج السلع تزايد أكثر من ذلك جلاءً ومع مضى الزمن بالقرن التاسع عشر أخذ المطلق البسيط الواضح للموقف الجديد يثبت وجوده بشكل أشد وضوحاً . فلم تعد الكائنات الإنسانية تطلب بعد ذلك بوصفها مصدر قوة لا يبر بين مبرراتها أحد . إذ كان ما يمكن صناعه آلياً بواسطة الكائن الإنساني ممكناً صناعته أسرع وأجود بواسطة الآلة ، ولذا لم تعد هناك الحاجة إلى الكائن الإنساني الآن إلا حيث يتطلب الأمر الاختيار والذكاء . فكان الكائنات الإنسانية لم تعد تطلب إلا بوصفها كائنات إنسانية لا غير . فلما ذلك السيف (٢) المشتغل بالأعمال الشاقة التي غامت على أكتافه كل المدينيات السابقة ، ذاك الكائن المخلوق لجرد المطاعة ،

(١) الحور ليب حاسن الكبارى بن بالى الذي يقال عنه في مطلع أول عصر الكور .

(كثر سم)

(٢) سيف (Dreadnaught) : عامل بناء سلكه ويرفق بالذخيرة المجهز من الأطلال (المرجع)

ذلك الإنسان الذي كان عقله شيئاً لا لزوم له - فقد أصبح غير ضروري لرفاهة الإنسانية .

وصدق هذا على الصناعات الحثيثة كالزراعة واستخراج المادن صدقه على أحدث عمليات التجهيز في المدييات . فأما الحرث والذر والحصاد فقد ظهرت لها آلات سريعة تعمل عمل عتبرات الرجال . وفي هذا الميدان تزعمت أمريكا العالم القديم . وكانت الحصاراة الرومانية تقوم على كائنات إنسانية رخيصة منسقة عن مكانها ، والحصاراة المصرية يمد بناؤها على القوة الميكانيكية الرخيصة . إذ جاءت مئة من البنين لطرد ألف رخص القوة وغلاء العامل . فلئن اضطرت الماكينات أمد جيل أو بعض جيل أن تنتظر دورها في المنجم ، فإن ذلك كان مجرد أن الرجال ليثوا ودحوا من الرمان أرخص من الماكينات . فكانوا يقدرون في يورثمبرك وديرهام في أيام استخراج الفحم الأولى تقديراً يبلغ من الرخص والحطة أنه لم يجر العادة بإقامة التحقيق حول أبعاد القتل في كوارث المناجم . وكانت الحاجة إلى تقانات المهال ماسة لتغيير حالة الأمور هذه .

ولكن هذا الاتجاه العام نحو إكمال العمل اليدوي والقفضاء عليه بواسطة الآلات ، كان انقلاباً ذا أهمية من اللوعة الأولى تماماً في الشؤون الإنسانية . وكان أهم ما يشغل بال الفئ والحاكم في المدينة القديمة أن يحفظ بمقد منواصل من الصماء المشتط بالاعمال الشاقة . إذ لم يكن هناك أي مصدر آخر لقراء . فلما تناول العهد ما القرن التاسع عشر أعطت زهاد وضوحاً لدى القوم الأذكىاء الموجهين للاختارين ، الفكرة القائلة بأن الرجل العادي لا بد له الآن من أن يكون شيئاً أحسن من فاعل حبيب يكندج . فكان لا بد من تعليمه الحصول على الكفاية الصناعية على الأقل . وكان لا بد له من أن يفهم ما عليه حال الدنيا .

وقد كان الصليم الشعبي منذ أيام الدعاية المسيحية الأولى ، نأراً تنفذ تحت الرماد في أوروبا ، كما كانت تنفذ تحت الرماد في آسيا حينما وصح الإسلام قدمه ، بسبب الضرورة القاضية بجعل المؤمن على شيء من الفهم للفتيلة التي تنقل روحه ، وتمكينه من قراءة ما تيسر من الكتب المقدسة التي تحمل إليه اعتقاده . وقد أدت المحصورات

بين الطوائف المسيحية وما صاحبها من تنافس على الانتصار ، إلى حرث القرية وتمهيدها ليلز بلور التعليم الشعبي العام . فقد حدثت في إنجلترا مثلاً عندما ضرب القرن التاسع عشر في حقيقته الرابع والخامس ، أن أنتجت تنازعات الطوائف وضرورة الإستحواذ على الأنصار صغاراً ، وفرة في المدارس الليلية ، ومدارس الأحد وسلسلة من الميئات التعليمية للأطفال ، والمدارس الربطانية غير المتسمة إلى أية طائفة دينية والمدارس القومية التابعة للكنيسة ، بل حتى المدارس الأولية الكاثوليكية .

وكان أصحاب المصانع الأثقلون عهداً والأقل استقارة وعلماً يكرهون هذه المدارس ويحاولونها لمضيق أنفسهم حتى من النظرة الخاصة إلى مصالحهم الخاصة . وفي هذا المجال أيضاً ترعنت ألمانيا الفقيرة الأكثر جبراً منها ثروة وسرعاد ما وجد المعلم اللدني في بريطانيا أن طائفي الكاثوليك قد انحازوا إليه ، وقد غلبهم شغف غير متوقع إلى تعليم عامة الناس ، وإلا لفلل في تدريسهم ، إلى مستوى أعلى في الكفاية الاقتصادية والإنتاجية .

وكان النصف الثاني من القرن التاسع عشر فترة تقدم سريع في التعليم الشعبي العام في كل أرجاء العالم المصطح بالصياغ القريب . ولم يصبح هنا تقدم مماثل في تعليم الطبقات العليا - ولا ريب أن قد حصل شيء من التقدم ولكنه ليس شيئاً يعادل ذلك ويغايه - وما لم يعد ذلك الحدود العظيم الذي كان حتى حين يقسم العالم إلى الطبقة الثروة والمجموعة غير الثائرة ، يربد كثيراً من طرف ضئيل جداً في المستوى التعليمي . وكانت الثورة الميكانيكية تقف من وراء هذه العملية وكانت تسير غير عابثة في الظاهر بالظروف الاجتماعية ، ولكنها مصيرة في الحقيقة لإصراراً عتيقاً على إلغاء الطبقة الثامة الأمية في كل أرجاء العالم إلغاء كاملاً .

ولم يستطع عامة سكان روما بأية حال فهم الثورة الاقتصادية في الجمهورية الرومانية فهماً واضحاً . فإن المواطن (المأذن) الروماني العادي لم يرهط التخبرات التي كان يعيش فيها وروية واضحة مفهومة كما نراها نحن الآن . على أن الثورة الصناعية وهي تتمضي في سبيلها قرب نهاية القرن التاسع عشر ، كانت واضحة لأعين العامة الذين كانت تؤثر فيهم ، وكانوا يعرفون أنها عملية واحدة متأسكة :

لأنهم كانوا قد أحلوا الوقت يستطيعون القراءة والمناقشة والتواصل ، ولأنهم كانوا يضربون في الأرض ويرون الدنيا على شاكلة لم تصل إليها فئة من العامة قبلا . ولقد حرصنا في هذه « معالم التاريخ » أن نؤمّن لك إلى الظهور للتاريخي العامة بوصفهم طبقة لها إرادة مشتركة ومفكرات مشتركة . ومن رأى الكتاب أن الحركات الضخام العامة الناس فوق مساحات حسيمة ، لم تصبح في الإمكان إلا نتيجة لدبائقي الدعاة : المسيحية والإسلام ، وإصرارها على الاحترام الذاتي للفرد . وقد سقنا قصة عامة الحرب الصليبية بوصفها عمزاً لدور حديد من أدوار التاريخ الاجتماعي .

غير أن هذه الحركات الضخام بذاتها كانت قبل القرن التاسع عشر ، محدودة نسبياً . ولكن فتن الفلاحين المطالبة بالمساواة ظلت انتدماً من زمان ويكيليف فما عقبه ، مقصورة على مجتمعات الفلاحين في مواضع محلية محدودة ، ولم تقتصر إلا على بطء إلى نواح تؤثر فيها مؤثرات مشابهة . أجل إن صناع المدن كثيراً ما كانوا يشغبون ، ولكن ذلك كان شتاً محلياً محضاً .

ولم يكن إحراق القصور في الثورة الفرنسية من عمل فلاحين قد قلبوا حكومتهم ، بل من عمل فلاحين أطلقهم من قيودهم قلب حكومتهم . وكان « كومبون » باريس أول ظهور فعال لصناع المدينة بوصفهم قوة سياسية ، وكان الجمهور الباريسي في الثورة الأولى جمهوراً شديد الخلط بدلائل التفكير متوحشاً ، بالموازنة إلى أي جمهور أوردني بعد (١٨٣٠) .

حل أن الثورة الميكانيكية لم تقتصر على إدخال التعليم قسراً على السكان كثافة ، بل كانت مؤدية إلى وأعمالية كبيرة وإلى إعادة تنظيم كبير المعمار للصناعة قدر له أن ينتج في العامة نظاماً من المفكرات جديداً يميزاً بدلاً من مجرد العناد الفلاني والثورات الأولية التي تحدث من دهام أميين .

ولقد سبق أن لاحظنا كيف شفت الثورة الصناعية الطبقة الصانعة ، التي كانت حتى حين ضرباً من طبقة متوسطة مختلطة ، - إلى نوعين من الطبقات ، هي أصحاب

الأعمال للذين ينفوا من الرأى ما يمكنهم من الإختلاط بالطبقات المالية والتجارة وصاحبة الأراضي ، والمستخدمين (العمال) الذين كانوا ينتقلون إلى حالة تقرب رويداً رويداً من حالة مجرد عمال المناسر والزراعة . وبينما كان العامل الصناعى بسيط ، كانت ترتفع قيمة العامل الزراعى بسبب إدخال الآلات الزراعية والزيادة فى قوة إنتاجه الفردى .

وعند منتصف القرن التاسع عشر ، كان كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) وهو يهودى ألماني بلغ بسطة عظيمة من العلم ، قد أخذ يذير إلى أن تنظيم الطبقات العامة على يد جماعة ملاك ورأس المال المتزايدى التركز تزايداً متواصلًا مستمرًا ، كان يطور تصميماً اجتماعياً جديداً يحل أنظمة طبقات الماهى الأكثر تعقيداً . ذلك أن الأملاك بالقرن الذى هى به قوة ، كانت تجمع بعضها إلى بعض فى أيدي قليلة نسبياً ، هى أيدي كبار الأغنياء ، أى طبقة الرأسماليين ، على حين كان ينتج هناك إختلاط عظيم فى العمال الذين لديهم القليل أو ليس لديهم شيء من الأملاك ، الذين كان يسميهم باسم « أصحاب الأملاك سابقاً » أو « البروليتارية »^(١) - وهو استعمال خاطئ لهذه الكلمة - وهم الذين لا مناص لهم سبب تنازع مصالحهم ومصالح الأغنياء من أن يطوروا ، وحيثاً متوكلًا ، بين أفراد طبقتهم .

وقد جاء على الناس ودح من الزمان بدا لم فيه أن الفولوق فى التعليم والتقاليد بين العناصر الاجتماعية المتووعة الأقدم عهداً ، والى كانت نمر فى عملية الصهر والخلط بعضها ببعض لتصبح الطبقة الجديدة طبقة (أصحاب الأملاك سابقاً) ، - قد أدخلت تناقض هذا التعميم الجارف . فكانت تقاليد أصحاب الحرف وصغار أصحاب العمل والمزارعين القلائحين ومن إليهم تختلف حتماً بعضها عن بعض وعن التقاليد الحرة المتووعة للعمال . ولكن هذا التعميم ، الماركسى ، يصبح الآن مقبولاً أكثر فأكثر مع انتشار التعليم وروخص ثمن الكتب .

(١) البروليتارية (Proletariat) : هى الطبقات الدنيا أو عامة الشعب أو العمال . وهى كلمة مشتقة من اللغة اللاتينية (Proletaria) ، ومعناها مواطن من أدنى طبقة . يحتم الدولة لا يتأهله بل سسله (١٩٠٤) . وس تم يثير الخوف إلى المقارنة بين استخدام المصطلح قديماً وحديثاً . (المرحم)

هذه الطبقات التي لم يكن يربطها في أول الأمر رابط غير مفر مشترك أصابعهم جميعاً على السواء ، كانت ولا تزال تنحصر عن نفس مستوى الحياة أو ترتفع إليه ونحصر على قراءة نفس الكتب والاشتراك في نفس المصنفات . ومن ثم فإن شعوراً من الناسك بين كل أنواع الرجال الفقراء الذين لا أملاك لهم ضد الطبقة التي تكلمن الأرباح وتمركز الثروة ، قد أخذ يرداد وضوحاً أكثر فأكثر في عالمنا هذا . فإن اصوارق القديمة تدعى : يذهب الفارق بين رب الحرفة ، العامل في المعراء . وبين الموظف صاحب السرة (الخاكمة) السوءاء والعامل صاحب معطف العمل الورق (المبرنة) ، وبين القسيس الفقير ومعلم المدرسة الأولية ، وبين رجل الشرطة وسائق الأومنيبوس . فلا بد لهم جميعاً من مشى بعض الأثاث الرخيص ، ولا بد لهم من سكنى البيوت الرخيصة المتشابهة . ولا بد أن يحتل أبناءهم ونساءهم جميعاً ويتزوجوا بعضهم من بعض . ويصبح النجاح في المستويات العليا أمراً يتقطع دونه أكثر فأكثر أمل

عند الناس . وتثور الحوادث كل يوم أكثر فأكثر آراء ماركس الذي لم يدافع عن حرب الطبقات قدر ما ثلأها ، وهرب من حرب الطبقات الحرب التي نشنها طبقة « أصحاب الأملاك سابقاً » على الأقلية التي لا يرح تملك الأملاك . وقد ينزع بعضهم أحياناً في جهله ضد ماركس بأن نسبة الناس الذين لهم مدخرات مستكملة قد تزايدت في كثير من المجتمعات



(شكل ١٩٢ ، كتاب ماركس)

العصرية . لهذه المدخرات هي من ناحية الفنية التكتيكية ، وأسماء ، وأصابعها إنما هم « رأسماليون » على ذلك المتوال . ونظي أولئك أن هذا باقضى بيانات ماركس الفائلة بأن الملكية تتمركز في أيد تتقل في عددها من القليل إلى الأكثر .

وكان ماركس يستعمل كثيراً من مصطلحاته بلاعتابة ويسمى « إختبارها » وكانت فكراته خيراً من ألقاطه . فقد كان عندما يكتب « الأملاك » يعنى « الأملاك إلى الحد الذى هى به قوة » . وللمستثمر الصغير قوة صغيرة صغراً ملحوظاً على رأس ماله المستثمر .

٣ - اختصار الفكرات فى ١٨٤٨

لا شك أن من أخطر الأمور تعقب للعالم الإيجابية لاختصار الأفكار التى كان يحدث أثناء الإقلايين الآلى والصناعى فى القرن التاسع عشر . على أنه لزام علينا أن نحاول ذلك إن نحن شئنا أن نربط بين ماضى حدوثه فى هذا التوسيع وبين حاله حالنا اليوم .

ومن المثلب أن نميز بين فترتين رئيسيتين فى السنوات المئة الممتدة بين (١٨١٤) ، (١٩١٤) . فمدجامت أولاً الفترة بين (١٨١٤ - ١٨٤٨) ، وفيها حدثت تغير جسم جلد من التفكير المحرور والكتابة الأسمية المحررة فى حوارات متعددة ، ولكن لم تحدث فيها أية تغييرات عظيمة أو تطورات كبيرة فى الفكر بين كتلة الشعب العامة . وكانت شئون العالم تلك الفترة تعيش - إن جاز لنا مثل هذه العبارة - على رأسها اللغز القديم ، فلها كانت تمضى وفق الأفكار الرئيسية « الثورة » و « الثورة » الرجعية « المضادة » . وكانت الأفكار التحررية السائدة هى الحرية وضرب مبهم بعبء من فكرة المساواة . وكانت أفكار المحافظين هى الملوكية ، والديانة المنظمة ، والامتيازات الإيجابية والطاعة .

وكانت روح المقاومة المفضلة حتى (١٨٤٨) ، وهى روح من ريف تكاثر لمع أى انتعاش الثورة الأوربية التى غلبها نابليون وأرجعها أدراسها . ومن الناحية الأخرى كانت الثورة فى أمريكا يجزئها الشمال والجنوب ، قد انتصرت . وكانت الروح التحررية فى القرن التاسع عشر تسودها لا ينازعها هناك منازع . وكانت بريطانيا قطراً قطعاً ، لا هى تميل بولائها تمام الميل إلى الرجعية ولا تميل به تمام الميل إلى حركة التقدم ، ولا هى صادقة فى روحها الملكية ولا صادقة فى روحها الجمهورية فكانت أرض كروموويل وكذلك كانت أرض الملك المرح شارل ، وكانت مضادة للمسا :

ومضادة لآل بوربون ، ومضادة للبابا ، ومع ذلك فإن روح التمتع فيها كانت ضعيفة . ولقد حدثناك عن أول سلسلة من عواصف التحرر في أوروبا في (١٨٣٠) وحواليها وصولاً إلى بريطانيا في (١٨٣٢) مشروع قانون إصلاح يوسع حق الانتخاب توسيعاً عظيماً ويمهد إلى مجلس العموم شيئاً كثيراً من خصيصات الملكية ، فحذف كثيراً من توتر الموقف .

وجاءت قرابة (٨٤٨) وحواليها مجموعة ثانية من الإعجازات أشد من الأولى خطورة بكثير ، أغضت إلى خلق ملكية آل ، أورليان ، ، وتأسيس جمهورية ثانية في فرنسا (١٨٤٨ - ٥٢) ، وأثارت شمال إيطاليا وأخير ضد النمسا ، وأماحت البولنديين في ، يوزن ، على الألمان ، وحملت البابا يفر من وجه الجمهوريين في روما . وعقد في براج مؤتمر شائع جداً هو مؤتمر الكتلة الثلاثة الذي تطفل مقلماً كثيراً من تلك القسريات والتعديلات الإقلبية التي تمت في (١٩١٩) . وانفض المؤتمر بعد أن قمت الجنود الصربية عصباناً شب في براج . فأما المصعبان المنظرى فكان أشد قوة فواصل الكفاح سثن . وكان زعيمه الأكبر هو لويس كوسوف . ولم يبرح بعد أن دحر ونفى ، يواصل دهابة عظيمة في سيل حرية وطننا وقومه .

وقد أخفقت كل هذه الفتن في النهاية إخفاقاً تاماً . وتربع النظام القائم ولكنه ظل واقفاً على قدميه . ولا ريب أن هذه الفتن كانت ورامعا تدمرات اجتاحت خطورة ، ولكن لم تكن طله الثورات حتى آنذاك ، اللهم إلا في حالة باريس ، أية صورة واضحة ملموسة . وأحسن ما يقال عن عاصفة (١٨٤٨) هذه - بقدر ما يسم أوروبا - أن تنعت في كلمة واحدة باسم ثورة التريطة للسياسة الطبيعية ، على الترتيبات الإصطناعية للديموقراطية ، وعلى نظام التمتع الذي ترتب على تلك الترتيبات .

ومن ثم يكون تاريخ أوروبا من (١٨١٥ - ١٨٤٨) على وجه العموم ، لاحقا لتاريخ أوروبا من (١٧٨٩ - ١٨١٤) . ولم يكن ينطوي على أية أفكار جديدة حقاً وما يبرح رأس المتاعب هو الكفاح بين مصالح الرجال العاديين وبين نظام

الدولة العظمى التي أرهقت بالضغط حياة البشرية وقيلتها - وإن يكن في الكثير من الأحيان كفاً أعمى سيء التوجيه .

ولكن حدث بعد (١٨٤٨) ، أي من (١٨٤٨ إلى ١٩١٤) أن عملية إعادة تسمية الخريطة إعادة توجه إلى إبعاد إيطاليا حرة موحدة ، وألمانيا موحدة ، تواصلت ولم تقف عند حد . فقد بدأ دور جديد في عملية التكيف النفسي والسياسي وفق ما بلغت البشرية من المعرفة الجديدة والقوى للمادة الجديدة . ثم حدث انضجار عظيم لفكرات الجديدة الإجتماعية والدينية والسياسية ، تغلغل بها في العقل الأوروبي العام . وسوف تأمل في الأقسام الثلاثة التالية مصادر هذه الإنفجارات ونوعها ذلك بأنها وضعت لنا الأسس التي تبقى عليها اليوم فكرنا السياسي ، غير أنها ظلت زماً طويلاً وليس لها أثر كبير على السياسة المعاصرة . فاستمرت السياسة المعاصرة تجري على السن القديمة . وإن داخل الوهن المتواصل ما لها من دعة في ضمائر الناس واحقادهم الفكرية .

ولقد وضعنا لك آنفاً الطريقة التي قوضت بها إحدى العمليات الذهنية القوية نظام الملكية العظمى بغربنا قبل (١٧٨٩) . وتمت عملية تفويض عمالة كانت تجري في أرجاء أوروبا إبان فترة العول الكبرى من (١٨٤٨ - ١٩١٤) . إذ انتشرت في كل أرجاء الحياة الاجتماعية شكوك عميقة حول نظام الحكومة وحول مدى الحريات التي لكثير من أشكال الملكية في النظام الاقتصادي . ثم جاءت حرب هي أعظم حروب التاريخ وأشدّها تدميراً ، ومن ثم استحال على الذين عاشوا بعينها مباشرة أن يقدروا قوة وعجالة الفكرات الجديدة التي نجمت في هذه السنوات الست والسبعين . ففقدت الدنيا في علة كبرى أعظم كثيراً ، حتى من الكارثة التابيلوية نفسها ، وما نحن إلا في فترة راحة بين المد والجزر مقابل فترة (١٨١٥ - ٢٠) وتمت إليها بسبب . وما زلنا نتوقع أن تأتينا سنناً (١٨٣٠ ، ١٨٤٨) المتاصيين بنا وبالقرون العشرين فكشفتان لنا أين نحن وقوف .

٤ - تطور فكرة الاشتراكية

فكونا في كل أرجاء هذا الكتاب التضييق التدريجي الذي حققته فكرة الملكية منذ الإدماء الأول غير المحدود للرجل القوي على ملكية كل شيء ، ومنذ إدراك الناس تدريجياً لفكرة الأخوية بوصفها شيئاً يسمو على البحث الشخصي عن الذات . وقد بدأ الأمر بأن أخضع الناس بدافع الخوف من الملك والله ، لسلطان شيء أعظم من المجتمعات القبلية . ولم يحدث إلا في خلال الآلاف الثلاثة أو على الأكثر الآلاف الأربعة الأخيرة من السنين ، أن نأياً لنا برهان واضح يدل على أن نكران الذات الإختياري في سبيل غاية أعظم ، وبغير أجر يرجى أو ثواب يضطر ، كان فكرة مقبولة لدى الناس ، أو أن أي إنسان قد قام بطرحها على الناس

ثم إننا نجد شيئاً ينتشر على وجه الشؤون الإنسانية ، كما تنتشر رقاع من ضياء الشمس ثم نمر فوق جوارب التلال في يوم ديع من أيام الربيع ، هو الفكرة القائلة بأن في التضحية بالنفس سعادة أعظم من أي لذة ضياء دالي أو انصراف شخصي ، وحياة بشرية غنيفة وأعظم قدراً وأكثر أهمية من صفات مجموع حياة الأفراد الذين يوجدون في مطاقها ، ورأينا هذه الفكرة تصحح وهاجة كالكثير من ناصعة تصاحبة ضياء الشمس حين تلتقط إحدى الفرائد وتمسكه على منظر طبيعي ضهر به الأبصار ، وأبناها في تعاليم « يودا » ، « ولاوتسي » وبوجه أشد ما يكون وضوحاً في تعاليم « يسوع » الناصري .

ولم تفقد المسيحية قط أثناء كل ما ألم بها من التغيير والفساد بارقة إخلاص للملكوت الرب تجعل بلخ الملوك والحكام الشخصي أشبه الأشياء بوقاحة خادم أفرط في أناقة ثيابه ، وتجعل أمة الأترياء وإشباعهم لشهواتهم أشبه شيء ببليز القصوص . وما من رجل يعيش في مجتمع معه أتمل ديانة مثل المسيحية أو الإسلام ، بمسحج أن يكون عبداً تام العبودية . فإن في هاتين الديانتين صفة لا تمنح نعيم الرجال على إصدار الأحكام على ساداتهم وعلى تحقيق مسئوليتهم الخاصة نحو العالم .

وبينما كان الناس يتلمسون طريقهم نحو حالتهم الفكرية الجديدة متقبلين إليها

من حالة الشر الأتاني العنيف وروح القتال الغريزية الشرسة في جماعة المائكة البابلونية الأولى ، فإنهم جهلوا أن يعبروا من اتجاه أفكارهم وضرورياتهم تعبداً متخلفاً جداً . ووجدوا أنفسهم على خلاف وفي نزاع مع الأفكار القديمة للقررة . وكانت بهم نزعة طبيعية لمناقضة هذه الأفكار مناقضة صريحة ، والوثوب من فوقها إلى عكسها للطلق .

وقد قامت الحركة الأولى بسرعة نائلة الصبر ، فأعلنت أنها تهدف إلى مساواة شاملة ، ولكن غلبتها والحق يقال الفوضى الشاملة ، خاصة وقد واجهها علم ، الحكم فيه والطبقات والنظام تبدو جميعاً وكأنها لا هم لما إلا إنشاء القصر للأثنية المحتصة والظلم الفاجر . وواجهها علم تبدو فيه الملكية أنها لا تزيد كثيراً من وقاية للأثنية ووسيلة إلى الاستعداد ، وكان من الطبيعي أيضاً أن يجحد كل ملكية .

وبين لنا تاريخنا أن هناك على الدوام دافعاً متزايداً يدفع الناس إلى الثورة على الحكم وعلى الملكية . وقد تعقبت ذلك الدافع في القرون الوسطى ، وهو يجرى قصور الأغنياء ويجرب التجاريب في الشيوعية^(١) . وكان هذا التمرد المزدوج واضحاً جلياً في الثورات الفرنسية . فإنا نجد في فرنسا رجلاً يصرحون وأحيانهم سلطة على ضرائب الحكم ، بأن الإمبراطور حرمة يجب ألا تفك ، كما يجحد آخرين يصرحون وأبصارهم شائعة إلى مساومات صاحب العمل الخاصة أنه يجب أن تلقى الملكية . وهم يمشون جيئاً إلى جنب ويستطعمون جميعاً نفس الروح القواحدة ، كل أنهم أعضاء طيحيون في الحركة الثورية نفسها . ولكن ما كانوا في كلا الحالين لاثنين عليه إنما هو أن الحكم وصاحب العمل ، لا يزلون كضوم من البشر أفراداً اثنين يمشون عن خير أنفسهم ويظلمون الناس بل أن يكونوا محطاً للجميع .

وإنا نجد هذا الاعتقاد ينمو في أذهان الناس على مر العصور . وهو أن في الإمكان قيام ذلك التنظيم الجليل للقوانين والسلطات قيماً يقدم للناس الحكم

(١) الشيوعية (Thoucrey) : حكومة تأسس على أدلة مدع سلطتها (القرم)

والنظام ، بينما هو لا يبرح يصعد أنانية أى حاكم وأية طبقة حاكمة قد تكون ضرورية ، ويزود الناس بذلك التعريف للملكية الذى يمنح الحرية من غير قوة ظلة . وقد شرعنا ندرك فى أيامنا هذه أنه ليس فى المستطاع بلوغ هذه الغايات إلا بمجهود إنشائى مركب ، فإنها تنشأ بسبب منازعات الحاجات الإنسانية الجارية ضد الجاهالة والطبيعة الإنسانية القديمة ، بيد أنه شاع طوال القرن التاسع عشر ميل مسير ثابت إلى حل المسألة يحض الحلول البسيطة . (ليكون الناس سعداء إلى أيد الأبدن ، وذلك بغض النظر عن أن الحياة الإنسانية كلها ، بل والحياة عامة ، ليست على مر العصور إلا محاولة متواصلة لإيجاد حل لمشكلة معقدة مستمرة) .

وقد شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر عدداً من التجارب فى تكوين جماعات إنسانية تجريبية قاب نوع جديد . ومن أهم تلك التجارب من الناحية التاريخية ، تجارب وفكرات روبرت أوين (١٧٧١ - ١٨٥٨) ، وهو فزأل قطن من مانشستر . هو بعد بوجه عام المؤسس للاشتراكية المصرية . ونشوء كلمة الاشتراكية ، لأول مرة إنما كان بالملاقة إلى عمله حوالى (١٨٣٥) . ويلوح أنه كان رجلاً من رجال الأعمال على غاية من الكفاية . فإنه ابتكر عدداً من المستحاثات فى صناعة غزل القطن ، وجمع ثروة لا بأس بها فى سن مبكرة . وقد أحزنه ضياع ما فى عماله من احتمالات بشرية بلداً ، فتعصب نفسه لتحسين حالهم وتحسين العلاقات بين صاحب العمل والعمال . فجهده أن ينفذ ذلك أولاً فى مصنعه بمانشستر ثم فى نيولانارك بعد ذلك ، حيث ألقى نفسه متصرفاً بالفعل فى مصانع تستخدم ألفين من الأفراد .

وتوصل بين (١٨٠٠ ، ١٨٢٨) إلى أمور ضخمة جداً . فإنه أنقص ساعات العمل ، وجعل مصنعه صديقاً مقبولاً ، وألقى استخدام الأطفال صغار السن جداً ، وحسن تلويب عماله وزود العمال بأجور البطالة أثناء فترة كساد فى التجارة ، وأسس مجموعة من المدارس ، وجعل من نيولانارك مثالا يحتذى لحركة عمالية صناعية أحسن وأطيب ، على حين كانت فى نفس الوقت تحافظ على رخايتها الجارية . كتب كتابات قوية ملهماً عما كانت تبهم به أغلبية البشرية من

الإفراط في السكرات وعدم البصر في العواطف . التي كان أهل مصر يتخلون



منها مبروراً يعمرون به عظام
الزمان . وكان يرى أن الرجال
والنساء هم في أكبر شأنهم حمرة
ليبتهم الطعينة ، وهي مسألة
لا تحتاج فكرتها اليوم إلى من
يحاج عنها . ثم نصب نفسه
للقيام بالدعاية للنظريات التي
أثبتت صحتها تجربة تيولاندرك .

وكان ما عليه إخوانه أصحاب
المصانع من تكامل ألقى :

(شكس ١٩٢) روبرت آدم

وفي ١٨١٩ صدر أوب : قانون

للمصانع : بناء على إلحاحه في طلب إنشاء ، وهو أول محاولة للحد من استغلال
أصحاب المصانع باجتناء أفدح الفوائد بكل غناء وجر المعام من وراء فقر عمالهم .
وإن من بين قيود ذلك : القانون : ما يسجل اليوم إلى أذهاننا أعظم اللذول .
إد يكاد يكون مما لا يصدق به عقل أن تقوم يوماً ما ضرورة تدعو إلى حماية
الأحداث الذين في التاسعة من العمل في المصانع . أو تحديد ساعات العمل الإسمية
لمثل أولئك العمال مائتي عشرة ساعة .

وربما أغفل بعض الناس فجنح إلى الكتابة عن الانقلاب الصناعي (الثورة
الصناعية) كأنها كانت هي السبيل إلى استرقاق الأطفال المساكين وتشغيلهم فوق
طاقاتهم . وأهم كانوا حتى ذلك الحين سعداء أحراراً . على أن هذا أمر يفهم
التاريخ تفسيراً خاطئاً . إذ أن الأطفال الفقراء الصغار ظلوا منذ بدايات المدنية
ذاتهم يعمرون دائماً على القيام بأي عمل يستطيعون أداءه . ولكن نظام المصنع جمع غناء
الأطفال هذا كله في صعيد واحد وجعله شيئاً نظاماً واضحاً للعين يجر من وراءه
العار والشار . وتحدى نظام المصنع في هذه النقطة ضمير الإنسانية الناهض الأخذ

بأسباب الانهيار . وكان « قانون المصانع البريطاني » في ١٨١٩ ، وإن بدا لأخيه
ضعيفاً هزئياً ، هو العهد الأعظم « Magna Charta » العقولة . ومن بعدها ابتدأت
عملية حماية أفعال الفقراء ، من الكد في أول الأمر ثم من الخروج النهائي الشديد
ومن الجهل .

ولسنا بمستطيعين أن نفصل لك في هذا لقيام القصة الكاملة لحياة أولين
وأفكاره . فإنه كان يحس أن عمله في نيولانارك لا يتجاوز مجرد محاولة في حلود
تخفيف صعب . كان يذهب إلى أن ما يستطيع عمله لجميع صناعي ، يمكن أن ينسحب
على كل مجتمع صناعي آخر في البلاد . وكان يدافع مطالباً بإعادة إسكان السكان
الصناعيين في مدن على غرار ما حدث في نيولانارك .

ومضت فترة من الزمان تُخيل للناس أثناءها أنه استولى على غياد العلم .
فناصرت صحيفتا التيسس والمورننج بوست مقترحاته . وكان من بين زوار نيولانارك
الفرنديوق نقولا ، الذي خطف الإسكندر الأول على عرش الروسيا ، وكان فوق
كنت اين جورج الثالث ووالد الملكة لكوريا صديقاً حميماً له . ولكن كل أعداء
التغيير وكل من يؤسوس له الشيطان حسد الفقراء - ولعلنا خلا زمان من عدد وغير
من هؤلاء - وكل أصحاب المصانع الذين كانوا عرضة للمضايقة بسبب مقترحاته
كانوا يظلمون ذريعة بهاجونه بها ، وقد وجعلوا في تعبهم عن آرائه الدينية ،
التي كانت معادية للمسيحية الرسمية ، وبهذا للأخذ نيج أعداؤه في الكيد له وتعقبه .
ولكنه واصل عمله في تطوير مشروعاته وتجاريه ، التي كان أهمها مجتمعاً في
نيوهامون بولاية إنديانا بالولايات المتحدة ، أضع فيه معظم وأعماله . فاشترى
منه شركاؤه نصيبه في مصنع نيولانارك وأخرجوه في ١٨٢٨ .

وقد ذاعت تجارب أولين ومقترحاته ذيوحاً متراًباً جداً ، وهي لا تقع تحت
مبدأ معين بفرده . ولم يكن يحيط به شيء من جبر الرجل النظري خبر العمل .
وكانت تجربته في نيولانارك أول تجربة في عدد من الأعمال الخيرية في العالم .
ولما نجح مدينة الورد ليقرهولم المساة بورت سانلايت ، وعلمية كاد بوري المساة
بورنيل ومصانع فررد في أمريكا أمثلة عصبة واقراباً من الشيوعية . وكانت

مقترحاته المتعلقة بالتسويات التي تقوم بها الدولة هي ما قد نسميه اليوم باسم الاشتراكية الدولة . وتشير تجربته الأمريكية وكتابات الأخيرة إلى شكل للاشتراكية أكثر كمالاً فيه مزيد من التقدم من حالة الأمور الراهنة .

وواضح أن لفظة العملة قد فعلت بالأمم . فإنه أدرك أننا لا نستطيع أن نأمل في العدالة الاقتصادية الحقة ، بينما نحن نلعب مقابل العمل نقوداً ذات قيمة متأرجحة ، - إلا بمغفل ما نرجو وجود عالم منظم المواعيد إذا كان طول الساعة الزمنية مختفياً في كل آن . ومن التجارب التي قام بها أنه حاول نشر أوراق للعمل تمثل ساعة واحدة أو خمس ساعات أو عشرين ساعة من ساعات العمل . وقد نشأت الجمعيات التعاونية لهذا الزمان - وهي جمعيات أناس فقراء يتحد لشراء والتوزيع الجمعي للضروريات ، أو للصناعة الجماعية أو صنع الأكبان أو أشكال أخرى من أشكال الزراعة ذات اللون الجماعي ، - نشأت مباشرة من ابتذالاته ، وإن انتهت الجمعيات التعاونية الرائدة في زمانه إلى الفشل . حتى أن الجمعيات التي عطفها انتشرت في كل أرجاء العالم ، ويبلغ عدد أنصارها اليوم ثلاثين وأربعين مليوناً .

وهناك نقطة جديرة بالملاحظة في شأن الاشتراكية أوين المبكرة هذه ، هي أنها لم تكن في البداية ديمقراطية ، بأي حال ، بل مزجت بها الفكرة الديمقراطية فيما بعد . وكانت دفاعها الأولى خيرية ، وكانت صورتها المبكرة قائمة على نظام الأبوة . كانت شيئاً يرضع إليه العمال بالتعليم ، حل بدوى النسيئة من أصحاب المصانع والرحماء . وإذا لم تكن الاشتراكية الأولى حركة عمال - بل حركة مادية . وقد كانت للمباحث المادية في الاشتراكية في كل تاريخها بأحدها ، من عمل رجال ليسوا من العمال في شيء . ويصف بير (Beer) كارل ماركس بأنه « لرسوطلائي » ، وكان إنجيز من التجار ، وأما لينين فكان عضواً متغياً من عائلة من أصحاب الأراضي .

وقد ساربت عمل « أوين » هذا سلسلة أخرى من التطورات مستقلة تمام الاستقلال بكل من أمريكا وبريطانيا ، وقد قلنا أكثر الأمر أن تتصل بفكراته الاشتراكية . فقد كان القانون الإنجليزي يحظر من أمد بعيد التماجد الجماعات بقصد حصر التجارة واحتكارها ، ويحظر الانتماءات المادفة لرفع الأسعار أو الأجور

بوساطة العمل الجماعي . ولم تكن هناك أي صعوبات كبيرة في هذه المخطورات قبل أن تطلق الثغرات الزراعية والصناعية في القرن الثامن عشر فكلك أسراب عظيمة من العمال يشتغلون « من اليد إلى الظم » ويتنافسون على قلوب من الأعمال غير كاف . وكان العمال يعملون أنفسهم تحت هذه الظروف الجديدة في حال من اللصيق والاضطراب لا تطلق . وكان أرباب الأعمال يلعبون بأحدهم ضد الآخر . وكان كل منهم يقضي أيامه بل ساعاته في قلق لا يدرى ما يكون من زبل له من الإذعان والتنازل . وما قد يترتب على ذلك من التقيص الجليد في الأجور أو الزيادة في الشقاء .

فأصبح من الضرورات الحيوية للعمال أن يعقلوا إتفاقات وإن تكن غير قانونية ضد مثل هذا التضييق في الأجور . وكان لابد لهذه الاتفاقات في مبدأ الأمر من أن تتم وتضمن على يد جماعات سرية ، أو نوادي مؤسدة في الظاهر لأغراض مختلفة تماماً ، أمثال التوازي الاجتماعية وجماعات الحائز وما إليها ، التي كانت تقوم بسر الاتساجات الواقية للأجور . وكان علم قانونية هذه الجمعيات يعمل أعضاها ينزعون إلى العنف . كانوا كالوحوش على « المتسللين »^(١) والفران « من إخوانهم الذين لا ينضمون إليهم » ، وكانوا أكثر وحشية مع اللئونة .

وفي (١٨٧٤) اعترف مجلس العموم بأن من المرغوب فيه تخفيف التوتر في هذه الأمور بتسليمه بمن العمال في تكوين اتصالات « للمساعدة الجماعية » مع السادة . ويمكن هذا نقابات العمال (Trade Unions) من التطور على مجال كبير من الحرية . وقد ارتقت نقابات العمال بالتطريع — وكانت في مبدأ الأمر تنظيمات بسيطة شديدة الهداية ذات حرية محدودة جداً ، حتى أصبحت « طبقة رابعة حقيقية » في البلاد ، أي مجموعة عظيمة من الهيئات تمثل كتلة العمال الصناعيين .

نشأت تلك النقابات في بريطانيا وأمريكا أولاً ، ولكنها ما لبثت — مع تعديلات قومية متنوعة ، ونحت أحوال قانونية مختلفة متغيرة — أن انتشرت إلى فرنسا وألمانيا وكل المجتمعات الغربية الصبيخة .

(١) المتسللين والفران : العمال الذين يملكون قسلاً وإخوانهم في إضراب دسرو أو يملكون أجوراً أقل من إخوانهم ، (المرجم)

وقد نظمت حركة نقابات العمال في الأصل للحفاظ على الأجور ودعمها ومنع
 عدد الساعات التي لا يطاق ، وكانت في البداية شيئاً مميّزاً تام التميز عن
 الاشتراكية . فكان العضو في نقابة العمال يحاول أن يستخلص لنفسه أحسن القسّم من
 الرأسمالية الموجودة ومن أحوال العمل الموجودة . على حين كان الاشتراكي يرمي
 إلى تغيير النظام .

ولدى نبال « كارل ماركس » ولقدرة على التصميم برجع للفصل في ربط هاتين
 الحركتين برباط العلاقة والاتصال . كان رجلاً تميزت فيه قوة الإحساس بالتاريخ ،
 وكان من أوائل من أدرك أن الطبقات الاجتماعية القديمة التي امتلأت منذ بداية
 المدينة ، كانت تغربها عملية حلّ وعودة إلى التجميع . وقد جعلت منه فروح
 التجارية المستقرة في عصره اليهودي خير من يدرك العداء بين الملكية والعمل أوضح
 إدراك . وجعلت نشته في ألمانيا (وهي بلد كان نظام اتصال الطبقات فيها
 أوضح منه في أي قطر أوروبي آخر حتى أنها كانت تميل إلى التجسد والتحول إلى
 طوائف) - يشغل العامل شخصاً يصبح من فوره ذاوعى طبق^(١) معادياً عداءً
 جماعياً للطبقات التي تركز الملكية في يدها . وكان يعتقد أن حركة نقابات العمال
 التي كانت تنتشر في العالم أجمع - هي تطور خاص بالعامل صاحب الوعي الطبقي .

كان يشاء قائلًا : ماذا تكون نتيجة « حرب الطبقات » بين الرأسماليين
 والبروليتارية ؟ فقد كان يبالغ بأن معارك الرأسماليين المخاضين بسبب ما انقشروا
 عليه من الشراة وحب المقاتلة ، لا يلبث حتى يمتنع التسلط على رأس المال في أيدي
 لا تبرح قتل وقتل ، حتى ينتهي الأمر بهم إلى تركيز كل وسائل الإنتاج
 والترانيت (Transit) وما إليها إلى شكل يستطيع العمال أن يقبضوا عليه ، أولئك
 العمال الذين يتطور بالمثل معهم الطبقي وتماشكهم بواسطة عملية تنظيم الصناعة
 وتركبها .

ولهم ليستولون على ذلك الرأسمال ويستحكمونه لحساب أنفسهم . ويكون ذلك

(١) الرمي الطبقي (Class Consciousness) : عمود الإنسان بطيفه في التجمع وتقسبه لما مع
 العداء الشديد للطبقات الأخرى - (الترجم)

هو الثورة الاجتماعية : وعند ذلك تُسترجع الملكية الفردية والحرية الفردية ،
مؤسستين على الملكية المشتركة للأرض وقيام المجتمع كجموع بإدارة الخدمات
الإنتاجية الكبيرة التي سبق أن نظمها وركزها الرأسمالي الخاص . وتكون تلك هي
نهاية نظام الفرد و الرأسمالي ، ولكنها لا تكون نهاية النظام الرأسمالي . إذ عند ذلك
تحل رأسمالية الدولة محل رأسمالية المالك الخاص .

وفي هذا انحراف كبير عن اشتراكية « لوين » . وكان « أوين » - شأن
أفلاطون - يشخص يصوره إلى حسن تمييز الرجال ومصاد بصرفهم بالأمور في أي طبقة
أو في كل الطبقات ، راجعاً أن تكون تلك النحلة وميلهم إلى إعادة تنظيم البناء السياسي
الاقتصادي الاجتماعي المرضي الخاطئ . واكتشف « ماركس » شيئاً آخر شبه
بالقوة النافذة في العداوة بين الطبقات يقوم على انزعج الأملاك وعلى الظلم . على
أنه لم يكن مجرد نظري متنبئ بل كان كذلك من دُعاة ثورة العمال ، ثورة من
يقال لهم « البروليتارية » . وقد أدرك أن العمال مصلحة مشتركة ضد الرأسمالي في
كل مكان ، وإن أظهر تأثير تجربة حروب النول الكبرى لذلك الزمان ،
ولا سيما حروب تحرير إيطاليا ، أنه قد فاته أن يفهم أن العمال في كل مكان لم
مصلحة مشتركة في سلام العالم . ولكنه نجح فعلاً - والحرية الاجتماعية نصب عينيه -
في الإبقاء بفكرة إنشاء عصبة دولية العمال ، هي الدولية الأولى (The First
International).

وكان ما عقب ذلك من تاريخ الاشتراكية يرجع بين خلال تقاليد « أوين »
البريطانية وبين « الشعور الخاطئ » الألماني عند « ماركس » . وقد لقي ما يسمى باسم
الاشتراكية النائية^(١) وهو تفسير الاشتراكية الذي قامت برؤسه الجمعية النائية بلندن -
قبولاً من الرجال المفقولين في كل الطبقات . ثم إن ما كان يسمى باسم « ملهيب
التصحيح Revisionism » في الاشتراكية الألمانية ، كان يحمل صوب نفس ذلك

(١) الاشتراكية النائية أو النائية : ملهيب اشتراكي ظهر باعتداف في القرن التاسع عشر ، وهو
يحدد حل ومثل الطرق التي يأسف أن يبلغ بها إقرار الاشتراكية بواسطة مجموعة منطقية من الإصلاحات
الطورية . (الترجم)

الاجتهاد غير أنه يمكن القول على الجملة أن «ماركس» هو الذى فاز على «أوين» . فكانت النزعة العامة للاشتراكيين في كل العلم هي الاعتقاد على تنظيم العالم ، والعالم هو أن أى شيء آخر ، ليكونوا مصدرًا لقوى المقاومة التي سوف تقوم بإغلاء سبيل الصلح السياسي والاقتصادي للشئون الإنسانية من أهلى الممالك والمظلمين المخصوصين الذين هم على حوجة ما من علم المستوية والذين كانوا يصبرون فيها .

تلكم هي المظاهر الإيجابية للمشروع المسمى باسم الاشتراكية وسوف نتأقش في قسمنا التالي ما فيها من قصص وعلم كفاية . وربما كان أمراً لا متوقعة منه أن تضطرب الاشتراكية اضطراباً كبيراً وأن تقسم وتضرح ، إذ تتناولها يد الشكوك والتأقذعات والشج والمبارس . وما هذه إلا أعراض التوسشان القمع على وجه باق من لبنان . وما نحن بمستطيعين هنا إلا أن نتظر نظرة لامة إلى التناقق بين اشتراكية الدولة : التي فزع إلى إدارة البلهد الإقصادى في البلاد بوصامة حكومتها السياسية ، وبين مذهبها الأخرى المتأخرة ، مذهب « اشتراكية إتحادات العالم Syndicalism » ، و« اشتراكية تقاباتهم الخريفية » : التي تكل نصيباً كبيراً من إدولة كل صناعة بالمال المشتغلين في تلك للصناعة أيا كانت درجاتهم بما في ذلك المخرجين والمراقبين . فهذه « الاشتراكية التخيلية » إغماى في الحقيقة نوع جديد من الرأسمالية ، تحمل فيها بلعة من المال والموظفين في كل صناعة عمل الرأسماليين المخصوصين الأحرار في تلك الصناعة . وتصبح هيئة الموظفين للصناعة هي الرأسمال الإجمالى .

• — عيوب الاشتراكية بوصفها خطة للجماعة الإنسانية

قال البر «ولم هاركورت» منذ سنوات عدة : إنا جميعاً الآن أشركيون ، وهذا القول يصدق اليوم صدقاً مرسلاً غير محكم . فعلى وجد أروى يقوته أن يدرك الطبيعة الموقوتة والفتقل الحظر الذين يقسم بها نظاما السياسي والاقتصادى الحاضر ، وأقل منهم كملك من يستغلون اعتقاد «فردىي» «الظريين غير العمليين» ، القائلين إن اقتناص الربح أو سيلة «اذعب كيها شئت واصنع ما شئت» وسوف تقوم البشرية إلى مرفأ من مرفأه للرخد والسعادة . والواقع أنه ينبغي للأمر أن يعاد تسمية

تنسيقاً عظيماً وأن يتم لها بسند منهجي منظم من القانون إخضاع تلك المصلحة الشخصية لأهداف المصلحة العامة .

ومنظم الرجال العقوليين إنما هم إلى هذا الحد اشتراكيون . على أن هذه ما هي إلا مقترحات تمهيدية . فقل أي حد وصلت الاشتراكية والتفكر المعصرى بوجه عام إلى إنتاج لفكرة الذئبة لهذا النظام السياسى والاجتماعى الحطيد، الذى يقف حائلاً باحتراف الجميع وهو في أمس الحاجة إليه ؟ ونحن مضطرون أن نجيب أنه ليس هناك تصور واضح للحالة الجديدة التى تكافح نحوها كلاهما ، وأن علمنا بالعلاقات الإنسانية ما يزال بالغا من التسجلة والإيمان فى النظرية إلى حد لا نجد فيه هداية محدودة فى عشرات من النقاط السياسية العامة . ولنا اليوم فى مركز بحثنا قيم فى العالم نظاماً سياسياً متصوراً تصوراً علمياً إلا بقدر ما كان للناس يستطيعون أن يقيموا محلة كهربائية فى (١٨٢٥) . فإنهم لم يكونوا عند ذلك يستطيعوا ذلك ولو كانت فيه نجات حياتهم .

ونشير الطريقة الماركسية إلى أن القوى الثورية تراكم فى العالم المعصرى . فإن هذه القوى لن تبرح تزحف باستمرار نحو الثورة . ولكن ماركس افترض بمثابة التوصل أن النافع الثورى ينتج بالضرورة دولة منظمة ذات نوع أحدث وأحسن . إذ الواقع أن الثورة قد توقف فى منتصف الطريق عند مجرد التمدد . ولم يتم أية شيعة اشتراكية حتى الآن بصريف حكومتها المقترحة نبريقاً واضحاً . ويوضح أن البلاشفة كانوا يسرطون فى تجربتهم الروسية بعبارة « ديكاتورية البروليتارية » ، ومن الناحية العملية أثبت « تروتسكى » و « لينين » فيما يقال أنهما بعدلان فى أوتوغراطيهما القيصري اسكتلر الأول الأقل منهما ذكاء والمعدل لها فى حسن المقاصد .

وقد حرصنا كل الحرص أن نبين لك أثناء دراستنا الموجزة للثورة الفرنسية ، أن ليس فى استطاع ثورة من الثورات أن تؤمس أى شيء ثابت لم يقتل صكراً قبل ذلك ولم يكن مفهوماً للرأى العام . فبالجمهورية الفرنسية ، لم تلبث وقد واجهتها صعوبات غير متوقعة فى الاقتصاديات والعملة والعلاقات الدولية - حتى انهارت إلى يد أنبائات رجال الإدارة الحطيتى الثراء ، ثم انهات آخر الأمر تقناه

أنانية ناپليون . والمحافظة في ثبات على القانون وعلى خطة مرسومة ، أشد ضرورة في أزمان الثورات منها في أيام الهدوء العادية ، لأن الجماعة الإنسانية تتدهور منحلة بفاية السرعة في أومت الثورات إلى مجرد عملية تخاطف مشوشة تحت سيادة الأقوياء المتنفذين والذكورة والمغالين .

فلو أننا نظرنا بصورة عامة إلى ما في عصرنا من علوم سياسية واجتماعية وفكرناها قدرها ، لكنا بهذا نقدر شيئاً من العمل الفكري التمهيدى الذى لا يزال على البشرية اتعانه قبل إمكان تشوء أية معجزات ينامة داتمة تنبت من الروح التقليدية والجنوح إلى الخلافة الذين يتسلطان على شئوننا الاجتماعية في زماننا هذا .

فهذه الاشتراكية التى تزعم أنها نظرية كاملة لنظام اجتماعى جديد ، يتبين لنا ونحن نضعها أنها شيء لا يتجاوز نظرية جزئية - مرشدة لنا جهد اتساع مجملها في شئون الملكية .

وقد بحثنا قبل الآن علاقة تطور الاجتماعى بتقيد فكرة الملكية . فإذن هناك ملابح متنوعة للفكر تتفاوت في تقيد الملكية قوة وضخاً . فالشيوعية إنما هى الاقتراح بإنشاء الملكية إلغاء تاماً ، أو بعبارة أخرى جعل كل شيء مشاعاً . وتتميز الاشتراكية العصرية أو عمل الجماعة^(١) Collectivism ، إن شئت اسماً أدق وأضبط - تميزاً ضلماً واضحاً بين الملكية الشخصية والملكية الاجتماعية . وزيادة مقروحات الاشتراكيين هي أن الأرض ، وكل وسائل الإنتاج الطبيعية ، والترانسيت والتوزيع يجب أن تملكها الجماعة ملكاً جماعياً . ولوف يكون هناك داخل هذه الحدود كثير من الملكية المخصوصة والحرية الشخصية غير المقيدة . فلو أتبع لهذا المقترح إدارة ذات كفاية ، فكل من المشكوك فيه أن كثيراً من الناس يتنازعون فيه . بيد أن الاشتراكية لم تدخل قط في امتحان كامل للملك الشرط القاضى بوجود إدارة ذات كفاية .

ومن وجه آخر ، ما هو ذلك المجمع الذى سوف يجرز الملكية الاجتماعية -

أهل الحاكم أو المدينة أو المقاطعة أو الأمة أو البشرية ؟ إن الاشتراكية لا تعطيك أية إجابة واضحة . والاشتراكيون يسرفون في استخدام كلمة « تأميم Nationalization » ولكننا علينا على جعل كلمتي « الأمم Nations » و « القومية Nationalism » . هدفاً لشيء من النقد المنصف في هذا الكتاب . فلو اعترض الاشتراكيون على إدعاء فردى لشخص واحد بأن منجماً أو مقسماً عظيماً من الأرض الزراعية إنما هو ملكه الفردي الذي يحق له أن يقبل أو يرفض المبادلة على استعمال الآخرين له أو كسبهم من ورائه ، فلماذا يسمحون لأمة واحدة أن تحنكر الناجم أو الطرق التجارية أو الثروة المملوكة في الأراضي التي تعيش فيها ، مضادة في ذلك البشرية جمعاء ؟ .

ويلوح أن النظرية الاشتراكية في هذه المسألة على اضطراب عظيم . وما لم تصبح الحياة الإنسانية اجتماعاً عظيماً للجلس البشري يعقد في دورة مستمرة ، فكيف يستطيع المجتمع أن يعين موطنه الذين يقومون بتنفيذ شئونه الخاصة ؟ وفضلاً عن ذلك فليس الملك الخاص للأرض أو للعمل أو ما أشبهه إلا ضرباً من الوظائف العام بالقرن الذي يسمح فيه المجتمع بوجود ملكية وحايته لها . فبدل أن تدفع إليه للرتبات أو الأجور ، يسمح له بأن يتأهل ربحاً .

والسبب الصحيح الوحيد لطرده من ملكيته هو أن الهيئة الجديدة التي ستحل محل الأولى سوف تكون أكثر كفاية وأحد نفعاً وأدعى لرضى المجتمع . وبعد أن يطرد يكون له على أقل تقدير نفس الحق في المطالبة بغض رعاية المجتمع التي أظهرها هو نفسه من قبل العمل للطرد من العمل بسبب اختراع ميكانيكي .

ولهذه المسألة مسألة الإحادة ، وهي الماتق السليم الصحيح لكثير من ألوان التشريك القوى (١) : « توصلنا إلى تلك المسألة التي لم تبرح غير محولة إلى حد كبير ، وهي مسألة الترابط الإنساني . فكيف نستطيع أن نحصل على غير توجيه لثئون الإنسانية وأن نحصل على ذلك التوجيه على النهاية القصوى من التعاون المطروح ؟

(١) التشريك القوى (Immediate Socialization) : تسع المباشر بالصيغة الاشتراكية . وقد صيغت الكلمة من قرار المؤتمر العالمي والصنيع . (الترجم)

لهذه مسألة سيكولوجية بلغت غاية التعقيد ، ولكن من السخف أن يدعى المرء أنها مسألة عويصة لـ "لا حل" لها . ولا بد من أن توجد حالة يمكن ترميقها ومجديتها هي غير الحالات وهي الشيء الصحيح في هذه الأمور . ولكنها إن كانت لـ "لا حل" لها ، فإن الإدعاء بأنها قد حلت لا يقل عن ذلك سخفاً فالمسألة وهي في أتم صورها تنطوي على إنتاج أحسن الطرائق في التراخي الآلية وعلى ترابطها التام :

١ - التعليم : وهو إعداد الفرد ليشارك في شئون العلم تعاون القامم وعن طيب خاطر .

٢ - الإعلام : عرض الشئون العامة عرضاً صادقاً ومستراً على الأفراد ليصدروا حكمهم فيها ويوافقوا عليها . وبما يتصل اتصالاً وثيقاً بهذه الحاجة إلى الإعلام الفواتر أجمع القوانين وتنسيقها ، وهي مسألة جعل القانون على اللوام صريحاً واضحاً ومن المداخل على الجميع .

٣ - التثليل النبائي : وهو اختيار المندوبين والوكلاء الذين يعملون في المصلحة العامة ، في انسجام مع الإدارة العامة المبنية على ذلك التعليم وذلك الإعلام الصريح البسيط .

٤ - المهجة التنفيذية : تعيين الوكلاء التنفيذيين والاحتفاظ بالوسائل التي تجعلهم على اللوام مسؤولين أمام المجتمع - دون أن يفرق ذلك في نفس الوقت لبتداهات قوى الذكاء وعملهم الابتكاري .

٥ - التفكير والبحث : وهو اتخاذ المنظم للوسائل والقوانين لتكون مادة علمية (Data) تكون موضع الحكم العام الشعبي ، وخزان التحسين الدنيوي لتنظيم الإنسانية من طريق هذه الأحكام .

تلك هي الرموز الخمسة التي تتجلى فيها أمانة المسألة الإحالية للجماعة البشرية لانظر سورك ماذا ترى ؟ - إنا نرى فيها يجيد بنا من العلم وسائل يقصد بها إلى مجرد سلخانة أو إيجاد دليل مؤقت ، وهي تعمل عملها في كل هذه القروخ ،

وكلها وسائل جيدة للتأقلم مع الأخرى ، كما أنها في ذاتها غير مرضية .
 وأنا أرى نظاماً للتعليم يتجلى في تحويله وتجهيزه الشح والنفاء ، وفي تنظيمه سوء
 الإدارة ، ويعتده تدخل الهيئات الدينية وعداوتها ، و يرى الإعلام الشعبي
 العام تقدمه بوجه رئيسي صحافة مرتشية تعتمد على الإعلانات والإحالات المالية .
 وأنا لنشهد طرائق للانتخاب حزلية تصيد إلى السلطان سلبين يلغون في علم
 تشليم الشعب مبلغ أي حاكم وروائي أو أي فاتح عرضي . وإنك ت ترى القوة
 التشغيلية في كل مكان تتأثر نوعاً ما أو تتحكم فيها بدرجة متفاوتة جامعات من
 الأغنياء المفاخرين ، وترى الاشتغال بالعلوم السياسية والاجتماعية والتقدم العام
 ما يزال من عمل أفراد متكرسين قوى أطوار غريبة يدل أن يكون عملاً من أعمال
 الدولة سكرماً معترفاً به .

وإن هناك لواجباً شخصياً ينتظر الرجال قوى التضكير الصحيح لكي يقوموا
 بتنظيف وتجميل حظيرة السياسيين . فتحتى كتحقق هذه للغاية فإن من المستحيل أن
 يتم فهم الاشتراكية فهماً تاماً . وما دام المفاخرون المخصوصيون يسيئون على حياة
 الدولة السياسية ، فإن من المضطرب أن يفكر الناس في أن تضطلع الدولة بالمصالح
 الاقتصادية الجماعية منزعجة إيماناً من يد المفاخرين المخصوصيين .

والحركة الاشتراكية لم تخف حتى الآن فقط عند الفصل في إنتاج خطة مدروسة
 حل لأساس على لإيجاد الترابط في التعليم والقانون وممارسة السلطة العامة ، بل إنه
 حتى في الميدان الاقتصادي كما سبق أن بينا لك ، ما تزال هناك قوة خلقة تنتظر
 فكرة يصمم بها تنظيم صحيح للائتمان (Credit) وتستنبط منها طريقة صحيحة للرفع
 والتبادل (Interchange) . ومن التلميحات الأولية أن رغبة العامل وإقباله تتوقف
 طياً تتوقف عليه من أمور على قوته الثلثة في القوة الشرائية العملة التي يقبض أجره
 منها . ومتى ذهبت تلك الثقة بطل العمل اللهم إلا في الحالة التي يمكن فيها أن
 يكافأ العامل ببلع الأجور صيماً . ولكن ليس هناك القدر الكافي من علم العملة
 ولا من وعلم نفس الأعمال لرد الحكومات عن التدخل في الائتمان العام وفي التداول .

تدخل يزعج الناس أيما إزعاج . ويؤدي مثل هذا التدخل مباشرة إلى التوقف عن العمل أي التوقف عن إنتاج الأشياء الضرورية .

في مثل هذه المسائل الحيوية المعقدة لا يكاد يكون من المبالغة أن يقال إن الحليلة هؤلاء الاشتراكيين الذين يرغبون في إعادة صوغ العالم ليست لديهم أية أفكار محددة إحصائية . ولكن الناس سواءاً كانوا في عالم اشتراكي أم في أي نوع آخر من العوالم ، يجب أن يقبضوا نفوداً مقابل عملهم بدل أن يقبضوا أجورهم عينا ، إن كان يجب أن يستمر شيء اسمه الحرية الفردية . وهنا أيضاً ينبغي أن يكون هناك شيء محقق صحيح يجب على الناس أن يعملوه . لمحيي بتحدد ذلك ، فمن يظل الثابت في هذه الأمور سجلا للتجارب قدر ما يكون سجلا للتخططات .

وهناك اتجاه آخر كان فيه التفكير الاجتماعي والسياسي في القرن التاسع عشر ، يواجه ما عليه الثورة الميكانيكية من ضخامة ، وتجيلا خائفاً محمداً غير كاف ، وكان ذلك بالنظر إلى العلاقات الثولية . وسوف يجد قارئ الأعبثاء الاشتراكي ، الاشتراكيين وهم يكتبون ويتكلمون عن « الدولة » بلا انقطاع ، دون أن يدركوا أنهم يدركون أن « الدولة » قد تكون أي نوع من أنواع التنظيمات وأنها تحدها جميع المساحات ، ابتداء من جمهورية سان مارينو إلى الإمبراطورية البريطانية . حقاً إن كارل ماركس كانت لديه فكرة عن تماسك المصالح بين العمال في كل الأنظار المصنعة . ولكن لا تكاد افترابية ماركس تحوى إشارة إلى النتيجة المنطقية لهذا ، وهي تأسيس حكومة ديمقراطية محلية اتحادية (Federal) من دولها حكومات قومية أو إقليمية للدول ، بوصفها نتيجة طبيعية لثورته الاجتماعية المقترحة .

وبهذه عظم الأمر ، فليس هناك أكثر من أمل بهم . ولكن إذا كان الماركسي على أي قدر من المنطق ، وجب أن يكون ذلك هو غاية السليبية الصريحة العلنية

(١) كلمة الأدب هنا مسجلة بكتابة العام ، التي يشهد ما كتب في تلك المائدة من كتب ومجلات ولغات . (الترجم)

التي يجب أن يعمل من أجلها بلا انقطاع . هير أن الاشتراكي معظم الأنظار الأوروبية
 قديماً قد أظهروا يوم صجعت حودهم حرب (١٩١٤) ، أن ما لديهم من الوعي
 الطبقي بالدولة كان لمصرى ضئيل الحظ من التوقير والكرامة ومن الإيثار الجدى
 على مشاعرهم الوطنية القومية ، وأن ذلك الوعي لم يحلّ بأى حال محلها . قد
 كان الاشتراكيون في كل مكان أثناء الحرب الألمانية ينصرون على تلك الحرب
 أنها من عمل حكومات رأسمالية . ولكن طعن الناس في حكومة أو نظام على
 أن يكون له إلا أثر ضئيل ما لم تكن لديهم فكرة عملية عن حكومة من طراز
 أحسن ونظام أحسن نحل محلها .

ونحن إنما نذكر هذه الأمور هنا لأنها حقائق ، ولأنها جزء من ضرورى من
 نظرة شاملة معاصرة إلى التاريخ الإنسانى . وليس من واجبنا الآن أن نافع عن
 الاشتراكية ولا أن نخصمها . ولكن مما يدخل في الصورة القائمة بين أيدينا أن
 نلاحظ أن الحياة السياسية والاجتماعية إنما هما - ولا بد لها من أن تظلا - في حال
 من التوضى واستجلاب الكولوث ما لم يحدث تطور لبعض الخطط الإنشائية من
 أضراب ما تخططه الاشتراكية ، فضلاً عن أن نوضح مقدار بعد العلم في الوقت
 الحاضر من أى خطة من هاتى النوع .

ولا بد من أن يحدث قدر حائل من العناية الذهنية والبحث والمناقشة والتسليم ،
 ولا بد من انقضاء السنوات العديدة ، التي قد تصل إلى عشرات أو القرون ،
 إذ لا يستطيع أحد أن يعرف مدى ذلك - قيل أن ييم الأرض بأكملها نظام جديد
 مصمم كما تصمم السفن والسكك الحديدية ، وأن يجري كما تجري خطوط التلفون
 البحري وأعمال التوزيع في البريد . فسحق يستطيع مثل هذا النظام أن يضم بشبكة
 شتات البشرية بعضها إلى بعض ، فلا بد الحياة الإنسانية كما منعرضها عليك من
 فوراً بقصة الحروب الأوروبية منذ (١٨٥٤) ، من أن تصبح عرضة خطرة
 تامة ، وقلقة مديدة بالكوارث بسبب هذه الوسائل الحربية التي لا ترح تشد قوة
 وتحميراً كل يوم ، نتيجة لتواصل الثورة الميكانيكية .

٦ - كيف أثر منهج دارون في الأفكار الدينية والسياسية^(١)

يبدأ كانت الثورة الميكانيكية^(٢) التي نتجت عن نمو علم الفيزياء (الطبيعة)
أخذت بأسباب تدعيم التعريف الاجتماعي القديم للثورة الملمدة التي تطورت على
مر آلاف من السنين ، وشالوة في إنتاج احتمالات جديدة ومثل عليا جديدة لاجتماع
إنساني ير صالح ، ونظام عالمي ير صالح - كان يجري في حقل الفكر البشري تعبير
هو على أقل تقدير معادل لتلك الثورة في العلم والجدّة . وكان نفس هذا النمو في
المعارف العلمية للناس نشأت عنه الثورة الميكانيكية هو الدافع المحرك لهذه الاضطرابات
الدينية .

وقد قلنا إليك في القصول الافتتاحية الأول من هذا الكتاب القصة الرئيسية
لسجل الصخور ؛ وصورنا الحياة على حقيقتها إذ هي بداية وعي صاعدة ، مظهرين
إياها وهي لا تزال تسبح في ضخامة ما أمامها من فراع يغفلوها بين الفضل والزمان .
ولكن قبل أن يشارف القرن الثامن عشر نهاية كان هذا مشهد الماضي الضخم -
التي يملأ ذهن العصور بالملكة وبما لا حده من الأمن ، - شيئاً خافياً مستراً على
الوعي العام بالجنس . إذا كان يستره من الأعين صيف^(٣) من أسطورة سومرية . فإن
السيارات لم تكن تزيد على غطبة مسرح من المسارح تقوم من وراء تخيلية أبطالها
الملوك . وكان الناس أشد إشتغالاً بشؤونهم الخاصة وشئونهم الشخصية من أن يأبهوا
بما يلوح لهم من المفردات العظيمة التي كانت تحيط بهم من كل ناحية .

وقد علموا مركزهم الحقيقي في المكان ؛ قبل أن يضعوا أنفسهم في الزمان بأحد
جيد . وسبق لنا أن سمعنا لك المفكرين الأقدمين ، وأعتبرنا كيف أجبره جاليليو
على إنكار قوله أن الأرض تدور حول الشمس ، حيث أجبرته الكنيسة على أن

(١) إذ ننت رجعة نظر دينية دقيقة وثيقة للمثالة لهذه المأكورة مائة ، فانظر كتاب
Outpost of Empire للأستاذ إلش ، للثلاث رقم ٨ و ٩ من النسخين بولس ومن النسخ بالعلم
والدين (Institutional & Super)

(٢) الثورة الميكانيكية والافتقار الآل معنى واحد . (لترجم)

(٣) الصيف ؛ المطر . (لترجم)

يفعل ذلك ، مدفوعة بإعتقادها أن لى شك يحيط بأن الأرض مركز العالم خضرة قاتلة
تزلزل سلطان المسيحية .

ولعمري إن من يقص التاريخ المصرى مخاطر فى هذا الموضوع أن يصطنع الحذر
والحراة فى آن واحد . ولا بد له من أن يتحسس موطن قديمه ، بين التملص الجبان
من ناحية والتعصب من ناحية أخرى . ولا بد له من أن يقصر نفسه جهد طاقته على
الحقائق وأن يحفظ لنفسه بما يرى من آراء . ومع ذلك فن الجبر أن نتذكر أن
الاحفاظ المطلق بالآراء أمر ليس فى الإمكان . ولكتاب هذه السطور إقتناعاته وآراؤه
القوية المحددة وهو أمر لا بد للقارىء أن يعبه فى ذاكرته .

ومن الحقائق المقررة فى التاريخ أن تعاليم يسوع الناصرى كان فيها شيء جديد
حين الجدة خلاق قوى الخلق . ففته بشر بمملكة جديدة السماوات فى قلوب الناس
ودليام . ولم يكن فى تعاليمه شيء — يقدر ما نستطيع أن نحكم عليها من هذا البعد
الزمى — يعارض أو يتخلل مع أى اكتشاف أو توسع فى تاريخ العالم والبشرية .
ولكن من الحقائق التاريخية أيضاً أن القديس بولس وخطابه قد أضافوا إلى تعاليم
يسوع الصريحة الممعة فى الثورية ، أو أكلوها أو فرضوا عليها أو تبدلوا بها مبادئ
أخرى — (وانحر نفسك من هذه الألفاظ ما تشتهى) — وذلك ببسطهم نظرية
الخلاص دقيقة مقيدة ، وهو خلاص يمكن الحصول عليه فى معظم الأمور بالإيمان
والشكليات ، دون دخول أى تغير جذى فى مألوف عادات المؤمنين وأعماله العادية ،
وأن تلك التعاليم البولسية كانت تمحوى فعلا على معتقدات محددة جداً حول تاريخ
العالم والإنسان .

وليس من شأن المؤلف أن يجادل فى هذه الأمور أو يشرحها . فإن مرد قيمتها
النهائية إلى علماء اللاهوت . أما اختصاص المؤرخ فينحصر فى أن المسيحية الرسمية فى
جميع أنحاء العالم تبنت وجهة نظر القديس بولس ، التى جبر عنها فى رسالته بأجل
بيان ، واتى يستطاع قص آثارها فى الأنجيل ، وهى وجهة النظر القائلة بأن معنى
الديانة لا يقع فى المستقبل وإنما يقع فى الماضى ، وأن يسوع لم يكن معلماً لأشياء
جديدة رائعة ، فلهذا كان قرباناً دموياً مقبلاً عامراً بالخفايا الصيقة والقديسية

البالغة ، هيأة القدر كفارة عن حدث تاريخي خاص من أحداث عصيان الخلق لإقرهه والمانا الأولان ، آدم وحواء إستجابة لإغراء أفسى في جنة عدن . وقد بنت المسيحية اللحية مبادئها على هذا الاعتقاد في تلك « الحطية » باعتبارها حقيقة ، لا على شخصية يسوع الناصري ، وقامت على نظريات بولس لا على وصايا يسوع .

وقد لاحظنا آنفاً أن هذه القصة ، قصة الخلق الخاص للعالم و آدم وحواء والأفسى ، كانت كذلك قصة بابلية قديمة ، ولعلها أيضاً قصة سومرية أقدم عهداً وأبعد أسداً ، وأن الكتب اليهودية المقلعة كانت الوسيط الذي أدخل إلى للمسيحية أسطورة الأفسى للحقيقة هذه البهائية « الميولينية »^(١) الأصل - وقد حلت للمسيحية الرسمية هذه القصة معها حيثما حلت . ذلك أنها ربطت نفسها بذلك القصة .

وكان العالم المصطنع للمسيحية بشري إلى قرن سلف أو أقل من ذلك ، بأنه ملازم أن يعتقد ، بل كان يعتقد فعلاً ، أن الكون خلُق خلقاً خاصاً في متع أيام بكلمة من الله صلبت قبل بضعة آلاف من السنين أى سنة ٤٠٠٤ ق . م . - كما يقول الأستاذ « أشر Bishop usher » (وكتاب « التاريخ العام » الصادر في اثنين ولربعين صفرأ التي نشرت في (١٧٧٩) بجامعة من تجار الكتب في لندن يبحث هل كان التاريخ للخلق هو ٢١ مارس أو ٢١ سبتمبر سنة ٤٠٠٤ ق . م ، ويميل إلى ترجيح التاريخ الثاني) .

وعلى هذا القرض التاريخي كان ينضج الصرح اللينى المنيعة الغربية أصلاً والغربية صباعاً ، ومع ذلك فإن العلم بأجمعه كانت ترحه الأدلة ، فإن التلال والجبال والدلتاوات والبحار كانت تتعبر صانعة بالسخرافة المطلقة لهذه النظرية . وكانت الحياة الليلية لدى كبريات الأمم وهي ما تزال حياة دينية جادة جداً عامرة بالإخلاص ، تجري في دار لتاريخ بقيت على أس من الرمل .

وإن الأدب الكلاسيكي ليعوى من الشواهد الكبيرة للزود فيه ، ما يملك على

(١) للميولينية : حصر الحضارة المعبرة قصة . للقرن ١٢٥ - ١٢٧ ج ١ ط ٢ من العلم . [المرحوم]

وجود مباحث في بلد الخليفة أصبح ولم . لأن أرسطو تنبّه للمبادئ الإجمالية للجيولوجيا المصرية ، وإنها لتطوع في ثنابا تأملات لوكريشيوس ، كذلك لاحظنا التفسير البير الذي قسره ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) الحفريات . وقد ارتأى الفرنسي العظيم ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) الآراء البهرية حول بدايات كرتنا الأرضية ، وأنها كانت في أول أمرها كرة متوهجة نارية ، وبدأ دافنشي اسمه ستينو (١٦٣١ - ١٦٨٦) العمل في جمع الحفريات ووصف الطبقات الأرضية . ولكن حدث - وقد أشرف القرن الثامن عشر على نهايته - أن خطت الدراسة المنظمة للجيولوجيا خطوات لساح أثرت بقوة في الاعتماد العام على رواية الكتاب للفلسف التي هي صورة من القصة السومرية العتيقة .

ومن عاصر كتاب التاريخ العام ، الذي انقسمنا منه آخفاً - علم قرنى بالتاريخ الطبيعي هو بوفون (Buffon) ، وكان يكتب عن " حقب الطبيعة " (١٧٧٨) ، وبعد عمر العالم في جراحة إلى ميعين ألفا أو خمسة وسبعين ألفا من السنين . وقد قسم قصته إلى ستة أحقاب تقابل الأيام الستة في قصة الخليفة . وقد ذهب الرجل إلى أن هذه الأيام الستة إنما هي أيام مجازية ، كانت في حقيقتها قصوراً . وحاولت الجيولوجيا بهذه الحيلة المزعجة أن تعقد صلحاً مع التعاليم الدينية للسيجة إستمر إلى منتصف القرن الثامن عشر .

ولسنا نستطيع هنا أن نقص ما آداه رجال من أمثال هاتون وبلاشير وسير شارل ليال ، والفرنسيين لامارك وكوفييه من جليل الخدمات في كشف اللثام عن سجل المصخور^(١) وفي تطويره والنهوض به . ولم يحدث إلا ببطء أن أخذ الذكاء العام في العالم الغربي يستيقظ على حقيقتين أفضنا مضجعه إولاهما ، أن تعاقب الحياة في السجل الجيولوجي لم يكن يقابل الأعمال التي جرت في أيام الخليفة الستة ، ولأنهينها ، أن السجل في اتساق منه مع مجموعة كبيرة من الحقائق البيولوجية ، يشير إلى عكس ما يقرره الكتاب الفلسف من أن كل نوع خلق خلقاً منفصلاً ويشير إشارة صريحة إلى أن هناك علاقة وراثية بين كل أشكال الحياة ، علاقة كانت تضم

الإنسان نفسه ، ١١ وكانت أهمية هذه القطعة الأخيرة لدى النظام المنهجي الموجود بينه واضحة . فلو أن كل الحيوانات والإنسان كان نصيبها النشوء والارتقاء على تلك الشاكلة المتصاعدة ، تربى على ذلك أن لم يكن هناك أبوان لولان ، ولا عدن ولا خطية . وإذا لم تكن ثمة خطيئة فإن كل الصرح التاريخي للمسيحية ، وقصة الخليقة الأولى وهي المحبب الناصي إلى الكفارة ، التي أسس على أركانها التعليم الساري لمواظف المسيحية والأعمال للمسيحية ، فإن ذلك كله ينهار كبيت من ورق اللعب .

فلا صعب إذن أن يتبع جماهير خطيئة من الرجال الشرفاء ذوي القنوم المتقدمة في شيء مماثل للربح عمل عالم التاريخ الطبيعي الإنجليزي تشارلز دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) . ففي ١٨٥٩ نشر كتابه « أصل الأنواع بواسطة الانتخاب الطبيعي » وهو عرض قوى لا تبلى قيمته هذه الفكرة الخاصة بتغير الأنواع وتطورها التي رسمتها لك في إنجلترا في الفصل الثاني . وفي ١٨٧١ أتم معلم هذه بكتابه « أصل الإنسان » ، الذي أدخل الإنسان إدمالاً محدداً في عجلة التطور نفسها مع سائر الحياة والأحياء .

ولا يزال على قيد الحياة بين ظهرانينا رجال ولساء كثيرون يستطيعون أن يتذكروا الرعب والحزن الذي استولى على الأذكىاء العاديين في المجتمعات الغربية عندما أعلنت تتكشف الناس القضية التي لا تهرء قضية البيولوجيين والجيولوجيين عند « مبحث هذه الخليقة » في المسيحية السلفية^(١) . وقاومت عقول كثير منهم المعرفة الجديدة مدفوعين بالفرقة وحلم العقل . ذلك لأن صرحهم الخلق كله كان شديداً على دعامة من التاريخ الزائف ، وقد كانوا أكبر سناً وأشد جوعاً من أن يرضوا بتنازه مرة أخرى ، وخالوا هذه الحقيقة الجديدة لا تمشي مع ما كانوا يحسونه من الصديق العمل في معتقداتهم الخلقية . واحتفظوا أن في التعليم بها تمهيدا لسيل تقويض العلم من التسمية الخلقية . ومن ثم أحدثوا انديلاً خطياً بينهم مراهقهم عليها .

ولا كانت الجامعات في إنجلترا بخاصة هيئات دينية في تكوينها قبل كل شيء ،

(١) المسيحية السلفية Oxford Christianity : أو الخلقية على التوالي للامية المسيحية

فلما قلمت العلم الجليل مقاومة جد مريرة . فكانت أرجاء العلم الملمع تفل
بالخصومة الناصفة إيان السبعينات والثمانينات . ولعل أدل شيء على نوع المناقشات
وحمل الهالة القتالة للكتابة إيراد وصف جاء في كتاب « الأمور العادية » بقلم
هاكت ، جلسة الجمعية البريطانية في ١٨٦٦ ، حاصم فيه الأسقف ويلبر فورس
للعلامة هكسلي (Huxley) ، النصير العظيم لأراء دارون ، على هذه الشاكلة .

لجبه الأسقف نحو هكسلي وحمل فيه اتهامة وقحة ورجاء أن يعرفه « هل كان
ادعاءه الإنجيل من أحد القروء عن طريق جلته أو جده » ؟ وانضت هكسلي إلى
جبهه وقال « إن الرب قد أملمه لي في يدي » . ثم وقف أمامنا ونطق بهذه
الكلمات الماددة « إنه ليس بمنجمله أن يكون جده فرداً ، ولكن بمنجمله أن تكون له
صلة برجل يستعمل المواهب الكبيرة في تعبئة الصلوق » . (وثمة رواية ثانية تفضل
القصة على هذا النحو : « من الحق أني قلت : إنه ليس هناك ما يدعو رجلاً من
الرجال أن بمنجل أن يكون جده فرداً . فلئن كان هناك جد أنجيل من تذكره ،
فأحرر بذلك أن يكون رجلاً ذا ذعنة فلقه قلابة يخوض تحار مسائل علمية ليست
له بها حراية صحيحة ، لا شيء إلا لإدخال الخفاء والغموض عليها باستعمال بلاغة
لا تسهدف غرضاً ، وأن يحول إثغاث سامعيه عن القطة الحقيقية التي هي مدار
الزراع بواسطة الانحراف عن الموضوع بقصاحه والجوء الماهر إلى روح التسلل
والتحيز » . ولا شك أن هذه الكلمات قد نطقت في حلة . إذ كان للشهد مشهد
أفعال عظيم . فأمسى على إحدى السدات كما يقول هاكت . . . وذلك هو طراز
التخلق العنيف في هذه الخصومة .

وقد أخلت الحركة الداروينية ، للسبحية الرسمية بقعة وحمل غرة . فوجهت
السبحية الرسمية بطلقة في يافاتها اللاهوتية يمكن لإبائها والبرهنة عليها . ولم يوت
اللاهوتيون المسيحيون خطاً كافياً من العقل والحكمة ولا من نشاط القمن بمعلمهم
على قبول الصديق الجديد ، وعلى تعديل قانون الإيمان الذي لنسهم ، وأن يصروا
على الحيوية الخالدة التي لم يقص شيء منها . حيوية الحقيقة الدينية التي كانت
قوانين الإيمان حتى ذلك الحين كافية لتبصر عنها . فإن اكتشاف الجدار الإنسان من

اشكال شبه إنسانية لا يمس ولا يمن بعيد تعاليم ملكوت السماوات . ومع هذا المبدأ التساوية والامساكة ثلثوا بماريون ثورة خفيفة ، وقام بعضهم بمحاولات حقاء لمصادرة مؤلفاته وإعانة أنصار الأرواح الجديدة وشرائها . وتبادل القوم قدراً كبيراً من جوارح القول في « الخصومة بين الدين والعلم » .

والحق أنه لم يخل عصر من العصور من متشككة في المسيحية . فإن الإمبراطور ثيودريك الثاني كان على وجه التحقيق أحد المتشككين ؛ وفي القرن الثامن حشر كان جيرون وفولثير ينكران المسيحية صراحةً وجهلاً ، وأثرت كتابتهما في عدد من القراء مبشرين هنا وهناك . على أن هؤلاء كانوا أناساً غير عادين . . . فاما الآن فقد أصبحت كل المسيحية بوجه الإجمال متشككة . إذ مست هذه الخصومة الجديلة كل إنسان قرأ كتاباً أو سمع محاضرة بين أذكاء . وتماجيل جديد من الشباب ، نظر حوله فوجد المتنافسين عن المسيحية في حالة من الشراسة الحادة ، يجابرون من أجل قضيتهم بلا كرامة ، ولا إنصاف . وكان الذي رُج في ملوك الخطر بسبب تقدم العلم الحديث هو اللاهوت التقليدي الفلاني ، غير أن اللاهوتيين الغضاب كانوا يصرحون بأن الخطر إنما يهدق بالدين .

وقد يكتشف الناس في النهاية أن الذين سوف يزيّد من بريق صفاته عندما يزول منه كل ما هو ملفف به من مبادئ ملهية ، فاما الشباب فحبل إليهم أنه كان هناك نزاع فعلا بين العلم والدين ، وأن العلم كان المظفر في ذلك النزاع الكبير في مكرات الناس وطرائقهم في طبقات المؤمنين وفوى الفؤاد في كل أرجاء العالم الغربي العبيقة ، أورا عندما بالغوا في الواقع . ولم يأت العلم البيولوجي الجديد حتى ذلك الحين بشيء . إنشائي يخل عمل الأشياء القديمة التي طرحت جانبا . وتلا ذلك انحلال عقل حقيق .

وكان المستوى العام للحياة الاجتماعية في تلك الطبقات أهل كبيراً في بداية القرن العشرين منه في بداية القرن السابع عشر ، ولكن هناك منحنى واحداً للثمن فيه في العصر الأقدم كان أحسن منه في العصر الأحدث هو متحنى إمتناع المصلحة الذاتية ومراعات الضمير في تلك الطبقات . ويرجع أنه كان في طبقات الملاك وأرباب النشاط في القرن السابع عشر - بالرحم من وجود حلد قليل من « الكثرة » حقة

نسبة مئوية أعلى كثيراً منها في سنوات مثلث القرن العشرين من الرجال والنساء الذين كانوا يصلون إلى علاس ، والذين كانوا يبحثون في زرايا نفوسهم ليعرفوا هل أسقطوا ذراً ، كما كانوا على إستعداد لتحمل الآلام والتعبات بضحيات عظيمة في سبيل ما يظنونه الحق .

وقد أصيب العلم بخص حقيق في الإيمان بعد ١٨٥٩ . وكثيراً ما كان ذهب الذين الإبرير يبلد وي طرح مع الكيس البالي الذي حته بين دفتيه زمنا طويلا ، ولكن أحملاً لم يترجمه بعد ذلك . حتى إذا شارف القرن التاسع عشر نهايته كانت صورة مسرحية فجأة للذهب دارون قد غدت للمادة العقلية الجوهريية عند جامهر فضيرة من المستطمين ، في كل مكان . وكانت عند ملوك القرن السابع عشر وملاكه وحكامه وزعمائه فكرة في مؤخرة أذهانهم توحى إليهم بأنهم إنما يتولون ما يتولون بإرادة من الله . وكانوا يحشونه حقاً . وكانوا يطلبون القسوس لكي يصلحوا الأمور بينهم وبينه . فإن كانوا من الأشرار اجتهدوا ألا يفكروا فيه . ولكن العقيدة القديمة عقيدة ملوك مفتتح القرن العشرين وملاكه وحكامه انضطحت تحت ذلك الشعاع النوراني الذي بقيه النقد العلمي .

وكانت الشعوب العقلية عند ختام القرن التاسع عشر يحشون أنهم إنما يسودون بحكم وتنازع البقاء ، الذي يطلب فيه القوى الماكر على الضعيف الواقع الضعيف . وكانوا يحشون فضلاً من ذلك بأنه لا بد لهم من أن يكونوا ألوياء ناشطين قساة ، عميلين أنانيين ، لأن الله قد مات ، وكان على الفرد أن يخالون ميلاً -- وهذا شيء يتجاوز تماماً ما تبرره المعارف الجديدة .

ومرحان ما تجاوزوا مرحلة الفهم الخاطي الفصح الشعبي الأول للذهب دارون . وهو الفكرة القائلة بأن كل إنسان يعيش من أجل نفسه وحدها . ولكم تردوا فيما هو أقسى . ذلك بأنهم قطعوا بأن الإنسان حيوان اجتماعي مثل كلب الصيد المنطى . هو أكثر كثيراً من كلب حادي ، ولكنهم لم يصبروا تلك الحقيقة . وكما يحدث بالضبط في سرب الكلاب من ضرورة إخضاع الأصغر والأضعف وإرهابهم في سبيل الصالح العام ، فكذلك بدأ في أعينهم أن من الصواب أن تقوم الكلاب الكبيرة

في السرب الإنساني يزهق الغير وإخضاعه . ومن ثم نشأت زراية جديدة بفكرات
الديموقراطية التي رانت على العقول في أوائل القرن التاسع عشر ، وانبعثت من جديد
مشاعر الإعجاب بالمتجذرين والقساة .

وكان مما يوافق غصيبة ذلك الزمان تمام الموافقة أن يقنن المستر كبلنج^(١) أطفال
الطبقتين الوسطى والعليا في الجمهور الإنجليزي عائدًا بهم إلى الغائب ليتعلموا « القانون » ،
فهو في كتابه « متوكي وشركاء » يقدم وصفًا كله التقدير للطبيب الذي ناله ولسان
على يد ثلاثة آخرين ، كانوا قد انحطوا ضحاياهم حتى رطبهم رطلاً مؤلماً لافكك
لم مته ، - قبل إظهارهم مقاصدهم الملائية .

ويحذر بنا أن نوجه شيئاً من الإنذات إلى هذه الحادثة في كتاب « متوكي
وشركاء » ، لأنها تثير لنا خواض السيكولوجيا السياسية للإمبراطورية البريطانية
حده نهاية القرن التاسع عشر إثارة ناصحة جداً . وليس في المستطاع فهم تاريخ نصف
القرن الأخير دون تفهم للإلتواء اللغوي الذي تعد هذه القصة مثلاً من أمثله . والولدان
الفلان يملآن « مشاغلان شريران » ، وذلك هو الطور الذي يحل به مغنوبهما ،
هذا فضلاً عن أن قلبي حترى هؤلاء الآخرين على هذا الفصل الفاضح هو أحد
القصاصات . وما يستطيع تبيء أن يقل من اللوح الذي شرعوا يظنون به عملهم .
ويطرح أن التطببات كانت تخفى بأنه قبل اللجوء إلى الطبيب ، يجب عليهم أن
يستدجروهم في الحديث حتى يزول لسانهم زلة تستثير شيئاً من القيرة الأخلاقية التي
يمكن تبريرها ، وعندئذ يصبح كل شيء على ما يرام ، فإنكم إذا صفت أن تكون
السلطات إلى جانبكم ، لم يكن هناك وجه لتوجيه اللوم إليكم . وواضح أن ذلك
هو المبدأ البسيط لهذا الإستعماري المزدحج . على أن كل منذ أئيم قد اتبع ذلك المبدأ
على أحسن ما تيسر له مقدراته ، منذ أن تطور في الحيوان البشري الذكاء الكفاي
لمحلة قاسياً مساوية واجبة .

وهناك نقطة أخرى في القصة ذات مغزى كبير جداً في الواقع . فإن كلا من

(١) كبلنج ، هو جوزيف ويلارد كبلنج (١٨٦٥ - ١٩٢٩) شاعر وكاتب استعماري شهير
ولد بالغة وله مؤلفات كثيرة وحصل على جائزة نوبل (١٩٠٧) . (الترجمة)

الناظر ومساعدته الكنائس يَحْتَلان بوصفهما عاملين خبيين . فلأنهما ليرغمان في حدوث هذا الشجار والتمرد . وبدلاً من أن يستعملا ما في أيديهما من سلطان ، تراهما يستعملان هؤلاء الصيادين أبطال المستر كبلنج ليحاقبوا الضحيين وإن الناظر والتفسير ليعبران شكاة الأم الناضبة أذناً صماء . ويعرض المستر كبلنج هذا كله بوصفه أقصى المرغوب من الأحوال .

ولنا لننلس في هذا مفتاح أفصح لفكرة للاستعمار المعصرى (Imperialism) وأصلها رغبة وأعظمها في النهاية خطراً عليه وتثلاً له . وهي فكرة « مؤامرة ضمنية بين القانون والنصف غير الشرعى » . وكذا أن القيصرية الروسية دمعت نفسها آخر الأمر بتجميعها مرآة سفاحي « الملثات الموهمة » الذين كانوا يذهبون اليهود وأقوام آخرين ممن زعم القيصر أنهم معادون له ، فكانت تطلع الاسم الطيب ، للحكومة الإمبراطورية البريطانية « - وما يزال ملطخاً - بغارة غير مشروعة قام بها الدكتور جيمسون^(١) » ، على الترسقال قبل « حرب البوير » ، وما سوف نصف لك من غورنا من مغامرات السير إدوارد كارسون^(٢) (المعروف فيما بعد باسم اللورد كارسون) في لوندنة ، وإعضاء الحكومة البريطانية الضمى في لوندنة عما يسعونه « بأشد الأثر » الذى قام به الموالون للحكومة ضد مرتكبي (أو من يزعمونهم مرتكبي) احتدامات لندن بين^(٣) .

ولما تلمر الإمبراطوريات نفسها بمثل هذه الخيانات التى ترتكبها ضد رعاياها . فإن القوة الخفية للحكام والإمبراطوريات تقوم لا على أساس الجيوش والبحريات ، بل على اعتقاد الرجال بأنهم صرحاء صادقون قانونيون لا تلتين فتاتهم في الصراحة

(١) الدكتور جيمسون (١٨٥٣ - ١٩١٧) : مىس بللمصرات ولد بإدنبورج . وكان طبيباً يكبرى حيث أصبح سيداً لسل روس . وفى أوائل ١٨٩٦ قاد حملة جيمسون من ميكنج إلى الترسقال .

(المترجم)

(٢) من ليد إدوارد كارسون : انظر العالم الفصل ٢٨ القسم الثالث (المترجم)

(٣) لنس لنس : الحزب الوطنى الإرتدئ أسسه آرثر جيمس فى ١٩٠٥ ، وسيلته مقاومة الحكم البريطانى . وانتقلت رعايته عند ١٩١٧ إلى ديفالير اكبر الحركة الجمهورية ، وقد تطلب فى ١٩١٨ حل الحرب لنفخ الناس إلى الحكم الذاتي ، ووال من الرجوع بعد ١٩٢٢ . (المترجم)

والحق والقانون . فلا تكاد حكومة تخرج من ذلك المبدأ ، حتى تكف عن أن تكون شيئاً يتجاوز مجرد « مسر يتول الحكم » وتصبح أيامها معلومة .

٧ - فكرة القومية

سبق أن أشرنا إلى أنه لا بد من وجود خريطة سياسية طبيعية للعالم تقدم خير ما في المستطاع من التقسيم الجغرافي للإرادة الإنسانية . فإما أى تقسيم سياسي آخر للعالم غير هذه الخريطة السياسية المطابقة للطبيعة ، فسوف يكون بحكم الضرورة شيئاً مقللاً حرم نعمة التوافق ، ولا بد أن يفضي إلى العداوات والنزاع التي تنزع إلى تحريك الحدود في الاتجاه الذي تشير إليه الخريطة للسياسة الطبيعية .

وقد تلوح هذه المقترحات واضحة من تلقاء نفسها لولا أن الدبلوماسيين في حينها لم يكونوا يعتقدون ولا يفهمون شيئاً من ذلك القليل كما هو واضح من تصرفاتهم ، وظنوا أنفسهم أحراراً في أن يقطعوا أوصال العالم ، حرية من يقطع مادة لبنة كابلين لا حتم فيها . ومعظم الثورات والمنزعات التي ابتدأت في أوروبا عندما أفاق العالم مما ضيقه من إحياء بسبب حروب نابليون ، كانت كما هو واضح تمام الوضوح ، محاولات يذلها الرجال العاديين لتتخلص من الحكومات التي هي من عدم المطابقة لرغباتهم بدرجة تحيطها في كثير من الأحيان شيئاً لا يطاق . وعلى وجه العموم كانت الحكومات القائمة في كل أرجاء أوروبا كالتشيبي في حقوق الناس ، لأنها لم تكن تمثل الناس تمثيلاً إيجابياً ، وبهذا كانت تعوق الإنتاج وتضيق الاحتمالات الإنسانية بنحاً . حتى إذا أضيف إلى تلك المضايقات العامة ، الاختلاف في الدين وفي الثقافة العنصرية بين الحكام والمحكومين (كما في معظم أيرلندا) ، والقوارق في العنصر واللغة (كما هو الحال في إيطاليا الشمالية النمسية وفي معظم أرجاء الإمبراطورية النمسية) ، أو القوارق في كل هذه النواحي مجتمعة (كما في بولندا والإمبراطورية التركية في أوروبا) ، فقد بلغ السخط حداً دفع الناس إلى صفك اللجوء .

كانت أوروبا مجموعة من الأجهزة الحكومية يشعة التركيب والتوافق . وعن ضبط سوء التركيب هذا ، استغلت الحركات القومية المنوعة التي لعبت ذلك الدور الكبير في تاريخ القرن التاسع عشر ، قوتها المحركة

ما هي الأمة ؟ (Nation) . وما هي القومية ؟ (Nationality) ؟ فلئن نجحت

فصننا من العالم في التليل على شيء ، فقد أظهرت نماذج الأجناس والشعوب
وعلم ذات القضايا الإنسانية ، وتنوع المجموعات البشرية والفكرات الخاصة
بالترايط الإنساني تنوعاً سريع الغضب والنوران . فلقد قيل إن الأمة إنما هي تجمع
من الكائنات الإنسانية يظنون أنهم شعب واحد . ولكن يجبرونا أن لولثة أمة ،
ومن الحق أن آلسر البروتستانتية لا نشاط أصحاب هذا الرأي رأيهم . وكذلك
لم تكن إيطاليا تعتد أنها شعب واحد حتى مضى على تحقيق وحلتها زمن طويل .
وعندما كان المؤلف في إيطاليا في (١٩١٦) سمع الناس يقولون : متجننا هذه
الحرب شعباً واحداً .

وكذلك هل الإنجليز أمة ؟ أم هم قد انضموا في د قومية بريطانية ؟ الظاهر
أن الاسكتلنديين لا يعتقدون كثيراً في هذه القومية البريطانية . وليس في إمكان مجتمع
الجنس أو اللغة أن يكون أمة ، وذلك لأن الجليليين^(١) (Gaelts) والويلنديين
(Lowlanders) هما قوم الأمة الإسكتلندية . كما أنه ليس في الإمكان أن يكون
أساس هذا المجتمع هو الديانة المشتركة ، لأن بائطيرة عشرات من الديانات ؛ ولا أدباً
عاماً ، وإلا فإذا ترى بريطانيا متصلة عن الولايات المتحدة ؟ وجهورية الأرجنتين
متصلة عن أسبانيا ؟ وربما ذهبنا إلى أن الأمة إنما هي في الواقع أية جماعة أو خليط
أو حشد مضطرب من الناس إما أن يكون منكوباً بوزارة خارجية أو يرغب في أنه
يكون منكوباً بوزارة خارجية خاصة به ، حتى تصروف بكامل جماعتها كأنما كانت
حاجتها ورغباتها وكبريالاتها أشد أهمية من المصلحة العامة للإنسانية بوجه لا مجال
للمقارنة فيه .

وقد سبق أن تعقبنا من قبل تطور الملكيات المكيالية حتى انتقلت إلى حكم
وزارات خارجيتها وهي تلعب دور الدول (Powers) . ولم تكن د القومية ،
التي تسلطت على الفكر السياسي في القرن التاسع عشر لتزيد في حقيقتها من اللغات

(١) الجليلين : هم السكان المسكون في إسكتلندا باسم اللاتينيين ولهم هي الجيلة وهي فرع من
الكلية . (الترجم)

الرومانسية والوطنية في التآزمت الناجمة عن الخلافات بين الخريطة السياسية الطبيعية وبين التنظيمات السياسية غير المناسبة داخل مصالح مثل تلك « الدول » .

وقد كان يجري في أثناء القرن التاسع عشر كله ، وفي نصفه الثاني بوجه خاص ، إنضاج عظيم لهذه القومية في العلم - فبيل إن كل الناس إنما هم بحكم الطبيعة متعصبون بحب لأوطانهم ، ولكن الروح القبلية الطبيعية للناس في القرن التاسع عشر ، كانت روحاً مبالغاً فيها مبالغة غير طيبة . كانت روحاً مفيضة منضبة منبهة فوق ما ينبغي كما كانت ملهبة ومضغوطة قسراً في قالب القومية .

كانت القومية تعلم في المدارس ، وتؤكد في الصحف وتكتب في نفوس الناس بالتبشير والسخرية والفناء ، حتى خدث أخية فظيمة سرودت وجه كل للشئون الإنسانية . حتى لقد دُفع الناس إلى الشعور بأنهم من غير قومية يكونون من علم اللبابة على حال من يخرج عارياً على زحمة الناس . وأولت بالقومية الشعوب الشرقية التي لم تسمع بها أبداً ، مثل أولت بسجلات الغرب وقبعاته المستديرة السوداء . حتى لقد أصبحت الهند أمة - وهي ذلك الخليط المكون من متباين الأحاسيس والديانات والخلفات ما بين الهندية ومغولية وقرية ١١ وبدى أنه كانت هناك حالات مركبة كما يحدث عندما يضطر أحد الشبان اليهود يجرى هوايت شابل^(١) أن يقرر لضمه هل هو ينحس إلى الأمة البريطانية أو اليهودية .

ولعبت الصور الساخرة الكاريكاتورية والرموز المتحركة (Cartoons) السياسية دوراً كبيراً في هذا الإعلال الذي رفع بحلة تلك الأرباب القبلية الأحلث عهداً والأكبر حجماً - وما الأمم المصرية إلا أرباب قبلية - إلى ما وصلت إليه من حرة وتسلط على خيال القرن التاسع عشر . فلو تصفح أحدنا مجلة « بانث » (Punch) تلك السجل العجيب للعاصر القس البريطانية ، التي تعيش إلى اليوم منذ (١٨٤١) ، لوجد أشكالاً بريطانية وعبرانية^(٢) وفرنسية وألمانية وهي تتعاقب

(١) هرايت شابل (White Chapel) : هي من أحياء شرق لندن يقدم به برج لندن .

(الترجمة)

(٢) Hibernal : الاسم القديم الذي كان الرومان يطلقونه على لندنة . (الترجمة)

وتنازع وتعتاب وتفرح وتحزن . ولما ساعد الدبلوماسيين مساعدة عظيمة على مواصلة لعبة الدول الكبرى حملهم السياسة في شكلها هذا إلى القطة العامة للبشرية المرتابة .



(شكل ١٩٤) الأديان القبطيون في القرن التاسع عشر

فلإذا غضب الرجل العاى لإن أرسل إلى الخارج لكتبه يقتل ، أغلوا يوضحون له أن ذلك كان في الحقيقة جزءاً ضرورياً من كفاح هائل يستهدف البر والخير ، ولا مبدوحة معه بين الذين من هذه القوات القلمية المسحة الضخمة بدى أن يقولوا له إن ذلك نتيجة لعناد الذين من وزارات الخارجيه وشراعتها . لقد أساءت جرمانيا إلى فرنسا ، أو كانت إيطاليا تظهر للسماء الروح الواجبة .

وَم بعد مقتل الإبري يُعد انتهاكاً للعقل والحكمة ، بل عارت حوله حالة أسطورية من الكرامة . وكان الصبيان يستطيع أن يفتح بنفس الثوب الرومانسى الذى تكتسب به الدبلوماسية . فأصبحت لبلندة ربه تشبه سنترلاً ، هي كاتلين في هولبان (Cathleen ni Houlihan) ، المسكوة بالإساءات التى تمزق للقلوب والتى لا يمكن اغتفارها . وسمت « المبد الفتاة » مرتفعة فوق حفاضها يعادتها ياندى ماتارام (Bande Mataram)

وقد كانت الفكرة المؤهبة لقومية القرن التاسع عشر هي « المطلب المشروع » لكل أمة بالسيادة التامة ، وهو ادعاء كل أمة بأن لها الحق في إدارة شئونها الخاصة داخل حدود أراضيها الخاصة بصرف النظر عن أية أمة أخرى . وكان صيب هذه

الفكرة هو أن تكون كل مجتمع حضري ومصلحه إنما تمتد إلى أقصى أجزاء الأرض .
 فإن البحرية التي حدثت في سراجيفو في ١٩١٤ مثلا ، والتي تسببت عنها الحرب
 العالمية الأولى ، قد ترتب عليها نزول أشد المهن يهود لبرادور ، لأن تلك الحرب أوقعت
 الانحياز بالفراغ ، الذي يحملون عليه في الحصول على الضروريات من أمثال
 اللخيرة ، التي لم يكونوا يستطيعون بدونها أن يحصلوا على القدر الكافي من القوت .

وإن حالاً من الأمم المستقلة ذات السيادة يعني إذاً حالاً من الإساءات المستديرة
 حالاً من دول مستقلة على القوام للحرب أو مشعلة نارها أبداً . على أنه كان يساير
 التحيز بذلك القومية ويناقضها في الوقت نفسه ، دعاية قوية انتشرت بين الشعوب
 الكبيرة الكبرى مئة مجموعة أخرى من الفكريات : - هي فكريات الاستعمار
 (الامبريالية) التي يُلصق فيها لأمة قوية ومتفهمة ، بالحق في التسلط على أمة
 أخرى أقل تقدماً أو أمة أو شعوب أقل حظاً من التطور السياسي ، ولما تطور
 قوميها بعد ، وتتوقع منها للشعوب الكبيرة أن تشكر لها صنيعها في حياتها إياها
 وتسلطها عليها

وواضح أن هذا الإسهال لكلمة الإمبراطورية إنما هو استعمال مختلف عن معناها
 العام السابق . فإن الإمبراطوريات الجديدة لم تدع أنها استمرروا لإمبراطورية روما
 الحالية . بل هي فعلت أكثر الصلات التي تربط بين فكرة الإمبراطورية وبين
 سلام العالم

وعائان الفكرتان فكرتا القومية ، ثم الإمبراطورية ، بوصفها ناجاً على مفارقة
 النجاح القوي - غلبتا على الفكر السياسي الأول ، بل غلبتا في الواقع على الفكر
 السياسي العام في كل أنحاء النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وغلبتا عليه حتى
 نبذنا نبدأ علماً كل فكرة ذهنية أوسع منهما وفقاً تدور حول موضوع الخير الإنساني
 المشترك . كانتا فكرتين علميتين غير صليبتين بشكل خطر . ولم تكونا لنفلا أي شيء
 جوهري أو ثابت دوماً في الطبيعة البشرية ، كما أنها فشلت في أن توجهها الحياة
 الجديدة للهيئة العالمية والأمن العالمي اللذين لم تقف الثورة الميكانيكية تجعلهما كل يوم
 الزم وأهم .

وقد قبلت هاتان الفكرتان لأن الناس عامة لم تكن لديهم الآراء الجارفة التي تليقها دراسة التاريخ العالمي ، كما لم يعد لديهم التحيز الشامل الذي تتيحه ديانة حالية . ولم يدرك الناس خطرها على جميع روثينات الحياة اليومية العادية إلا بعد فوات الأوان .

٨ - المعرض الكبير ١٨٥١

بعد أن نخطى القرن التاسع عشر منتصفه ، انفجر هذا العالم ، حلم الدول الجديدة والفكرات القديمة ، هذا التنبؤ^(١) الجديد الآخذ في الاختار والموضوع في الزجاجات القديمة للديلموماسيين - مقلداً من القيود الترككية الخزينة التي أنشأتها معاهدة فيينا - ومنقلباً إلى مسألة من الحروب . بيد أنه كان من نظرية المصادفات أن سبق مجموعة الاضطرابات الجديدة احتفال ملهى ألفم في لندن هو المعرض العظيم في ١٨٥١ . وهذا المعرض يستحق مناقرة أو ما إليها .

كان الروح المحرك في هذا المعرض هو ألبرت أمير ساكس كوبرج جوتا ، وهو ابن أخى ليوپولد الأول ، الملك الألماني الذي وضع على العرش البلجيكي في ١٨٣١ ، والذي كان كذلك خال الملكة الصغيرة فيكتوريا الإنجليزية . وكانت احتلت العرش في ١٨٣٧ وحررها ثمانية عشر عاماً . وما لبث الأميران الشبان - وكانا في سن واحدة - حتى تزوجا في ١٨٤٠ تحت رعاية خالهما . وكان الأمير ألبرت يعرف عند البريطانيين باسم « الأمير الزوج Prince Consort » . كان شاباً ذا ذكاء موهور وعظيم ممتاز غير عادي ، ويلوح أنه صدم صدمة كبيرة بسبب تلك الركود اللعني الذي انحدرت إنجليزية إليه .

وكانت أكسفورد وكامبردج ، هذان المركزان المولفان ما تزالان تقيان على مهل من ذلك الانحطاس والقيود اللعني الذي أصابهما في أواخر القرن الثامن عشر . ولم يكن عدد الناجسين سنوياً في امتحانات القبول ليزيد في أى من الجامعات عن

(١) يقول الفيلسوف الإنجليزي : « قديم » (أولر) صم في وجهات جديدة : كتابة من لا يلقى جديد وقد قلب المؤلف سطون للقل وعكس معناه . (الترجم)

أربعة عشر . وكانت الامتحانات في معظم أمورها رحيمت شقية ، وإذا استثنينا كليتين في لندن (جامعة لندن) ، وكلية في ديرهام ، فإن ذلك كان كل التعليم الذي تقدمه إنجلترا في المستوى الجامعي .

وقد كان لاجتماعات هذا الأمير الألمان الشاب المظلوم ، على تزوج الملكة البريطانية ، الأثر الأكبر في تشكيل لجنة الجامعات ١٨٥٠ ، كما أنه قصد إلى زيادة وعي إنجلترا بأن شجع على إقامة المعرض الدولي الأول كسيا فافع للفرصة لعمل موازنة بين المنتجات التقنية والصناعية لدى الأمم الأوربية المختلفة .

حل أن المشروع لقي في إنجلترا اعتراضاً مبرراً . وتباً بعضهم في مجلس العموم بأن يمتح الألمان والهنود الأجانب إنجلترا ثم يفسدوا أبنائنا الناس ويحطوا كل عبدة وولاء في البلاد .

وهقد للمعرض في هاند هارك داخل مبنى جلبيد من الحديد والبرونز ، بني فيما بعد مرة ثانية تحت اسم قصر البلور . فألقى من الناحية المالية نجاحاً عظيماً . إذ جعل كثيراً من الإنجليز يدركون أن بلادهم ليست القطر الضامى الوحيد في العلم ، وأن الرخاء التجاري ليس احتكاراً بريطانياً أمراً ؛ العناية الإلهية . كما تجلبت أمام العيون أوضح الشواهد على أن أوروبا تتعاقد باطراد ما لم بها من دمار الحروب النابليونية ، وأنها أصبحت تتطلب سريعاً على زعامة البريطانيين في التجارة والصناعة . وبعد ذلك المعرض مباشرة أنشئت إدارة تقنون والعلوم (١٨٥٣) ، لتلوك ما فأت بريطانيا من تأخر في التعليم ، إن كان لك إدراكه سبيل .

٩ - سيرة حياة نابليون الثالث

أطلق المعرض الكبير في ١٨٥١ أسرار قلل جسم من الأحداث والمشاعر الدولية . وكان قبل ذلك قد وجد لساناً يترجم عنه في شعر الشعراء للشان من أمثال تيفسون الذي أتى نظرة نحو آفاق المستقبل حين قال :

« حتى لا تعود مطبول الحرب إلى النقي مرة أخرى »

وحتى تلفخ وايات القتال وتطوى ،

في برلمان الإنسان وفي دولة العلم المتحدة .

على أن تلك الرويا كانت سابقة لأوانها . من دون السلام الظاهري في تلك الفترة ، فترة الامسححة بالحررة والامتتارة السطحية ، كانت تثبت بلور حصول جديد من المآزعات المالية . فكانت فرنسا جمهورية بحرية إسمياً . ولكن رئيسها كان من أسرة بوناپرت وابن أخى نابليون الأول . وكان شخصاً ذا دهاء عظيم وإقدام كبير ، وكان مقتدرآ له أن يحلب على فرنسا وأوروبا نوارل كانت أشد وألكر مما رل بها من قبل حتى بما أوقعه عمه قبل ذلك بنصف قرن .



(شكل ١٩٧)

ذلك بأنه تهيأ للجمهورية الفرنسية التي حلت محل ملكية آل أورليان في ١٨١٨ ،

حياة وجيزة مضطربة . وكان يقضها منذ البداية مقترحات اشتراكية فجأة ترتب عليها قلق كبير من الاضطراب الاقتصادي وقدر أكبر من القلق في الأعمال ، فأما نابليون بونابرت الجديد — وقد لبس مسوح ، الأمين ، على التحرر والملاذ التي يجيد الثقة وبثبت أركان الأمور — فإنه استطاع أن يعزز بالانتخاب لمنصب الرئاسة في أكتوبر من تلك السنة . وأقسم إيماني باعتباره رئيساً بأن يظل غلصاً وفياً للجمهورية الديمقراطية ، وأن يعمله كل من يحاول تغيير شكل الحكومة علماً له . ولم تخفى صفات (ديسمبر ١٨٥٢) حتى غدا إمبراطوراً على الفرنسيين .

وقد نظرت إليه الملكة فيكتوريا أول الأمر نظرة بخالطها كثير من الارتباب ، أو قل نظر إليه تلك النظرة البارون ستوك مار ، صديق الملك ليوبولد البلجيكي وخادمه ، والمحيط على الصغير الدول للملكة البريطانية وروجها الملكي . وكانت هذه المجموعة من آل ساكس كوبرج جولاً كلها حاسة معقولة كريمة لوحدة ألمانيا ورافعتها على أسس من التحرر . وقد جنحوا إلى الانزعاج من انتعاش آل بونابرت من جديد . غير أن اللورد بليرستون كان من بلهجة الأخرى يعطف على المنتصب منذ البداية ، فاستوجب إسماء الملكة بإرساله الرسائل الودية للرئيس الفرنسي ، دون أن يعرضها عليها لتخصصها ، وأن يعطيها بذلك المهلة الكافية لاستشارة ستوك مار فيها ، فأجبر على التخل عن منصبه . هل أن البلاط البريطاني ما عثم بعد ذلك أن فار دورة جعلته في وضع أدنى إلى اللودة نحو المنظر الجديد .

وبشرت السنوات الأولى لحكمه ملكية تمردية أكثر ضماً بسيرة نابليونية ، وبحكومة تقوم على « الحزب الرخيص والأشغال العظيمة والأحزاب » (١) ، وقد جبر بحمارة عن عطفه الشديد على فكرة القومية ، التي كانت بحكم الطبيعة فكرة مقبولة جداً لدى أي لئالي ذكي متحرر . وسجلت أن برلماناً وجيز الأمد ، يمثل ألمانيا كلها للتأم في فرانكفورت في ١٨٤٨ ، وفرضه ملك بروسيا في ١٨٤٩ ، وقبل ١٨٤٨ كانت كل البلاطات الأوربية الكبيرة صاحبة تسوية فيينا لمجتمع

(١) قلا عن ألبرت توماس في الموسوعة البريطانية .

على نوع من المحالفة خشية اندلاع ثورة ثانية ديمقراطية أوسع انتشاراً . وبعد إخفاق الحركات الثورية في ١٨٤٨ وعودة الملكية إلى فرنسا ، ارتفع هذا الخوف ، وأصبح الجميع أحراراً في أن يرجعوا إلى ما كانوا فيه من تمييز المخلط وتخطيط أنصافها شأهم في الأيام السابقة على ١٧٨٩ - خاصة وقد صارت تحت تصرفهم الجيوش والأساطيل الأكثر قوة والأصخم عدداً وهي التي ألانها لم الطور النابليون . وبعد فترة دامت سنتين عاماً ، ابتدأت من جديد لمة « الدول الكبرى » في حياة ونشاط ، واستمرت حتى أنتجت كارثة ١٩١٤ .

وانتج نابليون الجديد خطة الحلز رديحاً من الزمن . وكان نقولا الأول يقصر لروسيا هو الذي قام بالخطوة الأولى نحو الحرب . لأنه حاد إلى توجيه الضربة التقليدية ، وهي طعنة بطرس الأكبر نحو القسطنطينية . واخترع نقولا عبارة «رجل أوروبا المريض» التي أطلقها على السلطان ، وإذا وجد علواً يتكئ عليه في سوء إدارة الدولة حيال السكان المسيحيين في الإمبراطورية التركية ، فإنه أحصل الإمارات الدناوية في ١٨٠٣ .

كان ذلك نكسة دولية حقيقية . فلان الدبلوماسيين الأوروبيين وجدوا أنفسهم حيال « مسألة » من طرلو القرن الثامن عشر نفسه . وكان مفهوماً أن خطط روسيا تصطلك بمحيط فرنسا في سوريا ، وتهدد طرلين بريطانيا العظمى إلى الهند عبر البحر الأبيض ، وتمنض الموقف من قيام محالفة بين فرنسا وإنجلترا تعضيلاً لتركيا وشيوع حرب هي حرب القدم التي انتهت بطرد روسيا . وربما زعم المرء أن الحد من تصرفات روسيا كان أحرق به أن يكون من عمل ألمانيا والنمسا ، ولكن شهوة وراثة الخلوجية في فرنسا وإنجلترا إلى إحراق أصابعهم في الشئون الروسية كانت على الدوام شهوة لا سبيل إلى كبح جماحها . ووجد نابليون الجديد في هذه الحرب فرصة يقوى بها روابط صداقة غير الوطنية مع بريطانيا والبلاط البريطاني ، الذي كان حتى ذلك الحين يتربع عليه .

والطور الحام الثاني من أطوار هذا الانتعاش في مسرحية الدول الكبرى ، كان استغلال الامبراطور نابليون الثالث وملك مملكة سردينيا الصغيرة بشال

إيطاليا ، لما تطوى عليه حالة إيطاليا المرفقة من مناعب وشقاوات ، وبوجه خاص للحكم المسمى في الشمال . وقام ملك سردينيا فيكتور عمانويل بصفقة من صفقات العهد الماضي للحصول على مساعدة نابليون مقابل ولايتي نيس وسافوى ، اللتين تأخذهما فرنسا ، على أن تعوض سردينيا من ذلك في إيطاليا . وما لبثت الحرب حتى شبت بين فرنسا وسردينيا من جهة والنمسا من جهة أخرى في ١٨٥٩ ، وانتهت في بضعة أسابيع . هزم النمساويون هزيمة منكرة في مابنتا وسلفرينو . وعمل نابليون إلى عقد الصلح لأن برومبا هددته على سرتلين ، وبذلك ترك لسردينيا غلبة عظيمة هي لومباردي .

وكانت الحركة الثانية في لمة فيكتور عمانويل ووزيره الأول كالفور حركة



(شكل ١٩٦) هاريانو

ثورية في عقيدة يقودها الوطني الإيطالي العظيم غاريبالدي وحورت صقلية ونابولي وانتقلت إيطاليا بأجمعها إلى يد ملك سردينيا لها عدا روما (التي ظلت على ولايتها البابا) وسقطت الهندية (التي كانت في يد النمساويين) في قبضه ملك سردينيا . واجتمع في تورينو برلمان إيطالي عام ١٨٦١ ، وملك أصبح فيكتور عمانويل أول ملك لإيطاليا .

ولكن انتقل حينذاك مركز الاهتمام في لمة هذه الدبلوماسية الأوربية إلى ألمانيا . وكان قبول الناس لفكرة وحدة إيطاليا في حدودها الجغرافية الطبيعية قد صار عقيدة ثابتة . ففي ١٨٨٨ أعدت كل ألمانيا بما في ذلك بالطبع النمسا الألمانية ردة من الزمان تحت ظلال برلمان فرانكفورت . ولكن هذا النوع من الاتحاد أثار بنوع خاص استياء كل البلاطات ووزارات الخارجية الألمانية ، لأنهم لم يكونوا يرغبون



(مکمل ۱۹۹) ۱۹۹۰ء

في قيام ألمانيا متحدة بإعادة أهلها ، من يريدون أن يتحد ألمانيا بواسطة جهود
الحكومة والبرلمان ، كما يحدث بطلب

وفي (١٨٤٨) أصدر الملك الألماني على أن ولايتي مشروبيج وهولشتين الألمانية
في معظم أمورها ، اللتين كانتا عضوين في الحلف الألماني ، لابد أن تنتميا إلى ألمانيا .
وأمر الجيش الروسي باحتلاله . فأمر ملك بروسيا أن تنقل الأراض من برلمان ألمانيا ،
وبذلك عجل بمقودة تلك الطية . وعندئذ أقبل ملك المانيا كزيمتيا التاسع
لأنه سبب سقوط سوى ما فطر عليه الملوك من حماقة ، فأقسم على حبة سمكة لصمو
الألمان في هاتين الموقيتين . وكانت ثلوث بروسيا آنذاك مكونة في غاب الشال
لك ودير من طراز القرن السابع عشر ، هوفون يسارك (لقب كونت في ١٨٦٥
وأمرأ في ١٨٧١) فرأى في هذا الخلاف فرصة ذهبية يجب انتهازها فأصبح

تصير القومية الألمانية في هاتين الدقيقتين (ولزام عليك أن تذكر أن ملك بروسيا رفض أن يقوم بهذا الدور لحساب ألمانيا الديمقراطية في ١٨٤٨) وأصبح النمسا بأن تنحاز إلى بروسيا وتتدخل معها بتدخل عسكرياً

ولم تكن أمام الدانمارك أية فرصة لإزاحة هاتين القوتين الكبيرتين . هزمت في سهولة وأجبرت على التخلي عن هاتين الدقيقتين .

وعند ذلك تلمس بيسارك حلاً مع النمسا في شأن امتلاك هاتين المقاطعتين للصغيرتين . وبهذا أحدث حرباً لا ضرورة لها ، يقتل فيها الألمان أحباء ، ولم يكن



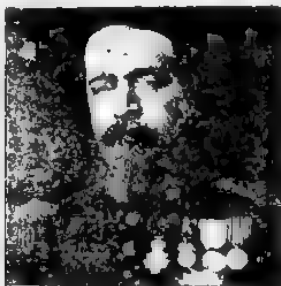
(شكل ١٩٨) بيسارك

يرى بها إلا استجلاب الجهد العظيم إلى بروسيا فضلاً عن رفعة آل هوهنزولرن في ألمانيا ثم وحده بين أجنزله ألمانياز هامة آل هوهنزولرن البروسيين . ولقد يذهب الكتاب الألمان ذرو النزعة الرومانسية ، إلى تمثيل بيسارك على صورة رجل دولة عظيم يسر خطط وحدة ألمانيا ولكن لم يكن في الواقع يقوم بأي شيء من ذلك . لأن وحدة ألمانيا كانت حقيقة واقعة في ١٨٤٨ . كانت وما تزال جزءاً من طبيعة الأنبياء . ولم تكن الملكية البروسية تفعل شيئاً إلا مجرد تأخير مالا متناهية منه ، لكي تلبو صاحبة العسل في إحراره عن

الطريقة البروسية . ولما حدث أنه عندما توحدت ألمانيا آخر الأمر . فإنها بسلا من أن تتخذ هيئة شعب عصري مملوء ، فلمت معها العلم بوجه ذلك البيسارك العبق الأبي ذي الشارب الخفيف المزيج والحذاء الطويل المصحم والسيف والحربة ذات الأسلة (١) .

(١) الأسلة ، حرف مستطيل يركب في أعلى الحربة (المترجم)

وفي هذه الحرب بين برومبيا والنمسا كانت إيطاليا تظهره لبروسيا ، على حين كان غالب الولايات الألمانية الأدنى شأنًا . والتي تخاف حطط بروسيا تقاتل في صفوف النمسا . وطبعي أن يرغب القارئ في أن يعرف لماذا لم يبرز ناپليون الثالث لصالحه الخاص هذه المسألة البديعة المواتية لصناعة السياسة ، ويدخل الحرب ؟ وكانت كل قواعد لعبة الدول الكبرى تنادي بضرورة دخوله . فإنه كان يسمح بذلك لمنافس خطر لفرنسا أن يهزم في أوروبا على صورة برومبيا . وكان ينبغي له أن يقوم بشيء ما للحيلولة دون ذلك . ولكن ناپليون كان له حقه واضعاً أصابعه في مصيدة على الحجاب الآخر من الأطلسي ، ولم يكن في مركز يسمح له أن يتدخل في تلك الساعة



(شكل ١٩٩) ناپليون الثالث

فقد أغرته أمريكا إغراء مؤثماً في الشقاق بين مصالح ولايات الجنوب والشمال اتحاد أمريكا الشمالية ، ذلك الخلاف الراجع إلى الفوارق الاقتصادية القائمة على الرقيق ، أدى آخر الأمر إلى نشوب الحرب الأهلية المبريئة . وسنعالج في قسمنا التالي موضوع هذه الحرب الأهلية ببيان أروق . ولن نزيد هنا عن القول بأنها دامت أربع سنوات ، وانتهت آخر الأمر بالولايات المتحدة وقد عاد إليها اتحادها . وشمل الفرح

كل عناصر الرجعية في أوروبا أثناء سنوات الخلاف الأربع هذه . وانضمت
الأمم المتحدة البريطانية صراحة مع الولايات الجنوبية الكونفدرالية ، وصمحت
الحكومة البريطانية لمدة سفن حرية خصوصية ، تخص بالذكر منها السفينة « الألباما »
يأن تصنع وتنزل إلى البحر في إنجلترا لمهاجمة سفن القنصلين .

وكان ناهليون الثالث أشد هوجاً وانخفاً بزمه أنه مها يمكن من شيء ، فإن العالم
أبليد قد سقط أمام التقدم . وكانت الولايات المتحدة حظرت حتى ذلك الحين كل
تدخل أوروبي في قارة أمريكا . وبعد ذلك الحظر على وجه الإجمال قاعدة ثابتة للسياسة
الأمريكية . ولكن تلك التبرع الوائبة التي هي « مبدأ مونرو » ، قد أقيمت آنذاك
جانباً وإلى الأبد فيها ناهليون الأول وبننا جزر الدول الكبرى الآن أن
تدخل مرة ثانية في أمريكا ، وأن نعيد بركات الملكية للمغامرة سيرتها الأولى هناك . .

والتمت المعانير للتدخل فوجدت في بعض التصرفات للتدخل حيال
أملاك الأجانب من رئيس جمهورية المكسيك . واحتلت حلة عسكرية مشتركة من
الفرنسيين والبريطانيين والألمانيين في قرية أكرور ، على أن مشروعات ناهليون كانت
أجراً من أن يطبقها حفاظه ، فانسحبوا عندما اتضح لم أنه لم يكن يلعب شيئاً
يقبل عن تأسيس إمبراطورية مكسيكية . وقد وقع إلى ذلك فضلاً بعد الشيء
الكثير من القتال العنيف ، وبين الأرشيلوق ماكسميليان النمساوي إمبراطوراً على
المكسيك في ١٨٦٤ . على أن القوات الفرنسية تملك البلاد مع ذلك تملكاً فعلياً ،
وتنهال إلى بلاد المكسيك حشد من المغامرين الفرنسيين بغية استقلال مناجها ومواردها .

إلا أن الحرب الأهلية انتهت في الولايات المتحدة في أبريل ١٨٦٥ ، ووجدت
القوة القليلة من الأوروبيين المملكين بلوغة المكسيك ، نفسها تواجه حكومة الولايات
للشدة المظفرة وهي في حالة نهج وحيوس تام ، وبين بينها جيش عظيم ينذر
منظره بالشر . ونخير الاستثماريون الفرنسيون تخيراً صريحاً بين الحرب مع
الولايات المتحدة أو الانسحاب من أمريكا . والواقع أن هذه كانت إشارة طوح
بالرجل . تلك هي المروعة التي حالت بين ناهليون الثالث وبين التدخل فيما شج

يقع بروسيا والنمسا في ١٨٦٦ ، وكان هذا هو السبب الذي من أجله حُكِلَ بجمارك
بترامه مع النمسا .

وعلى حين كانت بروسيا تقاتل النمسا كان نابليون الثالث يحاول أن يخرج
بكراته من مآزق الكسليك الشائكة . فاقترح حلفاً حقيقياً على مسائل مالية مع
ماكسمليان وسحب الحدود الفرنسية . وكان الواجب يقضى على ماكسمليان
حسب قواعد الملوكية أن يناول من العرش . ولكنه بدلاً من ذلك أخذ يقاتل من
أجل امبراطوريته . فهزمه رعاياه المعاندون وقبضوا عليه ، وأعدموه في ١٨٦٧
رماً بالرصاص بوصفه مصدر قلق للعالم . وبهذا أعيد سلام الرئيس مورو إلى
العالم الجديد .

وبينما كان نابليون مشغولاً في مغامرته الأمريكية الفاشلة ، كانت بروسيا
وإيطاليا تحتفظان النصر على النموسين (١٨٦٦) . حقاً إن إيطاليا أصبحت هزيمة شديدة
في كاستوزا وفي معركة ليسا البحرية ، ولكن الجيش النموسي بلغ من هزيمته الساحقة
على يد البروسيين في معركة سادوا أن سلمت النمسا تسليحاً ذليلاً . وكسبت إيطاليا
مقاطعة الثلاثية ، وبذلك خُطت خطوة أخرى جديدة نحو الوحدة - ولم يبق
خارج المملكة إلا روما ونترينا وعدن قليلة صغيرة على الحدود الشمالية والشمالية
الغربية . وأصبحت بروسيا رأساً لاتحاد احتلال ألمان شمال ، أخرجت منه
بالماريا وورتنبرج وبادن وهيس والنمسا .

وترتب على انتصار بروسيا هذا وعلى قبح النمسا الذي ترى ، بوصفها على
الأقل الرأس الإسمي للشئون الألمانية ، وعلى هذه الرغبة لسلطان مملكة فردريك
الكبير - أن أصبحت بروسيا وفرنسا وجهاً لوجه . وأصبح من الأمور الواضحة
أنهما متشككان في منافسة عظيمة ، وهي منافسة قلورها أن تنتج آخر الأمر أعظم
الحروب وأشدّها تدميراً وإفساداً على مر التاريخ . لم يكن الأمر إلا أمر زمن لا بد
أن تصطك بعده ألمانيا وفرنسا . وكان كل من الطرفين يعد التمدد الحربي ،

ولكن بروميا تفوقت على فرنسا في أن لديها مدرسين خيرا من مدرسيها ومستوى من الطاعة والكفاية أعلى مما لدى فرنسا .

وكانت الحرب أن تقب في ١٨٦٧ ، يوم حلول نابليون بمجرد أن أطلت من المكسيك أن يثير مع بروميا خلافا على مسألة لوكسمبرج . ثم وافت الحرب في ١٨٧٠ على أسس تمت إلى القرن الثامن عشر بلوثق الأسباب ، بسبب منازعة حول المرشحين لعرش أسبانيا الشاغر . وكانت تسور عقل نابليون فكرة بأن النمسا وبافاريا وورنمبرج والولايات الأخرى في خارج الاتحاد للكفدرالي الألماني الشمال سوف تتحز إلى ضد بروميا . ولعله ظن أن ذلك لا بد أن يحدث لأنه أراحه أن يحدث . ولكن الألمان صد ١٨٧٨ : كانوا حتى تعرضت بلامهم للتدخل الأجنبي يصبحون شعبا متحدا . وكل ماعله بهارك أنه فرس ملكية أسرة هوهنزولرن ، في جو من الصحافة والرميمات وسفك الدماء ، على حقائق قد تحققت . وانحازت ألمانيا كلها إلى بروميا ضد فرنسا .

وفي أوائل أغسطس ١٨٧٠ إبحجت القوات الألمانية المتحدة فرنسا . وأظهرت أنها خير من القوات الفرنسية في حيلها ونظامها وعتادها وتبليتها . وكان انهزام فرنسا مريرا تاما .

وبعد معركة ورت (Worth) وجرايبولت ، اضطر جيش فرنسي بقيادة بازان (Bazaine) أن يرتد إلى داخل مئز ثم أحبط به هناك . وفي أول سبتمبر اضطر جيش آخر كان معه نابليون ، أن يسلم بعد أن هزم في ميلان ، وأخذ نابليون أسيرا . ووجدت باريس نفسها مكشوفة أمام الغزاة . والمرة الثانية خذلت الوعود النابليونية فرنسا خلالنا ماحقا .

وفي اليوم الرابع من سبتمبر أعلنت فرنسا نفسها جمهورية من جديد ، وإذا عادت إليها فتوتها على هذه الشاكلة ، فإنها استعادت لقتال من أجل النقاء ضد البروسية المظفرة . ذلك أنه ، مع أن ألمانيا التي نظمت على الروح الإمبراطورية الفرنسية كانت ألمانيا للحيلة ، فقد كانت بروميا منها على صورة السرج . وإبليت الجيش المحصور في مئز حتى استسلم في أكتوبر . وعضمت باريس بعد أن

فرض عليها الحصار وضربت بالقنابل تسلمت في يناير ١٨٧١ ، وانتهت فرنسا الصلح . وهناك في قاعة المرايا بقصر فرساي بين مظاهر الآلهة والاحتفال الرسمي ووسط تشكيلة عظيمة من الحفل العسكرية يودى بملك بروسيًا إمبراطورًا لألمانيا ، ووقف بسمارك وصيف آل هوهنزولرن يديهما الفضل في تلك الوحدة الألمانية التي طلما أكدهما منذ زمن بعيد لغة مشتركة وأدب مشترك .

وكان صلح فرانكفورت الذي أعقب ذلك صلحا لآل هوهنزولرن . وكان بسمارك قد أفاد من شعور ألمانيا القوي واستغله في الحصول على حون الولايات الألمانية الجنوبية ، ولكن أتي له أن يدرك القوى البحرية التي حته وجبت سيده الملكي بالنصر . فإن القوى التي دخلت ألمانيا إلى النصر كانت قوة خريطة أوروبا السياسية الطبيعية التي تحم وحدة الشعوب الناطقة بالألمانية . وكانت ألمانيا في الناحية الشرقية ترتكز بالفعل الخطايا ضد الخريطة الطبيعية بإدارتها لوردن ولنواح بولندية أخرى . والآن وقد أحاطا النصر إلى الأراضي ويوجه خاص إلى مناجم الحديد ، فإنها ألحقت بها قسراً حصيا من اللورين الناطقة بالفرنسية بما في ذلك ستر ، والألزاس التي كانت بالرغم من لغتها الألمانية فرنسية الميول في غالب شأنها .

ولم يكن ثمة منلوحة من أن يحدث التصادم بين الحكام الألمان والرعابا الفرنسيين في هذه الولايات للسلطة . وكان لا منلوحة من أن تردد للإهانات والمرارة التي سمت فرنسا المهودة في اللورين أصلاء ملوية في باريس وأن تجعل قصب فرنسا الشديد مضطرا محتوما على اللوام . وحسوف قصر عليك فيما بعد كيف تأجيج هذا الحقد متسرا في لوب انتقام عظيم . . وأخى نابليون رأسه للصداع في إنجلترا ، ومات هناك بعد انهياره بسنة أو مائتاها ، وهكذا انتهت الدولة البونابرتية الثانية بفرنسا .

١٠ — لتكولن والحرب الأهلية في أمريكا

بما يريح القواد أن ينتقل الإنسان من هذا القصر البونابرتي ومن أعماله التي جلبت الكوارث على فرنسا ، ومن النصر الموقت الذي أحرقه آل هوهنزولرن

على الحركة الشعبية في ألمانيا ، - إلى شخص أعظم تماماً وأكبر أهمية وأبلغ قيمة ، هو شخص أبراهام لنكولن الذي يمكن أن يجمع حوله بنابة البسر والراحة حوادث الحرب الكبرى الأهلية في أمريكا .

وقد كان النصف الأول من القرن التاسع عشر الذي هو عصر رجعية وانتعاش في أوروبا ، كان في أمريكا فترة من قرات الخو النادخ المسرف . فإن وسائل المواصلات الجديدة وأعطى بها الزورق البخاري والسكة الحديدية ثم التلغراف والكهربائي الذي أعقبهما من قوره ، جاءت في أنسب الأوقات للفتح حركة السكان قُدماً عبر القارة . ولولا هذه الوسائل الميكانيكية المساعدة ، فربما لم تصل الولايات المتحدة غرباً حتى في يومنا هذا إلى ما يتجاور جبال روكي ، وربما كان شعب يخالف من يرى تمام المقابلة يكون هو المملك على الشاطئ المشرق .

ولا يزال أسراً لا يفهمه السياسيون إلا فهماً أثير قاصراً ، مسألة إلى أي حد تبلغ درجة اعتماد المساحات المحيطة بالحدود الحكومية والإدارية على وسائل المواصلات المستعملة وعلى طبيعة البلاد من حيث علاقتها بالقل . فإن الوديان المفتوحة إذا أتاحت لها الطرق والكتابة ، تنزع إلى الارتباط في ظل حكومة واحدة . فلما الحواجز الجبلية لما كانت لتضلل الشعوب فصب بل الحكام أيضاً ، وكانت الإمبراطورية الرومانية إمبراطورية « طريق سلطاني »^(١) وعجلة ، وكان قسمها وهرتها وسقوطها راجعة إلى استطاعة إقامة مواصلات سريعة بين الجزء منها والجزء . وكانت أوروبا القارية التي خرجت من غمرة العاصفة النابليونية ، مقسمة إلى دولات قومية ، لعلها وصلت إلى أقصى اتساع تستطيع أن تبلغه دون فقدان التماسك ، على حين كانت قوة جر الحصان على الطريق السلطاني أسرع وسائل الارتباط لديها .

فلو أن سكان الولايات المتحدة انتشروا فوق القارة الأمريكية وليس ليسهم إلا جر الحصان ، والطريق الخشن الوعر وكتابة الرسائل ، ومبلة ارتباطهم بعضهم ببعض ، فإنه يلوح أمراً لا مندوحة منه أن القوارق في الأحوال الاقتصادية المحلية

(١) طريق سلطاني (High-road) ، له طريق كبير يمتد بين المدن والأقاليم . (المترجم)

كانت لا بد مطورة فتحة طرراً إيجابية محظية ، وأن الاتفاق المصحح كان لا بد له من أن يقوى فروقا في اللهجات وأن يزيل التعاطف ، وأن الماء الذي يقاسيه من يريد حضور جلسات الكونغرس بواسطون ، كان لا بد مزاداً مع كل تقدم



(شكل ٢٠٠) لكون وحصه.

المحدود صوت العرب ، حتى يراى الأمر بالولايات إلى الشرق في عصبة صله العربى مكتوبة من أهم متاعلة مسعده تقريباً ، ودين لكاب لحروب على الثورة

الخليجية والتمتع إلى البحر وما إليها ، تنقب ذلك ولا مناص ، وكانت أمريكا تنظر أوروبا أخرى .

غير أن الزورق البرناري النهري والسكة الحديدية والتلغراف ، وصلت في أوانها لمنع هذا التفرق . وأصبحت الولايات المتحدة هي الأولى في طراز جديد من القوالب ذات الثقل المصري ، وهي أكثر تحملاً وأشد قوة وأبلغ إدراكاً لوحدها من أية دولة رأيا العالم من قبل . إذ أن الزراعة السائلة اليوم في أمريكا ليست إلى التفرق والتباعد بل التمثل والامتصاص ، حتى ليزداد للمواطنين في الأجزاء المختلفة من الولايات ، لا اختلافاً بينهم من بعض بل اتفاقاً في الحديث والفكر والعادة . حقاً إن الولايات المتحدة لا تتقارن بدولة أوروبية مثل فرنسا وإيطاليا ، بل إنها طراز من التنظيم السياسية أبعد جهلاً وأكبر حجباً .

وقد قامت في العلم لأميراليات تضامى الولايات المتحدة في الساحة وعدد السكان ، ولكنها كانت مجرد تجمع من شعوب دلوعة الجزية لا يرحطهم شيء إلا حكومة من الحكومات . فأما وحدة الولايات المتحدة خطرية فهي مجتمع قائم على التباهي ، ذنبي لشعب يربي على مئة مليون من الناس السكك الحديدية التي زادت متازعات أوروبا ومشاحنتها حطة ، والمخترعات التي أتممت مسافة الفضية التي تضرنا بالجوش الأوربية . وأتلحت لم قوى مدعرة تزداد على مر الأيام ، إلى حد أنه يلوح الآن أنه لا اختيار أمام أوروبا الغربية بين التوحيد طوعاً أو التوحيد كرهاً تحت سلطان إحدى الدول الثالثة ، وبين الفوضى والدمار ، - هذه السكك الحديدية ، وهذه المخترعات قد مكنت ورمحت الوحدة المرة لأمريكا الجمهورية . وقد عاد البخار على أوروبا بالإحضان وجلب لأمريكا التمرص السوانج .

ولكن الشعب الأمريكي مرّ وهو في طريقه إلى هذه المنظمة الرائعة والأمنة الحاضرة في دور من أدوار الصراع الرهيب . فلك أن الزورق البخارية النهرية والسكك الحديدية والتلغراف ، وما أشبهها من تسيلات ، لم تصل بالسرعة التي تمكنها من تجنب النزاع المتزايد عمفاً في المصالح والفكرات بين الولايات الجنوبية

المملكة لرفيق وبين الشمال الصناعي البحر - بل الواقع أن الزوارق البخارية والسكك الحديدية لم يتم في مبدأ الأمر إلا بزيادة أولر وعنف التفارق الثابت من قبل والمراسخ من قبل . كان هناك فارق حقيق في الروح بين قسمي الولايات المتحدة ، وترتب على ترديد توحيد البلاد للتاجيم من وسائل النقل الجديدة ، أن أصبحت مسألة المفاضلة بين سيادة روح الشمال أو روح الجنوب ، ذات خطورة تزداد حدة على الدوام . وكان الأمل في التطارب والصلح ضئيلاً . فإن الروح الشمالية كانت روحاً حرة فردية وانجذبت الروح الجنوبية إلى الضياع الكبيرة وإلى سادة قوى وهي قوى بأنفسهم يحكون حشداً من الرعايا أسمر البشرة خاضعاً . وكانت عواطف الراديكاليين والأحرار البريطانيين منضمة إلى أهل الشمال ، بينما كانت عواطف أصحاب الأملاك البريطانيين والطبقة الحاكمة البريطانية منحازة إلى أهل الجنوب .

وأصبحت كل قطعة من الأرض تنظم في شكل ولاية ، وكل إضافة جديدة إلى المجموعة الأمريكية للسرعة النمو ، - تصبح ميداناً للنزاع بين الفكرتين . فهل يجب أن تكون الولاية الجديدة ولاية من المواطنين الأحرار أم ينبغي أن يشملها نظام الضياع الكبيرة ذاك ؟ ولم تزل هذه قطعة النزاع تتعرج ببطء حتى تسلمت على الثغور الأمريكية بعد تأسيس ولاية مسوري في ١٨٢١ وأركانساس في ١٨٣٦ بوصفها ولايتين تملكان الرفيق . وعند ١٧٣٣ كانت هناك جمعية لمنع الرفيق لم يختصر أمرها على مقايضة التوسع في ذلك النظام ، بل كانت تحرك البلاد من أقصاها إلى أقصاها بنية إلغائه إلغاء تاماً . وتأجيج الخلاف عمراً حول إدخال تكساس إلى حظيرة الاتحاد . وكانت تكساس في الأصل جزءاً من جمهورية المكسيك ، ولكن كان معظم من يستعمرها أمريكيين من الولايات المتملكة لرفيق ، فافصلت عن المكسيك وأسست استقلالها في ١٨٣٦ . وأحبط ذلك اضطراب قوى من أجل استحقاق تكساس ، وانلقت تكساس في ١٨٤٤ ، وأدخلت ولاية في الاتحاد في ١٨٤٥ . وكان الرفيق عطفواً في تكساس في ظل القانون المكسيكي ، ولكن لجنوب طالب الآن بتكساس من أجل الرفيق وحصل عليها .

زد على ذلك أن الحرب التي خبت بينهم وبين المكسيك بسبب استحقاق

تكساس ، أدت إلى إضافة تيوميكسيكو ومسحلت أخرى إلى الولايات المتحدة وفي هذه المناطق كذلك كان الرقيق مباحاً ، وجاء مشروع قانون المبدأن الأجنبيين في كفاية وسائل القبض على المبدأن الذين يهربون إلى الولايات الحرة لإعادتهم إلى أربابهم . وفي نفس الوقت كان مطلوب من الملاح في المخطات يطلب أرواحاً متزايمة من المهاجرين من أوروبا يذهبون في عدد سكان الولايات الشمالية الأصليين في الاتجار ، وأدى رفع ليدوا وهسكونسين ومينيسوتا وأريزون ، وهي كلها أراضي مزراع عمالية ، إلى مربة الولايات إلى منح العمال المشرس الرقيق أغلبية تمككة من تسلط في كل من مجلسي الفيوخ والنياب . وإذا ثارت ثورة بلحوب فزارع قطن لما التهدد المزاييد الذي يصدر من حركة الناعمين إلى إلغاء الرق ، ولذا عشى علنا التسلط العمال في الكونجرس ، فإنه راج يحدث في الانفصال عن الاتحاد . وشرع أهل بلحوب يحلمون بضم ما يقع جنوبهم من أراضي في بلاد المكسيك وجزائر الهند الغربية ، وهدوة عظمية المبدأن منظمة عن الشمال ومعدة من خط ماسون وديكسون إلى بناما .

وأصبحت تكساس مسرحاً لثبات النهائي في الأمر . فإن الكفاح على الرقيق في منطقة تكساس فيما أودك أن يكون حرباً أغلبية بين المستقرين فيها من أهل الولايات الحرة والمهاجرين إليها من أهل ولايات الرقيق ، وهي حرب استمرت حتى ١٨٥٧ وانتهت بفوز أنصار منع الرقيق من المستوطنين . ولكن تكساس لم ترجع إلى درجة ولاية حتى ١٨٦١ . وكانت توسعة مجال الرقيق هي نقطة انطلاق الرئيسية للثورة على البلاد في انتخابات الرئاسة في ١٨٦٠ . ونجبر دعوة أبراهام لنكولن بوصفه رئيساً متافهماً للتوسع ، عملاً حاسماً خسر بلحوب على أن يقرر لضم حري الوحلة .

فأصبحت كاليفورنيا الجنوبية مرسوماً بالاتصال ، واستطعت تكساس خلال الحرب . وانضمت إليها في أوائل ١٨٦١ ولايات المسيسي وفلوريدا والآلاباما وجورجيا ولويزيانا وتكساس . واجتمع مؤتمر في مونتغمري بولاية الآلاباما ، وانظر جيفرسون داليز رئيساً ، الولايات الكونفدرالية : الأمريكية ، وتبنى دستوراً

يشابه دستور الولايات المتحدة ولكنه كان يؤيد بنوع خاص نظام استرقاق الزنوج .

ذلك هو الموقف السياسي الذي صمى أبراهام لنكولن لمعالجته بوصفه رئيساً للاتحاد . وكان بمحض المصادفة رجلاً نموذجياً في تمثيله الشعب الجديد الذي ظهر بعد حرب الاستقلال . وكان أهله أناساً لا يزينون على العاديين من عامة الناس ، فلم يكن أبوه ليحرف القراءة أو الكتابة إلا بعد زواجه ، وكانت أمه لها يقال ابنة خير شرعية . وكانت امرأة أوثقت عقلاً راجحاً وعقلًا ممتازاً .

وقد قضى سنه الأولى بوصفه تلميذاً صغيراً يشغل مع فيض السكان العام المتجه غرباً . ولد في كنتكي في ١٨٠٩ ، وحمل إلى إنديانا وهو غلام ، ثم أخذ بعد ذلك إلى إلينوى . وكانت الحياة عشتة في تلك الأيام في غابات إنديانا البعيدة عن العمران ؛ فكان المنزل لا يزيد على كوخ من الكتل الخشبية تقام في البرية ، وكان حظه من الصلح المبرسي ضئيلاً وعارضاً . على أن أمه علمته القراءة منذ بواكير حياته ، ثم أصبح قارئاً ماثلاً يلهم كل ما تقع عليه يده من كتب .

وعندما بلغ السابعة عشرة أصبح شاباً رياضياً ضخم الجثة ، مصارعاً عظيماً وعداءً قوياً . ولما بلغ التاسعة عشرة انتقل في النهر إلى نيواورليان أجبراً في ذوق . واشتغل حيناً كاتباً في أحد المتاجر ، وعمل متطوعاً في الجيش في حرب ضد الهنود ، ودخل ميدان الأعمال فأنشأ متجراً مع شريك سكير ، فوقع في ديون لم يستطع أن يسدهما تماماً إلا على مدى خمسة عشر عاماً . ثم حصل أخيراً عندما قارب الرابعة والعشرين على عمل يشغل فيه وكيلًا لمساح مقاطعة سانجامون وهو عمل قال عنه إنه « أسكد ريقه بالجهد الجهد » .

وكان مكناً على القراءة كل ذلك الزمان . وكانت الكتب الأولى التي قرأ - تلك التي تتكون اللحن - قليلة ولكن من الصنف الجيد فيما يلوح ؛ كان يقرأ كل ما تصل إليه يده ؛ وكان يعرف شبكسبير وبيرز جيد المعرفة ، وحياة واشنطن وتاريخ الولايات المتحدة الخ . وكان التعبير لديه غريزة فطرية ، فكان منذ بفاعته يكتب مثلاً يدرس ، منتجاً للشعر والقصائد وما أشبهها . ولكن

الكثير من إنتاجه هذا مادة خشنة متواضعة . ومرعان ، اجتمعت السياسة إليها .
 في ١٨٣٤ يوم كانت سه لا تزيد على خمسة وعشرين من السين انتخب عقوفاً
 في مجلس النواب عن ولاية إلينوى ، ودوس الحقوق وانتظم في سلك المهامة في
 ١٨٣٦ . وانقضى عليه زمان اشتغل فيه بالقانون أكثر من السياسة .

ولكن المسألة العظمى المطروحة أمام شعب الولايات المتحدة كانت تصر على
 شغل إقباله كل رجل أوقى الاختلاف . والحق أن هذا الرجل الضخم القنندر المعلم
 نفسه ، والذي كان مثلاً نموذجياً مائلاً لرجل الغرب الأوسط ، لم يسه إلا أن
 يتأثر تأثيراً حقيقياً بالتطور المستمر في الخلافات على الرق والانفصال . وكانت المسألة
 ملته الأوار في إلينوى بوجه خاص لأن الزعيم العظيم في الكونغرس لحزب التوسع
 في الرقيق كان هو السناتور دوجلاس وهو من إلينوى . وكانت هناك منافسة
 شخصية بين الرجلين . إذ كان كلاهما قد خطب السيدة التي أصبحت المنز
 لتكون . وكان دوجلاس رجلاً ذا اقتدار ومقام عظيم ، وظل لتكون
 بضع سنين يحاربه بالخطابة والشرائح في إلينوى باندئ الأمر ثم في الولايات الشرقية
 برمها ، وهو يرمع في ثبات إلى مركز خصمه القوي والمتبصر آخر الأمر . وبلغ
 كفاحهما الأوج بحملة انتخابات الرئاسة في ١٨٦٠ وفي ٤ مارس ١٨٦١ احتل
 لتكون رئيساً ، والولايات الجنوبية في حالة انفصال لعال وهي ترتكب
 أملاً حرة

وكان أول إجراء قام به الانفصاليون هو استيلائهم على جميع حصون الاتحاد
 القدرالي ومخازنه الموجودة داخل حدودهم . وكانت هذه المراكز التابعة للاتحاد
 مبنية على أراضي نخلها الولايات التي كانت فيها ، ولدت هذه الولايات لنفسها
 الحق في استرجاع ممتلكاتها . وقاومت حامية فورت سمتر في شارلستون ، وابتدأت
 الحرب بإطلاق القنابل على هذه القلعة في ٢ أبريل ١٨٦١ . ولم يكن لدى أمريكا
 في ذلك الوقت سوى جيش نظامي صغير جداً ، أقام على ولائه للرئيس . ومن
 ثم فإن الذين قاموا بهذه العمليات الانتحارية الأولى للاتحاد الكونغرسالي للولايات
 الجنوب كانوا مجتهدين جديداً جمعوا من الولايات . واستدعى الرئيس لتكون على

القوة الحية وصيغين أكفاً من الرجال ، وانضمت تنسي وأركنساس وكارولينا الشمالية وفرجانيا مباشرة إلى الاتحاد الإحتلال^(١) الذي كان آنذاك قد رفع علمه الخاص به لتكون من : النجوم والخطوط الرأسية : مقابل النجوم والخطوط الأفقية .

وبذلك اجتمعت الحرب الأهلية في أمريكا . وكان يقوم بالقتال فيها جيوش مرتجلة أصبحت تنمو نمواً مطرداً من عشرات قليلة من الآلاف إلى مئات الآلاف . حتى لويت قوات الاتحاد الفدرالي أكثر الأمر على مليون من الرجال ، وكانت الحرب تطلب فوق مساحات هائلة تمتد بين نيويورك وكو ولبور الشرقي . وكانت واشنطن وواشنطن وواشنطن هما اللذان الرئيسان . وانه لما يتجاوز مجالنا الراهن أن نحدثك عن تلك الحقبة للترهبة لذلك الكفاح الحافل بالبطولة والذي كان يبدو مظهره فجاءاً وجية عبر القتل والآلام في تنسي وفرجانيا وينحدر من وادي المسيسي . وجرت الحرب في أنيفالفا كل فطرح من القتال والدمار . وكانت الحقبة ظروفاً الحقبة للضجادة ، وكان اليأس يحمل على الرجاء ، ثم يعود الأمل فيتمرخ ثم يعود القنوط ليخيم . وكانت واشنطن تبدو في بعض الأحيان في متناول يد الاتحاد الفدرالي . ثم تعود جيوش الاتحاد الفدرالي لطساب نحو واشنطن .

وكان المظنون رجال الجنوب الفدرالي وهم أقل عدداً وأقرب كثيراً في الولد ، يقاتلون بقيادة لاند ذي كفاية ملاقة لأمه الجنرال لي . وكانت قيادة الاتحاد الشمالي أقل كثيراً من ذلك كفاية وإعتدلاً . وظل نكون متسلطاً زمناً طويلاً بالجنرال مالك كيلان : باليون الصغير ، وهو قائد مدافع مبال للتسوية غيب لما كان يقف عليه من آمال . وظل الرئيس يطرده القوات ويحين آمهين جديداً ، حتى انتهى الأمر بأن جاء الفوز على يد شرمان وجرت على الجنوب الرث الفاتكة القوي . وفي أكتوبر ١٨٦٥ استقرت جيوش الاتحاد بقيادة شرمان بمصرة الجنوب الفدرالي ، ثم تقدم

(١) بلاط القارط أناسيا (Consensus) باسم الاتحاد الإحتلال (الفدرالي) في الولايات
هذه أربعة للشككة . على حين جعل الاتحاد (أو الاتحاد الفدرالي) مقابلاً كما هو مرسوم لكثير
من (Consensus) : (Consensus)

من نفس هو جورجيا إلى الشمال ، محترقا بذلك أراضي الجنوب الكنتونال
أكمل احتراق ، ثم خرج خلال الكارولينتين الشمالية والجنوبية حتى أطلق على
موتيرة جيوش الجنوب . وفي نفس الوقت كان جرات يوقف في أمام وينشوند حتى
أطلق عليه شرمان .

وفي اليوم الثاني من إبريل ١٨٦٥ أعلنت جيوش الكنتونالين مدينة وينشوند ،
وفي اليوم التاسع من إبريل ، سلم ل وجيت عند أبرماتوكس كورت هاوس ،
ولم يبق شهر حتى كانت جيوش الانفصاليين الباقية قد وضعت السلاح جوعاً وحتى
كانت دولة الاتحاد الكفولاني قد انتهت .

ولكن هذا الكفاح الذي دلم أربع سنوات أصعب شعب الولايات المتحدة بإجهاد
هائل جثالي وعقلي . فكان الرأي متقسماً انقساماً حاداً في شأن الحرب . كثير من
الولايات من أمثال ماري لاند وكنتكي . وذلك بأن مبدأ الحكم الذاتي في الولاية كان
مبدأً عزيزاً جداً على أذهان كثيرة ، والحق أن الشمال كان ينادي زى من يتكسر
الجنوب على إلغاء الرقيق كرها . ولما كان الكثير من الرجال يعارضون فكرة الرقيق ،
ولكنهم كانوا كذلك ضد التدخل في شأن السلطان الحر لكل ولاية على سكانها ،
فأما الولايات التي على الحدود فإن الأعوة وأبناء لهم ، بل حتى الآباء والأبناء ، ربما
كانوا ينضون تحت ألوية متضادة ويمدون أنفسهم في جيوش مقاتلة متعادلة . وكان
الشمال يشعر بأن قضية قضية برونخير ، ولكن هذا البر والتعب لم يكن في رأى هذه
عظيم من الناس برأ كاملاً غير مقصود ولم يكن مكيناً لا يمكن تحديه .

ولكن لتكون لم تساوره خجلة شك . فانه يثق صافي للهن وهو في محرمات
هذا الأرباك . وكان الاتحاد يبدأ الذي يؤمن به ويتدخل من أجله ، وكان سلام
أمريكا العظيم حقيقته الراسية . كان يعارض الرق ، ولكنه يرى أن الفرق إنما هو
مسألة خلاف ثانوى . وكان غرضه الأول هو ألا تنزق الولايات المتحدة إلى
تسمين متباينين متناحرين . ولما لأنه ظل طوال سنوات الكفاح الأربع للمدينة ،
صامداً كاملاً هو عقيدة راسية لا تلين وعزيمة ثابتة لا تنه .

وعندما حدث في مراحل الحرب الأولى أن الكونجرس والواد الاتحاد شرحوا

في إصدار قرار بإحراق الرقيق عليه طابع المجلة والتمسح ، اعترض لنكون على ذلك وحذف من حدة حاستهم فإنه كان يرى وجوب تحرير الرقيق على مراحل ومع التمسح . ولم يصل الموقف إلا في يناير (١٨٦٥) إلى درجة التضج التي تسمح للكويجرس بأن يقترح إلغاء الرقيق إلغاءً أبدياً بتعديل دستوري ، حتى لقد انتهت الحرب عملاً قبل أن تم تصديق الدولة على التعديل .

وبينما كانت الحرب تسير متناظرة أثناء سنتي ١٨٦٧ ، ١٨٦٣ ، خبت الحدة الأولى والمهام السابقة ، وتعلمت أمريكا علم كل أدوار مائة الحرب والاضطرار من الحرب . وحل التجنيد الإجباري محل التطوع وبدلاً من روح القتال في كل من الجنوب والشمال . وأصبحت الحرب كفاحاً مديداً جديداً يقتل فيه الأخ أخاه .

وشهد شهر يوليو ١٨٦٣ مدينة نيويورك تشب على مشروع التصاير الحربية التقدم إلى الكويجرس ، وحاول الحزب الديمقراطي في الشمال أن يفوز في انتخابات الرئاسة بحجة أن الحرب قد فشلت وأنها يجب أن توقف . وكان معنى هذا بالبدنية نصراً عملياً للجنوب . ونظمت المؤامرات لهزيمة المشروع بالكويجرس . وأثنى الرجل النحيف الطويل صاحب البيت الأبيض نفسه لزاء دعاة هزيمة وتردد ، وغيرة وقواد معزولين ، ووجد من وراءه سياسيين حزينين لولويين ، وشعباً متشككاً متعباً ، وشهد أمامه قواد غير ملهمين وجنوداً منحلة الروح للمعوية . ولا بد أن أكبر سلوته كانت في شعوره بأن جيفرمسون دافيز في ريتشموند لا يمكن أن يكون أحسن منه حالاً .

وأساءت الحكومة البريطانية السلوك ، فسمحت لوكلاء الجنوب الكائنات في إنجلترا أن يزلوا إلى البحر ثلاث سفن حربية خاصة سريعة وعمونوا بالرجال — كانت الألبانيا أشهر ما يتذكره الناس منها — وحققت تلك السفن تصعب سفن الولايات المتحدة وتطاردوها في البحر وكان الجيش الفرنسي في المكسيك يصرح ببلد مونرو في الوحل . ثم جاءت من ريتشموند مقترحات خبيثة : أن تجاوزوا عن الحرب ، وأن دعوا التلازمات المؤدية إلى الحرب إلى مناقشات تالية ، وانقلبوا جميعاً من ظلالين وكندرايين إلى التحالف على الفرنسيين في المكسيك .

ولكن لنكون أبى أن يعنى إلى مثل هذه المقترحات ما لم يحافظ الكل على سلامة الاتحاد . فقد يستطيع الأمريكيون أن يفعلوا ذلك كمشعب واحد لا ككتيعين .

وقد شدّ لنكولى الولايات المتحدة بعضها إلى بعض خلال شهور طويلة مضيّة ، شهور من الغزائم والمجهود غير المشعر ، وخلال أحوار سوداء خالكة من القرقة والشجاعة المتداوية . وليس هناك أى سجل يسجل أنه تردد يوماً فى القصد إلى أهدافه . ومرت به أزمان لا يستطاع فيها عمل شيء ، وعندئذ كان يجلس فى البيت الأبيض صامتاً جامداً لا يتحرك ، وكأنما هو تمثال متجهّم للفرم والإصرار ؛ وأزمان كان يُجسم فيها ذهنه بالمراح والنواذر غير الملائمة . كان عامر النفس بالمعكاه الساخرة ، لكنه كان شديد رقة الاحساس للألم الآخرين . وعندما جاءه بعض أهداف جرائت ليخبروه أن ذلك الجفرال يشرب الخمر ، سأل من لوره عن ملوكة الروسكى الذى يشرب - « غطمة للآخرين » . فأما هو فى حد ذاته فكان رجلاً متشققاً فى كل عاداته ، يتحمل كلا من الجهد الخائل فى العمل والصبر المائل على المكره .

وأخيراً أصبح من الجمل فى الشهور الأولى من عام ١٨٦٥ أن يرادر النصر أغلقت قبل عليه ، فنصب نفسه بكل قواه ليجعل التسليم سهلاً وساطعة القهودين بلباة التراضى . فإن ملحمه وحقيقته كانت هى « الاتحاد » . وسرعان ما اشتبك فى نزاع مع المتطرفين من أعضاء حزبه هو ، الذين كانوا يرغبون فى صلح انتقائى .

وشهد « الاتحاد » منصوراً مظفراً . ودخل ويتشوند فى اليوم التالى لتسليمها وسمح بتسليم على . ثم عاد إلى واشنطن ، وفى اليوم الحادى عشر من إبريل ألقى خطبة العامة الأخيرة . وكان محور فكرته فيها هو الصلح والتراضى ثم إعادة إنشاء الحكومات الموالية فى الولايات المهزومة . وفى مساء ١٥ إبريل ذهب إلى مسرح فورد بواشنطن ، وبينما هو جالس يظفر إلى التمثيل أصيب برصاصة فى مؤخر الرأس ، وقتل على الفور من يد ممثل اسمه « بوث » ، كان يحمل فى قلبه شيئاً من الضغن عليه ، وكان قد تسلل إلى القصور دون أن يشعر به أحد .

فلئن تطلعت القمام الجراح ، ولئن أصيبت الولايات المتحدة بالزيد من التناوب

والمرات في السنوات التي أعقبت الحرب أكثر مما كانت الأمور تقتضيه ، فإن ذلك واصل إلى أن لتكون قد مات. ولكن عمله كان قد تم ، وكان الاتحاد أفضل ، وانتقل إلى أيد الأبدن . ولم تكن هناك عند بداية الحرب مشكلة جديدة تمتد إلى ساحل الهاسينيكي (الحادي) . فلما الآن فقد انتشرت السكك الحديدية ونشرت طرق تيات سريع الغاء حتى أسكت كل أراضي الولايات المتحدة الترابية وربطتها وتسجتها فيما هو اليوم وحدة ذهنية ومادية لا يمكن أن تفهم مرارا .

ومثل ذلك الزمان تواصل تماسك بين الولايات المتحدة تواصلًا مستمرًا ، ولم يحض عليها نصف قرن حتى كان سكانها قد تجاوزوا حد المئة مليون عددًا . وليس هناك أي دلالة تدل على أن الغاء والتطور بلغا حتى الآن أوجههما . لهذه الديمقراطية الجارية التي لا ملك لها ، ولا سياسة خارجية تفصيلية محكمة ، إنما هي - ونكرر هذا القول - شيء جديد في بحيرة العلم . وهي ليست « دولة عظمى » بالمعنى الذي تستعمل فيه تلك الكلمة في أوروبا . وإنما هي شيء أكثر حصريّة في طبيعته ، وأضعف حجمًا ، وله مقدرات أعظم وأبلغ .

١١ - الحرب الروسية التركية ومعاهدة برلين

ابتدأت في ١٨٧٥ ثورة جديدة ، لا سميناها في هذا الكتاب باسم الخريطة الطبيعية ، ضد الترتيبات الدبلوماسية التي وضعتها معاهدة فيينا ، عندما دب ديب الاضطراب والمصباح بين الأجسام المسيحية في البلقان وبخاصة بلغار . وانتقل الأتراك حينئذ لتدابير قمع عنيفة ، ثم لجأوا إلى إحمال الثقل في البلقانيين على نطاق هائل .

وعند ذلك تدخلت روسيا في (١٨٧٧) ، وأجبرت الأتراك بعد عام قضى في حرب باهظة التكلفة على توقيع معاهدة سان ستافانو ، التي كانت في مجملها معاهدة مشقولة ، تمنح الدولة التركية للصطنه ، وتؤسس الخريطة الطبيعية إلى حد كبير . ولكن كان قد أصبح من تقاليد السياسة البريطانية أن تعرض « خطط روسيا » - لسبب لا يطعمه إلا لفت وحدها - كلما هنا أن روسيا تحط . فتدخلت وزارة الخارجية البريطانية وكان رئيس الوزراء آنذاك هو اللورد بيكونزفيلد - مهلة بالحرب إن لم تسترجع تركيا إلى حد كبير ما كانت تحظى به من ليزاز الأموال

والأنشطة والقتل ١٩١١... وأضفى زمن أوشكت فيه الحرب أن تنفج بين الطرفين . وأنشأت لجاناً الموسىق البريطانية ، وهى المصايح المضيفة للسياسة البريطانية ، تولد وتثار بغيران الوطنية ، حتى لقد بلغ الأمر أن العلم السامى فى لندن كان ينفى وهو يجرى فى جولاته ، مردداً فى غياله معنى كرامة شعب عظيم .

« لتأريد القتال ، ولكنى أسمع بهنجر^(١) » ثن قائلاً : فليدب الصغن ، وليدبنا الرجال ، وليدبنا اللخيرة أيضاً .

ومكنا : حتى تصل الأمور إلى ذروتها فى قوله : -

« لن يأخذ الروس القسطنطينية . »

وكانت نتيجة تلك المعارضة البريطانية : أن اجتمع فى ١٨٧٨ مؤتمر فى برلين لتفصيح معاهدة سان إسٲافانو ، لتقيما يتجه بصفة رئيسية إلى مصالح ملكوك تركيا



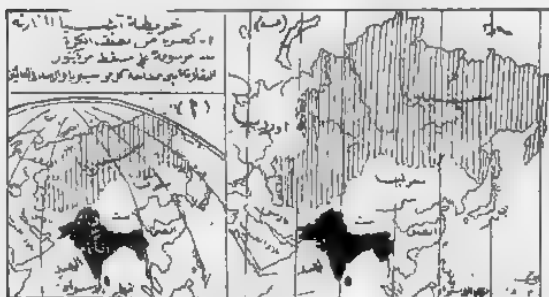
(شكل ٢٠١)

(١) جنود عو قسم سامر فى هذه الألفية الخربة ومن تم أطلقت جبرو أيضاً على أنه وطنى يهودى يهود إلى الخربة . (أنكرات)

والنمسا . وحصل البريطانيون على جزيرة قبرص ، التي لم تكن لها أي حق مطلقاً .
والتي لم تعد عليهم أبداً بأقل فائدة . وعاد اللورد بيكونر يند مقنعاً من مؤتمر
برلين ، يحصل ما جعل البريطانيين في ذلك الزمان يزعمون بأنه « سلام مع الشرف » .
وكانت معاهدة برلين هذه هي العامل الرئيسي الثاني - (إذ كانت معاهدة فرانكفورت
هي العامل الأول) - الذي أدى إلى الحرب النمطية حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ .

١٢ - التدافع الثاني على الإمبراطوريات وراء البحار

لما أن الثورة الميكانيكية لم تفتح أي تعبيرات جد ثورية في تاريخ أوروبا السياسي
بين سنتي ١٨٤٨ ، ١٨٧٨ فإن الدول الكبرى ، التي أعقبت الثورة كانت في
الواقع ما تزال داخل حدود لا تريد على اتساع رقعتها الأولى وما تزال محصنة بكثير
من المشكلات التي كانت عليها في الأزمنة السابقة على الثورة . ولكن الذي حدث هو
أن زيادة السرعة والثقة بوسائل النقل والمواصلات التلغرافية أحدثت تغيرات جسيمة
في الأحوال والمناهج ، وقامت وراء البحار مشروعات مالية وتجارية لبريطانيا وغيرها
من الدول الأوروبية الأخرى ، كما نشأت صلات شتى بين آسيا وأفريقيا من جهة
وأوروبا من جهة أخرى .



(شكل ٢٠٢)

وكانت نهاية القرن الثامن عشرة^(١) تتميز للإمبراطوريات وربع لغشاة الخداع
عن أبصار دعاة التوسع العدواني . فإن الرحلة الطويلة الشاقة بين بريطانيا وأسبانيا
وبين مستعمراتها في أمريكا كانت تحول دون كثرة اللهاب والفنود بين أرض
الوطن الأم وبين بناتها للتوابع ، ولذا انصرفت المستعمرات ونحوت إلى مجتمعات
جديدة مميزة ، ذات أفكار ومصالح مميزة بل محتقة في أساليب كلامها . وكلما
نمت المستعمرات زادت شدة ورحقا لتلك الرابطة اللواتية عبر الحققة رابطة السفن
التي كانت همزة الوصل بينهما ، أجل إن مراكز التجارة الضعيفة في البرية (أمثال
ما كان فرنسا في كندا) ، أو المؤسسات التجارية في المجتمعات الأجنبية الكبيرة ،
(شأن ما كان لبريطانيا في الهند) ، ربما كانت تثبث متعلقة من أجل البقاء الخفض
بالأمة التي تمد لها يد العون وتقيم لها سبب الوجود . ذلك على الأكثر دون أي شيء .
آخر هو ما كان يلو في أعين كثير من المفكرين في القسم الأول من القرن التاسع
عشر ، الحد الذي يحد الحكم وراء البحار

وفي ١٨٧٠ كانت المعالم غير البتة للإمبراطوريات ، الأوربية العظمى خارج
أوربا ، التي مطلقا ظهرت على صورة ضخمة لافة لتلظر في خرائط منتصف القرن
الثامن عشر ، قد تقلصت أبعادها تقلصا بالما جدا . وكانت الإمبراطورية الروسية
هي وحدها التي تزحف كأوسع ما يكون الزحف عبر آسيا . ولكنها كانت تزحف في
أخيلة كثيرين من الأوروبيين أكثر مما تزحف في حقيقة الأمر ، بسبب ما جرت به عاداتهم
من دراسة جغرافية العالم على أساس مشروح مركاتور^(١) الذي يبالغ مبالغة هائلة في
حجم صيرها .

وكانت الإمبراطورية البريطانية في ١٨١٥ تتكون من أقاليم النهر والبحيرات المسلحة
للقبلة للسكان بكندا ، ومن أرض عظيمة داخلية مكونة من برية لم يكن فيها من
المستعمرات ، في ذلك الحين سوى محطات تجارة القراء لتجارة لشركة خليج هلمسن ،
وكانت قرابة ثلث شبه الجزيرة الفنلندية تحت حكم شركة الهند للشرقية ، وكانت
تقيم فتواحي الساحلية عند رأس الرجاء الصالح ، التي يسكنها السود والمنوطون

(١) مشروح مركاتور = طريقة لرسم الخرائط حسب إله بلغراق ودماغ الخرائط للفنكي
جيوغرافيس مركاتور (١٥١٧ - ١٥٩٤) . (القسم)

المولنديون ذوو الطبع الثائر ، وبضع محطات تجارية على ساحل إفريقيا الغربية وصغرة جبل طارق وجزيرة مالطة وجايكا ومحطات صغرى قلعة هلفا من السويد في جزائر الهند الغربية وغيانا البريطانية وأمريكا الجنوبية ، وأما في الجهة الأخرى من العلم فلم يكن ثم غير محطتي ترينيداد والمجربين عند خليج بوتاني بإستراليا وفي تسمانيا .

وكانت أسبانيا محظلة بكوبا ومستقرات قليلة في جزائر الفلبين . وكانت البرتغال في أفريقيا بعض آثار تدل على مزاعمها القديمة . وكانت هولندا جزائر ومحطات محظلة بجزائر الهند الشرقية وغيانا الهولندية ، كما كان لها مركز جزيرة أو ما إليها من جزائر الهند الغربية . فلما فرنسا فكان لها جزيرة أو اثنان من جزائر الهند الغربية وغيانا الفرنسية . وكان لها فيها يلوح هو القدر الذي يحتاج إليه العمل الأوروبية أو القدر الذي يحتمل أن تبرزه من قوة العلم . ولم يكن أحد هذا شركة الهند الشرقية يظهر لأي نزوح التوسع .

وكانت إمبراطورية ذات سمعة خاصة عظيمة لتكون في بلاد الهند كما أسلفنا ، لا يكونها الشعب البريطاني ولا الحكومة البريطانية ، بل تكونها تلك الشركة ، شركة للتجار من الخصوصيين بما ليسهم من احتكار ومرسوم ملكي . وقد اضطرت الشركة أن تصبح قوة حرة وسياسية أثناء سعي الانتماء الهندي وحكم الأمة الذي أعقب تجزؤ الهند بعد وفاة لوردا كزلب في ١٧٠٧ . وكانت الشركة تعلمت أن تنصرف في الولايات والشعوب أثناء القرن الثامن عشر . فأسس كلايف هذا النوع الجديد من الإمبراطورية وتولى ولورن هاستنجز تنظيمها ، وقهرت للثالثة الفرنسية كما سبق أن أخبرناك ، ولما وقعت ١٧٩٨ عين اللورد مورجنتون حاكماً عاماً على الهند ، وهو الذي أصبح فيما بعد المركز وتولى ، وهو الأخ الأكبر لذلك الجنرال وتولى الذي أصبح دوق ولنجتون ، فأقام سياسة للشركة بصورة نهائية على أساس إقامة حكمها هي في مكان إمبراطورية المثلث العظيم القارية .

وكانت حملة ناپليون على مصر هجعة مباشرة على إمبراطورية هذه الشركة البريطانية . وبينما كانت أوروبا معقولة بالحروب النابليونية ، راحت شركة الهند الشرقية تحت لفة متعاقبة من المديرين الطمحين ، ذهب في الهند نفس الدور الذي

كان يلعبه من قبل التركان ومن الهم من الفزاة الفازحين من الشمال ، ولكنها كانت
تلبه على مرية من الكفاية أحظم وفي حنف وقبولة أقل وأنى كثيراً . واستمرت
في عملها بعد معاهدة فيينا تجمع إراداتها ، وتنش الحروب وتبعث بالسفراء إلى الدول
الآسيوية ، كانت دولة شبه مستقلة ، وهي مع تلك دولة ذات ميل ملحوظ إلى
إرسال القوة نحو الغرب .

ولقد سبق في فصل مضى ، أن نلخصنا لك سيرة معلم إمبراطورية المغول العظيم
وظهوز ولايات المهرانا والإمارات الرجوية ، ومملكتي أوده والبنغال الإسلاميتين
ونشو طائفة السرخ . ولنا بقادرين أن نمرك هنا في أى تفصيل ، كيف شقت
الشركة البريطانية طريقها نحو السيادة ، ثارة بوصفها حليفاً لتلك الدولة وتارة لتلك
الأخرى ، وأخيراً بوصفها قاهرة الجميع . وامتد سلطانها إلى أسام والسند وأوده .
ونطقت خريطة الهند تتخذ صورة العالم المألوفة لدى التلاميذ الإنجليز اليوم ، وهي
دفاع كثيرة من الولايات الوطنية تضمها وتربطها بعضها إلى بعض الولايات الكبيرة
التي تحت الحكم البريطاني المباشر .

والآن ، وبينما كانت هذه الإمبراطورية العجيبة التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ ،
إمبراطورية الشركة تنمو في المئة بين ١٨١٠ ، ١٨٥٨ ، كان الانقلاب الميكانيكي
يلقى في غير ضجيج المسافة العظيمة التي كانت يوماً ما تفصل الهند عن بريطانيا ،
وكان حكم الشركة في الأيام القديمة قليل التدخل في الحياة الداخلية للولايات الهندية ،
وكل الذي فعله أنها منحت الهند سادة أهلين أجناب ، ولكن لمثل طائفة تعودت
حكم السادة الأهلين الأجناب ، ولطالما عظمتهم حتى ذلك الحين ، فأما هؤلاء الإنجليز
فكانوا يزولون البلاد شباباً ويمشون فيها معظم حياتهم ، ويصبحون جزءاً من نظمها .
ولكن الانقلاب الميكانيكي كان قد أخذ في تغيير حالة الأمور هذه ، فأصبح أيسر
على الموظفين البريطانيين أن يحيطوا زواجهم وعائلاتهم ، وكفوا عن أن يصطبخوا
بالصبغة الهندية ، وظلوا بشكل أوضح أجناب وغريبين وزاد عددهم . ثم إنهم
شرعوا يتدخلون في العادات الهندية تدخلا أقوى ولشد . ووصلت إلى البلاد أشياء
محرمة نظيمة من أمثال الطحراف والسكك الحديدية . وأقبلت البطات البشرية تعمل

بصورة مكثرة بنموس . فلما ينسرحهم لمحويل عدد واقر من الرجال عن ديسم .
لقد أحسوا على الأقل المتشككة بين أنواع الدهبات الأقدم عهداً . وشرع شبان
الملك يصطفون بالعبه الأوربيه . والرعب آناهم العظيم !! . . .

ولطالما تحفلت الحد من قل تعبيرات كثيرة أو حكماً كثيراً . ولكن
لم تعرض أساليبها قط لمثل هذا النوع من التعبير الذي كانت تؤذن به الأمور .



(شكل ٢٠٢)

واستوى الجزع على كل من العلماء المسلمين والكهنة البراهمة على السواء ، وبم
البريطانيون على تقدم الإنسانية . وأحدث المنازعات على المصالح الاقتصادية زداد
حدة مع ازدياد قرب أوروبا ، ولقيت الصناعة الهندية وخاصة الصناعة القطنية المهيدة
كل الشر من التشريعات التي كانت توضع لمؤازرة أصحاب المصانع البريطانيين .

وارتكت الشركة قطعة لا يصدقها عقل من الخيانة ، عجلت باندلاع امعجار
شديد . فإن القرة لدى البرهمي مقدسة ، والخنزير عند المسلمين نجس . وقد
صرف الشركة خنودها اليهود بدقية حديدة تحتاج إلى خرطوشات مدهونة بالدهن
ولابد للرجال من قصصها قبل إطلاقها ، واكتشف اليهود أن الخراطيش مطلية
بدهن البقر واحارير . وأدى هذا الاكتشاف إلى التعجيل بتمرد جيش الشركة

(الهندي) ، وهي الحركة المسماة « الفتنة الهندية » (١٨٥٧) . غمرود الجنود أولاً في
مبروت . ثم تارث حلى نعى استعادة إمبراطورية المورى العظيم .

وعلى حين بنة اكتشف الجمهور البريطاني بلاد الهند . فذهبوا إلى تلك الحاضرة
الصغيرة من الرعايا البريطانيين ، المقيمين على تلك المساحة الشاسعة في تلك الأرض
العجيبة ذات الفسار الناري والشمس المحرقة المنيرة ، وهم يقاتلون في سبيل الحياة
بجاهير غيرة سوداء تهاجمهم . فكيف بلغوا ذلك للكل ؟ ولئى حتى لم هناك ؟
لم يسأل الجمهور البريطاني حينئذ السوالين . فإن السطع على بنى الخلفة المراضين
فقط يتطلب عمل مثل تلك الأسله . وكانت ثمة ملابح وعسوات . وكانت (١٨٥٧)
سنة قلق عظيم في بريطانيا العظمى . واستطاع الرعاء البريطانيون ، وعلى الأخص
لورنس ونيكولسون أن يقوموا بالعجب العجيب على يد قتلات من الجنود قليلة
لا تكاد تفي بشئ . فأنهم لم يكونوا يطلون جامدين في أملاكهم حتى يحاصروهم فقلعو
على حين ينظم المتمردون صفوفهم ويقوون نفوذهم ، فلو أنهم قتلوا ذلك لأدى بهم
إلى فقد الهند هذاناً أبدياً . وكانوا كثيراً ما يضربون على علو هائل ترجعهم كفته
وجحاناً جارفاً . قال لورانس : « إن ورقة الإسياف هنا هي الرابحة لا البستوى !! ...
ورب فة قليلة . . . »

ولزم جنود السيج والحركة والجنوب جانب البريطانيين . وظل الجنوب هادئاً .
ولما لتحيل القارئ على كتب تاريخية أخرى لتنبه بمناخ كونبور ولكنورى أوده ،
وكيف استطاعت قوة بريطانية صغيرة بتغوى عليها العدو في البلد نفوذاً عظيماً أن
تحاصر حلى وتغلعلها حوة . وما حل أبريل (١٨٥٩) حتى كانت آخر جرات في ذلك
الهرب قد أطفئت وديست بالأفهام ، وأصبح البريطانيون سادة على الهند من جديد ،
ولم تكن تلك الفتنة بأى حال ثورة شعبية ، بل كانت مجرد تمرد في الجيش البنغالى ،
يرجع في معظم شأنه إلى سوء تصرف موظفى الشركة سفار الأخطام . وقصة تلك
الفتنة مليئة بالأمثلة التى تشهد بما أحيط به اللاجئون البريطانيون من رعاية الهند
ووفهم . خبر أنها كانت تحليماً وتلييراً .

وكانت النتيجة المباشرة للفتنة هي إلحاق الإمبراطورية الهندية بالتاج البريطانى .

وقضى القانون المرسوم « قانون إصلاح حكومة الهند » ، أصبح الحاكم العام نائب ملك يمثل الملك ، وحل محل الشركة وزير الهند مسئول أمام البرلمان البريطاني . واستكمالاً لهذا السبل حل الورد يكويزميد ، الملكة فكتوريا على أن يتأدى بها إمبراطورة الهند في ١٨٧٧ .

وعلى هذه الأسس الجارفة لتعادة ترتبط الهند وبريطانيا في هذا الزمان . وما تزال الهند هي إمبراطورية المغول العظيم بعد أن وسعت أطرافها ، غير أن المغول العظيم حلت محله جمهورية بريطانيا العظمى المتوجة . وأصبحت الهند دولة استبدادية مطلقة من غير عامل مطلق . ويجمع الحكم فيها بين أضرار الملكية المطلقة وبين اللاشخصية وحكم المسئولية اللذين ترميها الإدارة الديمقراطية فإن الهندي الذي له خلافة لم يكن أملاً ملك ظاهر ، إلا إليه ، إذ أن إمبراطوره ليس إلا رمزاً ذهيباً . ولا بد له من أن يبيع القدرات ، إنجلترا أو يوحى إلى من يقدم له في مجلس العموم سؤالا . وكلما زادت مشقة البراءة بالمشقون البريطانية ، تقصى حظ الهند من التفاته ورعايته ، وزاد وقورها تحت راحة فتها الصغيرة من كبار الموظفين .

وواضح أن ، طوال هذا الحلال كان من الحال . فإن الحياة الهندية أبنا كانت عوامل التقدم ، لها لم يكن بد من أن تتحرك أماما مع بقية العالم . وكانت الهند مصانة أكتاف ، لها ، وعدد متزايد من المثقفين المثاليين بالأنكار الأوروبية ، وإحساس متزايد بالألم لامتلاك ضد حكومتها . ولم يقابل هذا الوضع الجديد أي تقدم في نواح الحريات ، البريطاني في الهند وأصاليب إعداده وتعليمه أثناء ذلك القرن . أجل إن ذاليدته ، البتة ، وكثيراً ما كان رجلاً ذا صفات غير عادية ، ولكن للنظام كان نظاماً حقن سقيم الخيال جامداً لا لين فيه . زد على ذلك ، أن القوة العسكرية التي كانت تخف من خلف هؤلاء الموظفين لم تتطور في خطتها ولا في ذكائها أثناء هذا القرن ، هناك طبقة بلغت من الركود الذهني ما بلغت الطائفة العسكرية لبريطانيا .

فالرجل العسكري البريطاني عندما واجهه الهند الجديدة الأكثر تعليفاً ،

وعندما أدرك في قلق نقائصه العلمية ودام يفتنى المروء به . - أظهر ميلا متزايا إلى العنف التشنجي الذي كانت له بعض النتائج المستوحاة لشديد الأذى .

وقد جعل في تعاليم المتر كبلنج الناعية إلى العنف والتي سبق أن أشرنا إليها ، نوع من الإستصواب لقلّة المعرفة وانعدام القدرة وضبط النفس .

ولم يكن نحو الامبراطورية البريطانية في اتجاهات أخرى عدا المته مريباً إلى هذا الحد بأي حال أثله النصف الأول من القرن التاسع عشر . وكانت قوة كبيرة من المفكرين الليبراليين في بريطانيا ميالة إلى اعتبار الممتلكات وراء البحار مبعوراً لضعف المملكة . وتطورت المستوطنات الأسترالية تطوراً بطيئاً ضئيلاً إلى أن حادت إليها الأهمية بعد اكتشاف مناجم عنية للنحاس في ١٨٤٢ ومناجم للذهب في ١٨٥١ ، وكانت الصحينات للزراية في وسائل النقل تزيد في رواج الصوف الأسترالي في السوق الأوربية كلها ، لأنها لم تقدم تقدماً ملحوظاً حتى ١٨٤٩ ، إذ كانت تنفق تعليمها للخلاف . - كماها للفرنسيين والبريطانيين ، وحدثت فيها ثورات خطيرة عديدة ، ولم . راتها الداخلية إلا في ١٨٦٧ يوم حصل دستور جديد أنشده بمقتضاه دوميون اتبا الاتحادى . وكانت للسكك الحديدية هي صاحبة الفصل في تغير مستقبل كندا . فلها مكنت كندا ، كما مكنت الولايات المتحدة من أن تمتد غرباً ، وأن تسوق قمحها ومستجانيها الأخرى في أوروبا ، وأن تبقى بالرغم من غناها السريع المتراى - مجعماً واحداً في لغة وتماطله ومصالحه . وكانت السكك الحديدية والهيئة البخارية والنسك الطغرافى والبحرى تُغيّر في الواقع كل أسوال التطور الإستعمارى .

وكانت مستعمرات إنجليزية قد ابتدأت قبل ١٨٤٠ في نيوزيلندة ، تأسست شركة لأراضى نيوزيلندة لإستغلال ما قد يكون في الجزيرة من إمكانيات . وفي ١٨٤٠ أضيفت نيوزيلندة أيضاً إلى الممتلكات الاستعمارية للتاج البريطانى . وكانت كندا كما لاحظنا أول الممتلكات البريطانية استجابة كريمة خصية المحضلات الاقتصادية الجديدة التي وضعت أبوابها وسائل النقل الجديد . وسرعان ما أعطت جمهوريات أمريكا الجنوبية وبخاصة الأرجنتين ثمرى تجارة ماشيتها وفي زراعة البن

لها يتزايد قربها من السوق الأوروبية . وكان رأس السلع التي تجذب دول أوروبا حتى الآن إلى الأقاليم الحمضية (البربرية) غير المسكونة هي الذهب أو المعادن الأخرى ، والتوابل ولقاح أو البندان . ولكن تزايد السكان في أوروبا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر أخذ يغير الحكومات على الرى بصورها في الخارج بحثاً عن مواد الطعام الأساسية ، كما أن نمو الصناعة القائمة على العلم كان يخلق الطلب على مواد خام جديدة ، أمثال الشحوم والدهون بجميع أنواعها ، والمطاط ، ومواد أخرى كان الناس يظنون شأنها حتى آنذاك . وكان جلياً أن بريطانيا العظمى وهولاندا والبرتغال كن يحدثن ثمار مزية تجارية عظيمة متزايدة نامية من سيطرتهم الجسيمة للضخمة على المنتجات المدلرية ودون المدلرية . وبعد ١٨٧١ شرحت ألمانيا ثم فرنسا وإيطاليا فيما بعد في البحث عن مناطق للمواد الخام لم تلتحق بأحد ، أو عن أقطار شرقية تستطيع أن تعود بالربح من وراء صديقها بالصيغة المصرية .

وبذلك ابتداء تدافع جديد على الأرض قاطبة لاستلاك البلاد التي لم توزق حابة سياسية واقية ، ولم ينبج منه إلا البلاد الأمريكية حيث كان جيداً مونرو ومحول عند ذلك دون مثل هذه المسامرات . وكانت قارة إفريقيا تقع على مقربة من أوروبا ، وهي مليئة بإمكانيات يشوبها الغموض . وكانت في ١٨٥٠ قارة خطايا سوداء ، ولم يكن معروفاً منها إلا مصر والمناطق الساحلية . ولابد أن تظهر كإحدى الحرائط على ضخامة البهالة الأوروبية في ذلك الزمان . ولابد لنا من كتاب يقارب في الطول هذه « العلم » حتى يفي بحق التقدير الواجب لقصة المثلثة التي تسرد ما أسناده المكتشفون وللغامرون من فضل على البشرية حين اخترعوا لأول مرة قيادة الظلام هذه ، وتذكر كذلك الركلاء السياسيين والملييرين والتجبرين والمستوطنين ورجال العلم الذين ترموا خطاهم . وكشف القناع عن أجتاس من الناس صحيحة من أمثال الأقزام ودواب غريبة كالأوكابي (okapi) ^(١) . وغار وآزهار وحشرات مدهشة وأمراض ويلة ومناظر للفايت والجبال تلهب بالآلاب

(١) الأوكابي أو الآلاب : حيوان من ذوات الأربع يشابه الزرافة يعيش في أفريقيا الغربية .
(المترجم)

وبحار داخلية ضخمة وأنهار هائلة ومساقط مائية عظيمة كشفت السر عنها حياً -
وهي وحدها عالم جديد بأكمله . بل لقد كشفت في زيمبابوي آثار الحضارة الباقية
غير معروفة ، وهي ثمرة جهود قام بها في نصف الكرة الجنوبي شعب قديم .

والى هذا العلم الجديد هبط الأوروبيون ، ووجدوا البنادق موجودة من قبل في
أيدي تجار الرقيق العرب ، ووجدوا حياة الزوج في اضطراب وخطل . وعند
١٩٠٠ كانت كل إفريقيا قد رسمت حريقتها وارتدلت أرضها وقدمت قبورها
وقسمت بين الدول الأوروبية ، أجل قسمت ، ولكن في كثير من الزمجرة والشحناء
إلى أجزاء تركت كل دولة قلقة أو متعلمة غير راضية ، ولكن التقسيم ظل على
حالته تقريباً حتى ١٩١٤ . ولم يراع أحد إلا قليلاً مصالح الأهالي الوطنيين أثناء هذا
التدافع . نعم إن الشخص العربي قد أيد أكثر مما طرد ، ولكن الجشع في طلب
المطاط الذي كان متجاً طبعياً يحسنه الوطنيون قهراً في الكنفو البلجيكية - وهو
جشع بلغ حد التسلط بشع ملك البلجيكي الذي لا راحة فيه - والتصادم بين
الليبريين الأوروبيين الأعمار غير المتكفين وبين السكان الوطنيين ، كانا أمرين
أفضيا إلى فضائح شنيعة . وليست هناك دولة أوروبية واحدة تستطيع أن تقول إن
يديها طاهرتان تماماً من هذه الجرائم .

ولسنا بقادرين أن نذكر لك هنا في أي تفصيل كيف استطاعت بريطانيا أن
تستولي على مصر^(١) ١٨٨٣ ، وظلت فيها بالرغم من أن مصر كانت من التسمية
الرسمية (العثمانية) جزءاً من الإمبراطورية التركية - ولا كيف أوشك هذا
التدخل أن يؤدي إلى الحرب بين فرنسا وبين بريطانيا العظمى في ١٨٩٨ ، عندما
حاول كولونيل فرنسي بعينه اسمه مارشان وهو يبيع إفريقيا الوسطى من الساحل
الغربي أن يستولي عند فاشودة على النيل الأعلى . فلما في أوجعته فإن البحوث
الكانونيكية الفرنسية والإنجليكانية الإنجليزية نشرت صورة للمسيحية مقهلة بأعباء
الروح النابليونية ، وملحة في النهاية على أدق أنواع القروق في العقيدة ، إلى حد أن

مع كل من الجمهوريتين في ١٨٩٩ ، وهي حرب ثلاث - ذات أهدافه الفقة حل الشعب البريطاني . إنتهت آخر الأمر بتسلم الجمهورتين كليهما لبريطانيا .



(بكل ٣٠٠)

ولكن فترة إحصاءهما لم تطل فقد حلت في ١٩٠٧ بعد سقوط الحكومة الاستعمارية التي قهرتها ، أد تناول الأحرار مسألة جنوب إفريقيا ، وأصبحت هاتان جمهورتان السابقتان حربين وصاريا برغبتها قريبا أخيرا (صوم) لمستعمرة الرأس وثلاث في اتحاد احتلال (كندرا) يضم كل ولايات جنوب إفريقيا بوصفها جميعاً جمهورية وحدة تحكم نفسها بنفسها تحت التاج البريطاني

وانتهى العمل في بحيرة إفريقيا واقسامها في مدى ربع قرن . وحدث أقطار ثلاثة صغيرة نسبياً غير منطقة بأحد هي : ليبيا ، وهي مشغرة على الساحل الغربي للرقيق للزوج المتعصب ، ومراكش وتحكمها سلطنة مسلم ، والحدثة وهي قطر هيجي :

به نوح من المسيحية قديم عجيب ، وقد نجحت في الاحتفاظ باستقلالها سياسياً من يد إيطاليا في معركة علوة في ١٨٩٦ .

— السابقة الهندية في آسيا

من العسير أن يعتقد الإنسان أن أية حضرة عظيمة من الناس قد قبلت هذا الصنيع المصجل في خريطة إفريقيا بالألوان الأوروبية ، باعتباره تسوية مستديرة جديدة لشئون العالم ، على أن من واجب المؤرخ أن يسجل أن التضمين قبلي على ذلك الوجه .

ولم يكن هناك من وراء الفعل الأوروبي في القرن التاسع عشر إلا خلفية تاريخية ضحلة ، ولم يكن أن يكون لديه أى شعور بالمقومات التي تكون نظاماً سياسياً مستديراً ، كما أن العقل الأوروبي لم يتعود النقد العميق . وإن للآراء الوقتية البحتة التي أضفتها بداية الثورة الميكانيكية في الغرب على الدول الأوروبية الكبرى دون سائر العالم القديم وآثرتها بها ، كانت تعد في نظر الناس ، ممن يجهلون كل أبجهر غزوات الفنون العظيمة في القرن الثالث عشر وما عقبه من قرون ، أمارات تدل على سيادة الأوروبيين المستديرة المقتدة على الجنس البشري . ولم يدرك أحد منهم قابلية العلم وتعارفه للانتقال . ولم يدركوا أنهم أن الصينيين والهنود كان في استطاعتهم أن يواصلوا العمل في الأبحاث بنفس الاقتدار الذي عليه الفرنسيون أو الإنجليز . فإهم كانوا يعتقدون أن هناك نوعاً من الدافع اللغوي القطري موجوداً في الغرب ، ونوعاً من التراخي والحفاظة القطريين في الشرق ، يؤكدان للأوروبيين السيادة الأدبية على العالم .

وكانت حاقلة هذا الجنون هي أن وزارات الخارجية الأوروبية المختطفة تصبغت نفسها لا مجرد منافسة البريطانيين في التدافع إلى الأقاليم الممجة غير المتطورة على سطح الكرة الأرضية ، بل نشطوا كذلك لتطعيم أطفال آسيا المدة الآهلة بالسكان ، كأنما لم تكن هذه الشعوب أيضاً تزيد على مواد خام تنتظر الاستغلال الأوروبي فإن لمستهمل الطبقة البريطانية الحاكمة للهند ، ذلك الاستهمل للقلقل في داخله الباذخ

في ظاهره ، فضلاً عن أملاك الهولنديين الواسعة المربحة في جزائر الهند الشرقية
ملأت قلوب الطبقات الحاكمة والتجارية في الدول الأوروبية المنافسة بأحلام عظيمة بحالة
السيادة في بلاد أخرى مثل فارس ، والإمبراطورية الهندية المتكسكة ، ولها بقي من
الهند وفي الصين واليابان .

وفي أثناء السنوات المتطرفة للقرن التاسع عشر - كما يستطيع القارئ أن يخفق
ذلك بمحضه أدب (: موقوفات) تلك الفترة المتعاقب - كان الناس يقرضون أن
من الطبيعي الذي لا مفر منه أن يقع العالم بأجمعه تحت السيطرة الأوروبية . وأعد النعمان
الأوروبي نفسه - في شيء من روح الخير المتكرمة - لتناول ما سماه المستر رديارد كبلنج
« واجب الرجل الأبيض » وأعطى به السيادة على الأرض . ونصبت الدول نفسها لهذا
المشروع وهي في حالة منافسة متنافسة بالناكس مع أن سكانها بأرض الوطن معطلون
نصف تعليم أو جهلة أميون ، وليس في جنبها غير فئة قليلة من الرجال لا تريد على
الحشوة حداً أولاً تتجاوز في أقصاها بضعة آلاف ، مشغولين بالبحث العلمي ، بينما
نظمها السيادة المطلقة في حالة توتر أو تغير نشجي ، ونظامها الاقتصادي ضعيف
متنازع ، كما أنه وفي طارئ غير مستقر إلى أقصى حد ، وبينما دياناتها قد بلغت
من التصدع والاحلال كل مبلغ . كانوا يعتقدون اعتقاداً خفياً أن في الإمكان
إخضاع سكان آسيا الشرقية الحالي للهند إضماراً مستديماً مثل أوروبا هذه ... ١١ ...

ولا يزال يوجد في العلم حتى هذه الأيام رجال كثيرون يخوتهم أن يتركوا
الحقائق الضرورية في هذا الموقف . فإنهم لا يتركون أن معدل الذكاء في آسيا
لا يقل في نوحه فترة واحدة عن معدل ذكاء العقل الأوروبي . وأن التاريخ يظهر
الآسيويين وهم من الحراة والقوة والكرم والتضحية بالذات والاكتدار على العمل
الحشدي القوي كالأوروبيين سواء بسواء ، وأنه يوجد في هذا العلم - وسيظل يوجد -
من الآسيويين عدد عظيم يفوق كثيراً عدد الأوروبيين .

وقديماً كان من السير على الدوام الحيلولة دون تسرب العرفان من شعب إلى
آخر ، فاما اليوم فلذلك من أعظم المحال . فالتطروف المصرية الرائعة تجعل المساواة
الشاملة بين أجزاء العلم عامة في الشؤون الاقتصادية والتعليمية أمراً لا مطلوباً منه على

مر الزمان . وإن هناك لدعوة فكرية وخلقية لاستنهاض الآسيويين في هذا الزمان . فإن ما أفسدت فترة الانحراف اليسيرة التي امتلكت قرناً أو ما يقارب القرن ، تصلحه عشرات قليلة من السنين . إذ يوجد في العصر الحاضر مثلاً ، مقابل كل إنجليزي يعرف الصينية معرفة تامة ، أو له أي إلمام وثيق بالحياة للصينية والفكر الصيني ، مئات من الصينيين يعلمون كل شيء . يعلمه الإنجليز .

ورعما كان وجهان ميزان المرفان في ناحية الهند أكبر من هذا كثيراً فالهند تبعث الطلاب إلى بريطانيا ، على حين ترسل بريطانيا إلى الهند الموظفين - وهم في معظم الحالات رجال غير مدربين على الملاحظة العلمية . وليس هناك منظمة أبداً كانت لإرسال الطلاب الأوروبيين بوصفهم طلاباً - لتتصق في تاريخ الهند ودراسة آثارها وثقافتها القديمة وثقوتها الجارية والقيام فيها بالأبحاث ، ولإيجاد وسيلة يتصل بها العلماء المحدث بالطلاب البريطانيين في بريطانيا .

ومنذ (١٨٩٨) وهي سنة استيلاء ألمانيا على كيوتشاو واستيلاء بريطانيا على واي هاي واي وتأجير بورت آرثر لروسيا - تحركت الأحداث في الصين أسرع مما تحركت في أي قطر آخر فيها هذا البابان . فإن كرها عظيماً للأوروبيين قد مرى في الصين سريان النار ، ونمت جمعية سياسية ترمي إلى طرد الأوروبيين ، هي جمعية اليوكسر^(١) ، التي تحولت إلى العنف في ١٩٠٠ . وكان هذا انقلاباً للهبب الغضب والشر على صورة قديمة الطراز تماماً . ففي سنة ١٩٠٠ قتل اليوكسر ٢٥٠ أوروبياً كما قتلوا فيها يقال ما يقارب ٣٠٠٠٠ مسيحي . وكانت الصين ، ولم يكن ذلك لأول مرة في التاريخ ، تحت نفوذ إمبراطورة أرملة . وكانت امرأة جاهلة ، ولكنها كانت على درجة عظيمة من قوة الخلق كما كانت تسطف على اليوكسر حطباً وثيق المعرى . فناصرتهم وحثت من تسبوا في الاعتداء على الأوروبيين . وكان كل ذلك هو ما حسي أن يحدث لإزالة المون في ٥٠٠ ق . م أو ما يقاربها .

ووصلت الأمور إلى أزمة في ١٩٠٠ . فإن اليوكسر تزايد خطرم وتهدبهم

(١) من اليوكسر وجميع شئون آسيا والصين انظر للمعم : « آسيا والهيمنة الغربية » تأليف سردار باليكر طبع دار المعارف لوزارة الثقافة والإرشاد . (الترجمة)

للأوروبيين في الصين . واتخذت محاولات ترمي إلى إرسال حراس إصافيين إلى السفارات الأوروبية في بيكين ، ولكن لم تكن لذلك من نتيجة إلا التعميل بفنائه الأمور . فإن الودير الألماني^(١) قد قله بالرصاص في شوارع بيكين جندى من الحرس الإمبراطورى . واجتمع بقية الممثلين الدبلوماسيين الأوروبيين ، وجعلوا من السفارات التى كانت ذات موقع أنسب وأحسن من غيرها - حصناً وعقلوموا حصاراً دام شهرين . ومن ثم سُيِّرت حل بيكين قوة متحدة متحالفة بقيادة جنرال ألماني ، وخطت السفارات بما كانت فيه ، وقررت الإمبراطورة إلى ميان فو ، وهى حاصدة تاي تسونج القديمة في شانسى . وارتكب بعض الجنود الأوروبيين ظفائع خطيرة في السكان الصينيين . وهذا يرجعنا إلى قرابة مستوى ١٨٥٠ ، على وجه الضريب .

ثم قامت روسيا بحبب ذلك بضم منشوريا إليها . . ثم نشب نزاع بين الدول . ثم هزمو بريطاني في ١٩٠٤ لبلاد التبت ، وكانت حتى ذلك الحين نظراً محرماً . ولكن الشيء الذى لم يظهر على سطح هذه الأحداث ، والذي جعل كل هذه الأحداث عطفة اختلافاً جوهرياً ، إنما هو أن الصين كانت تحتوى آنذاك على عدد ضخم من الناس القلتين الذين تعلموا تعليماً أوروبياً وألموا بالعرفان الأوروبى . وهنأت لجنة اليوكسر ، ثم أخذ سلطان هذا العامل الجديد يظهر في الحديث عن إنشاء دستور ١٩٠٦ ، وفى منع تدخين الأفيون ، وفى الإصلاحات التعليمية . وظهر إلى عالم الوجود في ١٩٠٩ دستور على الطراز الياباني ، يحل الحكم في الصين ملكياً مقيداً . ولكن الشعب يابى أن تصب الصين في قالب ياباني ، ومن ثم قله استمرت الحركة الثورية . وكانت اليابان قد عمدت أثناء معارضة تنظيم شؤنها منشياً منها مع مزاجها الخاص ، إلى تحويل وجهها إلى الغرب حتى لتتظام الملكى ، ولكن الصين كانت تنظر عبر المحيط الهادى . وفى ١٩١١ انطأت الثورة الصينية الجمهورية . وفى ١٩١٢ تنازل الإمبراطور من العرش . وأصبح أكبر مجمع في العلم جمهورية . وكان خلق الإمبراطور هو في الوقت ذاته خلق أسرة مانشو ، ولم تعد

(٢) وكونفدر الإلاني من البهرون فون كملر وقل منه أيضاً مستنداً لملفها اليابانية . (الترجم)

الضخيرة القولية التي كان يرسلها الصينيون منذ ١٦٤٤ شيئاً إلزامياً على الناس .

ومن المرجح أنه في هذا الزمن الراهن يوجد ببلاد الصين من المائة النخبة المثقفة الجيدة ومن الرجال المظلمين الذين يشتغلون في صنع الحضارة الصينية بالصعبة العسيرة وإعادة تنظيم تلك الحضارة عدد أكبر مما قد نراه موجهاً لمصلحة أي شعب أوروبي بغيره . وسوف يكون الصين للقرن كتابة عصرية عميلة وحاصلة وجامعات عصرية جديفة حقبة ، ونظام صناعي قد أميد تنظيمة ، ثم هيئة نامية من الباحثين في السلم والاقتصاد ، وسوف يطلق سراح ما ركب في شعبها المائل من الاجتهاد الطبيعي والمهارة النظرية حتى يتعاون على قنم المساواة مع العلم الغربي .

نعم ما يزال أمامها بعد صواب فاعلية عظيمة ، وهو أمر لا يستطيع إنسان أن يقضى عليه برأى . ولا مندوحة من مرورها في دور حرب أهلية وفئة . ومع هذا فقد لا يكون يوماً ذلك الزمان الذي تصبح فيه : الولايات الصينية المتحدة : بدأ واحدة مع الولايات المتحدة الأمريكية ومع أوروبا المساواة المتصالحه ، وتكون معونة في إقامة صرح السلام المنظم في السلم .

١٤ - تاريخ اليابان

غير أن القطر السابق الى الاتصال بين الشعوب الآسيوية لم يكن مع ذلك هو الصين بل اليابان . وقد تعطلنا مسير قصتنا حين نحللتنا عن الصين . ولم تلعب اليابان حتى الآن إلا دوراً صغيراً في هذا التاريخ ، فإن حضارتها المنزلة لم يتبأ لها أن تقوم بنصيب كبير في الصوغ العام لمصائر البشرية ، وقد نلت من الدنيا الشيء الكثير ، ولكنها لم تعطها إلا قليلا . ولعل السكان الأصليين في الجزائر اليابانية كانوا شعباً ثمالياً له وشائج نورجية بعيدة ، وهم الأينو (Ainu) للمشمرون . ولكن اليابانيين الأصحاح إنما ينسبون إلى الناصر المنولي . ولهم ليشبون من الناحية الجينية الأمرنديين (Amerindians) (أي المنود الأمريكيين) ، وهناك أوجه شبه غريبة بين عرق اليابان قبل الترخي وكثير غيره من الأشيلاء وبين ما عاقلها من المنتجات المستوحاة في

پرو ، وليس من المستبعد أنهم يمثلون آسيا إلى الخلف متراجعا عن تيار ثقافة
 الحضر الحجري الحديث (النيوليتي) في مسيرها عبر المحيط الهادى ، ولعلهم انتصروا
 كذلك من الجنوب عنصراً من الملايو أو حتى عنصراً من الجرنة (١)



(شكل ٦٠٦)

(١) التبرجور : أو التبرولو ، شعب متأخر من الأقوام يمكن أنه جزيرة الملايو وجنوب
 الفيليبين ، (المقوم)

ومهما يكن أصل اليابانيين ، فليس ثمة شك في أن مدتيهم ، وأن كتابتهم وأن تعاليم الأديّة والهنّة مشتقة من الصينيّة . كانوا أنحدوا يتعصبون عنهم غبار الحميّة في قرع الحبّة المسيحيّة الثاني والثالث ، وكان من أقدم أعمالهم - بوصفهم شعباً - محارج بلادهم ، غروهم لبلاد كوريا تحت حكم ملكة متطرفة التعصب في وطنيها ، بلوح أنها لعبت دوراً كبيراً في تأسيس حصارهم . وتاريخهم تاريخ شائق رومانسي ؛ فظنهم طوروا نظاماً إقطاعياً وتقاليداً للفرسية ، وما هجماتهم على كوريا والصين إلا معادلات شرقي للحروب الإنجليزي في فرنسا .

وقد حُملت اليابان لأول مرة على الاتصال بأوروبا في القرن السادس عشر . إذ حدث في ١٥١٢ أن بعث البرتغاليين وصلوا إلى برها في سفينة صينية ، وفي ١٥٤٩ شرع مبشر يسوعي اسمه فرانيسس زافيير يقوم بالتبشير هناك . وتقول بيانات اليسوعيين في ذلك الزمان أن بلادهم بلاد غربيها الحروب الإقطاعية المستديرة تحريكاً كبيراً . وظلت اليابان رصداً من الزمان ترحب بالمعاملات مع أوروبا ؛ ولستطاعت الإرماليات المسيحية أن تتدخل في الدين المسيحي عنداً كبيراً من الناس . وأصبح شخص بعينه اسمه ولم أذكر من جلبهم في كنت ، أوّس مستشار أوربي تطلع له نفس اليابانيين ، وهو الذي علمهم كيف ينتون السفن الكبيرة . وقام اليابانيون بسفن مبنية في اليابان برحلات إلى الهند وبيرو .

ثم نشأ شقاق معتد بين اللومينيكين الأسبان واليسوعيين البرتغاليين . وبين البروتستانت الإنجليزي والهلنديين ، وكان كل بحر اليابانيين من خبط الآخريين السياسيّة الحيّة . وابتسم لخط يوماً اليسوعيين وأتاح لهم دوراً من أدوار التسلط والنفوذ على منافسهم فعدوا إلى اضطهاد الورديين وإهانتهم في شيء كثير من الترسمة . واشتدّت هذه الفتن مع متزعات الزماد الإقطاعية . وانتهى اليابانيون إلى الحكم بأن الأوربيين ومسيحيهم آفة لا تطاق ، وأن المسيحية الكاثوليكية بوجه خاص ليست إلا مجرد ستار يخفي وراءه أحلام البابا السياسيّة وأحلام ملك أسباليا السياسيّة - الذي كان يملك من قبل جزائر الفلبين ، وحدث اضطهاد حاسم عظيم للمسيحيين ؛ وفي ١٦٣٨ أصبحت اليابان مغلقة إغلا تاماً في وجوه الأوربيين

بامتلاك مصنع هولندي تصنع على جزيرة ديشيا النشيلة في ميناء نجازاكي ، وظلت مغلقة زمناً يربو على مئتي سنة .

وتعرض الهولنديون القاطنون ديشيا لإهانات لا تكاد تنطاق . ولم يكونوا يوصلون بأي ياباني إليهم إلا للوقوفين المختصين للمعين للتعامل معهم . وظل اليابانيون قرنين من الزمان مضطربين تمام الانقطاع عن بقية العالم كأنما كانوا يعيشون على ظهر كوكب آخر . وكان محظوراً عليهم أن يبتعدوا عن مكانهم عن بعض زورق ساحلي . ولم يكن في استطاع أي ياباني أن يسافر إلى الخارج ، ولا أي أجنبي أن يدخل البلاد .

وظلت اليابان قرنين وهي بمنأى عن تيار التاريخ وجرأه الأكبر . وقد واصلت الجيش في حال من الإقطاع الحلاب تنمها للتلاحات النعوية . وكان فيها جماعة من السكان يقرَّبون الخمسة في اللغة هم الساموراي (أحبي رجال الحرب) والقبائل وعائلاتهم ، يظلمون سائر السكان ظمناً فاحشاً لأحد له . وكان العامة جميعاً يعيشون كلها مرسى أحد من القبلاء ، فإن إبداء الرجل أيسر فخر من عدم الاحترام التليل منه أنه يضربه « ساموراي » أي جنود فلك التليل بالسياط إلى أن يقضى نعيه . وكانت الطبقات المتنازلة تعيش عيش العاصرات الرومانية التي لا يقرب إليها أي شعاع من الجلمة يتقلها مما هي فيه من إملال ؛ كانوا يعيشون ويتقاتلون وهمسكون بضروب من فساد الشرف المتنازلة - ولعل ذلك كان يسجل أشد السامة إلى أذهان الأذكىاء منهم . ومن اليسر علينا أن نتصور تسمية اللحن الطلعة ، حين يعلبه للشرق إلى الرحلة والمعركة وهو مصعد بالأغلال في تلك جزائر الرومانس الجوفاء .

وفي نفس الحين كان العالم الكبير في الخارج يسير قدماً نحو رؤى أرحب وقرى أحدث . وتكاثر عدد السفن الصبية التي تمر برووس الأراضي اليابانية المحتلة في البحر ، وكانت بعض السفن تتحطم في بعض الأحيان ويحصل ملاحوها إلى الشاطئ . وعن طريق ديشيا الحلقة الوحيدة التي تصلهم بالعالم الخارجي ، جاءتهم النور تقول إن اليابان لا تسير قوة العالم الغربي . وفي ١٨٣٧ دخلت خليج بطو سفينة رافعة علماً غريباً من المخلوط والندجوم ، تحمل بعض بحارة يابانيين الضعفاء

وقد قلق بهم التيار بعيداً في المحيط الهادئ . وأطلق السائل على السفينة القديمة
مضغ طردتها خارج الميناء .

وسرعان ما عادت هذه الراية إلى الظهور على سواحي سفن أخرى . جاءت إحداها
في ١٨٤٩ للمطالبة بإغلاء سبيل ثمانية عشر ملاحاً أمريكياً محطت بهم سفينتهم . ثم
وصلت في ١٨٥٣ أربع سفن أمريكية بقيادة القومودور پرى Perry ، ورفضت أن
تسمح وألقى القومودور مراسيه في مياه محظورة ، وأرسل الرسائل إلى الحكام
الذين كانوا آنذاك يشتركون في حكم اليابان . وفي ١٨٥٤ عاد معه عشر سفن
مسلحة يدفعها البخار ، وهي مزودة بالمدافع الضخام ، تقدم مقترحات
بطلبها التجارة والتبادل والتواصل . ولم يكن اليابانيين قبل بمقاومتها . ونزل
إلى البر يحف به حرس مكون من خمسة رجال لكي يوقع المعاهدة . واصطلقت
الحجابر وهي بين مصلى ومكلم ووقفت ترقب هذه البعثة الرائدة من العالم
الخارجي وهي تشق الشوارع .

ثم قتلت روسيا وهولندا وبريطانيا عطوات أمريكا . ودخل الأجانب إلى
بلاد اليابان وتبع ذلك وقوع النزاعات بينهم وبين الأذكيا من صراة اليابان .
قتل أحد الرعايا البريطانيين في إحدى مشاجرات الشوارع ، وأطلق البريطانيون
مدافعهم على إحدى المدن اليابانية في ١٨٦٣ ورأى أحد كبار النبلاء الذي
تستشرف أملاكه مضيق شيمونوسيكي ، أن من المناسب أن يطلق النار على
السفن الأجنبية ، فكان عاقبة ذلك أن قام أسطول ثلث سفن بريطانية
وفرنسية وهولندية وأمريكية بتصف بطارياته بالقنابل وتدميرها وتشتت شمل
سائقتها . وأخيراً جاءت عمارة بحرية متحالفة (١٨٦٥) فألقت مراسيها خارج
أوساكا ، وفرضت على اليابان التصديق على المعاهدات التي فتحت أبوابها للعالم .

وكان تحقير هذه الأحداث وإذلالها لليابانيين شديداً حاراً ، ويظهر أن غلاص
الشعوب ينحصر إلى حد كبير في هذه الإهانات . فقام اليابانيون قومة بجمل فيها
العجب العجيب من النشاط والذكاء ونصبوا أنفسهم لرفع ثقافتهم ونظامهم إلى
مستوى الدول الأوروبية . ولم يحدث قط في التاريخ الإنساني بأجمعه أن غطا شعب

خطوة كالتى خطاها الشعب الياباني يوم ذاك . ذلك أنها كانت في ١٨٩٦ شياً
ينحى إلى القرون الوسطى ، وكانت صورة هزلية مضحكة للنظام الإنشائي
الرومانسي المتطرف . وفي ١٨٩٩ كان شعباً قد أسس شياً تام الاصطباغ
بالصبغة الغربية ، على قدم المساواة مع أشد الدول الأوربية تحملاً ، بينما كانت
تسبب الروسيا بمراحل كثيرة . فأزالت من الأذهان تماماً ذلك الاعتقاد القائل بأن
آسيا متأخرة عن أوروبا بطريقة قاطعة ، متأخرة لارضاء في إصلاحه . كما أن
جهودها الجارية جعلت التقدم الأوربي يبدو - بالمقاييس - متواثلاً عارضاً .

ويبقى المقام هنا عن الأسباب في ذكر وقائع حرب اليابان مع الصين
في ١٨٩٤ - ١٨٩٥ . وبحسبك أن تعلم أنها كشفت عن مدى إصطباغها بالصبغة
الغربية . فكان لها جيش غربي فوكضاية وتدريب ، وأسطول سليم للتكوين وإن
يكن صعباً . ولكن أهمية نهضتها ، وإن كانت تفوقها بريطانيا والولايات
المتحدة حتى نفروها ، وهما الدولتان اللتان كانتا تملكتان بالفعل كأنهما هي دولة
أوربية ، لم تضعها الدول الكبرى الأخرى المشتغلة بالبحث عن « هند » عظيمة
أخرى في غارة آسيا . فكانت الروسيا تشق طريقها دفعا خلال منشوريا إلى كوريا ،
وكانت فرنسا قد وطلت بالفعل أقدامها في الجنوب الأقصى في تونكين وأنام ،
وكانت ألمانيا تترقب بعض الجلياح بحثاً عن مسخر تركزت إليه . واتحدت الدول
الثلاث لنج اليابان من اجتلاء أية ثمرة من الحرب الصينية ، وللمعها بوجه خاص
من توطيد أقدامها على أرضي الفلوة والمناطق المطلة على بحر اليابان . وكانت
الحرب مع الصين استغذت قواها ، فهددوها بإعلان الحرب عليها

وفي ١٨٩٨ أطلقت ألمانيا على الصين ، متخذة من مقتل اثنين من البشرين
قرية ، وضعت إليها جزءاً من مقاطعة شان تونغ . وعند ذلك استولت الروسيا
على شبه جزيرة لياوتونج ، وانتزعت من الصين قسراً قبولها مد خط سكة حديد
سيبريا إلى بورت آرثر ، وفي ١٩٠٠ احتلت منشوريا . ولم تستطع بريطانيا أن
تقاوم الزوج إلى المحاكمة ، فاستولت على ميناء واى هاى واى ١٨٩٨ .

وإن نظرة واحدة إلى الخريطة لتلك كم كانت هذه الحركات مجلبة للفرح في قلب كل ياباني ذكي القوم . ولم تلبث تلك الحركات حتى أدت إلى حرب مع روسيا تأذنت بحجة بجدية في تاريخ آسيا ، هي حجة انتهاء فترة الصيغة الأوروبية . ومن البديهي أن الشعب الروسي لم يكن له علم ولا جريرة في هذه الصاير التي كانت تُصنع له في تلك الثقة السخيفة من العلم ، وكان رجال السياسة الروسيون الأكثر حكمة واتزاناً يناهضون هذه الفريات الحسنة ، ولكن عصابة من المفارمين للالين كانت تحيط بالقصر ، من بينهم بعض الفرائطوقات من آيتة عمومته . وقد غرقوا حتى الأنف في مقامتهم التي يرمون بها إلى نسيب منشوريا والصين ، ومن ثم لم يسمحوا لأنفسهم بأن يراجعوا عن خطتهم أخطى تراجع . ومن ثم شرعت اليابان في لوصاك للجيوش المبرلة من الجنود اليابانية عبر البحر إلى بورت آرثر وكوريا ، ونهضت روسيا لإرسال عدد لا يحصى له ولا نهاية من أحال للقطارات المتخلة بالقتالين الروسين على طول خط سكة حديد سيبيريا لكي يموتوا في ميادين القتال الثانية هذه .

وهزم الروسون في البر والبحر على السواء لما كانوا عليه من سوء القيادة وعدم الأمانة في الصون بالميرة والخبرة . ودار أسطول روسيا بالطريق حول إفريقيا لكي يسلم عن آخره في مضيق نوشيوا . وقالت حركة ثورية بين العامة من سكان روسيا الذين استقروا هذه المذاهب السياسية التي لا مبرر لها ، فأجبرت القيصر أن ينهي الحرب في (١٩٠٥) ، فرد النصف الجنوبي من جزيرة سيخالين التي استولت عليها روسيا في ١٨٧٥ ، وأعلى منشوريا وتنازل عن كوريا لليابان . فالرجل الأبيض قد شرع بذلك يخفى عن نفسه حياء وتبته في آسيا الشرقية . وظلت ألمانيا مع هذا يمتلك كياوتشاو احتلا كما قلنا غير مطمئن .

١٥ - ختام فترة التوسع وراء البحار

لاحظنا آنفاً كيف أن مغامرة إيطاليا في الحبشة صُدت في معركة عدوة الرعيه في ١٨٩٦ ، التي قتل فيها ما يربو على ثلاثة آلاف إيطالي ولعل فيها أكثر من أربعة

آلاف أسير . وكان دور الفصح الاستعماري على حساب الدول المنتجة غير الأوربية قد أخذ يدنو من خاتمة دنوآ يئناً . وهو دور ورط الشئون السياسية والاقتصادية لكل من بريطانيا العظمى وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا وألمانيا والروسيا التي تحمل ما يكفها من التقييد والعسر ، وشبكها بشئون أهم غربية متكررة غير قابلة للتشليل . فاستولت بريطانيا على مصر (وإن لم تلحقها بها حتى ذلك الحين رسمياً) ، والهند وبورما وعدداً من تلك المشاكل الصغرى أضراب مالملة وشنهائى ، وأبهظت فرنسا نفسها بتونكين وأنام بالإضافة إلى الجزائر وتونس ، واشتكت أسبانيا حديثاً في بلاد مراكش ، وخضت إيطاليا لنفسها المتاعب بطرابلس ، وكان الاستعمار (الإمبريالية) الألمانى وراء البحار وإن بد مركزه ، تحت الشمس ، هزيلة - يطل النفس بقلوب جهده بفكرة القيام في المستقبل بحرب مع اليابان على تياوتشاو .

وكانت كل هذه الأراضي ، المحكومة ، تضم سكاناً على مستوى من اللكاء والتعليم لا يقل إلا قليلاً جداً عن مستوى القطر المتمك ، وكان تطور الصحافة الوطنية والوهمى اللذان والشدئى والمطالبه بالحكم الذاتي ، أمراً لا محيص منه في كل حالة من هذه الحالات ، وكان رجال السياسة والتدبير في أوروبا في شغل شاغل بالحصول على هذه الإمبراطوريات ، حتى لم تكن لديهم فكرة صحيحة عما يتفرون أن يفعلوه بها عند حصولهم عليها .

إن الديمقراطية الغربية اكتشفت أثناء استيقاتها إلى ضياء الحرية أنها دول استثمارية ، ، غاربكها ذلك الاكتشاف كل الارتباك . وكان الشرق يند إلى عواصم الغرب حاملاً طلبات محبرة . ففي لندن أخذ الرجل الإنجليزي العادى وهو أئد ما يكون شغلا بالاضطرابات والألغاز الاقتصادية ومسائل التعليم الحكم المثل والتلميذات الخطية وإقامة اللا مركزية ، يجد من يقطع عليه الطريق ومن يفتشى إجتاحتاته العامة من عدد جم متزايد الكثرة من رجال ظاهرى القماعة مهذبين ، رجال سميريرتون الطرايش والهايم وأنواعاً أخرى هجبية من لباس الرأس ، وكلهم يقول ما معناه الواقى ، لقد استحوذتم علينا . والرجال اللذين يمثلون حكومتكم قد حطموا حكومتنا ، وهم يحولون بيننا وبين إنشاء حكومة جديدة . لهذا أنهم فاعلون بنا ؟ . . .

١٦ - الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤

وبما جاز لنا الآن أن نلاحظ في إيجاز تام الطبيعة الشديدة الاختلاف للأجزاء التي كانت تتكون منها الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤ . لأنها كانت وما تزال خليطاً سيلياً فريداً في بوعه تماماً . إذ لم يظهر على وجه البسيطة قط شيء من قبيلها . فهي شيء جديد في التاريخ السياسي ، كما أن الولايات المتحدة شيء جديد فيه أيضاً . وهي شيء أكبر وأشدّ تضيداً من أي دولة من تلك الدول القومية الملتهب أهواب فرنسا وهولندا والسويد .

وكانت الدولة الأولى والمركزية في تلك المجموعة بأسرها هي « الجمهورية المتحدة » أي المملكة المتحدة البريطانية ، المعتبرة على لارلندة (على غير إرادة فريق جسيم من الشعب الإيرلندي) . وكانت الأغلبية في البرلمان البريطاني ، وقوامه البرلمانات الثلاثة المتحدة لاجنطرة واسكتلندة وإلندة ، هي التي تتحدد رئاسة الوزارة وصفتها وسياستها ، ويكون ذلك التحديد إلى حد كبير ، بناء على اعتبارات تتصل بالسلطة البريطانية الداخلية . وهذه الوزارة هي الحكومة العليا للفعالة ، وبين يديها سلطات غولها التصرف في السلم والحرب على سائر أجزاء الإمبراطورية جميعاً .

وكان يلي هذه الولايات البريطانية في الأهمية السياسية ، « الجمهوريات المتحدة » ، أستراليا وكندا ونيوفاوندلند (أقدم مملكة بريطانية ١٦٨٣) - ونيوزيلندة وجنوب إفريقيا ، وكلها دول مستقلة تقريباً تحكم نفسها بنفسها وهي متحالفة مع بريطانيا العظمى ، على أن بكل منها عملاً للتاج تعينه الحكومة التي في الحكم . ثم نجىء بعد ذلك الإمبراطورية الهندية وهي امتداد للإمبراطورية المنقولة الأعظم ، وتتخذ الآن بما فيها من ولايات تابعة وحماية ، من بلوغستان إلى بورما كما تضم عدن . ولكن للتاج البريطاني في كل أرجاء تلك الإمبراطورية ، ووزارة الهند (تحت الرقابة البرلمانية) يقومان في كل هذه الإمبراطورية بدور الأسرة الرئاسية الأصلية .

ثم نجىء مملكة مصر المتنامضة الوضع ، وهي ما تزال من الناحية الإسمية جزءاً

من الإمبراطورية التركية ، وما تزال تحفظ بعاملها الخاص وهو الخديو ، ولكنها تحت حكم الموظفين البريطانيين الذى يكاد يكون استبدادياً . وليلحظ القارئ أن مصر جعلت مملكة شبه مستقلة ، متحالفة ، مع بريطانيا فى ١٩٢٢ . ثم نأتى ولاية السودان المصرى الانجليزى التى مركزها السياسى هو أشد نموغاً ، واتى يعطها ويحكمها الحكومتان البريطانية والمصرية مشتركين .

وتم حدد من المجتمعات التى تحكم نفسها حكماً جزئياً ، ومنها ما هو بريطاني الأرومة ومنها ما هو غير بريطاني ، ولها مجالس تشريعية منتخبة وهيئات تنفيذية معينة ، أمثال جيبانكا وجزائر الباهاما وبرمودا ومالطة . وقد أعلن فى يونيو ١٩٢٠ دستور مالطى جديد أكثر تحررية ، ويكاد يرفع مالطة فى مستوى مستعمرة تحكم نفسها بنفسها .

ثم إن هناك مستعمرات التاج ، التى يكاد فيها حكم الحكومة البريطانية الأصلية فى بريطانيا (بواسطة وزارة المستعمرات) يقارب الحكم المطلق ، كما فى سيلان وتربيداد وفيجى (وفى مجلس يؤمط أحضاره بالتعب) ، وجبل طارق وسانت هيلانة (ويحكمها حاكم) ، ثم مناطق عظيمة من أراضى مدارية (فى معظم الأمر) ، وهى مناطق تنجج المواد الخام ولها مجتمعات من الوطنيين ضعيفة صامبا وتناقص فى المدنية ، كانت من التاجية الأسمية محميات ، وكان يديرها إما مندوب سام ينصب فوق الرؤساء الوطنيين كما هو الحال فى باسوتولاند ، أو من فوق شركة ذات مرسوم كما هو الحال فى روديسيا . وكانت وزارة الخارجية فى بعض الحالات أو كانت وزارة للمستعمرات فى بعض الحالات أو وزارة الهند فى بعض الحالات ، هى الوزارة ذات الشأن فى الاستحواذ على الممتلكات التى تقع تحت هذا الصنف الأخير الذى هو أقل الأصناف تحديداً ، ولكن وزارة المستعمرات كانت فى معظم الشأن هى المسئولة الآن عنها .

وعلى هذا فن الجلى أنه ما من وزارة بمفردها وما من عقل بمفرده قد تفهم قط الإمبراطورية البريطانية فى مجملها . كانت خليطاً من الهويات والتجتمعات مختلف إنطلاقاً كلياً عن أى شئ سعى من قبل باسم إمبراطورية . وكانت نفسن لتتأسد سلماً ، وترى الأطراف وأمنة شاملة ، فن أبطل ذلك يمينها ويناصرها ويحتملها كثير

من رجال الشعوب ، الحكومة ، بالرغم مما يقاسون من استبداد الموظفين وإملازم في الكفاية وعظم الهاون والإهمال الذي يديه جمهور بريطانيا في « أرض الوطن » .

وشأن هذه الإمبراطورية هو شأن « الإمبراطورية الآتية » ، قديما ، من حيث أنها إمبراطورية تمتد وراء البحار ، طرفها هي الطرق البحرية ، وراجلها المشتركة هي الأسطول البريطاني . وتماشكها شأن كل الإمبراطوريات يقوم من التاحية التكوينية على وسيلة من وسائل المواصلات . وقد أدى التطور في فن الملاحة البحرية ويطه السفن والسفينة البخارية فيها بين القرن السادس عشر والتاسع عشر إلى جعل ذلك السلم وأعطى به « السلم البريطاني » *Pax Britannica* ، أمراً ميسوراً مريحاً ، وربما أدت التطورات الحديثة في النقل الجوي أو البري أو السريع أو في فن الحرب بأعماق البحر إلى جعله أمراً غير مريح أو شيئاً معرضاً للخطر تعرضاً لا مرد له .

١٧ - التصوير والنحت والحجارة

كما نكس عبارة « القرن التاسع عشر » لأن ذلك لفظ متداول يسهل علينا استعماله ، ولكن لكل من الجدل لدى القارئ أن فترة هذا الفصل ليست في الحقيقة محصورة بين ١٨٠٠ و ١٩٠٠ بل بين ١٨١٥ و ١٩١٤ . ولم تحدث بين هذين التاريخين كوارث مسلحة ولا أزمات قلبية جامحة . أجل كانت الصعوبات الخارجية جسيمة جداً في واقع الأمر ، بيد أنها لم تكن تغرات لجاية ولا هي كانت بأى حال تقضاً وعكساً السيرة العامة للأمر .

وعلى أن نعالج تلك الفترة الصارمة التي غم بها قرن الضلم والاعتراع هذا ، فإن من الخير أن نجرد ثلاثة أقسام للأشكال التي عبر بها الفن عن نفسه . وقد سبق أن حاولنا تطور معارضة العلمية وفلسفته السياسية ، وسننظر الآن أولاً إلى فن التشكيل والتصوير فيه ، ثم نتجه بإبصارنا إلى حياته الموسيقية ، ثم توجه انضاتنا إلى أدبه الخلاق المبر .

وتمكس لنا قصة التصوير الأوربي إبان النصف الأول من القرن التاسع عشر صورة الصعوبات الإيجابية في ذلك الأوان . وهو زمان أعطت فيه الطبقة الوسطى

وأصبحت بها الطراز البحري الجاد من الناس ترداد ثروة وأهمية بسرعة فائقة . فكان ذلك زمان أصحاب مصانع أثروا واغشوا وزمان ماليين جدد أصابوا من التوفيق المالي حظاً كبيراً . ومعزاً ما ظهرت السكك الحديدية والسفن البخارية والتجارة الخارجية في مواد الطعام الرئيسية كما ظهرت الثروات المكتوبة بالمضاربة الناجمة عن هذه الأمور بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . وكان يساور البلاطات الأوربية التي أهدت إلى الحكم نزوح إلى استرخاء أصحاب هذه الثروة الجديدة والاختلاط بهم . وأصبحت الموصرون من أرباب المصانع هم رعاة التصوير والعمارة التوضيحية ، وكانوا يحاولون أن يدخلوا في عداد المحتملين والمرأة . فكانوا يرغبون في أن تكون لهم الصور التي يصلها المحتملان للمحتلمين ، أكثر مما تشخص أبعادهم إلى احتياز القوة الزائلة أو الجمال المغير . وإن أحدهم ليغيب في إقتناء صور يستطيع أن يتناول يلذاتها طعامه أو يحسني ثيابه . وقد امتلأ قلبه بشعور الارتفاع والرضا ، كما أنه كان على استعداد أن يبذل فيها المال سخاء . ومضى عن هذا العالم الفنان الإسباني المتقلب المدعش جويبا (١٧٤٦ - ١٨٢٨) ومصوراً للمناظر البرية الإنجليزية العظيم : كونستابل (١٧٧٦ - ١٨٣٧) وتورنر (١٧٧٥ - ١٨٥١) ثم دافيد ولينجس اللذان حدثنا عن كونهما المبرزين من روح الإمبراطورية الفرنسية ، مضوا جميعاً ولم يبق لهم على ظهر البسيطة من ضريب . على أن التصوير أصبح مهنة واثمة جداً وضخمة جداً . وكانت الأكاديمية الملكية البريطانية والصالون^(١) الفرنسي يقمان المعارض السنوية للصور المرسومة بغية إدخال الفلّة والسرور على الأقطعة ، وكان الفنانون يشتركون الدور الكبيرة الفخمة ويمشون عيش الترف الكريم . بل قد بلغ أمرهم في إنجلترا أن أنهم على العديد منهم لقب سير وصارت النحت في هذا الاتجاه . ولنس كعب تقدير الناس للصور عن أن يكون عميقاً شديد العمق ، فلقد أصبح مقشراً واسع الانتشار وأوسلك الرحيل السوي إلى لندن لمشاهدة معرض الأكاديمية ، أن يصبح لمرأ إلزامياً على جموع كبيرة من الجمهور الإنجليزي .

(١) الأكاديمية البريطانية والصالون الفرنسي : حيث كان الفنانان يجتمعان ويتبادلان

ولكن حدث مع مجاوز القرن لسيه الوسطى ، أن ظهر في ظلم القرن نفس الليل إلى القلق وعدم الاستقرار ، ذلك الليل الذي كان السبب في حل بالنظام الديني والاجتماعي في أوروبا من اضطراب غنى إنجلترا شرح رسكن (١٨١٩ - ١٩٠٠) ووليم موريس (١٨٣٤ - ١٨٩٦) ، يتفقدان غواء الأكاديمية وتفاهتها في الفنون والخطاف المعاصرة انتقاداً كان له تأثير مزعج . وحدث بين رجال التصوير تصلح واتصالات .

وظهرت مدارس جديدة ، تخص بالتعبير منها أصحاب مذهب « ماقبل والفائل Pre-Raphaelite » الذين يجدون في البحث عن السوابق والأساليب في عمل تلك الأيام القديمة أى قبل أن يصحح التصوير شيئاً . فولوا وجوههم يظلمهم استحسان رسكن وموريس شعر الصور الوسطى ، وأتخلوا بصورون صوراً تمثل أبطال الملك آرثر (١) والطارى المباركات (Blessed Damozels) . ووجه آخرون منهم من نوى النفوس الأكثر ثروة أنظارهم إلى العالم المحيط بهم . وظل كودرت (١٧٩٦ - ١٨٧٥) محظاً بكل قوة بصيرته طوال سنى الركود تلك . وشهدت فرنسا بعد كارلة (١٨٧٠ - ١٨٧١) وفي حمل الأمثلة من أضراب ديجاز ومايه ورنوار رجعة كبيرة إلى سوابق رامبرانت وفلاسكوز . ولابد لنا من أن نذكر مع هؤلاء القرنين اسم هوبلر الأمريكي العظيم (١٨٣٤ - ١٩٠٣) . ودم في الناس وهم لا يكادون يعرفون - ديب البرم بالصورة الخشنة ، ثم ظهر طراز من عملة النور لم يكن يسمح بترك فراغ من الخنوا للصور الزينة ذات الإطار . حتى إذا اقترت تلك الفترة من نهايتها تناقص بشكل محسوس ما تنفج يد الصور من صور تبايع وتعلق على الخنوا في أى موضع كان ، وأخذ المسئولون بوجهون ذلك السيل النهر من طلاب الفنون توجهاً مطرد التراجع - إلى طلب الفنون الزخرفية الأكثر تواضعاً والأقرب إلى النفوس

وظهرت عند عتم القرن التاسع عشر بوادر كثيرة تدل على أن طريقة التمثيل

(١) الملك آرثر : ملك بريطاني قديم يطلق الأساطير ، كتب من الأورد تيسون قصة « موت آرثر » نقلًا عن أساطير الفترة الوسطى . (التوضيح)

الشعق المضبوط قد انحطاما هن . فأنضت من البسط والسدف وأقشة الكياب ،
 الصور التي تحت الأزهار والأشكال الإنسانية ، وأصبح التمثيل صفة ثانوية مخافة في
 فن التصوير والنحت . ولقد لاحظنا فيما سلف قوة سابقة تنبج إلى إظهار الواقع
 أثناء حكم أعنتون في مصر وأخرى في العهد الإغريقي الروماني ، كما لاحظنا كيف
 انحصر هذا الدور الأخير مريعاً إلى الجمود وقلة المعنى والرمزية في الآثار البيزنطية
 والقوطية كما تحول إلى الطريقة الشكلية والهندسية في الزخرفة الإسلامية . وقبل ذلك
 بكثير حدث أن الروح التأثيرية (الانطباعية Impressionism) للشرق التي ظهرت
 في العصر الحجري القديم الثاني قد حقها المذهب الشكلي الذي تجميل في فن العصر
 الحجري الحديث الأبعد ، وهنا أيضاً يرى الفن في العديدين الأولين من القرن
 العشرين وهو يغير سيله وكأنما أصابه كلفة فأنحرف عن الواقع صارفاً النظر من
 الشكل الخارجي إلى ترميم آثار الحركة ، عائداً من جديد إلى التحليل والرمز .
 ويبدو أن من المحتمل أن يطرد الفن في سيله هذا . وما يبعه الآن كلك الزيادة في
 كفاية التصوير الضوئي (الفوتوغرافي) في كل ما يتعلق بالدقة المارضة البحتة .
 وإن العالم ليضيق ذرعاً بالحقائق غير المضمومة .

وقد اتضح ذلك القرن بنور من أدوار الجمود في العبارة . فإن التقاليد الكلاسيكية
 التي كان يدعمها غلبة الأكدياء الكلاسيكيين على المدارس ، قد تسلطت شيئاً فشيئاً
 على التطور الحر لطراز النهضة وصعدت بالتدريج تبارده ، وكأنني بمعظم العائل
 الجديدة وقد ران عليها مظهر الأسف على حصر معنى منذ ألقين من الستين ١١ . . .
 فقد كانت تظهر " كل مكان واجهات من الزخارف الجصية ^(١) يضاء مصعدة .
 ثم ظهر - مع النهضة الرومانسية في الأدب ، التي سوف نبجها من فورنا بإسهاب ،
 ومع محاولة نابليون لبعث روما الإمبراطورية - تحول في العات هذه الفترة للشلبية
 الكلف بالتقليد والمحاكاة صوب العصور الوسطى . إذ حلت بعد الانتعاش

(١) الزخارف الجصية (Stucco) : استعملت هذه الكلمة لعلالة حل طراز ثلاثة أكثر منها
 على مادة يمينها ، وهي تطلق عادة على النقوش البارزة والمثلثات من زخارف الهند . وهي تصنع
 من الجبس أو الإسمنت أو لاصوق الجير . (الترميم)

الكلاسيكي انتعاش قوطي تلبث قوته بوجه خاص في بريطانيا ، وأنتج لها أنتج من مآثر عظيمة باهرة كثيرة ، د لوى البرلمان الحاليين . ثم استبدت فترة الملكة آن ، التي تميزت بتطور خاص في طرائق عصر النهضة التي كانت لا تزال قائمة . وإن المهتمين بالمعاريين في بريطانيا لينتبه لك قصراً أو داراً على الطراز الكلاسيكي أو القوطي أو الاسكتلندي الباروني أو طراز الملكة آن ، فأما الطراز الوحيد الذي لم يظهر على ظهر الأرض البتة فهو طراز القرن التاسع عشر . كان رجال الإنجليز يبنون ويدهشون في سراويل وقمعات عالية وثياب دكتاء يحرسون فيها كل المحرص على أن تكون عصرية محترمة إلى حد كبير ، ولكن يوتهم ومبانيهم العامة كانت تكتس في ثياب الماضي الموات الخالي من الروح ، كأنما كانت تها لحفلة رقص تنكرية تظلمها الكتابة ولقت .

على أنه ظهر في فرنسا وألمانيا فتراوى وأكثر من المبادعة والابتكار في فن العمارة ، فإن طراز عصر النهضة كان ما يبرح يعيش ويتطور في فرنسا . وهناك مسائل شائقة واجهها فن العمارة في أنواع المباني الجديدة أصراب عطلت السكك الحديدية وكبارى السكك الحديدية والمخازن والمسودعات والمصانع وما إليها ، ومع ذلك لم يحرب فيها إنسان واحد مقلدته بصورة جدية في أي مكان باستثناء ألمانيا فيها يحمل . وكان القبح الدال على عدم الكتابة المعمارية هو القاحلة في إقامة تلك المباني . وكأنما كان الانقاع للاحتياجات الجديدة والمواد الجديدة والقرص الجديدة قد غلب المهتمس المعاري على أمره وسله شجاعته في ذلك العصر . ومن أصعب منتجات دور التخوف ذاك وأشدّها دلالة على صبرها قنطرة برج لندن ، التي خلط فيها بين هيكل متين خفيف من الصلب المكسو بالحصى وبين لمحات من التحت الحجري الملمنكي وبين ذكريات لقنطرة رافعة^(١) من قنطرة الصور الوسطى . على أن جميع مباني بريطانيا في القرن التاسع عشر طامحة بذكريات تاريخ مقيم بال .

وفضلاً عن هذا فإن فن عمارة المنازل انحد أكثر مما انحد فن عمارة المباني

(١) القنطرة الرافعة (Drawbridge) تنطو ككثت توضع على الخندق المحيط بالقلع وتقلع كحركتها في نهايتها ، فإذا أريد إنقاذها رفس . (المترجم)

العامة إبان شطر كبير من القرن . فإن الزيادة الضخمة في عدد السكان في دول أوروبا وهي الزيادة التي استغندت قلوها طائلا من موارد ذلك العصر المزدهرة ، قد أدت إلى زيادة غفيرة في بناء البيوت المنحطة الرتبة حول المدن النامية ، فأقيمت صفوف لا حصر لها من البيوت الصغيرة الرضيفة في بريطانيا ، ومساكن قبيحة في معظم الأقطار الأوروبية الأخرى . ولم يحدث إلا عندما قارب القرن غايته وحبطت نسبة المواليد وظهر أثر الجلاء في إعادة توزيع السكان الذين كانوا يتوالدون ويتزاحمون حول محطات سكة الحديد ، — أن ابتعث اهتمام عام يقن عمارة المنازل وأن ظهرت أنماط عصرية لطيفة من الدور المثلوية الصغيرة وبيوت الريف .

وكانت أمريكا قد أنتجت أيام الاستعمار طرازاً من طرز البيوت الريفية ملائماً تمام الملائمة ، نشأ بوجه أعصر في فرجينيا وبلاد الجنوب ، وهو تكييف لقن عمارة البيت الريفي البريطاني طبق الأحوال المحلية ، والبيت الريفي البريطاني نشأ مضرعاً من جذع شجرة النهضة المشرقة . وقد سبق أن أشرنا إلى فضل السير كريستوفر نون على هذا التطور . وفيما عدا هذا المنحى للقرن لم يكن فن العمارة الأمريكي يزيد في جل شأنه حتى آخريات القرن التاسع عشر عن تصميمات أوروبية مقلدة . مثال ذلك أن الكاثيول الهام في واشنطن إنما هو من عمل الفرنسيين . وربما كان من الممكن إقامته في باريس أو بروكسل . وكان الشيء الكبير من مباني المنازل هزيلة عادياً . وعندما اقتبست بريطانيا نافذة شرايح الزجاج^(١) (Sash Window) احتفظت أمريكا بالنافذة العادية المستعملة في القارة الأوروبية . حتى أنه حدث والقرن في عقبيه التاسع والعاشر ، أن الثروة المتزايدة والاعتماد التام على الذات في العالم الجديد فجرا ابتكارات معمارية جديدة قوية . فقد شرعت أمريكا في استعمال مباني القنولاذ والزجاج والحرسانة ، استعمالاً تجلي فيه قدر متزايد من الجرأة والتجاسر . وكان من أثر هذه المواد والاختراع المصعد وإحكامه أن أصبح من الميسور بناء مباني

(١) نافذة شرائح الزجاج هي نافذة ذات لمدور بصه ويؤاز تميزاً لها من نافذة

العادية (Casement Window) التي تنفتح وتنطق على مداخل وهي المرسدة بجميع النازل المصرية . (المدرسة)

قوات إرتفاع واتساع ليس لها مثل سابق . ففي ١٨٧٠ لم يكن يكون هناك شيء اسمه فن الهارة الأمريكي ، ولكن عندما حلت ١٩١٠ كانت أمريكا قد سبقت كل قطر آخر في العالم بمراحل فيما يخص بيانها من مجلة وجرة . وبرزت ألمانيا فترة أثناء ذلك . وبرز أسماء ريتشارد سون (١٨٣٨ - ١٨٨٦) وستافورد ويت (١٨٥٣ - ١٩٠٦) بين أسماء المهتمين بالممارسين الأمريكيين في هذا العهد الجديد .

ففي أمريكا القرن العشرين يجب أن تشخص الأبصار ترى التغيير التدريجي من القوى والموارد الجديدة التي كشفها القرن التاسع عشر لأنظار الإنسانية بمختلف البناء وإعداد المنازل . وربما جاز لنا بالعلاقة إلى هذا التطور في فن الهارة أن نحدد أبصاً على تطورات أخرى جديدة بالنسبة في السمات والتصوير والموسيقى (الموزايكو Mesale) وفي فنون الزخرفة عامة . وسوف تكون في تلك الفترة الفرصة الكبرى ، والثروة الكبرى وحرية الفكر الكبرى .

١٨ - الموسيقى في القرن التاسع عشر

سار فيض الخلق والإبداع الموسيقي الذي طرد إبان القرن الثامن عشر في طريقه الطبيعي دون أن يلقى شيئاً يذكر من الموانع أو العراقيل طيلة فترة هذا الفصل . وقد سبق أن ذكرنا أسماء موزار وبيتهوفن بوصفهما كوكبين يلغا الذروة بالقرن الثامن عشر . وبمحملنا يتهوون مُقدماً إلى صميم القرن التاسع عشر ، ولا بد لنا من أن نذكر بإذاته معاصره وبيتر (١٧٨٦ - ١٨٢٦) وهو رجل أخذ نفسه بالتجريب والابتكار وله فيها صولات ذات أهمية جوهرية ، ثم خلف بعدهما بقليل شخصيات جليلة القدر منها شوبرت (١٧٩٧ - ١٨٢٨) ومندلسون (١٨٠٩ - ١٨٤٧) وشومان (١٨١٠ - ١٨٥٦) . وليس في مستطاعتنا كذلك أن نقل شأنه كالتوازيات التمهيد لسيزار فرانك (١٨٢٢ - ١٨٩٠) .

وكانت الموسيقى قد أخذت تتقل رويداً رويداً من موضعها الأول تحت رعاية الملوك والنبلاء إلى صالة العزف^(١) وإلى الاستقامة لأفراق جمهور مهلب تهلياً

(١) صالة العزف (Concert Hall) قاعة تقام فيها الحفلات الموسيقية قسوراً (المزج)

خاصاً . وكان هناك إلى جوار الأوبرات عدد متزايد من قطع الفناء والياتر أنشئت لاستئجار المهابة الأذواق وقطع من موسيقى الرقص للحفلات الاجتماعية . ولم يكن ثمة تقادم مقابل لهذا في الموسيقى الدينية بعد أيام هاندل وباخ . على أن الرعاية الملكية كانت ما تزال ذات أهمية كبرى لمؤلفي ألحان الأوبرات ، وكان بلاطاً بالباريا والروميا يوجه خاص مثابة لنوع جديد من « دراما الأوبرا » و« قهجوم جديد عن رقص البالية »^(١)

ولذلك نستطيع أن نتأثر في موسيقى ذلك القرن مهنات^(٢) العصر ومصالحه المتزايدة الآن . فأخذ الملحنون يطلبون موضوعات جديدة وفكرات طريفة وروحاً جديدة ينفخونها في موسيقى العامة من سكان أوروبا الشرقية والشعوب الشرقية .

فاستعمل شومان الموسيقى البولندية (١٨٠٩ - ١٨٤٩) ، وأخذ ليست (١٨١١ - ١٨٨٦) وجواكيم (١٨٣١ - ١٩٠٧) من المصادر المتفرقة مورداً للوحى يردانه ، وتجاوز برامز (١٨٣٣ - ١٨٩٧) هذا الميدان حين عرج على الهند يطلب مادةً يخلطها على ألحانه التي هي بطبيعتها كلاسيكية . وولد لاجنر في ١٨١٣ وتوفي في ١٨٨٣ . متأثر خطى وبر ويزق تخاليد الأوبرا الراسخة . فأدخل الروح الدرامية على موسيقى الآلات ووسع مجالها إلى حد بعيد ، وحملها قوة جديدة وعاطفة جديدة . ثم أعقبه بعد ذلك في روسيا تشايكوفسكى (١٨٤٠ - ١٨٩٣) وموسورجسكى (١٨٣٥ - ١٨٨١) ورمسكى كورساكوف (١٨٤٤ - ١٩٠٨) فكتشفوا عن عوالم جديدة من البهجة والقون . وحلها المجال الضيق الذي بين أيدينا لا يسمح لنا بأكثر من الاختصار على ذكر اسم دافوراك التشيكى (١٨٤١ - ١٩٠٤) وأن نتوه بالإقدام الحيوى الذى كان عليه رينشارد شتراوس (المولد في ١٨٦٤) واليهام البهيج لدى ديموسى (١٨٦٢ - ١٩١٨) . ولم تنتج أمريكا حتى اليوم إلا الشيء القليل من الموسيقى العظيمة المشهورة .

(١) رقص البالية . سلسلة عضة من الرقصات ثم حل لنهايت للموسيقى ، ونقل لها الإصناف والشخصيات والشاعر الخ . (الترجم)
(٢) المهنات : هي الموضوعات التي تم بها الشعر . (الترجم)

ولكن كما أن الولايات المتحدة وثبتت فجأة من القدم في العماراة إلى فن العماراة العظيم الذي تبا يظهر الأحوال الجديدة ، وأهني بذلك المبني القولاى واللواى الى لم تسبق تجربتها حتى تسعينات القرن التاسع عشر ، فن المفضل أن يبرز عن الغرب (أمريكا) في أى وقت فجر أشكال موسيقية جديدة وعمرات جديدة . وعند آمد غير بعيد ، والضميج ، ينقل من أمريكا إلى أوروبا بدرجة متزايدة الارتخاع ولكنه في بعض الأحيان ، صجيج ، مرح كل المرح . وقد أرتت الروح الزلجية أثرها في حجرة الرقص وفي فاعات الموسيقى . وليس بمستبعد أن باقى ذلك اليوم الذى يصبح فيه الأمريكى في صالة الموسيقى - على الأكل - فخوراً سعيداً بهما الفروع الأسود التابع في الجنوب . على أنالا نستطيع أن نتحدث ما هنا عن موسيقى الجاز (Jazz) وما يتصل بها من تطورات .

ولسنا بمعاودين القول في الموسيقى في هذه الملم . . والفترة الحالية تتميز بانتشار فصح الملى لشيء كان في قديم الزمان امتيازاً لطبقة ممتدة . فكل الماكى والياتولا^(١) وجهاز الراديو تجعل الملم بأوجه ضرراً بنجر الملحنين وأعظمهم .

١٩ - نهوض القصة إلى مرتبة الصلورة في الأدب

إن المجال الذى يجده بين أيدينا الآن أصبح من أن يقع لأكثر من بيان موجز في أصنى الحدود وأشدها تبسيطاً عن ذلك القيص العظيم من النشاط الأدبية التى حاولت القوى الجديدة التى ظهرت في قرن التوسع ذاك أن تعبر بها عن نفسها . وقد سبق أن حاولنا التفكرات الرئيسة لموسى الاشتراكية ومكونها وتأثير النظره العلمية النامية على التفكرات الدينية والسياسية والاجتماعية ، على أنه من المستحيل علينا أن نبى بكامل حقوق الأهمية النائمة والتأثير المتواصل لتفكرين علميين عظماء من أصراب آدم ميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠) ومالتوس ، (١٧٦٦ - ١٨٣٤) وعملقائهما ، أو تلك التاملات العميقة الخافضة التى جاد بها شونهور (١٧٨٨ -

(١) الجيولا : من الجيولا الأرثوذكس الذى تنقله الهالات ، ومجرب به بعض الناس في القرنك . (لترجم)

(١٨٩٠) ونيتشا (١٨٤٤ - ١٩٠٠) في ألمانيا . ثم يحيى هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) وهو أنه ما يكون بصنّف جذاب منير يرد في أسفل قائمة أطعمة طويلة جداً . ولابد لنا من تركه . ولقد انحرف بقرار الفكر للمصري الحراقاً صحيحاً جداً ، ولكنه يقتضى من تأثير الحراق أنه .

كذلك ليس في طوقنا أن تناقش هامنا مصادقات النوف ومخالفات التأويل التي جعلت من الورد بيرون (١٧٨٨ - ١٨٢٤) ذلك المعجزة الركيك للشعر الذي يضم بين جوانحه فلسفة متشكك من رجال المدن ولا يزيد ، - شخصية عظيمة في فكرة القرن التاسع عشر عن الأدب في كل أرجاء أوروبا ، كذلك لنا يواصين جيته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) في كفة الميزان ، وهو من ظل طوال ستين عديلة رب ألمانيا الذهني والجمالي . فلقد فقد تلك المفزعة الرقيقة من زمن بعيد بعد أن نثر على العقل الألماني ثروة عظيمة من الآداب والنزعات الكلاسيكية المفقولة . كان عظيماً رشيحاً مجتهداً . وكان هو المصنف النبيل في ميلدين الأدب . كما كان بيرون فيها هو الثائر النبيل

وقد استهل القرن بخضر جسم في ينابيع الشعر ، مجل في بريطانيا بوجه خاص على أنه كان شعراً يصف خصائص مميزة خاصة به ، إذ يشجل فيه إدراك جديد الطبيعة بوصفها على علاقة عاطفية بالإنسان ، وإغفال لا شعوري للعقائد وتعرض مطلق إلى أعين مسائل الحياة ، وكأنما انفلت الشاعر وهو لا يكاد يشعر من حبل المعتقدات المقررة المتبعة إلى عالم طليق . وإن قصائد هذا الدور عامة لثمة قصيدة ربما رقت في بعض الجوانب فأصبحت نسيماً هفهاً - وإنها لتهدى وحلياً من للرشاقة وحب الجدل وكثرة التنوع أيراد جملة زامة . وأبرز الأسماء في هذا العصر شلي (١٧٩٢ - ١٨٢٢) وكينز (١٧٩٥ - ١٨٢١) ووردموث (١٧٧٠ - ١٨٥٠) . ولقد كان ووردموث بما جبل عليه من روح فنان منوعة الأشكال هو للظائر المفرد بالملعب القصوى الحلول الذي يحس إحساساً عميقاً بأنه فيها أهدى يده من طبيعة . وكان شلي أول الشعراء المصريين وأحظهم . وكان مشج اللحن بالفتكات العلمية ، وكان إدراكه للسمعة الوثنية التي حليها النظم السياسية في زمانه

يسبق كل معاصره بمراحل حليقة . ثم اطرد النافع الثموى في إنجلترا في الجيل التالي بقدر أعظم من الألمان والجال وحط أدنى من التفضيلات قصية للرأى على يد تيسون (١٨٠٩ - ١٨٩٧) ، الذى نال حجة عظيمة من الناس ، وتزلف للملكة فكتوريا ، وكان أول من نال لقب اللوردية من أجل شمره من الشعراء الإنجليز وتعبه . موت آرثر Morted Arthur : خليفة أن تحف بلاز في عمارة ذلك الزمان . ولم تكن شهرة لوتجفيلو (١٨٠٧ - ١٨٨٦) راجعة إلى أنه كان للكفو الأمريكى لتيسون قدر ما تعود إلى أنه الترجيع الأمريكى لصوته .

ولرعى الشكل للمسى بفن القصة الثرى - متطوراً على درجة أعظم بطلاً وفي وجه معارضة وتتيط من الميثاث اللورسانية^(١) والأكاديمية^(٢) والنقدية - فمما شيئاً فشيئاً حتى أصبح والشمر بمنزلة سواء ثم ما لبث أن استعل عليه . وكان ذلك الشكل هو ما كان الناس يقرأون حقاً وهو الشيء الذى يطلبه الزمان . وأخذ الكتاب الثرى العظيم المتحدث عن الحياة ، والذى يتخاطف التسلسل القصصى مادة ، والذى تطفه من قبل رابليه وتوص به ما أنتجه قبلدنج وسرن من روايات غير مطردة المياق ، - يبرز في مهلى إلى حال من الاكتمال وإلى منزلة اعراف الناس به مع تقدم الزمن بالقرن . ومع الطراد نموه طولاً وقوة ظهرت إلى جواره الرواية القصيرة والأقصومة^(٣) .

وكانت القصصى الأولى حكايات نصف الحوادث والأخلاق . ونزج ونفان برفى (١٧٥٢ - ١٨٤٠) إلى عالم الدكتور جونسون . وجاءت جن أوسن (١٧٧٥ - ١٨١٧) تصلى داخل حدود ضيقة ، فواصلت التوفى بتقاليد المرأة في دقة الملاحظة والمشاكلة معبرة عنها أروع تعبير . ومن مثل هذا النوع من القصص الملية بالأخلاق والإحصاءات وما يكملها من أغلال وحلود ، تفسى القصص الإنجليزية فتطم أغلالها بالتدريج مع تحطيم ذهن ذلك العصر لا كان يحمله من أسفاد .

(١) اللورسانية (Biederstee) ميثاث اللورس المتطرفة بمجاسات لقرون قوسلى . (الترجيم)

(٢) الأكاديمية : القلية . (الترجيم)

(٣) الرواية القصيرة (Short Novel) الأقصومة أو القصة القصيرة : (Short Story) .

وهناك شخصية عظيمة جداً كبيرة الأثر في توسيع الرواية هي الكاتب الألماني جان بول ريشتر (١٧٦٣ - ١٨٢٥) . فإن قصصه مجرد سط متلك فيه انحرافات عن السياق مزخرفة مرصعة بالحوار . وثمة كاتب ألماني كبير هو هينري (١٧٩٧ - ١٨٥٦) . وقد أثر ريشتر في مؤلفات الكاتب الإنجليزي توماس كارليل أعمق التأثير . وعن طريق كارليل اتصل تأثير ريشتر بالجلد غير المطرد السابق تشارلز ديكنز (١٨١٢ - ١٨٧٠) وجورج مرديث (١٨٢٨ - ١٩٠٩) . وكان تاكاري (١٨١١ - ١٨٦٣) وهو الناقد الكبير لديكنز يعمل كمرامه ويقيم بهم في الأرض ويقيمهم بالفلسف مسكناً بتلايهم على شاكلة أقرب إلى طريقة سترون منها إلى الألمان . وقد أمثل تشارلز ريد في روايته « القبر والبيت »^(١) النزاع الذي ما يزال قائماً بين البروتستانت والكاثوليك في أوروبا في ثانيا قصة رومانسية عظيمة . واكتشف كل من تاكاري وكارليل أن نزوعهما إلى مناقشة الحياة بكثرة قد اقتادهما عن أشكال الرواية المرسحة إلى التفسير والتعليق على الأدوار التاريخية . وإن هناك لرابطة طهيمة ضرورية بين الرواية العظيمة ذات الطراز الإنجليزي وبين التاريخ . وكاتبا كتابا كارليل « الثورة الفرنسية » و « فريدريك الكبير » يقرآن كما تقرأ الروايات . وأحرز ماكول (١٨٠ - ١٨٥٩) نجاحاً باهراً بكتابه : « تاريخ الثورة الامنيوارية الأخيرة » . ولحق إن الذنب في علم إقبال جبهة الناس على قراءة التاريخ يقع على حلق المؤرخين لا الجمهور . فإن أمثال فيتون واستراتشي وجود اللا ويلوك من توابغ كتاب التاريخ محبوبون في إنجلترا وأمريكا ككتب مؤلفي الروايات سواء بسواء .

فأما في فرنسا فإن غس الضرورات والتطلعات التي وصعت الرواية الإنجليزية من مجرد حكاية إلى صورة للحياة وتفسير لها ، قد ألمت بلزك (١٧٩٧ - ١٨٥٠) إلى القيام بذلك الجهد الجليل « الكوميديا الإنسانية Comédie Humaine » . وبعد بلزك وأدق معه بمسافة بعيدة بحث خليفة زولا (١٨٤٠ - ١٩٠٢) ، ويكتب كتابه « طبقات عائلة روجون Rongon-Macquart cycle » الشيء بمؤلفات

بذلك ، وهو مجموعة من الروايات تأثر حظ أسرة فرنسية وبطيرة العبد متى أجيال عديدة . ويقف شخص فكتور هوبو (١٨٠٢ - ١٨٨٥) قرباً في زمانه وهو صاحب فن نياض جرى ظاهر يبلغ في نفس الحين حد الشهرة المرفقة ، فيقلع بالتحليلات والتقصائد والروايات والبحوث الفلسفية . ولكن الواقع أنه حدث في فرنسا أن سلطان الأكاديمية والتقاليد الكلاسيكية وتقاليد النظام للدراسي ، قد روضت على الجملة فن الرواية وانحصرت رغم أنها لم تستطع أن تكبح هذه الحالات الاستثنائية . قال اليناجوجيون^(١) : ينبغي للرواية أن تتخذ شكلاً ، ولا بد لها من أن تكون « صحيحة » . ويجب ألا يكون فيها استطراد إلى موضوعات خارجة عن موضوعها ، ويجب أن تكون مودبة غير شخصية في مؤالها . وبذلك أحيقت الرواية الفرنسية وهي في طريقها إلى حريات التجريب غير المحدودة ، التي كانت تتم بها المدرسة الإنجليزية . ولطوي (١٨٢١ - ١٨٨٠) وهو يكتب مقبلاً عليه بهذه المخلوقات الثابتة - هو أحد الكتاب الفرنسيين لبالة ومعتلاً وإتقاناً .

وينسى توماس هاردى (١٨٤٠ - ١٩٢٨) آخر الروائيين العظام في العصر الفيكتوري إلى هذه المدرسة الفرنسية الكلاسيكية أكثر مما ينسب إلى تقاليد الرواية الإنجليزية . ولقد تار في أنحرىات أباه على القيود التي خل نفسه بأغلالها ، ثم هجر الرواية هجراناً تاماً ، ثم بلغ أوج عظمته الفنية بكتابه الأمراء^(٢) ، وهو تحليل وعرض للمغامرة التابيلونية بأكملها في صورة دراما ، وهو مثال جديد على الوسائل الوثيقة التي تربط بين الروائي العظيم وبين المورخ المفسر للتاريخ .

فالرغبة في المعرفة بالحياة وما يحدث لها ، وهي الزودج إلى استجواب الحياة استجواباً وثيقاً حراً ، تلك الرغبة التي جعلت البريطانيين يضيقون فرحاً بضيود الشعر وتضيقاته الشكلية ورفعت الرواية (: قصة) وتشكلها القريبة إلى مرتبة السيادة الأدبية ، - قد انتشرت في كل الأقطار الأوروبية . فالتجت ألمانيا والروسيا

(١) دم الصلابة من . هيلد والمدرسين . (الترجمة)

(٢) الأمراء . (Dymatis) : هي كما أشرنا ص ٢٥٩ من العام (ط ٢) طبعة
شركة دارية . (الترجمة)

واسكتليناوة بوجه خاص ، أدباً عظيماً صافته في شكل روايات . وأبرز اسم ينسب بين حشد حاشد من الروائيين البلجيين الألمان هو اسم جوستاف فرايباج (١٨١٦ - ١٨٩٥) . وانتجت الروبيج مؤلفها بيورتسون (١٨٣٢ - ١٩١٠) ١ وأشرقت في روسيا مجموعة كبيرة من النجوم المألقة تبدأ بجوجول (١٨٠٩ - ١٨٥٢) وتمضي إلى دوستويفسكى (١٨٢١ - ١٨٨١) وتورجيف (١٨١٨ - ١٨٨٣) وتولستوى (١٨٢٨ - ١٩٠٠) ، وتشيكوف (توفى ١٩٠٤) .

عل أنه لا يمكن القول بأن جميع القراء في القرن التاسع عشر كانوا توافين إلى المعرفة مستظلمين - إذ كان يمازج الأنماط والطبقات الملية الأذهان بالشكوك والظلم ، أنماط وطبقات اجتماعية أخرى غير ناشطة تقاوم الأفكار الداعية إلى التقدم مقاومة فعالة .

ولل جوار ذلك ، وفي قدر عظيم نام متزايد من القالب التي كانت تستثير العقول وتنهبها ، ظهر في أوروبا وأمريكا على السواء ، إنتاج ضخم من المادة المكتوبة في كل مستوى من مستويات التقدم الفنى (للتكنيكى) ، قصد به إلى الإمتاع والمصانعة والتطمين .

وكان الناس قد تعلموا القراءة ، إذ وجد لديهم الزمن الوفير والحاجة الكبيرة إلى القراءة ، وكانوا يقرأون رغبة منهم في كبح تيارات أذهانهم لاف تشجيعها على النضج .

والسير والتر سكوت (١٧٧١ - ١٨٣٢) شخصية سوف يجر الأجيال المقبلة غرورها للمائل على معاصريها ، كما جبرهم نفوذ اللورد بيرون . فإنه بدأ حياته الأدبية شاعراً ، وكتب قصصيتين قصصيتين مسيتين مليتين بالثروة وذلاقة اللسان ، ثم انقلب يكتب سلسلة من القصص الرومانسية التاريخية . يمجده فيها للماضى الرومانسى . ويؤيد بالولاء للملكيات ، ويثراه بالتقاليد وجلبتها .

ولقد مارقت هذه النغمة الأثرياء والاحتطامية الثراء ، وقد ساءل الجزع نفوسهم بالشكوك وعدم العلمانية التي آثارها حاضرم المغير المرتاب .

كان أباً لموجة من الروايات الرومانسية المصبرة عن الأسف ، لافى كل العالم المتكلم بالإنجليزية لفظ ، بل لى كل أرجاء أوروبا .

فأما فى قارة أوروبا ، فإن هذين الكاتبين اللذين أقبل الناس مصورة عجيبة حل ترجمة أدبهما شعراً أو بعبارة نثرية ، قد اتخذوا رمزاً لموجة عظيمة مبهمة من التأثيرات ، موجة مضطربة المصير مفككة غير مترابطة من حيث هدفها وكنهها ، موجة قد تبددت اليوم لحسن الحظ ونقص الناس أيديهم منها : وأغنى بها الحركة الرومانسية . وكان معناها عودة روح القرون الوسطى ، وكان معناها عودة الألوان النضرة الزاهية ، وكان معناها الإيمان بالهبة إلى المظلمة فى الدروب السوانج وعدم الارتياح للأساليب والمصالح المعاصرة . وكان معناها قيام الفريضة ضد العقل والباطنة ضد العلم . وكان يخفف من حدة نزوعها إلى اللذة العنيفة المهجورة ما كان عليه حلة لوانها من تراح وحول . وكانت أقرب إلى حالة السكر التى تنفبها العريضة منها إلى دور من أدوار الضخم التكرى والجهال . ولم يقف الأمر بها عند تعارضها مع حقائق الزمن الحاضر بل تجاوزته إلى التصاد والماضى الكلاسيكى كانت حركة كاثوليكية كما كانت تنزع منزوع للشعب القردى ، وكانت هى المبعث القبرى^(١) والرائية فى أساطير مقصلة زائفة ، كانت أى شيء ، وكانت إذا قدرتها تقديرها التهاق مجرد لاشيء .

وقد كتب عنها الكثيرون فى ألمانيا كتابات هائلة وفيرة ، ولكنها عمت كل أوروبا . ولدى بعضهم أن شكسبير كاتب رومانسى ، وقالت كلاك : لطفة رومانسية ، وولاهوت رومانسى ، نجلى فيها السخف والغباء . وظهر فى الإنجليزية فخر جسيم من الروايات فى أزياء القرون السابقة ، وهى القرنين القكرى لعملية ابتعاد فن العبارة القوطية فى إنجلترا ، وكان محامرة البورصة والخميون من رجال الأعمال يعملون فرجة ينسون بها مسؤوليات أعمالهم التجارية ، وينسون بها الوجود

(١) القبرى (Pit) : كبد من الأدب الأوربيى حفره بنمصر القبرى التى يفتشون أنها كائنات فوق انسانية صغيرة الحجم ويرغبونها على صورة الإنسان وأن فى بينها قوة سحرية عارقة . (للترجم)

كله والمصير الذى يسرون إليه - إن كان نعمة مصير يظنون أنهم يسرون إليه - بأن يسترقوا فى أحلام يرون فيها أنفسهم فى صورة الصليبين البواسل والجنود الكذابة والفراسة الضعيفين والمخلين للأحداث القواقى ألت بين التوازل ، وهى الشخصيات التى كانت تلك القصص تتخذ منها أبطالها . ولم يكن هناك حتى من يدعى أنه يقوم بتحليل مظاهر ومعى الزمان الذى ظهرت فيه تلك القصص المرندية لأزياء الماضى . وكان ذلك هو موطن السحر فيها . فكانت على الملأ التى تلجى - إلية حقول ترهب بكل قوتها فى الأضمر . وكانت عظمة أبطال تلك القصص هى حافية الطبقة الوسطى للفتية ، بعد تصفيها ورفها إلى المثل العليا .

وقد اعترف روبرت لويس ستيفنسون (١٨٥٠ - ١٨٩٤) آخر من لف لف مكتوب من الكتاب الرومانسيين ، بأنه كان يستلج أن يأتى بخير مما أتى ، ونعت نفسه بـ « البنى العقل » وهو ما كان عليه شأنه فى واقع الأمر . وهذا القصص المرتلى للأزياء المتينة كتب أيضاً فى فترة أوروبا ، ولكنه لم يصبح هناك لعبة صناعة جلبة كما أصبح فى بلاد المصوغة الناطقة بالإنجليزية ، لأن التطور السريع لطبقة متوسطة ثرية مبالغة إلى القرامة ، حدث فى القارة الأوروبية فى زمن متأخر وفق ظروف أشد استأزاة للأذهان .

وهناك تطور حديث جداً جاء على فترة توقف فى نمو القصة ، ويشير إليه ظهور شيء من الزورج إلى تجميع الروايات فى ثلاثيات أو تجميعها بأجزاء متممة لها ، ثم ظهر تومنج آخر قشيب لهذا الشكل . يبدو محتملاً بفضل أنه تتحول القصة إلى صورة للعالم بأعمه ترى خلال أعين فرد طرازى^(١) . وأشد هذه الروايات التطورية الجليلية جلدرة بالإعجاب رواية « جان كريستوف » من تأليف رومان رولاند^(٢) ، وقد نشرت فى عشرة مجلدات متصافة . وما يتصل اتصالاً وثيقاً بهذا التومنج ، ظهور

(١) القصة الطرازى (Typical) : غير الذى يتخذ أو يظهر خصائص طراز بهته بشكل تام بحيث يصبح مثالا له أو مئة منه تمثل الطراز كله . (الترجمة)

(٢) رومان رولاند (١٨٦٦ - ١٩١٨) كاتب فرنسى قصصى ومسرحى دبلوماسى للربيع المرميى بمجلة السويديت . كتب كتباً عن يهودا ومائلك . وحصل على جائزة نوبل ١٩١٥ بكفاءة له من قصة جان كريستوف الضعفة . (للترجم)

الكتب الماثلة التي لا شكل لها ولا نهاية ، كتب الذكرى والتعلق والوصف ، التي يمثل طراز كتابتها بروس (لتوفى ١٩٢٢) . وهناك شخص يكاد يقف وحيداً في أدب العلم أجمع في هذا العصر هو أنتول فرانس (١٩٤٤ - ١٩٢٤) - الذي تهادى روايته « قصص برجرية المسلسلة (Bergeret Series) تصب الزعة إلى أن يمثل على الرواية (Roman) المحزولة بموادها عما حولها تطلق سيار على الأشياء عامة . والآنة دوروفى ريكارصون التي تكتب بخرارة مشرقة مصرة عن جدول ضيق من المنيرة الرقراقة ، كتابة ربما جاز لنا أن نسميها « حين أوسن » المصرية القصة المملولة .

وهناك تغير شاق يتصلصل القصة مع انتقال الزمن بالقرن التاسع عشر إلى العشرين ، هو الزيادة المطرودة في الأبحاث الاجتماعية والسياسية والدينية . وذلك أن الروائيين من طراز فيكنز وناكارى كانوا يكتبون لجمهور فكرياته وقيمه الاجتماعية مستقرة أتم استقرار . فإنهم لا يناقشون شيئاً ؛ بل يفترضون وجود خلقية من المناظر الأخلاقية ويركزون الاهتمام على الصفات الخلقية أعنى على الجبلات والطباع الشخصية . ولم يكن لناكارى يناقش بل يعطى ؛ والوضع شئى - والمناقشة شئى - آخر تماماً . وكانت الشخصيات وملوكها في رواية القرن التاسع عشر قوام المادة التي يتكون منها الموضوع كله . على أن حالة عدم الاستقرار الذهني في الزمن الحاضر تجد نفسها منعكسة في القصص العصرية على صورة مناقشة المفكرات . ولم تتج الدراما من تلك الزعة حيث دخلتها المفكرات والتفكرات . وهى وإن أشبت بيول الناس ، إلا أنها أسلست شيئاً من الفسوخ على ذلك الصنف من سرخ الشخصية صياغة مؤكدة قوية وبها قلدر من الحياة يعظم مالها في الواقع ؛ وهو أعلى ما تختاز به القصة في العهد التكنورى .

وليس هناك من يشك أن في الإمكان أن يلمس الإنسان في أدب العصور الخوالي إحناء من قصة الحمار الذهبي ، فالتلاها ، - لإرغاصات بكل هذه التطورات في القصة المصرية تتجه نحو نقد جوال سهل من الحياة وما فيها من وجهات نظر . ولكن شيئاً من هذه الإرغاصات في تاحيق الشكل والحجم لم يطور في أى شئ ،

ظهوره في التنوع الكبير والحجم الضخم اللذين تمتاز بهما كتابات القرن التاسع عشر
 مهما يكن مدى قربها أو بعدها من شكل الرواية ، ولا تكاد أي منها تحتوي
 تلك الصفة الخاصة : صفة الحكم المبرر للوجه في شئون الحياة جملة وتفصيلا ،
 وهي الصفة التي تميز نحن القرن التاسع عشر عنها يتفاضل عن كل الأدوار
 التي سبقتها .

وكان قيام الدراما^(١) يعتمد حتى ذلك الحين على وجود مجتمع مستمر ، له
 عادات ومعتقدات ثابتة ، يستطيع أن يعلما بجمهور نقارة مستمر عام القلب
 بالمعطف عليها . وكان من الطبيعي في عصر من الفوضى الاجتماعية وإعادة بناء
 المجتمع ، أن يتوغل ما استقر في الناس من عادات للتألب إلى المسرح . ومن ثم
 فقد انقضت نصف قرن أو يزيد تحولت فيه عن المسرح الحشود النوعة الأشكال من
 الناس الذين كانوا يفكرون ويتفكرون ويبحثون عن الجليد من الأشياء . ومن المسرح
 الأوربي في دور فضاة والمخاطط وأخط يندرج الروايات والقصص الرومانسية الشعبية
 في نزعتها إلى تمكين الناس من قضاء الوقت في سمر لطيف .

وكانت الدراما القدرسية رشيقة وإلا كانت جوفاء وكذلك كان شأن الدراما في
 إنجلترا . وإن لم تصل مطلقاً إلى درجة الرشاقة القدرسية . والحق إن القوى العظيمة
 التي كانت تطلب بالمتانة والفكرات أعطت تلبى أثرها في العالم الدرامي بنهاية التبرج
 وفي وجه معارضة هائلة من القضاة . وكان إيسن الرويوي (١٨٢٨ - ١٩٠٦)
 هو الشخصية القمالة المركزية التي بفضلها عادت الدراما إلى الاتجاه نحو مناقشة
 الحقيقة المعاصرة . وكان لزوة باري (Barre) الطليقة أثر كبير في تحطيم التقاليد
 الجامدة المسرحية المحبوسة ، كما كانوا يسمونها في إنجلترا ، ثم شرح برناردشو
 (Shaw)^(٢) المولود في (١٨٥٦ - ١٩٥٠) يكافح في بطء مرتفعاً إلى أوج التفوق والتموهذ .

(١) الدراما هي فن التأليف والتقليد المسرحي (الترجمة)

(٢) جروج برناردشو : الحق في لوليف ١٩٤٠ وهو الكاتب القمعي والمسرحي العظيم .
 وله بطلان وانتقل إلى لندن حيث راع فيه روايت مؤلفاته التي تعد بالملكات وحصل على جائزة
 نوبل ١٩٢٥ . (للترجمة)

ومن أبرز الروائيين الألمان في هذا الدور الجديد دور الاخلاص والقوة ، هوبمان للولود في (١٨٦٢) وسودرمان المولود في (١٨٥٧) وقد أوقفت الحرب حركة النشاط للروائي ردها من الزمن ، ولكن انتاعها أطلق فيها عينا من النشاط المحي المشر بالخير على كل من جانبي المحيط الأطلسي . ويتم المسرح في كل أوروبا وأمريكا في الوقت الحاضر يظل وارث قوي من الاستحداث والتجديد .

فلذا حولنا أنظارنا إلى تطور الأدب الأمريكي ، وجب علينا أن نميز بين دورين متباينين أشد التباين ، أولهما دور السيادة الأوروبية ، ما بين انجليزية وفرنسية ، وثانيهما دور الفكك وانطلاق السراح . وقد مضى على النشاط الأدبية الأمريكية حين طويل من اللعمر تركزت أثناءه في نيويورك ، ولم تكن إلا محض فرع وإن يكن فرعاً عانياً عازماً من الأدب العام الإنجليزي والأوربي . وكان مركز ذلك مدينة بوسطن . وأكثر كتاب هذا الدور من الحديث في إعلان الاستقلال ، ولكهم من حيث استمرار الشكل والتهج كانوا كمن لم يدرك بعد أن الاستقلال قد وقع فعلاً . وكانت لأمريكا أخواتها المميزة ، فلها كانت تسرع من الهجرة إلى القاطع كارليل ، وأعطت ترسل نفضة من عشيتها تتجلى في مقالات إرمسون (١٨٠٣ - ١٨٨٢) ، على أن لو نغفل لم يكن إلا مجرد شاعر إنجليزي تصادف أن ولد في أمريكا وأن كتب في موضوعات أمريكية . وكان إدجار آلان بو (١٨٠٩ - ١٨٤٩) يتبع في كتابه مناهج أوروبية أكثر منها إنجليزية ، وأبدي هونور (١٨٠٤ - ١٨٦٤) أن به لسة من شعوفة نيوتونية لها وحيا الناقى . وكذلك كتب و. د. هاوز (١٨٣٧ - ١٩٢٠) سلسلة من الروايات الممزقة الممتازة ، بطريقة تسلكه في مطع مع توماس هاردي تحت نوع للدرسة الفرنسية في تصنيف عام الرواية . وكان هنري جيمس (١٨٤٣ - ١٩١٦) أمريكياً ولكنه لم يكن يكتب على شاكلة الانجليز ولا شاكلة الأمريكان ، بل كأمريكي انتقل إلى بيئة أوروبية ، وكانت مناظره على الدوام أوروبية ، وكان موضوعه الأثير لديه هو الاصطدام بين الأمريكي السافج وبين معتقدات اللدنيات القعدة

ولعل أشد كتاب القرن التاسع عشر أصطفاً بالروح الأمريكية مارك توين^(١)
(١٨٣٥ - ١٩١٠) .

ولم يحدث إلا بعد بزوغ فجر القرن الجديد أن شرح الكتاب الأمريكيون بوصفهم هيئة في مهاجة ظواهر الحياة الإجتماعية الجليدة ومشكلاتها في أمريكا ،
مهاجة يتجلى فيها شيء يشبه القوة الطليقة التي يتعمل بها خبير ماكر عن أوروبا
من تقاليد . وإنما تظهر كتب من أمثال شارع مين و Main Street و وبايت و
لستكير لويس (١٨٨٥ - ١٩٥١) و القراجينديا الأمريكية لدوايزر (١٨٧١ -
١٩٤٦) ، وقد أصبح الذكاء الأمريكي مهتماً بأمريكا اهتماماً مباشراً بحثاً غير ناظر
بعد ذلك أبداً صوب الشرق يطلب للنهائج والاستحصان من أوروبا . والواقع أن
الشعور ومآل الغرام الأمريكية قد أصبحت مستقلة استقلالاً توشك أن تبلو فيه
روح العدوان . ويحاول أمثال مينكن (١٨٨٠ - ١٩٥٦) من الكتاب الناقمين أن
يرجعوا العالم بما يعتادون به من القشابة وصفاء الرؤيا ، بمحاولات يتجلى فيها الجدل
والاجلاب والحلقة . وكذلك يتكشف كتاب من أمثال ثروود ألفرمسون (١٨٧٦ -
١٩٤١) و جيمس يرانش كابل (المولود ١٨٧٩) من جنة ونحو ابتكار ليشر
يكل خير . ومع أنه لا يوجد حتى الآن في عالم الأدب الأمريكي المصري أسماء
عظيمة تتمازاة تلفت الأنظار^(٢) ، ولا إنتاج متقن إقناعاً كبيراً ، فإنه من اليسر على
المرء إذا راضى ما عليه حال ذلك الجمهور الكبير البليد الخيال للقراءة ، من
الراء والوفرة والتطلع الضخم ، أن يعتقد أنه لن تظهر هناك قفود هيئة ضخمة
لإنتاج أدبي من العراز الأول تظهر استجابة لما تتطلبه القمص الأمريكية الساتحة .

وليس من اليسر في الوقت الحاضر على كاتب أورد أن يقدو درجة جودة
الأدب المنطى إبان القرن الأخير . فإن الحكم البريطاني يمنح لى تجاهل الجهد

(١) مارك توين اسم القلم الذي أطلقه على نفسه الكاتب الأمريكي مسويل لايمودون
كلينز ، المولود في إللويدا ، وكان كاتباً فكها سلياً (المترجم)

(٢) لقد ظهرت الأدب الأمريكي به وفاة المؤلف أسبه لامة كثيرة منها إدنست هنج
واي . (المترجم)

التفكير المبتدئ أو الثقيل من شأنه ، ولم يست توجد إلا أبحاث قليلة من بين العلماء
 الفصحى من الحكايات والقصص المكتوبة باللغات الوطنية حول الحياة المعاصرة
 والتي أنتجت في السنوات الأخيرة . ولرايترانات طاغور^(١) (١٨٦١ - ١٩٤١)
 شهرة عظيمة في الغرب . على أنه معروف بوصفه شاعراً أكثر منه روائياً وكتاباً
 سياسياً ، ولطرح أن الشرق يتعقب خطى الغرب في تطورات الاقتصاد والاجتماعية
 ويوم تصبح القوى المحلية التي كونت القصة العظيمة والرواية القصيرة والقصص
 والقصيدة الثنائية القصيرة ، وهي الأشكال القائمة لتعبير الأدب في الغرب - ذات
 أثر فعال في آسيا ، فاعلمها تنتج نتائج مماثلة . وتنطوي اليابان والصين على حركة
 اختراع فني كبيرة جداً . وما يزال فن الترجمة والتأويل بين الشرق والغرب
 بحاجة غير متطورة كما لا يزال بحاجة إلى التنظيم ، على أن هذه الأمور لا يبرح يلحقها
 التحسين والتوسع السريع ، وقد لا يكون بعيداً ذلك الزمن الذي يصبح فيه كتاب
 المنشور على الأقل إن لم يكن كتاب الشعر الفصيح منذ فجر حياتهم العملية تقريباً موضع
 إعجاب جمهور من القراء يعم أرجاء العالم كلها .

فأما البحث العلمي والفكر الفلسفي والنشاط الأدبي العام في هذه المدن التي
 تأملناها ، فكانت أوفر كثيراً وأهل كثيراً في كتبها عامة وتصل إلى يد عدد أوفر
 من الناس ، ونسبة أكبر من سكان العالم تفوق ما كان عليه الحال من قبل .
 وليس هناك أبداً ما يدل على أي توقف جسم في هذا التفيض الفكري اللغوي
 الطرد الاتساع .

(١) طاغور (١٨٦١ - ١٩٤١) شاعر وكاتب هندي ، ولد في كولكاتا . وكان من أساطير رجال
 الهند الحديثة . وكان كاتباً وتصحياً وديوبياً وروحانياً عظيماً . وكلفت منه قصائد تدعو إلى الوحدة في
 صهيون وإلهام ملحة بين الحرية الغربية والفلسفة الشرقية . حصل على جائزة نوبل سنة ١٩١٣ .
 (الترجم)

الفصل الثامن والثلاثون

كارثة الإستعمار العصري^(١)

- ١ - السلام المسلح قبل الحرب العظمى
- ٢ - ألمانيا القيصرية
- ٣ - الروح الاستعمارية في بريطانيا وفرنسا
- ٤ - الرومات الاستعمارية في فرنسا وإيطاليا والبلقان
- ٥ - روسيا تصبح حليمة عظمى
- ٦ - الولايات المتحدة والفكرة الاستعمارية
- ٧ - الأسباب المباشرة للحرب العظمى
- ٨ - حلحلة الحرب العظمى حتى ١٩١٧ .
- ٩ - الحرب العظمى منذ إنباء روسيا إلى أمدنة

١ - السلام المسلح قبل الحرب العظمى

احتفظت أوروبا طوال ستة وثلاثين عاماً بعد معاهدة سان ستافانو ووترلو برلين ، بسلام مقلقل داخل حدودها ولم تنشب أية حرب بين الدول الكبرى إلا أن تلك المدة . بل كانت إحداها تحكك بالأخرى ونعيمها وتهديدها ولكنها لا تنصل إلى الحرب الفعلية . وقد أدرك الناس عامة بعد ١٨٧١ أن الحرب العصرية أمر أشد خطورة بكثير من الحرب التي كان يقوم بها الجنود الضعفون في القرن الثامن عشر ، وأنها مجهود للشعوب بكلياتها ربما حصى على التكوين الاجتماعي عضاً حقيقياً ، وأنها مغامرة يحلر بالناس ألا يتهوروا بالإقدام عليها . ذلك أن الانقلاب الميكانيكي ما برح يقدم أسلحة مطردة القوة متزايدة الثقافة في البر والبحر ، ويستجلب وسائل للمواصلات أسرع ، كما كان يزيد كل يوم في تعذر مواصلة الحرب بدون إحداث زعزعة تامة لحياة المجتمع

(١) أطلق الجمع القوي كلمة للتسليية لتكوى مفادها لغة (superficialism) ومر للبدأ فلهي إلى توسيع ردة الدولة بالاستعمار والاضطلال والإشغلة كلها وكيفها أمكن ذلك ، وإلى ربط هذه أو الإمبراطورية خلفت ملكاتها حتى تصبح وحدة وثيقة القربان ، وهم لصلنا لفظة الاستعمار أحياناً من رأيا التمام بمضئها فضلاً عن اشتدائها لفظة إمبريالية نفس المعنى . (المترجم)

الاقتصادية . بل لقد بلغ الأمر أن وزارات الخارجية نفسها أخذت توجس من الحرب خيفة .

ومع أن الناس كانوا يخشون الحرب كما لم يخشوها قط في العالم فيما سلف ، لم يتم أحد بعمل يرمي إلى إقامة وقاية اتحادية لمنع الشئون الانسانية من أن تسير في طريق الحرب . حقاً إنه حدث في ١٨٩٨ أن القيصر للشاب يقول الثاني (١٨٩٤-١٩١٧) أصدر تصريحاً ملكياً يدعو به الدول الكبرى الأخرى إلى عقد مؤتمر دولي يرمي : « إلى تمكين الفكرة الكبرى لفكرة السلام العام من النصر على عناصر الشغب والفتنة . » وذكرونا تصريحه هذا بالأعلان الذي أعلنه سلفه إسكندر الأول والذي كان يدعو فيه لفكرة المحافظة المقدسة ، ولكن الشيء الذي أفسد التصريح إفتراض هؤلاء السادة بأن السلام يمكن أن يؤسس بين حكومات ذات سيادة ، لا بالجهود الشاملة إلى حاجات وحقوق شعب البشرية الواحد . فلما درس المستفاد من الولايات المتحدة الأمريكية وعظمتها التي أظهرت أنه من المحال أن توجد وحدة في العمل أو سلام حتى تتطلب على النمرة القاتلة : الشعب فرجينيا : - : وشعب ماساشوستس : فكرة : شعب الولايات المتحدة : حماما - فقد أغفل إختلالاً تاماً في كل ما بذل من محاولات للسلام في أوروبا .

وعقد مؤتمران في لاهاي هولندية ، أحدهما في ١٨٩٩ والثاني في ١٩٠٧ ، وكانت كل دول العالم ذات السيادة ممثلة تقريباً في ذلك المؤتمر الثاني . على أن تمثيل تلك الدول كان تمثيلاً دبلوماسياً ، ولم يصدر أي توجه يلفت النظر العالمية إلى مناقشات المؤتمر وأعماله . بل إن الرجل العامي لم يكن ليعرف حتى مجرد أن هلين المؤتمرين كانوا ينحدان ، وكان الممثلون المجمعون يقومون في معظم أمرهم بمراوحتهم ثعلبية حول نقط في القانون الدولي نفس الحرب ، مهملين موضوع إلغاء الحرب زحماً منهم أنها وهم خفيف لا ظل له من الحقيقة . ولم يسفر هلين للمؤتمران عن ثمرة ما تبده الفكرة القاتلة بأن الحياة الدولية إنما هي حياة متصلة بحكم الضرورة . بل على العكس فإن المؤتمرين فيها سلموا بهذه الفكرة . ولم يقوموا بأي شيء يطورون به الوعي الخاص بالدولة العامة العالمية التي تطو هامات الملوك

وزارات الخارجية . وكان رجال السياسة والقانون الدولي الذين حضروا هذين الاجتماعين غير مبالين إلى الإسراع بإنشاء دولة حاوية على مثل هذا الأساس ، شأنهم في ذلك شأن رجال السياسة الروسين في ١٨٤٨ في عزوفهم عن الترحيب ببرلمان يمثل ألمانيا كلها ويسمو فوق حقوق وسياسة ملك بروسيا .

وفي أمريكا عقدت سلسلة من ثلاث مؤتمرات ترمي إلى إنشاء كتلة أمريكية في ١٨٨٩ ، ١٩٠٦ ، ١٩٠٦ ، فسارت شوطا ما في ميل وضع خطة لإيجاد تحكيم دولي في القارة الأمريكية بأجمعها .

ولن نناقش هنا في أي إسباب شخصية وحسن نية بقولنا الثاني الذي كان صاحب الفضل في عقد مؤتمر لاهاي هذين ، فلهذا زعم أن الزمان كان حليف روسيا . هل أن الأمر الذي لا شك فيه أن الدول المتطش قد خفرت جميعاً من احتمال قيام قوة تقطع على الدول ذوات السيادة وتقمعها في طياتها ، وهي القوة التي لا تكون مشروحات السلم الدائم بتونها إلا مسخفاً وهراء . ولم يكن ما يرغبون فيه هو إيقاف التنافس الدولي ومرحلة الحماية العنيفة وأعني بها الحرب ، بل يبتغون تخفيض نفقات الحرب التي أخذت تصبح باهظة ثقيلا . وكانت كل من الدول ترغب في الانكسار فيما ينتج عن المنازعات والمنازعات العنيفة من صرف ، وتشريع قوانين دولية تربك أقوى خصومها أثناء الحرب دون أن تضايق نفسها بشيء . تلك هي الغايات العملية التي يطلبون من مؤتمر لاهاي . كان إبتهاها حضروه ليرضوا بقولنا الثاني على نفس الشاكلة التي اشترك بها ملوك أوديا في المقترحات الدينية المسيحية الخاصة بالخلف القسطنطيني لرضوا إمكانية الأول ، ولما أن حضروه حاولوا بجاهدين أن يحصلوا منه على ما ظنوه شيئاً من الإفادة به لأنفسهم .

٢ - ألمانيا القيصرية

خاضر صلح فرانكفورت ألمانيا مرحلة مصيبة باللون البرومي ، وحفظها لشد دول أوروبا الكبرى منه . وكانت فرنسا قد أصبحت ذليلة عاجزة وبات محتملاً أن

تحولوا إلى النظام الجمهوري قد بقى إلى تركها وحدة بغير صلح في أي من البلاطات الأوربية . وكانت إيطاليا حتى آنذاك مجرد دولة حديثة العهد . وأخذت انما تتدهور سريعاً آنذاك إلى مرتبة الولاية التابعة في السياسة الألمانية . وكانت روسيا دولة ممتدة ولكنها غير مطورة ولا منظمة . ولم تكن الإمبراطورية البريطانية ذات بأس إلا على صفحة البحر . فلما غارح أوروبا فإن الدولة الوحيدة التي كانت ألمانيا تحسب حسابها فهي الولايات المتحدة ، وقد تنمو عند ذلك وتصبح قوة صناعية كبيرة ، وإن لم يكن لها جيش ولا أسطول حديريان بأي اعتبار حسب المعايير الأوروبية .

وكانت ألمانيا الجديدة التي ضمتها الإمبراطورية التي شُكلت في فرنسا ، مزيجاً مركباً مدخلاً من قشيب القوى اللدنية والمادية في العلم ، مع أضييق ما في النظام الأوروبي من تقاليد سياسية . انجذبت إلى التسليم بكل قوتها ، فكانت أشد دول العلم قاطبة اهتماماً بالتسليم . فهي صاحبة السبق في التسليم والقائلة لكل جيرانها ومناقضها .

وفي هذا الوقت الذي تقدم فيه حساب ألمانيا ، وبما ساعد القارئ البريطاني على اتخاذ موقف متزن منها أن تذكر تلك الاستكازة الطبيعية التي تدل على بلادها للأمبر الألماني زوج الملكة فيكتوريا أولاً ثم للمنافسة الألمانية . فإن تلك الفترة الوضيعة التي كانت تتخالف طبقة الحكام في بريطانيا من الرجل العادي للتسليم ، والتي لم ينقطع أي شعور بالكبرياء الوطني أو بالنافع السمح الكريم أن يتطلب عليها أيدياً ، تلك الفترة قد فوضت إزاء ذلك الخوف التزايد من الكفاية الألمانية . وحلت ألمانيا نظام البحث العلمي ونظام تطبيق الطريقة العلمية في التطورات الصناعية والاجتماعية ، حل مسرى من الإيمان والانشاط والمدة لم يصل إليه مجتمع آخر من قبل قط .

فكانت ألمانيا طيلة كل هذه فترة المدة المسلحة بمحمد وتبلو من جديد ثم تعود ويحمد المحاصيل ، المحاصيل الثابتة المقصورة ، المائلة من المرقان المنثور نراً حليفاً . وسارت ألمانيا بخطى مريضة حتى أصبحت دولة صناعية وتجارية كبرى . وقد برز

إنتاجها في الصلب إنتاج بريطانيا ، وأصبحت ألمانيا قائدة العالم ورائدة في صناعات
من المبادئ الجديدة للإنتاج والتجارة ، حيث للعولم الأول على الذكاء والنظام
أكثر منه على مجرد مكر التجار ، من أمثال صناعة زجاج العسلات ، والأصباغ
وعدد كبير من المنتجات الكيماوية ، وفيها لا يحصى من الصناعات المستحدثة . وقد
اتخذ أصحاب المصانع البريطانيين أن يروا المهرجات تنحدر إلى مصانعهم مصحوبة
برجاء قبولها واستعمالها ، ودون أن يعرفوا من أين جاءت تلك المستحدثات ولا لماذا
جاءت ، ولما كانوا يرون في هذا الأسلوب الألماني الجليد الذي يحفظ رجال
العلم ويدفع لهم المرتبات ، معاملة ظلمة بظلمة . وكانوا يشعرون بأن ذلك ضرب
من إجحاف الأموال قسراً ، أو غل إن ذلك في نظرهم كان ضرباً من وحش أوراق
الذهب بقصد القش والتدليس . وكان ذلك أمراً يتطوى على تشجيع طقة دسة من
خوى العفليات الدكية أن يتدخلوا في شئون رجال الأعمال الشرعيين . ولذا فإن
العلم غادر موطنه الأول إلى الخارج كما يفادو الطفل المكروه دار أبيه . إذ أن صناعة
ألمانيا الكيماوية الفاضحة كان الأصل فيها عمل السبروليم يكن ذلك الرجل الانجليزي ،
الذي لم يجد من بين رجال الأعمال الانجليز رجلاً علمياً ، يناهزه .

كذلك قادت ألمانيا العلم في كثير من أشكال التشريعات الاجتماعية . إذ أدركت
ألمانيا أن العامل « رعيه » قوى ، وأن ذلك الرعيه نيله البطالة ، وأنه لابد من
أجل الخير المشترك من أن يخضع به خارج المصانع . وكان صاحب العمل البريطاني
ما يزال متأثراً بالخدمة القاتلة بأنه ليس من حق العامل أن يعيش خارج المصنع ،
وأنه كلما ساء حال عبثه الخارجى ذاك ، كان ذلك خيراً له على شاكله ما .
زد على ذلك أن أصحاب الأعمال كانوا يبيح نقشى الأمية بينهم شغليى الزعة
القريبة ، ولذا فإن المنافسة للشائمة بينهم كانت من الصنف الأحمق الذى يتميز به للفعل
السوق . وكان الواحد منهم يكره من يحيطون به من أصحاب المصانع كرهه عماله
وزيائته . فاما المتجون الألمان فكانوا من الناحية الأخرى ، مقتنعين بالفوائد
الكبيرة التى تجنى من التضامن والتمالة . ولما كانت مشروعاتهم تنزع إلى السير كلة
واحدة وتدخل رويداً رويداً سعة العمل القومي .

وكانت ألمانيا هذه المعلقة لشعبها والعلمية الروح والمنظمة لأعمالها هي التطور الطبيعي لألمانيا التحررية في ١٨٤٨ ، وكانت جذورها ترجع إلى عهد قديم بعيد وإلى ذلك الجهد الناجع الذي كان يستمد الدافع من الحجل من الفتح النابليونية فكل ما نالها من خير ، وكل ما أصابت من عظمة ، فألمانيا المعاصرة هذه تدين فيه لمدرسيها بالفضل الكبير .



(شكل ١٠٨)

على أن هذا الروح العلمى المتظم لم يكن إلا واحداً من العاملين اللذين كونوا الإمبراطورية الألمانية الجديدة . فأما العامل الثانى فهو أسرة فوهزوبرون التى بقيت بعد معركة يينا ، والتى جذعت ثورة ١٨٤٨ وتغلّبت عليها ، والتى ارتفعت الآن بقيادة بسمارك إلى مرتبة الرياسة للشرعية لألمانيا بأحدها فيما عداها . وفيما هذا الروسيا النمصرية لم تحافظ دولة أوربية أخرى على تقاليد ملكية القرن الثامن عشر العظمى كما فعلت الدولة الروسية . فكان مكيا فى عند ذلك هو المسيطر على ألمانيا

الدولة المصرية الجديدة الممتازة عقل عصرى مختار يقودها إلى السيادة العالمية في
 ساحة العالم ، بل كان يتولاها ، تنكبوت عبوز يتحرف شوقاً إلى القوة . فكانت
 ألمانيا البروسية هي في نفس الوقت أحدث وأقدم شيء في أوروبا الغربية . كانت
 خير الدول في زمانها وأشدّها شراً .

ولم تزل سيكولوجية الأمم حلاً بدلاً ليس غير . فإن علماء النفس لم يكادوا
 يعلمون بعد في دراسة نغية المواطن في الرجل الفرد . على أننا نرى من الحالة
 القصوى لموضوعنا أن يوجه دارس التاريخ العام شيئاً من تفكيره إلى النموذج في
 أجيال المتعلمين الألمان منذ انتصارات ١٨٧١ . فننطلق أن يداخلهم الفروور
 لا أصابعه من انتصارات جارية ليسوا أهلها ، ولما نلوه من انتقال سريع من
 الحالة النفسية إلى الشراء المطلق . ولعلنا نكلفهم ضد طبيعة الإنسان إذا توقعنا منهم
 ألا يغلب عليهم شيء من الإسراف في الفروور الوطني . ولكن هذا رد الفعل قد
 أمسك به قصداً وتعمداً ونسبى بواسطة استغلال ينظمه ورقابة محكمة المدروسة
 والجامعة والأدب والصحافة لمصلحة آل هوهنزولرن .

فكل مدرس أو أستاذ في الجامعة لا يدرس ولا يشرح بحساسة وبغير مناسبة
 باستثناء الألمانين العنصري والنفخ والخلق والحناني على بقية الشعوب جميعاً ،
 وتعلمهم غير المادي بالحرب وأمرتهم المالككة ، ومركزهم الذي لا يحصى للأيام
 من أن تبهتهم إياه تحت هذه الأسرة في قيادة العالم ، - شخص شاذ قد ندد من
 الجامعة وقد ر عليه القتل وضباع المستقبل . وأسمى تعليم التاريخ في ألمانيا تزييفاً
 هائلاً منطوقاً للبشرية ، لا ينظر إلا إلى مستقبل آل هوهنزولرن . وكانت
 كل الشعوب الأخرى تمثل لأنظارهم في صورة للنحلة غير ذات الكفاية ، وأن
 البروسيين هم قادة الجنس البشرى ومجددو شيا به .

فقرأ شباب ألمانيا هذا القول في المدرسة ويسمعونه في الكنيسة ، ويجدون على
 صفحات كتب الأدب ، ثم يصبه فيهم بحمية وإيمان وثيق أستاذهم ، ويثبه فيهم
 كل أستاذهم بلا استثناء . وإن المحاضرين في علم البيولوجيا والرياضيات ليختلون
 من موضوعاتهم الأصلية ليصموا بقرات طويلة من الحذر الوطني . ولم يكن

ليستطيع أن يقاوم مثل هذا السيل المتهم من الإجماع إلا من أوتوا عقولا غوية ذات أصالة غير عادية . وهكذا أقيمت في ذهن الألمان دون أن يشعروا فكرة تصور ألمانيا وتصورها في صورة الشيء المستحيل الفاضل الفخم الذي لم ير العلم مثله من قبل ، صورة شعب صيغ على غرار الآلهة وألبس ، دروعاً سابغات لامعة ، وهو بحر ، الخصام الألماني البتر ، وسط عالم من شعوب أدنى مرتبة ذات نفوس مائة الفشر .

وقد أسفنا إليك قصة أوروبا ، وفي إمكان القارئ أن يحكم هل كان يرى السيف الألماني يخطف الأبطال حقاً بشكل ليس له من ضرب ؟ . إن « جرمانيا » كانت تُطلى المظهر عمداً ، ثم تُستبق ثمة بطريقة مرتبة منظمة ، بواسطة هذا الضرب من البلاغة الوطنية . وإن أكبر جريمة اقترها آل هوهنولرن أي لأجهم كان يجب بالتعليم عبثاً مواصلاً ملحاحاً ، وبوجه خاص بتعليم التاريخ ، ولم تحرف أية دولة عصرية أخرى مثل هذا الاسم في حق التعليم ، أجل إن حكم القلة (الأوليجركية) في الجمهورية البريطانية المتوجة ربما يكون عرقل التعليم ومنع عنه القوة ، ولكن آل هوهنولرن قد أفسدوا وأخلوا منه بقية .

ولستأ نقال مهما بالنفا في توضيح تلك الحقيقة - التي هي أعظم حقائق تاريخ نصف القرن الأخير أهمية - إذا قلنا إن الشعب الألماني قد بحث فيه بطريقة منهجية الفكرة القائلة بسيادة ألمانيا العالمية الموصلة على القوة والجلوس ، والنظرية القائلة بأن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة . ولأنك تشعر على مفتاح السياسة الألمانية في تعليم التاريخ فيما أثر من الكون موفقه من قوله : « إن السلام الدائم حلم من الأسلام بل إنه ليس حلماً جيلاً . وإنما الحرب عنصر من عناصر نظام العالم لمسه الله . فلولاً للحرب لأن العلم وقد نسه في الروح المادية . » كذلك وجد فيلسوف الألماني نيتشه نفسه حقيقاً في الآراء مع هذا الفيلسوف ماريشال الورع ... فيقول : « إن من محض اللوم وجيل العاطفة ، أن يتوقع المرء شيئاً كبيراً ، بله أي شيء من البشرية إذا هي نيت كيف تشب نار الحرب ولا يعرف الناس حتى يومنا هذا وسيلة تلحق كل شيء إلى الحركة والنشاط قدر ما تفعل إحدى الحروب الكبرى : تلك الطاقة

الثقة التي يتعمق فيها المسكر ، وذلك المضرب العميق من فناء الشخصية الذي
 يستحق وجوده من الكراهية ، وذلك الضيق المستحق من القتل ورباطة الجأش ، وذلك
 الحمية الرابضة إلى الجهد المبذول في زيادة الأعداء ، وذلك الكبرياء الذي يوحى بهدم
 الاكتراث بالسلطان ، بل بوجود المرء نفسه ، بل بوجود زملائه أيضا ، وذلك
 الضرب من رجع الفؤوس رجع الزلزال الذي يحتاجه الشعب إذا هو قد صوبته .

وكان حيا أن يلحظ الناس في الخارج ذلك النوع من التعليم الذي كان يأخذ
 بأطراف الإمبراطورية الألمانية من أقصاها إلى أقصاها ، وكان حيا أن تزعج له كل
 دولة أخرى وكل شعب آخر في العلم ، وكان حيا أن يستبصر تحالفا ضد الألمان ،
 خاصة وقد صحبه مظاهرة من استنطاقات القوة العسكرية ، سرعان ما عقبها
 استنادات لقوة البحرية ، هددت فرنسا والروسيا وبريطانيا حل السواء . وأثرت
 تلك التربية أيضا في أفكار الشعب الألماني وأخلاقه ومعتناته .

بعد ١٨٧١ كان الألماني في خارج بلاده يبرز صغره ويرفع حقيره . فزول العلم يحيط
 به جو من النخع بالمناكب والفؤوس بالأكفام حتى في العمليات التجارية البحتة . وجاءت
 آلامه إلى أسواق العلم وخررت صفه البحار فكان لما رشاش من الصعدى الوطني .
 بل لقد طالما استعمل مناقبه وعلمته نفسها وسيلة لتكدير صفو من علماء . (والراجع
 أن معظم الشعوب الأخرى ، ما كانت لتلك إلا مثل هذا السيل ، لو أنها لم تقب
 مثل تجاربهم وتفت نفس تعليمهم .)

وقد حدث بسبب بعض ما يحدث في التاريخ من مصادفات تتخصص فكلوت
 وتعمل بها ، أن حاكم ألمانيا وأخفى به القيصر غليوم الثاني كان يتجسم فيه التعليم
 الجليل لشعبه والعقائد الموهزولرية بأكل أشكالها . تولى العرش في ١٨٨٨ وهو في
 التاسعة والعشرين ، وكان أبوه فردريك الثالث قد عقب بجده غليوم الأول في مارس
 ولكه توفي في يرنه من تلك السنة نفسها . وكان غليوم الثاني حفيدا للملكة فكتوريا
 من ناحية أمه ، ولكن لم يبد حل مزاجه أي أثر للعقائد الألمانية التحررية التي تتنازع
 بها عائلة ساكس كوبرج جوتا . بل كانت رأسه مليئة بملك لثريد الأجوف من
 « القسطنطين » الجديدة . وقد مير توليه العرش بخطاب وجهه إلى جيشه وأسطوله ،

وجاء خطابه إلى شعبه بعد ذلك بثلاثة أيام . وبذلك ارتفعت في الجو نفثة عالية من الإحتقار للديمقراطية : ولأن الجندي والجندي وليس الأغنياء البرلمانية هما اللذان التفتت على أيديهما أجزاء الإمبراطورية الألمانية بعضها بعض ، ولكي لأضع قننى في الجيش ، وهكذا أنكر الإمبراطور عمل الملموسين الألمان الذي قاموا به بهيم .
 ١٠ . وأعلن سايلر في مؤتمره في ١١ مارس ١٩١٨

وكانت ثانية ، في ١١ مارس ١٩١٨ ، أصدره مستشاره الفينش بيلوك (١٩١٨ - ١٩١٨) ، الذي ساء الإمبراطورية الألمانية في الحقيقة وأن عزل في ١٩١٨ ، ولم تكن هناك أية خلافات ، بل في الواقع ، ولكن الألمان كانوا عر حبه بيلوك .
 لأن الإمبراطور قد قرر أنه يكون ، في ١١ مارس ١٩١٨ .

وكانت الثانية ، في ١١ مارس ١٩١٨ ، أصدره مستشاره الفينش بيلوك (١٩١٨ - ١٩١٨) ، الذي ساء الإمبراطورية الألمانية في الحقيقة وأن عزل في ١٩١٨ ، ولم تكن هناك أية خلافات ، بل في الواقع ، ولكن الألمان كانوا عر حبه بيلوك .
 لأن الإمبراطور قد قرر أنه يكون ، في ١١ مارس ١٩١٨ .

وكانت الثانية ، في ١١ مارس ١٩١٨ ، أصدره مستشاره الفينش بيلوك (١٩١٨ - ١٩١٨) ، الذي ساء الإمبراطورية الألمانية في الحقيقة وأن عزل في ١٩١٨ ، ولم تكن هناك أية خلافات ، بل في الواقع ، ولكن الألمان كانوا عر حبه بيلوك .
 لأن الإمبراطور قد قرر أنه يكون ، في ١١ مارس ١٩١٨ .

وقد دخل الانتزاع كبيراً من رعاياه لما شهده عليه من مظاهر مسرحية أعقبتها عزل بيسمارك ، ولكن اطمانت قلوبهم من قورم إلى أنه إنما يستعمل قوته في توطيد السلم وفي تمكين الروابط للجنة بين أجزاء ألمانيا . ولقد أكثر من السفر ، إلى لندن

(١) يعبر المؤلف عن ذلك بصورة أن ثلثها كروسس من دس دلي عما استلوه في
 أمر عارية كورس (انظر ص ٢١٢ ط ٧ المجلد) . (التبرير)

ولينا وروما (حيث قام بمحادثات خاصة مع البابا) وإلى أثينا ، (حيث تزوجت
 حقيقته من الملك في ١٨٨٩) وإلى القسطنطينية . فكان أول عامل مسيحي حل فيها
 حل سلطان . كذلك ذهب إلى فلسطين . ونقبت له في سور بيت المقدس القديم براءة
 خاصة حتى يستطيع أن يدخل المدينة راحياً ، إذ كان الدخول إليها حل القدم أمراً
 لا يتناسب ومكانته . وحل السلطان حل إليه لإعادة تنظيم الجيش التركي حل أسس
 ألمانية وبقيادة ضباط ألمان .

وفي ١٨٩٥ أعلن أن ألمانيا دولة عالمية كبرى ، وأن مستقبل ألمانيا يقوم في
 صفحة البحر . - غير عابئ إلى أن البريطانيين كانوا يننون أنفسهم مستوين حل
 سطحة من قبل وأصحاب الحق فيه . وأخذ يتم أكثر فأكثر بناء بحرية عظيمة . كذلك
 وضع الفن الألماني والأدب والألماني تحت رعاية ، واستعمل ثقوه للاحتفاظ بالحروف
 الألمانية الخاصة السوحاء للصحة البصر دون الحروف اللاتينية التي تستعملها بقية أوروبا
 الغربية ، كذلك قاصر حركة للكلمة الألمانية الكبرى التي تدعى انصواء المولتينين
 والإسكلندناويين ولفمنكي بلجيكا وألمان سويسرا في عضوية أندية ألمانية عظيمة -
 وهي في الواقع مادة طيبة يمكن تمثيلها في إمبراطورية جماعة صغيرة تريد أن تكبر
 وتنمو . وغطى ضيلؤه الياهر حل ضياء كل عامل في أوروبا .

واستقل الشعور الألماني العام الذي نشأ في كل أوروبا ضد بريطانيا بسبب الحرب
 بينها وبين جمهوريتي البوير ، لكنهم يواصل خططه القومية إلى تكوين أسطول
 عظيم ، فأدى ذلك حداً نحو السريع والاحتذى الظاهر في اتساع مستعمرات
 الإمبراطورية الألمانية في أفريقيا والمحيط الهادئ ، إلى غلبة الانزعاج حل
 البريطانيين والآلة ثلثتهم . وألقى أحرار الرأي في بريطانيا بوجه خاص أنفسهم
 تحت ضرورة نقل ما نفوسهم حقاً ، تضطرم أن يناسروا فكرة الاستعراو
 في زيادة أساطيلهم البحرية للبريطانية زيادة متواصلة . قال : « لن يهدأ لي يال
 حتى أرفع بحريتي إلى نفس المستوى الذي ينوؤه جيشي » . ولم يكن أشد
 الناس في الجزائر البريطانية حياً في السلام ليعطي أن يتجاهل هذا التهديد . وكان

قد أخذ من بريطانيا في ١٨٩٠ جزيرة هليجولند الصغيرة ، فحولها إلى قلعة بحرية عظيمة .

وكان كلما كثرت بحره كثرت مشروعاته ومطامحه . فأعلن أن الألمان هم « ملج الأروس » وأنهم يجب « ألا يحسم في خدمة المدينة لغرب » وأن ألمانيا شأن روح روما الإمبراطورية يجب أن تصح وتعرض على الناس نفسها . وقد نطق بهذا التصريح في الأراضي البولندية مناصراً به ما قبله ألمانيا من جمهوريات متواصلة لتقضاء على اللغة البولندية والحقالة البولندية ، ولصبح نصيب ألمانيا من بولندا بالصبغة الألمانية . ولقد نمت انه بأنه « حليفه القديم » . وكان الملك في الدول الاستبدادية القديمة إما هو الرب نفسه أو وكيل الرب المختار ، فلما انقصر فكان يجد الله تاييه الأمين . قال في كثير من مظاهر الحق والحرية « ربنا الشيخ » . وعندما استولى على كيوتشو انطلق يتكلم عن « القبضة القولاخية الألمانية » . وعندما تأسر انفسا على الروسية تكلم عن ألمانيا في « دروعها الثلاثة » .

ولما أصيبت الروسية بالكوارث في عشوربا في ١٩٠٥ انطلقت الروح الاستعمارية الألمانية من حقلها لتقوم باعتداءات أكثر جرأة . إذ بعد أن انخوف من قيام فرنسا والروسية بهجوم مشترك أخذ عطره يرول . وقام الإمبراطور بشي « يشبه الرحلة الملكية في الأراضي القديمة » ، ونزل في طنجة ليؤكد لسلطان مراكش مناصره له على الفرنسيين ، ثم أزل بفرنسا إهانة بليقة بإجبارها على حزل وذير خلوجيتها ذلكمسيه تحت التهديد بإعلان الحرب عليها . كذلك زاد في حد الروابط بين انفسا وألمانيا ، وفي (١٩٠٨) كتبت انفسا - بمناصره - كل أوروبا بأن أعطت من الترك الولاياتين اليوغسلافيين البوسنة والهرسك . وبهذا التصلي البحري لبريطانيا وبهذه الاعتداءات على فرنسا والسلافيين لجبر بريطانيا وفرنسا والروسية على إنشاء نظام دفاعي شبهه : وكان لهم البوسنة أو آخر هو إغضاب إيطاليا ، التي كانت حليفة له حتى ذلك الحين .

نكك هي الشخصية التي أبى شوم الطالع إلا أن يجلسها على عرش ألمانيا لكي يستقر العالم كله وينظمه في سخط واحد ويجعل من السطحيل عليه أن يطبق الكرياه

الطبيعي والاعتماد بالذات من شعب عظيم ألك تكرر الأمر بعد قرون طويلة من القارة والضعف - من قبضة حكم مطرق لثلة من الأمراء ، ثم انحلت كلمته وسار إخماد العالم . وكان طبيعياً أن تادة ألمانيا الجديدة هذه في مبادئ التجارة والصناعة الذين أعطوا عند ذلك يثرون ، وأن للمالين المهتمين بأعمال الاستغلال وراء البحار ، وأن الموظفين والسوقة - لا بد واجدون في هذا الزعم شخصاً يروقههم كثيراً ويضيق مع أخفاهم تماماً . والكثير من الذين كانوا يظنون أنهم في شديد الظاهر في قرارة نفوسهم ، كانوا ينصرون في الملن لأنه كانت له نفعة نجاح أخاذه . ليحيا القيصر (Hoch der Kaiser) .

ومع هذا فإن ألمانيا لم تسلم نفسها دون مغالمة التيار الاستعماري المتهم . فإن عناصر هامة في الحياة الألمانية كانت تتكالب ضد هذه الأوتوقراطية الجديدة المختلة . فرفضت الشعوب الألمانية القديمة والبالاديون بوجه خاص أن تبطلهم الروح البروسية . وكذلك حدث مع انتشار التعليم وانتقال ألمانيا السريع إلى الصناعة ، أن طورت هيئات العمال المنظمة أفكارها وأن ظهرت حركة عداة معقدة لشققة عاطفها في شؤون العسكرية والوطنية . وأخذ ينمو في البلاد حزب سياسي جديد ، هو حزب الديمقراطي الاشتراكيين الذي كان يقول بجائز ماركس . واطرد نمو هذا الحزب بالرغم من كل أنواع المعارضة التي صدرت من ناحية الهيئات الرسمية والدينية ، وبالرغم من قوانين القمع الصارمة التي صدرت ضد دعايته وضد كل اتحاد أو تكتل .

ودراج القيصر يتوعداه المرة بعد الأخرى . وسبق زعمائه إلى السجن أو طردوا خارج ألمانيا . ومع هذا فإن الحزب تزايد ونما . فإن عدد ناخبيه عند ما تولى القيصر العرش لم يكن يتجاوز نصف المليون . وأرأي تنخوه في ١٩٠٧ على ثلاثة ملايين عدداً . وحاول القيصر أن يقبل أشياء كثيرة كالتأمين ضد الشيخوخة والمرضى متخفاً منها منحة يمن بها عليهم ، وهي أشياء كان الحزب يطالب بها للعمال بوصفها حقاً أصيلاً لهم . وكان اعتناقه مذهب الاشتراكية أمراً ملحوظاً ، ولكنه لم يكسب مذهب التسليعية (Imperialism) أنصاراً جديداً . وشرح الحزب بشهر بالأمه البحرية تشييراً مريراً

تحدث فيه للكفاية والاكتدار . وأخذ هذا الحزب القائم على الرجل العادي وما ركب
 له من صناديق القصر بالأموال بينهم مقاربات الرأسماليين الألمان المحدثين في بلاد
 المستعمرات مهابة معارضة لا هوادة فيها . على أن الحزب الاشتراكي الذي عرف بال
 كان يولي الجهد لمعارضة معارضة ، لأنهم مهما بلغ من كراهتهم للأوتوقراطية
 المستبد الذي يضمن في أرض الوطن . فكل ما كانوا يكرهون ويرفضون^{١٩١١}
 الأوتوقراطية الروسية المحمية (المبررة) الرئيسية الرابضة على أرضهم الشرقية

وكان الخطر البارز أمام ناظرى ألمانيا هو أن تقوم هذه الفوج الاستبدادية ،
 بريطانيا والروسيا وفرنسا على القيام ضمتها ، بهجوم متعدد مشترك عليها . انهم أصبح
 خطة هجومية دفاعية . وكان القيصر يتأرجح بين اتخاذ موقف الدفاع ، بين
 وبين محاولات حجة لا مفرضاها ، على حين كان أطولها ينسوز كان^{١٩١١}
 للاشتباك مع الروسيا وفرنسا . وعندما اقترحت الحكومة البرلمانية في ١٩١١ :
 ابلاتيين عن إقامة المنشآت البحرية ادة عام و١٩١١ . رفض الاقتراح .

ومن نكد طالع القيصر أن نكبه الأيام بول عهد دوريت أنه تعصبا زل
 هو عزولون ، وللإستعمار والكثرة الألمانية من أبيه نفسه . تغذى بذلك طغاة
 الاستعمارية . وكانت له جنودا وبنادق ومدافع . فحاول أن يخطف قبل الأوان
 حبة شعبة بأن يز أياه في إتحاد مظاهر الوطنية والعنوة . وكان الناس يشعرون أن
 أياه قد دلف إلى الكهولة وإلى ما يبرلقها من زيادة حذر واحتراس . فوجدت إلى العهد
 شباب أبيه . ولم تكن ألمانيا بلغت قط من قبل مثل هذه الدرجة من القوة ، ولا من
 الاستعداد لمخامرة جديدة كبيرة ولحصول جديد من الاكتساعات . وقد حكم أن
 الروس في أضمحلل وأن القرنين في فساد وانحلال وأن الانجليز على شفير
 حرب أهلية .

ولم يكن هذا الول العهد الشاب إلا نموذجا لشباب الطبقة العليا الألمانية الراتب
 الوفير العدد في ربيع ١٩١٤ . إذ كانوا بأجمعهم تبلوا من كأس واحدة . فكان
 لسانهم ومطعمهم وخطبائهم وزعمائهم وأمهاتهم وحياتهم ، يعطونهم النسبة
 المنطبقة التي كانت عند ذلك وشيكة في متناول الأيدي . وكان يلا أقومهم شعور

فياض غفلتج بالصراع الذاتي القويك ، وبالنظر بالحرم إلى التيام بأحمان جسام
هوائ ، وبالنصر على البشرية في الخارج ، والقوز على العمال الماعلمين في النسل .
وكانت البلاد معوزة تنفوز الحرب كما يتولب مثيلار رياضى عند نهاية تنوييه .

٣ - الروح الإستعمارية في بريطانيا وإرلنتة

كانت ألمانيا طيلة فترة للعدلة المسلحة من الرادئ بكل قوة والقنرة المظلمة
في كل شيء في أوروبا بأجمعها ، وكان تأثير مبادئها الجديدة الخاصة بالاستعمار
العمواني قوياً بوجه خاص في الزمن البريطانى (١) ، الذى كان وامن القنرة على
مقاومة أية طعنة ذهنية قوية توجه إليه من خارج بلاده . وكان دافع النشاط الصليبي
الذى ينها إليه الأمير الزوج ، قد ذهب بوفاته ، وحل بن جاسقى أوكسفورد
وكبرج وين ليامها بواجبها في تنقيح تعليم الطبقة العليا تنقيحاً عملاً ، ما قام في
ميلها من ألوان المخوف والجزى التى ثارت بسبب ما يسعونه باسم الكفاح بين
العلم والدين - في نفوس رجال الدين الذين كانوا يتسلطون عليها بوساطة الجامع
الإكليروسية ، وألغت الخصومات الدينية إلى تمييز التعليم العام وخطته كسجاً
مزبلاً ، وزاد حاله سوءاً خلة تغير السلطات العامة عليه في التفقات ، ورغبة
أصحاب الأعمال في استخدام الأطفال ، واعتراض أصحاب مذهب الفردية على تعليم
أبناء الناس الآخرين .

وكانت تقاليد الانجلىز القديمة ، وأخى بها تقاليد الصراحة في القول واحترام
القانون والرغبة في السلطة ، وتكرار بعينه من الحرية الجمهورية ، قد فوت ذوقاً
جسماً أثناء ويلات الكفاح ضد نابليون . وكانت الروح الرومانسية ، التى كان
بطلها الأكبر هو الروانى الكبير السبروترسكوت ، قد دعت في الخيال القوى
لحوى الظهف على الزامى البراق والجمل الرائع . وكان المستريريز الشخصية

(١) يتحدث المؤلف عن قوة أثر ألمانيا وروحها الاستعمارية العمواني في الزمن البريطانى ،
كأنما تلك الزمن مثل سانج مرمر ليس له تاريخ القرون الطويلة من التفكير الماكرة والاستعمار
العمواني الأسود ؟ ! . (لترجم)

الكونية الإنجليزية في مجلة بكتش (Punch) في ١٨٥٠ ، ١٨٦٠ مثلاً تجللاً لآس به روح الحركة البطيئة بالتهافت ذي أهل اللزومات الاستكشافية ورصد الفزلان .

ومرمان ما خطر بالمر المسترير في هذه حقيقة مشقة جنيرة بالتصديق لم يسلطها من قبل ، هو أن الشمس لا تقرب من مملكةه أبداً ! . . . فاقطر الله قدم المسحاة كلايف وولون هاستنيس لهما لهما الآفة لأهل الخند قد انتعج الآن تمام الانتعاج بأن يمدحا شخصين من أهل القروية الفلانة والاعلاص المطلق . إذ أنهما من : غاة الإمبراطورية . . . وحدث بتأثير سحر عيال ذراثيل الشرق التي جعل من الملكة لكتوريا : إمبراطورة . . . أن لفتت للرجل الإنجليزي رافياً مسروراً نحو الآيات الغامضة التي تتلوى عليها : الإمبرالية : المصرية .

وشرح كل من علم السلالات البشرية (الإنثولوجيا) ^(١) المعروف والتاريخ المشوه للذين كانوا يصعد إقناع الخليلط الأثاني للكون من العناصر السلبية والكتبية والتوتونية بأنها جنس مدعش قائم بذاته ، - أن يكون مثلاً يحتذى في كتاب الإنجليز للذين أشاروا يضمنون اختراعاً إنثولوجياً جديداً هو : الأنجلوساكسون . . . ولهم هذا المروج للصبيب إلى العلم بوصفه الأوج الذي يملكه الإنسانية ، والتاج والرواب الأوفى للجهود المراكمة التي بلغها الإغريق والرومان والمصريون والآشوريون واليهود والفنول وأنظم من السلف للنسب ، للوؤن فضله البيضاء . وكان للأسطورة السفينة الخاصة بالقوق الأثاني أكبر في إيفار صندور الهولنديين في يوزن والقرونين في القرنين ، ولم يقتصر أمر الأسطورة الأقد مهزلة أسطورة فوق الأنجلوساكسون . حل مجرد زيادة الحق من الحكم الإنجليزي في لزلنة ، بل حلت من روح للمملكات البريطانية مع الشعب : الحكومة : في كل أرجاء العلم قاطبة . فك أن إقتطاع جبل الاحترام والوقار عن الذراع الفكرات المريعة ليس لها إلا معنى واحد هو امتناع التأديب والصفاء .

ولم تنف محاكاة لبقاهم للأثانية الخاطئة في الوطنية عند حد هذه الخرافة

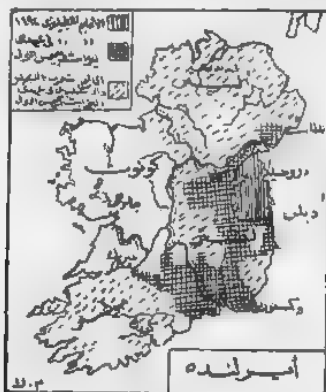
« الأجلوساكسونية » . فإن النابيين من النشان في الجامعات البريطانية لبيان الظنين
 للتلصص والمافس عدوا وقد برموا بما يلهي في السياسة الداخلية من ثقافة ولغة
 إحصائي ، إلى تقليد ومحاكاة هذه العالم الجديدة التي كان يفرحها معهم إحصائي
 فوس التزعة صلت ، بحيث قوى وأحق به ذلك الزوج بين مكافئ وأهلا الذي
 كان يلزم على فكر ومناشط ألمانيا للشعب . فقد رأى شباب بريطانيا لولئك أن
 يلازمهم كذلك يجب أن تكون لما مدعوها الراح وأن تلوح بحسبها الجبار

وقد وجد الاستعمار البريطاني الجديدة شاعره في شخصي المتركينج ووجد
 تأييداً عملياً من جانب عدد من لوابب للمصالح المالية وأصحاب الأعمال الذين كان
 يضى . لم نور الاستعمار طريق الاحكار والاستقلال . وحمل هؤلاء الانجليز من
 دعاة المطالبون بالصياغ الروسية بحكائهم لألمانيا إلى أبعد الغايات . ولا مراء في
 أن أوروبا الوسطى هي مجموعة اقتصادية واحدة متصلة الحلقات ، تشتمل على أحسن
 حال بوصفها وحدة واحدة ، وقد فازت ألمانيا الجديدة بالحداد بحركى عظيم الشأن ،
 وهو اتحاد زولفرافين^(١) (Zollverein) يضم كل أعضاء أسرتها الألمانية . وطبعي
 أن تصبح مجموعة متحدة تحملك غضة اليد المقبوضة . على حين كانت الامبراطورية
 البريطانية مفتحة الجنبات مثل يد مبسوطة في كل أرجاء العالم . وكان أعضاؤها مختلفين في
 الطبيعة والحاجات والعلاقات ، لا تربطهم مصلحة مشتركة اللهم إلا النشان المشترك
 للأمن والنفط . على أن الاستعماريين الجدد كانوا من هذا الفارق في حماية
 وضلال . فلئن كان لألمانيا الجديدة اتحاد بحركى ، فإن الإمبراطورية البريطانية
 يجب أن تجارى العصر والقرى ، ولا بد لها أن تعزق في كل مكان التطور الطبيعي
 لتتاصررها الأولى بواسطة « التفضيلات والتمييزات الإمبراطورية » وما إليها . . .

ومع هذا فإن الحركة الاستعمارية في بريطانيا العظمى لم تبلغ قط من السلطان
 والإجماع ما بلغت في ألمانيا . فلئها لم تكن تنال طبعاً لاي من الشعوب البريطانية
 الثلاث المتحدة وإن ضارقت ، فلم تكن كما يشاكل طبائعهم^(٢) . ولم تكن لللكة

(١) زولفرافين ، تتفق هذه الكلمة على الاتحاد بحركى الذي تم بمجرى روسيا في سنة ١٨٣٤
 مدفوعاً من إصاح اقتصادات بحركى صفري عليها بعض إلى تكوين الاتحاد القوي الأول . (لقرم)
 (٢) يدور الكتاب هنا إلى القولين الأسرار الذين كتبوا في إنجلترا ضد الاستعمار على
 برنارد شو وغيره . (لقرم)

لكنوريا وعظماؤها إدوارد السابع وجورج الخامس بميلين لا يحكم المجلس (بين ذكر وأنتى) ولا يحكم الشخصية والمظهر أو المزاج أو التقاليد ، أن يرتدوا « دموعاً لاهة » ولا أن يلوحوا « بقبضات من حديد » ولا أن يمزوا « سيقاً بتارة » على طريقة آل هومزولرن . وكان لهم من الحكمة ما حلهم على الامتناع عن القيام بأى تدخل صريح لى الفكرات العامة . كذلك أثارى هذه الحركة الاستعمارية البريطانية منذ أول نشوئها عداوة العديد الكثير من الكتاب الإنجليز



(شكل ٢٠٩)

والإيرلنديين والاسكتلنديين الذين أصرأ أن يعترفوا بهذه القومية البريطانية الجديدة أو أن يقبلوا النظرية القائلة بأنهم هم الأنجلو ساكسون أصحاب مرتبة المورمان هذه . وفصلا عن ذلك كانت كثير من المصالح الكبيرة فى بريطانيا . فخص بالذكر منها شركات الملاحة ، قد أقيمت على أساس التجارة الحرة ، وكانت ترمق المقترحات المالية للاستثماريين الجدد ، والمغامرين الماليين والتجارين الجدد الذين كانوا يرتبطون بهم ، - بنظرة ارتياب لما عاينوها .

على أن هذه الأفكار انتشرت انتشار النار في الخشب في الطبقة العسكرية
ومعيات الموظفين بالهند ومن إليها . وكان هناك حتى ذلك الحين جو من الناس
للغدير يحيط به رجال الجيش في إنجلترا . لأنهم كانوا غرباء عن تلك الأرض .
وما قد حالت الفرصة في تلك الحركة التي تجعلهم على درجة من الأهمية المماثلة
تبادل ما قرينهم حامل السلاح في بروسيا . كذلك وجدت فكرة الاستعمار مناصرة
بن صفوف أصحاب الصحف الشعبية الرخيصة التي أخذت عند ذلك في الظهور
لكي تكون طبقة القراء الجديدة التي توجبها السلم الأولى . وكانت هذه الصحافة
حاجة إلى أفكار صريحة زاهية بسيطة مكيفة وفقاً لحاجات القراء الذين لم يكادوا
يشربون في عملية التفكير بعد .

وبالرغم من هذه المناصرة ومن مواهبها القوة للبرور القوي لم يستطع المنحبه
الاستعماري البريطاني أبداً أن ينشرب الشعوب البريطانية بأكمل كتلتها . فليس
الإنجليز شعباً طبعاً من الناحية العقلية . وكان من أثر الحملة الصناعية التي تكاد
تكون قسرية . تلك الحملة الملعب الاستعماري ومبادئ التبريرات البحرية
للترفعة التي ينتهجها حزب التوري (١) القديم ، وطبقة العسكريين ورجال الدين في
المناطق الريفية ، وحالات الموسيقى والأجبي المجلس والبري السوق وأصحاب
الأعمال الجدد الكبار ، - أن مالت طبقات العامة البسطاء ، وبوجه خاص الذين
تتطلبهم المباحثات ، إلى اتخاذ وضع التشكك والارباب . فكانت القروح
التي أصابتها من مزجة ملهوها دفعت البلاد إلى مواصلة القتال لتفتح جهودهم
للجور في جنوب إفريقيا ، ذلك التفتح القادح للظفر الشديد المناصب الذي لم تكن لنا به
حاجة ، فلقد أضحى الإحياء من هذه المفاخرة ارتكاساً نحو الاحتلال والعداوة بلغ من
قوة أن أعاد الحكم إلى يد حزب الأحرار ، وأن أزال أسوأ آثار الشر بإنشاء
اتحاد جنوب أفريقيا للكنغز والي .

واطرده التقدم الجسيم في التعليم الشعبي وفي استرداد المصالح العمومية والقروية

(١) حزب التوري القديم : هو حزب المحافظين في الزمن المنصر . (الترجم)

العلماء من قبضة القلة المالكة لها . كذلك حدث في سنوات الهدنة المسلحة تلك ، أن أصبحت الشعوب البريطانية الثلاثة أقرب ما تكون من تسوية ما بينها ، وبين لارلندة من سوء تقاضم طال ألمه ، تسوية تقوم على أسس عادلة مطبوعة نوعاً ما . ومن سوء طالعهم أن الحرب العظمى فاجأتهم وهم في غمرات أزمة هذا الجهد .

ولارلندة شأن اليابان لم تبرز شخصيتها إلا قليلاً في هذه المسألة التاريخية ، وذلك لسبب واحد يجمع بين البلدين ، هو أن كلا منهما أرض جزيرة متطرفة تتلقى الكثير ولا تعطي حتى يومناك إلا الشيء القليل لحقل اللوم البشري العامة . وسكانها شعب غطط جداً . لأن أساسه وروما عاداته الكبرى أيضاً ، من تبة البحر الأبيض الفكتاء الميون والشعر ، السابقة على النوردين والأريين على السواء ، شأن شعب الباسك وسكان البرتغال وجنوب إيطاليا . وقد غمرت هذا الأساس الأصلى قرابة القرن السادس في م (بدرجة لا ندرى مداها) موجة من الشعوب الكلتية ، بلغت على أقل تقدير من القوة ما جعلها تسمى في البلاد أسس لغة كلتية ، هي اللغة الإيرلندية الجاليلية *Irish Gaelic* . وحدثت غفوات وروحات ، ثم خرواوت ألها غزوات أخرى مضادة ، قام بها هنا أو هناك من الشعوب الكلتية والمصبوغة باللون الكلتى بين لارلندة واسكتلندة وويلز وإنجلترا . ودخلت الجزيرة في الدين المسيحي إبان القرن الخامس . ثم حدث بعد ذلك أن أغار أهل الشمال على الساحل الشرقى واستوطنوه ، على أن لا ندرى المدى الذى بلغوه في إحداث تغيير حصرى .

وجاء الإنجليز النورمان في ١١٦٩ في زمان الملك هنرى الثانى وما تلاه . وروما كان الفرق القويوى معادلاً للكتلى في القوة أو أقوى منه في لارلندة العصرية . وقد كانت لارلندة حتى ذلك الحين ظمراً قليلاً هجيباً ليس به إلا القليل من مواطن الأمت التى وجدت فيها الميول الفنية المنصر القديم عجلاً تبرز فيه نفسها في أشغال المحدث ومحلية الكتب القديمة بالصور . وقد حدث في القرن الثانى عشر أن الحاج البريطانى قام بفتح البلاد فصلاً غير تام ، وأنتعاً الإنجليز والنورمان في نواح غططة من البلاد مستقرات متناثرة هنا وهناك . وكان جلياً منذ البداية أن هناك فوارق حيقة في المزاج بين الإيرلنديين والإنجليز ، وهى فوارق زادت في شدة وطأها

القوارق الغريبة ، وأصبحت هذه القوارق أشد وضوحاً بعد الإصلاح الذي البروتستانتي . فاعتنق الإنجليز المذهب البروتستانتي ، ونجس الإيرلنديون بحالز رد الفعل الطبيعي حول الكنيسة الكاثوليكية المضطربة .

وكان الحكم الإنجليزي في أيرلندا منذ البداية حراً أعلى مقطعة ترجع إلى ما بين الثمين من الخلاف في اللغة وإلى الاختلاف في قوانين ملكية الأراضي والإرث . وما نحن بمستطيعين أن نحدد في هذا المقام من الفتن والمنازعات والقهر التي حدثت بالجزيرة الخمسة إبان عهدى إليزابيث وجيمس الأول . على أنه حدث في عهد جيمس خلاف جديد بسبب مصادرة مساحات عظيمة من مقاطعة ألترومكاني مستوطنين إسكتلنديين من معتنقي المذهب البرزبري (Presbyterian) . فكونوا بذلك جمعاً بروتستانتيًا يتنازع بحكم الضرورة تنازهاً مستديماً مع سائر أيرلندا الكاثوليكية .

ولما حدثت المنازعات السياسية في حكم شارل الأول والجمهورية وحكم جيمس الثاني ووليم وماري ، كان الجانبان المتنازحان الإنجليزيان يصادفان الأحزاب الإيرلندية من يسلط عليهما ومن يعاقبهما . وهناك في أيرلندا مثل سائر بقول إن مصائب إنجلترا فوائد عند أيرلندا ، كذلك كان الشقاق الأهلي الإنجليزي الذي أفضى إلى إعدام ستراثورد ، متسبباً لآخرى لإعمال التبني في الإنجليز بأيرلندا (١٦٤١) . وسقط فيها بعد أن انتقم منهم كروموويل على هذه المذبحة بأن نكل تنكيلاً شديداً بكل رجاء . وجده يحمل السلاح ، وهي تمساة لا تزال ذكرها العديدة للراة عاتلة بأدهان الإرنين الكاثوليك . وعادت أيرلندا فيما بين سنتي ١٦٨٩ ، ١٦٩١ فزقتها الحرب الأهلية . فإن جيمس الثاني طلب عون الإيرلنديين الكاثوليك على وليم الثالث ، فهزم أنصاره هزيمة منكورة في معركة بوين (١٦٩٠) وأوغريم (١٦٩١) .

ثم تحت بين الطرفين تسوية هي معاهدة يورك ، وهي تسوية كانت بدورها مثار نزاع ، وحدث فيها الحكومة الإنجليزية وعوداً كثيرة في شأن التسامح مع الكاثوليك ومن إليهم ، ولكنها لم تنف بوجوهها . وما برحت لمعاهدة يورك ذكرى مريرة في قصة المستوطنات الإيرلندية الطويلة الأمد . وليس بين الإنجليز من صرح قط باسم مطعنة

ريك هذه إلا ألبية نمية ، فأما في أيرلندة فلها لاني تُخرج الفخوس إلى يومنا هذا

وكان القرن الثامن عشر قرناً تجمعت فيه المظلم والإحس . فإن أتابية الإنجليز في الشؤون التجارية أدت إلى فرض قيود ثقيلة على التجارة الأيرلندية ، وقضت في الجنوب والقرب على تطور صناعة الصوف . وما كان أهالي أستر البروستانت يلقون معاملة أحسن مما كان يلقاه الكاثوليك ، ومن ثم كانوا في مقدمة المعصاة . وقامت في القرن الثامن عشر فن على توزيع الأراضي كان شبرها في الشمال أشد منه في الجنوب .

سنوجر لك فيما يلي يفتد ما يبيع لنا ضيق هذا المقام من الوضوح وجوه التشابه والتباين بين موقعي الإنجليز والإيرلنديين في هذا الزمان . كان لأيرلندة برلمان ، ولكنه كان برلماناً بروستانتياً ، تكثره وسلطاته أضيق حدوداً ورجالاً أشد غشاً من البرلمان الإنجليزي المعاصر له . وقامت في دبلن وما حولها حضارة جسيمة ، وقدر كبير من النشاط الأدبي والعلمي ، يلدور باللغة الإنجليزية ويتركز في جامعة تريبتي (Tribity) كولدج البروستانتية . تلك هي أيرلندة التي أنتجت سويت وجولد سميت وبيرك وبيركلي وبويل . وكانت في جوهرها شعبة من الثقافة الإنجليزية . ولم يكن فيها شخصية أيرلندية واضحة تميزها . فلك أن المبدأ الكاثوليكية واللغة الأيرلندية كانت أشياء متباعدة مضطهدة منزوية في الظلمات في ذلك الزمان .

ومن أيرلندة هذه التي تنشاها الظلمات نشأت أيرلندة القرن العشرين المتحررة المظلمة . وكان البرلمان الأيرلندي وأدب أيرلندة الرفيع وعلمها وثقافتها أموراً كان من الطبيعي أن تجلب صوب لندن ، لأنها كانت جزءاً لا يتجزأ من العالم الثاني . وكان كبار أصحاب الأراضي يذهبون إلى إنجلترا للمقام بها ويعلمون أبناءهم في دبلن . وكان معنى هذا هو استفزاز مستمر لشهوة من أيرلندة إلى إنجلترا في شكل إحصار الأراضي ، التي ينفق أو يستثمر خارج البلاد . وكان من أثر الزيادة في سهولة المواصلات أن اضطرت هذه الحركة لزيادة ، وأن استغضت ما في دبلن واستغضت دعاء أيرلندة . وفي (أول يناير ١٨٠١) صدر « قانون توحيد البرلمان » فكان هو

الاصطفاء الطبيعي بين مجموعتين متقاربتين تقارباً تاماً . أمضى بين البرلمان الأنجلو إيرلندي والبرلمان البريطاني ، وكلاهما هيئة أوليجركية وكلاهما مُلحَد من الناحية السياسية فساداً متشاكلاً . وقامت ضد الاتحاد معارضة قوية لم تصدم من جانب الإيرلنديين الكاثوليك بعض القوة التي صدرت بها عن البروتستانت المضطرين في إيرلندا ، وحدث في ١٨٠٣ عصيان لاشل بقيادة روبرت ليمت . وبعد أن كانت فيلن مدينة أنجلو إيرلندية رائعة في منتصف القرن الثامن عشر ، فاضرتها الحياة الدهنية والسياسية شيئاً فشيئاً ، وغزاها إيرلنديو إيرلندا الأصحاء . وفوت منها الطبقة الراقية رويداً رويداً وحلت محلها حياة طبقة الموظفين التي تتركز حول نائب الملك تزيل ظلمة دبلن ، ونشفت حياتها الفكرية عطفة ثم همدت رويداً من الزمان وهي بين الحياة والموت .

ولكن على حين كانت إيرلندا في عهد سوفت وجولدسميث جزءاً لا يتجزأ من إنجلترا في زمن بوب (Pope) والدكتور جونسون والسير جوشوا رينولس ، وعلى حين لم يكن هناك مطلقاً ولا يوجد حتى اليوم أى غارق صلب لهم إلا القاروق المخرأى - بين الطبقتين الحاكمتين في كل من إنجلترا وإيرلندا ، فإن عالم العامة والدعاه الإيرلندي وغربته الإنجليزية كانا متباعدين في الجوهر أشد التباعد .

كان كفاح الديمقراطية الإنجليزية الشانخص نحو التعليم ، والمتطلع إلى الاعتراف بحقوقه السياسية مخالفاً في كثير من الوجوه لكفاح الطبقات الدنيا الإيرلندية . فإن بريطانيا كانت تنجح شعباً صناعياً حطياً من بروتستانت أو عتسككن . حقاً إنه كان بها عمال وراحيون ولكن لم يكن بها فلاسحون من صفار الملاك . وكانت لإيرلندا وهي بلاد غلو من القسم ولها تربة أضف وأحابب أملاك يعيشون في إنجلترا ، قد أصبحت أرض فلاسح من صفار الملاك الذين يتفخون بالإعازات . وسمح المشولون لزعامتها بأن تنشط اعطاماً مطرداً حتى أصبحت قاصرة على ذرع البطاطس وتربية الخنزير . وكان الناس يتزوجون ويمُتكون . ولولا احتشاء في من الويسكي لمن استطاع إليه ميلاً وقليل من الملك ، فإن تمليتهم الوحيدة كانت متعصرة في . وإليكم النتيج للرحية لتلك الحال ، فإن عدد سكان إيرلندا :

في ١٧٨٥ كان ٢,٨٤٥,٩٣٢ نسمة

في ١٨٠٣ بلغ ٥,٥٣٦,٥٩٤ نسمة

ويبلغ ١٨٤٥ ٨,٢٩٥,٠٦١ نسمة

وحدث في تلك السنة أن البطاطس للمسكين المكلود إنهار تحت حمله الضخم المتزايد من السكان ، فحدثت مجاعة رهيبة . مات الكثيرون ، وهاجر الكثيرون ، انتقلوا إلى الولايات المتحدة بوجه خاص ، وابتدأ سيل من الهجرة بسبب إرلندة ردياً من الزمان أرض شيوخ وبيوت خاوية .

وكان من نتائج توحيد البرلانيين ، أن الانتخابات كانت تجري عند الإنجليز والإرلنديين في وقت واحد . وكان معنى منح الكاثوليك حق الانتخاب في إنجلترا هو منحه للكاثوليك في إرلندة أيضاً . وكان الإنجليز يحصلون على الأصوات لأنهم كانوا يرضون فيها . أما العامة الإيرلنديون فحصلوا على الأصوات لأن الإنجليز حصلوا عليها . وكان تمثيل إرلندة في برلمان الاتحاد أكثر مما يجب ، لأن القواعد الإيرلندية كان التصرف فيها أسهل - منذ البداية - على الطبقة الحاكمة من الإنجليز ، وبهذا حدث أن إرلندة هذه الإيرلندية القحة والكاثوليكية التي لم يكن لها قبل ذلك أي جهاز سياسي مطلقاً ، وجدت نفسها صاحبة القوة على قلب هيئة متراسة من الأعضاء في قلب الهيئة التشريعية لبريطانيا العظمى .

وبعد الانتخابات العامة في ١٨٧٤ ، سقط الأعضاء الإيرلنديون الماجورون السابقون ، ووقفت الديمقراطية الإنجليزية التي منحت عند ذلك حقوقها الوطنية حديداً ، وجهاً لوجه أمام ديموقراطية إيرلندية صعبة عبء ، مختلفة عنها في ديالتها وهمايلدها وحاجاتها ، متحدة بقصة من الظلم لم يسمح بها عامة الإنجليز من قبل قط ، صاعدة تطلب في حدة بإقتصال لم يكن الإنجليز ليفهموا له معنى ، ولكنه أثمرهم بوجه خاص أنه تصرف ضلالي لا ضرورة له .

والأناية القومية لدى الإيرلنديين حادة شاحقة ، لأن ظروفهم جعلتها كذلك ، فلم يكن في مستطاعهم أن يقدروا حالة الأمور في إنجلترا ، وجاء الحزب الإيرلندي

الجليد إلى البرلمان الإنجليزي وكاد عقد التية على حرفة مصالح الإنجليز والمساواة نظامهم إلى أن تفوز إيرلندا بحريتها ، ولجسوا من أنفسهم شجى في حقوق الإنجليز . وما كان هذا الروح إلا موضع الترحاب الشديد من الأوليبرية التي كانت ما تزال تحكم الإمبراطورية البريطانية ، فصالحوا مع بروتستانت الشمال المولدين - أمضى المولدين للحكومة الإمبراطورية بسبب خوفهم من تسلط الكاثوليك الإيرلنديين عليهم في إيرلندا - كذلك أعطوا برلمانيون عن كليب ويزيلون في إذكاء نار القسطنط التي حل بالجامعة الإنجليزية على التفرج بسبب هذه العداوة العمياء التي يبدىها عموم سكان إيرلندا .

وقصة العلاقة بين إيرلندا وإنجلترا في نصف القرن الأخير من القصص التي تكسو الطبقة الحاكمة للإمبراطورية البريطانية أقصى غاية الخزي ، ولكنها ليست شيئاً يحتاج عامة الإنجليز أن يخطوا منه . فلهم أبداً مراراً وتكراراً أعظم الشواهد على حس التية ، ولتفريع الإنجليزي بالعلاقة إلى إيرلندا طيلة نصف قرن تقريباً ، يكشف لنا عن سلسلة من محاولات معجزة بنها الأحرار رغبة في القضاء على أسباب شكوى الإيرلنديين وإقامة العلاقة بين القطرين على قدم الرمال والأخوة ، ولكن كانت تقوم في وجه تلك المحاولات معارضة قوية من جانب حزب المحافظين وسكان آسرة الإيرلنديين . ووبر اسم هارنل وهو إيرلندي بروتستانتى بوصفه الزعيم الأكبر لحركة الحكم الذاتي (Home Rule) وفي ١٨٦٦ جلب جلامستون ، رئيس وزراء الأحرار العظيم ، كارثة سلبية على نفسه بقضيه إلى البرلمان أول مشروع قانون للحكم الذاتي الإيرلندي ، وهي محاولة صادقة من جانبه لتسليم شؤون إيرلندا لأول مرة في التاريخ إلى أيدي الشعب الإيرلندي . وانصلح حزب الأحرار شطرين بسبب مشروع هذا القانون ، وقامت حكومة التلافية ، هي حكومة الاتحاديين ، فعلت عمل حكومة المستر جلامستون .

واستطردنا هذا إلى تاريخ إيرلندا يبلغ بنا الآن إلى زمان نفشى عدوى اللهب الاستعماري في أوربا . فلن حكومة الاتحاديين التي غطت المستر جلامستون كان يسودها عنصر المحافظين . وكانت ، استعمارية الروح بصورة لم تكن لأية حكومة

بريطانية سابقة لقط . والتاريخ السياسي البريطاني فيما عقب ذلك من سنوات هو في جمل أمره تاريخ الصراع بين المذهب الإمبريالي الجديد ، الذي حاولت بواسطته تركة لوبية بريطانية صالحة أن تظل بالقدرة الجبة الإمبراطورية وبين ما ركب عليه التراجع الإنجليزي للمالك طبعه إلى التحررية والتمقل ، فذلك التراجع الذي كان ينزع إلى التطور بالإمبراطورية إلى المهاد احتلاقي (كفتوال) مكون من أحرار وراضين وراضين .

ومن الطبيعي أن أصحاب المذهب الإمبريالي البريطانيين كانوا يريدون الشعب الأيرلندي خاضعاً مفهوماً ، ومن الطبيعي أيضاً أن الأحرار الإنجليز كانوا يريدون في شعب أيرلندي حر مشارك لهم في العمل . وفي ١٨٩٢ كالفج جلاستون حتى حادت إليه مقاليد الحكم بأغلبية صغيرة تدين بالحكم الذاتي ، وفي ١٨٩٣ مر مشروع قانونه الثاني للحكم الذاتي في مجلس اللوردات ، ولكن مجلس اللوردات رفضه ومع هذا فلم تتول الحكم حكومة استعمارية (إمبريالية) إلا في ١٨٩٥ . ولم يكن الحرب الذي تسبب إليه الحكومة ينعت بصفة الاستعمار والاستعمارين بل يسمى حرب « الاتحاديين » ، وهو اسم غريب من معناه إذا راعينا الجهود الجهدية التي واصلوا بلحا لتعطيل كل أعمال البشر بشام دولة حكم شعبي متحرراً تضم أجزاء الإمبراطورية - وظل السلطان في بد عولاء الإمبرياليين عشر سنوات . وقد سبق أن أشرنا إلى عزوم الجنوب إفريقيا . وقد غطوا في ١٩٠٥ في محاولة قاموا بها لإنشاء حاجز من التربة البحرية على الطراز البورتوري . وعند ذلك حولت حكومة الأحرار التالية المؤندين المقهورين في جنوب إفريقيا إلى دحاي زعماء راضين قريبي الأيمن بإنشاء دومينيون جنوب إفريقيا الذي يحكم نفسه بنفسه . ثم دخلت في أعقاب ذلك في غمرات نزاع طلالا تهددها شره ، هو النزاع مع مجلس اللوردات المصر دائماً على مبادئ الاستعمارية .

وكان هذا كفاحاً جوهرياً جداً في الشؤون البريطانية . وإنك لتجد في ناحية أغلبية أمالي بريطانيا العظمى الصخريين وهم حريصون حرصاً الحكيم الشريف على

(١) دولة الحكم القديم المتصور من ما يسميه بالإنجليزية باسم Coercion West (للقسم)

أن يضحوا هذه المسألة الإيرلندية على أساس جديد يشر بالأمر ١ وأن يحلوا إن استطاعوا عدواة الإيرلنديين إلى مودة ١ وتجد في الجانب الآخر كل حوامل هذا الاستعمار البريطاني الجديد وقد صحت أن تعمل بأي ثمن وبالرخم من كل نتائج الانتخابات - وبطريقة قانونية إذا أمكن ، فإن تعلم بطريقة غير قانونية - على أن تحفظ منسلها على شؤون الإنجليز والإسكتلنديين والإيرلنديين وسائر أجراء الإمبراطورية على السواء .

والحق إن هذا الصراع هو الكفاح الداخلي الدائر في المجتمع البريطاني منذ أقدم العصور ، وهو نفس النزاع الذي سبق أن عالجناه في حديثنا عن تحرير أمريكا ، النزاع الدائر بين العلة الأحرار قوى الروح التحررية وبين الأخوياء من الزعماء والمغامرين الكبار والأشخاص للتبليين وكانت إيرلندة كما كانت أمريكا من قبل عرض مسرح القتال . ومن حجب أن الطبقة الحاكمة ومن يرتبط بها من مغامرين كانت في المند ولارلندة وانحطرة تبين بمبدأ واحد . ولكن الشعب الإيرلندي لم يكن له بفضل فوارقه اللببية ، أي إحساس بالتمسك مع الإنجليز . ومع هذا فإن من بين الزعماء الإيرلنديين أمثال ديموند ، زعيم الحزب الإيرلندي في مجلس العموم ، من تسامى عن هذه القومية الضيقة روحاً من الزمان ، وأظهر من جانبه استجابة كريمة لنوايا الإنجليز الطيبة . ولعادت القبة المثقلة في شخص مجلس القوردة تتحمل نطحاً وتبدأ أكيداً ، وتقدم للمستر أسكويث رئيس الوزارة في ١٩١٢ بمشروع قانون ثالث للحكم الذاتي الإيرلندي . وظل هذا القانون طوال ١٩١٣ والقسم الأول من سنة ١٩١٤ يلقى هجيات وحملات متكررة توجه عليه عن طريق البرلمان . وكان المشروع بادئ الرأي بمنح الحكم الذاتي لإيرلندة بأكملها . ولكن سرعان ما أعلنت الحكومة وعداً بإصدار قانون يعدل القانون الأول ويستبعد أكثر بشروط خاصة . ودام هذا الكفاح في طريقه حتى شوب نار الحرب الكبرى . وصدق الملك على القانون بعد ابتداء الحرب فعلاً ، كما صدق أيضاً على قانون يوقف تنفيذ الحكم الذاتي الإيرلندي حتى تنهى الحرب . وأضيفت هذه القوانين إلى سجل قوانين للدولة .

على أن المعارضة لقانون الحكم الذاتي الثالث اتخذت منذ تقديمه شكلاً عنيفاً شديد التطرف . فإن السير إدوارد كارسون وهو عام في دبلن أصبح من رجال المعارضة

الإنجليز ، وتولى منصباً قضائياً في وزارة المستر جلادستون (قبل تصليحها بسبب الحكم الذاتي) ، وكان في الحكومة الاستعمارية التالية ، هو المنظم والزعيم لهذه الحركة الرامية إلى مقاومة الصلح بين الشعبين - ثم شرح بالرغم من أصله الديبليومي يزعم أهالي آيسر البروتستانت ، وأدخل في صميم النزاع ذلك الاحتقار للقانون الذي هو مميز خاص عادي جداً لكل عام نابع في عمله ، كما أنزل في الميدان تلك الخطوة الشجيرة للطلقة بلا قيود والصلبة بلا هواة التي كان يحتقرها طراز معين من الإيرلنديين . كان أبعد الناس عن الإنجليز إذ كان أدكن العينين والشعر ، رومانسي الزخات صيفاً ، وكان منذ مبتدأ الكناح ، يتكلم في جمل عن المقاومة المسلحة لهذا الاتحاد الحربي بين الإنجليز والإيرلنديين الذي كان يبشر به مشروع الحكم الذاتي الثالث .

وقالت في آيسر ١٩١١ جماعة من المتطوعة ، وأخذت الأسلحة تهرب إلى داخل البلاد . وشرح السير إدوارد كارسون ومعه عام ناشي اسمه ف . و . ميث يوهان آيسر في زى شبه عسكري ، ليقتنا على هؤلاء المتطوعة ويؤكدوا نواياهم المخلبة . وكان هؤلاء المصاة المتطوعون أول إخلولة الثورة ، يحصلون على السلاح من ألمانيا ، ولطالما همت أقوال متنوعة صلت من خطباء السير إدوارد كارسون إلى مناصرة ملك بروتستانت عظيم لهم ، وعلى النقيض من آيسر ، كان سائر إيرلندا في ذلك الزمان أرض نظام واتران ، تعتمد على زعيمها العظيم ديموند وعلى حسن نية للشعب البريطاني الثلاثة .

ولم تكن هذه التهديدات المخلولة بالحرب الأهلية في أولادة غبطة مستعجاباً ولا مستغرباً في تاريخ هذه الجزيرة الخاصة ومجالاتها ، ولكن الشيء الذي يجعلها ذات قيمة ودلالة في تاريخ العالم في ذلك الزمان هو ذلك التصفيد الجذيف الذي لقيه بين الطبقات الحاكمة والعسكرية في الجزيرة ، ونجح السير إدوارد كارسون وأتباعه بالحصانة من كل عذوبة أو عقاب .

فذلك أن جرثومة الفساد الذي تربى على ما أصابه الاستعمار الألمان من فضيحة ونجاح قد انتشرت صوبها انتشلاً عظيماً ، بين كل الطبقات القوية الغنية في بريطانيا العظمى كما سبق أن أوضحنا لك . ونشأ جيل تامي تحالف أجداده العظيمة ،

وشياً للصلح من عظمة العذالة والحربة الإنجليزية مقابل أشد أنواع الاستعمار زيفاً وبهرجة سخيفة . واكتفى الناس في بريطانيا وبخاصة إنجلترا بهزجيات جالية قدرها مليون جنيه لمحاولة ثورة آلستر ، وتكونت لأكثر حكومة مؤقتة ، ونزل إلى الحومة رجال مبرزون من الإنجليز وأسلوا يجرؤون بسياراتهم أرجاء آلستر ، وهم يحاولون في تهريب البنادق ، وهناك من الشواهد ما يدل على أن فريقاً من الضباط والقواد البريطانيين كانوا على استعداد لقيام بأعمال أشبه بأساليب أمريكا الجنوبية منها بالطاعة للقانون .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الخروج على النظام المتشدد في العلاقات العليا أن همم الانزعاج الجزء الرئيسى من إيرلندا ، التي لم تقبل يوماً ما على صلة إنجليزية ، وأن شرعت إيرلندا بنورها أيضاً في تنظيم المتطوعين الوطنيين وتهريب السلاح . وأظهرت السلطات العسكرية اهتماماً بقمع الوطنيين أشد مما أظهرت في قمع إمبراد السلاح لأهال آلستر ، وفي يوليو ١٩١٤ ألغيت إحدى المحاولات لتهريب السلاح في هاوث بالقرب من دبلن إلى شبوب القتال وإزالة الدماء في شوارع دبلن . وهنا أصبحت الجغز البريطانية على شفير الحرب الأهلية .

تلك هي خلاصة موجزة لقصة حركة الاستماريين الثورية في بريطانيا العظمى حتى ليلة الحرب الكبرى . ذلك أن حركة السير إدوارد كارسون وأتباعه هذه كانت ثورية لا جرم . إذ أنها كانت محاولة صريحة لنزع الحكومة البرلمانية جانباً وإزالة ما نالته الشعوب البريطانية من حريات ناقصة تحت في يده ومهل ، ولقيام بمساعدة الجيش لإحلال طراز من الحكم أقرب إلى البردمي ، مع استعمال الزرع الإيرلندي نقطة ارتحال تبدأ منها الحركة أعمالاً . وكانت تلك حركة رجعية فلم بها عشرات قتلى من آلاف الرجال لإيقاف حركة العالم المتجهة صوب القانون الديمقراطي والطلاقة الاجتماعية ، وهي أشد ما تكون مثالية وأوثق ما تكون عطفاً على الحركة الاستمارية الجديدة التي قام بها الأشراف والأغنياء الألمان . على أن الاستماريين البريطانيين والألماني كانوا يضارفان من وجهة واحدة هامة جداً . فإنه كان يتركز في ألمانيا حول الحاج ، وكان أشد أنصاره شجيجاً وبروزاً هو ولي العهد .

على حين أن الملك في بريطانيا العظمى وقف موقف المتباعد فلم يحدث أن أهدي الملك جورج الخامس بأى عمل على أدنى موافقة على الحركة الجديدة ، كما أن سلوكه ولى العهد البرنس أوف ويلز ابنه ووريثه يعطل سلوكه سلامة واستقامة .

وفي أغسطس ١٩١٤ هبت على العالم عاصفة الحرب الكبرى . وفي سبتمبر كان السير إدوارد كارسون يظن في وضع قانون الحكم الذاتي الثالث في سجل القوانين . فلو وقف العمل به حتى ينتهى الحرب . وفي نفس اليوم كان المستر جون ديموند زعيم الأغلبية الإيرلندية والممثل الحقيقي لإرلندة يهيب بالشعب الإيرلندى بأن يتحمل نصيبه الأوفى من هبة الحرب وجهودها . واستمرت لولندة رصداً من الزمان تقوم بدورها في الحرب لدى جوار إنجلترا بإخلاص واهتمام ، حتى حلت في ١٩١٥ وزارة ائتلاف على حكومة الأحرار ، لتتخل الوزارة هذا السير إدوارد كارسون بسبب ضعف أئتلاق المستر أسكويث ، وشغل منصب النائب العام (بحرب قدره ٧٠٠٠ جنيه تضاف إليها الأتعاب) ، على أنه استبدل للوقت بالسير ف إ سميت زميله في التفكير بالستر

وهي إهانة لم يعصب بأبلغ منها شعب صديق ، وكانت نتيجة ذلك أن السبل على الصلح والراضى الذى اجتهد جلاستون في ١٨٨٦ ، ولوشك أن يبلغ غايته في ١٩١٤ ، تحطم الآن محطماً نهائياً تماماً . وفى ربيع ١٩١٦ قامت في دبلن ثورة فاشلة ضد هذه الوزارة الجديدة . وأحدم رعباً بالرماس جميع زعماء هذا العصيان وكان الكثيرون منهم مجرد خيلاء ، ونفذ للحكم قساوة سميحة متممة ، كان من أثرها وبالنظر إلى المعاملة المتفاوتة التى لقيتها الثورة في ألبس ، أن شعر الناس في إرلندة بأجمعها بأنها ظالة ظلماً فظيماً بالفا . وحدث أن أحد الحزبة وهو سير روجر كامبنت وكان قد نال لقب فارس لسابق خدماته للإمبراطورية حركم وأحدم بحق وعطيل ، ولكن المدعى العام كان هو السير ف . إ . سميت لثغر العصيان أستر . وكان اجتماع ملين الشخصين مدعاة للنصب والاعتزاز .

والواقع أن تمرد دبلن لم يلق الثنى الكثير من التعصيد من لولندة بطاعة ، ولكن الذى حدث أن حركة المطالبة بجمهورية مستقلة نمت من بطء نمواً هائلاً

وكان يتافع ضد هذا الانخفاض العاطلي القوي أصحاب الفكرات المحددة بين رجال السياسة الإيرلنديين من أمثال السير هوراس بلاكتكت ، الذي كان يتفق أن يرى إيرلندة وقد أصبحت دومينيونا ، أى : جمهورية متوجهة داخل الإمبراطورية ، يعيش على قدم المساواة مع كندا وأستراليا .

٤ - النزعات الاستعمارية فى فرنسا وإيطاليا والبلقان

تبرز لنا حواسنا للنزعات الاستعمارية المصرية فى ألمانيا وبريطانيا قوى بأهميتها مشتركة بين البلدين ، وسوف نجد تلك القوى نفسها وهى تعمل على درجات مختلفة ومع تعديلات متنوعة فى حالة المجتمعات العظيمة المصرية الأخرى التى سوف ننظر الآن فى شأنها . وليس هذا الاستعمار المصرى بحركة ثورية ترمى إلى توحيد العالم شأن النظم الاستعمارية القديمة ، بل هو فى الجوهر « روح قومية تطوى على جنون العظمة » ، وهى قومية أحاطها الثراء حدوثية ، وإنها تلتقى على الدوام لقوى عصبها بين طوائف المواطنين والجنس ، كما نجد من طبقة المجتمع المقدمة صاحبة المشروعات والمبالاة إلى الاحياز ، أى فى أصحاب الثراء الحديث والأشغال الكبيرة ، ونجد أشد تقادها بين جامعي المصلحين الفقراء وأعظم خصومها بين الفلاحين والعمال ، وهى تقبل الملكية حيث تجدها ، وإن لم تكن بالضرورة حركة ملكية . ومهما يكن من شئ - فإن بها حاجة إلى وزارة خارجية من الطراز التقليدى لكى تفتح لها أسباب تطورها كاملة . وبين تلك الحقيقة بأنم وشوح مصلحتها التى تأثرناها بنهاية الستة فى كتابنا هذا المؤرخ لحنسنا . والاستعمار المصرى إنما هو التطور الطبيعى لنظام الدول الكبرى الذى نشأ مع منهاج وزارة الخارجية فى السياسة ، نابعاً عن الملوك المكياثيين بعد تحطم حلم المسيحية . ولئن ينهى أمره إلا عندما عمل جمعية إتحادية على ما بين الأمم والشعوب من علاقات قوامها السفارات ووزارات الخارجية .

وكانت الإمبريالية (الاستعمار) الفرنسية أثناء مدة « المدنة المسلحة » فى أوروبا تجعلها بطبيعة الحال قدر من الثقة والاطمئنان أقل مما لدى الألمان . وكانت تسمى نفسها « بالقومية » لابلإمبريالية ، فصبرت نفسها بالاجوء إلى الكبرياء الوطنى لإحباط

جهود أولئك الاشتراكيين والمثاليين^(١) الذين كانوا يحاولون أن يتصلوا بالعناصر
الروسية في الحياة الألمانية . وكانت لانتى عن التفكير في « الانتقام Revanche »
لدى في الحقبة التالية التي تردى بها الكيل لبروسيا ولكنها بالرغم من اشتغالها بالمالها
أنه لم تهب نفسها لمغامرات الصمم والاستئصال في الشرق الأقصى وفي إفريقيا .
حيث تمت بأعجوبة من الحرب مع بريطانيا في الحلفاء على ناشودة (١٨٩٨) .
كل ذلك لم تنفصل قط عن أحلامها في امتلاك سوريا .



(شكل ٢٩٠)

وأصبحت إيطاليا كذلك بحسب الاستعمار . على أن النزف ؟ ! . . . الذي
أصبحت به في عهدة هذا من ثائرتها بعض الزمان ، ثم عادت إليها السورة في ١٩١١

(١) المثاليين (Idealists) الذين يدعون إلى أن العقل هو مصدر المعرفة كانت
التركبة (الترجم)

بحرب نشبتها على تركيا انتهت باستلحاق طرابلس . وكان الاستثماريون الإيطاليون يحضون أبناء وطنهم على نسيان سلاطين والعلق بذكرى يوليوس قيصر ، أليسا وروثة الإمبراطورية الرومانية ؟ ومت يد الإمبريالية بلاد البلقان ، فإن دولاً صغاراً لا تمتد عن الاستثمار أكثر من مئة عام أخذت تنبسط فيها بوادر انقراض النشأة والمقاصد العالية ١١ ، فإن فرديناند ملك بلغاريا اتخذ لقب قيصر ، فكان بذلك آخر قيصر رائف ، وفي أثناء كان الطالب الطلبة يستطيع أن يدرس في نواحل الدكاكين عرائط تبين الحلم بالإمبراطورية يونانية ضخمة في أوروبا وآسيا .

وفي ١٩١٢ انتفضت دوللات سربيا وبلغاريا واليونان على تركيا ، وكانت واحدة القوى من قبل بسبب حربها مع إيطاليا ، وطردتها من كل ممتلكاتها الأوربية فيها عدا الأراضي بين أدرنة والقسطنطينية ، وفي السنة التالية دب الخلاف فيها بينهم على تقسيم القناتم . وانقضت رومانيا إلى القصة وساعدت على سحق بلغاريا . واستمرت تركيا أدرنة . وفي تلك الأثناء كان الاستثمار الأكبر استثمار النمسا والروسيا وإيطاليا يرقب هذا النزاع ويرقب بعضه بعضاً في الوقت عينه . . .

٥ - روسيا تصبح دولة ملكية عظمى

بينما كان العالم بأجمعه إلى الغرب من روسيا يتغير تغيراً سريعاً ، ظلت تلك الدولة تتغير طوال القرن التاسع عشر تغيراً بطيئاً جداً ولا جرم . فلما كانت في نهاية القرن التاسع عشر ، كما كانت عند بدايته ما تزال ملكية عظمى ذات طراز يرجع إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر ، تقوم على أسس هرجية ، ولم تبرح قابعة بالمرحلة التي تستطيع فيها تصالح البلاط والقرويون إلى القيصر أن يتصرفوا في علاقاتها الدولية . وكانت مدعت ملكة حبيبية عظيمة عبر سيبيريا ، فقيقت في نهايتها كوارث الحرب اليابانية ؛ وكانت تشمل الأساليب العصرية والأسلحة العصرية بالقدر الذي تسمح لها به صناعها غير المتطورة وماليتها من عدد قليل من المتعلمين عظمياً كافياً ؛ وقد استحدثت لها كتاب من أمثال دوستويفسكي شرباً من المنحبه الاستثماري التصرف يقوم على فكرة روسيا المتقدمة ورمالها ، ويصطبغ بالوان اندفاع التنصير

والمناهضة لسانية^(١)، ولكن هنا الشعب، كما متبلى لك المحدث لم يحتفل كثيراً إلى صويداء خيال الجماهير الروسية.

وكانت تصود حياة الفلاحين الأميين مسيحية مبسطة جداً، يخالفها شيء كثير من المخلفات. وكانت حياتهم شبيهة بحياة نلاحى فرنسا وألمانيا قبل الإصلاح الدينى. وكان مقروصاً أن المويك (Moiak) أعنى الفلاح الروسى يعبد قصيره ويقره وأنه يجب أن يخدم أحد السادة السراة، وكان الرجسبون من الكتاب الانجليز ما يزالون في ١٩١٣ يشنون على ولاه البسيط غير المتردد ولا للمشكك. ولكن كان يخالف هذا التفرغ للملكية فكرة تقول بأن الملك أو النبيل لا بد له من أن يكون طيباً نالماً شأن ما حدث في حالة الفلاح الأوروبى الغربى في أيام ثورات الفلاحين، وكان من اليسور أن يقلب هذا الفلاح البسيط - إن شياً له القدر الكافى من الاستغزاز إلى نفس التعصب القاسى ضد النظام العنقلى الاجتماعى، ذلك التعصب الذى أدى إلى إحراق القصور أثناء فترة الفلاحين^(٢)، وأقام الدولة الدينية في مونسر^(٣). وقد حدث مرة أن دب الغضب في العامة، ولم يكن هناك روابط للتضام تستل في تعليم واسع الانتشار في روسيا حتى تخفف من حدة الانتصار. وكانت الطبقات العليا تبعد عن مناطق حطفت الطبقات الدنيا بعلها عن أى جنس آخر من الحيوان. وكانت هذه الجماهير الروسية متخلفة ثلاثة قرون من تلك الرخات القومية الاستغلية التى كانت تبديها ألمانيا.

كذلك انحطقت في روسيا من وجهة أخرى عن أوروبا الغربية العصرية، ومثلت حالة أوروبا في القرون الوسطى، وذلك أن جامعاتها كانت مثابة لكثير من الطلبة الفقراء الملتحقين الذين لم تكن تربطهم بالحكومة البيروقراطية^(٤) للاستبدادية أية صلة

(١) مناهضة لسانية (Anti-nationalism) مصطلح سياسى يطلق على كراهية اليهود أو كراهية اعتبارهم لغيرهم. (التعريب)

(٢) فترة الثلاسين أو الجاكرى (Jacquerie) - هي ثورة الثلاسين بفرنسا في سنة ١٢٥٨.

(التعريب)

(٣) الدولة الدينية بـمونسر. انظر العالم (ج ٢ ط ١) من ٧٨٧، أو من ٩٧٥ من مجلة الثقافة. (التعريب)

(٤) البيروقراطية - هي الحكومة للحكومة على الموظفين (التعريب)

ولا تعاطف . وقبل ١٩٨٧ لم يحس الفكر الأوربي بالدلائل المؤنفة باقتراب عامل الثورات الأصلية هذين - وأخفى بهما وجود التنذر ونمات الأفكار الحرة ، وقل من الناس من كان يدرك أنه كانت توجد في روسيا أكثر منها في أية بلاد أخرى احتمالات نشوب ثورة جوهرية .

٦ - الولايات المتحدة والفكرة الاستعمارية

إذا انصرفنا عن هذه الدول الكبرى الأوربية بما لها من لوث هو وزارات الخارجية والسياسات القومية ، وانفتنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي انفصلت إحصائياً تماماً من نظام الدول الكبرى في ١٧٧٦ ، لوجدنا حالة متناقضة حل أعظم درجة من الإمتناع كعجلى في عمل القوى التي تمنحست من نزعات للتوسع الاستعماري في أوروبا .

قد سجلت الثورة الميكانيكية على أمريكا كما سجلت على أوروبا ، قرباً أصبح معه العالم بأجمعه قيد رحلة لا تتجاوز بضعة أيام . وكانت الولايات المتحدة شأن الدول العظمى مصالح مالية وتجارية تعشى العالم بأجمعه ، ونشأت في البلاد حركة صناعية كبرى تضخمت وأملت بحاجة إلى أسواق خارجية وراء البحار ، وحدثت في السلم الأمريكي نفس الأزمة التي أملت بالمضطدات والتي سجلت أركان التماسك المستوي الأوربي . وكان شعبها على الوطنية وثاب الروح كأي شعب آخر . فلم لم تطور الولايات المتحدة إذن الجيوش المسلحة والسياسة العدوانية ؟ ولماذا لا تعرف التجوم والشفق^(١) فوق بلاد المكسيك ؟ ولم لم تهم في بلاد الصين تحت تلك الراية شه قارة هندية أخرى .

وكان للأمريكي فضل فتح مقابلتي اليابان . حتى إذا تم له ذلك ترك هذه الدولة تسبغ على نفسها اللون الأوربي وتصبح قوية جبارة دون أن يصدر منه أي احتجاج على ذلك . وكان هذا وحده كافياً لجعل ميكائلي أب السياسة الخارجية المصرية يتطلب في روجه .

(١) النجوم والشفق . في هذا إشارة إلى علم الولايات المتحدة المكون من نجوم بنسلة ومن ستة أعقبه من القماش فيه القوس الأبيض والبنفسج (الشمس)

قلو أن دولة كبرى مصطنعة بالصياغ الأوربي كانت في سكان الولايات المتحدة ، لا اضطرت بريطانيا العظمى إلى تحصين الحدود الكندية من أقصاها إلى أقصاها - وهي الآن خالية من السلاح عتراً تاماً - ولا اضطرت إلى الاحتفاظ بوساغة أسلحة عظيمة على نهر سانت لورنس . وكانت دول أمريكا الوسطى والجنوبية المنقسمة على نفسها غيت وأضعفت من زمن بعيد ووضعت تحت الرقابة النظامية لموظفي الولايات المتحدة من طبقة الحكام . وكانت تقوم حلة مستمرة تستهدف ضم استراليا ونيوزيلندا إلى أمريكا ، هذا إلى مدح جديد بنصيب في إفريقيا للبلدية الامتوائية .

وقد حدث طوعاً لصدقة عجبة أن أنتجت الولايات المتحدة في شخص الرئيس روزفلت (الذي تولى الرئاسة من ١٩٠٦ - ١٩٠٨) رجلاً ذا فمة تعادل في علم استقرارها حال القيصر الألماني ، كما يعلو في التشوق إلى جلائل الأمور وفي القصة وذلافة النسان ، فهو رجل مفاسر فيه انجياز إلى ناحية السياسة العالمية ، وفيه غريزة تدعوه إلى التسلح والجيش المسلحة ، وهو الرجل عت الذي نستطيع أن نتصوره أن يقم بلاده في التخالط على الممتلكات واه البحار .

وليس يبدو أن هناك أي تضبر آخر لذلك قبحم والامتاع العام من ناحية الولايات المتحدة إلا نظمهم وتقاليدهم واختلافها عما لدينا من نظم وتقاليدهم . ففى المقام الأول : ليس لدى الولايات المتحدة وزارة خارجية وهيئة دبلوماسية على الطراز الأوربي ، ولا مجموعة من الخبراء مهتمها الاحتفاظ بتقاليد سياسة حضوائية . والرئيس سلطات واسعة ، ولكن ترقفها عند حلها سلطات مجلس الشيوخ الذي يتخبه الشعب انتخاباً مباشراً . فلا بد لكل معاهدة تعقد مع دولة أجنبية من من أن تتال أولاً موافقة مجلس الشيوخ . ومن ثم فإن العلاقات الخارجية للبلاد تحت رقابة مبرحة علنية عامة . فالمعاملات السرية مستحيلة إذن تحت مثل هذا النظام ، وتشكو الدول الأجنبية من صعوبة التفاوض مع الولايات المتحدة . ثم التحق من - - - - - دورجه بديع ورائع . وعلى هذا فإن الولايات المتحدة مطولة

الأيدى من الناحية الدستورية ، من القيام بنوع السياسة الخارجية التي جعلت أوروبا
طيلة زمان ملبدة على شفير الحرب باستمرار .

ومن الناحية الثانية : لم يوجد في الولايات المتحدة حتى الآن أية منظمة لتبوير
شئون ما قد يسميه الناس باسم « الممتلكات غير القابلة للتسل » ولا أية تقاليد لمعالجة
مثل هذه الممتلكات . وفضلاً عن ذلك لم يجر أي بحث لا يوجد تاج لا يمكن أن توجد
مستعمرات للتاج^(١) . وكانت الولايات المتحدة إيماناً استناداً رهنها عبر القارة الأمريكية
قد طورت أسلوباً مميزاً لها تماماً في معالجة شئون الأراضي البعيدة ، وهو مكيف
تكييفاً دقيقاً للأراضي غير المسكونة ، ولكنه خير ملائم تماماً إذا هو طبق على « الحرية
على مناطق تخمى من قبل سكاناً أجنبياً . وكان هذا الأسلوب يقوم على فكرة أنه
لا يمكن أن يوجد في مجموعة الولايات المتحدة شعب تابع تبعية أبدية .

وكانت أول مراحل عملية التملك العادية هي إنشاء « منطقة » تحت حكم حكومة
الاتحاد ، يكون لها قدر جسيم من الحكم الذاتي ، وترسل إلى الكونجرس مشعراً
(ليس له أن يعطى صوته) ولا بد لها أن سارت أموراً صيراً طبعياً ومع استقرار
الناس فيها وزيادة عدد سكانها ، أن تزداد آخر الأمر قتال كل حقوق الولايات
تلك هي عملية التطور في كل ولايات الاتحاد الأحدث عهداً ، وكانت آخر مناطق
بلغت مرتبة الولاية هي آريزونا وتيوكسيكو في ١٩١٢^(٢) . على أن برية الاسكا
المستعمدة المشتراة من الروسيا ، ظلت غير متطورة من الناحية السياسية ليجرد أنها لم
تحو عدداً من السكان يكفي للقيام بإنشاء ولاية .

ولما كان ما ضمت ألمانيا والبلجارية من أراضي في المحيط الهادئ عند البحيرة
الأمريكية بالحرمين من عطايا تقسم في ذلك المحيط ، فقد ضمت الولايات المتحدة
إليها جزءاً من جزائر ساموا (١٩٠٠) كما ألحقت جزائر سنطوتش (هولندي)

(١) في هذه الفترة يذكر المؤلف القراء بجميع أنواع المصنوعات البريطانية وبطرق الحكم
التي تتبعها بريطانيا في حكمها لها . (للتعريف)

(٢) لقد حدث فلا ما تليها به ثلاث ، فإن الولايات وما الاسكا وهواي قد انضمت فلا
وحسباً إلى الاتحاد . وبذلك أصبح عدد الولايات المتحدة تسعين . (للتعريف)

(١٨٩٨) - وهنا وجدت الولايات المتحدة لأول مرة شعوباً محكومة تتعامل وإياها ولكن أمريكا اتبعت فيها نفس أسلوبها في معالجة المناطق الحدية في بلادها ، وذلك لعدم وجود أية طبقة تماثل للوظفين الإنجليز في الهند الذين يتسلطون على الرأي العام البريطاني . وقد بذل كل جهود لرفع المستوى التعليمي في هواي إلى نفس مستواه في أمريكا ، ونظم مجلس تشريعي داخلي على غرار مجالس الولايات حتى لينهل إلينا أن من المهم أن ينال هؤلاء الجزيريون السمر القاتمون في النهاية كامل الحقوق المدنية للولايات المتحدة . (ويسمن على جزائر ساموا الصغيرة ملير من قبل الولايات المتحدة تابع للبحرية) .

وفي ١٨٩٥ نشب بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى خلاف حول فنزويلا ، واستمسك الرئيس كليفلند بنهاية الشجاعة بمبدأ مونرو . وعند ذلك صرح السفير أولي^(١) بهذا التصريح الملم : « اليوم تصبح الولايات المتحدة صاحبة السيادة الفعلية على هذه القارة ، كما أن أوامرها قانون في الموضوعات التي تقتصر عليها لتلحقها » . ويشير هذا مجتمعاً مع ما عقد من المؤتمرات المنوعة التي تدعو إلى اتحاد الأمريكتين ، إلى « سياسة خارجية » حقيقية علنية تقوم على التحالف والمساعدة المتبادلة في كل أرجاء أمريكا . ومما هدأت التحكم نافذة القول في كل أرجاء تلك القارة ، وكأني بالمستقبل مشيراً إلى الاتجاه إلى تطور تلميحي نحو إنشاء منظمة دولية أي « سلم أمريكي » Paz Americana^(٢) التي ضم الشعوب الناطقة بالإنجليزية والناطق بالاسبانية وتكون فيه الأولى بمثابة الأخ الأكبر . وهنا نرى شيئاً لسنا يستطيعين حتى أن نسميه إمبراطورية ، وهو شيء يتجاوز كثيراً التحالف الكبير في الإمبراطورية البريطانية من ناحية المساواة الصريحة بين أجزائه .

(١) ريتشارد أولي (Olney) : (١٨٥٨ - ١٩١٧) سفير دعام أمريكي . أصبح وزيراً ، كتب في سنة ١٨٩٥ رسالته الشهيرة طالب فيها بضرورة حصر بريطانيا العظمى في نطاقها مع فنزويلا . (انظر)
(٢) في ذلك وقت « السلم البريطاني » إنشاء السلم الروماني (Pax Romana) الذي كان يفرس الأمن والسلام بالعام لإعاد عظمة روما (انظر)

وما يتفق مع هذه الفكرة للمادة إلى الصالح الأمريكي المشترك ، أن تلتصقت الولايات المتحدة في ١٨٩٨ في شئون كوبا ، التي ظلت في حالة من الصعيان الزمن على أسبانيا طيلة سنوات عديدة . ثم عقب ذلك حرب وجيزة الأمد انتهت بالاستيلاء على كوبا وبورتوريكو وجزائر القليلين . وكوبا الآن جمهورية مستقلة تلعب شئونها بنفسها . وأعطيت بورتوريكو وجزائر القليلين نوعاً خاصاً من الحكم فيه مجلس نواب ينتخب الشعب أفرادهم ويجلس أعلى يحوى على أعضاء حينهم يادئ الرأى مجلس الشيوخ بالولايات المتحدة . ومن البعيد أن تصبح أى من بورتوريكو والقلبين يوماً ما ولايات في الاتحاد الأمريكى . والأرجح أن تصبحا حولا حرة على أساس تحالف شامل مع كل من أمريكا الناطقة بالإنجليزية ولغتها اللاتينية .

وقد استقبلت كل من كوبا وبورتوريكو التدخل الأمريكى في شئونها بالترحاب التام ، ولكن ظهرت في جزائر القليلين حركة مطالبة بالحرية الثابتة الناجمة بعد الحرب الأسبانية ، كما نشبت مقاومة جسيمة للإدارة العسكرية الأمريكية . هناك اقتربت الولايات المتحدة لأشد اقتراب من طراز استعمار الدول الكبرى ، وأصبح سجلها في هذا المضمار أبش ما يكون على الرية على أن الشعب الأمريكى أبدى شيئاً كبيراً من اللطف على العصابة . وهاكم الآن وجهة نظر الرئيس روزفلت كما كتبها في ترجمته اللاتينية ١٩١٣ .

وعاماً من القليلين قد كان اعتقادى أنه يجب علينا أن ندوب أهاليها على الحكم الذاتي بأسرع ما استطاع ، ثم نتركهم أحراراً في تقرير مصيرهم . ولم أكن ممن يؤمنون بتجديد الموعد الذى يجب أن تعطيم فيه الاستقلال ، لأنى لم أكن أرى من الحكمة أن يتأخر المرء بمقدار السرعة التي يصبحون فيها أهلاً للحكم الذاتي ، فإذا قطعت ذلك الموعد نلأى لشعر بأنه من المهم على أن أتر به . ولم تمنح بضعة أشهر على نولتى مهام على حتى قضينا في جزائر القليلين على آخر مقاومة مسلحة وهي مقاومة لم تكن مجرد حركة متفرقة ولا متناثرة ، وما أن توطن السلام في البلاد حتى وجهنا كل همنا إلى تطوير الجزر لمصلحة أهل البلاد ، فأسستنا المدارس في كل

مكان ، وأنشأنا الطرق ، وأقنا عتاة قريظة ، وههنا كل ما في استطاعتنا لتشجيع الزراعة والصناعة ، وأحفنا تزيد باطراد في استعمالنا لأهل البلاد للقيام بحكم أنفسهم وأخيراً أردناهم بمجلس تشرى .

والقد كنا ومازلنا نحكم جزر القديين لمصلحة أهلها أنفسهم . فلو قرر القليبيون في الوقت المناسب أنهم لا يرغبون أن يحكموا على هاته الشاكلة ، قلبي موثق بأننا ستقدر بلادهم عند ذلك . على أننا إذا غادرناهم بالفعل فيجب أن يكون مفهومنا فهما يتنا أننا لا نحتفظ بأى حاية على الجزر ، وأننا فوق كل شيء لن نساهم في أية حاية مشتركة . ولا نمنحهم أى ضمان بالحيد أو عدم الحيد ، وأننا بالايجار نخلو نخلوا تماماً من كل نجة ، من أى نوع ووصف قبلهم .

تلك وجهة نظر مخالفة آتم المخالفة لوحدة نظر وزارة الخارجية البريطانية أو فرسية أو موطف في وزارة المستعمرات . على أنها لا يفتد كثيراً عن تلك الروح التي خلقت الممتلكات المستقلة في كندا وجنوب أفريقيا وأستراليا ، ولعلمت مشروعات قوانين الحكم الذاتي الثلاثة لإيرلندة . وهي شيء يتشلى والتقاليد الإنجليزية القديمة التي انحصصنا بها والتي انتهل منها إعلان الاستقلال . وهي تبدل بلا مناقشة تلك الفكرة المقوية . فكرة الشعوب المحكومة . وإن نسلخ هنا في المعتقدات الجديدة التي صحت لإنشاء قناة بناما ، لأنها لا تلقى أى قباه جديد على هذا الموضوع للشائى موضوع منهج أمريكا في السياسة العالمية . وتاريخ بنا تاريخ أمريكى بحث . ولكن من الواضح أنه كما كان التركيب السياسى الداخلي للاتحاد الأمريكى شيئاً جديداً في العالم ، فكذلك كانت علاقته بالعالم خارج حدوده .

٧ - الأسباب المباشرة للحرب العظمى

لدينا بعض المشقة في التخصص من حالة أوروبا وأمريكا القليلة بالنظر إلى العلاقات الدولية في السنوات التي انتهت بمأساة ١٩١٤ العالمية ، لأن تلك الحرب الكبرى وأنشأنا - كما أخذ عدد متزايد من الناس يشعر بذلك - كانت نتيجة ضرورية لعقبة الزمان . فإن جميع الأشياء التي تصدر عن الأفراد والأمم إنما هي نتيجة

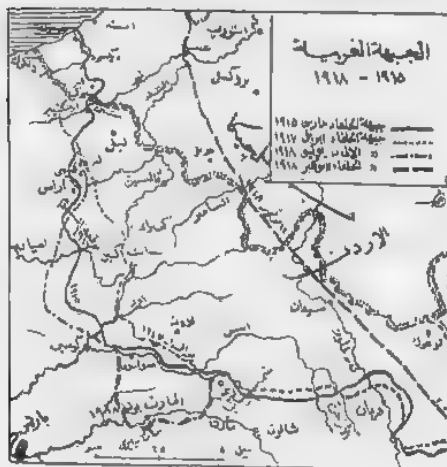
للمواقع عزيزة لما ورد قبل على الأفكار التي وضعها في دعوى الناس الخطابة والكتب والصحف والمؤسسون إلى غير ذلك من وسائل الإعلام . وربما أخرجت نحو التاريخ الإنساني عن جادته وانحرفت به وشوهت معالنه أشياء من أمثال الضرورات الطبيعية والأوثق وتغيرات المناخ وما إليها من أشياء أخرى ، ولكن الفكر هو الجذر الحى لذلك التاريخ .

فالتاريخ البشرى بأبعده إنما هو في جوهره تاريخ أفكار . فإن ما بين إنسان هذا الزمان ورجل الكرومانيون من فروق جسيمة وحقيقية طفيف جداً ، وبشخص الفارق الأساسى بينهما في سعة ومحتويات والخلفية العقلية التي اكتسبتها في الأجيال الخمسة أو الستة التي فصلنا عنهم .

وعن من الحرب العظمى على مقربة بلغ من شفتها ألا نستطيع أن ندعى أن في إمكان هذا الكتاب أن يسجل حكم التاريخ عليها ، على أننا ربما خاطرنا بأن نركن أنه عندما تخلف انفصالات النزاع ، فستكون ألمانيا صاحبة القسط الأوفى من الزوم على التسبب فيها ، وإنها لتلام لأنها كانت من الناحية الذهنية والخلقية مختلفة جداً عن غيرها ، بل لأنها كانت مصابة بما تشركها فيه الدول جميعاً من داء الاستعمار ولكنت فيها على آتم صورة وأتواها نشاطاً . وليس هناك من مؤرخ يحترم نفسه ، مهما بلغت مراميه من السطحية والرضا في استرضاء العامة ، يستطيع أن يقبل تلك الأسطورة التي أنتجتها آلام الحرب وويلاتها ، والثقيلة بأن الألمان نوع من الكائنات البشرية أشد قوة وأدعى فكرية من أى جنس آخر من أجناس الناس . إن دول أوروبا الكبيرة كافة كانت في ١٩١٤ في حال من القومية العدوانية ، وكانت تنافى نحو الحرب ، ولم تتم حكومة ألمانيا بأكثر من قيادة الحركة العامة . فكانت أول من وقع في الحفرة ، وهوت تتجهل في أعين أعمائها . وأصبحت المثل للقطيع الذي استطاع زملاؤها في الإنم أن يشيروا به .

ذلك أن ألمانيا وانحاضت زماً طويلاً تبحثان عن متسع للنفوذ الألماني شرقاً خلال آسيا الصغرى إلى بلاد الشرق . وتهلورت الفكرة الألمانية في حيازة برلين إلى بغداد . وكانت أحلام الروسيا عدوة لأحلام ألمانيا ، فالروميا كانت تدبر

الخطط الرامية إلى إمتداد السيادة السلافية (الصقلية) إلى القسطنطينية والوصول بطريق صربيا إلى البحر الأدرياتي . وكانت هذه الأطماع متصارعة متعارضة .



(شكل ٢١٠)

وكانت حالة الحمى المتسلطة على شئون البلقان نتيجة طبيعية جداً للضغامات والنداعات التي تواصل القيام بها الخطط الألمانية والسلافية . ومدت تركيا يدها إلى ألمانيا لتلتزم العون ، واتفقت صربياً بحرب الروسية . واتبعت رومانيا وإيطاليا وكناتهما لانيية الضاليد ، وكناتهما حليف إسمي لألمانيا ، خططاً مشتركة بينهما أبعد مجالاً وأعنى عموراً . وكان مرديتاندي فيصر بلغارياً يطلب عايات أشد حلوكة وسراداً ، كي أن نخايا البلاط البرياني الذي كاد ملكه صهراً للقيصر الألماني نخرج عن مجال مقدرتنا الحالية على البحث والتقصي .

ولكن المضلة لم تنته عند ترص ألمانيا في جانب والروسيا في الجانب المقابل .
لأن جمع ألمانيا في ١٨٧١ جعل من فرنسا عدواً للدوا لها . وأدرك الشعب الفرنسي
عجزه من أن يسترد بقوته وحده مقاطعاته المسلوقة ، وحلل النفس بفكرات مضخمة
عن قوى روسيا ومساعدتها . وأسهم الشعب الفرنسي في القروض الروسية إسهماً
هائلاً . وكانت فرنسا حليفة لروسيا . فإذا اعتدت قوات الألمان على روسيا فالامراء
في أن فرنسا تباهجهم .

وكانت الحدود الفرنسية الشرقية القصيرة محسنة تحصيناً قوياً جداً . وبفضل هذا
الحلج لم يعد أمام ألمانيا إلا أقل الاحتمالات في تكرار نجاحها في ١٨٧٠-١٨٧١ . على
أن الحدود الفرنسية البلجيكية كانت أطول وأضعف تحصيناً ، فالقيام بهجوم على فرنسا
بطريق بلجيكا بقوات جارية لا قبل لأحد بمقاومتها ، فلد بعد ١٨٧٠ على درجة
أكبر وأبلغ . وربما ردت الميسرة الفرنسية نحو الجنوب الشرق إلى فردان جاعلة منها
قلب دوران ، ثم تزامم مراجعة على الليمنة كما تطبق اللينة أو الموسى

وقد دبر الاستراتيجيون الألمان هذه الخطة بمثابة وإحكام بالعين . وكان في تنفيذها
اعتناء على حرية قانون الأمم . (أسمى القانون الدولي) ، لأن بروسيا تمهدت
بضمان حياد بلجيكا ولم يكن بين الفريقين خلاف ، كما أن فيه خطر إختلال بريطانيا
العظمى في الموضوع (وهي دولة كانت كذلك متعاهدة بحماية بلجيكا) من ألمانيا .
ومع هذا فإن الألمان اعتقدوا أن أسطولهم بلغ من القوة مبلغاً يكفي لجعل بريطانيا
تردد في التدخل ، وقاموا - ناظرين إلى الاحتمالات التي قد تعجب بها الأيام - بإنشاء
مجموعة عظيمة من المخطوط الحديدية الاستراتيجية^(١) تصل إلى حدود بلاد البلجيك ،
وأعدوا كل حدة لتنفيذ هذه الخطة . لعلمهم بذلك يستطيعون أن يقضوا على فرنسا
بضربة واحدة ، ثم يلتفتون بعد ذلك إلى روسيا وقتاً يحل عليهم هوام .

وفي ١٩١٤ كان يلوح أن جميع الأمور متكافئة حسباً نهوى اللوثان الوسطيان .
ثم إن لروسيا كانت تستعيد قواها منذ ١٩٠٦ ، ولكن ذلك لم يكن إلا يبطئ

(١) الاستراتيجية : في القيادة بمسقة عامة وعلم أو فن جمع الموارد العسكرية بنسبها إلى
مصر أو القيام بعمليات الجيوش . (الترجم)

شديد . وكانت فرنسا مبللة التفكير لأصنافها من فضائح مالية . ولم يلبث الحادث الملل الذي صرع فيه للسركاليت محرر جريدة فيجيارو على يد زوجة للسركاليت^(١) وزير المالية ، أن بلغ هذه الفضائح أوجها في مارس . فأما بريطانيا ، فإن ألمانيا بأجتها كانت موقنة بأنها على شفير الحرب الأهلية في لواند . وبدلت جهود متكررة من أقوام أجناب وانجليز على السواء للحصول على بيان محدد عما تنوي بريطانيا أن تفعله إذا عاجت ألمانيا والنمسا دولتي فرنسا والروسيا . ولكن وزير الخارجية البريطاني السير إدوارد جراهي ظل عسفاً يستار من النقوض حتى نفس اليوم الذي دخلت فيه بريطانيا الحرب . ونتيجة لذلك ، كان يوم نقارة الأوربية إحساناً بأن بريطانيا إما لا تنوي أن تحارب أو هي صوف ترجئ القتال . وربما شجع هذا ألمانيا أن تواصل تهديدها لفرنسا .

وبما تصبل سير الحوادث في ٢٨ يونيو اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند ، وارث عرش الإمبراطورية النمساوية وهو في زيارة رسمية لمرنچيفو عاصمة مقاطعة البوسنة . وعند ذلك لاح أسبب الأعداء لنزع الجيوش إلى التحرك . قال إمبراطور الألمان وإما الآن وإلا فلا . واهتم صربيا بالتحريض على القتل ، وبالرغم من أن المتدوين النمساوين قلحوا تقريراً يتضمن أنه ليست هناك أدلة على أن الحكومة الصربية ضلماً في الجريمة . فإن حكومة النمسا وغير دبرت للتدابير لتوجيه هذا الاحتشاء إلى ناحية الحرب . ففي ٢٣ يوليو أرسلت النمسا إلى الصرب إنذاراً نهائياً ، وبالرغم من تقدم الصرب بالخضوع القتل ، ومن جهود السير إدوارد جراهي وزير الخارجية البريطانية لدعوة للدول إلى مؤتمر ، فإن النمسا أعلنت الحرب على صربيا في ٢٨ يوليو .

وعبات روسيا جيوشها في ٣٠ يوليو ، وفي أول أغسطس أعلنت عليها ألمانيا الحرب . وعبرت القوات الألمانية الحدود الفرنسية في اليوم التالي ، وابتدأت الحرب

(١) كايبر (Collins) ، (١٨٩٢ - ١٩١٤) : سياسي فرنسي . تولى المالية ووزارة المردلة . تلت زوجته المردلة ٩٤ عاماً بغير رسائل من كايبر إليها وهو ذرسة لرجل آخر . (الترجم)

الكبيرة ، حركة الهجوم على الجناح الأيسر خلال لوكسمبورج وبلجيكا . ومارت إلى الغرب راكبة الكثافة وحرس الطليعة . وانطلقت إلى الغرب أوتال من السيارات المصلة بالحدود . ونجح ذلك طوابير متتلة من المشاة قوى البذلات الرمادية ، وكان معظمهم شباناً ثلثين جميلي الميود شُعر الشعر ، وهم أحداث متعلمون ممن يطبقون القانون ويحترمونهم ومن لم يحدث أن رأوا من قبل رصاصة تطلق غضباً . لقد أُنبِروهم : أن هذه هي الحرب . وأهم يجب أن نكونوا شجعاناً لا نجد الرحمة إلى قلوبهم سيلاً . وبلبل بعضهم فصاروا في تنفيذ تعليمات سادته العسكريين هذه على حساب أحالي بلجيكا للنساء .

وقد أثيرت حول تفاصيل فظائع الألمان في بلجيكا ضجة لا تتناسب في الحق مع القطة الجوهرية للشهادة التي اقترنت في أغسطس ١٩١٤ ، وأضنى بها اجتياح بلاد البلجيك . فلو سلمنا بهذا فإن كل ما يقع بعد ذلك من قتل ونهب ، ومن تعبير طائش للممتلكات ، ومن نهب لفنادق والمطاعم والمشارب يقوم به رجال جياع مكندودون ، وما يترتب على ذلك من اغتصاب للنساء ومن حرائق ، فأمرور تعقب ذلك بحكم طبيعة الأشياء . وليس إلا البسطاء من الناس من يعتقدون بأنه جيداً في ميدان القتال بقدر أن يحافظ على مستوى للأمانة واللباقة والصلابة ، كما بقدر أن يحافظ عليها مجتمع مستقر في وطنه . هنا إلى أن تغلبت حرب الثلاثين سنة كانت ما تزال تؤثر أثرها في الجيش الرومي (١) . فقد جرت العادة في البلاد المتحالفة ضد ألمانيا أن يعالجوا هذا الانضباط وصفك النساء أثناء شهور القتال بالبلجيك كأنها ما أمران لم يحدث لهما مثيل من قبل أبداً ، وكأنما كانتا يرجعان إلى نعمة شريفة تتميز بها أخلاق الألمان .

نأطلقوا عليهم اسم « الميون » تشهيراً بهم . ولكن جرائم الألمان في بلجيكا أقل الأشياء شهرة بالتصريحات المنظمة التي أوتكتبها هؤلاء المرحطون (الذين فكروا مرة

(١) يحلو لكاتب الإنجليز أن يسوا جيوش غيرم بكل لقمة ويلسون ما قامت ٩ جيوش البريطانية من قطع وفتحات على مر الأيام على طاجين التاريخ وما ضاحك الله وهورما والفرقة بعيدة من الألمان . (للتقريب)

في إبادة السكان الصيادين على بكرة أبيهم لكي يعلوا بلاد الصين إلى الرعي ،
 وكان الشيء الكثير من هذه الجرائم وحشية تسبب عن سكر رجال صلبوا لأول
 مرة في حياتهم أحراراً في استخدام أسلحة مهلكة ، وكان الكثير منها هو العنف
 المستبصر الذي يصدر عن رجال أزعجهم ما بدر منهم من تصرفات ، أو ألم بهم خوفه
 قاتل من انتقام الأهالي الذين وقع منهم الاعتداء على حرمة بلادهم ، وكان الكثير منها
 يحدث تحت ظروف من الاضطراب والفتن بسبب النظرة القائلة بأن الرجال يجب
 أن يكونوا في الحرب ضطبعين وأن خير وسيلة لإخضاع الأمم هي الخوف وقد جُمع
 العامة الألمان من حالة طاعة نظامية وزجروا في هذه الحرب على صورة جعلت من
 لهم أن يترتب عليها القتل . فإن أي شعب يجهز للحرب ويساق إلى عمراتها كما
 حدث للألمان فهو لابد متصرف على شاكلة مماثلة .

وفي ليلة ٤ أغسطس ، وبينما أوروبا ما تفرح مستغرقة في مجبوبة نصف قرن من
 السلم ، وما تفرح تمنع الانتعاش المتداد بالحرية والرخص والوفرة الشاملة التي
 لن يراها أي حي مرة أخرى ، وتفكر في إجازاتها الصيفية ، - كانت قرية فيزيه
 (Viez) البلجيكية الصغيرة في أتون من الفيران ، ثم كان ملاحوها المشوهون
 يرمطون ويعذبون رمياً بالرصاص بدعوى أن أحد الناس أطلق النار على الفئرة .
 ومن المؤكد أن الضباط الذين أصدروا هذه الأوامر والجنود الذين نفذوها شعروا
 بالرحب لغربة ما أتوا . إذ لم يسبق لعظمهم أن شهد حتى ذلك اليوم موتة صيفة .
 وكانوا قد أضرموا النار لاف قرية بمقردها بل في عالم بأجمه . كانت تلك بداية
 نهاية عصر من الاستجمام والفتنة والسلوك الرقيق اللاتي في أوروبا .

وما كاد العالم يتحقق أن بلاد البلجيكية سوف تغرق ، حتى كتبت بريطانيا العظمى
 من التردد ، وفي الساعة الحادية عشرة من مساء ٤ أغسطس أعلنت الحرب على
 ألمانيا . وفي اليوم التالي ضبعت سفينة ألمانية من طليقات الأنفام عند مصب نهر التيمز
 إذ اكتشفتها الطراد (أمفيون Amfion) وأغرقتها - وهي أول مرة التقي فيها
 الألمان بالإنجليز في حرب تحت رايتهما القومية سواء أكلان ذلك في البر أم في البحر .
 وما تزال أوروبا بأكملها تذكر الجو الغريب لأيام أغسطس المشبعة المليحة

بالأحداث هذه ، وتذكر نهاية السلم المسلح . وقد ظل العلم الغربي قرابة نصف قرن وهو ساكن تبدو عليه الأمتة . ولم يكن هناك في فرنسا إلا القليل من الكحول والسيوخي اللذين شربوا لبان الحرب فلا وتمرسوا بها عملياً . وطفقت الصحف تتحدث عن كارثة هائلة ، ولكن هذا الحديث لم يكن له إلا معنى ضئيل جداً لدى أولئك الذين كان العالم يبدو في نظرهم على الدوام في أمتة وسلام ، ومن كانوا في الواقع لا يستطيعون تصوره إلا مستظلاً بظلال الأمتة والسلام .

وتواصلت في بريطانيا بوجه خاص روثيات زمن السلم وأحواله العادية تواصلت لا يخلو من اعتزاز وتردد . كانت الحال تشبه حال رجل ما يزال يحشى في هذا العلم غير مدرك أنه مصاب بداء عضال سوف يغير كل مجرى حياته وكل عادة فيها . فاستمر الناس في إنجازاتهم العبقية ، وكانت الدكاكين تظن زبائنهم بإعلانهم بأن العمل يجري كالمعتاد . وكان الحديث بكثرة والإنفعال يشتد عندما تظهر الصحف ، ولكنه كان حليماً وكان انفعالا لتفارة ليس لديهم شعور واضح بالاشتراك في هذه الكارثة التي أوشكت أن تقمرهم جميعاً على الفور .

٨ - خلاصة للحرب العظمى حتى ١٩١٧

ستعرض الآن بمشئ الإيجاز الأدوار الرئيسية للكتاح العالمي التي ابتدأ كما رأيت . وكما حيرت ألمانيا الأمر ، بدأت الحرب بهجوم سريع يهدف إلى ضرب فرنسا « ضربة قاضية » ، بينما تكون روسيا منهكة بتجميع قواتها في الشرق . وسادت الأمور على ما برام رجحاً من الزمان . ومن المعروف أن العلم العسكري ليس بالعلم الماشئ لتقدم زمانه في ظروفنا المعاصرة هذه ، لأن العسكريين من الرجال إنما هم بوصفهم طبقة - رجال واهتموا بالخيال ، فهناك في كل آن مختبرات لم تتطور ، تجد القطة العسكرية قد رفضتها ، بينما هي تستطيع أن تحطم ما جرى عليه العرف في في التاكليك^(١) والاستراتيجية .

(١) التاكليك . لن زيادة أمتة في إحدى المارك وفق قواعد مقبولة وضقة مرسومة (الترجم)

وكانت الخطة الألمانية مدبرة من منارات حنة . وهي من ثم خطة حقيقية آتية . ولعلها كانت تحيط منذ البداية لو أنها قبلت باستعمال الخنادق والأسلاك الشائكة والمدافع الرشاشة اسبغاً صحيحاً ، ولكن الفرنسيين لم يكونوا بأى حال مضطرين في فهم العسكري قدام الألمان ، فركنوا إلى أساليب الحرب المكشوفة التي كانت متأخرة عن الزمان بما لا يقل عن أربعة عشر عاماً . ولم يكن لديهم عتاد مناسب لأن الأسلاك الشائكة ولا من المدافع الرشاشة ، وكان هناك تقليد مضطك يقول بأن الفرنسي لا يحسن القتال وراء الخنادق .

وكان الدفاع عن الحدود البلجيكية موكولا بحصون لياج (Liege) ، وهي حصون قديمة للطراز عشر سوات أو اثني عشرة سنة ، وفيها استحكامات زودها بالأسلحة ووكها في كثير من الحالات مفاولون من الألمان ، وكان الحاد في الحدود الفرنسية الثمانية للشرقية ردياً جداً . وطبيعى أن شركة الأسلحة الألمانية المسماة كروب أحدثت هذه الحصون الخفيفة معاول تتمثل في مدافع ذات ضخامة استثنائية تقلع يقابل شديدة الضجر . وأثبتت هذه الحصون أنها ليست إلا مجرد مصائد لحاياتها اللدافين .

وقام الفرنسيون بهجمة فاشلة في جبال الأردن الحنوية . وتأرجحت الجيوش الألمانية حول الميسرة الفرنسية حتى أيقن الناس أنها جيوش لا قبل لأحد بمقاومتها ، ومنقط آخر حصن في لياج في ١٦ أغسطس ، وبلغ الألمان بروكسل في ٢٠ أغسطس ، وعند مونز (Mons) أصيب الجيش البريطاني الصغير المكون من سبعين ألفاً والذي وصل إلى بلجيكا ، بضربة قاصبة من قوات ساحقة ، ودفع إلى الخلف بالرغم من درس فاشلك البنادق المهلك الذي تلقاه في حرب جنوب أفريقيا . ودعمت القوة البريطانية الصغيرة إلى الجنوب . وانحدرت البعثة الألمانية بصورة ترك باريس في الغرب وتجرس الجيش الفرنسي بعضه في بعض .

وبلغ من شدة قوة القيادة الألمانية في هذه المرحلة بأنها كسبت الحرب ، أنه قبل نهاية أغسطس كانت الجيوش الألمانية تسحب وتنقل فضلاً إلى الميدان الشرقى ، حيث كان الروس يهكون الحرت والنسل في بروسيا الشرقية والغربية . وعند ذلك

الجيش الألماني لم يهزم ، بل كان لا يزال لديه التفوق العدواني العظيم في المهارة العسكرية والعتاد . وكان خوفه من الجيش الروسي في الشرق قد زال أو كاد ينصرف هائل لحرزه في تاننبرج . وكان الثور الثاني من أدوار الحرب حقة مدبرة تدبيراً لكل إحكاماً ترمي إلى تطويق ميسرة جيوش الحلفاء والاستيلاء على ثغور القتال الإنجليزي ومنع المند الآق من العبثة إلى فرنسا . ومن ثم امتد كل من الجيشين غرباً وانطلقا إلى الساحل فيما يشبه السباق . ثم انطلق الألمان بما هم من تفوق عظيم في المناهج والعتاد محاولين إزلال ضربة بالإنجليز بالقرب من إيبير (Ypres) وكادوا أن يحلثوا ثمة في صفوفهم ، لولا أن صدق لهم الإنجليز .

ووكلت الحرب في الميدان الغربي متحولة إلى حرب حنادق ولم يكن لدى أحد من الطرفين من العلم والعتاد ما يكفل حل مسألة اختراق الحنادق المصرية وأحاييل الموقوفات الحديثة ، وعند ذلك اضطر كل من الطرفين إلى الالتجاء إلى أهل العلم والاختراع ومن إليهم من غير العسكريين بسألونهم النصيح والمعرفة فيما هم فيه من ورطة . وفي ذلك الوقت كانت المشكلة الجوهرية في حرب الحنادق قد حُلّت فعلاً ، إذ كان يوجد في العبثة مثلاً نموذج دبابة كانت تمنع الحلفاء ولا وب نصراً سهلاً سريعاً قيل ١٩١٦ . ولكن الفعل العسكري المعروف إنما هو حكم الضرور . قل منحنى مقبم الخيال ، فليس هناك إنسان ذوق مرة دعنية عالية يرضى محض اختياره بحبس مواضعه في مثل هاته المهنة ، وجميع العسكريين للتفوق المنظمة يكادون أن يكونوا إما من الشبان الأغنياء الناضجين الأدمعان أمثال الإسكندر وتالبلود وهورش^(١) ، أو من السياسيين الذين انقلبوا إلى ملك البحتية أشال يولبوس قيصر ، أو من المترسلين أمثال قواد الملوك والمغول أو هوان من أمثال كرومويل وجورج واشنطن . على أن هذه الحرب الناشئة بعد خمسين سنة من التهور العسكري كانت حرب عتريفة أفضاح ، وكان من المستحيل من بدايتها حتى نهايتها استخلاصها من يد القواد العاديين ،

(١) هورس (١٧٦٨ - ١٧٩٧) قائد فرجى نابغ ، دخل الجيش جندياً ورق جنرالاً ، وفي ١٧٩٢ تولي القيادة في الموردين وطرد بها جيوش البروسية . وقام بمناولة صفقة لغزو بولندا في ١٧٩٤ . (الترجم)

وأشكال جديدة من الدوسناري وما أشبهها ، ولكن واحداً لم يتطور نظوراً يؤدى إلى تعجيز أى من القوتين المتحاربتين .

ومن حلف هذه الجبهة كانت كل حيلة الأمم المتحاربة تُحوّل أكثر فأكثر نحو القيام بإنتاج مدد مستمر من الطعام والمهمات الحربية ، والقيام قبل كل شئ « بتقديم رجال يحلون يوماً فيوماً محل من يقتلون أو يصابون . وكان من حسن حظ الألمان أن كان لديهم عدد ضخم من مدافع الحصار الكبيرة المعلقة لحصون الخلود . فاستعملوا هذه في تحطيم الخنادق بالقنابل الشديدة الانفجار ، وهو استخدام لم يكن يتوقعه أحد . وكان الحلفاء طيلة السنوات الأولى أقل من الألمان بدرجة محسوسة فيما لديهم من المناصير الكبيرة والدخائر ، وكانت خسائرهم على الدوام أعظم من خسائر الألمان .

وشن الألمان على الفرنسيين هجوماً هائلاً دام طيلة النصف الأول من ١٩١٦ حول فردان . ولكن الألمان أصيبوا بخسائر فادحة ثم صدوا ، بعد أن تقدموا في الخطوط الفرنسية بضعة أميال . وعدلت الخسائر الفرنسية خسائر الألمان أو أثبت عليها . وكان المشاة الفرنسيون يرددون قولهم : لن يبروا e ils ne Passeront pas أو يفتقدوه غناه وقد برؤا بكلمتهم .

وكان طول الجبهة الألمانية الشرقية أكبر وخنادقها أقل انتظاماً من الجبهة الغربية . وواصلت الجيوش الروسية حبساً من البحر صغلتها غرباً بالرغم من كثرة فائتخرج . فاستولوا من المصوبين على كل عاليها تقريباً ، وضخوا المبرج في ٢ مجبر ١٩١٤ ، وقلمة برزيميل الكبيرة في ٢٢ مارس ١٩١٥ . وبعد أن فشل الألمان في اختراق جبهة الحلفاء الغربية ، وبعد هجوم فاشل قام به الحلفاء دون الاستعداد له بما يلزمه من عتاد ومواد ، عاود الألمان الضغائم إلى روسيا . وأصابوا الروسين سلسلة من الضربات القاصمة استحدثوا فيها طريقة جديدة من الحشد الشديد للمدفعية ، فهزموهم بما في جنوب الجبهة الروسية أولاً ثم في شمالها . وفي ٣ يونيو استردوا برزيميل ، ودفعوا بكل خط القتال الروسي إلى الخلف حتى وقعت فيلنا (في ١٨ أكتمبر) في قبضة الألمان

وفي ٢٣ مايو ١٩١٥ انضمت إيطاليا إلى الحلفاء وأعلنت الحرب على النمسا . ولكنها لم تعلن الحرب على ألمانيا إلا بعد ذلك بأكثر من سنة . غلقت حدودها الشرقية نحو جوديتريا (التي سقطت في صيف ١٩١٦) ، ولكن تدخلها كان قليل الحدود في ذلك الأوان لأى من الروسيا أو الدولتين اللتين . وكل ما فعلته أن أقامت خطاً آخر من حرب الخنادق بين الجبال العالية الموجودة على حدودها الشمالية الشرقية الرائجة الجبال .

وعلى حين كانت الجبهات الرئيسية للمقاتلين الكبار فيما رأيت من حال الجحود والتوقف لتلك القوى ، كان كل من الطرفين يحاول أن يكبل سرعة يلف بها حول خطوط تحصنه . وقام الألمان بسلسلة من الغارات بمناطيد زبلن ، ثم بالطائرات فيما بعد على باريس وعلى شرق إنجلترا ، وكان هدف هذه الغارات الظاهر هو المستودعات ومصانع المقاتل الحربية وما إليها من أهداف ذات أهمية عسكرية ، ولكن الواقع أنهم كانوا يهدفون قذائفهم بلا تمييز على الأماكن المسكونة .

وكان المليونون يسقطون مائة الأمر قتال غير كبيرة الأثر ، ولكن حجم ونوع الضلالت أعد يتراد بعد ذلك شيئاً فشيئاً ، فأصيب من جراء ذلك عدد جسم من الناس ما بين قتل ومصابين ، وثرىب عليه أيضاً أضرار كبيرة . وثار الشعب الإنجليزي ثورة غضب شديدة لهذه الاعتداءات . ومع أن الألمان كانوا يملكون مناطيد زبلن منذ بقع سنين ، فلم يفكر أحد من قوى السلطان في إنجلترا في أمثل الطرق للقضاء عليها ، ولم يحدث إلا في مؤتمرات ١٩١٦ أن أعدت مقادير كافية من المدافع المضادة للطائرات واستعملت استعمالاً ناجحاً . وأن حاجت الطائرات الإنجليزية هؤلاء النفرين مهاجمة منظمة .

ثم أعقب ذلك سلسلة من الكوارث حلت بمناطيد زبلن ، حتى أنها بعد ربيع ١٩١٧ لم تعد تستخدم لأى غرض إلا الاستطلاع البحري . وحل محلها في الإعاقة الطائرات الكبيرة (من طراز جوتا) . وأصبحت غارات هذه الآلات على لندن وشرق إنجلترا زيارات منظمة بعد صيف ١٩١٧ . واعتادت لندن أن تسمع في كل ليلة مقمرة من ليلي شتاء ١٩١٧ - ١٩١٨ دوى صواريخ الإنذار وصغير التحذير

للمداد من البوليس ، وإخلاء الشوارع سريعاً من المادة ، ودعمه بجدة تصدر عن
عشرات ومئات من المدافع المضادة للطائرات تطو ياطراد حتى تصبح عزيمة عظيماً
من أصوات الاصطدام والمهدة والتكسر ، وصغير القنابل المعلقة ، وأخيراً دوى
القنابل المتكثف الضخيل لأن قنبر لإحدى الطائرات أن تخترق نطاق النطاق الجوي . ثم
يحدث الوقت إنسان تنالض هزم للمدافع أن يسمع صوت عدد المطلق الذي لا يخطئه
إنسان وإسراع عربات الإسعاف . . . لقد وصلت الحرب إلى دار كل لتنفى
بوساطة هذه الحرب .

وبينا كان الألمان يهاجمون هذه الطريقة أحصاب شعب أعينهم في قرارة بلادهم ،
كانوا كذلك يهاجمون تجارة البريطانيين وراء البحار بكل ما في مستطاعهم من
وسيلة . إذ كانت لهم في بداية الحرب مدمرات تجارية متنوعة مبنوة في كل أرجاء
العالم ، وسرب من الطرادات القوية المصرية في المحيط الهندي ، تذكر منها الطراد
شارنهرست وجينستلو وليبرج وتورنبرج وهوسدن . واستطاعت بعض الطرادات
المنحولة وبخاصة الطراد إمدن أن تحطم قنبراً جسيماً من السفن التجارية قبل أن تمكن
التقاء عليها ، وأمسك السرب الرئيسي بقوة بريطانية أصغر منه بالقرب من
ساحل شيلي وأغرق الطرادين جود هوب (Good Hope) ومونغوث في أول نوفمبر
١٩١٤ . وبعد شهر وثبت قوة بريطانية بقيادة الأميرال ستاردي على عرس هذه
السفن الألمانية فأغرقها كلها (ما عدا الطراد هوسدن) في معركة جزائر فوكلاند .
وبعد ذلك القتال تلى الحلفاء سادة البحر بشر متازع ، سيادة لم ترتزها معركة جاتلند
البحرية الكبرى (٣١ مايو ١٩١٦) أحلى زلزلة .

وانتد الألمان منذ ذلك الحين يزيلون في تركيز التفاتهم على حرب القواصات
يوماً بعد يوم فأصابوا منذ بداية الحرب انتصارات ضخمة بوساطة القواصات .
ففي يوم واحد هو ٢٢ سبتمبر ١٩١٤ أغرقوا ثلاث طرادات قوية هي أبو قبر
وهوج وكريس (Creasy) ومنها ١٤٧٣ رجلاً . وظلوا يصيرون من السفن البريطانية
طوال الحرب ، وكانوا في البداية يستوفون سفن الركاب والتجارة ويفتشتونها ،
ولكنهم أحملوا هذه العادة خشية الوقوع في الأحاييل ، وفي ربيع ١٩١٥ شرعوا
بفترقون السفن بلا إنذار .

وفي مايو ١٩١٥ أغرقوا بالخرة الركاب المظيمة لوزيتانيا بلا إنذار ، لفرق بسبب ذلك عدد من الرعايا الأمريكيين . فعز ذلك في نفوس الأمريكيين وأثّر تأثيرهم عليهم ، ولكن احتمال إيقاع الضرر ببريطانيا وربما انضمامها بحصر بحري بواسطة الغواصات هدف كان لديهم من الظلم بحيث دفعهم إلى الإلحاح في حلة الغواصات هذه ومواصلة التزايد من النكير والعنف ، غير آبهين بمخطر جر الولايات المتحدة إلى صغوف أعدائهم .

وفي نفس الوقت كانت الجيوش التركية المزودة بأسوأ عتاد تبدي نحو مصر حركات التهديد خلال شبه جزيرة سيناء . وعلى حين كان الألمان يكتلون الضربات لبريطانيا على ما رأيت بطريق الهواء ومن تحت أطباق الماء ، وهي خصصهم الأشد قوة والأهد من منال أيديهم ، كان الفرنسيون والإنجليز كذلك مقبلين على هجوم ملحق في الشرق على جناح دول الوسط من طريق تركيا . وقد دبرت حلة غاليبولي أبلع تدبير ولكنها تفطت بأكبر معرة . ظلو أنها نجحت لاستولى الحلفاء على القسطنطينية في ١٩١٥ . ولكن الأتراك تلقوا إنذاراً قبل المشروع بشهرين وذلك عندما ضرب اللردنيل بالقنابل في فبراير ، وربما كشف البلاط اليوناني كذلك سر الحطة بخيافته ، وعندما تولت القوات البريطانية والفرنسية آخر الأمر في شبه جزيرة غاليبولي في أبريل ، وجدوا الأتراك قد أعدوا الخنادق لحسن إعتاد كما رأوهم مزودين بما يلزم لحرب الخنادق خيراً منهم .

واعتمد الحلفاء في ناحية المدفعية الثقيلة على مدافع السفن الفسخة ، التي كانت غير ذات جدوى نسبياً في تحطيم تحصينات الخنادق ، ومن بين الأشياء الكثيرة الأخرى التي فاتهم أن يقدروا وجودها احتمال ظهور الغواصات المعادية . فضاعت لذلك سفن حربية عظيمة حديثة ، هوت إلى نفس المياه الصافية التي مرت عليها سفن إيجرسييس يوماً ما إلى مصيرها المحتوم في سلايس^(١) . وقصة حلة غاليبولي من ناحية الحلفاء تجمع بين تلواهر البطولة وحوامل الأذى ، فهي قصة

(١) سلايس : انظر ليلام - ٢ من ٢٠٨ (ط ١) ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٤ من الطبعة الثانية . (لقرسم)

شجاعة وقلة القتل وقصة أنفوس ذهبت بلداً ومولوداً أطلكت وصية ضابعت ،
وبلغت حضيضها في استحباب مهين ثم في يناير ١٩١٦ .

وما يتصل اتصالاً وثيقاً بتطليد بلاد اليونان حيلة ذلك الزمان دخول بلغاريا
الحرب (في ١٢ أكتوبر ١٩١٥) . وقد غل ملك بلغاريا متردداً أكثر من ستة
قبل أن يتخذ قراراً حاسماً في الانضمام إلى أحد الطرفين . ولكن دفعه إلى ناحية
الدول الوسطى ما رأى عند ذلك من قتل البريطانيين في غاليلوى ، وقيام النموسين
والألمان في الوقت نفسه بهجوم عنيف في بلاد العرب . وبينما الصربون في شغل
شديد بالمغربين النموسين والألمان على ديارهم الدائرية ، حاصم الملك صربياً من
الكلف ، وماضت بضمة أسابيع حتى كانت البلاد قد خربت تماماً . وتقهقر
الجيش الصربي تقهقراً عظيماً عابراً جهال ألمانيا إلى الساحل ، حيث أخذ طوله
أسطول الحلفاء .

ونزلت قوة متحالفة إلى سالونيك . وانطلقت في البلاد نحو منستر ، ولكنها
عجزت عن تقديم أى مساعدة فعالة للصربين . وكانت عملية سالونيك هي التي ختم بها
مسير حملة غاليلوى . وإلى الشرق من ذلك في أرض الجزيرة (: العراق) قام
البريطانيون مستغلين في غالب الأمر جنوداً من المنود بهجوم جناح ياتق أبعد من
الأول حل الدول الوسطى . فأنزل إلى البر في البصرة جيشاً كلوا ما تكون الجيوش
حالة وعناداً في نوفمبر ١٩١٤ تهيؤاً للحملة التي تنظره ، ثم دفع نحو بغداد في السنة
التالية . فهاز بنصر عند المدائن (كتيبيون) حاصمة الأرشكيين والساسانيين العتيقة
وهي على مسافة خمسة وعشرين ميلاً من بغداد ، ولكن الأتراك تقوا أمداداً عظيمة ،
وتراجع البريطانيون إلى كوت الإمامة^(١) ، وهناك أحبط بالجيش البريطاني تحت
قيادة الجنرال تاونشند حتى ألجأه الجرح إلى التسليم في ٢٩ أبريل ١٩١٦

وكانت كل هذه الحملات الدائرة في الجوى وتحت ألبان البحر وفي الروميا
وتركيا وآسيا ثانوية بالنسبة للجهة الرئيسية جهة القصر في الأمر ، المستعدة بين

(١) كوت الإمامة : مدينة على نهر الفرات بالعراق ، وهي مركز لتجارة الحرب وصنع
الحاجات . (التبريم)

سويسرا والبحر . وهناك كانت حشود الملايين الرئيسية ترقد في خنادقها ، وتعلم في بطن الأساليب الضرورية للحرب العصرية العلمية . وحدث تقدم سريع في استخدام الطائرة . في بداية الحرب كانت الطائرة تستخدم أغلب ما تستخدم . الكشف بصقة رئيسية ، ثم استخدمها الألمان في إلقاء علامات تسترشد بهاد المدفعية . ولم يكن الناس قد سمعوا بعد بشيء اسمه النزال الجوي . ولكن في ١٩١٦ حدث الطائرات المدافع الرشاشة وأحدثت تقاتل في الهواء ، وكانت أهمية صرحهم الأعداء بالقتال تتزايد وضوحاً ، وقد طوروا فن التصوير الجوي وهو فن مذهن جداً . كما أن جميع الجانب الجوي من أعمال المدفعية سواء أتم بواسطة الطائرات أم بالونات المراقبة ، قد ألم به تطور هائل . ولكن القتل العسكري لم يفتأ يقارم استخدام الدبابة . التي هي السلاح الواضح القاتل في حرب الخنادق .

وكان الكثير من أذكى الناس خارج البانيرة العسكرية يفهمون هذا الأمر فهماً جلياً . فإن استخدام الدبابة ضد الخنادق كان تدبيراً واضحاً وضوحاً مطلقاً . ولقد ابتكر ليوناردو دافنشي دبابة ميكرة . وما أن انتهت حرب جنوب أفريقيا في ١٩٠٣ حتى ثارت في المجلات قصص تصف معارك خيالية تظهر فيها الدبابات . وعرض على السلطات العسكرية البريطانية نموذج كامل شغال لإحدى الدبابات قام بصنعه المسترج . ا . كرى (J. A. Corry) أحد أهالي لينز ، ولكنها بالطبع رفضت في ١٩١١ . والواقع أن الدبابات اخترعت ثم أعيد اختراعها من جديد قبل أن تبدأ الحرب . ولو أن الأمر كان كله بيد العسكريين لما استخدمت الدبابات على الإطلاق .

وكان المستر ونستون تشرشل وزير البحرية في ١٩١٥ - ١٩١٦ هو الذي أصدر على صنع أول الدبابات ، ولقي لإرسالها إلى فرنسا أشد معارضة واعتقها . فغلبت الحرية البريطانية وليس إلى الجيش بل إلى العلم العسكري باستخدام هذه المستحدثات . وكان رأى السلطات العسكرية الألمانية مفاداً لما كذلك . وفي يوليو ١٩١٦ شرع السير دوجلاس هايج القائد البريطاني العام في القيام بهجوم عظيم أحنق في اشتراق صفوف الألمان . وقد تقدم في بعض الأماكن بضعة أميال ، وهزم في

لبعض الآخر هزيمة تامة . وحدثت ملحمة هائلة في الجيوش البريطانية الجديدة . ومع ذلك لم يستخدم القائد الدبابات .

وفي صيف عظماء أخذ الفصل يصبح غير مناسب للقيام بهجوم متواصل ، ظهرت الدبابات لأول مرة في الحرب . فقد استخدم القواد البريطانيون عدداً قليلاً منها استخدماً لا يتلوى فيه كثير من الذكاء . وكان مقولها في الألمان حقيقاً ، فإنها أحدثت فيهم انزعاجاً لا يشبه ما يكون بالملح البالغ ، وليس إلى شكك من سبيل أنها لو استعملت في يولييه بأعداد كافية ، وأدار دقتها جنرال دو شوال رقيب وهمة هائلة ، لأخت الحرب على القوار . في ذلك الوقت كان الحلفاء أقوى من الألمان في الميدان الغربي وكانت القصة على وجه التقريب ٧ إلى ٤ . وكانت لروسيا وإن اقتربت سريعاً من مرحلة الإعياء - لا تخرج قتالاً ، وكانت إيطاليا تضغط على النموسيين ضغطاً شديداً ، ورومانيا قد دخلت من غورها الحرب في صف الحلفاء . ولكن الإسراف في إزهاق أرواح الرجال في شهر يولييه للكرات ذلك أوقف الحلفاء على حافة الكارثة نفسها .

وما أن اطمان الألمان لفشل البريطانيين في يولييه ، حتى انقضوا على الرومانيين . وشهد شه ١٩١٦ في رومانيا نفس المصير الذي حل بصربيا في ١٩١٥ . فالسنة التي ابتدأت بالتهفر عن غاليجولي والقسيم في كوت انتهت بسحق رومانيا وإطلاق مطبات الطلقات من جهود من الحزب الملكي في شوارع آتينا حلقة من الحارة الإنجليزية والفرنسيين نزلوا إلى البر . فكأنما كان قسطنطين ملك اليونان يتويأ بقود شعبه في أثر الملك مريدناك البقاراي . ولكن الساحل اليوناني أشد ما يكون تعرضاً للأعمال البحرية . فغرب الحصار البحري على بلاد اليونان ، واتصلت قوة فرنسية من سالونيك بقوة إيطالية آتية من غالونا لقطعها على ملك اليونان سبيل الاتصال بأصلاكه في أوروبا الوسطى . (وفي يونيو ١٩١٧ أجبر الحلفاء قسطنطين على التخلي عن العرش ، وتولى ابنه إسكندر العرش مكانه) .

وجملة القول أن بواحد الأمور كانت تبدو أقل خطراً على أميرالية آل هوفزولرن . نهاية ١٩١٦ مما كانت عليه بعد إنشاق الانفذاع الأول العظيم في المارد . وكان الحلفاء أضاعوا سنتين من القمص الذهبية . وكانت بلاد البلجيك وصربيا ورومانيا

وأجزاء عظيمة من فرنسا والروميا تحطها قوات ألمانية غشوية . وكانت الضربة للفسادة تمثل ثلث الضربة للفسادة ، وأشدت الروميا تفرح عند ذلك تهبوا للسقوط . فلو كان لدى حكام ألمانيا مسحة من حكمة لأبرموا معها صلحاً معقولاً في تلك الآونة . ولكن لمسة النجاح كانت قد أسكرت استعاليها . لإجم لم يريدوا السلامة بل للتصير ولم يريدوا خير العالم بل إمبراطورية العالم . وكان شعارهم : « إما سيادة العالم وإما السقوط » ، ولم يجد خصومهم لزاء شعورهم هذا بدا من مواصلة القتال حتى نهايته الفاصلة .

٩ - الحرب العظمى من انهيار الروميا حتى الهدنة

انهارت الروميا في بواكير ١٩١٧ . وفي تلك الوقت كلفت شدة الحرب الهائلة تأثيراً شديداً على كل الشعوب الأوروبية . فقد انسد نظام المواصلات فساداً عظيماً في كل مكان ، وانقطع الإصلاح المادي وتوقف استبدال وتجديد السفن والسكك الحديدية وما إليها ، وانصرفت المواد بجميع أنواعها وتدهورت إنتاج الأطعمة ونسجت من المصناعات بلغمير متزايدة من الرجال وتوقفت أعمال التعليم وتناقص باطراد ما احتاده الناس من أمن الحياة وزراعتها .

وكان يتزايد في كل يوم عدد السكان الأوروبيين الذين يقتلون من يظن وأحوال ألقوها ، إلى ظروف جديدة كانت تؤلمهم ، وتضيق عليهم وتشتتهم وتفسد أخلاقهم . ولكن الروميا كانت أول الدول وأكثرها مكابدة وعناء من جراء ما أصاب المدنية من زعزعة عامة خطتها من جلورها . ذلك أن الأوتوقراطية الروسية لم تكن شريفة ولا ذات كرامة . وكان القيصر شأن كبير من أسلافه قد استسلم لحالة تقوى جنونية ، وسلط على البلاط رجال دين ، هو راسبوين ، الذي كانت تحمله ذات حسنة لا تستطيع التحدث عنها فهي فضيحة صارخة في وجه العالم . ومن وراء حكم هذه القصرية القلعة ، كانت القنالة والبلادة تنمي لإدارة الحرب .

فكان الجنود الروم الماديون يرسلون إلى ميدان القتال بغير مدوية مضدهم ، وبدون ذخائر البنادق نفسها ، وكان ضباطهم وجرالهم يضيعونهم ويقتلونهم في حالة هديان من الحملة العسكرية . وظلوا زمناً ما يظنون في سميت كما تنظم البهائم ، ولكن

هناك حنا لتحمل الناس ، حتى أشنع جهلا . فكان يسرى في هذه الجيوش التي
ينظر برجلها كبرائهم ويشيعونهم ، شعور عتيق بالانتماء من القيصرية . ومنذ نهاية
١٩١٥ لما بدأ كانت روسيا مصدراً لقلق المزايد لدى حلفائها في الغرب . وظلت
طوال ١٩١٦ متخلة في الثأب خطة الدفاع ، وراحت إشاعات تذكر صلحاً منفرداً
مع ألمانيا . كما أن رومانيا لم تلق منها إلا مساعدة لا تذكر .

وفي ٢٩ ديسمبر ١٩١٦ قتل الراهب راسبوتين أثناء مأدبة غلله أقيمت في
بتروجراد ، وبذلك محاولة متعمدة لإعادة تنظيم القيصرية . وما وافى مارس حتى
أُعلنت الأمور تتقدم بسرعة ، فتطور الشعب على الطعام في بتروجراد إلى حصيان
ثوري ، وحلوت الحكومة إقاف جلسات مجلس الدوما ، وهو الحقبة الثانية ، كما
قامت محاولات القبض على الزعماء الأحرار ، وفككت حكومة مؤقتة تحت رئاسة
الأمير اللوف ، وتنازل القيصر عن العرش في ١٥ مارس .

ومضى زمان لاح فيه أنه حتى أن تنحصر الأمور عن ثورة معقدة معقدة غير
جامحة ، وربما كان ذلك في ظل حكم قيصر جديد . ثم أصبح من الجلل أن تترك
للشعب الروسي قد دعرت تمعيراً تجاوز كثيراً حدود مثل هذه التسويات . فإن الشعب
الروسي استندت به السامة من النظام القديم لكل ما في أوروبا من أشباه : من
القيصرية والحروب والدول الكبرى ، وكل ما كان يطلبه هو الراحة ، والراحة
للبرية مما كابد من شقاوات لا تطاق . ولم يستطع الحلفاء فهم ما في روسيا من
حقائق ، فإن رجال السياسة والديبلوماسية منهم كانوا أجهل الناس بالروسية ،
فإنهم لما كانوا من المهلبين الذين يواجهون اهتمامهم إلى البلاط الروسي لا الروسية
تسميا ، فقد وقعوا في الخطأ طو الخطأ حيال الموقف الجديد . ولم تكن الزراعة
الجمهورية لظفي كثيراً من رحابة الصدر من رجال السياسة والديبلوماسيين ، بل
ظهر منهم ميل جلي إلى مضايقة الحكومة الجديدة بأكثر قفر مستطاع . وكان على رأس
الحكومة الجمهورية الروسية زعيم يبلغ جذاب اسمه كيريسكي وجد نفسه هدفاً لهجمات
قوى سرية لحركة ثورية أبعد غوراً ، هي الثورة الاشتراكية في أرض بلاده ،
وموضع إهمال من الحكومات المتحالفة في الخارج . ولم يكن حقاؤه ليسمحوا له

يأن يحلّي الشعب الروسى مستقراً ولا سلاماً خارج حدودهم . فكانت الصحافة الفرنسية والبريطانية لاتحى تلاحق ذلك الحليف الميك بالمطالبة بهجوم قوى جديد ، ولكن عندما حدث لظهور أن الألمان قاموا بهجوم قوى على ريجيا بحرأ وبرأ ، علمت وزارة البحرية البريطانية خوفاً من احتمال القيام بحملة فى البلطيق لتسبب الروس .

وكان أن اضطرت الجمهورية الروسية الجديدة إلى القتال بلا معين وبالرغم من تسلط الحلفاء البحرى العظم ومن الاحتجاجات المريعة التى نشرها الأدميرال فيشر الانجليزى (١٨٨١ - ١٩٢٠) فلما نسجل أن الحلفاء قبا عنا قيام غواصاتهم ببعض السفنات ، تركوا للألمان السيادة المطلقة على بحر البلطيق طوال الحرب كلها . وكانت الجماهير الروسية مصرة على إنهاء الحرب . وقد ظهر لى عظم الوجود فى بروجراد هيئة تمثل العمال والجنود الماديين ، هى السوفييت ، وكانت طعم للهيئة تصخب مطالبة بمؤتمر دولى من الاشتراكيين يعقد فى استوكهولم . وكثرت برلين فى ذلك الزمان حوادث التخب من أجل الطعام ، واستبد السأم من الحرب بالألم والنسوين على السواء ، وليس لدينا شك إذ سنسعى الآن بنور ما أعقب ذلك من حقائق ، أن عند ذلك المؤتمر كان لابد معجلاً بصالح مقول على أسس ديمقراطية فى ١٩١٧ ومجلساً ثورية للثانية عاجلة .

وتوصل كيرينسكى إلى حلفائه فى الحرب أن يسمحوا لهذا المؤتمر أن يتخذ ، ولكنهم خشوا أن يحدث انتقاده انفجاراً للمذاهب الاشتراكية والجمهورية بهم العالم ، فرفضوا طلبه ، بالرغم من الاستجابة الحسنة التى أبدتها أغلبية صغيرة لحزب العمال البريطانى . وظلت الجمهورية الروسية المظتلة ، محارِب بلا معاونة مادية ولا معنوية من الحلفاء ، ثم قامت فى يولييه بمجهود هجوى سنينسكى أنصر . ولكنه فشل يد أن أصاب شيئاً من النجاح المبلى ، وزلت بالروسين طبعة أخرى كبيرة .

وكان احتمال الروس قد بلغ عندئذ أقصى مده . فثبتت فى صفوف الجيوش الروسية حركات التمرد ، وبخاصة فى الميدان الشمالى . وفى ٧ نوفمبر ١٩١٧ ، سقطت حكومة كيرينسكى وغلكت السلطة هيئة السوفييت التى يسيطر عليها

الاشتراكيون البلاشفة برياسة لينين ، وتعهلت بإبرام الصلح غير آبهة بالدول الغربية . وبذلك « خرجت » روسيا من الحرب بخروجاً قاطعاً .

وفي أبريل من ١٩١٧ قام الفرنسيون بهجوم في هلمبايا أعقب دون احتراق صفوف الألمان وكلف المغيرين أضرار الألمان ولم يأت بأية ثمرة . وإذن فقد جاء في نهاية ١٩١٧ دور من الحوادث أشد ما يكون مواساة لألمانيا . لو أن حكومتها كانت تخرب من أجل العثمانية وحسن الحال لا للفخار والانتصار . ولكن شعوب الدول الوسطى ظلت حتى النهاية نفسها وحتى بلغت أشد درجات الإعياء ، مقيدة بقاية ثابتة هي بذلك الجهد للوصول إلى النصر التام .

وللوصول إلى تلك الغاية لم يعد من الضروري حفظ مقاومة بريطانيا بل إخضاعها وإذلالها ، ولكي تبلغ ألمانيا تلك الغاية جرت أمريكا إلى دائرة أمثالها . فإن حلة المفاوضات ظلت تردد مدة طوال ١٩١٦ ، ولكنها كانت حتى ذلك الحين تحترم السفن المحايدة . وفي يناير ١٩١٧ أعلنت ألمانيا أنها ستفرض على بريطانيا وفرنسا حصاراً بحرياً أشد وأكمل ، وحطرت جميع الدول المحايدة بأن تسحب سفنها من البحار البريطانية . وابتدأت عملية إغراق لسفن العالم بلا تمييز ، مما اضطرت الولايات المتحدة أن تدخل الحرب في ٦ أبريل ١٩١٨ . وبينما روسيا تتداهى طيلة ١٩١٧ وتصبح غير قادرة على شيء ، كان الشعب الأمريكي يتحول بسرعة وإطراد إلى أمة حرة عظيمة . ولم تؤت حلة المفاوضات المتحلة من كل قيد التي من أجلها قبل الاستماريون الألمان خطر خلق هذا التحصم الجديد لأنفسهم ، - ما كان متوقفاً لها من توفيق . إذ أظهرت الحرية البريطانية أنها أوسع حيلة وأكثر ثقتاً من الجيش البريطاني ، ونحلت تطور سريع في الوسائل المضادة لقواصات تحت الماء ، وعلى صفحة وفي الغراء ، وبعد أن انقضى شهر أو أكثر من التسميمات الخطيرة المنخفض أثر المفاوضات كثيراً . ووجد البريطانيون أن من الضروري أن يمشوا على نظام جرابيات الأظلمة ، ولكن القواصد وضعت وضعتاً حثيثاً وأديرت بكفاية ، وأظهر الجمهور روحاً رائعة وذكاء كبيراً ، وأبعد عن البلاد خطر المحايدة والقوتوى الاجتماعية ، وإن على قيد وضع خطوات .

ومع ذلك فإن الحكومة الإمبراطورية الألمانية واصلت القتال . فلئن لم يتم المفاوضات بكل ما كان متوقفاً منها ، ولئن كانت جيوش أمريكا تتجمع للسحاب المطر الواحد ، فقد كان من المقطوع به أن الروسيا قد انهارت وزال كل خطر لها . وفي أكتوبر وجه الألمان نفس النوع من هجوم الخريف الذي أسقط صربياً في ١٩١٥ ورومانيا في ١٩١٦ إلى إيطاليا فسحقها سحقاً . فانهارت الجبهة الإيطالية بعد معركة كايورنو ، وانحالت الجيوش الخمسوية الألمانية في مقاطعة لبيزيا (Vesetia) حتى أصبحت على مرمى المساليع من مدينة البندقية . ومن ثم شعرت ألمانيا بأن لها ما يبرر التشدد لإزاء مقترحات الصلح الروسية ، وكان من أثر صلح برست ليتوفسك (٢ مارس ١٩١٨) أن أخذ الحلفاء في القرب فكرة من التصر الألمان ومقراء ومعتاه عليهم . ذلك أنه كان سلاماً ساحقاً فادحاً ، أمل مع أقصى ما قد يديه متعسر واتق مطمئن من الصلح والكبرياء .

وغلقت الجيوش الألمانية نفقذ طوال الشتاء من الميدان الشرقى للى الغربى ، والآن في ربيع ١٩١٨ سبق ما تبقى لألمانيا الجلمة المكشوفة للنازقة من الجلمة الكيلة الواحدة للقيام بالجهد الباقى العظم الذى قدر له أن ينهى الحرب حقاً وفعلاً . وبقيت القوات الأمريكية بضعة أشهر في فرنسا ، ولكن كتلة الجيش الأمريكى كانت ما تزال وراء الأطلسى . فكان ذلك أنسب الأوقات لتسديد الضربة النهائية للعبة الغربية إن كانت هذه الضربة ستسد يوماً ما .

فشيوا أول هجوم على البريطانيين في منطقة السوم . فخطوا على خرة قوات الخيالة غير الكبرى الدكا الذين طاروا ببولون القيادة في جهة لاشك أن الخيالة فيها عيب لاخفاء فيه . وفي ٢١ مارس في كارتل جورج Oange ، رد الجيش البريطانى الخامس في غير نظام حتى وصل إلى قريب من أميان . وكان التحاسد بين القواد البريطانيين والفرنسيين قد حال دون توحيد القيادة لجيوش الحلفاء في فرنسا ، ولم يكن هناك أى احتياطى عام أيا كان شأنه خلف جورج . فقد الحلفاء قرابة ألف مدفع ، وعشرات من آلاف الأسرى . وظل الألمان طيلة شهرى أبريل ومايو يطمرون الجهة المتحالفة بالمعجوم وراء المعجوم . وأوشكوا أن يحدوا نهر

مخوف الحلفاء في الشمال ، ثم دفعوا كل ما أمامهم دفعا إلى الماردن الذي وصلوه في ٣٠ مايو ١٩١٨

وكان هذا أقصى غاية الجهد الألماني . ولم يكن من وراءه من شيء إلا وطن منكم . ووضع المارشال فوش في القيادة العليا لكل الجيوش المتحالفة . وكانت هناك جيوش جديدة تسرح من بريطانيا نحو الميدان عبر القنال الإنجليزي ، وكانت أمريكا تصب عند ذلك الرجال بمئات الألوف إلى فرنسا . وفي يوتية قام النمسيون المتعبون بجهد نهائي في إيطاليا ، وانهاروا أمام هجوم إيطالي مضاد . وفي أوائل يوتية بدأ فوش^(١) يقوم بهجوم مضاد . ولما وافى يوتية كان المد أخذ ينحصر وأخذ الألمان يرتدون إلى الوراء . وأظهرت معركة شاتوبيري (١٨ يولية ١٩١٨) جودة صنف لـ جيوش الأمريكية الجديدة . وفي أغسطس افتتح البريطانيون طعنة عظيمة موقفة ، وتحالف الانبعاث في الخطوط الألمانية نحو أسيان ثم انهار . قال لودندورف : « كان يوم ٨ أغسطس يوما أسود في تاريخ الجيش الألماني » . وأكد الهجوم البريطاني في سيجبر على خط هندنبرج نصر الحلفاء .

إنهت ألمانيا وولت روح القتال من جيشها ، وكان أكتوبر شهر هزيمة وتفقرى على امتداد الحبهة الغربية بأكملها . وفي أوائل نوفمبر كانت الجيوش البريطانية في فالفنسيين والأمريكيون في ميدان . وفي إيطاليا كذلك كانت الجيوش النمسية في حالة تفقر غير منتظم . ولكن قوات آل هوهنزولرن وآل هابسبرج كانت تنهار آنذاك في كل مكان . وكان التحطم في النهاية سريعا سرعة منهشة . ولم يستطع النمسيون والإنجليز أن يصلقوا صفوفهم وهي تنشر يوما إثر يوم أخبار الاستيلاء على مئات أخرى من المخابض وألوف أخرى من الأسرى . وفي سيجبر ترتب على هجوم الحلفاء على بلغاريا اندلاع الثورة فيها وتقديم مقترحات للصلح . وأعطتها تركيا بالتسليم بـ لاقيد في نهاية أكتوبر ، وانحسار الأخير ٣ نوفمبر . وحاولت ألمانيا أن تخرج

(١) المارشال فوش (١٨٥١ - ١٩٢٩) هو مارشال فرنسا ، وكان له الفضل في صد الألمان ركبل الفرية النهائية ثم في انهيار الحرب . وفشل بحسب وليس حية أركان حرب جيوش الحلفاء ثم صدر لهما حيا . (القرم)

أسطولها ليقوم بالكر نزال ، ولكن البحارة تمردوا في ٧ نوفمبر . وفر القيصر وولى
للهمد . صجلة وبلا أقل كرامة إلى هولندا . وفي ١١ نوفمبر وكعت المدينة
ووضعت الحرب أوزلها .

لقد دامت الحرب أربع سنوات وربما بعد أن جرت إلى أنونها بالتدريج كل
إنسان تقريباً في العلم الغربي على الأقل . ويرى عدد من قتل فعلا أثناء القتال
على ثمانية ملايين فرداً ، كما مات عشرون أو خمسة وعشرون مليوناً آخرين بسبب
المصاب والوقوع التي ترتبت عليها . وقاس عشرات الملايين الأحرار أو ألم بهم
الضعف والفرار بسبب سوء التغذية والشقاء . وكانت نسبة عظيمة من الأحياء تشغل
حده ذلك في أعمال الحرب ، في التدريب والتصليح وفي صنع المقاتل وفي المستشفيات
وفي العمل بدلا من الرجال الذين انضموا إلى الجيش ، وما أشبه ذلك من أعمال .
وراح رجال الأعمال يكيفون أنفسهم وفقاً للأصايب المظلة التي لابد منها لمجمع
الربح في عالم محوط بالأزمات . فلقد أصبحت الحرب بالفعل جواً وعادة من
عادات الحياة وتنظماً اجتماعياً جديداً . ثم انتهت بقتل .

في لندن أعلت المدينة حوالي الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١١ نوفمبر .
فانجبت توقفاً صحيحاً في كل عمل روتيني عادي من أعمال الحياة . فخرج الكتبة
من مكاتبهم وأبوا أن يعودوا إليها ، وهجر رجال المحلات دكاكينهم ، وأخذ ساهو
سيارات الأومنيوس وسيارات التوري التابعة للجيش يقومون برحلات من تلقاء
أنفسهم مع من يركب معهم من جمهور ذاهل حائف لا مقصد خاصاً له ولا بهمة
أني ذهب به . وسرعان ما ازدهت الشوارع بمجاهير خفيفة مندهشة ، ورضت
الأحلام من أعلى كل بيت وكل دكان له حكمة . ولما حل مساء أثير بأسطح الأنوار
عدد كبير من الشوارع الكبرى التي كانت تظلم أنوارها خشيّة الظلمات الليلة .
وكان من المصيب جداً أن يرى الإنسان حشوداً متراخية من الناس تحت الأنوار
الصناعية من جديد . وشعر كل إنسان بأنه فقد النفاة في الحياة ، مع صرب من شعور
الارتياح المتأزم الموثم . لقد انتهت الحرب أكثر الأمر . لن يقتل بعد تلك أي إنسان
في فرنسا ولن تحدث أية غارات بحرية على لندن ، وسيصبح كل شيء على ما يرام .

وأراد الناس أن يضحكوا وأن يبكونا فلم يملوا إلى الضحك ولا البكاء ميلاً .
 وأخذ الشباب الناهض والجنود الذين في أجازات الراحة يكونون مواكب هزيلة
 صاخبة كانت تشق طريقها خلال الجماهير المتحركة ، وتبذل قصاراها الصبر عن
 المراح والسرور . وجرت الجماهير ملطخةً ألثاماً من القتلى من الهول مول^(١) ،
 حيث نصب للميان عدد عظيم منها (أى القتلى) ثم جرى إلى ميدان الطرف الأخر
 حيث أحرقت مركبته . وكانت الصواريخ ومفرعات الأطفال تلقى في كل مكان .
 ولكن مظاهر السرور المتجمع كانت قليلة . فإن كل إنسان تقريباً قد خسر كثيراً
 لو نلّم كثيراً حتى لم يعد يستطيع أن يفرح بأى قدر من حماسة .

(١) الهول مول : شارع عظيم يمتد بالقرب من حديقة سان جيوس وقصر بكنجهام
 (البرج)

الفصل التاسع والثلاثون

عشرون سنة من التردد

- | | |
|---------------------------|------------------------------------|
| ١ - دور إجهاد خلقي | ٧ - الترتيب الأقصى والأدنى |
| ٢ - الروس ولسن في قرمي . | ٨ - القيصر والفرنسيون والبريطانيون |
| ٣ - دستور صهيبة الأمم . | ٩ - الإجهاد العظيم في ١٩٢٩ . |
| ٤ - مساعدات ١٩١٩ - ١٩٢٠ . | ١٠ - المملكة الإسبانية . |
| ٥ - البلشفية في روسيا . | ١١ - قلم التاريخي . |
| ٦ - دولة أربعة الحرة . | ١٢ - العالم يهز عن الحرب . |

١ - دور إجهاد خلقي

كان علم الحضارات الأوروبية الغربية في السنوات التي أعقبت نهاية الحرب العظمى أشبه شيء بوجع لبريت له حملة جراحية خطيرة خطيرة تمت كاموا وأنشئت ما يجري العمليات ، حتى لقد أنقضى في شك إلى استطاعته أن يواصل الحياة أو أن يكانه بلغ من التزلزل وبلغت إصابته من الخطورة الحد الذي يقرب بينه وبين ميته . كان عالمنا ذاهلا مأحونا مهوتا . هزمت فيه الروح الاستعمارية العسكرية ، ولكن بمن يهبط فادح ، بعد أن أصبحت ذات يوم قلب قوسين أو أدنى من النصر . وعاد كل شيء إلى مجراه بعد أن زال التأزم الشديد الذي ولده النزاع ، وإن كانت العودة في شيء من التراخي والوهن وبطريقة عاصفة متقلبة . كان هناك نشأ عام إلى السلام ، وحينئذ عام إلى ما خلفه الناس أثناء الحرب من سيرة ورجاء ، دون وجود أي قوة هزيمة تحصل للناس على هذه الأشياء وتحتفظ بها في أماكن :

ولقد حل الفساد بكثير من النواحي . وكما حدث في حالة الجمهورية الرومانية إبان حنة الحروب البونية ، فقد انصابت الآن أيضا عظام حارمة من العنف والقساوة . وأصبحت أخلاقيات الشؤون المالية والاقتصادية باطلال كبير . فإن أرواسا كريمة

ضمت بنفسها رخيصة في سبيل مطالب الحرب المستعجلة ، ولكن فكرة الرجال وصقلهم على الأعمال والمال ظلوا يرقبون فرس الزمان العvisية الخلابية حتى استطاعوا أن يقبضوا بيد من حديد على موارد بلادهم وحل مقاليد السلطان السياسي فيها . إذ استحوذ على القوة والسلطان في كل مكان رجال كانوا يطعون مغامرين مريبين مشهوراً في سمعهم قبل ١٩١٤ على حين كدح من هم أفضل منهم بغير طائل . وكان من السبيل إيقاف هذه الطبقة ، طبقة الأغنياء الخلقى الغنى والأكرام الحقيقى القوة عند حنهم في هذا الدور من الانهالك الذى أحبط الحرب .

وتمت أثناء الحرب في كل البلدان التجارية تهرباً تجارب خارقة في الإدارة الجماعية . إذ أدرك المسئولون أن الوسائل العادية لتجارة أو ان السلم من أمثال الماسكة في السوق وانسك انتظراً لصعقة ملائمة ، أمور لا تنقيم مع حاجات الحرب السريعة . فوضعت تحت الرقابة العامة ، شئون النقل والوقود ومواد الغذاء وتوزيع المواد الخام التى لم يقع الأمر فيها عند حد القياب والإسكلا وما أشبهها وحطها ، بل كل شىء لازم لمهمات الحرب .

ولم بعد من حق الفلاحين أن يتروكوا شبراً من أروضهم لا يستظلونه في الزراعة أبداً استغلالاً ، ووضعت الماشية في حظائق النزلان وحرثت أراضي الكلا ، سواء يرشاه صاحبها أو بغير رشاه . وقيدت عمليات مبانى الرف وعمليات تحمين مراكز الشركات في ميدان المضاربة . والواقع أنه تأسس ضرب من دولة الطولوى الاشتراكية في معظم دول أوروبا المتصارعة . كانت عملية تنطوى حل الارتجال والفتجاجة والاسراف ولكنها كانت أجلى من مغلطات اقتناص الربح الذى لانهاية له ، وأصلح مما كان يأتيه أصحاب المشاريع والمسامى الخاصة ، من احتكار ومن اختزان للمواد ومن إنتاج لا تربط بين أجزائه .

كذلك هم الناس في سنوات الحرب الأول في كل الدول المتصارعة شعور عيم بالآخرة وبالحاجة إلى تأدية الخدمة من أجل المصلحة المشتركة . وكان عامة الرجال يضحكون في كل مكان بالنفس والصحة من أجل ما اعتقدوا أنه غير الدولة العام . ولطالما تلقوا مقابل هنا وهدوا بأن الظلم الاجتماعي سوف يتناقص بعد الحرب ،

وسوف يزداد الإخلاص العلم المصلحة المشتركة ويصبح أمم وأهل . في المجردة
مثلا كان المستر لورد جورج مصراً بوجه خاص على جعل بريطانيا بعد الحرب
وأرضاً تليق بالأبطال . وأخذ يتنبأ بلوام هذه الاشتراكية الجديدة التي أوجدتها
الحرب ويقائنها إلى زمان السلم بخطب ألقاها مليئة بالحماسة والروعة .

وأنشئت في بريطانيا وزارة للتصميم ، كان مفهوماً أنها تخطط نظاماً اجتماعياً
جديداً أحدث وأكرم ، وظروفاً للمال أحسن ، وإسكاناً خيراً من الموجود ،
وتوسعة لنشر التعليم ومراجعة كاملة وعلمية لنظام الاقتصاد . وكانت كلمة
التصميم ، تضي على حياة الناس لوناً جيلا ونحو آمال للجماهير المحزونة في كل
مكان . كذلك بذلت جهود جبلة كهذه تبشر بعلم أفضل فأجبت آمال عامة جنود
فرنسا وألمانيا وإيطاليا وقوت من عزائمهم . ولكن سائر هذه الخبيثة انكشف
في روسيا مبكراً فأفضى إلى اتجارها ، ولما كان يسرى في أمة الناس في
أوروبا الغربية غرب نهاية الحرب تياران من الآمال للترقية كل منهما خطر على
أخيه . فكان الأتقياء والمغامرون وبوجه خاص المستولون لشروف الحرب
يندرون خططهم لمنع تطورات من أمثال أن يصبح القتل الجوى ملكاً للدولة ،
ولاخطاف الصناعات وإدارات السفن والمواصلات الجوية وتجارة مواد الغذاء
الرئيسية والمخدمة العامة على وجه العموم ، واستردادها من يد الدولة مرة ثانية
إلى قبضة طلاب الأرباح المخصوصين . ومن أجل بلوغ تلك الغاية أغلوا
يؤمنون مقلداً بإحتياز الصحف ويشغلون أنفسهم بالجدل الحزبية وما إليها ،
على حين كانت جماهير الناس من الناحية الأخرى ، تتشخص أماماً في مصلحة
انتظاراً لحالة للجماعة الإنسانية يكون الرائد في تخطيطها هو مصلحتهم فقط
ويكون الأساس أفكار عامة بحية . وتاريخ ١٩١٩ يظب عليه الاصطدام
بين تباري الآمال المرتقبة هذين . وسارعت حكومة رجال الأعمال ، التي
في الحكم إلى بيع كل مشروع عام مريع إلى المشايخين المخصوصين .

وبعد منتصف ١٩١٩ كانت جموع العمال في أرجاء العالم كافة تتأله الرجاء بحية
ظاهرة ومتملة غاضبة كل الغضب . ذلك بأن زلزلة التصميم البريطانية ،

وضرباتها في البلدان الأجنبية انخلت خدعة للبيون ترى إلى تهلة الأعصاب .
 وشعر الرجل النائم بأنه قد خُدع . فلي يكون هناك تعب ، بل استرداد
 للنظام القديم ليس غير - ولكن على صورة أشد كآبة وبشاعة عليها ظروف
 الفقر المتشوي في هذا الزمن الجديد .

وقد ظلت مأساة الحرب أربع سنوات وهي تعجب المسألة الاجتماعية التي كانت
 تطور في الحضارات الغربية طوال القرن التاسع عشر . والآن وقد وصفت الحرب
 أوزارها ، فإن هذه المسألة ظهرت بجهة الشكل حارة مجردة ، على صورة
 لم يرها الناس من قبل .

وبما زاد تلك الاستكارات والصعاب شدة وزاد من أثر ماعم العظم من علم
 طبائنة في هذا الزمان الجديد ، ظهور اضطراب عميق أصاب للفرد والائتمان^(١) .
 فإن الفرد وهي نحو مقد من الأوصاف والتقاليد أكثر منها نظام القيم ، سحوت
 داخل الدول المتحاربة من سند معيار للمع^(٢) . إذ احتفظ الناس بالذهب للتجارة
 للولبة دون غيرها ، وكانت كل حكومة أفرطت في إصدار روق للفرد لاستعماله
 داخليا . حتى إذا لمحتل حواجز الحرب بات للداول الدولي سربا من الاضطراب
 المترجع تأريجات جنونية ، ومصلو غم وكرب لكل الناس فيما هنا عدد قليل
 من القامرين والمبارين . فصاعدت الأسعار وتضاعفت - وكان لذلك أسوأ الأثر
 على كل كسب أجر . فصاحب العمل يقاوم كل مطالبة له بزيادة الأجور ؛
 على حين كانت شئون الطعام والسكن والياب تحتكر لغير مصلحته وتبطل
 كامله . أضف إلى ذلك أضرأ هو أخطر ما في الموقف وهو أنه أخذ يفقد كل
 قوة الخطة في نفسه قط في أن يؤدي أي صبر من ناحية أو إقبال على الصناعة
 إلى التخليف حفا من ذلك الإعواذ وتلك التعاب التي كان يقاسى من
 جرائها ما يقاسى .

(١) الائمان (Credit) هو في علم الاقتصاد القوة بأن يبلغ الشخص من الإنتاج مخرجا .

(المترجم)

(٢) معيار الذهب (Gold Standard) التثبيت القانوني لإحدى العملات على ما يعطى من

الذهب . (المترجم)

وكانت الحاجة ماسة إلى المنزل في معظم الأقطار الأوروبية . إذ توقف الناس طيلة الحرب لامن البناء وحده بل عن الإصلاحات كذلك . وبلغ النقص في المنازل في ١٩١٩ إلى رقم يتراوح بين ٢٥٠,٠٠٠ إلى مليون منزل في بريطانيا وحدها . وتكاد الأحوال في ألمانيا وفرنسا أن تكون أسوأ وأتكى . فكان جامهر ضحية من الناس كانوا يعيشون في حالة من التزلم الشديد تُسخط النفوس ، وكان أوقع أنواع الاستغلال الجشع الشفق والبيوت يحدث في كل مكان ، كان الموقف حسيماً وإن لم يكن مستحيلاً . فلو اتبعت نفس الحاجة والممة ونقصية الذات التي طلعت التقلب على الأزمة المالية في ١٩١٦ ، لأمكن القيام بالواجب الأكثر سهولة بكثير ، واجب إنشاء مليون من المنازل ، في مدى سنة أو أكثر قليلاً . ولكن الاحتكارات كانت تضيق الخناق على مواد البناء ، وكان النقل في حالة غير منتظمة ، ولم يكن بناء المنازل يعود على أصحاب المشروعات الخاصة بالإيجار الذي يكون في متناول من يحتاجون إليها من الناس . ولذا فإن أصحاب المشروعات الخاصة^(١) ، وهم أبعد ما يكونون عن الاهتمام بالحاجة العامة إلى المباني ، تصهروا مهمهم على الاحتكار والمضاربة بالإيجارات وبالتأجير من الباطن . وكان الحال عند ذلك يستلحق أن تقدم الحكومة المنح لفهوض بالمشروع لكي يكون بناء المنازل عملاً مريحاً .

وتم مثال آخر نسوقه هنا دليلاً على عدم كفاية نظام الاستغلال الجشع في حل مشكلات ذلك الأوان ، فقد حدث تكس شديد البضائع في المستودعات وترجع في أنظمتها ، بسبب نقص وسائل النقل على الطرق البرية مما يكتفى . فكانت الحاجة ماسة إلى السيارات الرخيصة حتى تنقل البضائع والبمال من مكان إلى آخر . ولكن أصحاب المشروعات الخاصة في صناعة السيارات تصوروا أنه مما يزيد في أرباحهم كثيراً أن يشتجروا عربات فاخرة غالية الثمن من أجل أولئك الذين ملأت الحرب جيوبهم بالماله . وكان من أيسر الأمور أن تُحول مصانع

(١) أصحاب المشروعات أو الماسي الخاصة (Private Enterprise) : هم المليون الذين يقومون باستثمار أموالهم في الصناعة وغيرها . (الترجم)

المهمات وهي مبنية بحال مطروح قديماً إلى مصانع لإنتاج السيارات الرخيصة بالجملة ، ولكن الرأسماليين أصحاب المشروعات المصرية أمروا على أن تبيع الدولة تلك المصانع ، فلامم لا تقوا حاجة الجمهور بأنفسهم ، ولا هم منحروا للدولة بأن تضل ذلك . كذلك أيضاً أمر أصحاب المشروعات الخاصة - والعلم في أفضح المن واللتأهب بسبب نفس المغن - على اخلاق مصانع المغن التي أنشأها الدولة حديثاً . وترزع النقد في كل مكان ، ولكن أصحاب المصنعي الخاص كانوا في شغل بشراء وبيع الممتلكات أو الممتلكات وزيادة الحال حرجاً .

تلك حقائق لا بد لمؤرخ الإنسانية أن يلاحظها بأقل قدر مستطاع من الصلح . فلئن صاحب المصنعي الخاص في أوروبا ١٩١٩ و ١٩٢٠ لم يظهر رغبة ولا كفاية لمقابلة حاجات ذلك الزمان الماسة . ولم يكادوا يتشعرون بانطلاق أيديهم من قبضة الرقابة حتى انسابوا انسياً طليعاً إلى المضاربة والاحتكار وإنتاج الترف . وصاروا في طريقهم طريق الحصول على أقصى ما يستطيعون من الأرباح . ولم يظهروا أى إدراك لما يتكهنهم من اضطار ، كما كانوا يقاومون كل محاولة للحد من أرباحهم أو جعلها معتدلة ، أو الحصول إلى طريق الخلاصة والإفادة ولو كان ذلك في مصلحتهم .

واستمر هذا في وجه أبلغ مظاهر التكره المفرط من جانب جمهرة السكان الأوروبيين ، تلقاء ما يقاسونه من الحرمان والمناصب المملوءة الأمد . وكانت هذه الجماهير تعيش في ١٩١٣ كما عاشت منذ مولدها ، وكانوا يألفون نوع الحياة التي يعيشون . فلما جاءهم ١٩١٩ فهم من الناحية الأخرى ، قوم انزعجوا من ديارهم في كل مكان لكي ينخرطوا في الجيوش ولكن يذهبوا إلى مصانع المهمات ، وهكذا قدوا عادات الرضا والسلم بالواقع ، وخذوا أشد جرأة وأقل في التصرف تصرف الياسين . وقد مرت جماهير عظيمة من الرجال في أدوار تدوير يفت فيهم الوحشية الصارغة ، كالتهريب على السونكي مثلاً ، فطمسوا القضاة والشرطة ، وقتلت مبالاهم بارتكاب القتل والتهرب له على السواء . ومن ثم أصبح القتل الاجتماعي أشد خطراً بكثير .

ولم يكن الأمر أن الجماهير كان لها أخطاها أن لها خطة نظام جديد اجتماعي وسياسي واقتصادي. إذ الواقع أنه لم يكن لهم خطة ولم يكونوا يستقنون بأن لهم خطة. ولم تكن الفلاسفة التي أومأنا إليها في خطة الاشتراكيين خافية عليهم. بل كان الأمر يتعلق بشيء أشد خطرا من ذلك بكثير. فلك أنهم بلغ من ضلالتهم حتى للنظام الحاضر وما فيه من ثوب وسرف وتعايسة عامة، أن أصبحوا لا يأبهون بما يحدث من بعده ماداموا يستطيعون تدميره. كان هذا عودة إلى حال عقلية قارن بذلك التي مهدت السبيل لتفكك الإمبراطورية الرومانية.

أعلنت قوى الثورة تتحرك في كل مكان في أوروبا ولاسيما في إيطاليا وألمانيا. وأبدت الشيوعية في إيطاليا روحا صليبية غير عادية. فظهر مهندسا شيوعيون في نواح مختلفة من إيطاليا، وجرت في بولونيا صولة مشفوعة بالقوة لتنفيذ مبادئ الشيوعية عمليا. وفي يوليو ١٩٢٠ حولي جويلية وهو من دعاة الحياض الذين حارضوا الحرب، رئاسة الحكومة مكان الشيورين. فقام بشجارب متفرعة في «التشارك» بين عمال المصانع وأصحابها. وفي سجن استولى العمال على كثير من مصانع الصلب وغيرها من المصانع وأغلوا يديرونها على أسس اشتراكية. ولقيت هذه التصرفات تفضيلا ومصادقة من الحكومة.

ولاستمر الانزلاق نحو الشيوعية طوال ١٩٢١ في وجه مقاومة متجمعة، وشبت الفتن والأعمال العنيفة في فلورنسا وترينتا وروجليا وبززا وأماكن أخرى كثيرة. ذلك أن تدابير جويلية الرامية إلى صمغ البلاد بالاشتراكية (تشريكتها) ألغيت إلى رد فعل عنيف بين الطبقات التي تمسك الملكية الخاصة، وشأت منظمة للشباب هي جماعة القماشست الذين جعلوا منهم الميزة الشعر الكثيف والقمصان السود والقومية المفرطة الشدة ومناهضة الاشتراكية (Antisocialism). كانوا يقابلون العنف بالعنف، ويلعبون به درجات من التطرف لأعهد للناس بها، فأنشأوا عهد لإرهاب مضاد للإشتراكية. ووجدوا لهم زعيما ذا هممة عالية

وروداع أخلاقية واضحة هو بنيتوموسوليني ، وكان لها قبل ذلك صفياً رادبكاليا^(١) ، ومرعان ما تطلبت الفاشستية تحت إدارته للأمة على اعتداءات الشيوعيين المتفرقة العاطفية . وكانوا يقطعون الطريق على الزعماء والكتاب المتحررين ثم يضربونهم بالبراولات . وكانت هناك طريقة حيية إلى الفاشستين هي أن يعطوا جرعات كبيرة من زيت الخروع إلى من ينتقدون تصرفاتهم . وأصبح القتل والضرب والتصليب وإحراق الأملاك الخاصة للمفكرين المتحررين هي وسائل الرقابة الاجتماعية في إيطاليا . فكان حكم الماسر قد حل محل شبح الشيوعية البعيد .

وبلغ الفاشيون في أكتوبر ١٩٢٢ حقاً من القوة أتاح لهم أن أصبحوا في الواقع جيشاً حقيقياً وأن امتطعوا للزحف على روما . وأعلنت الوزارة الأحكام العسكرية واستمدت القتال ، ولكن الملك أبى التصديق على هذه التدابير ودعا موسوليني لتولي مقاليد الأمور . فلبى الدعوة وأصبح رئيساً للحكومة ، ووافق على حل فرق القمصان السود - وهو وعد لم يبره أبداً . ووضع الفاشيون موضع اللجنة على البوليس وعلى قوات البلاد المسلحة ، وقضوا على حرية الصحافة وأصبحت الانتخابات مهزلة من المهازل ، وظل الفاشيون يهاجون أعدائهم السياسيين ، وبقون في قلوبهم الرعب ويخالفونهم . بينما أصبح موسوليني بلقب الدوتشي^(٢) ديكتاتوراً حقيقياً ، على حين أعلنت أهمية الملك مهمل نسبياً .

ومضى رومان استرجعت فيه إيطاليا ضريباً مميماً من الكفاية الاقتصادية الخشنة التي لعبت استئصاناً عظيماً في بعض الموائير الأوربية . ولكن موضع اهتمام العالم بأسره بالموقف في إيطاليا ، كان منحصراً في التجربة التي مرت بها إذ تجمل فيها على أعشن الأشكال وأشدقاً فحاجة مادية اليسار المتطرف واليمين المتطرف في الشؤون الإنسانية المعاصرة . ولها ظهرت قلة كفاية الأولين وانعدام السمة العملية لليسم ، كما تجلّت السرعة التي ينحدر بها إلى العنف وتقطع الطرق أصحاب المالكيات والمشروعات الخاصة ،

(١) رادبكال - حزب يتطرف يدعو إلى التغير التام في السياسة والإصلاح القتال (الفرع)

(٢) دوتشي - مثلاً الزعيم . (الفرع)

حينما يضطرون إلى التزام خطة الدفاع . وقد أصبحت إيطاليا كالدروب حجة لكل إنسان حر العقل ..

وإنك لتجد ذلك المرض المتسلل وأخوه به مخالفة القوانين التي سبق أن ذكرناه في نقاشنا لرواية ستوكي وشركاه لرد يارد كهلنج ، - زاهياً زاهراً في حقن القطرير . - على أن إيطاليا لا تقف بمفردها في هذا المضمار ؛ وإنما هي أشد الأحوال اكتمال تطور وسط نزعة مت هذا الزمان كله . لأن الفاشية وجدت في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى مطالبين ومقلدين ، ولكن نشاطهم في تلك البلاد وإن أصبح مضاعفاً أو لزاجاً إلا أنه لم يصل إلى مرتبة الطغيان والاستبداد شأنه في إيطاليا :

٢ - الرئيس ولسن في قرساي

أشرنا من قبل إلى تفضي القروض الاجتاعية والاقتصادية في جميع المجتمعات الأوربية إبان السنوات التي أعقبت الحرب ، وذلك قبل أن نصل إليك بأي بيان عن العمل الذي بذل في التنمية العالمية التي كان مركزها مؤتمر الصلح في باريس ، وكان مرد ذلك أن حالة إشغال اليال والقلق التي لحقت كل من يشتغلون بالمشاكل الخاصة من أمثال الدخل والأسعار والعمل وما إليها ، - كافية تماماً لتضيق جو الإجهاد الذي تقدم فيه ذلك المؤتمر نحو الواجب الضخم الملحق عليه . وليس يجوز للإنسان أن يتوقع حياة عامة قوية على حين يشمل الفهم والارتباك حياة الأفراد .

وتتصور معظم قصة المؤتمر حول مغامرة رجل بهيمة ، وهو أحد أولئك الرجال الذين تتخبطهم المصادفة أو الصفة الشخصية وتتخذ منهم طرازاً تتخذ به إلى تخفيف الصبغة عن المؤرخ . ولقد أصبحت في كتابنا هذا شيئاً كثيراً من الراحة في تركيز انتهائنا على شخص بعينه إما أن يكون بودا ، أو الاسكندر الأكبر أو يوان تشوانج أو الإمبراطور لودريك الثالث ، أو شارل الخامس ، أو نابليون الأول مثلاً - وأن تتخذ منه برباساً يمسك النور على الزمان الذي يعيش فيه . وأسهل زاوية ننظر منها خلاصة الحرب العظمى هي زاوية ارتقاء الرئيس الأمريكي ولسن مراقب الأهمية العليا في مياه آمال العظم وانتباهه ، ثم فشله في تقرير تلك الرغبة .

وكان الرئيس ولن (١٨٥٦ - ١٩٢٤) نياً صلف من أياه عالمياً مبرزاً ومولماً خليماً للقانون الدستوري والعلوم السياسية عامة. وقد شغل مناصب جامعية كثيرة ، وتولى رئاسة جامعة برنستون (Princeton) بنيوجرسي . وإن هناك لقائمة طويلة من الكتب تشهد له بالكفاية وتبدي فيه ذكاءً متجهاً انجهاً كلباً إلى التاريخ الأمريكي والسياسة الأمريكية . تقاضاه عن الفصل العلمي وانتخب حاكماً لولاية نيوجرسي في ١٩١٠ . وفي ١٩١٣ رشحه الحزب الديمقراطي لرئاسة الجمهورية ، وأصبح رئيساً للولايات المتحدة نتيجة لخلاف عتيف شجر بين الرئيس السابق ووزظت والرئيس ثالث ، تصدح بسية الحزب الجمهوري صاحب السلطان .

وكأنما أخلدت أحداث أغسطس ١٩١٤ الرئيس ولن ومواطنيه على مرة . فلما نراه يرسل برقية في ٣ أغسطس يعبر فيها عن استعظام التوسط . ثم أخذ يرالب النزاع روحاً من الزمان هو وأمريكا . وقد لاح بادئ الرأي أنه لا لقب الأمريكي ولا رئيسه كانوا يفهمون بهما واضحاً ولا فهماً حيقاً تلك الكارثة التي تجتمعت قوامها في زمن غير قصير . فقد أقاموا تقاليدهم لزناً من الزمان على علم الاحكام بأمر العلم القديم ، ولم يكن تغيير هذا الانجها بالأمر المبني . على أن الصلفه الإستعماري الذي أبداه البلاط الألماني ، وما زعمه بعض الناس من ميل السلطات العسكرية إلى بث اللحر الميودري ، وغزوم بلجيكا ، واستعمال الغاز السام ، ومضايقتهم العلم بحملة المفاوضات ، قد أوجعت في الولايات المتحدة صلاءً للألمان لم يبرح يزداد حنة وعقفاً مع تقدم الزمن بالحرب . ولكن ما درجوا عليه من تقاليد علم التخلخل السياسي في شؤون أوروبا ، وذلك الاحتجاج للسبق الأسبق القائل بأن أمريكا من الخلق السياسي ما يسمو على خلافات أوروبا كل السمو ، منعت الرئيس عن التخلخل الفعلي . فالتخذ نعمة الترفع والتساي . وصرح بأنه غير مستطيع أن يحكم على أسباب الحرب الكبرى وحداثها . واتخذ لنفسه موقف محاكمة ودعوة إلى التهلكة يرجع إليه الفضل في إعادة انتخابه لرئاسة الجمهورية .

ولكن حال العلم لا ينصلح بمجرد النظر إلى نقطة السوء نظرة علم استحصان شاملة لا تكاد تميز بين هذا وذلك . وعند نهاية ١٩١٦ شجع الألمان على الاحتجاج

بأن الولايات المتحدة من تدخل الحرب بأى حال ، وفي ١٩١٧ ابتدأوا حملة الغواصات التي لا تتقيد بشيء وإغراق السفن الأمريكية بلا إنذار . وجرت هذه الحملة الأكثرية الرئيس ولسن والشعب الأمريكي إلى الحرب جراً . كذلك دفعوا كرها إلى محاولة تحديد علاقتهم بسياسة العالم القديم على أسس أخرى غير مجرد التعالي والتباعد . وتغيرت أفكارهم وخلقهم بنهاية السرعة . فدخلوا الحرب في صفوف الحلفاء وإن لم ينضموا معهم في أى حلف . خاضوا الحرب باسم مدنيهم المعاصرة ، لكي يوقعوا النكائد بالمتلبين ويقتوا من موقف سياسي وعسكري لا يطاق .



(شكل ١٥) الرئيس ولسن

والأحكام المترتبة المثانية كثيراً ما تكون خير الأحكام . فإن الرئيس ولسن حاول في سلسلة من « المذكرات » أطول وأكثر تنوعاً من أن تحملها لمعالجة التضييعة في هذا الكتاب ، حاول وهو في حالة تشبه من يفكر بصوت مرفوع على مسبح من العالم قاطبة ، أن يبين التبروق الجوهرية بين الدولة الأمريكية وبين دول العلم

القديمة الكبرى . وبسط الناس فكرة العلاقات بين الدول بحيث على نصف الكرة الشرق بأجمعه هبوط التزليل ، هبوط أمل في نشوء علم الفضل .

وكان المأمول بمقتضى هذه الفكرة أن تتوقف الاحتمالات السرية ، وتزور « الأمم » مصالحها بأنفسها ، ويكتف الناس عن الطوان السكوى وتصبح طرق البحار حرة مباحة للبشرية كافة . فهذه الأمور المعادية للثألوة لدى الفكر الأمريكى ، هذه الرغبات الخفية المسخرة في نفس كل سليم العقل ، هيئت على ما كان يخيم على أوروبا من ظلمة الغضب والزعاع هبوط نور عظيم . وأخيراً شعر الناس أن صفوف الديبلوماسية قد تصدعت ، وأن أفتة « سياسة » الدول العظمى قد تمزقت لرباً . فهنا عبر الرئيس بنهاية الوضوح وبما له من سلطان وما وراءه من قوة شعب قوى جديد من رغبة الرجل العادى في العالم بأجمعه

وواضح أن الموقف كان يستلزم وجود هيئة حكومية ذات يد مطلقة لتقيم أركان القانون العالمى وتحافظ على سريان هذه القواعد العامة الإيجابية للحرورية على علاقات الناس بعضهم ببعض . وكم من خطة خلق بها خيال الناس للوصول إلى تلك الغاية . وكانت هناك بوجه خاص حركة ترى إلى إنشاء نوع ما من العصبة العالمية ، هى « عصبة الأمم » . فاستعمل الرئيس الأمريكى هذه العبارة وحاول أن يحققها . فإنه صرح بأن للشرط الضرورى للسلام الذى كان يشهد هو إقامة صرح هذه الأداة الاتحادية (الفدرالية) . كان المقروض أن تكون عصبة الأمم هذه محكمة الاستئناف النهائية في الشئون الدولية . وكانت على أن تصح الجسم المادى المحقق للسلام . وهنا كذلك أثار الرئيس صدى هائلاً .

وأصبح الرئيس ولسن أمد روح من الزمان الخطيب المتحدث باسم عصر جديد . واستمر محظوظاً بهذه المكانة الرشيقة في حين للمعلم القديم طوال الحرب وبعد انتهائها بزمان قصير . فلما في أمريكا حيث كانوا يعرفونه خيراً منا فكانت حوله غمامة من الشكوك . ونحن إذ نكتب الآن وبين أيدينا عظيمة الأحداث التالية ، نستطيع أن نهمم هذه الشكوك . فإن أمريكا طورت طوال قرن ونصف قرن قصتها في الاعتزال والامتناع مثلاً علماً جديدة ومبادئ في الفكر السياسى مستحدثة ، دون أن تترك

إدراكاً بعيداً أن هذه المثل العليا والمبادئ قد تستلزم تضحية حاراً صادقاً في حالات الشدائد والخطر . وكانت هناك أشياء عديدة تمد في نظر مجتمعتها من السمات بيننا هي عند مجتمعات العالم القديم ، التي كان لا يزال متورطاً في المعتقدات السياسية



(شكل ٢١٦) كليمنصو

المهيدة ، بمثابة إنجيل يخرج الناس من الضلمات إلى النور فكان الرئيس ولسن مستجيباً لفكر وأحوال قومه ووطنه هو ، ذلك الفكر المنبعث من تقاليد جمهورية وجدت لأول مرة أوفى تعبير لها في اللغة الإنجليزية . فأما في رَأْي أوروبا وآسيا فإنه بان كأننا يقول ويفكر لأول مرة في التاريخ في أشياء لم تتطور بعد وأسرار خفي وجودها عن الناس كل الخفاء . ولعله كان يشرك الناس في هذا المرائى الحاطي .

وإننا لنعالج هنا أستاذاً للعلوم السياسية تاجعاً مقتدراً ، لم يدرك تمام الإدراك ما بين به لعاصريه ، ولا عرف الجور الأدبي والسياسي الذي ظل يقتضيه طوال حياته ، كما أنه سرعان ما انتقل بعد إعادة انتخابه للرئاسة من الحالات العقيدة لزعيم سياسي إلى وضعة المسيح المخلص . وما مذكراته ، والإعلاميات ارتباد واستكشاف لعناصر الموقف العالي . وعندما أبرز آخر الأمر في خطابه الذي ألقاه في الكونغرس

في يناير ١٩١٨ نقاطه الأربع عشرة بوصفها بياناً محدداً لمقاصد أمريكا في السلم ، كانت بوصفها بياناً أحسن كثيراً في روحها منها في ترتيبها ومادتها . وكانت هذه الوثيقة تطالب بالاتفاقات الصريحة بين الأمم والكف عن السياسة السرية ، وحرية الملاحة في أعلى البحار وحرية التجارة ونزع السلاح وعدد من التسويات السياسية تقوم على الاستقلال للقوى للشعوب . وهي تطالب في النقطة الرابعة عشرة بإنشاء « جمعية عامة للأمم » بنية صيان سلام العالم . كان ينشد « السلم بلا نصر »



(شكل ٢١٧) وودرو ويلسون

وقد استقبلت هذه المواد الأربع عشرة استقبالا رائعا في كل أرجاء العالم . لهذا لاح أخيراً شجع سلم يصمله المفقولون من الناس في كل مكان . سلم طيب مقبول لدى خيار الألمان والروسين وأكرامهم . كما هو طيب مقبول لدى خيار الإنجليز والفرنسيين والبلجيث وأكرامهم . وظل العالم يأكله نغمة شهور يبره نور الإيمان بولسن . فلو أمكن جعل هذه المواد أساساً لتسوية عالمية في ١٩١٩ ، لفتحت منذ ذلك الحين حقبة جديدة للشئون الإنسانية عامرة بالآمال .

ولرام علينا أن نذكر أن أحدا لم يرق بهذا الأمر . إذ كان يحبط بالرئيس ولس

ساعة بينما من الأثنية الضيقة ، وكان جيل شعب الولايات المتحدة الذى وافقه هذه النهضة الطيبة - وهو جيل ولد في بحيرة الأمة ، وترى في ظلال الوفرة ، فهو لذلك جيل يمتدح من المنازعات المؤلة التي أحزنت قلب أوروبا ؛ - كان يتطوى على قدر بين من الطيش والنظرة السطحية للأشور . ولم يكن واقع الأمر أن للشعب الأمريكى كان سطحياً بحكم الطبيعة والضرورة ، بل إن حاسهم لم تحركها بالقدر المبتغى الكافى فكرة قيام مجتمع على أكبر من مجتمعهم . كان لديهم فكرة ذهنية ولكنها لم تكن عقيدة راسخة . فكنت تجد في ناحية هذا الشعب الجديد نزول العلم الجديد بعالم من أفكار جديدة ، أفكار تسمى وأروع من السلم والمصلح العالمى ، وتجد في الناحية الأخرى في العلم القديم ، شعوراً لدودة العبادة متورطة أشد التورط في نظام الدول الكبرى ، وكان الأولون أفعاجاً أغماراً يدانون الأطلال في قلة خبرتهم المروعة ، وكان الآخرون مجريين مريى المفاق مقلدى التكوين .

وقد عالج الرواقى الكبير هنرى جيمس منذ سنوات عديدة موضوع الاصطدام بين الشاب النمر اللئالى للمسمى لمصر جديد وبين تفصح القديم المثلث في قصة جد نموذجية تسمى « ديزى ميلر Daisy Miller » . وهى قصة عزلة فتاة أمريكية صريحة شديدة الثقة في الناس رفيعة العقل ، ولكنها تكاد تبلغ حد البساطة ، ولها ميل حقيقى إلى الصلاح ورغبة عظيمة في « الاستمتاع » ، وكيف أنها وصلت إلى أوروبا وولعت في الحبال من طورها وتورطت في الأخطاء ، ثم دفعت أخيراً إلى الترحيب بالموت بسبب ما في العالم القديم من القوامات مركبة من قيود جامدة . ولك في الحياة نفسها لآلافاً متنوعة من أصناف هذا الموضوع ، وآلافاً من أمثال هذه القامى التي تسطر عبر الأطلسى ، وما قصة الرئيس ولسن إلا واحدة من هذه القامى . ولكن ينبغي للقارئ ألا يتصور ، لا يرى من تطلب النبل للقديم على الأداة الجديدة ، أن ذلك هو الحكم النهائي عليها بالقضاء الأخير .

ولعل أحداً من البشر اللذين بظفرهم لم يُصَب وهو يذلل قصارى جهده وسط ظروف جارفة لا يقوى على إحياها - يمثل هذا القنص اللبيق والتقد القامى الذى تعرض له الرئيس ولسن . وهو يلام لأنه أدرك دقة الحرب وما تلاها من مفاوضات

الصلح على أسس حزبية محضة . وهم يسمونه بأنه ظل الرئيس المثل للحزب الديمقراطي ، على حين كانت تأتمر به الظروف لتجعل منه ممثلاً لمصالح البشرية عامة . ولم يتم بأية محاولة ليضم إلى جانب بعض الزعماء الأمريكيين الكبار من أمثال الرئيس السابق روزفلت والرئيس السابق تافت ، ومن إليهما . وهو لم يستغل تماماً الموارد المعنوية والفكرية للولايات المتحدة ، بل جعل الموضوع كله أمراً شخصياً بحتاً ، وأحاط نفسه بمن هم مجرد أنصار شخصيين له . وكان استقرار رأيه على حضور مؤتمر الصلح بنفسه خطة معطلة ، ويكاد رأى التاليفين الهبرين يجمع على أنه كان يمل به أن يبقى في أمريكا ، يمثل دور أمريكا وأن يتكلم بين القبة والقبعة كأنما كان الشعب يتكلم . فإنه استطاع طيلة السنوات الأخيرة من الحرب أن يحصل بهذه الطريقة على مكانة لا ضريب لها في العالم .

ويقول الدكتور ديلون^(١) : « كانت أوروبا عندما لحقت قدام الرئيس أرض ساحلها لشبه الأشياء بصلصال يقتصر لسه الخرافات المتبدع . ولم يحدث قط من قبل أن كانت الأمم حل مثل هذا الشوق إلى اتباع نبى كوسى يأخذ بيدهم إلى الأرض الطيبة الموعودة حيث تنعيم الحروب ويجهل الحصر المجرى . وكانوا يرون فيه ذلك الزعيم العظيم . وكان الناس في فرنسا ينحنون أمامه بحبة ورجة . وأخبرني زعماء المهال في باريس أنهم صكبوا دموع الفرح بين يديه ، وأن إخوانهم كانوا على استعداد أن يمشقوا النار ويغوضوا الحجج لكي يساعده على تحقيق خطته القيلة . وكان اسمه حين الطبقة العاملة في إيطاليا بوقاً سماوياً تتجدد الأرض حين يندى صوته فيها . وكان الألمان يسمونه ومبادئه الإنسانية بمثابة الأمل الذى إليه يلوذون . وقال المرموهلون الشجاع غير الحياة : « لو أن الرئيس ولعن خطب في الألمان وحكم عليهم حكماً قاسياً لقبولهم مذبحين دون أن يتفوهوا بكلمة ولأنشأوا يعملون من قودهم . » وكانت شهرته في انفسا الألمانية شهرة غلمس منقلد ، وكان مجرد ذكر اسمه بلها لآلام للنكوبين وتروياتاً لأحزان المرونين . »

تلك هي الآمال الجارية التي كانت تمتلج في صدور النظارة الذين استعد الرئيس ولسن للظهور أمامهم . وصل إلى فرنسا على ظهر الباخرة جورج واشنطن في ديسمبر ١٩١٨ . ولحضر معه زوجته . ولا شك أن هذا كان يبدو لمرأ لا غبار عليه من وجهة النظر الأمريكية . ولحضر عدد من ممثلي أمريكا زوجاتهم . ومن سوء الطالع أنه دخلت إلى حفلة التسمية العالمية بمقدم هؤلاء السيدات معاً اجتماعية لا بل معاً سباحية . لقد كانت وسائل المواصلات ضيقة الخنود في ذلك الزمان ، على أن معظمهن وصلن إلى أوروبا يحيط بهن جوازات من الامتيازات . وجئن كمن يريد أن يحضر مأدبة - فكن - كما نوه بعض الناس - يتفرجن على أوروبا مستمتعاً بطرف شائعة غير عادية . وأنهن ليرغبن في زيارة آثار نشترا أو قلعة دارويك أو ولصور إذ قد لا تتاح لمن في المستقبل فرصة أخرى يرين بها هاته المواضع الشهيرة . ثم لقد تطلع بعض المقابلات الهامة لكي تزار دار ذات أهمية تاريخية .

وربما لاح هذا من الأمور الثقافية التي لا يليق أن تلونها في تاريخ البشرية . على أن مثل هذه المئات الإنسانية المليئة هي التي ألقت على مؤتمر الصلح في ١٩١٩ ظلاً من اليأس في عمرته . إذ اكتشف الناس بعد برهة وجيزة أن ولسن أمل البشرية ومعتقد الرجاء منها قد تلاشى ، ولم يبق منه إلا صور تنشرها صحف الطبقة الراقية لسلح يسير متهجاً مع زوجته ، يحيط بهما جويا سم من الرووس المنجوعة وما إليها من الصخب الذي يُحصد الناس عليه ومن أيسر الأمور أن يدعى الإنسان الحكمة بعد وقوع الأحداث وأن يشعر بخطئه بعد حدوثه وأن يعرف أنه كان ينبغي له ألا يحضر .

وكان للرجال الذين تمخ عليهم أن يتصل بهم اتصالاً خاصاً أمثال المسوكلمصو (فرنسا) ولويد جورج وبلفور (بريطانيا) ، والبارون مونتو والسيور أورلانو (إيطاليا) رجالاً ينحطون عن تقاليد تاريخية تخالف تقاليد مخالفة بعيدة . على أنهم كانوا يشابهونه من وجه واحد يروثون فيه لموله وعواطفه . لأنهم كذلك كانوا سياسيين حزينين قانوا أنهم في الحرب . وقد ظاهم مظه أن يفهموا ضرورة أن يتناط عمل للقوية العالمية برجال أكفأ أكثر منهم أهلية ومخصصاً .

لم يكونوا ليزيلوا عن مجرد صغار مبتئين في الشؤون الدولية . وكانت علوم

البحراني والاثولوجيا (علم السلالات البشرية) وعلم النفس والتاريخ السياسي صناديق مغلقة دونهم . وقد بدأ قليل إن مدير جامعة لوفان حدث أوليفر جولد حيث بأنه لما كان قد أصبح رئيساً لتلك المؤسسة دون أن يعرف اليونانية ، فإنه لا يدري لماذا يجب أن تُعلم فيها تلك اللغة ، وعلى نفس الشاكلة فإن رؤساء القبول - وقد حصلوا على أعلى المناصب في بلادهم دون أن يكون لديهم من العلم بالشئون الدولية ما يزيد على علامة ظفر - لم يستطيعوا أن يدركوا أهمية الممكن منها ولا استحالة سد هذا النقص فيهم بالدراسة بينما هم ماضون في طريقهم .

ولقد كان في المستطاع تدارك ما كان ينقصهم تداركاً عسوساً بضم مساعدين لهم من الرجال الذين أسعدتهم الحال بمواهب خير من مواهبهم . ولكنهم حملوا قصداً إلى اختيار رجال متوسطين غير أغلاذ . ومن الدلائل على الأرواح الأصلية أن تجمد المواطن المخلص . على أن المتلويين المفوضين فوق العادة في ذلك المؤتمر لم يختصم القدر بهذه الخصيصة . ولا نفس حاملا في المؤخرة بعيداً عن الأنظار ، ذلك أنه كان لبعضهم حالات أو محرمون يتصلون بهم أحيانا وقد اعتادوا أن يصنوا نصائح هؤلاء وأولئك ، على أن كثيراً من الملحقين والمساعدين الذين سكت عليهم الأضواء على المسرح العالمي كانوا أشخاصاً لا روح فيها ولا شجاعة .

« ولما كان رؤساء الحكومات الكبرى يدعون لأنفسهم ضحايا أنهم هم المتكلمون المقوضون عن الجنس البشري ، وأن بين أيديهم سلطات لاحد لها ، فإن من الجدير بالملاحظة أن هذه الدعوة لقيت تحدياً جريئاً من الصحافة المعبرة عن الشعوب . فإن جميع الصحف تقريباً التي تقرؤها بجاهل الشعب اعترضت منذ البداية على دكتاتورية تلك اللغة من رؤساء الوزارات باستثناء الرئيس ولسن . »

ولن يسمح لنا صديق القام في هذه المعالم أن نحدثك ها هنا كيف تقبض مؤتمر الصلح من مجلس عشرة إلى مجلس أربعة هم (ولسن وكلينصو ولويد جروج وأورلانو) ، وكيف أخذ يفقد بالتدريج سمته بوصفه مناقشة صريحة علنية لسجل البشرية ، وأصبح شيئاً فشيئاً أنه ما يكون بمؤامرة ديبلوماسية

قديمة الطراز . كانت الآمال التي انطلقت على باريس وتجمعت فيها عظمة
حبيبة . ويقول الدكتور ديبلون : إن باريس إبان ذلك المؤتمر كفت عن أن
تكون عاصمة فرنسا ، إذ أصبحت (مسافرخانة) أو دار ضيافة دولية هائلة تنج
بمظاهر غير مألوفة من الحياة والاضطراب ، مليئة بأشكال غريبة من الشرب
والقبائل والألسن جثموا من القارات الأربع ليرقبوا وينظروا ما يجتبه لهم
الهند الخلق .

ووقد أنصبت إلى الصورة لسة من لسات ألف ليلة وليلة بظهور زوار عليهم
مناجيع الضاربة ولقدوا من بلاد التار وكردستان وكوريا وأفريجيان وأرمينيا وإيران
وبلاد الحجاز - ما بين رجال لم يلمحى البطارقة وأنوف كالسيف الأحبيب ، وآخرين
جثموا من الصحراء والواحة ، ومن صهرقة وبخارى . وما بين عثم وطرايش
ولبات خرومية كأفاج السكر وأضطربة روس شبيهة بقلانس الأساقفة وبند
عسكرية قديمة فصلت لحوش قامت كالبخين في دول جديدة نشأت ليلة السلام
الأبدى ، ويرانس بيضاء شاهقة البياض وجلابيب فضفاضة وثياب رشيقة تشبه
التوجا الرومانية ، اجتمع كل أولئك هناك وأسهموا في إيجاد جو من اللاحقة
والوم الحظ في المدينة التي كان يحض الناس يواجهون فيها ويصطرون مع أشد
الحقائق تجهما .

ثم جاء أهل الثراء من الرجال ، وأهل الذكاء وأصحاب المشروعات
وحلة بلور التنظيم الأخلاقي الجديد ، وأعضاء لجان اقتصادية في الولايات المتحدة
وبريطانيا وإيطاليا وبولندا والروسيا والهند واليابان ومثلو صناعات النقط ومناجم
النفط البعينة الشاسعة والمحتاج والمجلبوبون التصليون ، ومهرجون (شرتانون)
من جميع الأجواء ، وعلماء من جميع الأديان ومهشرون بكل عقيدة ، غشطين
بالأمراء والقيادات لرجال السياسة ، والفوضويين ودعاة الإنشاء والحدم .
وكان كل يتعرق شوقاً إلى أن يقترب من تلك البوثة التي ستصير فيها نظم
العلم السياسية والاجتماعية ثم غشاق نطقاً جديداً .

« وكنت في كل يوم أثناء مروري في الطرقات وفي شفتي ورق للطعام التي
 مبعوثين عن بلاد وشعوب لم يكذب يسمع الناس في التريب حتى بمجرد اسمها
 إلا نادراً . وزارني وفد من يونان منطقة البونت إيوكسين^(١) ، وتحادثوا معي عن مشيهم
 القديمة طرابزون وصامسون وطرابلس وكيراصوند ، التي أقيمت بها منذ سنوات
 عدة ، وأخبروني أنهم هم كذلك يرغبون في أن يكونوا من أنفسهم جيشاً
 جمهورية إغريقية مستقلة ، وأنهم جاءوا للحصول على طلباتهم . وكان يمثل
 الألبانيين صديق القديم طرخان باشا من ناحية وصديق أسعد باشا من ناحية
 أخرى - وكان الأول يرغب في حماية إيطاليا وطلب التي بالاستقلال التام .
 وكان الصيني والياباني والكوري والمغربي والقرغيزي والصيني^(٢) والمركسي
 والمجري والبولندي والملاي والزنخي وشبه الزنخي (النجروني) من أفريقيا
 وأمريكا من بين رجال القبائل والألسن التي اجتمعت في باريس لتلاحظ عن
 كتب إعادة بناء نظام العالم السياسي وليعرفوا مكانهم فيه . »

وإلى باريس هذه المزدحمة الرائعة التي يبلغ بها الاتحاد كل مبلغ والقاهرة
 فاعلموا أنهما العالم الجديد جاء الرئيس ولين ووجد قواها للتجمعة ، تحت سلطان
 شخصية أضيق منه ألقا من كل وجه وأصغر جنوباً وأقوى منه حتى لاجمال
 المقاييس بينهما : وأعطى به رئيس الوزارة الفرنسية المسيو كلمنتسو . وانتخب
 المسيو كلمنتسو رئيساً للمؤتمر تلبية لرغبة الرئيس ولين . قال الرئيس ولين :
 « كان ذلك اعتراكاً خاصاً وتقديراً لما لقيت فرنسا من آلام وبطلت من تضحيات » .
 ولعمرو الحظ أن ذلك القول كان النغمة الأساسية في المؤتمر ، الذي كان ينبغي
 ألا يشغل نفسه إلا بمستقبل البشرية .

وكان جورج بنيامين كلمنتسو (١٨٤١ - ١٩٢٩) صلياً وسياسياً عالي السن ،

(١) قبيلة إيوكسين (Paul Fouché) : منطقة الساحل الجنوبي لبحر الأسود وهي التي كان
 يطلق عليها قديماً اسم إقليم بيلكي . (الترجمة)

(٢) الشيندون (Lenghdon) : شعب يسكن بلاد القوقاز - الجورجيات : إحدى الجمهوريات
 السوفيتية وتقع بجمهورية الشرق . (الترجمة)

وكان من أحظم المولعين بالشهر بمطالب الناس وأخطائهم ، ومن لم ينصب الأوغر في قلب الحكومات ، وكان طليباً ظلي وهو يشغل منصب الاستشارة في البلدية محققاً بعبادة بجانبة ، كما كان مبارزاً حقيقاً ذا دربة وتجربة . ولم تنفث واحدة من مبارزاته بالموت ولكنه كان يلقاها ثابت الجأش بهم الإقدام . وقد انتقل من مهنة الطب إلى الصحافة على المذهب الجمهوري في أيام الامبراطورية وكان في تلك الأيام « يسارياً » متطرفاً . واشتغل بالتدريس في أمريكا رشحاً من الزمان ، وتزوج من زوجة أمريكية ثم انفصل عنها . وكان قد بلغ الثلاثين في عام ١٨٧١ الحافل بالأحداث الجسام . ثم إنه عاد إلى فرنسا بعد معركة سيدان ، وأتى نفسه في المصمان العاصف المضطرب لذلك الشعب المتهور مظهرًا حية عظيمة وقوة بالغة . ومنذ ذلك الحين أصبحت فرنسا عالمه الخاص ، فرنسا صاحبة الصحافة القوية والتحولات الشخصية الجريئة الحادة والتحديات والمجاهبات والتحولات العنيفة والتأثيرات الدرامية والتكات الباردة التي تكال معها تكن النتائج . كان من صيغ من « مادة حادة ملهية » نطقه الناس « بالخير » ، ويلوح أنه كان يتجامله بعض الزعماء بهذا القالب . كان وطنياً محترفاً أكثر منه مياسياً مفكراً ، ذلكم هو الرجل الذي نهضت به الحرب إلى أعلى طليين ، وألحقت له أن يمثل عقلية فرنسا الممتازة وروحها الكريمة أسوأ تمثيل .

وكان لصيق أهله أرحمق في المؤتمر ، الذي زاد في تلونه باللون الدوامي الجرم إلى جعل مكان التوقيع هو نفس قاعة المرايا بقرساي التي انتصرت فيها ألمانيا وأطنت وحلتها في كبرياء الظاهر . هناك قضى على الألمان أن يوقعوا .

ولم تعد الحرب تبلو في هذا الجو في حين المسيو كلمنصو حين فرنسا حرباً حالية ، بل كانت مجرد فصل ثانٍ للزواج القديم الذي قام في « السنة القبطية » (كما يسميها الفرنسيون) وكانت الشروط والتكال القليلين حلاً بألمانيا الآثمة . قال الرئييس ولسن « كان من الضروري أن توطأ السيل لأمن الديمقراطية في العالم » . وكان هذا من وجهة نظر المسيو كلمنصو التي عبر عنها صراحة « ضرباً من الكلام على طريقة يسوع المسيح » يلوح أمراً مضحكاً جداً في نظر العدد العديد من أولئك الليبراليين والسياسيين الأدكياء — وخشاش أن أهول للترتين —

الذين جلسوا سنة ١٩١٩ سنة متنازعة في تاريخ اعتماد الكفاية الإنسانية . (وعلما
 نذكر هنا كذلك ومضة أخرى وهامة للدكاء والفكر ، ونكاته اللاذعة . هو قوله
 إن الرئيس ولبن وعقابه الأربعة حشر كان دسوساً ، من الله القادر على كل
 شيء . إذ لم تكن قد الطيب Le bon Dieu إلا عشر وصايا فقط . . .)

قال كاييز (Keynes) ، كان المسير كلمصو مجلس هو والسير أودلنلو في
 المقاعد التي تتوسط نصف دائرة تتكون من أربعة أمام الموقلة . كان يرتلي بقلة
 فركه سوداء وقفازين رماديين من جلد الأورى لم يكن يظهرهما قط أثناء جلسات
 المؤتمر . وينفى لنا أن نلاحظ أنه كان - بين هؤلاء البناة الأربعة للعالم - الوحيد
 الذي يستطيع أن يفهم ويتكلم الإنجليزية والفرنسية كليهما .

وكانت أهداف المسير كلمصو بسيطة كما كانت من بعض أرجعها مجلة المتناول .
 فإنه كان يطالب بتقضى كل ما أبرم في تسوية ١٨٧١ . وكان يطلب معاقبة ألمانيا
 كأنما كانت شعباً آثماً آثماً فريداً في نوعه ، وكأنما كانت فرنسا شبيهاً مطهراً . وكان
 يريد أن يفسد من حال ألمانيا ويهت فيه من اللعاب ما يقعدها بعد ذلك عن أن تحف
 قبالة فرنسا أبداً . وكان يريد أن يؤم ألمانيا ويحفرها أكثر مما أولت فرنسا وحفرت
 في ١٨٧١ . ولم يكن يمتيه إذا كانت أوروبا تتحطم إذا انعطت ألمانيا . فإن فخته لم
 يجاوز نهر الراين المتجاوز الذي يحمله ينوك هذا المحتل . ولقد قبل عصبة الأمم التي
 ارتأها الرئيس ولبن بوصفها مقترحة خطياً إذا كانت تضمن لفرنسا الأمتة مهما
 طلت ، على أنه كان يفضل محاقلة ترتبط بها الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا
 للمحافظة على فرنسا وتصفيدتها وتجميعها في أي ظرف كان . كان يريد فرصاً
 لوسع وأهل لاستغلال سوريا وفيل أفريقيا وما إليها على يد بعض الجاهلات
 اللالية الباريسية .

كان يريد توصيفات يفسد بها جراح فرنسا ، وقروضاً وهبت وجزرات
 فرنسا ومجداً وتوقيراً لفرنسا . ذلك أن فرنسا قد قامت ولاند لفرنسا من أن
 تنال جزامها الأولى . وكانت البلجيكت والروميا وسمريا وبرنلة وأرميدا
 وبريطانيا وألمانيا وألمسا قد تلبت كلها . كذلك تلبت البشرية جمعاء ،

ولكن ماذا بهم ؟ إن ذلك لم يكن شأنا بعينه . وإن هذه إلا كائنات ثلاثة
(أو كالة عدد) في دولنا تلعب فيها فرنسا في نظره دور النجمة البتلة ...
ويمثل هذه الروح حاول السنيور أورلاندو فيا يلوح أن يقتضي مصالح إيطاليا .

وأدخل المستر لويد جورج معه إلى « مجلس الأربعة » ، لباقة وعجت الرجل
الويلزي ، وتنفيد الرجل الأوربي ، وضرورة ملحة تقضي عليه بأن يحترم
الإنانية القومية التي طبع عليها الأمبراليون والرأسماليون البريطانيون الذين أعادوه
إلى رياسة الوزارة . وإلى خضايها المؤتمر السري ذهب الرئيس ولسن يحمل بين
جنيبه أنبل المقاصد من أجل ما وضعه للعالم من سياسة أمريكية اكتشفها حديثاً ،
وأعطى بها نقاطه الأربع عشرة التي يكاد يطبخها طاجن التسرع ، ومشروعاً عاماً
أكثرت عجلة تفصيلية لإقامة « عصبة الأمم » .

« وقتما وجد رجل دولة من الطراز الأول أكثر صبراً وقلة كفاية من
الرئيس وسط النشاط البلم المتجلى في قاعة المجلس » (١) . ومن ذلك الحين في
الظلام ومن المنازعات التي دارت حول المؤقتة في ذلك المجلس ، وبعد ضلوات
وروحات لاجبال لوصفها في هذا المقام ، خرج الرئيس آخر الأكرامه نقاطه
الأربعة عشرة بمزقة مشقة يعال يبعث على الأمل ، وهو يحمل بين يديه طفلاً
حليلاً هو عصبة الأمم ، التي ربما تموت والتي قد تعيش وتنمو - لما يستطيع إنسان
أن يقبأ لما يشاء . ولكنه استطاع حل أقل تقدير أن ينقذ هذه ... ١١ .

٣ - دستور عصبة الأمم

إن هذه القزمة الإنسانية الشوهاء الموضوعة في قارورة حاضنة والتي ناط بها
الناس الأمل في أن تصبح آخر الأمر « إنساناً كاملاً » يصم الأرض ، هذه عصبة
الأمم كما تجسدت في صياق ٢٨ أبريل ١٩١٩ : ثم تكن اللجنة عصبة شعوب .

(١) نقلاً من كرايز (١٨٨٢ - ١٩٤٦) ، وهو الصانع الإنجليزي . كان على وزارة
الخارجة البريطانية في ملاقاته الملحق ، واستفاد استجاباً عن الشروط المالية لمساعدة فرنسا .
(المترجم)

بل كانت كما تبين العالم « عصبة دول وعظماوات مستعمرات » . وكان مشروطاً في حله كلها أن تكون من « تحكم نفسها بنفسها تماماً » . ولكن لم يوضع لهذه العبارة أى تعريف مطلقاً . ولم يكن هناك أى قيد يستبعد البلاد ذات الانتخابات المقيّدة ولا أى تدبير من شأنه أن يضمن قيام أى رقابة مباشرة للشعب أى دولة من الدول . وقد شخصت فيها الهند على افتراض أنها دولة « تحكم نفسها بنفسها تماماً » ١ ولا ريب أن دولة استبدادية أو توتوقراطية ما كانت إلا لتقبل في عضويتها بوصف كونها ديمقراطية « تستمتع يكامل حكم نفسها بنفسها » ولها انتخابات وحقوق مدنية قاصرة على فرد واحد ١١ . وكانت العصبة التى تألفت بمقتضى ميثاق ١٩١٩ فى الواقع عصبة « ممثلين » لوزارات الخارجية ، وهى لم تسطع حتى أن تعمل محل السفارات فى عاصمة كل دولة .

ظهرت فيها الإمبراطورية البريطانية مرة بوصفها كلاً موحداً ، ثم ظهرت الهند (١١) والدومينيون الأربع (أى الممتلكات المستقلة كندا وأستراليا وجنوب أفريقيا ونيوزيلندا) بوصفها فولا متصلة ذات سيادة . ثم حصلت لولتة فيها بعد على مكان متصل . ومن المضحك أن يمثل الهند لم يكن إلا شخصاً يعينه البريطانيون . فأنما ممثل الدومينيون فينبغى أن يكونوا من رجال السياسة فيها . ولكن إذا كانت الإمبراطورية البريطانية تشرح على هذا النحو ، وجب أن يكبد ممثل الإمبراطورية من يمثل بريطانيا العظمى ، وكان لابد من أن تسلي مصر أيضاً حق العضوية . زد على ذلك أن كلا من ولايتي نيويورك وقرجينا كانت من الناحية التشريعية والقانونية دولة ذات سيادة مثل نيوزيلندا وكندا سواء بسواء . وترتب على إدخال الهند مطالبات منطقية بدخول أفريقيا الفرنسية وكندا الفرنسية . بل إن أحد المندوبين الفرنسيين قد اقترح بالفعل منح صوت لإمارة موناكو الصغيرة .

وكان مقرواً أن تنضم للعصبة جمعية تمثل فيها كل دولة عضو وتكون أمماتها حواسبية ، ولكن الإدارة للقائمة بالعمل فى العصبة كانت على أن تتحول إلى مجلس يضم مندوبى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان ومعهم

أربعة أعضاء آخرين تختارهم الجمعية . ويجتمع المجلس مرة في كل عام ، وتكون اجتماعات الجمعية على « فترات صيانة » ولكن لم تتم تلك الفترات .

ولمّا هنا حالات نوعية خاصة لم تكن قرارات عصبة هذا الميثاق تصلح إلا بإجماع الآراء . فإنّ ندّ فرد واحد ولم يوافق في المجلس تعطّل أي مقترح - وهو وضع يجري على نظام النقض المطلق (Liberum veto) البولندي القديم ، وهو شرط أثقل الضرر بكيان العصبة . فإنه بسبب الكثيرين من المفكرين يرقبون في عدم وجود العصبة أكثر مما يرقبون في عصبة الميثاق هذه ، إذ أنه ينطوي على احترام تتم بما للدول من سيادة لا يمكن التنازل عنها ، كما أنه رفض لفكرة قيام دولة بحرية مشتركة (Commonwealth) تظلّل البشرية بجماء . والواقع العمل أن هذا الشرط كان يسد الطريق على كل إصلاح للمستور العصبة في المستقبل إلا باللجوء إلى طريقة مرفوعة هي أن ينسحب من العصبة في وقت واحد غالبية الأعضاء الراغبين في التغيير ، ليعملوا تكوين العصبة على أسس جديدة . وقد جعل الميثاق إيجاد مثل هذه التسوية النهائية للعصبة التي أنشأ أمرًا لا متسوسة منه . ولعل هذا خير ما فيه .

وقد اقترح أن تسبّع من العصبة الأصلية الدول الآتية : وهي ألمانيا وفرنسا والروسيا وكل ما عدا أن يلقى من الإمبراطورية النمانية . على أن في الإمكان أن تدخل أي واحدة من هذه الدول لها بعد بموافقة ثلثي أعضاء الجمعية . وكانت العضوية الأصلية في العصبة كما يحددها مشروع الميثاق مقصورة على : الولايات المتحدة الأمريكية وبلجيكا وبوليفيا والبرازيل والإمبراطورية البريطانية (كندا وأستراليا وجنوب أفريقيا وتيوزيلندة والسند) ، والصين وكوبا وإكوادور وفرنسا واليونان وجواتمالا وهائتي والحجاز وهندوراس وإيطاليا واليابان وليبيا ونيكاراجوا وبنما وبيرو وبولندا والبرتغال ورومانيا ودولة السرب والكروات والسلوان وسيام تشيكوسلوفاكيا وأوروغواي . ويضم إليها بوجية للدعوة الدول الآتية التي لزمّت الحياذ أثناء الحرب ، وهي : جمهورية الأرجنتين وشيلي وكولومبيا والدانمارك وهولندة والنرويج وباراجواي وإيران وسلفادور وأستيا والسويد وسويسرا وفنزويلا .

وما دام ذلك هو دستور العصبة ، قلن يكون هناك مجال للعجب من أن سلطاتها كانت خاصة ومحدودة . وجعل مقرها مدينة جنيف وجعلت لها سكرتارية . ولم يكن لها أي قوة حتى في التفتيش على الاستعدادات الحربية التي ينشئها أعضاؤها الحوسون ، ولا أن تعطى التعليمات إلى هيئة عسكرية وبحرية لوضع خطة للتعاون المسلح اللازم لحفظ السلام في العالم .

وقد أصدر المشايخ الفرنسي في كومبيين عصبة الأمم وهو السيد ليون بورجوا في جلالة وتكرار على الضرورة المنطقية لوجود مثل هذه السلطات والقوى في بدنها . على أنه كان كخطيب صعباً مريضاً وبقيته شيء من « حرافة » السيد كلمنتسو وإليك وصفاً عموماً للمنظر الذي جرى في جلسة ٢٨ أبريل الكاملة التي سبقت تبنى الميثاق كما دعيه للستر ولسن هاريس . كانت قاعة الولايم المزدهرة في الكاين دورساي^(١) بما فيها من صفوف المناضد للمتلويين وما فيها من سكرتارين وموظفين مصطفين بجوار الجدران وكثلة متراصة من الصحفيين في الطرف الأخرى من القاعة . - وجلس الأنطاب الثلاثة في صدر القاعة يسكنون أنفسهم على حساب السيد ليون بورجوا المحترم وقد أخذ - بمساعدة أكنداس من المذكرات لا بد أنها كانت تبدو غير ضرورية بقاءً ، بقى الخامس مرة خطابه الذي يناصريه تعديلاته الشهيرة .

ولقد أكثروا من « تسلية أنفسهم بالهامس » وأعطى بهم هؤلاء الثلاثة الذين كان من سخرية الأكلار أن ألفت بين أيديهم مقالات أعظم لمسة ألحاحها التاريخ . ويسلط كاييز أمثلة أخرى مما يطر في هذه الجلسات من صنوف التفتيش والطابع السوقي وحلم مراعاة الشعور وقلة الالتفات وانعدام الكفايات .

وعاد هذا الميثاق للسكان الذي وصلوا إليه حل هذه الشاكلة إلى أمريكا بصحية الرئيس ولسن ، وعملك لى كل معارضة من الحزب الجمهوري المتأه وكل خصومة من الرجال الذين أحمل شأنهم في الرحلة إلى أوروبا . وأن مجلس الشيوخ أن يصادق على الميثاق ، وعلى ذلك فقد عقد أول اجتماع للعصبة من غير حضور ممثل لأمريكا .

(١) الكاين دورساي (Chail d'orsay) : هو وزير وزارة الخارجية الفرنسية . (لترجم)

وشهدت خاتمة ١٩١٩ وبداية ١٩٢٠ تغيراً حقيقياً جداً في الشعور الأمريكي بعد التحمس للإنجليز والفرنسيين إبان الحرب . ذلك بأن مفاوضات الصلح ذكرت الأمريكيين بطريقة مضطربة ومثيرة ، بما يفرق بينهم وبين الدول الأوروبية من الفوارق الصيقة في وجهة النظر الدولية ، وهي الفوارق التي ساعدت الحرب على نسيانهم إياها ودحاً من الزمان . إذ أحسوا أنهم « دفعوا دفعاً حاجلاً » إلى أمور كثيرة دون ما يمكن من التروي وإعمال الفكر . ومر بهم تحول حفيف نحو سياسة العزلة التي تحللت في ١٩١٧ . وشهدت خاتمة ١٩١٩ دوراً ، دوراً واضح الدلالة مفهوماً تماماً - من أمور « التوقع الأمريكي واتمكك بالعزلة » حاداً نسبياً يكاد يبلغ العنف ، دوراً كانت فيه الاشتراكية الأوروبية (والاستعمار) الأوربي بمنزلة سواه من التسلط والعتة . وربما كان هناك عنصر من الخسة في ميل أمريكا إلى « قطع » حيال التبعات الأدبية التي آثارها الولايات المتحدة في شئون العالم القديم ، وفي الحصول على المزايا المائلة المالية والسياسية التي خولتها الحرب العظم الجديدة . على أنه يلوح أن ملية الأمريكيين كانت في مجملها سليمة صحيحة في عدم تقهم بالتسوية المقترحة .

٤ - معاهدات ١٩١٩ - ١٩٢٠

تجسدت قرارات فرساي في مجموعة من المعاهدات . ولأنا لنقدم إليك ما هنا أولاً خريطة تمثل التخصبات الأرضية التي أوجدتها معاهدة الصلح مع ألمانيا . ويعطيك فلم المستر هوراين الناطق الواضح ، الحقائق الضرورية بشكل أوضح مما يستطيع أن يبلغه أي شرح . زد على ذلك أن التسوية اشترطت تجريد ألمانيا من السلاح تجريداً تاماً ، وأنها يجب أن تسلم أسطولها وأن تدفع تعويضات حرية عظيمة ، وأن تدفع مبالغ طائلة لإصلاح ما دمته الحرب . واختليت لجنة متحالفة للإشراف على عملية نزع السلاح . وكان مقرراً أن يسلم الأسطول للبريطانيين في ٢١ يونيو ١٩١٩ ، ولكن المضايقات والوثوب لم يبطئوا تلك الفعلة ، وبدلاً من أن يسلموه أهلتوا به وأحرقوا سفنهم عند سكايا فلو^(١) (Scapa Flow) على مرأى من البريطانيين .

(١) سكايا فلو : منح مال يقع جنوب جزر أوركني في اسكتلندا . (لترجم)

وكان من نصيبها أيضاً قطعة كبيرة من الأرض حول مدينة أزمير . ومع هذا ظنّها لم تسترد رودس وجزر الدوديكانيز ، بالرغم من أنها يونانية صهيمة . إذ كانت هذه حل أن تكون جزءاً من الملب الإيطالي . وعسك البريطانيون بقرص .

وكانت المعاهدة التركية عبارة الإنشاء مستحيلة للتضيد . وقعت عليها حكومة تركية اسمية في القسطنطينية ، ولكن حكومة تركية حقيقية أخرى تكونت في أنقرة ورفضت التوقيع عليها . وعزّا جيش روى منطقة أزمير ، وحلت معاهدة تركية هي معاهدة سيفر (أغسطس ١٩٢٠) محل المعاهدة الأولى . وجاءت في أعقاب ذلك تفجّلات عظيمة في المدينة على الأراضي . وأقيم في القسطنطينية رقابة مشتركة للحلفاء (يناير ١٩٢١) ، وبخبرت حكومة القسطنطينية التركية ، وأنشأت الحكومة التركية الأساسية في أنقرة علاقات سياسية مع البلاشفة في موسكو . وتواصل ازدياد عدوان اليونان ، بما كانوا يظنونه في الحلفاء من حشوف للتشجيع المهم . وحاول اليونان في فترة تضخم الأطماع هذه أن يستولوا على القسطنطينية . وشرعوا في هجوم عظيم على أنقرة يرمون من وراءه إلى القضاء على الأتراك إلى الأبد . وتقدم هجومهم حتى اقرب من أنقرة ثم تولد وتنامى . وسند أغسطس ١٩٢٢ فاقبها لم يكن منهم إلا التقهقر والقرار أمام الأتراك . وخرج الجيوش حشود مذحورة من السكان اليونانيين الآسيويين . ولم يبق اليونان شيء في آسيا . فأعلنت أزمير قبل نهاية سبتمبر ، وغادر آسيا ما يقارب للمليون عدداً من اللاجئين اليونان جنساً ولغة ولم يعودوا إليها بعد ذلك أبداً .

رحبية الأتراك في هذا الدور والممة جديرة بالإصجاب . فإن التركي لم يكن يقوم فحسب ببلع اليونان المحتدين عليه إلى الخلف ، بل كان جرياً على تعاليله التي ورثها أمد الصور يلمح الأرمن ، كما كان يلمح بالفرنسيين خارج قيليقيا . ومن بين الآيات الكثيرة الفلكة على اصطبائهم بالروح المصرية أن تخلص الأتراك من السلطان وأنشأوا حكومة جمهورية الطراز . وأظهروا الرغبة في القتال في منطقة المضائق واسترجعوا القسطنطينية . وواضح أنه كان من مصائر القوة لم لا للضمف ، انقطاعهم تمام الاقطاع من النزاع الطويل الأمد غير المجدى مع العرب . وفصلت سوريا وأرض الجزيرة فصلا تاما عن الحكم التركي . وجعلت فلسطين ولاية منفصلة

وتكونت من أم ودول محكومة ومناطق مستقلة . وثمة سبب مماثل هذا يرجع إليه هذا القتل هو علم استعادة الدهن الأمريكي هو أيضاً لقبول أى تدخل فى شأن سيادة الولايات المتحدة على العالم الجديد .

ولعل واحدة من هاتين الدولتين العظيمتين اللتين كانتا بالضرورة الدولتين المسلطتين الرعيعيتين فى باريس ، لم تفكر تفكيراً صحيحاً فيما ينطوى عليه قيام عصبة للأمم بالحلاقة إلى هذه التنظيمات القديمة ، ولذا فإن مسلم للتظاهرة الأوروبيين كانوا يدرون أن تعضيدهما لهذا المشروع بخاطله جو عجيب من الخفاق المسافر . فكأنما كانتا تريدان الاحتفاظ والتمكين لسيادتهما وأمنتهما الخاصة المرافقة مع الحد فى نفس الوقت من تقدم أى دولة أخرى إلى ميدان مثل هاته التوسعات والاستحقاقات والمخالفات تحسباً ربما ترب عليه قيام استثمار آخر منافس مناهض . وكان لامتناعهما عن إقامة مثال من الثقة الدولية قاتلاً لكل احتمال فى قيام الثقة الدولية فى الدول الأخرى المشككة فى باريس . وأنكى من هذا وأتمس ، رفض الأمريكيين الموافقة على طلب اليابان الاعتراف بالتساوى العنصرى بين الأجناس .

زد على ذلك أنه كان يقيم على وزارات الخارجية البريطانية والفرنسية والإيطالية جو خفاق من المصلحة التقليدية القائمة على علوان لا يتسأله مع المفكرات الجديدة . وكانت وجهة نظر الفرنسيين والإيطاليين مختلفة أشواطاً كثيرة من وجهة نظر الإنجليز والأمريكيين أنفسهم من حيث حدة الأفقية القومية . وغنى عن البيان أن أية عصبة أم يرد أن تكون لها أية قيمة للإنسانية لابد لها من أن تخطع الاستعلاء من أساسه وتعمل على ، لهى إما أن تكون دولة شاملة على أى إمبراطورية عالمية تحرورية مكونة من دول (ولايات) متحدة ، تشترك بعضها مع بعض أو يتولى الوصاية^(١) بعضها على البعض والا فهى لا تسمى . على أنه قل بين الرجال الذين حضروا مؤتمر باريس من كان

(١) إن هذا الرأى موضح فى كثير كثير على المؤلف ، إذ يكاد قد وحل أن أسس ديانة موحدة تنزل إسم هذه الوصاية على أخرى ؟ فكأنما حدثنا الأسرار غير القومى ليرى هنا الرأى لعضل قديم . (الترجم)

له من قوة العقلة ما يبيح له أن يعبر من هذه العقلة الواضحة النخلة من مشروع إنشاء العصبة .

ذلك بأنهم أرادوا أن يكونوا مقبدين وأحراراً في نفس الوقت ، وأن يضمنوا السلام إلى الأبد على أن يحتفظوا بأسلمتهم في أيديهم . وبنته على هذا فإن المشروعات القديمة التي كانت تهدف ضم الأراضي في أيام الدول العظمى قد سُئرت في عجلة يستار رقيق من الخلف بأن وصفت بأنها من التصرفات التي يقرحها ذلك الطفل الطليل المولود في ٢٨ أبريل . ومن ثم صوّرت هذه العصبة الحديثة الميلاد الحاملة الألقاب صورة من يوزع - بكل ما يلبه بابا حاسور من دلائل السخاء الأحمق - الانتدابات (Mandates) على الدول الاستعمارية القديمة ، إلى حد أنها لو كانت تمثلت هيئة مرقلة التي الجبار الذي كتب نود لو انحلت صورته حقاً - لالت في مهاده اختناقاً . ونقرر أن تعطي بريطانيا الانتدابات عظمى في أرض الجزيرة وأفريقيا الشرقية ، وأن تعطي فرنسا مثل ذلك في سوريا . وأن تعطي إيطاليا كل ما يملها في غرب مصر وجنوبها الشرق بعد أن يضم بعض إلى بعض ليكون منطقة الكتاب .

وواضح أنه لو كان ذلك الطليل الضعيف الذي يمرضه مكربته في مهده بجيتيف ، آملاً أن يدب فيه شيء يشبه ديب الحياة ، قد قضى نحبه لقور بسبب ضعف الطفولة الذي يصيب كل مؤسسة تولد بلا حاسة ويقضي عليها ، لأصبحت كل هذه الانتدابات أراضي مضمومة لتلك الدول شبه صريحا - زد على ذلك أن جميع الدول انحلت تتنازع في المؤتمر بالظفر والناب طلباً للحدود ذات قيمة استراتيجية - وهذا لمصرى ألبح مظهر ظهورها به فلماذا تريد دولة من الدول الحصول على حدود استراتيجية عالم تكن تضمر التفكر في الحرب ؟ وعلى أساس هذه الخطة أصرت إيطاليا مثلاً ، على ضرورة ضم منطقة الليول الجنوبية وإن وجد بها سكان من الأكلان المتاضمين للرؤية الإيطالية وعلى ضم دنالسيا وهي إقليم سكانه من اليوجسلايين .

والأكثر من هذه التسيويات الجبرافية السيئة والأشد خطورة حل من الزمان
مريضهم حل ألمانيا مبالغ « للتوصيفات » تتجاوز كل قدراتها حل النفع ، مخالفين
بذلك أسس النظام الصريحة التي سلعت بمقتضاها ، فاضطرت إلى توقف من العبودية
الاقتصادية وأبسط كاهلها بديون تعويضية هائلة دورية مستحقة التفضل ، ونزع
منها السلاح وهو نقص كان يحلها معروضة طلياً لأى اعطاء من ناحية ذاتها
ولكن لم تسع تماماً الإمكانات الكاملة لهذه التسيوية إلا بعد مرور ستة أو ما يزيد
على السنة . ثم عجزت ألمانيا عن النفع ، وفى يناير ١٩٢٣ قدم الفرنسيون
بجيوشهم إلى وادى الرور ، وظلوا فيه حتى أغسطس ١٩٢٥ ، وهم يستولون
للتأهب بقدر ما يستطيعون ، ويلبسون السكك الحديدية ، ويسكّون^(٣) قروح
الألمان المولدة عنات لا يحصى منها من صفار المظلم وأعمال العنف .

٥ - البلشفية في روسيا

سبق أن لاحظنا ثورتي روسيا في ١٩١٧ . وقد آن لنا أن نتألم بإسباب أوفى ذلك للتغير الخارجى الذى غير اتجاه الأمور في روسيا في ذلك الزمان . ولم يكن ذلك التغير إلا انهيار المدينة الغربية المصرية في روسيا . ولكن ما استولى على عقائد الشعب الروسى كان أمراً يتجاوز كثيراً حدود تجربة اشتراكية . وكان له مظهر عجاج ، يظهره كأنما هو امتحان قاطع ونهائى تبذل به فكرة الاشتراكية الغربية بلاءً علياً . والواقع أن التجربة أظهرت بالفعل نفس نقائص النظرية الاشتراكية . كذلك أثبتت صحة المبدأ القائل بأن أية ثورة لا تستطيع أن تخلق من العدم شيئاً لم يناقش ولم تعتبر خطئه ، ولم يفكر الناس فيه مقدماً ولم يفهموه على أوفى وجه قبل شروعهم فيه وإلا لم يزد ماتممه أية ثورة عن مجرد تخبط حكومة أولسرة مالكة أو منظمة من المنظمات - حسبما يكون الحال . فالثورة إن هي إلا عملية طرد واستبعاد للتغايبات وليست عملية خلق .

وقد أدلينا إليك ببيان عن عوالم الفكر الاشتراكية في النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وأوضحنا الدور الكبير الذى لعبه في هذا التطور فكريات « حرب الطبقات » التى ارتأها كارل ماركس . وكانت هذه الفكرات تداهن الكبرياء وتثير الأمل لدى الأشخاص المنحرفين الأشد عمة في كل مناطق العالم الصناعية . وأصبحت الماركسية في كل مكان عقيدة العامل الصناعى القلق . ولكن لما لم يكن في المبدأ الاشتراكى ما يروق للفلاح ، الذى يملك أو يريد أن يملك الأرض التى يزدوج ، ولما كانت المجتمعات الكبيرة في مدن أوروبا الغربية وأمريكا تتكون من الناحية السلبية من أفراد من الطبقة الوسطى أكثر منهم من الطبقة الصناعية ، فإنه سرعان ما أدركت الماركسية أن الثورة الاجتماعية والاقتصادية التى يلربون لم تكن لتستطيع أن تنظر الأساليب البرلمانية وأصوات الأغليات ، فلا بد لها قبل كل شيء من أن تكون ثورة عمل ألبية ، أقلية من عمال الصناعة ، الذين يقبضون على زمام السلطة ، ويؤسسون نظاماً شيوعياً ، وهما يدويون بقية العالم على سعادة

المصر الذهبي^(١) ، التي تعقب ذلك . وهذا الدور من حكم الأقلية للرجوع
أن ينتج العصر الذهبي المتصور كان يسمى في مصطلح الماركسيين باسم « دكتاتورية
البروليتارية » .

لأن رجالا من المتحمسين كانوا في كل مكان ، وبفشاط الداعية المتصصب ،
يفتون حياتهم وطاقاتهم في بث تلك الفكرة لا يفتنون على ذلك أجراً . وربما
كان هناك في العشرات الأولى من سنة القرن العشرين ما يقارب المليون هدفاً من
الرجال المثقفين بأنه إن تم الأمر لهذه « الدكتاتورية البروليتارية » التي يفكرون
فيها تفكيراً مبهماً غير واضح ، لأعقب ذلك نظاماً اجتماعياً جديداً أحسن من
سابقه يكاد ظهوره يتم ثقافياً بطريقة أو ثوماتيكية . وقد سبق أن أظهرنا لك أثناء
مناقشتنا للاشتراكية كم كانت هذه الفكرة خيالية خطاه .

ولم يكن لدى الماركسيين أي خطط واضحة مستقرة لآمن طريقة دفع أجور
العامل ولا عن المناقشة العلمية ولا عن كيفية الإدارة الاقتصادية - يوم يتم تنظيم
« الرأسمالية » . وقد دبر نظام الرأسمالية الفردية من الناحية الأخرى حلولاً لكل
هذه الأشياء على طريقة كانت ولا شك غير حادة وتقوم على التجارب الشخصية
دون الأسس العلمية ، ولكنها كانت مع هذا طريقة عملية . وذلك على حين
لم ينتج الماركسيون أبداً أي دليل لهذه الطريقة ، التي تنابر بها تلك المسائل ،
ولم يبد عليهم أنهم أدركوا أن الناس بحاجة إلى طريقة جديدة بدل الأولى .
والواقع أنهم قالوا للمالك : « سلمونا السلطة » ، يتم كل شيء . « وغلب اليأس
على الروسيا فاستسلمت إلى « دكتاتورية البروليتارية » ، بعد أن عليها وبدد مواردها
وتخلى عنها الخلفاء الذين خططتهم بنهاية الإنحلال .

وقد تفاوت عدد أعضاء الحزب الشيوعي في الروسيا ، لأنه لم يدع حتى
زمن قريب جداً أن له أكثر من ٨٠٠ ٠٠٠ نصير ، بل لقد كانوا في الزمان

(١) العصر الذهبي : يشير المؤلف إلى الألف سنة المذكورة في بعض أمثلة الكتاب المقدس
التي يعتقد أصحاب مله الألف عام للمهد أن المسيح سوف يبعث الأرض فيها وسه رمله .
(الترجم)

اللى تتكلم الآن عنه يقولون فيما يرجع من دبح مليون . ولكن هذه الحية الصغيرة
 نسيها ، استطاعت بما لها من حزم وإصرار وإخلاص ، ولأنه لم يكن هناك
 شيء غيرها يتصف بالزم والإخلاص أو يتم بالقدر الكافي من الانتصار في كل
 تلك البلاد غير المنتظمة ويستطيع أن يقف في وجهها ، استطاعت أن ترمي
 أصسها في بطربرج وموسكو ومعظم مدن روسيا ، وأن تنضم إلى صفها نوبة
 الأسطول (الذين ظلوا معظم ضباطهم واحتلوا قلاع سماربول وكروستاد) ،
 وأن تصبح الحاكم القوي لروسيا .

ولشأن دور من حكم الإرجاب . إذ يدعى البلاشفة أنه لم تكن لهم مدوخة من
 أن يحكموا البلاد بادئ يده بالرعب والإرجاب . إذ كان انحلال النظام الاجتماعي
 في البلاد بالغا مثواه . فإن الفلاحين قد ثاروا في مناطق كبيرة ضد أصحاب الأراضي ،
 وقام بعض الناس بتقسيم المزارع الكبيرة . واطرد حرق القصور على شاكلة ما حدث
 في الثورة الفرنسية الأولى . والترف الكثير من القطاعات البشة . واستولى الفلاحون على
 الأراضي وقسموها بين أنفسهم ، وذلك لجهلهم التام بحال كارل ماركس في
 هذا الصدد . وفي نفس الوقت أخذ مئات الألوف من الجنود يضيرون في الأرض
 حائكين من منطقة الحرب إلى قراهم وأملحهم في أيديهم . وكانت حكومة القيصر قد
 جندت جندا بلغ المائتين الملايين - وهو عدد يفوق بكثير عدد من كانت تستطيع أن
 تسلحه من الرجال أو تستخذه في جبهة القتال - وكانت التسلح من قراهم اقتلاع
 النبات من جلوده ، وأضحت جامهر عظيمة من هؤلاء المحتنين قطعاً حقيقيين للقرى
 على حجاب المناطق الريفية . وقد غصت موسكو في أكتوبر ونوفمبر من ١٩١٧ بمثل
 هؤلاء الرجال . فكونوا من أنفسهم مصابات ، وأغلوا يطرقون المنازل يهبونها ويمتلون
 على الأعراس فيها فلا يترضى أحد سيولهم . وتلاشى القانون والنظام وأداة الحكم من
 الوجود . وكان الرجال المسروقون والقتولون يرتدون إلى مهملا في القوارع أياماً متتالية .

تلقب في الحال يوم تقلد البلاشفة مقاليد الحكم وهو أمر لا بد لنا من تذكره .
 ولم يكن هذا الحال ناشئاً عن الخصاص للسلطان . ولقد قضوا زمناً يحاربون إرادة
 النظام . وكان كل من يضيظ حاملا سلاحا يقتل رعباً بالراسخ . فقبض على آلاف

وأخذوا ، ومن المشكوك فيه أنه كان في الإمكان إعادة أي قدر من النظام في موسكو دون الانسحاب إلى مثل هذا الإجراء . وقد بلغ من تفكك قوى روسيا القيصرية أنه فحوص صرح النظام العام في البلاد وأن فقد الناس ما ألفوه في ظل من عادت . « كانوا مضطرين أن يفتلوا الناس بالرماس » ، وذلك ما قاله الرئيس مازارينك مرة لكتاب هذا الكتاب ثم أضاف ذلك بقوله : « ثم تواصل القتل بقسوة وبغير تعقل » .

وفي ربيع ١٩١٨ كانت قبضة البلاشفة تمسكت من المدن الكبرى ومن السكك الحديدية والسفن في معظم روسيا . وتكونت جبهة تأسيسية ولكنها ما لبثت أن حكمت وشتت أعضائها في يناير ، ذلك أن البلاشفة لم يستطيعوا العمل معها . إذ كان لوط التفرق - لها زعموا - رائد لها في مرافها ومشورتها بحيث يعوق كل عمل قوى . وفي مارس أبرموا مع ألمانيا في برست ليتوفسك صلحاً اتسم بالخضوع والذلة .

وكان على رأس النيكيتاتورية البلشفية التي نصبت نفسها لحكم روسيا آنذاك لينين ، وهو رجل حالي المسمة موفور النشاط متوكد الذكاء قضى معظم حياته متقياً في لندن وجنيف ، مشتغلاً بالطريات السياسية وبالسياسة المناهضة للحجة للثقلات الماركسية الروسية . كان رجلاً ثورياً شريفاً من أصحاب المبادئ النظرية البحتة ، يعيش عيش البساطة ولا يكل مهمل عمل ، ولم تكن لديه أي خبرة بالإدارة العملية للشئون . وكان يشترك معه في العمل تروتسكي وهو شخص بسيط من نيويورك ، عدله أن يظهر القور اقتداراً عسكرياً عالياً جسيماً وكان راحك ولونغاوسكي وزينوفيف وزورين وكاسينيف وكراشين بين الأعضاء المبرزين في الفئة القليلة التي نصبت نفسها آنذاك لإحادة تنظيم روسيا وإنجازها من الكبح الكارثة التي أوقعها للحرب فيها حتى وقفوا في النهاية إلى إعادة وحدتها الاجتماعية .

وفي بادئ الأمر كانت أسلحة زعماء البلاشفة تتجاوز روسيا كثيراً . إذ ليس العمل في روسيا وحدها على درجة من الضخامة تستغرق نشاطهم . فأهلنوا الثورة الاجتماعية في أرجاء العالم طامحة ، وأهابوا بالمال في كل مكان أن يتحولوا ، وأن

يقبلوا نظام الرأسمالية ، وبذلك يحلون عصر الماركسية اللبني ، الذى لا شكل منتظماً له ولا خطة مرسومة وطبيعى أن يهدف بهم هذا الإجراء إلى معصان الصراع مع كل الحكومات القائمة . فأضاف إلى صباء إقراولم الشيوعية في روسيا حباً جديداً هو المحافظة عليها ضد سلسلة من الهجمات المضادة التى تعرضت لها من جراء تشويهها ذلك بالحكومات الأجنبية .

ولم تخفى صفات أو ثلاثة حتى تجل فشل الروسيين فيما حاولوا أن يقيموا من شيوعية حامرة مثمرة ، كما تجل على أيديهم في تلك السنين ضيق المبادئ الماركسية وتجردها من كل خلق وابتكار حقاً تماماً بالغا . لم يستطيعوا أن ينفذوا الروسيا على قناعتها الثانية . ولقد حجزوا تمام الصبز عن أن يعمدوا دولاب الصناعة الروسية المخططة سيرته من الدوران . وكان معظم زعمائهم من الطراز الذى يحسن فقط أن يكتب ويصكلم ، دون أن تكون له أية خبرة في إدارة الأعمال وتنظيمها .

ولقد حلهم كرههم الأعمى للطبقات الأخرى في مبتدا حكمهم أن يقضوا على معظم من كان باقياً في الروسيا من أفراد طبقة مديري المصانع والعمال القبين ورؤساء العمال ومن إليهم . ولم يكن لديهم أية معرفة منظمة ، كما دفعهم غرورهم كأصحاب المبادئ الماركسية النظرية البحتة ، إلى احتقار كل معرفة يملكونها : - عن سيكولوجية العامل في عمله . بل لم يكن بين أيديهم تلك المعرفة العملية التي نبتت للرأسمالي القديم الذي يحضرون . وكل ما كانوا يعرفونه في ذلك الشأن هو سيكولوجية العامل أثناء الاجتماعات الحافلة . فحاولوا أن يسيروا بالروسيا بطريق الخت والتخفيض ، ولكن لم يستجب لهم لا العامل عندما عاد إلى مصنعه ولا الفلاح يوم رجع إلى عرائه . ولتخذ الثقل والإنتاج الميكانيكي في المدن يهبطان باطراد حتى تزعزعت أركانها وهوى بنيانها ، وشرع الفلاح يتج لفسه ما يكتبه ويحرق ما زاد عن حاجته .

وعندما زار كاتب هذه السطور بطرسبرج في ١٩٢٠ شهد منظرأ مروءا من القمار . كانت تلك هي أول مرة تهازل فيها مدينة عصرية على هذا النحو . لأن شيئاً واحداً لم تمتد إليه يد الإصلاح في مدى أربع سنوات . وكانت هناك حفر عظيمة في الشوارع التي سقط سطحها في الجارى المهلثة من دوله ، وكانت أعمدة المصابيح

ملقاة حيث سقطت ، ولم تكن في المدينة ذكاته واحدة مفتوحة ، وكان معظمها مقفلاً بألواح خشبية تظهر نوافلها (قربتها) المكسورة . وكان الليرة في الطريق على قلوبهم يرتدون ثياباً رثة غير متجانسة ، إذ لم تكن هناك في روسيا ثياب جليلة ولا أحذية جديدة . وكان كثير من الناس يرتدون لفائف من القيف حول أقدامهم . وكان الناس والمدينة وكل شيء رثاً بالياً . بل إن (القوميسيرين) (١) البلاشفة أنفسهم كانوا يصبرون بلقون خشن إذ لم تكن المواسي تصنع في البلاد ولا تستورد من الخارج . وكانت نسبة طوابع هائلة ، وكان عدد سكان هذه المدينة التي جرى عليها القدر المعلوم يقتصر بخمسة آلاف كل عام .

وهناك أسباب كثيرة تدعو إلى الاعتقاد بأنه حتى في ١٩١٨ ، ١٩١٩ كانت الدكتاتورية البلشفية تترك أخطاء طرافها وأن تشرح في تكييف نفسها طوعاً قهراً غير المستظرة في الموقف الذي وجدت فيه نفسها . أجل إنهم كانوا ضيق العطن محدودى الأفق مستمسكين بحرية المبادئ ، على أن الكثيرين منهم كانوا رجالاً ذوي خيال فسيح ومرونة ذهنية ، ولا سبيل إلى المشاحة في أنهم كانوا في كل ما أتوا من شر ، شرطاً في مقاصدهم متورطين بإخلاص على منهجهم . وكان جلياً أنهم يقومون بتجربة ذات قيمة عظيمة للإنسانية ، وكان ينبغي أن يتروكوا وشأنهم . ظهر حدث ذلك لا يضطروا أن يصلوا ما بين نظامهم وبين تقاليد النظام القديس البطيخة التطور ، ولوصلوا إلى التعامل مع الروح الفردية المستحصى علاجها روح الفلاح الزارع . ولكنهم لم يتروكوا وأنفسهم . لأنهم أثاروا منذ مبتدأ حياتهم معارضة جنونية من ناحية أوروبا الغربية وأمريكا . ولم يبد أحد نحو المفاهيم الماركسيين شيئاً من ذلك التسمح الذي لقيه حكومة القيصرة التي تعادى تماماً في عدم الكفاية وجر النكوارث على البلاد . فقاطعتهم الدول مقاطعة شاملة ، وكانت الحكومات الرجعية في فرنسا وبريطانيا العظمى تمول ونساعد كل مظاهر داخل روسيا وخارجها وتشجعه على مهاجمتهم .

(١) القوميسيرين . هم مسؤولو للشعب الروس الذين يتولون وظائف في الحكومة السوفيتية .
(الترجم)

وشرعت حلة صحفية بلبل أفكار الجماهير بمسلة من الترهات الخيالية السخيفة والآراء المربخفة عن البلاشفة . ثم إنهم كانوا رجالا عديمي الكفاية مستسكين بحرفة المبادئ ولحياتنا النظرية للبحث ولم نظرية اجتماعية واقتصادية ناقصة سيئة ، وهم يخوضون في الأحوال وسط بلاد متهدمة . وكان بين أتباعهم رجال أدنى إلى الوحشية وسوء السريرة . وإن أبة حكومة في روسيا ما كانت لتجد في إدارتها للأعمال الحكومية لإلمامة خزيلة وتحس في نفسها ضعف يدها من القيمة عليها . ولكن العناية المضادة للبشرية كانت تغفل مقامى موسكو في صورة شيء بشع لا ضريب له في تاريخ السلم ، وتلوح بأن مجرد إزاحة كابوسهم يكفى لإعادة السعادة والرجاء إلى روسيا . وكان للدعاة يقومون بين الناس ضد البلاشفة بما يشبه الحملة الصليبية ، ولكن تكون لمصلحتهم رد فعل مشرق في أذهان المفكرين المتحررين قليلين ربما كانوا لولا هذا الحال يظنون أميل إلى جانب القوي في الحكم .

ونتيجة لهذه السادة المنظمة ، اضطرت البلاشفة في روسيا منذ البداية نفسها إلى التزام وضع دفاعي يجسهم من العدوان الأجنبي . وهدأت عليهم الدعاة للمصاحبة التي كانت تلبسها تحرم الحكومات الغربية بأعظم القوة في داخل روسيا . وبالرغم من نظريات الماركسيين الثولية ، فإن الحكومة البلشفية في موسكو أصبحت حكومة وطنية تدفع من نفسها عدوان الأجانب ، وتتلعب بوجه خاص عن الفلاحين ضد عردة ملاك الأراضي وجباة الديون . كان ذلك موقفاً فيه كثير من التناقض والتشنؤ . فقد أنتجت الشيوعية في روسيا ملاكاً من الفلاحين . وكان نروونسكى يطلبه رجلا مسلماً ، ولكنه ترمى بفن الحرب حتى أصبح جنرالاً عظيماً بالرغم منه .

على أن هذه الروح العسكرية وهذه الوطنية التي فرضت هكذا قسراً على حكومة لينين ، وهذا الالتباه لكل للمركز على النجوم ، كان يحول دون إعادة تكوين البوليس والقوى النظامية التأديبية في الداخل إعادة فناء ، حتى ولو كان البلاشفة قادرين على مثل هذا الإعادة . والواقع أن الحكومة الجديدة حاولت عملياً استخدام البوليس القيصري القديم بكل ما فيه من جور وطرائق حاكم القضاة . وهطلت هيئة قبيحة

غلبة من البوليس السرى زمام سلطات قضائية حربية ، وانخلت لضبا قتاليد من صفك الدماء ثم اخلت نكافح الجواسيس الأجانب الواردين من الخارج وتناقص الإغراء والخوف والخيانة فى الداخل ، وتشجع تبعا لذلك نلهمها التصيح لىل إفزاع العقوبة بالناس . وفى يوليو ١٩١٨ أعلم القيصر وعائلته بأمر من موظف صغير حين علم بظهور بوادر تدل على أن قوة رجعية من الجنود يحتمل أن تتقدم . وفى يناير ١٩١٩ أعدمت حكوماتية البوليس أربعة من الثراندوقين هم أمم القيصر بمدينة بطرسبرج فى تحدى صريح لما قرره لينين من لإدعاء للتنبذ .

وقل الشعب الروسى زهاء خمس سنوات قضاه فى تلال هذا الحكم الغريب الذى ليس له من مثلى ، وهو يحفظ بنامكه مقاوم كل محاولة لتزيين وحدته وإعضائه . وفى أغسطس ١٩١٨ تولت إلى البر فى أركانجل قوات بريطانية وفرنسية ، ثم سحبت فى سبتمبر ١٩١٩ . وهلك اليابانيون جهوداً جبارة منذ ١٩١٨ لما تلاها لهم وأفسهم فى سيبيريا الشرقية . وفى ١٩١٩ لم يكن الروس بحارويون البريطانيون فقط فى أركانجل واليابانيين فى سيبيريا ، بل كانت ضلعم أيضاً قوة رجعية فى سيبيريا بقيادة الأميرال كولتشاك ، كما كان يهاجمهم كذلك الرومانيون فى الجنوب ومعهم محتلون فرنسيون ويونان ، ويقاثلهم فى بلاد القرم الجنرال دينيكين ومعهم جيش من الرجعيين الروس مزود بكليات هائلة من المهات الحربية والذخائر ما بين بريطانية وفرنسية ويملونه الأسطول الفرنسى .

وفى يوليه كان كولتشاك ودينيكين قد انصلا وأصبح فى يديهما جنوب روسيا الشرقى من أودسا إلى يوتا ، وكذلك أخذ جيش أوستونى بقيادة الجنرال بودنيش يتقدم نحو بطرسبرج . وكانما لم تكن خلاعة البلشفيك إلا رهن زمان يعد بالأصابع أو الأيام . ومع هذا فإنه ما كاد الحول ينتهى حتى كان جيش بودنيش قد شكت وتسمى أمره ، وحتى أخذ كولتشاك بكل أسباب التراجع إلى سيبيريا وتقهقر دينيكين إلى البحر الأسود . وحلت السفن البريطانية والفرنسية دينيكين والبقية الباقية من جنوده فى ميكر ١٩٢٠ ، وقبض على كولتشاك وأعلم بالرماس فى سيبيريا .

ولكن أعداء روسيا لم يكونوا يعطوها أية مهلة ولا راحة . فإن البولنديين قاموا بتحريض من الفرنسيين بحملة جديدة عليهم في أبريل ١٩٢٠ ، وواصل متخير رجسبي جديد هو الجنرال رانجل أعمال دينيكن في خزو بلاده وإهلاك الحرث والنسل فيها . ولم يلبث البولنديون بعد أن دفعوا إلى الخلف حتى ولبسوا أن استطاعوا أن ينصتوا بمساعدة الفرنسيين وامدادهم وتقدموا ظاهرين في الأراضي الروسية ، وعقدت في ريفا في أكتوبر ١٩٢٠ معاهدة ينظ فيها صالح بولندا اتسعت بها أراضيها . ولقي رانجل بعد أن دمر النظام والمجامل فوق مساحات شاسعة عظيمة نفس المصير الذي لقيه دينيكن ، ثم تقاعد في نهاية السنة وأخذ يعيش على حساب مكارم الدول الغربية . وفي مارس ١٩٢١ اضطرت الحكومة البلشفية - واستطاعت بالفعل - أن تختط عميلاً قام به الحارة في كرونستاد ، وهم « حرس البلشفية البراجوزي »^(١) وركبها الذي كانت تعتمد عليه .

وأخذت الدولة البلاشفة في أوروبا الغربية وأمريكا تُخلى مكانها في ببطء طيلة ١٩٢٠ ، لتفكير في الموقف ينظ عليه طابع الحكمة والتعبر . وكانت هناك صعوبات كثيرة تفرض سبيل « الاعتراف » بالحكومة البلشفية كاملاً تاماً ، وهي صعوبات ترجع في الكثير من شأنها إلى عدم التقبل الذي كان يسود الجانب المشرق أيضاً ، ولكن حدثت عند نهاية ١٩٢٠ أن نوحاً رديفاً من السلم الغليظ غير الأدنى ساد العلاقات بين روسيا ومعظم بقية العالم ، وأصبح في إمكان الباحثين الأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين أن يخطوا تلك البلاد ويخرجوا منها . وفي مستهل ١٩٢١ عقدت كل من إنجلترا وإيطاليا اتفاقيات تجارية مع روسيا . وأعاد مندوبون لروسيا يجاموا في هيئة « الوفود التجارية » تتج باب التواصل بين تلك القنطر المتبودة وبين بقية العالم .

ولكن كارثة من أعظم الكوارث وأشدّها هولاً كانت لها آنذاك للاتقاض

(١) الحرس البراجوزي (Pravobor) : حرس خاص البناء أو سطوس فيسر لنفسه وثبه في الاحتياط به أبلرة الرومله . (الترجم)

على هذا الشعب الرومى . فقد حل ببلاده فى ١٩٧١ قحط شديد لم يالف الناس له مثيلا . ولا بد أن القارئ اليب هذا الكتاب قد لاحظ فيها سلف مقدار تقلب المناخ فى المنبسطات الأرمينية العظيمة المحيطة بحوض قزوین . فهذه الأراضى إنما هى طبيعتها أرض قوم رُحُل ، ومن المشكوك فيه أنها ستكون يوماً مستقرا موطناً لعدد كبير من السكان الزراعيين . والآن وقد حل القحط والجفاف فإن المحاصيل تلتفت تلقاً تماماً فى مساحات هائلة من الجنوب الشرقى لروسيا ، وعقب ذلك ظهور أظلم جماعة عرفها العالم فى مجمل التاريخ للملون بأقله . فهلك الملايين من الناس . وهناك كانت حامير غفيرة من الناس وقرى بأكملها ومدن بأكملها تجلس فى بيوتها تنتظر الملاك ، ثم تهلك فلا . وطعم الكتيرون الدريس والرعى وأقلداً ليس إلى وصفها من سعل . وأخذ الناس ينشئون القبور عن الحرق ويأكلون لحوم البشر . وغطت مناطق عظيمة من سكانها .

ومع هذا كان هناك قلع فائض يحرق لافى أمريكا وحلها بل حتى فى أوكرانيا ورومانيا والمجر . ولكن المواصلات فى تلك البلاد كانت متقطعة كحطاً لا مطلق فى إصلاحه بسبب حالات كوالثلك ودينيكين ورائجل ، ولم يكن فى يد الحكومة البلشفية من الموارد ولا الكفاية ما تستطيع به أن تواجه هذه الكثرة المهولة .

وتألفت لجنة أمريكية ولجنة أخرى بقيادة الدكتور نانسن المكتشف القطب العظيم ونظمتا وسائل المرومة بمساعدة الحكومة وموافقتها ، وأدركت الأمريكيتين نوبة لا بأس بها من الأريحية فلنطعت موتهن نصب فى البلاد . ولكن الحكومات الأوربية الكبرى استجابت مستكورة أولم تستجيب مطلقاً لامتفالت الموقف للضرورة . فلما الحكومة البريطانية التى اتفقت من قبل منذ مليون من الجهنات فى عمليات عسكرية غير مشروعة ضد حليفها السابقة ، فلما لمطخت اسم بريطانيا التاسع بالعار يرفضها أن تشارك فى أعمال المساعدة . ولما يكون الروس - درس الحاصل الإنسان الذى كان يجب أن تفتنه الحرب العظيم البشرية - دوماً يبلغ حتى ذلك الحين منتهى الضلالة والصفر .

وحلى حين كانت الجواهر النعمة المتكودة تلك في الروميا ، كان الصبح
يضيح بندا في أجراه على بعد بضعة مئات من الأميال ، وكانت السفن في أوروبا
الغربية ملازمة للرافى قلعة المواد المشحونة ، وكانت مصانع الصلب حيث كان
فى الإمكان صنع القضبان والقاطرات - تطف جاسدة لأحراكها ، وكان الملايين
من العمال عاطلين من الأعمال ، لأن أصحاب الأعمال قالوا : لته ليس لم شىء
يصلونه . وذلك بينما أصبحت مئات من الأميال المربعة في الجنوب الشرقى لروميا
صحراء يلقا من الحقول المهجورة ومن بلدان الموتى وقراهم .

ومع ذلك لأن الحكومة البلشفية استمرت قائمة وسط هذا الخراب الماحق .
وأعلنت الضرورة الملحة لى الاعتراف بهذا النوع الجديد التريب من الدولة ،
والتعامل معه مهما خالفت طبيعتها طبيعتهم - تلور يوادرها في الزمن الأوربي .
ولما يزل العالم الثرى إلى يومنا هذا يصطرح وتلك الضرورة . ومساءلة لجماد
الترابط بين نظام وأعمال وبين نظام شيوعى بغسوسا كوكب واحد أعلنت
فواصل المسافات الكبيرة تنطم مه - لا تزال مسألة غير محلولة حتى وقت كتابة
هذه السطور .

وأعلنت العناية البلشفية وقد أطلت وجهها من الغرب للمادى لما ، تبلى
قفراً متزايداً من الرغبة في لإرضاء الجواهر الملقمة في الهند والصين . وكان لبلافة
على القوام ناحيتين ، ناحية للتهجين نحو الغرب وهى تمنح لى استخدام العلم
والمكينات والتنظيم الإكثاسى الكبير ، ويعطها لينين وتروتسكى ، وناحية للتهجين
صوب الشرق ، ولم يمول عسكرية وبدائية ونصوية ، وحلى رأس هؤلاء زينوفيف .
وكانت سياسة الحكومتين البريطانية والفرنسية تيمث لروميا على توجيه دفقة
اتجاهها نحو الشرق على القوام . ويلوح أن العالم الإسلامى قد أخذ متأثراً
بمثال لروميا يترد تطوره الذى طال الأمد على احتضاله . وأخذ موقف الحكم
البلشئى حيال منيات الأطلسى ، لى صاحت العالم تيفاً وقرنين ونصفا من الزمان
يشابه بالتجريح موقف الإسلام . فإن كلا منهما اتخذ موقف التشدد الصلب
والصمود الحاد . ذلك بأن الدول الغربية للتقمة على نفسها بما بينها

من منافسات ومصالح متناحرة ، لقيت كذلك مقاومة مطردة للزيادة لأصاليها واستغلالها في روسيا وتركيا وأفريقيا الشمالية وآسيا بأجمعها . لهذه المقاومة الهجمة وهذه الطاقة المتطاعة التي امتدت بها السلطة المضادة لها من جانب دولة أوروبا ، تطييك المقياس الحقيقي لكارثة ١٩١٤ - ١٩١٨ . فإن أيام السيطرة الأوربية الغربية على العالم قد أوشكت على الزوال .

وفي ١٩٢٤ توفي لينين . وخلفه ستالين ، وهو رجل من أهل جورجيا قوى الروح طرد وأعدم الكثيرين من زملائه السابقين وبخاصة تروتسكى ذلك المقتدر للجمهورية السوفييتية في أحلك أوقات حاجتها . ونجل أن ستالين شيوعى متمسك بالشوعية لا تأنطه فيها هوانة ولا موانعة ، وأنه وطيد اللزم على صد المجتمع الروسى عن الانزلاق نحو الرأسمالية أو المسيحية سواء . وقد حدث في إيران زعامة أن علم العدد الكبير من الكنائس وأن قاربت ممالك اليهودية الرسمية والعبادات المسيحية حد الاضطهاد . وكان لينين قد تساهل بط ما أصاب البلاد ما أصابها من عمن ١٩٢٠ - ١٩٢١ ، لاقته إلى التمسك مع الملكية المخصوصية والمساوى المخصوصية وأوجدت سياسة الاقتصادية الجديدة N. E. P. : حالة للأمرور في روسيا تكاد تشبه حال الأمور في الولايات المتحدة الأمريكية قبل ذلك بئس سنة . وشرع بعض القلاحين وهم يستحقون بحرية التجربة الجديدة يزيلون في التراء من جيوانهم ويطلبون المنافع لمآلاتهم . ويسمى هؤلاء القلاحون الأكثر ثراء باسم كولاك . وظهر التجار وصغار أصحاب المصانع وحالفهم اليسر والربح . وقد وقف ستالين مناهضاً لهذه العودة إلى علم المساواة بين الناس . ومحاولة الحكومة الروسية محاولة خشنة جداً أن تقصى على الكولاك الذين أنتجهم سياسة الاقتصادية الجديدة السابقة . ولقد كان الاتحاد السوفييتى يأكله يافى آلام تجربة عظيمة هي أوسع وأصعب تجربة لإعادة إنشاء الحياة الاقتصادية ظهرت في العالم على مر تاريخه كله . وهي تسمى مشروع الخمس سنوات وقد ابتدأت في أكتوبر ١٩٢٨ . فلما نجح المشروع فإن روسيا تصبح في مدى خمس سنوات أرض مزارع مخططة تديرها حكومة الشعب . وبها يصبح القلاح عاملاً أى زارعاً لنقى

من ملكيه . كما ظل ثأله في إنجلترا مدة قرنين ، ولكنه حامل يعيش في ظلال حكم شيوعي ولا بد من أن يُجعل بينه وبين العامل في المدن الصناعية تشابه ونمائل . ولا بد للاتحاد السوفيتي من أن يصبح منظمة منتجة هائلة تدبر مزارعها من أجل القائمة المشتركة

وهكذا حدث أثناء السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية ، أن اجتاحت لروسيا ثلاث ثورات ، وهي تعيش تحت هيمنة مجموعة واحدة من الزعماء ، فلما حاولت على التوالي أن تحقن أفكار الملحب الشيوعي وفكرات الاشتراكية التحررة وفكرات رأسمالية الدولة المنظمة تنظيمياً صارماً .

٦ - دولة لارلثة الحرة

خرجت الإمبراطورية البريطانية من الحرب العظمى مضطربة متهكة القوى مادياً ومحتوماً . فلما زهرة الشباب قد فثت ، أو أضعفتها بالجروح وشوحتها الهائلة أثناء العمل للمسكرى الملل . وأصبحت روتينات الحكم فيها وعادات الحرية في أرضها باعترال عظيم نشأ عن تشريع الطوارئ الضرورى أثناء الكفاح ، واعتلت صحافتها لماً احتلال بسبب ترجيحها للدعاية . فلما الأخبار التي تروى عن المسائل الأجنبية قد فاعلتها فساد ملحوظ . وتعرض الجمهور العام لحملة من سوء الإعلام حول مسئولياته قبل الإمبراطورية ، وفضلا عن ذلك فلما عالم بالأعمال من جوالح مزكزة شغلته حتى تغلر عليه أن يقسم لقشون الإمبراطورية نصيباً من عنايته . كان ذلك زمان فرصة سمحت لسوطف الأحق المئز بلاته ، وكان يستفيد في كل مكان أعظم الفائدة من ثمراته .

فكانت هناك في كل مكان ، اللهم إلا في تلك الأجزاء التي تحكم نفسها من قبل نفسها - عملية مثائلة تعمل عملها : وأصب بها تسخطاً يكاد يقتصر بصورة منظمة صادراً عن الشعوب المحكومة لما لقيت من ألوان التضحيات والتنظييات غير المحقولة والإحانات والاعتقالات النفسية وما شاكل ذلك من التدخل في الحركات . ففى كل مكان كانت طبقة المسكرين والموظفين خارجة على كل نظام وسيلطان .

وفي كل مكان ظهر عنصر المحافظين (الثوري) القديم بمظهر المكب على إسطحات إنفجار .

وهذا الحال يصدق على كل من الهند ومصر وإيرلندا على السواء . ففي تلك السنوات ، سنوات الإعمال وضعف الرقابة المركزية أثارت سلسلة التجمع ونكت المهود المقطوعة لأهالي البلاد ، والاصلاحات الوهمية الخدعة التي تهدف إلى تسكين هياج الصهار القلقة بأرض الوطن (إنجلترا) ، ثلاثة فئات جميعاً ، (حتى السكان للفئود المسالين أنفسهم) إلى درجة استشرقت المصيان . وجاءت فترة من الزمان كان التحنير والظوم ينعمان أدراج القرباح . وكانت الأساليب السمجة التي تستخدمها في تجريد الجلود إداة الحكومة في الإنجاب سبباً في انقلاب هذا الجزء من البلد من ولاية من أشد الولايات ولاءً إلى حال شديدة من الفلق والاضطراب . وحدثت القلاقل ، وعوج الأوربيون وفات حالة تشبه حكم إرهاب الموحدين بلغت لوجها في منجحة أرمينسار (أبريل ١٩١٩) عندما أطلقت النار على جمهور كبير كان في معظم أمره غير مسلح قتل ٣٧٩ شخصاً وجرح عدد يربو عن الألف . ولم يبلغ أخبار هذا الاعتداء المتكرر إلى ضائير الجمهور البريطاني في أرض الوطن حتى صدر تقرير هنر في أنغريات ١٩١٩ . وعند ذلك أظهرت العناصر الخفية في الحياة البريطانية أثرها رداً من الزمان . ومع هذا فإن طوداً مجتهداً من الحكم يرى إلى الصلاح والقرامى برثاسة اللورد ريدنج بوصفه نائب الملك قد أخطه وادعت فساد آرائه عناصر الرجعية في الحكومة البريطانية . وفي ١٩٢٢ حكم على المستر لاندي^(١) وهو مبشر بالمقاومة السلبية يشبه القديسين ، بالسجن ست سنوات ، وبهذا صار أحد الشهداء .

(١) المستر لاندي (١٨٦٩ - ١٩١٨) ، ولقب بالهاتما أو الحكيم الأعظم . وشهرته أعظم من أن تحتاج إل بيان ، فهو دمج الله الإجتماعي والسياسي . ولد بالهند وقانون بلندن واشتغل بالعلماء سنة ١٨٨٩ . وفي سنة ١٨٩٢ أصبح محامياً بمومباي . وعاش قائم حق المقاومة السلبية ضد التفرقة في المطلة بين الملوك واليهود ، وما إلى الهند سنة ١٩١٥ واستعمل طريقته تلك في الكشف ضد الحكم البريطاني . وعمل بتكليف بفتح المصيان نحو الصين لا يتركه عنه شيء يراه أنه ينسوق إلى العنف - حتى وقع في سجنه وظفرت معه بالخطا في ١٩١٧ =

وتواصل نزاع مماثل هنا في مصر . وكان يعوق الزواج إلى التظام ويحبطه . داع
غريب منقط ينزع إلى التجمع . ولكن أشد القصص إلحاحاً وأدعاهما إلى الأسى في
كل هذا أثبت لفرون الذي يسجل على البريطانيين العجز وعدم الاقتدار في زمان
منحت فيه القرمص البديعة ، هي قصة الكفرة المزايمة المفرقة بين المسلمين الإنجليزى
والإرلندى .

في أيام السليبيين الإرلنديين العظميين المسلمين وأحقهما الأخوين ريموند ،
كان ما يزال يبدو أن في الإمكان أن تعيش كل من الجزيرتين إلى جانب أختها
معاونتين تعاوناً حراً تدفعه الرغبة ، وفي حال من الوحدة الودية القائمة على المساواة
على حين تشاركان مسؤولية بريطانيا في الإمبراطورية وتواجهان العالم معاً . لأن
المسألة الداية بينهما تتطلب مثل هذه الرابطة الوثيقة . فرغاء إيرلندة وإنجلترا يشابه
رغله الثوأمين السليبيين الذين يرتبط جسيماهما برباط السروق والشرابين . ولم يكن
ينبغي أن يسمح للأحقاد القديمة والفرق القديمة أن تكون سبباً لمنع نشوء تعاون
صحيح دكى . ولكن الأمر لم يكن هو الأحقاد القديمة ، بل إن الأحقاد الحديثة هي
التي دفعت إيرلندة في طريق الانفصال . وقد أسلفنا عليك كيف أن السير إدموند
كارسون نابتة الشر في الشعوب البريطانية ، أدخل الأملحة لأول مرة إلى
إرلندة ثم أبقت وحرك عملية مرحلة من العنف والانتقام في البلاد ، وكيف خلعت
إرلندة في أول الحرب من حكمها اللتى ، وكيف أن الحكومة البريطانية وعلى
رأسها السير آسكوت قد أعانت إيرلندة إما عن عناية وحفلة أو عن قصد وتدمير ،
بإختلالها هذا الرجل الملتع يد بالدماء والتفريز بالأرياء عضواً في حكومة
الاصطلاح . وأبعدناك كذلك كيف قبح المصيان في دبلن وأنزلت من أجله
القنويات ، وكيف زاد ذلك فد مرارة حبيطة لإرلندة . ونتائج كل هذا صريحة
واضحة على صفحة التاريخ .

— وكان يلعب من وراء الستار دوراً فعالاً في المفاوضات التي انتهت بالاستقلال في ١٩١٧ .
وبلغت جهود فاسلح للسليبيين بعض المتطرفة من المستقلة لتفصيل في أبريل ١٩١٨ .
(المترجم)

في ١٩١٤ نزلت لورنثة ساحة الحرب العظمى بساحة وإندام كاتيجترة مواء
يسواء . وكانت ما تزال بلداً منعزلاً ممدناً . وعند نهاية ذلك الكفاح كانت لورنثة
قد أصبحت أرض خثة ثائرة لا تمسك إلا بالقوة القاهرة . فإن الاستعمار المتطرف
قد ألقى رد فعله في صورة الوطنية المتطرفة . وكانت لورنثة قد عدلت آنذاك مصرّة
كل الإصرار على أن تصبح جمهورية متفصلة تماماً عن بريطانيا العظمى .

ولجئ في البرلمان البريطاني قانون حكم ذاتي جديد في ١٩٢٠ . وبه تأسس برلمانان
مفصلان ، أحدهما في آلستر والثاني في الجزء الباقي من لورنثة ، مع وجود ترتيبات
تتعلق إلى الصان بينهما وإمكان إدماجهما أحدهما في الآخر . وكان بالقياس إلى
مشروعات قوانين الحكم الذاتي السابقة تغييراً فيه شيء كبير من السخاء ولكن
الإيرلنديين رفضوه بجلالته .

فإن أعضاء حزب السين لين الذين انتخبوا أعضاء في برلمان ١٩١٩ لم يقبلوا
حتى أن يظهر في دستور لمنافسته . وفي الوقت ذاته كانت أساليب المصيان
والتمسك من ناحية ، وسياسة القمع من ناحية أخرى تحوّل البلاد إلى مسرح لحرب
المصائب ، فكان المعصاة يدرون ويكنون ويتناون ثم تروا في النهاية إلى أن أصبحوا
يقاوتون في معارك صغيرة حامية الوطيس بفصائل صغيرة من الجنود . فلما الجنود
الإنجليزية وكانت حصة الملوك في البداية ، فلها أغريت القور وشجبت على التدخل
في دور الانتقام بالمثل . ونظم بوليس إضافي خاص هو « السود والعصر »^(١) ميز
نفسه بأساليبه الخشنة الشديدة .

وأخذ شر الاعتداءات يتفاقم متطرداً . فكان قتل كل فرد في هذا الجانب
أو ذاك يفضي إلى قتل أفراد . فإذا قتل جندي أو فرد من أفراد القوة الإضائية المسماة
بالسود والعصر قتل نظيره فرد من الطرف الآخر ، وبما كان أو لم يكن له ضلع
في الجريمة الأولى . وكان كل طرف في هذا التناحر يجهد أن يبدأ أخاه في القسوة .

(١) السود والعصر (Black and Tans) فرقة إنجليزية من خبيرة أنشئت لتضع ثوزة
الإيرلنديين ، وسميت كذلك بسبب ملابسها وأسلحتها السوداء وبطونها الكاكي . (الترجم)

حتى تنهى الأمر إلى أن لم يعد أحد يأمين في منزله ولا فراشه . فإن رجلاً من أحد الحريين أو الآخر ربما جاءوا بليل يطرقون باب أحد الناس بثمة حقيقة أو خيالة . فكان الرجال يقتلون بالرصاص على أبواب منازلهم . وسرعان ما تحول هذا إلى إعدام العائلات بأسرها . وفي ديسمبر ١٩٢١ اقتصر العسكريون انتقاماً عن وقوع أحد عشر تلميذاً في المدرسة الحربية في كين ، فألقوا على القتل والسلب حتى لقد دُمّرت أملاك يبلغ ثمنها ثلاثة ملايين من الجنيهات . وبديهي أن تصاحب السرقات ويزدهر قطع الطرق في مثل هذا الجو .

وأصبح مشروع الحكم الثلاثي قانوناً حاسماً الأحكام في ١٩٢١ ، وتكون بمقتضاه برلمانان إيرلنديان ، أحدهما قنصل والثاني للجنوب . وانتخب البرلمان الشمالي في وقته للمعين ، وقبض الملك في احتفال فخيم في ٢٢ مايو ١٩٢١ . ورفض أهل الجنوب قبول البرلمان الجنوبي فلم يتجمع أبداً ، واجتمعت في دبلن هيئة كونت نفسها بنفسها ، هي الدليل إيريان (Dail Eireann) ، معلنة أنها برلمان لأيرلندا المستقلة ، وتستخفي لكرسي رياستها المستر ديفالبرا الذي كان مؤسسها الأكبر .

وكان الملك قد ألقى في خطاب افتتاحه البرلمان الشمالي خطة ملوفا للتسامح والرغبة في السلام . وانتخب المستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية هذه المناسبة فدعا المستر ديفالبرا والسير جيمس كيريج لحضور مؤتمر يعقد في لندن لبحث الشؤون الإيرلندية ، ودعى الطرفان إلى إنشاء هيئة من العنف ، وهي هيئة نظمت على أحسن ما تسمح به حالة البلاد المضطربة ، وفي ١١ أكتوبر ١٩٢١ افتتح في لندن مؤتمر يباحث فيه المستر ديفالبرا وزعماءه المختارون عن (الدليل إيريان) وحاجهم بوجه خاص سيا رجال قادوا ثورة مسلحة إلى نصر مؤزر ، - مع معلى الحكومة البريطانية في موضوع مستقبل أيرلندا .

وكان هذا أمراً يسر كل إنجليزى مفكر سروراً يخارب جلداً أى أمر يكره في ١٨٦٣ لدى رؤيته جيمسون دافيز يتفاوض مع أبراهام لنكولن في واشنطن بشأن مستقبل ولايات القطن . ذلك أن انفصام أيرلندا التام عن بريطانيا ليس مجرد أمر جميل نظاه الأفضى فحسب ، بل هو أمر خطر جداً وربما كانت فيه الكارثة على كل من

البلايين . ولكن هذا الاصراف القليل بالمقارنة كان يرشمة ، مع الرجل الإنجليزي لأصدقائه المختارين أنصار كارسون بأن يصنعوا له ، وكان عليه أن يزدحمها على أحسن ما يستطيع من التجميل والوقار . وكان للشهد في عوايت حول^(١) في أكتوبر ١٩٢١ أثناء مؤتمر دوننج ستريت مشهداً حزيناً جداً . فقد رفع كندر عظيم من الرايات الإيرلندية والشعارات القومية الإيرلندية في حال تحدي ظاهر ، ولكن ملوك جمهور لندن لم يكن منطويًا قط على التمسح بل تبدى فيه للودة والعلف .

وبعد مظاهرات كثيرة وصل الطرفان إلى تسوية أقربها البرلمان البريطاني كما أثرها (الذي لإيران) ، في كثير من التمتع والمقاومة . وفيها فانت إيرلندة في الحياة بالولاة الحاج البريطاني ، وتهدت بعض القيود البحرية والبحوة وأصبحت كلها (فيها هذا الأسر البروتستانتية التابعة لحكم البرلمان الشال) ، دولة مستقلة هي دولة إيرلندة الحرة . وكان هذا نصراً عظيماً للشغل والجبر والفرجة في السلام . فاستقرت بذلك حرية قائمة ومبغت وحيدة شكلية . ولكنها كانت تسوية مهددة من كلا الطرفين .

واختصر المستر ديغاليرا على المعروف لأنه عجزى إيرلندة ولا يملك بريطانيا إذلالاً كافياً ، وحرص أنصاره على العودة على الدولة الحرة الجديدة . كذلك يملك السير إدوارد كارسون وهو عند ذلك قاض برتبة الوردية قصارى جهده - بالرحم مما ألقه القضاء من الوقار ، ليؤكد ويلدكي روح العنف ومفك السماء في الأسر . وكان من أثر هذا أن دولة إيرلندة الحرة كانت في سبيل الحياة بصعوبة شديدة وعلى نهضة الطلقات الثائرة والصراخات للدولة في هجم الليل ، وكانت البلاد مليئة بالشبان الذين لم يتعلموا أية صناعة إلا حرب العصابات ، وكانت حوادث العنف والإخلال بالنظام قد تمكنت من قلوب السكان ، وأعقب ذلك حرباً أهلية بين الجمهوريين وعلى رأسهم ديغاليرا وبين جيش الدولة الحرة .

(١) تلوح وهي بين برمان تراجالير وفلوي البرلمان بلندن وتبلغ به معظم مور الحكومة -
(الترجم)

ذلك بيان موجز لقصة الفصل الأول من مجلداً عن إنجلترا . وكان كل ما عقب ذلك من أحداث يصل إلى توسيع حوة الخلاف وتصيقها - وقد اختل الزمان بميل كوتز وكيشن أو هجنز ، ومما السياسيين الإيرلنديين اللذان لعلهما كانا يستطيعان رفقها . ونخل ديقالبرا عن الحرب الأهلية ووصل إلى مقاليد الحكم بالوسائل البرلمانية وكرس جهوده لزيادة لقوة اناسا . وصدر دستور جديد أعلن أن أستر جزء من دولة جديدة أسموها *Eire* ، ومعناها « التهادي » ، ومن حين الحظ أن التهديد اقتصر فقط على القسط لا التنفيذ . ثم انهز ديقالبرا فرصة تنازل الملك عن العرش في ١٩٣٦ والأزمة التي نشأت من جراءه لقطع كل علاقة دستورية له بالكومنولث البريطاني ، لما عدا مساكنة تعيين السفراء والمبعوثين الإيرلنديين باسم الملك . علماً أن هذه الرابطة كانت من الزمن بحيث استطاعت دولة آيار أن تلزم الحياء في الحرب العالمية الثانية ، واستبقت سفيرها في برلين ، وأعلنت تعزيتها الرسمية للألمان عند وفاة هتلر . ثم تمكن منافسوا ديقالبرا من انفصاله عن كراسي الحكم حين أنشأوا ضدهم ائتلافاً ، ولكن ذلك الائتلاف زاد في بئر العلاقة الواحدة الباقية .

إن هذه سلسلة الأحداث التي ينبغي أن تكون مصدراً لصيق الفلق والأسف لدى للشميين الأمريكي والبريطاني على السواء ، كانت نتيجة قسرية الطرائق التي استعملتها الطبقة البريطانية الحاكمة إبان فترة ما بين الحربين في معاملتها للشعوب الخاضعة للإمبراطورية . وقد جاء أولاً بدت فيه الإمبراطورية البريطانية في صورة الأمم المنشقة لانحداد كفتورالي ومثل ما يكون من شعوب حرة ، إما تتكلم الإنجليزية أو تتخذ منها لغة دولية عامة (*Lingua Franca*) ، وتطور عقائد عظيمة وأجندة ملأها الصراحة في القول والمعاملة الواضحة والمناقة في كل أرجاء العالم . وقد جاء حين من الدهر بدأ الناس أثناءه أن هذه الشبكة الفضضة التي سبقها التفاهم المشترك الذي يزداد في كل آن عمفاً والتعاون الذي يزداد على الأيام اتفاقاً مع الولايات المتحدة الأمريكية ، ربما لعبت دوراً قاتلاً في ربط أجزاء العالم بعضها ببعض في وحدة تعظمهمها جيماً . وكما أطلقت مثل هذه الأحلام بجمال كاتب هذه السطور نفسه ، ولكن المؤرخ

مزم أن يكون مالدبه من حقاق - والحقائق التي نزلها هنا لا تسير هاتيك
الأحلام إلا أسوأ مسيرة .

وقد أظهرت الأيام أن تطعيم الطبقات البريطانية الحاكمة لم يبلغ من الاتساع
والسلامة القدر الكافي المناسب لما بين أيديهم من جزات . فإن الرجال الإنجليز
الذين يندم الأمر لم ينفخوا من بعد الهمة وقوة الشخصية ولا من الاحتكاكية الحاد
الكافي الذي يؤهلهم للتمعات التي تصدوا لها وتولوها . والعالم لا يستطيع أن ينتظر
البريطانيين حتى يقودوه . وقد نشأت الشعوب الناطقة بالإنجليزية من أن
تطور المنظمة الطبيعية والمنظمة الخلقية التي تسوغ ادعائنا زعامة البشرية ،
ومن ثم نهزأ الجزات والفرص بهم وعمر مراحاً . فإن الأجسام والشعوب التي كانت
في يوم من الأيام تسليماً . السلبية الغريبة مريداً لها ورافهاً فيها انحلت الآن ترمم نفسها
نهجاً جديداً من التجريب وتفكر على أصمها الخاصة بها . ويتسع ميدان التقدم ويأكل
يوم يجب أن يقع فيه أولئك الذين كانوا هم للقادة في زمان ما بأن يسايروا
سائر الناس .

٧ - الشرق الأقصى والأدنى

(١) الصين : أشرنا فيما سلف إلى سقوط أسرة مانشو في الصين في ١٩١١ .
وبدل هذا على إدراك الذكاء الصيني الطليعة الرجة التي عليها نظامهم الإمبراطوري
العديد . لذا لم يتردوا في نيل الرداء القديم . ولكن أثنى لم الرداء الجديد الذي أحدثوه
لترتليه بلاדם . فإن الجمهورية الكبرى من السكان ظلت في ميلها التي ما ظلت
تسله قرناً بعد قرن ، آية متجبة بالنيل فقيرة مسألة ، عفاة على القديم ،
ومن فوق هؤلاء كانت الأقلية المتعلمة تكاليف عارولة أن تكشف نظاماً جديداً
ذات كفاية لتحلها محل الحكومة العليا التي شاخت ثم تلاشت من الوجود .

وانتشرت في الجنوب مبادئ جمهورية ترغى صيغ البلاد بالروح الغربية تحت

زعامة الدكتور مَن يات سين^(١) . وكانت الحكومة الجديدة التي أقيمت في بكين جمهورية برلمانية شكلاً . لي أن القوة الحقيقية كانت في يد صاحب التصرف في قوات البلاد المسلحة ، ولاح في الأفق رجلاً من الزمان احتل نفوه أسرة مالكة جديدة يؤسسها موظف عظيم ورجل دولة كبير هو يوان تشيه كاي . والواقع أن الملكية أعيدت بالفعل في ١٩١٥ ، ولكنها ما لبثت حتى ثلاث ثمانية في السنة التالية . ولعب اليابانيون دوراً دبلوماسياً لها لم يكن مناصر من حلوله بين الصينيين من خلافات . فكانوا يتناصرون هذا الحزب أولاً ثم ذاك ، لمخلصهم سياسة عامة هدفها منع الصينيين من أن يعبدوا بناء دولتهم للانحطاط بناءً قوياً متأسكاً .

وانضمت الصين إلى الحلفاء ضد ألمانيا في ١٩١٧ انضماماً متأخراً غير ذي أثر ، موملة أن تنظر من وراء ذلك بمركز دولي تقاوم به ضغط اليابان العناني عليها . وازداد تاريخ الصين يوماً بعد يوم اضطراباً منذ وفاة يوان تشيه كاي . فإن حدثاً من القوات العسكرية وثبوا بمناطق قسيحة وأعطوا يتنازعون فيما بينهم على السلطة العليا . وقامت بالصين حكومات متنافسة كانت كلها ترسل العمراء إلى أوروبا ، وأغلقت الولايات المتحدة واليابان والبلوك الأوربية الكبرى تدبير المؤامرات المفضدة وتنصر هذا الرجل أو ذاك . وفي نفس الوقت واصلت الحياة العامة سيرها في السبل التقليدية المكرمة التي كانت على أيام الإجماد ، ولكن ظهرت تطورات جسيمة في إنتاج المصانع وأعمال البنوك . وأصبح التعليم عسرياً . وأجريت التجارب في تبسيط الخط والكتابة . وإن هناك شيئاً يجذب خيال المؤرخ هراً حيفاً في شهوده هذا العدد الضخم من الناس وهو عمل الروابط القديمة لكيانه الإقاربي ويحاول في عاية ونحس لطريقه أن يبحث عن فرجة يصل بها إلى المعاملات الجديدة الكفنة في التنظيم الاجتماعي والقوة الحشدة .

(١) من هذا الموضوع ومن تاريخ الشرق للأستاذ بكائه وقت الاستعمار الإبراهيمي في النظر للتاريخ كتابه : أسيا والسيطرة الغربية ، والرداد بالتركي - طبع في طرندة المصرية في تأليف والترحة

وقد قضى على الصين بعد فن البوكسر بأن تدفع تعويضات باعطة للدول المتلفة التي أصيب رعاياها في هذه القن . وقد تجاوز الأمريكيان - في شيء عظيم من الحكمة - عن هذه التعويضات على شريطة أن تخصص للتعليم ، وأرسل عدد عظيم من الطلاب الصينيين إلى الجامعات الأمريكية بوصف كونهم بواكير ثمر هذه الفكرة الكريمة . وكان الفرنسيون آميل إلى إنشاء البنوك ومشروعات السكك الحديدية . ووجه البريطانيون واليابانيون نصيبهما توجهها غير واضح مقبلاً بين أعمال التعليم والصحة والأسلاف وبعض الأعمال الاقتصادية الثقافية .

وقد جاء أوان بات محتملاً فيه أن يصبح الأمريكيون آباءً ورحلين للصين . يد أن الجامعين للشبان الذين كانوا يعودون من الولايات المتحدة وقد استلوا وطابهم علماً فزيراً بالثقافة الغربية ، وبالتفهم للصناعى الشرقى ، أصبحوا جميعاً بلا استثناء من أتباع الفيلسوف الصيني من يات سن ، الذى سبق ذكره . وانقضى ردح من الزمن أصبح فيه الدكتور صن كعلم وفيلسوف ، على نفس أهمية لينين لدى الروس . وظل الناس ريع قرن يقرؤون « وصيته » في المجتمعات العامة كأنما هي إحدى الثمائر ، وينحتون أمام صورته ، ويسلمون بأن « مبادئه الثلاث » هي الأساس الذى يقوم عليه كل برنامج سياسى . وهذه المبادئ الثلاث هي : (١) - الوطنية ، ولم يكن يعنى بها الوطنية العادية ، التى أهلكك الحرب والنسل بأوروبا وآسيا ، ولكن يقصد بها إحلال الإخلاص للمجتمع محل الإخلاص للعائلة ، وقد وجد أن لا منقوحة له في ذلك الزمان وهو ببلاد الصين من أن يدخل في هذا المبدأ الأول فكرة الحاجة إلى حرمان الأجانب من امتيازاتهم . (٢) - الديمقراطية ، أى حكم الشعب بما في ذلك النساء اللاتي كان يفترض حتى ذلك الحين أنهن جنس أدنى من الرجال ، (٣) - العطفة الاجتماعية أو كفالة وسائل العيش للناس جميعاً ، وهى تعبير صيني من الصبر ترجمته . وكان ثمانون بالمئة من الشعب الصيني من الفلاحين ، وكانوا جميعاً بلا استثناء فقرياً مدينين للمرابى أو لمصاحب الأرض أو لها كليهما . وربما كانت العبارة مهمة ، ولكن معناها لم يكن ليخفى على أوساط النامى بن الصينيين ولا على الدكتور صن .

ولم تكن مبادئ الدكتور صن بعيدة كثيراً عن مبادئ نيقولاى لينين ، ولا كانت شقة الخلاف بعيدة بين حاجات الثوريين الصينيين والروسين . وما أسهل ما توصل الطرفان إلى إضاق ، وفي ١٩٢٤ تولى عضو بالحزب الشيوعي الروسى هو ميخائيل بورودين مساعدة الدكتور صن في تنظيم للكونميتانج ، وهى حزب تأسس على قيادة الثلاثة . وتمتعت الحزب فروع محلية وفرض عليه نظام دقيق واتضح به العمال والفلاحون ونظم منه فصيلة عسكرية بكاتيون (وهى المدينة الكبرى الوحيدة التى كانت تحت سلطان الدكتور صن) تحت قيادة ضابط صينى شاب اسمه تشيانج كائى شاك . على حين أن بقية الصين كلها كانت تحت سيطرة أمراء حرب . شأن بريطانيا بإبان حكم الممالك السبع^(١) : للالم يعبروا أى الفئات لما كان يجرى في الجنوب . وانقضت بضع سنوات وأسماء مثل ين و (وو Wu) ونينج ولوشانج تطرق الأسماع كأنما لها شيء من الأهمية ، وقام في بكين ظل لحكومة مهتمة بتطبيق عملياتهم الحربية ، ولكن لم تكن لديها السلطة الكافية لإيقاف الحروب بينهم عندما يشارونهم لم سويلا . وفي ١٩٢٦ أحس الكوميتانج وقد أعيد تنظيمه أن لديه القوة الكافية لتصرف وإياهم . فلأن جنده المتمردين حليفاً فضوا على جند أمراء الحرب المتمردين العديدين التدريب والكفاية ، فكانت الماريشالات يستقون كأمواد الهشيم . ولم تخصص بضعة مشهور حتى أصبح جنوب الصين بأجمعه في أيديهم . وكان لابد لهم للوصول إلى الشمال ، من الاستيلاء على حوض نهر يانج تسي كيانج ، وهو النهر العظيم الذى كان يعتمد عليه الشطر الأعظم من التجارة الصينية ويحول دون الطلب عليه حقبة كاداء وعدو أشد رغبة من الماريشالات هو الأجانب . وكان البريطانيون أشد هؤلاء الأجانب بأساً وصلفاً . وقد نظم الكوميتانج عليهم حملة مشددة لمقاطعة التجارة قامت بضعة أشهر . وصرت لحظة حربية حين استولى الكوميتانج على هانكاو ، وهى المدينة المظلمة المائلة للزراعة

(١) الممالك السبع (Hupshang) : يعتقد بعض الناس أنه مرت على إنجلترا فترة تسمت

فيها إلى سبع ممالك : سوكس ، سوكس ، كنت ، سوكس ، ليست أنجلها ، روسيا ، لودنبريا . وهو الذى يرد ذكرها في أدب شكسبير . (المترجم)

بعداً في أحالي اليانغسي ، وكان بذلك المدينة « متعلقة امتياز » بريطانية ، ولكن الكومنتانج أوضح بما ليس ورامه شك بوسائل الاضراب والتهديدات المسلحة أنه لم يعد مراقبة الأجنبية بقاء بالصين . ومن حسن الحظ أن الحكومة الإنجليزية كانت أحقر من « رجالها القدماء بالصين » الذين كانوا يكونون المقالات بالمصحف مطالبين بالحرب : ففتحت باب المفاوضات ومسلمت للصين « مناطق الامتياز » هانكاو وكيوكيانج . لقد هزم الأجنبي وانتهى أمره . ورحلت جيوش الكومنتانج شمالاً واستولت على يكن بقيادة تشيانج كاي شك الذي تزوج من شقيقة زوجة الدكتور صن . وعندئذ لم يبق بالصين من أمراء الحرب سوى تشانج الذي كانت في يده إمارة منشوريا المنعزلة . وكان إلى الجنوب منه بالقبض الخنرال لينج وهو « قائد مسيحي » كانت له في يوم ما شهرة واسعة (ويقال إنه هد جيشه على للمسيحية بفتح خرطوم المياه عليه) فأعلن اعتناقه التام لمبادئ الكومنتانج .

ولكن كتب المحطم على الأمل في وحدة الصين وسلامها ، إذ أن الدكتور صن مات في ١٩٢٥ . وفي ١٩٢٧ رأى زعماء الشيوعية الدولية أنه قد آن الأوان للقيام بالخطوة التالية (وهي خطوة ضرورية منطقياً من وجهة نظرهم) وأخفى بها خطوة الانتقال بالبلاد من حكم الكومنتانج القائم على السيطرة المبلبة « للجوازية الصغيرة والفلاحين للملاك » إلى الدكتاتورية البروليتارية . ويقال إن بورودين نفسه قد أحج على ذلك هو وأرملة الدكتور صن ، ولكن ذلك لم يكن قليلاً . وبدى بالخطوة التي أكلوها على نقابات العمال المشاغبة التي أنشئت حديثاً ، وكان جواب الخنرال تشيانج كاي شك ساعقاً قاضياً . وكانت هانكاو عند البداية في قبضة الثوار ، على حين جعل الخنرال قاعدته في عاصمته الجديدة نانكين . ولم تنقض بضعة أسابيع إلا وقد صار الشيوعيون أشلاء متاثرة وأصبح تشيانج قابضاً على الجهاز الحكومي الصيني بأكمله . ولكن القبض على الجهاز الحكومي شيء والقبض على الصين ذاتها شيء آخر ، ولو أن تشيانج نفذ المبادئ الثلاثة « لسارت الأمور على غير ما يرام » ، يد أنه اضطر في سبيل القضاء على لوار هانكاو إلى الإعتماد على الطبقات القديمة من

أرباب الأملاك والموظفين وأصحاب الأعمال ، وجندوا أصبح من الحال عليه أن يدعى أنه يقوم بشرة اجتماعية .

وأنشئت الطرق وملت أمبال عديدة من خطوط السكك الحديدية وبلديه في إنشاء المصانع وتم قدر عظيم من المشروعات التعليمية وساهمت الدول الأجنبية في المشروعات واستثمرت رؤوس الأموال الأجنبية . ولكن الفلاحين لم ينخلصوا البتة من ديونهم (فضلا عن الإيجارات) ووجد عمال المند ، أن الحكومة تحظر عليهم كل جهد يملونه لتحسين أحوالهم عن طريق اتحادات العمال وتقاباتهم . أما المبادئ الثلاثة ، فإن الشعب الصيني حصل من الحكومتان على شيء قليل من المبدأ الأول ، وهو : (الوطنية) ، أما الأجنبي فأعيد بشدة إلى مكانه الأول ، كما أن عبادة المائدة قد أبطلت بعض الشيء . وبقى الفكر اليسر من المبدأ الثاني : (الديمقراطية) ، وذلك لأنه رغم أن الصين صارت جمهورية يعامل فيها للنساء معاملة لا بأس بها ويستمتع القوم فيها ببعض الحريات والسن الديمقراطية ، فإن الدولة لم تكن في الواقع إلا دكتاتورية حزبية يرأسها الجنرال تشيانج كاي شيك ، ولم يبق أي شيء من المبدأ الثالث (. الملائمة الاجتماعية) . ووجد الشيوعيون التهمزون كثيرا من الأخوان والأنصار بالقرى ونها لم أن ينشئوا بولايين كيانج سي وهونان المركزيتين وحللت حاكمة تمكنت في مدى عدة سنوات من تحدي محاولات تشيانج للقضاء عليها ، ويرجع ذلك إلى أن الحزب الشيوعي نظم أثناء الأزمة الملمرة التي مرت به كيف يصنع المطالب الفلاحين ولا يابه كثيرا بنظريات معهد ماركس لأجل بموسكو . وقد حلت هذه الوحدات الحاكمة فضلا عن حرب المعصنات التي تكاد تفوقها في تكثير صفوف الحكومة - دون تمككه من تحويل الصين إلى دولة موحدة . وبقى بعد هذا كله قائدان من أمراء الحرب ، أولهما تشانج الذي كان مستقلا استقلالاً فعلياً بمشوريا ، وثانيهما الجنرال المسمى الماكر فنج ، وقد تمكن من جعل جنته في قبضة يده فحال بكس . ولم تكن هذه الأمور ذات خطر كبير ما استمتع للعالم الخارجي بالسلام .

(ب) اختيار الإسلام : كان نفس ارتشاح الفكرات الغربية وأساليبها وتطبيقاتها ، التي ترتب عليه تفويض مدينة الصين للتيق يعمل عمله في كل أرجاء الشرق الأدنى

بقوة تزايد كل يوم منذ الحرب العظمى . إذ يلوح أن ذلك السبات الطويل
للتطوى على القذرية وعدم التمسح الذي وان على الإسلام قد أخذ يقرب من نهايته .
فإن العلم الإسلامي يستخدم الآن كصحف والطراف والاسلحي والتطبيقات
التعليمية المصرية والدعاية المصرية . وقد أسلفنا عليك شيئاً من نهوض التركي بعد
جزيمته ، وعن وحدة العرب الموحدة . وإنا نلاحظ في إيران اشتداداً في مقاومة
الإسلام لاستئصال الغرب الميرد .

وكانت إيران قبل الحرب العالمية الأولى مرتعاً خصباً يجد فيه قناصير الليلومانية
الأوربية كل ما يشتهون من لمبيد ، ويهدد الرجال والنساء من سكانه أنكاد مكان
لميش . وكانت لروسيا تضغط على القطر النص من الشمال . وتضغط عليه بريطانيا
من الخليج الفارسي ، وبذلك كل واحدة منها كل ما تستطيع لإغصاع الفتحة بالأخرى
وإيقاع الأذى بها . واكتشفت في البلاد موارد عظيمة للبرترول ومن ثم أخذت الدوائر
الأمريكية المهتمة بالزيت تروء طرقاً منحرفة من التحرير والمناصرة . وكانت للبلاد
أمسوخة لحكومة برلمانية أوربية برئاسة شاه ، على حين أن القوة الحقيقية كانت
تتقل بين أيدي رؤساء لإقطاع يتخاطفونها . فكان أحدهم يسير على الأشر ويقتله .
وكان للروسيون قد وضعوا في البلاد لواء من القوزاق ليكون في طاعة الحكومة
إسمياً ولك رموا منه في الواقع إلى السيطرة عليها . وأنشأ البريطانيون هيئة مقابلة
هي شرطة النظام^(١) تتباطها من السويديين ، كان مفهومها أن لها مهمة دولية .
وكانت هذه الهيئات للتناصرة تميث في البلاد قسداً وتقتل الآمنين باسم النظام الأوربي .
ولم يفت الألمان أن يديروا المؤتمرات بواسطة الأملاك بغية القضاء على كل من
البريطانيين والفرنسيين .

وكانت حامية عسوط أنابيب الزيت أو تحريكها أو تعميرها هي مطلب الرسمى فيها
يلور حوله الموقف من خطط لستراتيجية مقلنة . وكانت الحرب العظمى في إيران

(١) فرقة شرطة النظام أو البندمية (Clandestine) : فرقة من الجنود المسلمين تقوم
كطوائف الخمر والنظم بمصر بضبط الأمن وببشر الأعمال الجبلية . (المترجم)

قصة غارات وزخوف للجنود واستيلاء ومغامرات يقوم بها القوزاق ثائرة والألمان جيتاً والبريطانيون جيتاً آخر وقوات القبائل من الأماشي طوراً . وكلما تفرجعت النصر بين الألمان وعصومهم كان الإيرانيون الذين لم تكن بينهم هذه المنازعات الأوروبية في كثير ولا قليل ، يسترضون البريطانيين أو يهاجمونهم . وأقام البريطانيون دهرأ بعد الحرب وهم أصحاب الكلمة الأولى في فارس ، ولكن مركزهم بدأ في ١٩٢٠ بهتة تهديداً خطيراً غزو بلشأ أماد سابق الضغط القديم الذي كان يمارسه النظام التبصري . ولكن روحاً لفر قومية وأكثر استقلالاً عن أوضاع الديبلوماسية أخذ يثبت وجوده على التدرج . وذلك لأن الوعي القوي الإيراني أخذ يذرع ، وأن هبة الغرب أخذت تلوى . وظهر رجل قوى هو رضا خان ، وأمسك بزمام الحكومة في ١٩٢١ ، هضفاً برياسة الشاه الإسمية . ثم عقد مع روسيا السوفيتية عاقدة ركزت البلاد على أمس من استقلال أعظم وإكبر مما كانت فيه لمد سنوات صليمة . وفي ١٩٢٦ تخلف من الشاه وحل في العرش عله ، وهو حل لم يثير الوضع إلا بالإسم فقط .

ومن فارس شرقاً إلى ساحل مراكش على الأطلسي ، على كامل امتداد خط التماس بين عالم المسيحية القديم وبين العالم الجديد ، تظهر هذه السنوات التالية للحرب حالة معقدة من المنازعات والشغب بين الإسلام والبول النرية وتهدى في الجانب الإسلامي مقداراً أكبر كثيراً من التمسك ووحدة القرض ، بل لقد أبدى ذلك الجانب في النهاية وحدة في العمل أقوى وأبرز مما أبداه الجانب الغربي . فاما البول الأوروبية فقد عيت من الخطر الذي الملق بها ، ومن ثم فهي تواصل التمسك إحكامها للأخرى على نفس منوالها القديم المتج في القرنين السابع عشر والثامن عشر . لقد ازدهر الانجار في الأسلحة إما علانية أو خفية وأخذ الاحتفاظ بولاء الجنود البلديين يزداد صراحة من يوم إلى يوم .

في مراكش واصلت أسبانيا حرباً باهظة الثمن لا نهاية لها ضد عصيان محشد يزود بالسلح الأوربي والأمريكي . . . وكم من مرة ألت بهم الكوارث والاضهقرات والاتسحابات ، ولواقع شخص ببت اسمه عبد الكريم لل مرتبة الزعامة في

الريف . ولى نفس الحين كانت فاس بيد الفرنسيين الذين ملغوا سلطانهم وفتحوا
لملاكهم إلى جنوب أراضي قبائل الريف ، محتجين عن إسله أى تعاون مع
الأسيان حتى انقلب عبد الكريم في ١٩١٥ يصوب منافسه وناقته عليهم ويشير
إلى احتمال بدء حرب طويلة خطيرة .

وسرعان ما بلغ عدد الرجال للثنتين بعك الحرب في الجانب الفرنسي مع
وعشرين ألف رجل ، وأنتج فع الفرنسيين للثورات في مراكش ضد في أراضي
الانتداب السورية . لأن الثورز^(١) ثاروا على الفرنسيين وأوقفوا بهم خصائر
بالغة . وامتدح للسكان العرب عن معاونة الفرنسيين وأصبحوا مصدر خطر عليهم .
وأصبح الخطر على فاس خطراً على دمشق أيضاً . وإلى الجنوب استطاع العرب
الوهايون أن يرغموا ملك الحجاز الذى يحب البريطانيين على التنازل عن العرش
(١٩٢٣) ، وأن يدفعوه إلى المنفى . فاستولوا على مكة وملغوا سلطانهم في
تريدة ورموخ قلم في الأراضي الحجازية المرموقة . وقامت بحصر اضطرابات
لاكتفى ، لأن المصريين تحت الحكم البريطانى كانوا أشبه شىء ببلن يضل في إناه
مسبل النظام .

وكل مكان من العالم الإسلامى رحبت لإيطاليا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا
تقضى على الحياة القديمة للعالم الشرقى بما تقوم به أجهزة دعاباتها من نشاط
وتستثير في الإسلام وحيا ذاتيا جديدا . وأخذ الأتراك والعرب والمصريون والهنود
المسلمون يتباحثون معاً في الامبريالية الغربية ، واكتشفوا أن لهم مصلحة مشتركة
في القضاء عليها . وقد خفف الوقت الضغط الذى كان مسلطاً على الفرنسيين
في مراكش ، ويرجع ذلك إلى عازقه المارشال ليوتى من عبقرية عسكرية
 وإدارية ، فأمر عبد الكريم وأرسل إلى المنفى في ١٩٢٦ . فأما الحكومة البريطانية

(١) إذ قلنا حدث في الواقع حو أن الجنرال سرفى الفرنسي دعا إليه زعيم الحدود
ثم احتلهم ليلة وفدا ، ولهم عد الفدا بلشا الأرض فطر الجبل كله بقيادة سلطان بالما
الأرض . (الترجم)

فلما تبعت أحداثها القديمة من الرضوخ غير الكريم والإذعان تحت الضغط الشئ . الذى كان ما فطر عليه الصحر والظلم لمواطنيها الإنجليز من الميل الى التضام وحسن الية مستحيا للمصالح به عن طيب خاطر . فقبلت بعد كفاح دام طويلا بينها وبين زفول باشا واليهيخ الوطنية التى تكونت بمصر وسميت باسم الوفد للمصرى ، إلتقاء الحماية البريطانية على مصر وسمحت بإعلان استقلال مصر فى (١٩٢٨)^(١) وحصله حقيقة فعالة . فحصلت على الحماية القديمة معاهدة تحالف هجومية دفاعية وصح مشروحيها أولا فى ١٩٣٠ ووقت فى (١٩٣٦) ، وبها أصبح فى الإمكان دخول مصر عضو بحسبة الأمم بوصفها دولة مستقلة ذات سيادة . وتخذ الموقف على البريطانيين فى شرق البحر الأبيض ، لأن وزارة الخارجية البريطانية أصيبت فيما يتعلق بالمسألة الفلسطينية بداء الشيزوفرانيا (التضام النفسى) ، فأخذت تعطى المرحود المتناقضة للعرب واليهود الصهيونيين جميعاً . وبما يشهد يتفوق الادعاء التاريخى وتغلب على الحقيقة الواقعة ، أن يتوج بالنجاح كفاح طويل ومقد قام به فرح ميين من المجتمع اليهودى فى العالم كله ، العودة إلى بلد انقطعت صلته ولو الاسمية باليهودية منذ أيام الملك ألفريد الكبير (انظر الفصل ١٨ قسم ٢ ، ٣) ، بلد أعظم الاحتمالات أذ الثانية العظمى من أجدادهم لم يعيشوا فيه مطلقاً . ومن عجب أن مسألة قيام دولة لإسرائيل المضيرة الناطقة بالصراية أصبحت لدى عدد ضخم من اليهود المصريين الذين جمع التلمود وأسفار العهد القديم محلهم فى مجتمعات واحدة من العادات والبلوك والمساواة المتبادلة - أصبحت من الأهمية القصوى بحيث شطت فى حقولهم تماماً على احتمالات أعظم من ذلك كثيراً ، هى احتمالات توحيد العالم التى تواجه البشرية . وبما يزيدنا لهماً على ذلك الوضع ، صياح وحيد الطاقة الفكرية المائل والتعاون العالمى للرحب الذى تحول بهذه المسألة عن سبيل الخطة العامة للبشرية . فلان الصهيونية جعلت اليهود يقفون بمعزل تام عن واجب بث الطامع المصرى فى المجتمعات السامية والإسلامية الأخرى ، التى ربما كنا نتوقع منهم أن يرضوا فيها بدور يتم بالوداعة الثامة . إى لاكتب هذه التقييمات الواضحة هنا وأضعها إلى حوار

(١) الصحيح أن ذلك كان فى ٢٨ إبريل سنة ١٩٢٢ . (المرجع)

انتقادات إلى أشد قسوة وتعنفاً لأفكار البريطانيين وأسيابهم . وقضى أنه لن يقرأها يهودى واحد من المتوسمين بالصهيونية دون أن يصاب بالحق الشديد والاسياء للرير والاثام إلى بأتى داعية شرير من دعاة « السياسة البريطانية » .

٨ - الديون والقود والتثبيت النقدي .

أسفنا إليك في بياننا عن الثورة الفرنسية ، بحثاً في العلاقات الأولية بين الائتمان والقود وبين الحياة الاجتماعية . ولكن التزحزح الاجتماعي الذى ورثته فرنسا عن الثورة والحروب التى نجمت عنها ، كان تأليها بالقياس إلى الصطلح المائل بعد الحرب المظلمى ، فاجتثع في نهاية القرن الثامن عشر سكان من جميع نواحيه عنصراً أشد بساطة وأكثر استقلالاً من المجتمع الأوروبى العصري المتقدم السيج . وكانت حياته الاقتصادية والاجتماعية محصورة بين دفتى حدوده . ولكن للصوبة الخاصة في الموقف العصري ، هى أنه بينا العلاقات وردود الأعمال الاقتصادية ، قد سمحت من أمد طويل على تحوم الدول القائمة ، بسبب التغير الضخم في وسائل المواصلات ، وعلى حين أن في الإسكان اليوم تقل السلع الغذائية الرئيسية والهيال كتلة وجملة من أى جهة في العالم تقريباً إلى الأخرى — وهو أمر لم يشهد الناس له من قبل مثيلاً إلا في الزمن المرسلة إلى روما الإمبراطورية — كان الرجال لا يفتقرون بالأقسام السياسية الصغيرة ، والدول المستقلة ذات الميادة ، المؤسسة في ظلال الأحوال البائدة .

والحق إن التفضيل والأوامر التى تساند الناس حول الميادة القومية وما يلازمها من الوان المصعب نحو « الله والملك والوطن » ، وما إليها ، هى لتقطع المخرقات المباشرة الأخرى في الناس في هذا الزمان . ولا بد لكل دولة من أن تكون حرة في تكوين قوامها الخاصة بها ، وتنظيم انبائها ، وإحالة مرور وسائل المواصلات في أرضها وإقامة حواجز من الصريفة لإيقاف بغض التجارة . ولا بد لكل منها أن تستلزم ديونها الخاصة وأن تظل على ما هى عليه من الوقوف في سبيل التبر وإظهار العندوة له والتسلح تمام ضد جيرانها المائلين لها مائلة جوهرية . ولا بد لكل منها من إقامة

نظامها الطبيعي الخامس ، ومن نظم البشر لها تاريخاً متحيزاً كائناً ، وبت فروق
قوى مسم ومملووة للأجانب مائة في كلد جبل جديده .

وكانت القوى التي عادت على أوروبا من تلك الفئة الموروثة : الدول ذات
السيادة ؟ التي لا يربطها فيها بينها اتحاد ، - تقام تحينها بسبب الموقف الدولي المخرج
الذي ظهر حتماً تكررت في أوروبا على صورة أضخم كثيراً بعد الحرب العظمى ،
عملية الارتباك والانهك الاقتصادي التي أصابت فرنسا بعد الثورة الفرنسية . لقد غص
التفكر كل دولة ، ولكن كل دولة كانت قد جمعت حساب التيون التي لها على كل
دولة أخرى مقابل للمساعدة القومية في الحرب التي كانوا فيها حلفاء ، كذلك
فرضوا على الملوكين فريضة من ديون خيالية مضحكة . ومع أن الولايات المتحدة
كانت في اللغة الأخيرة من الحرب العظمى خصماً لألمانيا ولقيت من الآلام أقل من
أية دولة أوروبية لما أصبح في الموضوع ، فإن الدخائر والميرة الأمريكية قلعت لكل
حلفائها ضمن باطل مبالغ فيه ، فكانت أوروبا للملك مغبة عند ذلك لأمريكا ديناً
يقعد الألسنة دهشاً .

ولا شك أن الرض الصريح لمعلم ديون الحرب وملحيات الحرب هذه كان
غير ما يضمن الجوى العالم بأكله ، ولم يكن شيء يستطيع أن يتلوه بالقدر اللازم
من الجرأة والصرامة إلا حكومة اتحادية قوية في أوروبا . ولكن لم تكن لأوروبا
حكومة اتحادية ، ولا سياسيون ملوكون ولا قادة رحيب الفكر ، بل كان هناك
كل ضيق الألق من الملوك ورجال الدولة والسياسيين وزعماء رجال الأعمال الذين
يحملون على الطريقة الأمريكية ، والصحف الملوثة الألق القاصرة نظرتها على
لغتها ومناطق توزيعها ، والعلمين الذين توهم الدولة ، والمجاسات القومية وجاعات
المالين ، الوطني النزعة ، وكل كان ينطلق فواده فرقة لجرد التفكير في أي نظام
أكبر من نظامهم يحو الزايا الشخصية العميقة التي ينسبون بها على حساب الدولة
الأوروبية الحرة (Commonweal) . إنهم ليرفضون أن تكون لهم أوروبا مشتركة .
وإنهم ليأبون أن يسموا في ذلك كلمة واحدة . وإنهم ليرفضون أن تعوت أوروبا على

أن تزول قوسياتها . وكأني بهم ذباب يقع على كومة من قاذورات ويأني إلا أن تبقى .
ليسمع بها ما صاحبه الاستعاج .

وهكذا فإن أوروبا إلى الغرب من روسيا دخلت من الناحية القسرية في د
تصمت فيه شخصية شايولوك^(١) ، فإن الخطط للديرة لتسديد ديون الحرب العالمية
هذه كانت تستغل الطاقة الذهبية بأكملها للرأى العام ، وفي نفس الوقت أثبت
كل دولة ذات سيادة طرائق خاصة بها في شئون النقد . وحلت كوارث الفقر
وهته بكثير من الناس ، وأثرى للكثيرون ثراء فاحشاً عموماً عن طريق المضاريبات ،
ولاح للناس أن إنفاق النقود أصوب من جمعها . فلئن توقف إنشاء المنازل للناس
الساكنين ، فلم يكن هناك ما يجوز دون بناء وتحسين قنادق القرف . ولم يحدث قط
في أوروبا مثل هذا الاقبال الشديد على الرقص ولم يحدث قط مثل ذلك الاهتمام الكبير
بالقمار والولائم . وكان وجه أوروبا يتوهج بحمرة الحمى المهلكة .

وجاء انبهار النقد في روسيا أولاً . وهناك شجعت الحكومة الشيوعية
ورحبت به . فأخذت المطابع تنتج الروبلات بلا حساب ، وبسط القبادل وارتفعت
الأسعار حتى أصبحت الليضة أو التضاحة تباع بمشرة آلاف روبل . ولم يعد قفلاح
ما يدفعه إلى اكتناز النقود أو إلى العمل من أجل اكتنازها . وكان في نية غلاة
الشيوعيين إلغاء كل بيع أو شراء حر . وكانوا يرمون إلى جعل النقود بلا قيمة .
حتى أن يقدر عمل المواطن يطالقات تسلم إليه على فترات دورية ولا يمكن تبادلها بين
الأفراد ، ولكنها تحمل كويرات قابلة للفصل لتنظم الطعام والكتب والسفر وما إليها .
ولكن الحكومة البلشفية اقتضت في ١٩٦١ بالحاجة إلى مساعدة هذه السيولة الاقتصادية
التي لا ينحصرها لنا النقود ، وظهرت عملة روبل جديدة ، كان فيها كل روبل
مساوياً لمشرة آلاف من القديمة . واستبدلت بهذه في ١٩٢٣ عملة الشرفونتر
(Chervonets) وهي روبل ذهبي يعادل في القيمة الروبل القيصري قبل الحرب .
وذلك هو لقاعدة العملة اليوم . وقد أصغر بحكمة وتيسر فاحفظ بقيته إلى

(١) شايولوك : عمسية رباب يهودي جليح في رواية نادر البغية تشكوب
(الترجم)

يرمى هنا ، وهو يسجل حيز النظام الاقتصادي البلق من فصل نفسه عن الأساليب والبادلات والديون المستلقة القائمة إلى الغرب منه . فإن مسألة النقود في العالم واحدة ولا يمكن أن تحل إلا بوصفها مسألة عالمية .

ولم نجر إلى الغرب من روسيا أية محاولة للتخلص من استعمال النقود مخفصاً نهائياً ، ولكن كان هناك في كل دولة تفكك بضوات مقبارة . وكان ابتلاء لكاتيا بالنقود بالنار القصاء وهو يبرز لنا العملية العامة في أكل صورها . وبلغت الحكومة إلى المطايح لنجزها من أن تجمع بالضرائب الأموال الكافية لقابلة التزاماتها الخارجية وحاجاتها الداخلية . وكلما زادت مقدار الماركات للندولة ، ارتفعت تكاليف الإدارة وارتفع سعر العملة الأجنبية اللازمة للفتح المضريسات وهذا الأمر استلزم من الحكومة الصجوء مرة ثانية إلى الطبعة . وفي يناير ١٩٢٣ بلغت قيمة الدولار ٧٧٦٠ ماركاً . ثم حدث انهيار سريع . فإنه كان يساوي في فبراير ٢١٧١٠ ماركاً ورقياً . ويجاوز في يوليو حد المليون . وفي نهاية السنة كان قد بلغ أربعة بلايين من الماركات الورقية .

وكانت الآثار الاجتماعية لهذا التضخم الخيالي المضحك للنقود الموثوق بها ونحوها إلى ورق لا قيمة له ، آثاراً عميقة حقاً . فإن جميع طبقات الناس الذين يعيشون على استثمارات ذات فوائد ثابتة كأرباب المعاشات والأرامل والأيتام خوى المراتب السوية وغيرهم ، قد أدقت ودفعت إلى إنيان الحقر وأذل الوسائل في سبيل العيش ، وتوقفت كل أعمال النشاط العلمية والأدبية والتعليمية المتصلة على المبات . ولم يستطع الموظفون ولا للموسون ولا أرباب الحرف ومن إليهم من أشخاص يعيشون على مرتبات ثابتة أن يزيلوا ألبداً في دخلهم زيادة تناسب مع ارتفاع الأسعار . وكان ما يحدث إنما هو في الواقع نوع من الدبج الاقتصادي المتعلمين الفقراء . وانضمت الإيجارات من الوجود ولكن أثمان جميع الضروريات حلت في الساء تحليلاً مضحكاً .

وفي نفس الوقت أصبح كل راعن أملاكه وكل شركة أعمال في مركز يخولهم أن يدفعوا ديونهم ورقاً لا قيمة له ، وتبخر دين الحكومة للداخل ومُكلف البلديات .

في الداخل وانقضى وقت تشتت فيه عمليات التصدير نشاطاً محسوماً . وأصبح من الضروري لرضى حواجز قوية لمنع تصدير كل شيء ثمين في البلاد . ولكن استيراد الطعام والمواد الخام عبط إلى لا شيء ، وعبط استخدام المال هبوطاً سريعاً بعد أن ابتدأ بنشاط قوى . وأمسى الطعام نادراً في المدن لأن الفلاحين ، وقد أدركوا إنعدام قيمة النقود لم يعودوا يقبلون في التعامل إلا بطريقة المقايضة . وكان الجوع والألم وانهم نصيب كتلة الطبقات الوسطى والفقراء للطبقتين المتصديتين . وأوقفت نسبة الانتحار لارتفاعاً شديداً . وعبطت نسبة المواليد ١٥ في المئة بالمقارنة إلى السنة السابقة . وبالرغم من هذا فإن نسبة وفيات الأطفال زادت ٢١ في المئة .

وكانت المطاعب السياسية تضطرم في كل مكان حركات رجعية وعصيانية . ولعل شعباً واحداً لم يكن يستطيع تحمل هذه العاصفة إلا الألمان ، ذلك لثقب الختم النازي . وفي نوفمبر أنشأت الحكومة عملة جديدة . فأصدرت ماركاً جديداً هو « الرينك » بضمانة ما في البلاد من الأرضة العامة ، وأوقفت طبع الماركات القديمة ، وكان المارك الجديد ماركاً مكافئاً لليون من المارك الورقي . وترتب على تقييد الطبع تقييداً شديداً ، أن ارتفع المارك الجديد بالتدريج حتى بلغ مائة الف مارك الناجح ، وبذلك استطاعت ألمانيا أن تعود أيضاً إلى ولايتها القديم بعبارة الذهب . وحل الرينك مارك الذهب محل الرينك في ١٩٢٥ ، بقيمة معادلة لقيمته ، ومن ثم أنشئت النقود في سحب الرينك شيئاً فشيئاً .

وقد حدث في أقطار عديدة من أمثال النمسا وبولندا أن عصية النقود أوشكت أن تبلغ فيها مبلغها المزعوم في ألمانيا . وظلت كل منهما تترنخ حتى حدثت إلى عملتها الحالية الجديدة المعدلة . فاستخدم النمساويون عملة جديدة المحاسبة هي الفلين ، وأوجد البولنديون الرلوني وبكلهما يصد على أساس الذهب ، فأما عملات الأقطار الأخرى من أمثال تشيكوسلوفاكيا واليونان وفيتلند ، فإنها وإن تضخمتم ، فلقد تضخمتم في حدود الاعتدال واحتفظت بوحدتها النقدية الأصلية في ضرب من كليات على صورة عملات خمس أو ستم قيمتها الذهبية السابقة . وتضخمتم عملة إيطاليا وفرنسا والبلجيكا في حدود أعين من هذا كثيراً . فعبطت الليرة من ٢٥٤ إلى مئة للجنبة الإسترليني

قبل زمان موسوليني ، وبعد أن مرت في دور من أدوار الطمانينة المشكوك فيها
 أنضمت تواصل المبروط تدريجياً إلى ١١٠ و ١٢٠ و ١٣٠ . وعند ذلك وضعت في حالة
 من التضييق القاسي ، وثبتت ، على مستوى جديد يزيد قليلاً على ربع قيمتها
 الأصلية . على أن الفرنك الفرنسي والبلجيكي والليزيتا الألبانية هبطت بدرجة أبداً
 منها قرصاً ما . وتجاوز الفرنك حد المئة للجنيه في ١٩٢٥ ، ثم أصيب بأزمة ، وحطت
 ثوبه ذعر مالي عُدك بعدها إلى خس لونه للشرائية قبل الحرب الأولى .

وتدهور الجنيه البريطاني عن قبته الذهبية بعد الحرب العظمى ، ولكنه لم يبلغ
 قط إلى حد فقدان أكثر من ثلث قيمته ، وفي ١٩٢٤ - ١٩٢٥ ، وبعد مجهودات
 مضنية وتضيق للائتمان ، وإيقاف للمشروعات والأعمال وأزمة خطيرة في البطالة ،
 جلب من جديد إلى مساعده التقديرة للونلار الذهبي . ومرت على الأنظار
 السكتنارية وعلى هولندية وسويسرا تجارب صغيرة نسبياً في ارتفاعات العملة
 وانخفاضاتها ..

وما هنا إلا تاريخ العلم نظره لك على هيئة الحساب والأرقام . ولا بد
 للقارئ من أن يتخيل بنفسه ضخامة المخاوف وصنوف الحرمان والتقلق واليأس القاسي
 والمحن القاسية والأمراض والقنوط والموت التي سببتها هذه الألاحيب الباهوومرية
 القلابة في العملات الأوروبية لو أنها ترجعت إلى لغة الشعور الإنساني .

وحادت بريطانيا بصعوبة إلى معيار الذهب ردماً من الزمان . ولم تقدم للعالم
 حلة مثالية ، ولكنها لاحت غير معيار في مستطاع العلم ، على حين كانت الضود
 حائزاً تحت هيمنة عدد كبير من الحكومات المضطلة . ونظراً لأنه لم تكن هناك
 حكومة عالمية عامة ولا حكومة اتحادية تستطيع أن تتصرف في هذه الشؤون ، فقد
 لاح من الضروري أن يسلم الناس لسيادة الاقتصادية في الأرض إلى أحد المادان .
 وكان للمدن مادة مواتاً ، ولم يكن يستطيع أن يستجيب لزيادة الثروات والثقمان في الثروة
 الحقيقية ، وكان يحمل كل نشاط إنتاجي جديد يدفع الجزية لأرباح الماضي . ولكنه
 لم يكن حل الأكل يستطيع أن يفسر أو يكتب ولم يكن كالبشر فيه شيء من سوء الفطن
 بالخير والتعامل للوطني على الغير .

ولكن كان في المستطاع إيساكه واحيله . وكان من أثر دفعات اللين الهائلة التي دفعت لأمريكا وغرتها أن تراكمت كميات عظيمة جداً من الذهب في حليين القطرين . وهناك اكتزوه وأصبحت القيمة الفعلية للدولار المسكوك من الذهب أقل من عمله . دولار الذهب الرقمية العادية . وكانت العودة إلى مبيار الذهب في زمان كانت فيه إنتاج السلع يفوق على وجه العموم إطلاق الذهب لتصبح منه الفقد - لمرأ المبالغ اللاتين دون غيرهم . هبطت الأسعار فجئى الدائنون أكثر مما يلزموا وعزل كل جهد وسعى اقتصادى .

٩ الانهيار العظيم في ١٩٢٩

صار العظم في طريق الانتعاش حتى شتاء ١٩٢٩ . وكان لا يزال يعاني من آثار الحرب . وكانت تنازعه عوامل التبدل والارتباك من أكثر من ناحية ، ولعله كان في غير وحي منه يرجو ظهور عام ١٨٣٠ - أو ١٨٤٨ لكن يصبها له المسائل وبضيا الجو من حوله . حل أن الزمن كان يعني له شيئاً عظيماً من ذلك تماماً . ولم يكن ذلك ثورة يوجهها رجال - مهما يكن عدم كفايتهم علماً - فقد كان لهم مثل علماً تلهمهم ولتلكار بقدمونها لأتباعهم من الناس ، ولكنه كارتة عامة مجتاحة وقلبية ، لم يفهم العظم مصدرها ، وكانت حواشيها شراً أكلها عليه . وقد شددنا من التاكيد في الأقسام السابقة من هذا الكتاب ، على عيوب علم ما بعد الحرب وخيبات آماله ، بحيث لم يعد يجب علينا أن نوجه إلا تمسكاً صغيراً من الكتاب لتبيان السبب الذي من أجله أصبحت سنة ١٩٢٩ لدى ملايين من الناس سنة أسيرة في السنوات اللحية التي كانوا يشتمون إليها بأبصارهم .

وأول أسباب ذلك شعورهم بالأمن من الحرب . أجل إن عصبة الأمم كانت حتى آنذاك مجرد عصبة لبعض الأمم فقط ، فقد ظلت الولايات المتحدة خالصة حياً خفية للفضيب ، ولم تكن الروميا مبالاة إلى دخولها كالم يسمح لها أصحاب العصبة بالانضمام إليهم . وحل الرغم من قص جناحها على تلك الشاكلة ، فإنها حالت دون اتساع رقعة

حروب صغيرة ثبت في جور الآلان وسيليزيا ومقلونيا ؛ أجل ربما لم تجمع من القوة ما يمكنها من إطفاء الملوك الكبرى عند حلقها ، ولكن دولة واحدة كبرى لم تبد رغبة في تحديها . مثال ذلك ، أن إيطاليا أعلنت أن « القاشية ليست مملكة للتصليح للخارج » وغالبا ما أظهرت نحو رأي العصبة من الاحترام أكثر مما كانت تظهره كثير من الدول الأخرى الأكثر ديمقراطية . وثانيا : حدث تقدم عظيم في المعرفة العلمية والصناعية ، وكان مما أدهش الرجل العادي بوجه خاص اتخاذ الطيران وسيلة عادية وبسيطة لسفر وشيوع استخدام اللاسلكي في التواصل بين أجزاء العلم ، وأخير أجمعت فكرة يسر ورغد للرجل العادي . أجل كانت هناك مستشفيات من هذه القاعدة العامة ، فكان ثم بريطانياون حتى من المالبين الذين تركوا مليون رجل عاطلين بلا عمل يعملونه ، وكان ثمة تطو مثل بلاد الصين ، حيث انقرض داء متوطن . ولكن سكان العلم على الجملة كان لديهم منفع أكبر من الوقت للصحة والفتية وقدر أكبر من المواد للفتاة مما كان لديهم من قبل . أجل إن سكان الولايات المتحدة كانوا يبدون في صورة الغراء الذي يكاد يكون عياليا . وقد انصهت هذه الأحوال الميسرة السهلة ، حرية مياية أكبر . حقا إن شعوب شرق أوروبا لم تكف عن اضطهاد أقليتها ، ولكنها أصبحت أكثر اعتدالا وعادت لحان العصبة المختصة بالأقليات والانتدابيات بأخير الصميم ، إذ جعلت العلم والاضطهاد أصعب منالا وأبغض إلى النفس . أجل إن أم الشرق الأدنى كالعراق ومصر لم تحصل على حكومات غير فاسدة ولا ديمقراطية حقا ؛ ولكن للحكومات التي قامت بها لم تكن تقل عن حكومة بريطانيا في القرن الثامن عشر ، وهو تقدم عظيم في تلك الظروف . ولقد بلغ الأمر أن كان هناك تقارب بين الإنجليز وبين الوطنيين الهنود . وتغيرت الظروف ، فكف العلم الخارجي عن ملاحقة روسيا بالإلناء ، ودارت خصومات بين تروتسكي وستالين ، حول إمكان قيام « الاشتراكية في دولة واحدة بمنزل عن الدول الأخرى » ، فاز فيها الثاني وطرد تروتسكي من البلاد (١٩٢٧) فخرج حاملا معه نظريته في :

« الثورة المستديرة »^(١) . ولم يحزن لذلك من أحد سوى الثوريين المحترفين . ولم يلبث الاتحاد السوفييتي أن تحول في السنة التالية إلى « مشروع خمس سنوات » بقصد التزود بالصناعة ، وهو أمر بدأ في حين جبراته على كل حال - شيئاً المقاعد الخشبية . وكان الاحتفال الذي عامل به البلاشفة زعيمهم المظروح الذي لم يزد مخرجه من البلاد على كونه نفيًا - كان ذلك لاحتفال إجراء احتري قيصراً للوحشة التي أبدتها الثورة الفرنسية .

ويذكر كل من عاشوا أزمة ١٩٢٩ كيف بدأت في شارع وول سترت (Wall Street) في الرابع والعشرين من أكتوبر . وكانت يواردها عاصفة هوجاء من بيع الأسهم وانحدار مريع في الأسعار وهبوط شديد في القيمات التي كان هؤلاء المشتغلين بها يعرفون أنها متضخمة السعر . ولكن الذعر شاع منذ تلك اللحظة حتى نزل سطح الأرض بأجمعه شلل صناعي ، والشلل هنا كلمة تناسب المقام ، وذلك لأن الاضطرار كان أشبه بمرض ، ولكنه مرض لا مبرر له في الطبيعة . وكان انتشار الجوع والمصانع الصامتة والبضائع الملقاة جالياً والرجال المصلطون ، - نتائج طبيعية لأعمال البشر . أجل لم تحدث مجاعات ولافيضانات ولاكوارث قومية ولو أنه حدث ذات يوم فعلاً أن الناس صلوا إلى الله طالبين إليه أن ينزل بهم هذه الشدائد جميعاً لئلا يصيبهم مما كانوا فيه من همرة ؛ ولم تحدث حتى أية حرب ولاأى فساد في الأرض . ومع ذلك ، فقد حدث في أقصى بلاد العالم وهي الولايات المتحدة فيما يقول المستر هايدن جاكسون : « أن ما يداني العشرين مليوناً من الأتقى كانوا يواجهون الموت جوعاً وبردًا في الشهور الأولى من ١٩٣٣ » . وكانت أحوال الأقطار الأكل ثراءً أسوأ نسبياً . ودامت الأزمة إلى ما بعد ١٩٣٣ - بل لقد يمكن القول أنها لم تتوقف حتى جاءت الحرب والاستعدادات للحرب فوثقت حلاً لها .

(١) يشير الكتاب إلى ليهلين الأسلمون الذي قامت عليها ثورة البلاشفة وسياسهم وما :
(١) القولية الثالثة أي نشر المبادئ الشيوعية في العالم و (ب) الثورة وحرب الطبقات .

وكانت هناك أزمات تجارية هامة ما يقارب القرن . وكان الاقتصاديون يشهدون هذه الأزمات دون تأثر ولا انفعال كأنما هي ظواهر لاسبيل إلى ضبطها والتحكم فيها (وهو شأنها في الواقع ، مادامت الملكية الخاصة بمنجاة من كل تحكم ورقابة) ، وكانوا يلاحظون أن تلك الأزمات تعاود الظهور كل عشر سنوات تقريباً . ولكن أزمة واحدة من تلك القديمة لم تكن طالحة كهذه ، وذلك أن هذه الأزمة الأخيرة قد زاد من حدتها حقائق معينة ارتكبت . وقد ذكرنا لك آنفاً معظم هذه الحقائق ، ولكن ربما كان القارئ في حاجة إلى تذكيره بها . وكانت أولى الحقائق، الفقرات السياسية والاجتماعية التي وردت في معاهدة فرساي ، فقد تحققت في النهاية تبعات كاييز وغيره من الرجال إذ تحطمت وحدات قديمة التكوين مثل الإمبراطورية النموية ، وقامت مكانها دويلات صغيرة هزيلة كل تحيط نفسها بسياج من التعريفية البلجيكية . وحتى الإصلاحات المرغوبة في حد ذاتها قد نجلى أنها مصدر خطر ، فثلا كان إحلال الفلاح المالك مكان كبار أصحاب الأبنك شب الإقطاعيين في وسط أوروبا وشرقها ، سبباً في إحداث عيوب في الإنتاج الزراعي ، في بلاد لم تكن بمسبعية أن تعيش إلا على الزراعة . وما زاد الطين بلة ، سوء أثر « التسويفات » — فإن الاحتقاد بأن دول الحلفاء تستطيع أن تعيش إلى الأبد على حساب ألمانيا ، أخذ يوثق نتائجه السيئة التي لامتنع منها . وقد قُدر أن مشروع داور كان يعني أن ألمانيا تستطيع دفع ٨٠ ملياراً في الثانية الواحدة أي ٢٨٨,٠٠٠ ملياراً في الساعة لمدة لاحدة لها ، وجاء التعديل الذي أدخله مشروع يونج محللاً للمدة إلى ٥٩ سنة ولم يكن تحقيق مثل هذه الأخطام البشعة ممكناً ما لم تكن أمريكا مستعدة لإفراض النفوذ لألمانيا بلا حساب لتمكينها من الطمع ، فما يكاد ذلك الوضع يتوقف حتى يكون في توقفه أنيار ألمانيا بل وكل من يحملون عليها . وللراجع أن شر ما جلبه الكوارث على العالم سياسة الولايات المتحدة المالية . فإن الولايات المتحدة حاولت ماوسعها الجهد أن تتوصل بكافة الوسائل عندما الحرب إلى حمل حلفائها على تسديد ديون الحرب . وفي الحين قد كان

القائمون على الحكم لدى الخلفاء ، وهم قوم يصنعون بين قصر النخ و الجنتع يحولون دون تسديد الدفوعات . وانتهى الأمر بأن صار لايد من دلع جميع المدفوعات المالية ذهباً أو عيناً ، وأعلنت مجالس الكونجرس الأمريكية المتعاقبة تريد في الصريفات حتى صارت البضائع الأجنبية مبيعة ابعاداً فعلياً . (وقد نقلت آخر ترجمة بحركة معروفة في عام ١٩٣٠) . وأمكن إلى حين تجنب المشكلة بتكديس قناطر مقطرة لا تنفع لها من الذهب صبت من كل بلاد العلم وأودعت في ثورت توكس ، وكذلك أمكن تجنبها فترة أطول قليلاً عما قلته الولايات المتحدة من قروض للأفطار اللينة ، ولكن لا يبين من لبال أن الكارثة لايد وأن جمع بمجرد المطالبة بثلث الديون . وكأنما شامت الولايات المتحدة التحقق من مكابدة شعوب تلك البلاد الغلاب الشديد ألواناً ، فعمد رجال الأعمال فيها إلى طريقة البيع بالتسيط المساة (الشراء بالإيجار) ونشروا فلك بحيث أن عائلة من كل اثنين أصبحت مدينة بمن سلعة أو أخرى ، وزادت المقامرة بالأسهم والسندات في لندن الكبرى زيادة فاحشة حتى لقد اشترك فيها العمال وصغار الموظفين .

وكانت هذه الكارثة التي أصبحنا نراها اليوم خطأ فاسداً في التاريخ ، نتائج سياسية مزدوجة . فسقطت الحكومات في البلاد التي كان في الإمكان تغيير حكوماتها بمقتضى الدستور . لأن كانت وبسارية ، تولت الحكم فيها حكومة « يبلية » والعكس بالعكس — وكان الأمر كله تقريباً يقوم على عرض للصلفة . لأن كانت في دست الحكم ديكتاتوريات ، سلوت الحكومات حديثة الرحمة في الداخل ، وأدركت من حيث علاقتها بالخارج أن في إمكانها في خاتمة المطاف أن تصرف حساباً بمليه عليها أشد تولزع الجشع فيها . ولم يعد لدى الدول المحبة للسلام أية قوة ولا رغبة في حماية بدايات المنظمات الدولية ، وأصبح في إمكان الدكتاتوريات مهاجمة جيرانها الأضعف منها (بل لقد حاجتها فعلاً) وبدا بدأت تدب في الطريق الموصل إلى الحرب العالمية الثانية .

وقد حادت بعض البلاد إلى طريق « اليسار » كما كانوا يقولون . وسارع ألفونسو ملك أسبانيا إلى مغادرة بلاده وتركها للجمهوريين . وكان الرئيس هوغر طالما ادعى

وادعى معه الحزب الجمهورى بالولايات المتحدة أن الفضل يعود إليهم في رخاء أمريكا ولهذا لا يمكن إلا أن تعود عليهم الثلاثة في حدوث هذه الكارثة ، فطردتهم من الحكم في ١٩٣٢ جماعة التامبين التي ظلت تحقّد عليهم عدة سنوات أخرى . واضطر ملك سيام إلى التنزل عن سلطاته الاستبدادية في العام نفسه ، وقبول نوع من الرقابة الشعبية على أعماله . ولكن هذه هي الحالات الوحيدة التي حدثت بمناطق شديدة التباعد في أرجاء العالم كله ، والتي أحدثت فيها الرجال رد فعل على الأزمة يظهر مرم جديد عن التصرف في أمورهم بأنفسهم ، فأما فيما عدا ذلك من أماكن فقد انصرف الجميع على التجمع واليأس ، أو الاستسلام لابتهات الوسائل القديمة من الطغيان أو المصنف .



(شكل ٢٢١)

. وانتشرت كالبحر في أرجاء أمريكا الجنوبية موجة جديدة من الدكتاتوريات .

مركز جيتوليو فارجام نفسه في البرازيل في أنخريات ١٩٢٩ . وفي العام التالي أصبحت بوليفيا وبيرو والأرجنتين دكتاتوريات هي الأخرى ، وتبعين شيل في ١٩٣١ . وفي ١٩٣٢ نجاحت بوليفيا وباراجواي وجمهورية الأرجنتين في حرب ضروس قضية بسبب خاية تسمى جران تشاكو ، وكانت الحرب فرصة انتهزها دعاة القومية والنازية للدخول أمريكا الجنوبية وممارسة مهتهم الفتارة . ظماف الهند ، فأنهت فترة التعاون الوجيزة بين الهند والبريطانيين بمعاودة حركة « العصيان المدني » في ١٩٣٢ ، وفي لشرق الأدنى طرد الملك فؤاد ملك مصر برلانه ، واحتضت الحكومة العراقية في ١٩٣٣ مجريها البلدية من قبضة البريطانيين بإعلانها البيع للبدأ وهدوء تام في الأندورين لأنهم صيحيون .

وإذا نظرت إلى أوروبا ، وجدت يلسوفسكي يكبل الاختناقات البولندية بالأغلال ليحل من نفسه دكتاتوراً في نهاية ١٩٢٩ ، وتخلص ملكا يوغوسلافيا ورومانيا الإسكندر وكارول من الرقابة البرلمانية ، وأقيمت دكتاتورية بلغارية عسكرية في ١٩٣٤ ، كما قامت أخرى يونانية (برئاسة مكساس) في ١٩٣٥ . وانطلت أستونيا ولتيا إلى الحكم الدكتاتوري في ١٩٣٤ . وأهدى سالازار دكتاتور البرتغال إلى نفسه سلطاناً قانونياً جديداً في ١٩٣٣ ؛ وقضى دولوس وهو سياسي كاثوليكي نحوى حل الاشتراكيين النحسوين بالقوة والعنف في ليتيا ، وأنشأ دولة فاشية في فبراير ١٩٣٤ ، وحل أسوأ نتائج الأزمة تأثيراً في المستقبل ، تسليم مقاليد السلطة للفازيين في ألمانيا في ١٩٣٣ ، ومنعوا الحديث في ذلك لها بعد ، ولكن أشد الحركات لزعاجاً للعالم آنذاك كان غزو اليابان للشوريا في ١٩٣١ . فإن ضباط الجيش طردوا حكومة اليابان السلمية من الحكم ، ثم لفظوا بعد ذلك أم أعضائها بطريقة منظمة . وصدق حرس الحكومة البلندية حين زعمت أن دول العصبة لن تتدخل ، فقلسوا جريمة تافهة لغزو منشوريا ، وهي ولاية صينية لم يمكن نتائج كلئ شك من فرض سيطرته عليها ، ومن ثم احتلوا ورفضوا التصحرك منها .

والشيء الذي جعل الأزمة تبدو مستحسبة على الحل (وإن كانت أسبابها أهم) كثيراً دون ريب ، هو مجري الأحداث ببريطانيا . ذلك بأن لندن لم تعرج مركزاً العالم

المال . وكانت الحكومة البريطانية حكومة عمال برأسها سياسى مهم الأقوال اسمه دامسلى مكدونالد . ولم تكن تقوم على أغلبية في البرلمان ، ولو أنها أرادت أن تواجه الأزمة بسياسة انشراكية ، لما مكثها المجلس من حمل ذلك ، وقصارى القول أنها لم تستطع عمل شيء .

وتوقف استثمار الأموال الأمريكية في ألمانيا والنمسا في ١٩٢٩ . ولكن المالبين المقرضين الأمريكيين بدأوا يسحبون قروضهم في ١٩٣٠ عندما زادت حال وول ستريت سوءاً وبنسأ ، وفي مدى أربعة أشهر اضطرب موقف بنك الائتمان (Credit Anstalt) ، وهو البنك الذى كان يعمل معظم الصناعات النسيجية وواجه الإنفلاس ، واقترح الرئيس هوفر إنشاء مورتوريوم في دفع التصويضات ، واقترح بروننج مستشار ألمانيا إقامة اتحاد بحركى مع النمسا . ولكن حال دون تنفيذ الاقتراحين سياسى اسمه تارديو كان يرأس حكومة فرنسا وكان يرى أن معاهدة فرساي «شديدة الاعتدال» . واضطرت البنوك البريطانية والألمانية إلى تقديم القروض لإنعاش البنك الخاص ، وبذلك أوقفوا أنفسهم في المخطو وعرضوا مراكزهم للخطر . وهرع الناس إلى البنوك الألمانية يطلبون ودائعهم . وفي يولييه ١٩٣١ أهله بنك دارمشتادت الشهير . وعندئذ وقع لاقفل كله على لندن ، واشتد انقناع الناس على اللهب بحيث تعجل تماماً في أخمسلس أن بنك إنجلترا لن يستطيع البقاء بغير تلقى مساعدة من الخارج . ولم يكن اللهب موجوداً إلا في باريس ونيويورك ، فأما باريس فتأبى أن ترضى فلساً واحداً ، وأما نيويورك فأصرت على تغييرات في السياسة البريطانية (أهمها تخفيض إعانات العمال الناطلين) وهو أمر لم تقبله الوزارة البريطانية . واشتق مكدونالد رئيس الوزارة مع خصومه المحافظين على طرد حزبه من الحكم وأقام «حكومة قومية» لإتخاذ الجنبه . ولكن أنشى الجنبه أن يتخذ ؟ وفي أواخر سبتمبر أقر البرلمان مشروع قانون بالتدخل من معيار الذهب . وخطط الجنبه لحسن قيته ، وعندئذ وجدت جميع البلاد التي وقعت بلندن واتحدت منها بنكاً مالبياً وأدارت تجارتها على الجنبه الاسترلىنى ، - وجدت نفسها مضطرة أن تتخل عن الاسترلىنى اللهب هى أيضاً . لقد تحطمت جميع نظم العالم المالية والتجارية القديمة .

ونجحت الحكومة البريطانية المتعبدية في إلصاق ثلاثة كلها عن الأزمة بالحكومة التي سبقها ، ولذا فإن الانتخابات العامة التي أجريت في ١٩٣١ تسفرت عن حصول الائتلاف القوي على ٥٧٠ مقعداً والمال ٤٦ مقعداً ومع أن هذا الحجم الجبار الذي أحرزته الأغلبية انخفض في ١٩٣٥ ، فإن الانتخابات كانت بادئة عهد حكم دام تسع سنوات مستمرة لإكالية محافظة صغيرة . واحتفظ الجميع باسم « القومية » هذا لأغراض انتخابية ، وكان هناك « الأحرار القوميون » و « العمال القوميون » ، ولكن الأغلبية المائلة كانت من المحافظين . وكانت مقابله الأمور في يد دائرة أساطت أولاً بالمستمر ستانلي بلووين ثم بالمستر نيليل تشمبرلين ، وأبعد وستون تشريل وأتباعه عن كل عمل . وكان السياسيون القوميون أقل حظاً . ففي ١٩٣٦ تمكن الائتلاف جمع بين فرانك كاليين والأشتركيين والشيوعيين وتسمى باسم « الجبهة الشعبية » من إخراج العصابة الحاكمة في البلاد من مناصب الحكم .

وأقيمت السياسة المتناطية لولايات المتحدة بكتبتها إلى يد رجل أعط نفسه مجداً بالمحاولة والتجريب . ولم يكن الكونجرس ولا الشعب مبالين إلى معارضة ولا حتى تهد أي علاج للأشور كان يقترحه فرانكلين ديلاانو روزفلت . وكان ذلك الرئيس لا يعنى أية المسقة منظمة في الحكم ، ومن ثم كان يصعد قاصداً تجربة شوء بعد آخر . كان عمله يقوم على فكرة « تصليب أو تخريب » ، وراقت الفكرة لدى مواطنيه كل روق حتى لقد أبوا أن يتخلوا عنه رغم ما لقيه من معارضة عنيفة . فانتخب رئيساً للولايات المتحدة في ١٩٣٢ ، ثم أعيد انتخابه في ١٩٣٦ ، ١٩٤٠ ، ١٩٤٤ ؛ ولم ينته حكمه إلا بوفاة (وهو الرئيس الوحيد الذي تقاسب لفظة « حكم » مع رياسته) . وكان أول مشروعاته مشروع قانون الإصلاح الزراعي^(١) (AAA) وقد لصده رفع أسعار منتجات المزارع بتخفيض الإنتاج ، ومشروع قانون الإتصاف الصناعي^(٢) (NIRA) الذي حاول أن ينعش الصناعة بإقناع أصحاب الأعمال وللصانع بمراجعة « أصول » ترفع الأجور وتخفض ساعات العمل وتحسن أحواله

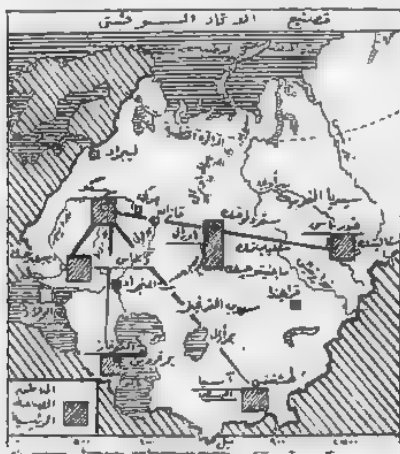
Agricultural Adjustment Act. (١)

National Industrial Recovery Act. (٢)

وهم استغلال الأقاليم في الصناعة . وقد تشتر كل من هذين القانونين بما لقيهما من مصائب ، وثار غضب الفوالم الإداوية أكثر بما ثار أسفها لأن الحكمة العليا أعلنت أنهما غير دستوريين في ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ . وبدا أن من المحتمل بلوغ الخلاف منهما بالقيام بمشروع ضخم ومتواصل من الأشغال العامة ، وهو مشروع بنى به قسلا في ١٩٣٣ وتواصل العمل به تحت أسماء مختلفة حتى تبدى شبح الحرب في الأفق ففضى على الضرورة الناجبة إليه . وكان المشروع يعنى كل البعد عن مشروع إصلاح الطرق الذى كان يستمر وراء اسم كرم هو الأشغال العامة ، فكان يتضمن خططا لكل قطن الشعب حتى للمطبخ والكتاب ، ومن بينها خطة لمشروع بحث الحشوع في أشد لتقاد غضبا - ألا وهو مشروع هيئة وادى تنسى ، وقد بدأت تلك الهيئة عملها مشروع لصبط هر منحور ، وأظهرت أنها أعظم وأجبح مثال على التخطيط الإقليمى في بلد حر . وكان أقل فوائد ذلك المشروع ضبط فيضانات النهر . فإن توفير الكهرباء الرخيصة السعر المنتشرة الاستعمال وإعادة زرع الغابات واسترجاع الأرض التى زالت عنها تربتها الزراعية وإدخال صناعات جديدة ، أدخلت تشبيرا تاما على منطقة كانت في يوم ما بائسة بالغة قد ضلها الفقر بفسوة . وثى مشروع قانون ولجنز (١٩٣٥) لندرا أصغر من الاستحسان العام ، وهو مشروع كان يجبر رجال الأعمال والصناعة الأمريكيين - وكانوا حتى ذلك الحين أشد الصناعيين في العالم استبدادا - كان يجبرهم على الاعتراف باتحادات العمال والتفاوض معها ، فأعلنت هذه الاتحادات منذ ذلك الحين تقوم في السياسة بدور يقوى على توائى الأيام .

ولكن روسيا التى يقوم اقتصادها على النظام الاشتراكى لم تتلق نفس الصدمة التى لقيتها الدول الأخرى . فلم تظهر في شوارعها طواير العاطلين ، ولم تنلق بها مصانع ، على حين كانت للمواد الأولية متوفرة . على أن الاتحاد السوفيتى تأثر من نواح أخرى تأثرا لا يقل خطورة عن سائر الدول . وقد أوسع لينين تماما أن لإيقاف الحريات أثناء الثورة شىء موقوف ، وأن مبعظه وضع يستفتح بقدر من الحرية أكبر من أى شىء يمكن قيامه في ظل نظام بورجوازى . ولكن بدلا من زيادة الحريات الشخصية ، تكان الاتحاد السوفيتى يتحول أكثر فأكثر إلى دولة

بوليمية ، لأنه كان يتطور من ديمقراطية يشهها الاضطراب والديكتاتورية إلى أوليجركية ويبدو كأنها ينحدر إلى طريق الحكم الاستبدادي المطلق . وحدث تقدم مادي عظيم لا يستطيع تجاهله إلا أشد المراقبين تحيزاً . فتم إنجاز مشروع الخمس سنوات في أربع سنين . وأقيمت محطات عظيمة لتوليد القوى - منها واحدة على نهر الدنيبر ذات شهرتها - وحفرت آبار الزيت وأقيمت مصانع الصلب ، وأنشئت مراكز صناعية جديدة تماماً في كوزنيتسك بسيبيريا وماجنيو جورسك بحال الأورال وفي أماكن أخرى . وقضى كل الأمة قضاء جزئياً بهذا البلد ، أشد البلاد اتساعاً وأعظمها تحفظاً ، وكانت ألوان التقدم الحصارى قوية مثيرة في أصقاع الاتحاد الخارجية البعيدة الأكثر معجبة . ولكن امتلاك الفلاح للأرض الذي هو شيء لا ينيحه النظرية الشيوعية قضى عليه بين سنتي ١٩٢٩ - ١٩٣٠ بوسائل وحشية لا ضرورة لها .



فاطلق اسم « الكولاك Kolk » على كل فلاح غنى ، وأجبروا جميعاً على الاندماج في للزراوع الجماعية أو مزارع الدولة . ورُحِّل آلاف كتار إلى سيبيريا ، وانتشرت المقاومة والتخريب للمعد ، فقد ذكر أنه حدثت فوات مرة أن ذبح نصف ما في روسيا من الماشية .

واتبع مشروع الخمس السنوات الأولى ١٩٣٢ بإعلان مشروع آخر ، ركز على الإسكان والمرافقات وإنتاج السلع الاستهلاكية ورفع مستوى معيشة الشعب . وقد تم بنجاح في كثير من النواحي ، ولكن صحبته تغييرات سياسية أزعجت العالم الخارجي . وتآلب كامينيف وزينوفيف وستالين على تروتسكي وطردوه . ووجد العضوان الأولان من ذلك الثلاث أنهما قد أسلما تقسيما لقبضة الثالث . لأن ستالين بوصفه سكرتيراً الحزب الشيوعي كان المتحكم الوحيد في السلطة السياسية ، ولم يكن ستالين من الناحية الأخرى بمن نجد الراحة إلى قلوبهم سيلا . فإنه أعدم ما يزيد على ١١٠ شخصاً انتقاماً لقتل صليبه كبروف في ١٩٣٠ . ونظر زملاؤه فإذا هم مجردون أولاً من كل ملطة ، ثم ألقوا أنفسهم يحاولون إلى المحاكمة : وفي ١٩٣٦ اتهم أربعة عشر من أشهر دعاة لينين بينهم كامينيف وزينوفيف وأعدموا رمياً بالرصاص . وأعطيتهم ثلاثة أخرى بعد بضعة أشهر . وفي السنة الثالثة أعدم لوشاتشيفسكي وكثيرون غيره من كبار ضباط الجيش الأحمر : وتعدد في كل أرجاء البلاد هذا النوع من المحاكمة وأعدم أو سجن آلاف من أشخاص أدنى أهمية ، حتى لم يعد في البلاد أحد يعارض سياسة ستالين . وحصل المدعي العام المستر فشنسكي على أحكام بإعدام ٦,٢٣٨ شخصاً في المحاكم اللطية . وكان للتهمون دون استثناء واحد منهم لها تعلم يكتبون اعترافات يتفرون فيها بما اتهموا به بالفيض حتى ولو كانت جرماتهم بعيدة الاحتمال جداً . حتى إذا انتهت المظاهرات ، لم يعد باقياً على قيد الحياة جميع زعماء ثورة ١٩١٧ عدداً واحداً . وكان هذا الفرد الواحد في رقعة مصالية ويحيط به رجال أصفرته أوجال من الدرجة الثانية : وكان يلي آنذاك عبادة يدهش لها كثيراً كل من تذكر الجباليد الديمقراطية للاشتراكية . وقد توفي لينين قبل أن

يمرؤ أحمر على الخاء اسم مدينة وتسميتها باسمه ، ولكن خريطة لروسيا أصبحت
آنذاك مملوءة بمدن مثالن وستالينو وستالسك وستالينجراد وستالينجورسك
وستالينباد وما مائلها [١]....

وكانت التغييرات السياسية العميقة داخل روسيا آثارها خارج حدودها .
فقد كانت هناك في ١٩٢٧ أحزاب شيوعية في كل دولة برلمانية تقريباً ، وكان
لا بد لروسيا أن تضمن الصياحها لإرادتها . فأوقعت الاجتماعات السنوية للشوعية
الثولية مدة ست سنوات للورخ تلك الغاية . وابتدأ الأمر بطرد جميع أنصار
تروتسكى . فإن التخلي عن « الثورة المستدبة » تفضيلاً « للاشتراكية في قطر
واحد » ، وأضحى به الروسيا ، أفضى بصورة طيبة إلى جعل القناع من
ذلك القطر الواحد أهم كثيراً من الدوافع والآمال الثورية بموطن كل فرد
وبها أصبحت الأحزاب التي كانت أحزاباً ثورية فردية آلات وأدوات للسياسة
الروسية الخارجية . وتوالى في كل سنة بعد سنة طرد كل زعيم أو تابع لا يرضخ
لهذا التغيير . وكانت « خطة الأحزاب » في البداية توجيه أشنع الحملات على
الاشتراكيين والأحرار في الدول الديمقراطية ومنهم بأنهم « فاشيون قوميون »
أو حتى اتهامهم بأنهم يتعاونون مع النازى عليهم كما حدث في أحد اضطرابات
الترام ببرلين . وقد انتصحت المواقف الوخيمة لهذه السياسة على الروسيا بعد
١٩٣٣ بقليل ، ولم تلبث أن قلبت رأساً على عقب في ١٩٣٥ بعد عقد « حلف
صتالين لالال » . وأضيف إلى هذا الحلف ، وهو تحالف حقيم بين الروسيا
وفرنسا موافقة رسمية على إعادة تسليح فرنسا : حين طلب إلى الحزب الشيوعي
الفرنسي أن يتخلى بين عشية وضحاها عن سياسته المناهضة للروح العسكرية
والإمبريالية . ولم تلبث تلك السياسة أن تحولت إلى تعاون وثيق مع الاشتراكيين
والأحرار فيما كان يسمى باسم « الجهات الشعبية » ضد الفاشية . وحصل
الشيوعيون على ألوان عديدة وبمخنة من النجاح السياسي بفرنسا بوجه خاص .
ولكن المعنى الخفي لتلك التغييرات هو أنه أصبحت توجد كذلك بكل
دولة برلمانية هيكتان حزبتان غير نائبتين من الشعب ولا ممثلين أمام مواطنيها

كما أنهما لا تشكلان مياستهما بحسب ما تعهدان أن يلباهما في حاجة إليه ،
ولكنهما تملتان دولة أجنبية . وكانت إحدى القوتين تتلخع عن مصالح الاتحاد
السوفيتي ، وتتلف الأخرى عن مخالفته وموصلتي الذي كان يسمى نفسه
آنذاك بالهonor . فلما تمكن الميشتين من التصلون فشيء كان يراه كل إنسان
لأمر استجلا .

١٥ - المأساة الأسبانية

في أبريل ١٩٣٩ ، انهارت الملكية الأسبانية وتحولت أسبانيا إلى جمهورية .
فانجبت الأسرة المالكة من الميدان بسلام ، ولم يحدث إلا التزير اليسر جداً من
الضراع أو العنف .

وقبل ذلك قضت أسبانيا لأشطر الأكر من قرن كامل من الزمن ، تعد العدة لثورة
محرورية . ولعلك ترى أننا نذكر إلا القليل مما مر بها من تجارب بعد سقوط نابليون .
والقصة كلها لا تروى إلا حكاية اضمحلال وذلكة ، أو انتشار الجهالة المطبقة على
شعب يأكله ، أو سوء تعليم أو عدم كفاية بطل الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما
وهي حتى الآن أكل مثال على انحلال الإمبريالية وانهارها . وقد سبق أن أشرنا
إلى الجنرال بوليفار ، وإلى ضياع المستعمرات الأسبانية الفسحة بأمريكا ، وكيف
حدثت ذات مرة واحدة فقط أن بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وصلت إلى
مرتبة التعاون الذي يقصد حاية الديمقراطية في العالم الجديد . (ف ٣٦ ق ٦) .
لأن كاتنج ذلك السياسي البريطاني العظيم نادى بضرورة إنشاء جمهوريات العالم الجديد للألا
إن ذلك يقصد : إصلاح توازن العالم القديم . ولم يبق لأسبانيا في النهاية سوى
كوبا . وتحدثت لقسم نفسه (ف ٣٦ ق ٦) عن الثورة المضادة التي ظلت متداولة
في أوروبا زهاء أربعين سنة .

وقد كان الكفاح في سبيل الفكر المحرور والحرية البشرية شاقاً ومرراً
ككفاح الصاعد جبلا ، ولعله كان أقل استيئاساً في بريطانيا العظمى منه في أي

مكان آخر في العالم هذا أمريكا . وكانت قبضة الظلم تقوم في أسبانيا على جميع صورة واحتلالها وطأة ، ولكن بحري أمريكا الجنوبية حافظ على روح الفردية صلابة . ولا بد أن أسبانيا كانت أشبه الأشياء يحسم لا يطيقه ذكاه وطني أثناء تلك الحقبة الطويلة من التسلل الأرضى والنفى . وكانت محاور عهدا أدوار من العصيان الغاضب الذى لا يستمع بالقدر الكبير من اللكاه مع فترات من التمع والسرقة . واستمرت البلاد في جهالة بالغة تلور حول صراعات بين بوديونيين لم أشكال ومسح غطفة وبين كارلوسيين^(١) وما شاكل ذلك وترواد استبداديين يتخلون مظهر «الرجال الأقوياء» وبين ملك متطفل متعصب والد من ساقوى اسمه لناديو . وظلت كوبا في حالة عصيان منذ ١٨٦٩ لمصاحبا . وكان الألبان بمنحون الكوبيون في بعض الحين تساهلات غير عطفية ، وكان «رجال القوياء» يخرجون في أحيان أخرى لقتله على المقاصب .

وفي ١٨٩٧ أعلنت الولايات المتحدة تهتم بالأعمال الوحشية التي يرتكبها أحد دعاة التمع الصارم الجنرال ويلز ، ومصر عن رأيها في ذلك بصراحة للحكومة الأسبانية . ومرحان ما أصبح ذلك الجنرال أكثر ليانا ومراحملة ، ولكن الذى جعل بالحرب فجأة نصف سفينة حرية الولايات المتحدة هي «المين Mateo» وبناء هالانا . وعندئذ طالبت الولايات المتحدة بجلالة الألبان فوراً عن كوبا وأعلنت أسبانيا الحرب عليها في (١٨٩٨) . ودمر الأدميرال جوى أسطول أسبانيا الشرق في خليج مانيل ، ودمر الأسطول الأسباني الغربى في سالفاجوردى كوبا ، واستسلمت كوبا للأمريكيين ، وبذلك انتهت الحرب . وبعداً استنجدت الحكومة الأسبانية بالبابا ، وهي الابنة المفضلة للكنيسة - كما استنجدت بمجاهليات رجعية أخرى ترجعهم للتدخل ، ولكن صبيحتها ذهبت أدراج الرياح ، وتنازلت أسبانيا في المعاملة التي أبرمت بعد ذلك عن كوبا وبودونيكو وجوز الفلين وجوز

(١) الكارلوسيون هم الصبار الثون كارلوس هو بوديون (١٧٨٨ - ١٨٥٥) المطالب هو راسلند يرمى أسبانيا من فرح الأسرة المالكة على انهى بالقوسو . (المرجم)

سولو ، أي أنها تنازلت في الحق عن كل شيء باق لها وراء البحار هذا مراکش . وحللت ثورات شعبية في برشلونة ورسالة ، وكان الذي أجلسها هو الجنرال ويلر - ولكن حركة النهضة التحررية الأسبانية كانت تزدهر في كل يوم ثورة ، وخرج عدد من مفكرى الأحيان وكتابهم يتوزعون على مشكلة أسبانيا الجديدة . وتولى ألفونسو الثالث عشر في ١٩٠٢ . وتزوج من الأميرة الإنجليزية فكتوريا أوجيني وهي حبيبة الملكة فكتوريا ، وبنت أخت إدوارد السابع ملك بريطانيا ، وقد احتضت الأميرة للعب الكاثوليكي مسداً للفرض خاصة ومنعها البابا وسام « الورود الذهبية » دلالة على عطفه الخاص عليها . ومن للطبيعي أن ملكية متفوقة يدعها عسكريون لابد أن تكون لديها حرب دائمة الرسمى في مكان ما ، وكادت مراکش في ذلك الحين أن تكون الحبال الوحيد المفتوح أمامهم هم وأصحاب الامتيازات وللحج الاستغلاية الذين لابد أنهم كانوا غلطةهم .

وكانت حرب مراکش تستغل عدداً ضخماً من الجند الشبان الذين يذهبون إلى مراکش فلا يعودون ، وتستلزم المطالبة بالزيد من الضرائب المجتدين حتى تغد صبر الشعب . وحللت ثورة في برشلونة حيث ألقم الناس في قدير واضح المصدر ما هم فيه من بلاء على حرق الكنائس والأديرة . ذلك أنهم كانوا يعلمون علم اليقين أن الأبروشيات لا تلغض ضرائب ، وأن الكنائس رمز للقمع السلحق لكل فكر ، وكان طبعاً أن تعد رمزاً للاضطهاد القوي الذي حل بهم .

وكانت ثورة برشلونة تلقائية سيئة التنظيم ، فتمتعت بعد قتال دام ثلاثة أيام . حتى إذا أخذت الثورة قبضت السلطات على رجل من عظام التربويين بأسبانيا اسمه « فرر Ferrer » ، كان أسس « مدارس علمانية » بقلونية - وأحدثه في (١٩٠٩) دون أن يكون له يد في الثورة . وكان الرجميون يستقيمون كمثل أعناقهم في أرض الوطن ، ولكن الحال بمراكش كانت مختلفة جداً . وكان رجال قبائل الريف قد أنزلوا هزيمة منكرة بالمارشال مارينا قبل إعدام فرر بيشعة أيام . ونقل الشعب الأسباني ينفذ دعاءه بمراكش قبل حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ وبعدها ، حتى حلت

هم هزيمة قاضية في ١٩٢١ حل يد الأمير عبد الكريم الخطاطي^(١). لأن جيشاً حلت
تسعة عشر ألفاً في المزرعة والفتح ، ولم ينج منه سوى تسعة آلاف فروا إلى
المنطقة الفرنسية .

ولمنا بلنا قد وفيما تلك الحركة الجمهورية وأسياب قوتها حقها من الحليث ،
وأوضحنا لماذا حصلت على أغلبية كبيرة في مجلس الكورتيز الذي عاد إلى الاتحاد بعد أن
ظل لا يدعى للاجتماع مدة ثمانية أعوام ، وكيف أن الملك ألفونسو شعر بدور الثورة ،
وكيف أنه لندن سماعة أمواتاً في الشوارع حزم أمصته ولر تاركاً أميرته البريطانية لتجبه
بعد بضعة أيام دون أن يمسها أحد بسوء من وأمرتها وورثتها اللحية (١٩٣١) .
وجاء بعده حكم جمهوري برئاسة الرئيس زامورا وسعه آزالا رئيساً للوزراء .
فوجدنا نفسيهما تقاء عبء ضم من الإصلاح الاجتماعي .

لقد استنزفت الكنيسة وحلها القوم دماء البلاد حتى عثرت قواها ، وصارت
مناصرة عن الزمان بمنى حام . وكانت بحاجة إلى آلاف من المعارض الأولية ،
ولستظم الحال إعادة بناء صرح التربة لإعادة تامة ، وكان لا بد من توزيع المزارع
المنفعة المهمة التي تملكها الكنيسة والسرلة على الفلاحين ، وكان لا بد من إنقاذ
الصناعة من يران الاحتكاريين من أصحاب النسخ والامتيازات . وكان ذلك وحده
عملية جبارة هائلة . ولكن الحكومة الجديدة اضطرت أيضاً أن تتفاهم مع فطالولية
ومع الانفصاليين من الباسك . ومع نفاد الصبر الساذج الفجيج الذي أبداه الأكيون
الجهلة الذين كانت هذه الحكومة تحرهم وأبدى زامورا شيئاً من الليل الرجسى ،
وأحدث المالكين بعض الثورات التي أثارت عليهم خصومة اليساريين واليساريين على
السواء . وكان آزالا يجر من الرأي القسري اليساري ثم احتفل في ١٩٣٤ . ثم
انتهى في ١٩٣٦ رئيساً بدل زامورا . ولكن الاندفاع نحو اليسار أصبحت آنذاك

(١) الأمير عبد الكريم الخطاطي (١٨٨٦ - فبراير ١٩٦٣) قائد الفيل العربي . أزيل بالأسبان
تلك الدية الماسخة في ١٩٢١ . ولكن جيشاً فرنسياً عسكياً بقيادة ديوان أرميه على تسليم في ١٩٢٦ .
والتي ن جريدة ديونيون بالهبة للضم . ومع له في ١٩١٧ بالعودة له فرنسا ، ولكنه جاء له
مصر في طريق جودته حيث ظل بها إلى أن مات بطلا من أبطال القروية . (التفريغ)

أشد حنفاً . وأصبح من المحال إبعاد جماهير المدن من الأديرة والكنائس . وكانت كراهية الفلاحين لتسوس الأبرشيات من الشدة بحيث أصبحت مقلقة . فلذا هذه الحالة أصبحت الحكومة الجديدة عاجزة تماماً عن خلق العهد السعيد المرتقب . فأنهت ببطء الحركة وقصّرت على التظلم عما ينبغي أن يكون عليه الحال . واضطرت أن تواجه إضرابات لا تمت إلى التمثل بأدنى سبب وبجانب التبادلات تقايية لوضعية ، اعتقت ضرباً من التأثير بملعب روسو بمخالطه التناذير بالوسائل العنيفة . (ويجد القارئ عن ذلك بياناً مجملاً كتبه رامون ستر في كتابه) « صبعة أيام أحد حراء Seven Red Sundays » ، وهو كتاب له قدره البلهوري . ومع ذلك استمرت هذه الحكومة في كراميسيا بتشجاعة وصلابة ، فلولا أن قوى الرجعية المتجسمة عاجتها فلعلها كانت تترفع أسبانيا حتى تقف صفقاً وفي تعاون فعال مع ديمقراطيات الأطلنطي .

وقد حلّول ملازم عسكري اسمه فرانكو (١٩٣١) أن يعلن تصريحاً جمهورياً يقوم في ظل الملكية . ثم حفت الحكومة منه ووكلت إليه إمرة أحد الجيوش بمراكش ، وهناك أيضاً وجد فرصته حيث كان أي رجل نزيه في مكانه يجد فرصة للخيانة وأداء الواجب . فأعلن الثورة على الحكومة الملكية للأحوال بملريد (١٩٣٦) . ولما أسبانيا يجيش من المخارية ، ملحقاً أنه سيرد النظام إلى نصابه ويعيد المسيحية وحقوق الامتلاك وأي شيء أسس أنه قد يروق قوى الرجعية في البلاد . وأيدته حكومتها الأكليات المطلقة (Totalitarian) بألمانيا وإيطاليا ، التي رأت في أسبانيا احتمالات القيام بمركات خارجية في الكفاح القبل بينها وبين دول الأطلنطي شبه المحررة . ثم تلقى كذلك بركات النازيكان ، كما حصل أيضاً على عطف فعال من الناصر الرجعية في الحكومات البريطانية والفرنسية ، وهي حقيقة لا مثيل إلى إنكارها رغم إصرار تلك الحكومات الصفيق على نكرانها في البرلمان . وقد بدلوا تصارهم عند البداية لتعويق وصول المساعدات والمخاطر للحكومة الأسبانية الشريفة ، واعترف كل جيتلانية أوروبا بأن فرانكو إنما هو « جيتلان مسيحي » . فالتفح قسماً نحو ملريد ، ولكن جند الحكومة صدوه وأوقفوه مكانه ، وأصبحت أسبانيا عند ذلك مسرح مظاهرات لمجموعات القوى الثلاث التي كانت تشغل البشرية آنذاك .

وستناول تلك القوى بترتيبها التاريخي ، فقد كانت هناك أولاً المجموعة المعقدة الكبرى من التقاليد والمصالح والفكرات والامتيازات التي ترجع إلى الأيام السابقة للإصلاح القيني البروستنتي وإعلان الاستقلال الأمريكي والعودة الفرنسية . وقد نستطيع أن نسمي هذه القوة بكل ما يتدرج تحتها من قسومة وملكية طاحية وقوات مسلحة وغنى وفقر باسم النظام القديم . وقد أخبرناك في كتابنا هذا كيف أن روح الحرية في الإنسان كالمحت للخص من كابوس الماضي وكيف حدث المرة تلو المرة أن قوى الرجعية قد تسلب حادثة في غفلة وإصرار إلى مواطن تحركاتها السابقة . والأمر الثاني في الترتيب في استعراضنا هذا هو المنصر الثاني : الروح العسكرية ، فإن الفاتح للظفر جندى المعصبات الذي كان أول ما غطه كجندى من المرتبة أو مرحل من الخارج أو وطني صخاب من الداخل ، أن نظم قوة عارية لا ميل إلى مقاومتها موقتاً ثم وضع يده على زمام النظام الاجتماعي . وهو لا يجلب معه أية أفكار بناءة ، ولا يصر إلا على شويه واحدة هو المللة الخامسة والطاعة الطيبة ، ولا يد للنظام القديم من أن يمتح حياً عن طريقه إن عاجلاً وإن آجلاً فذلك هو إيقاع التاريخ . وهو غير صالح إلا وهو مرند ثوبه المسكوى ، ولا بد له من شراء رضا الحياة بشمن . ولا بد أن يقوم على خدمته القسيس وأرباب المنح والامتيازات ، وغالباً ما تكون المرأة الأرستقراطية مسعدة تماماً لطيفين أغلانه . والكنيسة الكاثوليكية مستعدة كشأنها دوماً أن تعطى ما يقصر لتقصر . وهذا يستطيع النظام القديم بمن يحس هو يجرع الشدة القليل من المللة الفردية أن يوفق بين نفسه وبين المحتضين الجدد ، ولذا يجنب لمدة جيل آخر عملية خوفة من إعادة بناء العالم وتحرير الرجل العادي .

والمجموعة الثالثة من القوى المؤثرة في الشؤون البشرية أقوى من الإثنتين الأخريتين أو تكاد . وقد تلبننا تطورهما في هذا الكتاب : العلم ، منذ فجر نشوء الفكرة في بلاد يونان وفلسطين والمهند والصين وأماكن أخرى : بأن في اروعها أنه تكوينا هناك مياه أفضل للبشر . والواقع أن هذه الفكرة مرتبطة بالتوسعة المادية المطردة الغلبة للمجتمع البشري ، — هي الفكرة الجوهرية التي يدور حولها هذا الكتاب بأكمله . ولم يكن ذلك جزءاً من خطة المعلم الأولى ، ولكن هكلما خرج الكتاب

هل أن الرجاء في «قيام نفوس» أكبر وأعظم ، لم يجعل حتى اليوم إلا بصورة عليه
ومضطمة وغير متماسكة . فالآن وحل هذا المرح الأسباني الكبير ، تقاربت هذه النواحي
للتأثرة وغير المنتظمة ، الداعية إلى قيام حياة الرجال أفضل ، حيث اجتمعت لتسحق
على القنود روحهم المشتركة وحاجتهم الموزنة إلى سعة مفترقة تجمع حولها رغبتهم .
والآن المتطوعون لمحاولة اليساريين الأسبان من كل حذب وحزب في العالم ، وهناك
وجدوا أنفسهم مشتركين مثاليين روحاً ومختلفين منهجاً المطلقاً لا مطمع فيه لبارقة
رجاء . ولهم ليأبون أن يتأسكوا جميعاً حتى وهم عرض لمجوم عاصف متواصل .
فكانوا يقتطعون فيما بينهم شطف الجبهة . حتى إذا بدلوا في القتال أمد اليهود
بطولية ، أسهموا في النهاية في هزيمة مفترقة .

وهكذا تبرز الأقسام الرئيسية الثلاث في الكفاح البشري الدائر اليوم ، كما
تجلت في أسبانيا . ولم يبد واحد من هذه الأقسام أى إجماع على الهدف قوى
حقاً . فهي لا تزال ألسماً تقوم على القرينة والتعصب ، لا على الإرادة المدركة .
في كل مكان ، توجد احتمالات لقيام بدالات ضخمة في القوى . وفي كل
مكان تظل حواقب الأمور مبهمة وتلتجها غير حاسمة .

ومع ذلك فإن الطبيعة البشرية للتجهة نحو تلك النظام الأفضل القائم على
الحرية والأخوة تتأود الظهور بمراد لا تنزل له قوة . وهي عمياء تتخطى في
سيرها ، ولكن قد يحق عليها وقت يصير لها فيه يصير من بصر ، وذلك
تصبح فيه بصورة تستمع بالروية الكاملة والفهم الصحيح منكرة الغرض المشترك
من انتفاضتها . هذا وإن ترجمنا لتاريخ الإنسانية إلى أن السنوات العشرة الآلاف
الأميرة ، لعبت في هذه «العالم» ، لعبتنا لذلك أننا نسير بحركة قسرية
كمحركة الأجرام السماوية المضبوطة ، نحو توحيد عالمي شامل مؤسس على ثورة
اجتماعية جوهرية . ومع ذلك فأغلب الظن أن تلك الثورة ستكون نوحاً البشري
مزيلاً حائلاً لا يمكن حصره من التصار والتمار والعداء بسبب الساع للتفكر البشري
أساساً شاملاً لا أحد له . وقد يكون الحيوية البشرية حد تقف عنده . ومن
القول جداً أنه ربما لم تم هذه الثورة مطلقاً ، وأن نوحاً البشري ربما ترتفع

في منتصف طريقه إلى هدفه وكما ثم أُنقِص دون الوصول إليه . فليس ثم سبب
يُجده في التاريخ داعياً لزم بأن الإنسان مستثنى من القاعدة العامة للقائلة بأن
القشل في التكيف معناه الإبادة . فهل نحن تكيف ؟ هل نحن نتكيف بسرعة
كالية نلقاه فوضانا الحاضرة ؟

لقد خصصت هذا البراح الكبير وعضت هذا البحث العام في السومل الأولية
في موقفنا الراهن بمد أن كشفها الصراع الأسبق للبيان . على أن التاريخ
التفصيلي الصراع الذي دار في تلك السنوات الثلاث ملحمة البطولة المرتبكة
للمشقة تخرج بنا عن مجال هذه « المعالم » . وقد شق فرانكو طريقه قتالا
حتى بلغ أرياض مدريد وحصل على موطنٍ قدم في حي الجامعة الجديد قبل
نهاية ١٩٣٦ ، ولكنه بعد هناك حتى نهاية الصراع في ١٩٣٩ . وفي أثناء تلك
الفترة ظلت وزارتا الخارجية البريطانية والفرنسية الرجسيتان المحظان على ظاهر من
التمسك بالقانون وعدم التدخل ، كان حوثا عطييا لفرانكو . وظلت ألمانيا وإيطاليا
على محاوئهما العنيفة له ، كما واصلت روسيا معاونة الحكومة للشرعية بنفس
العنفية تقريبا . ومن ثم أصبحت أسبانيا المعترك والمجهد الذي تجرب فيه تلك
الدول العظمى بأقصى درجات المساوة والنفذ تكتيكاتها الجديدة وآلاتها الجديدة .
وكانت الجيوش الألمانية والإيطالية محارب جنبا إلى جنب مع منارية سلطان
مراكش باسم « القومية » الأسبانية ١ . . . فحت فاذلات القتابل الألمانية من
الوجود مدينة جورنيكا الباسكية القلعة بكل من فيها من السكان في ١٩٣٧ ،
وبذلك تسلفت مذبحة روتردام العظمى في ١٩٤٠ . وتقدم شعب الباسك وهو شعب
كاثوليكي غلفس إلى الفاشيكان باستغاثة بالمة محزنة لم تجبه نقما . وظلت الحكومة
الجمهورية تكافح حتى ابريل ١٩٣٩ وهناك دخل فرانكو مدريد متصرا .

١١ - ليام النازية

هناك كتاب الله هانز فالاندا وسجل عنوانه : « وماذا بعدُ أيها النبي الصغير ؟ »
وهو أحد تلك الكتب التي يزلها القاصص المؤرخ في مرضه لمحو تحطت فيه رسيه

الأحداث ، وهو كتاب يمثل الحالة العقلية لشباب ألمانيا في السنوات التي أعقبت الحرب . إن « فتاة الصغير » ذلك شاب عاطل ذليل مهان وملغوع قسراً إلى التمرد . وهو يقع في الحب ، وتصبح أبوه شيئاً عجولاً ومستقبل كل طفل يلمه هو الوقوع بين يرائي قصص التخذية والاستعباد . وليس أمامه مخرج يخرج به من حاله البائسة إذ ليس ثم وراء البحار حلم يستطيع رجل أن يبدأ فيه حياته من جديد . فـا السبب في كل هذا البلاء ؟ ليس هناك من أحد يمدد من حاله ١٩١٨ الصلابة المتكررة وكل ما يقرأ ويسمع مشجع بالإشارة إلى أن (عقوبة) لم يمس كانت شديدة الإجحاف . وأنه لن يكون إنساناً من البشر إن هو لم يتقبل الفكرة القاطلة بأن الجيوش الألمانية لم تهزم في ١٩١٨ ، (وهو أمر حدث بكل تحقيق) ، بل كانوا قسمة الحياة والفن . خانتهم الدعاية البريطانية الخبيثة وأضاعهم من الداخل الحياة . ولأن لأن كل هذا القدر الذي يروح معه إنما يرجع إلى الحصار البحري البحار الذي ضرب على يلمه وإلى ما حلت من حبه التوبيخات القادح وإلى دلائل التواتر المالية العالمية سبب اليهودية وإلى جشع اليهود . وأنه ليجد أن معظم أصحاب الأعمال الذين يذهب إليهم يائساً يكتون من اليهود - أو يلوح أنهم من اليهود . وأن اليهود يخضرون إبان أيام القفر ويزدهرون أيام الرخاء . وربما يكون بعضهم أزدحماً أزدحاماً شديد الممان قليلاً أثناء السنوات التي أعقبت الحرب . وإن « الفتى الصغير » الذي كان طفلاً غريباً في ١٩١٨ والذي لم تسمع أذناه إلا حديث الانتصارات الخيئة حتى حلت بيلاده كآفة الانهيار وما أعقبه من جوع وفاقة ، لينظر شزراً إلى اللطام ويرمق ببصره واجهات الدكاكين . فهل يتحول إلى البلشفية ؟ ولكن أينسي أن الديمقراطيةين الاشتراكيين ومعهم الشيوعيون كانوا مشركين في المؤامرة التي أسقطت حبة الوطن ؟ إن حزب الديمقراطيين الاشتراكي يقدم الفرنسيين والبريطانيين كل أنواع التنازلات ، ولكنه لا يحصل مقابل ذلك على شيء - لا يحصل على شيء يخرجني مما أنا فيه . تلك هي الحالة العقلية لجمل كامل جديد من الألمان ، ولما بين من الشباب الذين ضللت طيهم الأرض وأذلهم الأيام . وأخطت تلك الحلال نهمج القوى المضجرة المدعة في أيام الايام إلى التي جعلت بانعصاب كل شباب البرجوازية

بأجمه في طبقة الفئة الممتدة . وقد كان الشكل الخامس على شكل قبة الاقنجر
ثمرة لصلة فردية بحتة . واتخذ شكل حرب صروس كانت أشد الحروب التي منيت
بها الإنسانية وأجلها للكوارث طلياً .

وكانت الجمرة الممتدة التي أشطت هنا للفنون البشرية المكسب بما لا يطين
من أحوال ، رجلاً يسمى أدولف هتلر ، وهو مخلوق مطبوع على الهيجان وكثرة
الغز في عرق لا شك فيه يمت إلى الجنون بسبب كبير . وقد زعم بعضهم أن
اسمه الأصلي شكليجروبر (Schicklgruber) على أن هذا يدع ضريباً من التشهير به .
وكان أبوه رجلاً يسمى ألويس شكليجروبر ، وهو ابن غير شرعي لامرأة تسمى
شكليجروبر ، ولكن ألويس تربى في بيت رجل شهِر عنه أنه أبوه وهو هتلر ،
وهو حامل طحان ، وما لبث ألويس أن اتخذ اسم ذلك الرجل لقباً له فاصبح يدعى
شكليجروبر هتلر . ثم أمتط من اسمه لفظ شكليجروبر بسبب بعض دواهي
المنهجية والترفع فيما يحفل . وكان ألويس على شيء من الهمة والطموح ، وكانت
له زوجات ثلاث وأحاطت به الظلال حول أطفال شرعيين له وأطفال غير شرعيين ،
ولكنه كافح حتى بلغ مرتبة كريمة وأصبح يلقب بلوفر الموهل الكبير هتلر^(١) في خدمة
الجبلوك . وكان يظهر إصراراً صارماً على التقلب بلقب السيد الرئيس (الحزب أوبر) . ثم
مات فجأة وابنه لم يبرح تلميذاً بالمدارس ، وترك أرملته في يأس مفرط .

وقد كشف الثقب عن هذه الحقائق وعن تفاصيل حياة هتلر الأولى ، بكل
ناية وأمانة رجل اسمه الدكتور رودلف أولدن في كتابه : « هتلر الجندي » . وإن
معظم ما جاء في كتابه « كفاحي » Mein Kampf أو سردي على سماع من حظوا بقائه
من بيانات عن تربيته وعطائه وأعماله العسكرية القليلة وما إليها ، فهو محض اختلاق
أو تسريحات جريئة للحقائق . وقد أغنى هتلر في دراسته بالمدارس تمام الإنفاق ،
ولم يستطع أن يحصل على المؤهل اللازم لدخول مدرسة الفنون التابعة لأكاديمية فيينا .
وحث في عقله شيء غامض لا نعرفه عندما شارف المراهقة وتطور فيه ضرب

مشهور من الجنون يمثل فيه هو وأشباه أخرى في صورة بغض فاحش لكل غريب ذكر . وهو داء يوجد بالمنطقة الجنوبية من الولايات المتحدة ويشغل بوجه خاص لواء الترنج وكثيراً ما يؤدي إلى إعمال القتل فيهم على يد الأفراد أو الأحزاب التي تنزل بهم قصاصها بيدها دون انتظار الحكومة ، وتركز الداء في حالة خطر على اليهود . ولا شك أن انحصاراً نفساً^(١) من هذا النوع يجرّد المرء من إنسانيته وبهيق الخناق على ألوان نشاطه ويحصد ما يصيب مصداقاً للطاقة السقيمة الويلة . وقد طرد من الجيش قبل ١٩١٤ ، ولكنه تطوع قبل نشوب الحرب وأصبح يشغل مراسلة . غير أنه لم يرتق قط فوق مرتبة أومباشي . وحصل على وسام الصليب الحديدى من الطبقة الأولى ، ولكن أحاديثه عن طريقة حصوله عليه تختلف اختلافاً بعيداً . على أن ملف خطته في الجيش النظامى (Reichswehr) والحرب قد أُلغى .

وظل هذا المخلوق غير المستقر يعيش في دنياه حالماً متعلّفاً إلى نفسه أثناء السنوات القاتمة السابقة للحرب ، ويبدو أنه لم يكتب حيثه قط من صنعة ولا حرقة ، وأنه انحدر حتى لبس الأطلال البالية وسكن قبيوت الرثة ، وطرد من الخدمة بالجيش الجنوى بسبب عدم لياقه ، ولكنه عاد فتنطوع في ١٩١٤ ، واشتهر بين رفاقه في جبهة القتال بأنه ثرثار عاذر ، وحدث بعد ذلك في ميونخ أن يقبضه اللدائن المتزايد من الكليات كان واضحاً لكل من تحدث إليهم . وكانت بالماريا بعد ١٩١٨ مباشرة في حالة اضطراب شديد . فقامت بها جمهوريان سوفيتجان ، ثم وجبة عسكرية . ونظمت هيئة أركان حرب الجيش البافارى ندوات المناقشة السياسية تربية وعى الشعب وتحضيره من الشيوعية وكرّسات الهدنة والسلام . وتحركت حوافط خطر في أحد هذه الاجتماعات الذى عقد ببعض لكتات الجيش ، فألقى ضد اليهود خطاباً مقلداً

(١) الانحصار النفسى (Obsession) حالة مرضية تظهرها فكرة متصورة ملحة أو ملية ، تكون صليقة حادة يصاحبه قوى من الانفعال ، وتطوى كثيراً على دافع يصار إلى الإقدام على بعض الأعمال . (لترجم)

ملتبهاً عتيفاً كان له وقع عظيم في أغصان سامعيه . وكانت حادثة ذلك أن عين : صابط
تعليم : ، ومنذ تلك اللحظة لم يعد مجرد خطيب سليل غير مسئول .

واضططلع هنتر بأعباء منصبه الجديد بحماسة . فكان يقضي ثلثات ميونخ
ومقاهيها بفصاحته السيالة . وأنشأ على الناقب حزب العمال الألماني ، ثم حزب
العمال الألماني للقوى الاشتراكية ، الذي تحول إلى الحزب القوي الاشتراكي .
وكان ذلك الحزب يقلم الناس توليفة غلظة تجمع بين الاشتراكية والوطنية
ومهاجمة اليهود والنشاط الإرهابي والوعود الفسحة ، وهي الشيء الذي كان
الرجل الصغير ، يحس أنه بحاجة إليه .

لقد قففت بيضة الجليش عن غرخ أكبر مما كان يقصده . وفي ١٩٢٣ أنط
الحزب القوي الاشتراكي بنمو بنسب هائلة كما كون هنتر تحالفاً مع الجنرال
لودنلورف ، الذي كان يثير عند الناس ذاتاً فكرة عوض حزب انتقامية ،
فحدث عصيان (Putsch) كان عمارة طائشة للاستيلاء على السلطة في ميونخ
والزحف على برلين . ولكن الحركة فشلت فشلا جبر كرم ، فاستولى الحزب
القوي الاشتراكي على دار البلدية ، ثم تفلزعوا لمرم بيتهم ودخضوا على مركز
قيادة الجليش . وهناك أطلق عليهم البوليس النار . وانسطح هنتر على الأرض
فأصيبت فخاذه برصوخى ثم أطلق ساقه للريح . وجرح جورنج بجرح وشريكه
وغر هارباً هو الآخر . وذلك على حين أن النجاعة وغرور الكبرياء دعت
لودنلورف الشيخ الشهم أن يسير ثابت الخطى بين طلقات الرماة للمهرة حتى
أنط أسيراً بين الإكبار والإصجاب .

ولم يكن كل ما حصل ليزيد من قصة تافهة وبما كان هنتر يمر بعدها من التاريخ
لولا وجود تلك الجمهورية من الشباب المتجمعة في الحفلة . وهم لم يكونوا فقط
في الحفلة . إذ انهم جاموا إلى المحكمة ليصبحوا في صالحه ، وكانوا يصبحون آنذاك
ويزحفون في كل أرجاء ألمانيا ، ودخل هنتر صحن لاندسبرج على الشيخ للثلاثة
أشهر ، كتب فيها كتاب « كفاي Mein Kampf » ، وهو إنتاج أي أشبه بإنتاج
تلامذة المدارس ، كتب رخيص تافه كجاجة من جنة أوط من فوق منضدة بإحدى

للقاضي ، ولكن ذلك الكتاب بُجِّل وقُدِّس وجمعت مطالعة إجبارية في كل أرجاء العالم الألماني .

وضع فترة عهد شترزيمان في التاريخ الألماني بين محسٍ مطروق ١٩٢٤ إلى تجديد نشاطه في ١٩٢٩ . وقد بدأ جوستاف شترزيمان سيرته وطنياً متحمساً ! وقد وجه بواكير نشاطه لأول عهده بالحياة للخدمة بإثارة المشاعر للمطالبة بإنشاء الأسطول الألماني ليكون تديماً غلاماً لبريطانيا ، إن هي تدخلت في الحرب ضد روسيا وفرنسا وذلك أثناء فترة وضع الخطط لها قبل ١٩١٤ . وواصل شترزيمان القيام بجهوده الوطنية الحامية طوال الحرب ، وظل مثابراً على ذلك حتى بدأ يدرك فرس الموقف الألماني ولنصلوه الحقيقية بعد ١٩١٨ . ثم عاد ليلتحذ خطة التنازع والمساواة وكان ذلك بفضل الجهود الدبلوماسية الكبيرة الاكفاد التي بذلها القورد د . أبرتون السفير البريطاني . فوجه جهوده لتخفيف ضغاث الديون المقروضة على بلاده تخفيفاً مطروحاً ، ونصب نفسه لتحرير الأراضي الألمانية من الاحتلال الأجنبي . ولعلبت الخبرة توسع آفاق عقله ، حتى أسمى صليحاً حيا السبوريان ، كما أصبح فيها يبدو منادياً أصيلاً يدعو منه إلى الاتحاد القاراني الأوروبي . وأصبح من المقرر بالقطع أن الأراضي الألمانية مستعمر من آخر جندي أجنبي في ١٩٣١ . ولكنه لم يشأ ليشهد ذلك اليوم ! إذ توفي في ١٩٢٩ . ولما لم يحس تحريماً بيدايات المصافة الاقتصادية العالمية التي كانت تتجمع من حوله . كما لم يدرك الشر المستطير الكامن وراء تلك المعصيات المكونة من أولئك الشبان القلقين الذين كانت نفوسهم تظل تمرحاً في كل مدينة من مدن البلاد . إذ أن عقله كان ينصب بكلية على أفكار الدبلوماسية القديمة .

وقد أسلفنا إليك الحديث في القسمين السابقين من هذا الفصل عن الاحبار القدي الذي حدث بعد الحرب والذي بلغ ذروته في ١٩٢٣ ، وكيف جاء أوان محاول فيه الناس عمل تأميل مزعج للتنازع الخفية ، وكيف حدث أخيراً في ١٩٣٥ - ١٩٣٦ أن عثر النظام بأبعده متهاوياً - كالقوة مالية عمت أرجاء العالم قاطبة . وهنا وافت خطر فرصته الثانية . وكانت أدواته القريبة المباشرة حركات الشباب

للنوع التي ازدهرت بالآلما بلدر ما ازدهرت حركة الكشافات الموازية ما بالإمبراطورية
البريطانية ، ولكن مع اختلافات ضخمة في الروح والمخلف . ولكن يستطيع تنظيم
قوة منتظمة موحدة التي من أنواعه تلك التي ذكرنا وأخفى بها شباب ألمانيا ، كان
لا بد له من اللون المالي ، وقد حصل على ذلك المال اللازم من الملايين القامحين على
الصناعات الضخمة ، التي كان ازدهارها يستلزم العودة إلى الصلح ، والتي كانت من
ثم حلوة للودا لسياسة السلام التي يتتبعها شترودمان . فقدم نفسه إلى أولئك الأقطاب
في صورة معاون كفاء لم في القضاء على الاضرابات ووسيط نافع لم في تحويل
قلق الجماهير عن وجهة الثورة الاجتماعية وتوجيهها إلى حلة صليبية تدمر إلى الوحدة
الآلمانية . فاستطاع الحصول على تأييد هوجنبرج مدير مصنع شركة كروب العظيمة
ومثلثي الحزب ، القوى الاشتراكي الألماني ، وزعيه . وكان هوجنبرج اشترى
شبكة ضخمة من الصحف ودور السينما وما إليها ، وكان رجلاً قصيراً أديب
متطرفاً مبالاً إلى التمسك ، وقد زعم أنه بذلك قد اشترى هتر . ولكنه انشغل
في هذا الزعم . وكذلك ظن روم (Röhm) أنه قد استمال هتر كي يملكه هو وورقة
الصاغة S.A قاصية الجيش الذي أخذ يقضى ويتسع .

- وبذلك أصبحت بين يدي هتر وخطاته الأكرين ومن وراءهم رجال الصاعدة
أتمم الموارد الممكنة لقيام بحملة شديدة لاسترجاع الروح المعنوية إلى ألمانيا ،
فانشغلوا يقومون بلهمة بأقصى قوة ونشاط . ونظمت في البلاد كلها روح العنف
على اليهود وعلى المفكرين وعلى الشيوعيين . وهدد الأسيرون بالإبادة التامة . وكان
علمهم هذا عاكاة دقيقة لحركة الوحشية والارهاب التي نهضت بها الفاشية وتسلت
مفاهيم القوة بإيطاليا ، ولكن حلة هتر كانت نظامية أكثر وكانت أوسع مدى
وأشد وحشية . وفي ١٩٣٠ كان للحزب القوى الاشتراكي اثنا عشر عضواً في
البرلمان ، بعد أن كانوا في ١٩٢٤ أربعة عشر . ثم ظهر الحزب في ذلك المجلس
بعد انتخابات سبتمبر ١٩٣٠ وقد أصبح يمثلوه بمئة وسبعة ، يمثلون ستة ملايين
ونصف المليون من النانيين . وهكذا ارتق هتر إلى الثلاثة عشر مليوناً الذين أحاطوه

أصواتهم في انتخابات الرئاسة في ١٩٣٢ مقابل التسعة عشر مليوناً التي حصل عليها
للمارشال الشيخ هينريخ .

والندوات السياسية والروحات التي أعقبت ذلك أحقد من أن يتبع تفاصيلها
هذا المقام . وفي يناير من ١٩٣٣ تراجع المارشال هينريخ - وقد تجاوز آنذاك
الخمسة والياين وأصابه انحلال الشبخوخة المفرد - عن تصريحاته التي طالما كثر
فيها قوله : « ان أضم بشرى كقائد يروسي أتي لن أقبل تلك القفلة » - وفعل
القفلة عين هنر مستشاراً إمبراطورياً للدولة . والراجع أن الرجل المعجور نسي
تصريحاته !! ...

على أن هنر كان حتى ذلك الحين لا يزال واقعاً في قصة الجيش ورجال



(شكل ٢٢٣)

(صورة هنر)

الصناعة . وبعيداً بعداً شديداً عن مرتبة
الدكتاتورية الحققة وقررت مجموعة أخصائه
القيام باقتلاب . فأشعلوا النار في الريحستاح
(٢٧ فبراير) وأعلنوا أن ذلك جزء من
مؤامرة شيوعية شملت الشعب كله وقاموا بحملة
صاروة من العنف ضد الشيوعيين واليهود .
وألغيت نقابات العمال وبنوك العمال . وأصدر
واحد وثمانون نائباً شيوعياً في الريحستاح الجديد
إلى الاعتقال أو القرار إلى الخارج أو وضعوا

في السجون . وبإلغائهم من ذلك المجلس أصبحت هنر الأغلبية العمالة فيه .

ونحسب من ذلك حادثة طريفة . فإن الجماهير الأراهم التابع للحزب الديمقراطي
الاشتراكي كان فرقة الصاعقة S.A . وهي جند الصاعقة غير القانونيين الذين نظمهم
(روم) أيام نزع السلاح من ألمانيا . والآن وقد أخذت البلاد تتسلح بجرأة تحدا
للاتزامات التي نصت عليها المعاهدة ، فإن فرقة الصاعقة S.A أصبحت من وجهة
نظر الجيش النظامي (The Reichswehr) حمصة مطاغبة ولا ضرورة لها . وقرر هنر

التصحية بها . ومن ثم غلب روم وجريجو دشتراسر وهدداً من الرجال الذين كانوا أشد أخصائه قرباً منه وولاء له في أيامه الأولى ، والجبال فوق شليخ وزوجته وعددٌ صغيراً من زعماء طرقة الصاعقة SA اغتيلوا في حمام الدم ، الذي حدث في ٣٠ يونيو (١٩٣٤) . ومن بعدها لم يجد هتلر زميلاً للشعب الألماني يقتدر ما هو إلاه الشخص أمام أبصاره . وصل ذلك الحين لحلت ألمانيا تحديراً بقيادة ذلك المخلوق القبول التراث نحو طريق الحرب رويداً رويداً .

١٢ - العالم ينحدر نحو الحرب

دبر هتلر خطة الحرب غارتق إليها العالم دون أن يبلل أي جهد لتجنبه . كانت المحاولات الحادة الوحيدة هي التي بدلا الاتحاد السوفيتي ، الذي اعتبر نفسه موضع التهديد المباشر من فلاديمير . وقد انضم الاتحاد السوفيتي إلى عصبة الأمم في ١٩٣٤ ، فغلب بذلك سياسة لينين راسماً على عقب ، وقرر في السنتين التاليتين كما أشرنا آنفاً أن يحمل الأحزاب الشيوعية بكل أرجاء العالم على نفي سياسة الجبهة



المتحدة ، التي تهدف إلى تقوية الحركات المضادة للقومية بالأقطار الأخرى . وبينما كانت للكارثة تقرب القرح ليظنوف أكثر من مرة القيام بمقاومة مجتمعة لتقدم المحور ، وهو أمر ظلت الحكومات البريطانية والأمريكية والفرنسية تتجنبه على الدوام .

وكان هنالك مريان أورثا ضيق العلم ما كان فيه من قصور ذاتي . فأما في الولايات المتحدة فالجيب هو إطلاق العنان لأمانى لا يمكن أن تتحقق . وقد وجهت الولايات المتحدة أقل ضربة للسلام العالمى حيث انسحبت من العصبة منذ ابتدائها ، ومنذ تلك اللحظة أصبح من العقائد القومية تقريباً أن تتجنب أمريكا القورط في الحرب القادمة بطريقة بسيطة هي الامتناع عن أخذ أى دور في الشؤون الآسيوية . وكان الرئيس روزفلت هو السياسى الأمريكى الوحيد الواسع النخوذ الذى رأى في نمو النازية خطراً قد يهدد الولايات المتحدة ، ولكن تصريحاته في هذا الأمر (كخطابه في الحمبر الصصى ، مثلاً) لم تكن بالكثيرة ولا القوية ، وتلقاها الناس في أمريكا بنزاعية القصور . وحدث في عهد متلنجر هو يوليو ١٩٣٩ ، أنه اقترح تعديل قانون الحياد ، فأبى مجلس الشيوخ قبول ذلك . ومع ذلك فإن حكومتى بريطانيا وفرنسا لم يكن في استطاعتهما أن تدعيا لنفسهما أن قيام الثلرية لا يعنهما في شيء . ومع ذلك فإنهما كانتا تملكان إيمان عدد من السنوات إلى القيام بأعمال من شأنها أن تبهى قوة للدولة التى مضمرها . ولا بد أن الأسباب التى دعتهما إلى ذلك كانت تقوم على الخدع والتخمين . ولا يمكن أن يقال إنها انتهجت ذلك النهج لأنهما دولتان عجوزتان وغنيتان عامل الخوف عليهما . ولجئت في بريطانيا بوجه خاص في الإصرار على اتباع تلك السياسة (بعد قتاد مكلونالد وبلنوين) بمسوعة رياحية من الرجال هم : نيفل تشبرلن ولورد هاليفاكس والبيرتون سيمون السير سمويل مور ، وهم رجال مكلون حقا ، ولكهم أهواء وعقائد وأماء بشكل فادح كارث . ويبدو أن ما كان يحرك هؤلاء الرجال إنما هو فكرة خاطئة تماماً عما كانوا يواجهونه ، نشأت لديهم من ضرب مقلوب من الفهم تبادل إلى أفعالهم حول حرب الطبقات . فأنهم رأوا أن النازيين والفاشيين كانوا متى انتصروا يقضون تماماً على تنظيمات الشيوعيين

قبل كل شيء ثم على جميع المبادئ تلك والأحزاب الاشتراكية ، وأنهم كانوا يعتمدون كل ، مخالفة للنظام ، وأنواعاً مختلفة من القذات للصبرية غير الصعبة في القنون والأخلاق ، وأنهم كانوا يذبون للشباب تدريجاً معجياً على القارين العسكرية المتبعة ، وأن مواردهم المالية تعود إلى المساعدات التي يمنحها لهم رجال الأعمال النشيطون . ويبدو أن المحافظين بكل من بريطانيا وفرنسا كانوا يشعرون لآراء هذه المسائل بروح المطف والمزلة لتزيين والناشئين وإن أحرزتهم فحاجاتهم وروحياتهم (وإن كانوا على يقين تام بأن تلك الأعمال القبيحة والروحانية كانت مبالغة فيها كثيراً) . ثم إنهم اقترحوا وجود مشاركة وجنانية بمائة مائة هذه عند الجانب الآخر . وكانوا على يقين من أن الاتحاد السوفيتي والاتحاد السوفيتي وحده هو الحل لظهور اللود ، وأنهم هم الذين يستطيعون وحدهم وبناية السهولة الوصول إلى تسوية شعبة بالمعاملات التجارية مع حظر وزملائه . وموجز القول أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن طبيعة روح (عصابات المبرمين) ، ولم يكن لديهم أدنى فكرة أنه وقع عليهم الاختيار ليكونوا أول الضحايا وأنهم .

ولما نجد نظرية أخرى لتفسير الماهل الذي كانوا يربون به بل الذي يساعدهون به سلسلة الأحداث التي جردتهم أولاً من كل حلفائهم المحملين ثم أفضت بهم إلى حرب جائرة مزلة . وتطالب الأحداث ينو الآن وحل بعد هذه المسافة الفاصلة الطويلة ، أوضح كثيراً من أن يفوت فهم أحداً هنا المتأملين لأخصهم . وفي أول الأمر كانت الحرب تنظم على حدة في الشرق والغرب ، ولم تنسق سياستها ألمانيا واليابان من حيث البداية إلا في نوفمبر ١٩٣٦ ، ولم يبدأ التعاون الكامل بينهما إلا في أعريات ١٩٣٧ . فإن اليابان لم أرأت أن تخزوها منشوريا لم يتوجب عليه إلا بعض الاحججيات الشفوية ، فاضرت المصبة في ١٩٣٧ ، وفزت الصين نفسها ، حيث لحقت ولاية جهول الشباب لتقاء مقاومة قاتلة جداً . وكان السبب في ذلك أن تسياتج كاي شيك كان لا يزال شديد الانفعال بإخضاع الشيوعيين ، وكان أحرز عليهم من النصر العظيم ما جعلهم يفرون في ١٩٣٤ من معقلهم الحصينة في وسط الصين ، وبعد قيامه بزحف شديد مدعش قطع به بضعة آلاف من الأميال عاد إلى

الظهور في ولاية كانسو الغربية ، حيث كان الاتصال بالأعداء أصعب . عل أن سياسة الروس الجديدة كانت وصلت عند ذلك إلى الصين ، ونجحت نتائجها في حادثة تسوحي الاهتمام بطريقها « الصينية » . إذ أن ابن أمير الحرب الذي طرده اليابانيون من منشوريا احتفظ القائد تشيانج كاي شك في ١٩٣٦ ، ثم حله معه إلى مركز القيادة العليا للجنرال ماوتسي تونج قائد جيش الشيوعيين . وبدلاً من إعداده تقام معه ماوتسي تونج وملاؤه حول الخطر الياباني الداهم ، وأضرت زوجة تشيانج كاي شك لتشارك في المباحثات . وبعد قضاء بضعة أيام في التباحث والتأمل أعلن الطرفان أنهما قد حصلوا على الاستقرار اللازمة وتعهدوا على الاتحاد لمقاومة الغزو .



(شكل ٣٦)

وجاء ذلك في أنسب أوقاته ، إذ أن اليابانيين بدأوا في السنة التالية غزواً كاملاً للصين ، واستولوا على بيكين وضربوا بقنابلهم المدن الصينية وأحرقوها . ووجد الصينيون أنهم غير مد أعدائهم فاضطروا إلى التراجع ، ولم تحل ١٩٣٨ إلا وكانت هانكاو ونانكين وشنغهاي وكانتون جميعاً في قبضة يد اليابانيين . ولكن التحالف الجديد لبث

على المطلوب (وإن كان كل من الطرفين في ريب من أمر الآخر) ، والنسحب
تشيانج كاي شيك إلى تشنج كنج في أقصى دنغلي البلاد ووجد اليابانيون أنهم
لا يمكنون إلا السكك الحديدية والطرق المائية والمسد الكبيرة . وكان كل ما يحيط
بهم عدواً لهم ملئاً بمصبات كانت حرباً عليهم . فكان ما كانوا يحسبونه أرضاً ميتة
ومعطفاً ينطلقون منه لزخوف وخدمات أخرى قد ظهر أنه أرض مبهمة ، وإذن لأن
« حادثة الصين » (كما يسميها اليابانيون) لم تكن لليابان مصدر قوة بل مصيبة وقعوا
في حبالها . وعلى ذلك تكون قطعة من خطة الحرب قد ذهبت في الاتجاه الخاطئ .

ولكن لم يحدث مثل هذه الأخطاء في الغرب . فإن عام ١٩٣٣ الذي استولى
فيه هتلر على السلطة شهد التحلل الموتر الأخير لنزع السلاح وأخبار موممر



(شكل ٢٢٦)

صورة الجنرال

عالمى لتثبيت التبادلات التجارية (نتيجة لأعمال
الأمريكيين) ، واستغالة ألمانيا من عصبة الأمم .
فكانما أمست أحدهم بقلم ورسم به خطاً أسفل
إحدى صفحات التاريخ . ثم أعلن هتلر بعد
ذلك في ١٩٣٥ أن معاهدة فرساي لم تعد
موجودة ، وأعاد التجديد وأرجع التسليح العلني
في بلد ظاهرته لها . واحتجت الحكومة
البريطانية ، ثم عملت على الفرز تقريباً إلى توقيع
اتفاق يحدد محتضاه حجم الأسطول الألماني

الجديد . وصدرت الحركة التالية من موسوليني . ففي أكتوبر من تلك السنة خرت جيوشه
أرض عضو آخر في العصبة ، هو الحبشة . وكانت أسباب الاعتداء التي زعمها
الإيطاليون صرراً لذلك منازعات طفيقة على الحدود ، ولكن السبب الحقيقي لذلك الاعتداء
لم يكن إلا أن الأجانب هزموا عند حدود جيشاً إيطالياً حاول غزو بلادهم في ١٨٩٦ .
وسم العالم لهذا الخرق المباشر للسلام وكنار عصبة الأمم إلى اتخاذ إجراءات حاسمة .
وافقت اللتان وأربعون دولة على تهمة إيطاليا بالعدوان وإنزال العقوبات بها
برحمة بريطانيا وفرنسا شكلاً وخصوصاً . وألقى السير صمويل هور وزير الخارجية

في ١١ سبتمبر محطاً ذاع صيته آنذاك تعهد فيه بوقوف بريطانيا بجانب ميثاق العصبة
روحاً وحرماً ، ولكنه اتفق في الحقيقة مع بير لايفال ورئيس وزراء فرنسا على أن
لا يفعل أي شيء في هذا السبيل . ومن ثم لم تطبق « الضوابط » على المواد التي تحتاج
إليها الجيوش الإيطالية (الزيت والصلب والقسم) وسمح بمرور الغاز السام ضمن حولة
السفن التي عبرت قناة السويس . ولم يحل مايو ١٩٣٦ حتى كان الإيطاليون يحيطون
أديس أبابا ، وبذلك دمرت عصبة الأمم بوضعها قوة واقية . وفي نفس ذلك الوقت
كان هتلر أرسل جيوشه إلى أرض الراين ، التي كانت المعاهدة تحرم دخولهم إليها .
وكذلك أيضاً بدأ في ١٩٣٦ عصيان فرانكو في إسبانيا الذي كانت تؤازره إيطاليا
وألمانيا ، وقد أسلفنا إليك تاريخه من قبل .

وفي مارس ١٩٣٨ انحلت جيوش النازي حولة ألمانيا وسجحت شوشنج الدكتاتور
الكاثوليكي الذي خلفه دولفوس ، وبدأت حركة الملاحح والسجن التي يزلونها
عادة باليهود وأعداء القاشية .

وفي سبتمبر ١٩٣٨ أعلن هتلر أن « الظلم » الواقع على الألمان في تشيكوسلوفاكيا
أصبح لا يطاق ، وبدأ شبح الحرب تانيا ، وكانت فرنسا (وإن لم تكن بريطانيا)
مربطة بتشيكوسلوفاكيا بمعاملات . وظهر تشمبرلن إلى ميونيخ ، وحشد مؤتمراً
رياحي مكون من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا لجبر تشيكوسلوفاكيا على التنازل
عن مناطق الضخوم بها لألمانيا ففقدت معها قدرتها على الدفاع عن نفسها . وعندما عاد
تشمبرلن من ميونيخ أعلن قائلاً : « أعتقد أن هذا فيه السلام لزماننا » . (ويتنبأ أن
لذاكر أن هتلر كان يجمع كل اعتداء من هذه الاعتداءات ببيان يؤكد فيه مقاصده
العلمية وعدم رغبته في اللطالة بأية مطالب أخرى . وكان الروس في نفس الحين
يقنعون عادة وفي كل مرة مقترحات بضرورة التنازل لإيقاف التقدم النازي كانت
تقابل دعماً بالإفغال التام) .

وفي مارس ١٩٣٩ احتل النازيون بقية تشيكوسلوفاكيا وملغوا فيها أركان نظامهم
الاتحاد . واتصلع هتلر أيضاً مدينة على من حولة لتونيا للصغيرة .

وفي أبريل ١٩٣٩ غزت إيطاليا ألبانيا وفرضتها . وألقى هتلر حلف عدم الانحياز
الذي كان مبرماً بينه وبين بولندا .

وفي ذلك الحين كان الناس جميعاً حتى حكومة تشيكلاند أدركوا ما كان مقبلاً
عليهم بخطوات عظيمة . لقد ذهبت معاهدة فرساي إلى غير رجعة ، ودمرت عصبة
الأمم ، ولم يعد ثم ياقيا سوى حليف واحد ذي أيد : هو الروسيا . ولأنبرا
أرسلت إلى موسكو بحث المفاوضات في عقد معاهدة ، ولكن بعد فوات الأوان .
فإن الروسيا كانت أخذت تغير سياستها تغيراً كبيراً رمز إليه علاج ليطينوف للبشيفكي
للقدم وإحلال مولوتوف الواقعي محله .

وتوقفت خطط الألمان الحربية لخوفهم من أن يضطروا إلى القتال في جبهتين
كما عرف ذلك حتى المودة في علم استراتيجية الحروب . وكانت هذه القطعة هي
مصدر القلق التقليدي لدى جنرالات الألمان . ولم تكن ألمانيا بموقعها المعروف
إلا كبنت بين فراخى كسادة الهند ، - والجيش الروسية من طرفها والفرنسية
من غربها والأساطيل البريطانية بسود البحار . ولم يكن خطر يستطيع البدء ببرنامج
واحدة بعد واحدة ، الذي لنهله نفسه ، ما بين هذا التهديد قائماً . فإن زال أمكن
البدء في الحرب . ومن ثم فتح باب المفاوضات لإزالة عن الوجود . وبماية تغييرها
أصبح حلها من تغيير عملية تشيكلاند نفسه ، يبدو أن ستالين ومولوتوف زعما أن
حتى الحلفاء والألمان إلى موسكو ليستا سوى حائطين متنافسين يحيطان ود الروس ،
وهو أنهم كانوا يرون الخير في إثارة النازيين على الحلفاء . وفي ٢٣ أغسطس
١٩٣٩ وقع الحلف النازي السوفيتي . وكانت النتيجة المفهومة لذلك أن للجيش
الألماني اجتمعت بولندا في أول سبتمبر وبدأت الحرب العالمية الثانية .

الفصل الأربعون

الحرب العالمية الثانية

١ - مجرى الحرب . - ٢ - مقتل اليهود .

١ - مجرى الحرب

لم تكن في العالم حكومة لديها أية فكرة عما كان سيحدث في سبتمبر ١٩٣٩
علا الحكومة الألمانية وحدها . أما حزيمة بولندا فكانت شيئا قومه كثير من الناس ؛
ولكن أحدا لم يكن يتوقع أن يلقى عليها في مدى ثلاثة أسابيع . وفي البداية كما كان
يحدث غالبا كان عنصر المبالغة في جانب النازيين ؛ وذلك لأن الجيش البولندي
لم يكن حتى قد استكمل تجهته فعلا . ولكن تلت الخزائن الأولى كولت أنظر
وأعظم ؛ فبز الألمان البولنديين في الهبات والمدافع والطائرات بصورة يقطع معها
كل رجاء . ولكن البولنديين كانوا إذا وجدوا بين أيديهم ملجأ يتحصنون فيه على
وادمو أو شبه جزيرة هيل الجاورة للنارج ، فإنهم كانوا يقاتلون قتال المسيلس ؛
ولكن المدافع حلت بموقعهم الرئيسية . وكان هناك حتى ١٧ سبتمبر بعض أمل
لهه كان وهما بإطلا في أن يستطيعوا أن يقيموا خط دفاع على امتداد نهري السان بيج
والتاريف ؛ ولكن منظمة المقاومة النازية السوفيتية نجحت في ذلك اليوم . ففرا الروس
بولندا من الشرق وبذلك انتهت الحرب فعلا . فالتق الحليفان عند يربلي ستوك
وأبرما في ٢٩ سبتمبر التضم الرابع لبولندا ؛ وسلم آخر جندي بولندي في أول أكتوبر
شبه جزيرة هيل . وظهرت المسخطة آثار أخرى في الأسابيع الأربعة التالية متلحا
أجبرت جمهوريات البلطيق : استونيا ولاتفيا ولتوانيا على عقد معاهدات تحول
لروسيا لإقامة قواعد عسكرية على أراضيها ؛ وجامل الألمان الروس بسحب جميع
الألمان من تلك المناطق .

ولم يصنع الحلفاء الغربيون أى شيء تقريباً أثناء هذه الأزمة . لم قام الحزبان
 جاملان القائد الفرنسي العام بخروج خائف مباحث من خط مايجنو ، ولكنه ما لبث
 أن عاد بمجرد أن اتى بخط سيجفريد . وبلغ من وجودهم عن الحركة أن امتلأ هتلر
 بالرجاء فعرض عليهم الصلح على أساس قبول الحلفاء لفتح بولندا . ولكن العرض
 رفض ، أما عن أية أنواع أخرى من التحليلات القوية المصورة الأخرى ، فإن
 الشعوب المتحالفة اضطرت أن تمنع بأحداث نافذة مثل تصديق الخناق على البحارة
 الألمانية المقيمة جراف اشى على يد ثلاث سفن بريطانية صغيرة في ديسمبر وتنظيم
 حصار بحرى على ألمانيا . والحق إن حكمهم كانوا ضللى الخط جدا من



المعرفة بقوة خصمهم بحيث زادت ميولهم إلى سكان آخر ، وحلت على جزء من العلم ضلت فيه خطة السوفييت السبيل . فقد قدمت إلى قطعة مطالب مماثلة تلك التي قدمت لدويلات البلطيق ، ولكن فتلقة كانت دولة ديمقراطية وطيبة الأركان لادكتاتورية عالة القوى ، ولما رفضت المطالب بأدب . وفي اليوم الأخير من نوفمبر ، وفي كحد صافر المعاهدت ولبناق حصة الأمم . خزا الروس تلك الجمهورية الصغيرة وضربت بالقنابل عاصمتها علسكى . وكانت كلمة ميزان القلر حجية مضحكة — والثقة بين الدولتين في عند السكان ٥٠ أو ٦٠ : ١ — ونفس النسبة تقريباً في الأسلحة والعتاد — وكانت النتيجة للحدث العلم كله أن هجيات الروس الثقيلة ردت على أعضائها . ووقف الفنلنديون وحلم لا يفتقرون أية مساعدة لمالة اللهم إلا بعض اللون الحق من السويد وتمكنوا من صد الفيرين مدة ثلاثة أشهر ، وبلغ من شدة الغضب من القزو السوفييتي أن أحد البريطانيون والفرنسيون حلة لمعاونتهم — ولم يعمل دون الشروط في حرب ثانية سوى أن سدت الطريق عليها الترويج والسويد .

وفي ١٢ مارس ١٩٤٠ انتهت الحرب الفنلندية بفوز الروسيين الذي لم يكن مع يد ، وعاد الخفاء إلى سابق جودهم الذي يسجله في ٥ أبريل صفور بيان من المستر تشمبرلن ملؤه الاستسلام يقول فيه : « إن عتار قد فاته الأميوس . » وبعد أربعة أيام من ذلك الإعلان استولى الألمان على النازمرك كلها وحل الشطر الأكبر من الترويج — فلما الأولى من هاتين الدولتين المساكين فلم تبد أية مقاومة وأما الثانية فقد أظهرت مقاومة غير منتظمة لم يصاحبها النجاح . ولم يستطع تشمبرلن أن يصدق أخيه ، فانه عندما أبلغ أن الألمان استولوا على نارليوك في أقصى الشمال ، قرر أمام مجلس الصوم أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحا ، وأن المكان لابد أن يكون « لارليك » في أقصى الجنوب . وسارع البريطانيون بإزالة جتشم في ناموس وأنتالشتيس لمساعدة الترويجيين المكافحين ولكنه جيش حرم الوقاية الجوية الكافية والدبابات والمدافع الكبيرة والمطلة بالقتارة إلى الألمان ، فكان الإنجليز هم والفرنسيون الذين لحقوا بهم لم يكونوا يزدبون في القوة كثيراً من البولنديين . ولم تبد الكفاية في شيء من

أعماله إلا في العمليات البحرية التي انطلقت في نارتك ، وهي عمليات لم تستطع حل كل حال أن تقلد الحملة . وتم لصح التوزيع عند نهاية الشهر .

وعندئذ ضاق صدر مجلس العموم البريطاني (وإن كان رد الفعل الفرنسي أضعف من هلام . وحلوتد سناقشة نارية متضجرة ، قال فيها أحمد أتباع تشمبرلن يخاطبه : « استعطيك بالله أن تلعب » ، واكتنع تشمبرلن بعد أخذ الرأي حل وزلته بالجلسة بألفية ٢٠٠ إلى ٢٨٦ صوتاً أنه لا بد له أن يستقبل . وحل محله في الوزارة المتخلف براسة ونستون تشرشل سامم فيه حزب العمال . وجاء الضيف في أنسب الأوقات بالضبط . وفي نفس ذلك اليوم (١٠ مايو) غرق الألمان مجموعة أخرى من المصاعبات بزورم هولندة ويلججها . وعندئذ شهد العالم الغربي « التزم الألمان » بأكمل محله وقوته . فإن « فرق الهانزر » وهي مزيج من الدبابات والمخاة كانت تشق طريقها صوة من خلال الخطوط المدية - فكانت الدبابات تهدم الأجزاء الضعيفة ، حل حين تفضي جند اللغة الأربعة ورامها على كل مقاومة . واستخدمت قاذفات القنابل ومها في جند اسمه قاذفات القنابل للقضة كأسلحة تزيق عمل تشكيلات العدو - وكانت تنقل الأوامر باللاسلكي هي والدبابات على السواء . ولم تعد خطوط التليفون سهلة القطع المستخدمة في ١٩١٩ إلا ذكرى من ذكريات الماضي . وكانت خطة المجهات توضع حتى هادق بناميلها . ولم تستطع حصون لين إيميل (Eben Emael) القلعة البلجيكية والركن المركزي الذي يحدد عليه الدفاع البلجيكي أن تصمد إلا يوماً واحداً . ولكن للمجهات لم يقتصر توجيهها على الجنود فقط ، إذ أن هذه إنما كانت : « الحرب الشاملة » . وكانت الدبابات وقاذفات القنابل للقضة بأصواتها الصلوة الرهبة تنفع أمامها حصوداً حائلة من اللتين للتحورين ، وكانت قوات الحلفاء التي عبت محاولة إلقاء الملهجيين نجد نفسها مخططة بكل خيرة من اللاجئين المحورين الذين يفرون نحو الغرب في هلع . وكان للتليفون يهبطون وراء الخطوط ويسولون على الكبارى . وفي هولندة كان جواسيس الألمان اللين كثيراً ما كانوا من قلعاء التزوين بأرضها - يقيمون مواقع للمسلح الرشالة . ورغبة في زيادة أثر الإرحاب ، علم « الوقت

كلفت *Kaufmann* أي سلاح الطيران عديده روتردام الحزلاء وقتل ثلاثين ألفاً من سكانها ، وكانت البحرية معسلة إذ رأى الألمان أنه يجب على العالم أن يعلم درساً .

وتم فتح هولندا في أيام حسة ، وبينما كانت الجيوش للحائفة التي خبرت اتجاهها هشارت عمالاً لإتخاذ بلجيكا تظهقر ببطء نحو الساحل اشترق الألمان قطعاً ضعيف للمطاح في الأردن قرب مدينة سيدان المشهورة . وما وافق ١٥ مايو حتى كان الجيش الفرنسي التاسع قد تمزق بندا وكان الهانزر يقاتلون من خلال فجوة قوعها خسون ميلا شمال خطهما جنوب الطيم الثالثة . ولم تقض أربعة أيام أخرى حتى بلغوا البحر ، وأحيط بالجيش الهولندي والبلجيكية والبريطانية وبعض الفرنسية في فلاتر . واستسلم ملك الهوليك ، وقد استطاع الجيش البريطاني ومن معه من الفرنسيين الخروج من دنكيرك بين ٢٨ مايو ، ٧ يونيو على يد أسطول يجمع على القصة وكان مكرونا من أكثر من ٦٠٠ من الزوارق الخاصة ، ٢٠٠ سفينة بحرية من سفن الأسطول . حل أن الجيش كانت أضحت في ذلك الحين في المصالح والانهيار ، لأن الهانزر كانوا يترقبون البلاد بسرعة شديدة جداً حتى أن دباباتهم كانت تسبق المشاة المتأخرين لم يفسد ميلا في بعض الأحيان . وهناك على الطرق البيضاء الممتدة بين والبات والورد في خمس الصيف المصحبة كانت تتال جامهر خيرة ملحورة منها اللانيون ومنها العسكريون فريهم الرسمى ، وهم يغرون لا يسيرون إلى أين ويجرون وراسم قطعاً غير منظمة الشكل من متاع بيوتهم تلاصقهم قاذفات القتال للفضة يتأهلها ورشاشها كلما توقفوا عن الحركة إلى الأمام . لقد بدت في الأفق بوادر انهاء إحدى الحصارات : ولم تشهد الدنيا مناظر كهله منذ أن صر الرايرة الإمبراطورية الرومانية . وق ١٧ يونيو تألفت حكومة فرنسية جديدة برئاسة المارشال بيتان المتيق وأعلنت أنها مستعدة من القتال ، متجاهلة بذلك عرضا بريطانيا بإتشاء اتحاد الجندى فرنسي لام .

لقد أدرك النازيون النصر بفضل ما كان لهم من أسلحة أفضل وقيادة أكفأ وعلم رغبة الطبقة العليا الفرنسية في المقاومة وانتشار الدعاية الشيوعية بين صفوف العمال . وعندئذ امتدت أبدي حلفاء النازية تنق ولتقط . وبكل شجاعة أعلن موسوليني الحرب على حلفائه للنهرمين ، وانقطع الاتحاد السوفيتي ولاية إساريا من

رومانيا (وهي دولة يحسبها من قبل ضيان النجلو فرنسي) كما ضمت إليها استونيا ولاطيا ولتوانيا. ثم حدثت وفاة وحيدة.

والمرحلة التي جاءت في أعقاب ذلك ترتفع إلى مرتبة ماراتون وسلاميوس بين المعركة التي قبرت وجه التاريخ وأقلعت إحدى الحضارات. فلو لم تقاوم بريطانيا أولو أنها هزمت في ذلك الكفاح، ظلم من الصبر تقدير ما كان سيحدث. فإن خطة النازية صارت الآن واضحة وضوحاً لا بأس به، وواضح أيضاً كم أضررت على النجاح. وكانت هزيمة بريطانيا سيحبها غزو الروميا. والحزن أن القوات السوفييتية أصبحت هي الأخرى على نفس شفير الكثرة في ١٩٤١، ١٩٤٢، ومن بعد الاحتمالات أنهم كانوا يستطيعون الصمود أمام ألمانيا بعد أن تهزم بريطانيا ولا تعود بها حاجة للطاع عن مؤنثرتها، وتجد كل البحار مفتوحة لتزويد جيوشها بما تحتاج إليه. وكانت الخطة تقضي بأنه متى تمت هزيمة الروميا أن تهاجم الولايات المتحدة تلك الدولة الساذجة نصف المسلحة - فهاجمها اليابانيون من الغرب وهاجمها أوروبا التالية على بكرة أبيها من الشرق كما يهاجمها من الجنوب حلفاء ألمانيا بالأمريكا اللاتينية - وهم فعلاً في حالة استعداد. وقد أحبطت مقاومة بريطانيا تنفيذ هذا البرنامج الضخم وغير بعيد التنفيذ.

وكانت هناك من قبل أمم مكشورة كثيرة تحصى وراء الدرع البريطاني. وقد ظلت هيئة الإذاعة البريطانية شهوراً كثيرة تلعب بعد إذاعة التشيد البريطاني الأنشيد الوطنية لجميع الدول الأخرى التي لحكومتها أشباح في لندن قبل قرابة عشرة أعشار الساء. كان موكباً طويلاً غلب عليه الأسى قدر ما تجلت فيه الشامة، تمر فيه هونكة وبلجيكا والروميج والدانمرك ولوكسمبرج ولهبشة وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا - ولم يلبث اللوكب حتى انضمت إليه يوغوسلافيا واليونان. وكل منهم من كان يدرك كم كان ذلك اللزع وقيفاً. يقول جون بروفي: «لم يكن لدى بريطانيا بعد ذلك سوى ما يقارب قليل ونصف من قياق نشاة وبضعة فرق من مدفعية الميدان وستين دبابة فقط». أجل إنه كان لديها أيضاً الحرس الوطني، وهي قوة من المتطوعين أصبحت في مدى بضعة أسابيع مكونة من أكثر من مليون

من الرجال مصعدة لمجابهة المظليين الذين حطموا المقاومة الهولندية والبلجيكية ، ولكن كل ما كان لديهم من سلاح - إن كان معهم سلاح - هو البنادق العادية ، حتى وافي الحريف ووصلت إلى البلاد ٨٠٠,٠٠٠ بندقية من أمريكا . أجل إن الأسطول كان قوياً جباراً لم يتغير من وضعه شيء ، ولكن سلاح الجو الألماني كان يفوق في العدد سلاح الجو الملكي ببرجة هائلة .

وحدد هنر تاريخ غزو بريطانيا - وهو الحادي والعشرون من سبتمبر ١٩٤٠ - وبدأت الحركة الأولى في هذا السبيل ، وهي تدمير الأسطول الجوي البريطاني في ٨ أغسطس ١٩٤٠ . وأعلنت قاذفات القتال من طراز هينكل ودورنر وقاذفات يونكرز المتحصنة ومقاتلات مسرمت تحتاج جنوب شرق إنجلترا . وكانت تعرضها أهداد صغيرة من طائرات سيغفاير وهاريكان تساهلها بعض الطائرات القديمة من طراز ديفايانت (Defiant) . وكانت طائرات الدفاع من القوة بحيث لم يعد في الإمكان مواصلة سير الدوريات باستمرار . فلا بد للملاحى الجو من الانتظار حتى يصل الأحدهاء المهاجمون ، ولا كان في الإمكان عندما تكتشف طائراتهم أن تصعد لهم القوة بأكملها ، فلا بد من الاحتفاظ ببعض الأسراب للأكافة الموجة الرابعة والخامسة التي كان الفاتح المسرف في قواته يستطيع لإسقاطها . وكانت خطة سلاح الجو الألماني ذات خمس شعب : تدمير القوافل الساحلية التي تمون بريطانيا بالطعام وإغراق الأسطول أو تسجيره عن الحركة وطرد سلاح الجو الملكي RAF من السماء ، وشل الحركة في الموانئ وتحطيم جميع المطارات التي قد تقوم منها الطائرات لقلع أساطيل الغزاة بقنابلها . مثال ذلك أنه حدث يوم ١٢ أغسطس أنه ٢٠٠ طائرة هاجت دوفر على موجات وهاجت ١٥٠ طائرة ميناء بورتسموث وجزيرة ويت . واستمر القتال طوال أغسطس وسبتمبر إلى أكتوبر . وكان كل ما يستطيع رؤيته من عل الأرض من الناس خطوطاً من الدخان الأبيض يمر عبر سموات كنت الزرقاء الصافية وخرقة المنافع الرشاشة السريعة والانفجارات المفاجئة المكتومة ومظلات يضاء متلونة يتلحها بعض الرجال وطائرات متقلبة تسقط على التلال . ولكن النتيجة ظهرت وفصل في الأمر في سبتمبر : فإن سلاح

الطيران الملكي قد طرد سلاح الجو الألماني من السماوات نهائياً . وقال المستر ونستون تشرشل الذي كانت خطبه جزءاً من حملة الدعاية البريطانية متحدثاً عن الطيارين : « لم يحدث قط في تاريخ الصراع البشري أن كان عدد ضخم كهذا مدينياً لخل هذه القلة الضئيلة يمثل هذا الفضل العظيم . »

وفي أكتوبر بدأ سلاح الجو الألماني طريقة جديدة . (وذلك لأن الغزو تأجل ، وتفرقت الصنادل المسطحة القناع التي أحدها خطر كما أحدها ناهليون من قبله) ولكن



(عكر ٢٢٨)

صورة ولستون تشرشل

بريطانيا تكهن من قبل بالخطوة ، وبدلاً من محاولة لتدمير المطارات والقضاء على سلاح الطيران الملكي ، أخذ الألمان منذ ٧ سبتمبر يجربون أرصفة ميناء لندن ، وكانت ألسنة اللهب والانفجار تشاهد على بعد ٢٠ ميلاً . وواصل الطيارون الألمان غاراتهم الليلية طوال الشتاء حين لم يكن في استطاع سلاح الطيران الملكي اكتشافهم . ودمر الجزء المركزي من كوفنتري في ١٥ نوفمبر (واخترع الألمان في لغتهم بآبهاج

فعل « أكلتير ١٥ cavenrate » للدلالة على التدمير المطلق الشامل) . وأغروا على لندن ستاً وتسعين غارة متتالية ، أحرقت أحيائها في ٢٩ ديسمبر كل المنطقة المركزية من المدينة . ووقعت على المدينة خمسون ألفاً من القنابل الحديدية الانفجار وما لاحصر له من القنابل الحارقة . ولاح في البداية أن الهجمات كانت توجهها خطة استراتيجية مرسومة ، فكانت تجمل أهدافها السكك الحديدية والمحطات ومصانع الغاز ومستودعات المياه ومحطات البخار والموانئ ومحطات توليد القوى ، ثم بدأ بعد ذلك أن الدافع كان الغضب العشوائي . واستخدمت الألغام للمفظة التي كانت تعمل عن قذع البحر لتغرق السفن الحديدية التي تمر فوقها ، فأصبحت الموانئ مغطاة ، حتى يوجد لهم سلباً نهاية نوفمبر فكتك أجزاءه وقصص ، وكانت نتيجة ذلك أن استبطلت طريقة تحييد المجال المغنطيسي للأرض (Degaussing) ، فأبطلت مفعول تلك الألغام .

والمصالح لمجمل قلوب المؤرخين . وقد توقع الألمان أن تحدث غازاتهم نفس الآثار التي أحدثتها في المواطن الأخرى - بل الواقع أن إغاثتهم أنقذت تلج مفرقة أن تلك الآثار نفسها قد وقعت ، وأن ميولا عديدة من اللاجئين المنحدرين كانت تكتظ الطرق المؤدية من لندن شمالا ، وتكرم الورد هوغو (وليم جويس) بتصحبهم بأن شمال ويلز هو الجهة الآمنة الوحيدة أمامهم . ولكن الواقع أن الأطفال أبعثوا عن اللبث بطريقة منظمة وأزلوا عند أصحاب المنازل بالريف ، في وجه شيء من الخلل ، ولكن مع الكفاية ، ولم يتبعهم أي جاهر من اللاجئين . وكانت جميع الطبقات تحصى من التارث في لندن ومن الأقاليم في نفس النوع من الخلق ؛ وفوق هذا صدرت قوانين حمت المساواة ، لو أنها ظهرت قبل ذلك يستقن لانهت بالانسان بالانتماء لا يمكن التفريق عنها . ووضعت جميع الممتلكات ، بما في ذلك الأرض ، تحت هيمنة الحكومة ، بمقتضى قوانين صدرت بمجرد تقلد حكومة تشرشل مهام الحكم . ووضعت البنوك تحت الرقابة الحكومية ، وتولت الحكومة الاشراف على الاستثمارات الأجنبية ، وقضت طائر حسابات أصحاب المصانع والشركات الضخمة ؛ وكان في الامكان إصدار الأوامر بالزام الأفراد بالقوة بإنتاج أي شيء يحتاج إليه . وفرضت الضرائب على أرباح الحرب ، وقرر أن تكون خسائر الحرب قسمة مشتركة بين الجميع . وقبل الحال أن يعملوا تحت الشجيه ، لم يلبث هذا التجديد أن بسط على النساء أيضا . ولم يحدث قط منذ أيام اسبرطة أي قبل ذلك بالذين وخمسة عام أن يجعل للناس أسامهم بمثل هذه الدرجة الكاملة الشاملة .

على أن الحظ كان رغم كل هذه الجهود يصاب البريطانيون . فلأن هذه البريطانيين ، أربعة وأربعون مليوناً من الأضف مقابل ثمانية وعشرين مليوناً لدى الألمان ، ظهر أضيف إلى الملايين الأربعة والأربعين من سكان الجزر البريطانية سكان للممتلكات المستقلة المؤيدون لهم ، فقد كان في إمكان خطر أن يضم إلى من تحت سطره من ألمان أغلبية سكان أوروبا . أجل إن الأسطول لم يكن يزه في السلم شيء ، ولكن تجلب واحدة من أحد تحديثات القوة البحرية خطورة عندما أذيت

اليونان للصنيرة وأرجنتها القهقري وأنشئت فتزو ألبانيا نفسها . وبعد قليل تقدم هتلر على مهل (كما بدأ الناس عندئذ) لمساعدة حليقه ، وتهديد السبيل لذلك أمرت النمرو ورومانيا وبلغاريا بالانضمام إلى المحور . وأقر الأمير يول الوصى على عرش يوغوسلافيا تحالفاً عقد مع الألمان في ٢٥ مارس . ولكن اليوغوسلاف أبوا قبول ذلك الحلف ، فطرد الأمير بعد يومين وأجلس ابن أخيه الملك على العرش باسم بطرس الثاني . وفي السادس من أبريل هاجمت الجيوش الألمانية يوغوسلافيا بسرعة موحدة . ولم يكن الجيش اليوغوسلافي مستعداً للقتال فشتوا عمله ، ودمرت بلغراد تماماً جزئياً في غارة من غارات الأرحاب المألوفة ، وما وافى ١٧ من الشهر حتى أخذت كل مقاومة إلا ما كان يصدر من بعض عصابات في سرية بقيادة الكولونيل ميتخيلوفيتش .

وعند ذلك دخل الألمان بلاد اليونان . إذ كانت فرق الهانز تشكل تشكيلات مختلفة احتلالاً بليفاً من الجيوش الإيطالية ، وعندئذ طلبت اليونان المساعدة من بريطانيا على الفور . وأرسل إليها كل القاذف التي يمكن الاستعانة به من قوات ويقل - في أعداد ربما تجاوزت حد الحكمة - ولكن عاد الضوق الألماني الجوى فأحرز نصراً . وربما كان في الامكان التمسك بمضيق لرمبولاي ، ولكن كتلة الجيش اليوناني التي قطع عليها السبيل في أيربوس استسلمت واستسلم الأمر لإخلاء بلاد اليونان من الجيوش . وحاول اليونانيون التمسك بجزيرة كريت ، ولكن مالبت الألمان أن انتزعوها منهم بقوة السلاح الجوى . وفضلاً عن ذلك نقل الألمان تعزيزات كبيرة إلى ليبيا ، بينما الأسطول البريطاني يقذف القوات البريطانية من اليونان ، وهناك في ليبيا تمكنت الجيوش الألمانية والإيطالية بقيادة الجنرال رومل من طرد البريطانيين من كل ما كان ويقل قوته تقريباً .

واقتضت لحظات بدت فيها الكوارث موشكة على الانتشار . واستولى رشيد عالي الكيلاني أحد أنصار النازي على السلطة من نائب الملك في العراق ، وأمد بالطائرات الألمانية عن طريق سوريا التابعة لحكومة فيشي الفرنسية (برئاسة بيتان ولاهان) . ولكن لأول مرة كان الرد سريعاً ، فإن رشيد عالي قام بأول هجائه في اليوم

الثاني من مايو ، ولكن لم يلبث البريطانيون أن استولوا على بغداد في أول يونيو .
ونجحوا في الأسابيع الخمسة التالية من استرداد العراق بأكمله كما احتلوا سوريا .

وأزيل عن بريطانيا قلق كبير له حديثه ، وبريطانيا كما هو معلوم جزيرة مكتظة
بأكثر مما تطيق من السكان لا تستطيع الجيش إلا بما تستورد من لوازم ومواد تنقطع
بعض أعمائها مما نقله عليها استبدادها وراء البحار . وسرعان ما بيعت هذه الاستبدادات
لغراء الميرة والخضيرة ، وكان بيعها بالولايات المتحدة بوجه خاص ، وبهذا أصبح
الخرب وشيكاً جداً . وكان الرئيس روزفلت ألقى الكونجرس في ١٩٣٩ بتعديل
قوانين الحياض المتعلقة بالحظر البحري للأسلحة والسلاح بنظام « الدفع نقداً وحل
البضاعة Cash & Carry » (وهو أمر لم يكن معناه إلا البيع لبريطانيا وفرنسا دون
غيرهما بسبب تفوق الأولى البحري) ، ولكن حتى هذا الوضع لم يطرأ عليه عناية
جداً . وصرح السناتور بوراه أن معنى ذلك هو حل السلاح ، وصرح ناي أنه لن
يكون هناك شيء . أمام أمريكا إلا إلحاح الموعد ، كما صرح كلارك بأن بريطانيا
وفرنسا هما المعتديان وقال لندين (Lundeen) : يجب إنهاء هذه الفرصة للدفع
دون الحرب العالمية الأولى أو الاستسلام على جزر الهند الغربية . وفي سبتمبر ١٩٤٠
بيعت لبريطانيا لحسن مدمرة تجاوزت العمر القانوني المحدد لها مقابل بعض القواعد
البحرية . وفي الحين نفسه تكونت بشيكاغو لجنة سميت : « بلتغرافية المصالح الأمريكية
أولاً » وكانت هيئة أكثر من الصخب وبدأت في نوب من قوة القنود والتأثير .
ومع ذلك فقد قدم إلى الكونجرس في نهاية ١٩٤٠ مشروع قانون « الإعادة والتأجير
Lease-Lend » ومر القانون في المجلس في ١١ مارس ١٩٤١ . وكان معناه الحق أن
القبض الضخم من الأسلحة الواردة إلى بريطانيا أصبح يقدم إليها منذ تلك اللحظة
بنحو مقابل .

ولكن الحروب لا يمكن كسبها بالمال ، وربما كان من حسن حظ العالم أن بدأ
صبر هتلر يتهدد . وكان منذ حين يفكر في الخطر الثاني من خطته الحرية العظيمة
مع ترك الخطر الأول ناقصاً . وفي مايو قام هيس الرجل نصف المجنون الثاني له
في القيادة والرئاسة برحلة طيران سرية ليرى هل تقبل بريطانيا أن تحصلون أم

ترفض . وقد انضج ما كان يدور بقله على حين بئته في الساعة الرابعة من صبيحة ٢٢ يونية عندما هجمت القوات الألمانية على طول الحدود المرمية - على أراضي الاتحاد السوفيتي .

وبدا الروس كمن أخذ على غرة . إذ لم يكف يمتص أسبوع على إعلان أصدرته وكالة ناس الرسمية للأبناء تصرح به أنه . « لا يمكن أن يكون هناك أى سوء تفاهم بين الدولتين » . وبدى أن نواهم على الحدود دلفت حياء إلى الخلف ، ولم يتفص أحد عشر يوماً حتى كان الألمان يحتلون منطقة أعظم من فرنسا مساحة . ولكنهم دخلوا عندئذ منطقة عميقة من التحصينات تسمى على سبيل التسهيل باسم « خط ستالين » وتحدث بالتخريب على خط حدود روسيا في ١٩٣٨ . ومنايات القتال أشد



مبدأ ، إذ لم يكن لتجودة المصلحة في أنفس الطرفين من نظير وكان عائدتها أكثر
تعددا . ولكن النتيجة كانت واحدة ، فاستقر الألمان لملح عند مواطن ثلاثة -
أولاً في الشك بالاستيلاء على إسكوف على الطريق إلى لنتجراد ، وثانياً في الوسط
بالاستيلاء على ليتيمسك على الطريق إلى سمولنسك ، وثالثاً بالاستيلاء على زيمومو
(Zhimomle) على الطريق إلى كييف . وتواصلت قصة الغزائم والتراجعت الرومية
مكررة طوال الصيف . وحوصرت لنتجراد ، وانضم القنطليون لأعضهم بالزحف
نحوها من الشمال . ثم سقطت سمولنسك في قبضة الألمان الذين شقوا طريقهم
في الجنوب ودخلوا إلى أوكرانيا (وهي المستودع الضخم والزرابي العظيم لدى
الروسيا) ، واستطروا كل شيء تقريباً بضع غربي نهر الدانير .

وعندئذ قلعت بريطانيا الروسية كل ما تستطيع من مساعدة بعد أن حقلت
مع الروسية معاهدة تحالف . وحملت الولايات المتحدة حلوها ، ولكن كل ما قلعتاه
كان صليلاً جداً . وكانت الدولتان التاطفان بالإنجليزية حاولتا توضيح أخراض
الحرب : فشهد بداية السنة كلان الرئيس روزفلت تحدث إلى الكونجرس عن
« الحريات الأربع » - وهي : حرية الكلام والعبادة والتحرر من الحاجة ومن الخوف .
وفي أغسطس التقى رئيس الوزراء تشرشل على حافة البحر حيث أحدا ووقعا
« ميثاق الأطلسي » لتبعية هذه الحريات - وهي على الجملة أقل وضوحاً من نقاط
ولسون الأربعة عشرة ولكنها تحوى على نفس النوايا . وصلى ستالين على الميثاق
مضيفاً إليه التالي : « إن هدفنا هو مساعدة الأمم التي تكافح ضد غطر تم تركهم
وشأنهم ينظرون أحوالهم بكل حريتهم وبالطريقة التي يرضونها - وينهى أن لا يتدخل
أحد أي تتدخل في الشؤون الداخلية للشعوب الأخرى » .

ولكن الكلمات لا تزيد على الأموال لقوة على اكتساب الحروب . وحاول
البلش الألماني مواصلة الزحف . فسقطت كييف وتبعها خاركوف واحتلت
أوكرانيا . وأصبح الروس يمحرون أو ينفسون كل شيء قبل مقادرة كل مكان
لكي لا يتركوا القاصح شيئاً . وكانت الوحشية الضارية مع التقدم الألماني ، وقد كان
جنتهم يحسون في أوروبا الغربية لسلوك إلى حد ما (حسب متغنى للماير الخفيفة

المقبولة الآن ، ولكن لم يكن ثمة داع يدعوهم في روسيا لكبح أنفسهم . وأبعد
 القاتلان العادان الروسيان غوردوشيلوف وبيدني عن القيادة ، ولكن غلبتهما
 في الإمرة لم يكونا أسعد حظاً ، واحسن حوض نهر الفولغا ، واجيحت بلاد القرم ،
 وصار الألمان على ما يقرب من عشرين ميلاً من موسكو ، ونقلت مكاتب الحكومة
 والمعامل الأجنبية إلى كويبيشيف على بعد ٥٠٠ ميل .

والمرة الثانية لم يستطع المحور أن ينتظر ، إذ لا بد له من التقاط الثمرة قبل
 نضجها . ففي التاسع من أكتوبر أعلن الألمان بصفة رسمية كان إيمانهم بصحتها
 واضحاً أن الجيوش السوفيتية في حالة تحلل . والتظاهر أن تلك الفكرة أخذت تضع
 لدى آخرين غيرهم ، وأنه قد حان الوقت الذي ينبغي أن يبدأ فيه الدور الثالث
 من فتوح المحور ، إذ حاجت اليابان الأسطول الأمريكي في الهاسينيكى الراسي
 عند بئرل هاربر في اليوم السابع من ديسمبر ١٩٤١ ، فأغرقوا بعض
 يوارجة ثمانية وأحجزوا بعضها الآخر عن العمل ، كما أغرقوا أو أحجزوا
 ثلاثة من طراداته السبعة ، فضلاً عن ثلاث مدمرات . وبهذا أصبحت أمريكا في
 حالة حرب مع المحور :

وكان حظ الحلفاء في أوله خفيفه أثناء لشهور التي حوت ذلك . واجتمعت
 القوات البحرية الباقية بالمحيط الهادئ تحت إمرة أمير بحر هولاندى في أسطول
 أفرق من آخره قرب جاوة ، وصارحت بارجران بريطانيا عظيمتان نحو الشرق
 هما : البرنس أوف ويز وولريس لإكفاد للوقوف ، فأغرقنا بالقرب من الملاير
 لعدم وجود الدفاع الجوى الكافى . وقصفت بلاد الفلبين . واجيحت الملاير ، وسقطت
 قلعة منقورة العظيمة في ١٥ فبراير ١٩٤٢ . وبدلاً من أن يمد أهالى جنوب شرق
 آسيا يد النون الحلفاء ، أظهروا نخوعهم فتوراً وعدم اهتمام . فإن سنوات
 الاستغلال المديدة التي مرت بهم أنتجت ثمارها المروعة ، فإن لم يتطونوا فعلا مع
 اليابانيين ، كانوا يحملون (كما فعلوا في لينتاج) دون القيام بأية جهود لإحراق
 الأرض ، كما كان الروس يفعلون . وجاء بعض الأمل الوحيد من ليبيا ، حيث
 هاجم البريطانيون رومل ودفعوه إلى العجيلة نقطة اللوزان إلى إقليم طرابلس . ولكنه

لم يزد من بعض ، وفي يناير قام روسي بهجوم مضاد واسترد كل شيء حتى دوتة .

وكان بعض أقوى قبلا من ذلك يعني من الروس وإن ظهر فيما بعد أنه لم يكن إلا سرايا ومن المريب أن الألمان لم يتزوجوا عما يلزم لفصل الشتاء ، كما أن



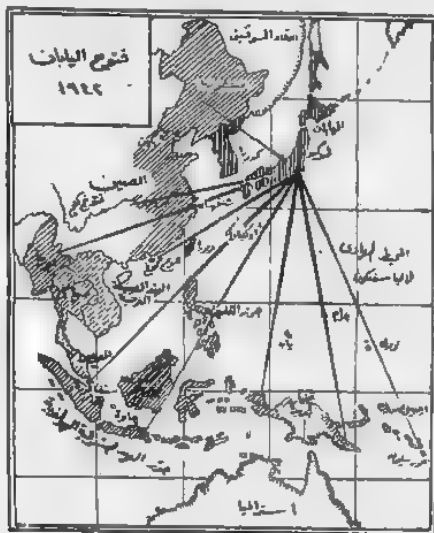
(شكل ٢٢٠)
فرانكلين روزفلت

مباداة الروس بنقل المصانع إلى ما وراء جبال الأورال حوصت خسارتهم لأوكرانيا إلى حد ما وردم في الحبوب الخبز تيموشكو على أعقابهم حتى بلغ غداكوف ، ويدل ذلك بعد الخطر عن موسكو وخلف المصعد من لتجراد إلى حد ما . هل أن تلك الأخبار غطى عليها بنرجة ما فقدان الحفاه قسراً بأكثره هو بورما إلى طرد منها البريطانيون مردي عاجلا وسقطت راجون في ٧ مارس . وفي يوية قام

الألمان بهجوم آخر في ليبيا ، وذلك بعد أن نبطت أعمال كبار على الجيش الثامن بعد تمريره وتقوية بالدهابات الأمريكية الجليلة ، على أنه دفع إلى العامين ، ووعده روسي بمواصلة الرحف وراء امريطاني المنسحرين إلى وادي الليس . « وفي الشهر التالي أخذ اليابانيون يتجمعون في جزيرة غينيا الجديدة في طريقهم إلى أستراليا ، وحطم الألمان مقاومة الروس في الحبوب وسقطت سثاسيون كما سقطت روستوف ، وتقدمت جيوش النازي إلى الأمام نحو جروري وستالينجراد . وهو أمر يهدد في حالة الأوي بإيقاف مدد للزيت ، وقطع خط إمدادات الشرق في حالة الثانية .

وحاول البريطانيون استتارة الشعب الهندي لمعاونتهم في مارس أوس السير ستالورد كريس لجرض على المؤتمر الهندي مبدأ منح الهند وضع المملكة المستقلة (اللومنيون) بعد الحرب ، مع منحهم حق الانفصال ، وتخويل الهود

دستورهم بأنفسهم ، فضلا عن إنشاء مجلس تنفيذي يستمع مباشرة بسلطات وزارة بريطانية ، وأما سلطات نائب الملك فقد احتفظ بها كما يحتفظ بسلطات الملك .



(شكل ٢٢٢)

ولكن استمر غاندى استهرا بملك المرض قائلا انه . وشيك مات أو انه مسحوب على منك يعلم الناس جميعا أنه بهار . وقرر حزب المؤتمر في يولية القيام ، بنضال شعبي متكامل ، ضد البريطانيين ، كما قرر أن لا توجه على اليابانيين سوى مقاومة القوة للروح .

وكأنها شاء الألمان أن يسجلوا تحققتهم انتام من النصر ، فأزولوا مقابل مقتل هيدريخ حاكم تشيكوسلوفاكيا عقوبة الإعدام على ثلاثمائة إنسان وعصوا من الوجود

قرية ليميس . ولكن هذا التزوع إلى القتل كان في الحقيقة من علامت الضعف ،
 فقد أعلن « الكولونيل بريطن » في يولية ١٩٤١ في الإذاعة البريطانية تبعية « جيش
 القصر » V. Army ، ما يرحب المقاومة تشتد وتقوى على الألمان . وكان لابد من
 إذكاء تلك الحركة في آخريات الصيف بإعلان إنهاء تنظيم موارد الحلفاء نظفيا جعل
 للمرة والثمرة والحاد الحربي تنصب إلى بريطانيا والروميا الصبابة . وهاجمت
 قوات الولايات المتحدة اليابانيين في جواوا الكانال بالهبط الميسفيكي في أغسطس ،
 كان قتالا بطيئاً ودموياً ، ولكنه كان على كل حال هجوماً على الهور ، وفي غانا
 الجديدة طرد اليابانيون إلى البحر . ومع أن الألمان بلغوا فوكواز ورفضوا الصليب
 المشرف على جبل (Elbrus) أعلى قمة في أوروبا ، فإنهم وجدوا الاستيلاء
 على ستالينجراد أمراً عسيراً ، ذلك لأن دفاع الروس كان هناك عنيداً بهجرة
 غير متوقعة .

ثم بدأ في نوفمبر ١٩٤٢ كأنما أحدث صدع مفاجيء . ففي الساعة السادسة
 والنصف من صبيحة ٢٣ أكتوبر ، هاجم الجيش الثامن بقيادة الجنرال مونتجومرى
 جيش رومل في ليبيا بعد استعدادات طويلة صعبة ، فحيت قوات الهور الجوية
 من السماوات ، وفاز مونتجومرى بنصر عظيم في معركة العلمين في اليوم الأول
 من نوفمبر ، ولأول مرة شهد العالم جيشاً نازياً يمرى مغروراً شلوا مثر ولا يقف
 لحظة في مدى مثلت من الأميال . وبدأت الجيوش الألمانية هجومها المضاد في جنوب
 روسيا ، ولم تسقط ستالينجراد بأيدي الألمان وأحاط الروس بالقوة الألمانية
 المهاجمة لها ، وكان أن رأى العلم في يناير جيشاً نازياً يسير إلى الأمام تحت بنادق
 الروس .

وبعد هجوم مونتجومرى بأسبوع ، نزلت الجيوش الأمريكية والبريطانية على
 غير انتظار إلى الدار البيضاء والجزائر ووهران ، وأنشئت جبهة جديدة بعد مقاومة
 لا ترة أبدتها جند بيتان . وكانت الصعوبات التي تواجه الحلفاء عند البداية ميسية
 في معظم أزمها . فقبل القائد الأمريكي العام الجنرال إيزنهاور حاكماً من أتباع
 بيتان في البداية هو الأميرال دارلان ، حتى إذا اختيل ، لعب في مكانه قائد أنظف

مهمة هو الجنرال جيرو (Girard) ، وقد كان تعيين الجنرال جيرو موضوع الاستياء من دييول ، وهو قائد ظل منذ يولييه ١٩٤٠ بتنظيم مقاومة الفرنسيين من لندن . وقد اضرت الجميع بسطة دييول في الوقت المناسب ، ولكن الأكر السوء التي تركته تلك المسألة كان له أثر ملحوظ على السياسة الفرنسية منذ ذلك التاريخ . وفي الحين نفسه نهبا الألمان بقيادة غون ألونم الوقت الكافي لتنظيم صفوفهم في تونس ، ولكن لم يحدث إلا في ٧ مايو ١٩٤٣ أن قواته وقوات رومل ، وقد دفعا جميعا إلى مايشه الخطيرة ، - اضطروا إلى التسليم وسبق جيش ألكسندر العظيم آخر أميرا إلى معسكرات الاعتقال . وفي ذلك الحين أيضا لم يمد الجزر البريطانية ضحية لقتل القتال الثقيل ، ودار الزمن دورته فصار سلاح الجو الملكي ليلا والسلاح الجوي الأمريكي نهرا يلقان ويحطمان المدن الألمانية والأوربية والأهداف العسكرية ، عشرين تلميحا له قد ساعد على تقصير أمد الحرب (ونقول له لأن تلك مسألة شيا جمل) .

يد أن إغراق القنصاعات والسفن ظل شديدا بدرجة مزعجة ، ومع أن الجيوش الروسية قد أصبحت في ذلك الحين كاملة الاتحاد والتمسك ، إلا أن التصار الروس في ستالينجراد لم يقبه أي انهيار آخر للألمان . وظل القتال في الصيف سجالا - يقدم فيه الروس حيناً ويدفعون إلى الخلف آخر ، ويضل الألمان على ذلك ، حتى إذا حل أغسطس كانت الروس ميزة واضحة على الألمان خاصة في الجنوب . وفي الحين نفسه وثب الحلفاء الغربيون من إفريقية وغنحوا صقلية في يوليو ، ودخلوا أوروبا عن طريق « كيب الحلاء » الإيطالي ، وكان موسوليني أول من سقط من عهد المحور حيث طرد من الحكم في ٢٥ يولييه . وعندئذ قل روزفلت ونشرشل وقد اجعما في كويك عرضا إيطاليا بحول إيطاليا إلى جانب الحلفاء (بعد أن أعلنوا من قبل أنهما لن يخلوا إلا التسليم دون قيد ولا شرط في الدوا البيضاء في يناير من تلك السنة) ، ولكن المظاهر أن المسائل كانت فلتت . وكان رد الفعل الألماني أسرع من ذلك . فإن القوات البريطانية التي حاولت الاستيلاء على الجزر اليونانية التي تخفى فيها الإيطاليون حادت فهزمت مرة ثانية على يد القوات الجوية الألمانية ، ولم يكتسب

الحلفاء إلا النذر اليسير من الأرض حتى بإيطاليا نفسها ، ونزل الأمريكيون أهل الساحل الإيطالي عند سالرنو تعرضوا إلى حين لحظر محقق صميم ، وبلغ الأمر بالأمكان أن أنقلوا موسوليني من أسريه وأنشأوا « جمهورية غاشيه » في الشمال .

وإذن فقد جاء الوقت الذي وجب فيه إيقاف العلاقات بين الحلفاء . وكان الروس - حلوا بصورة إسمية الشيوعية القولية في مايو ، ولكنهم في الشهر السابق نظروا إلى المستقبل بعيد قطعوا علاقاتهم



(شكل ٢٢٢)

ستالين

بالحكومة البولندية المقبلة بالمضى في لندن وكانت علاقة المقاومة الشيوعية سيئة بالآخرين في كثير من أجزاء أوروبا أجل إسمهم كانوا يحملون السلاح في يوغوسلافيا ويقاتلون ، فكان الشيوعي النشط تيمو يفتان ميخائيلوفتش الملكي الحامل ، وبعد التشاور مع تشياح كاي شك في القاهرة ، التي روزفلت وتشرشل مع ستالين في طهران عاصمة إيران في نهاية

نوفمبر ، وعقدوا أول مؤتمرات ثلاثة لا يزال العالم يجهل إلى حد جرفي قرراتهم فيها وكان بالآحداث التالية أخذت تظهر أنهم قرروا هناك إقامة منظمة « للأمم المتحدة » بعد انتهاء الحرب وأن من بين الترتيبات الحرية وإعلان الروس الحرب على اليابان ، وسمح الروس الحق في تحرير أوروبا الشرقية حتى مدينة برلين مع دخول المدينة ضمن ذلك التحرير . ووضعت ترتيبات تنسيق المقاومة في ذلك التحل ص ميخائيلوفتش

وكانت دورة الأيام وانضغتا من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٤ مؤمنة بتحول المحفوظ في احرب . فقام الروس بهجوم على طول خط اللتانال كله ولم يستطع الألمان في هذه المرة استرداد ما كسبه الروس منهم - فاسترد الروسون (جنووير) (جنووير) كما استردوا بسكوف وعلمت لينينجراد واستردت ييكوبول وأوديسا . وعادت للقوات السوفيتية إلى حدود ١٩٣٨ وسيحان مائظتها . واختفى خط

كاستونى إيطاليا ، وبعد قتال عظيم للأحصاب دار حلة أيام حول رأس على الساحل عند أنزوي ، دخلت الجيوش الأمريكية مدينة روما في ٤ يونية . فأما في الشرق الأقصى ، فإن تخوق اليابان للبحرى قضت عليه في مارس ١٩٤٢ البحرية الأمريكية في معركة عرسبارك . فإن طريقة ملك أوترنيتمز البطيئة للفعالتوى ، ألوت على البلوزة التي أصبحت متخذة ممكنة ظهرت آنذاك جزيرة غينيا الجديدة وجزائر سليمان وأفضت إلى مهاجمة جزيرة طروك (Truk) الحصنة المتينة . ودخلت الجيوش البريطانية والصينية بورما وأخيراً سرعت في دفع اليابانيين إلى الخلف .

ولكن غطى على كل ذلك حدث في صباح ٦ يونية ، حدث سيظل موضع تليح في كتب التاريخ العسكري . فإن الجيوش الغربية زلزلت فرنسا .

كانت حلة مجهزة منذ مدة طويلة ، وكثيراً ما أوجت (كما تمت يوماً محولة زائفة لما) ، ثم حدثت الحملة الماثلة في فترة سكوت قصيرة في أثناء جو قطع وفي حلتان أسوأ حاصفة في يونية شهدتها بحر المانش منذ عشرين سنة . وعلى الرغم من الأسلحة الماثلة التي جمعت ، كان إزال الحملة عموماً بأشد المخاطر . وبعد هذا الحادث الهام الجنرال أيزنهاور واحدة من أخطر المخططات الثلاث الحربية الخاصة في ذلك . فقد أعلن الألمان أن لاسيبل إلى انخراق جدارهم الغربي ، ولما شن الكنديون عليه هجومهم للبسور الباسل عند ديب (Dieppe) في ١٩٤٢ ، كانت الناجية وبيلة مسمرة - وكانت تحت إمرة إيزنهاور ٣٧ فرقة ، ولكن حصصه فون رونشتد كان يده سنون فرقة . واستخدم الحلفاء ١٧١ سرباً من أسراب الطائرات حطوا بها الطائرات والسكك الحديدية والمكبارى ما هو من الكثرة بحيث حيز فون رونشتد عن جميع قواته عند ما تحقق من الموضع الذي تكال فيه الضربة الكبرى الرئيسية . ذلك أن الحلفاء انصرفوا عن متعلق الكوتلتان وممر كاليه اللذين كان يتخطر أن يوجهوا هجومهم إليها ونزلوا على مواصل نورماندى المفتوحة ، منزلين المظليين أمامهم وجالين معهم مينئين صناعيين تسميان باسم ثمرة التوت Mulberry . وأزول البلد في مواضع ثلاثة واجتمعوا سريعاً في موضع واحد ، وكان البريطانيون يكتفون الطرف الشرق والأمريكيون الغرب ، والفرقة الثانية تقرر أن تكون بداية العمل الميدان الجديد على يد رومل ومتجومرى ، فركز رومل كل مصفحاته وخبرته مثله

في الشرق حول مدينة كاين (Caen) لإنقاذ باريس وحوص السين وحماية المواقع التي كان الألمان يصرون بها عندئذ بريطانيا بطائرات تسر بغير طيارين (وهي المعاة ٥٧.١٥٥) وكادت تلك الطائرات تسف الجاني التي تصعد بها - ثم جاءت في إثرها طائرات أسرع من الصوت تسمى (٥٧.٢٥٠) وكانت تنقض حين على أهدافها من طباق اجواء العليا وهذا كان التقدم دعوى وبطناً ، ولكن جيوش



(شكل ٢٢٢)

الولايات المتحدة دأبت على شق طريقها نحو العرب بسات ، حتى قصصوا خط شبه جزيرة الكونتتان ثم استولوا على شربورج ، وبذلك أصبح في قبضتهم في النهاية ميناء طبيعي كبير . وما حلت نهاية بولية حتى أصبحوا وقد شقوا طريقهم حرة حول ركن شبه الجزيرة إلى برت في بالاستيلاء على ألماتش ، لما بين السيل أمام جيش

الحزب باتون ليرحف بحيث في صورة مروحة في مسيره الشهير عبر شمال فرنسا .
 ووثبت جيوش الداخل الفرنسية إلى أسلحتها لاستقباله ، وأخذ الحكم الألماني
 يتصدح . وسقط ديتان في ٢ أغسطس ودين في ٤ أغسطس وماين في ٦ وليان في
 ٩ ونالت وأنجرس في ١٠ ، على حين سارع الألمان إلى القرار إلى اللوانى الحصنة :
 يوست وسانت فازير وسانت مالو ولورييفت .

ولكن خيل للألمان أن هذا التقدم الرائع يعطيهم فرصة ، فلو أمكن استرداد
 أقواتش ، إذن لقطع السيل على باتون وشلت حركته . ومن ثم وجهوا إليها هجوماً
 قوياً من فرق البانزر في ٧ أغسطس . ولكن الهجوم صدق في يوم ١٢ وواصل القواد
 الألمان هجومهم طويلاً . وكان التقدم السريع الذي أحرزه باتون حول مراكزهم
 إلى خط امتداد طويل محصور في منطقة فاليز ، التي سميت باسم رهيبي ولكنه صحيح
 هو أرض القتل . ولم يبق من جيش البانزر الخامس والسابع إلا بقايا ضئيلة لمرت
 على أعقابها إلى بر السين الذي لا يقوم عليه هناك جسر ولا معبر ، حتى إذا حل يوم
 ٢٢ كان معظم الجيوش الألمانية بين ميت وأسبير .

وفي الحين نفسه اكتسحت حركة باتون مدن : شارتر ودروه ومانت على السين
 وأورليان وفورتيفلو وترويس ، وكلها سقطت في مدى أسبوعين ، وأنزلت دفعة
 أخرى من الجند في الجنوب بين مارسيليا وطولون قامت بتعقب الألمان على امتداد
 حوض الرون . ولكن غرماً خلعت نفسها إلى حد كبير حيث قلل إزنهاور
 مقدار قوات المقاومة ، بخسب فرقة ١ . وولى الألمان الأدبار مهطعين ، إذ اضطروا
 إلى ذلك لأن القطر المحيط بهم يأكله تحول إلى منطقة عدوة مسلحة . وغلست
 باريس نفسها بمعيان نظمت الشرطة في التاسع من أغسطس ، قبل وصوله
 الحلفاء يوم ٢٥

وعندئذ جاء دور البريطانيين والكننديين ، لأنهم تعلموا بالكتلحات شمالية جارفة
 أسكتت - الواحد تلو الآخر من الأحاديث المظلمة التي كانت تنطلق منها إلى بريطانيا
 طائرات ٧٠٤٥ التي ليس لها قائد ، ثم اتعبوا عبر شمال فرنسا وبلجيكا . وفي ٣٠
 أغسطس أصبح البريطانيون في يوفيه وإذا هم في أميان في اليوم التالي - ثم إذا هم يوماً في

أثر يوم يستولون على آراس ونورنه وبروكسل وأنتويرب (أنترمس) ولوفان . واستولى الكنديون والبريطانيون في أول سبتمبر على ديب وروان ، وفي الأيام الأربعة التالية اكتشفوا الماظر وبولونيا وكاليه ، وفي السادس منه أخذوا أوستند . ولكن بدا بعد ذلك أن الانطلاقة العظيمة انتهت . وتقدمت جنود الولايات المتحدة إلى كسمبرج ، وتقدم الفرنسيون إلى الرين من خلال الفوج ، ولكن محاولة البريطانيين مواصلة الغزو حتى هولندا كبذلهم خسارة ثلاثة أرباع قوة من جنود المظلات حرب أرنه . وكانت أول مدينة ألمانية سقطت هي آخن ، وهي في الطرف الأقصى للتحوم الألمانية ، وقد أعطت في ٢١ أكتوبر ، ولكن الأمطار نزلت بشدة في نوفمبر وبدا كأن جيوش الحلفاء قد استنفدت قوة الدفع .

وكانت الأنباء الواردة من أوروبا الشرقية طيبة أيضا ، ولكن كانت تشوبها بعض الظلال . فقد أصيب الجيش الألماني بضريرة ثقيلة عندما استردت منه مدينة منسك ، وأُخبطها لنا ، وفي أغسطس عبرت الجيوش الروسية الحدود الروسية الشرقية قرب مريمبول ، وكانت قوات المقاومة البولندية في وارسو لاستيلائهم . ولكن قامت الروسين أن يقدموا لمعاوئهم ، ولم يلبث مقاتلة وارسو حتى أُعيدوا عن آخرهم بعد أن كاصحوا سنة ثلاثة أشهر كفاح المستعس . وعزل مركز الفضل في المهجم السوفييتي نحو الجنوب . واعتقل ميتيل ملك رومانيا ، فنوهرر Föhrer ، المحل ببلاده وانضم إلى أعداء الألمان ، وسلمت بلغاريا ، وحرر الساريسال نيو ووطنه يوغوسلافيا . ودخلت الجيوش الحمراء بلاد المجر . (وحرر البريطانيون بلاد اليونان . ٤ .

وفي الشرق الأقصى تمزق عمل الأسطول الياباني في معركة الفلبين ، وفزلت الجيوش الأمريكية بإحدى الجزر (لاين) ، وكانت الجيوش البريطانية تتفع باليابانيين إلى الحلف في بورما ، ولكن ذهابهم كان عبرا جدا .

وفي شتاء ١٩٤٤ قام الهانز بأخر هجوم لهم في التاريخ . فقد هاجمت الأمريكيين في منطقة الأردن التقليدية في يوم ١٢ ديسمبر ١٤ فرقة من المشاة ، ١٠ فرقة من الهانز وقوة مجمدة من سلاح قطران الألمان . فكسروا صفوف الأمريكيين في

بجهة عرضها 1٥ ميلا ، وغرقوا بين بيعة الخزال برادل وميسرته ، وخطعوا الطريق على الفرقة ١٠١ من الجيود الأمريكيين راجية الطائرات في ناستونيه على طريق سيدان ، وتقدم الألمان ٦٠ ميلا حتى أوشكوا أن يبلغوا نهر اللوز ولكنهم ما لبثوا أن أوقفوا عن الزحف ثم دلفوا إلى الخلف . وبعد أكثر من شهر بقليل عادوا إلى حيث كانوا من قبل ، ولم يبق لديهم دبابات ولا طائرات ولا زيت مما كانوا يحتاجون إليه أشد الحاجة .

ومنذ ذلك الحين أصبح انهيار الألمان سريعا عاجلا . وفي يناير ١٩٤٥ كان الروس اجتاحتوا بولندية بأكملها ولتوانيا معها ، ودخلوا سيليزيا ولم يلبثوا حتى أصبحوا على ما لا يزيد عن ٣٠ ميلا من برلين . وفي القرب صمم الألمان على القتال خريف نهر الراين - وهي الكارثة الحاسمة الثالثة فيما يرى ليزينهاور (وكانت الثانية هي فاليز) ، فاجم لم يلبثوا في الأسبوع الأول من مارس أن صفوا مرة ثانية ولم يبق لهم من حدود سوى نهر الراين نفسه . وفي فبراير عقد في بالتا مؤتمر ثان للأطباء حضره روزفلت ونشرشل وستالين فتم التوصل إلى اتفاق للهجوم النهائي والقسوة السياسية لأوروبا والشرق الأقصى - وقد نجح المؤتمر في الحالة الأولى . والواقع أن المقاومة العسكرية الألمانية كانت ترجع آنذاك إلى لداة رجل واحد هو أدولف هتلر . وقد فشلت محاولة لا قتاله في ٢٠ يولية ١٩٤٤ ، وإن النازيين ليواصلون المقاومة ما أقام هو على إلقاء خطبه . ولكن أي له أن يغير مجرى التاريخ ؟ ففي مارس أصبحت الجيوش الغربية تصف على شاطئ الراين ، وحوصر حوض الرور ولم يلبث حتى سقط بمن فيه من مناهين . ودخل الروس ميينا في ١٣ من أبريل ، ولم يتنفس زمن طويل على ذلك حتى طرخوا برلين وبها القوهرة نفسه ، وتقدم باتون نحو تشيكوسلوفاكيا ، وتوقف خارج براج ، وبلغ البريطانيون نهر الإلب . وفي ٢٥ أبريل وحل نفس ذلك ظهر القت الفرقة ٥٨ الرومية بالفرقة ٦٩ الأمريكية ، وأصبح الريح مقسوما إلى قسمين .

وكان المتوقع أن ينسحب هتلر بطريق الجبل إلى « طابية » في جبال الألب بموقع يمكنه أن يقف فيه وقتة أخيرة ، ولكنه لم يفعل ذلك . ذلك أنه ازاد جنوبا في

أيامه الأخيرة وأخذ يلقى خياله حتى النهاية بأوهام وخيالات من جيوش ألمانيا مستخدم لاقتاده ، فحسم على أن يختم حياته خطأ مبلودنيا أضاف وأفسى ، بينما كان الروس يشقون طريقهم نحو مكان خيائه من القنارات في برلين ، أقدم على الانتحار في اليوم الأخير من إبريل وصم لإشارلون . ثم أحرقت جثتها بعد ذلك بأمره . وقبل ذلك يومين اختل رجال الأحراب الإيطاليون موسوليني وخليفته وحققوها من قنصهما في الشارع .

وقضى ذلك الخبر على كل مقاومة . وفي اليوم الثاني من مايو سلمت برلين ، وكذلك قطعت جميع الجيوش الألمانية بإيطاليا ، وبعد يومين تحت نفس ذلك النحو الجيوش الألمانية في هولندا وشمال غربي ألمانيا والدانيمركا . وفي اليوم السابع وقع الجنرال يودك (Jodl) رئيس هيئة أركان الحرب على صك لسلام تام . ولم يبق من شيء يصل بعد ذلك بألمانيا سوى تنسيق أعمال المتأخرين . وبينما الحلفاء يحتلون أرض الرينخ ويشهدون بلسن ودانهاو وأوشفيتز وغيرها من معسكرات الاعتقال ، أدركوا (الحلفاء) أن الروايات التي كانت تروى عن جرائم الألمان ووحشيتهم كانت - على عكس روايات الحرب العالمية الأولى - أقل كثيراً من الحقيقة . لأنهم يظهروا أي ميل إلى الرحمة ، ولما اجتمعوا في بوتسدام في ١٧ بولية انتقدوا على تنظيمات اقتصادية وسياسية لألمانيا كانت فيما بعد موضع النقد لأنها تجعل من الحال بعد ذلك أن يصبح ذلك القطر إلا حى لقراء معدمين يتلقى معونة اجتماعية ، وفوق هذا ، فإن الفرنسيين الذين احتلوا جزءا من ألمانيا رفضوا الصلوات في تنفيذ تلك الخطط . وكان المؤتمر بهم وجوها غريبة . وكان أحد بقاة التصرفات حثية وصول الحلفاء إلى نهر الإلب ، وجلس في مقعد روزفلت رئيس قنص اسمه ترومان . ولم يكن نشرشل جالسا في جيرة ذلك المؤتمر لأنه اختفى حيث ربط مصيره بمصير المحافظين ، إذ أجريت بالبلاد انتخابات عامة أحلت كلست . أتلى زعيم حزب العمال عمله في رئاسة الوزارة . وبقي متألين وحظه صامدا لم يتحول ، صامدا لا يعرف ما يحول بخاطره . ولكن لم يظهر حتى آنذاك خلاف خطير . أجل إن الروس كانوا يعملون هبة من المألة والإيثار للأحراب الشيوعية بالبلاد التي احتلوها - (وهو

أمر متعلق ومترجم) ، ولكنهم لم يلفوا الأحزاب الأخرى . وفوق هذا ، انضمت خطوة طليعة في سبيل الوحدة وانضمت عليها الشعوب طرا ، وهي توقيع حسين دولة ميثاق الأمن العالمي بمدينة سان فرانسيسكو في ٢٠ يونية . ولتهدئة روع كل من السوفييت ومجلس الشيوخ الأمريكي أدخل في المنظمة الحليفة حتى التيتو الدول العظمى .

ولكن لأن لم يكن هناك قتال يبعث اليقظ به بأقنانيا ، إلا أن الحرب لم تنته مع ذلك . فذاك أن الدراما التي طلت في أوروبا قد أبعدت عن المسرح مشاهد القتال في الشرق الأقصى ، إذ بلغت المراتبة بنفس القوات الحاربة في بورما أن أحمت نفسها : الجيش للنفس . وكانت الجيوش البريطانية والهندية فحمت من جديد الطريق البري إلى الصين في يناير ، وتيسر لها في مارس فتح ماندلاي واحتل الجنود البورمايون غير النظاميين بقيادة أنج سان من جانب اليابانيين إلى صفوف الحلفاء . وفي ٥ مايو فتحت وانجون وحررت بورما ، وفي المحيط الباسيفيكي وجدت جيوش الولايات المتحدة البرية والبحرية أن القضاء على الأسطول الياباني لم يؤثر بأي حال في القتال المرير الذي كانت الجيوش البرية اليابانية تدافع به عن الجزر الحيوية الأهمية في الباسيفيكي . ولم يتم تحرير الفلبين إلا في ٥ يولية . فإن النادة عن إيوجيما ظلوا يحاربون من ١٩ فبراير إلى ١٥ مارس ، وظل المدافعون عن أوكيناوا ، وهي جزيرة قريبة من اليابان قريبا خطراً يقاتلون باستهانة تكاد تصل إلى الجنون من أول أبريل وصعدوا في موقعهم قرابة الثلاثة أشهر . ذلك أنه يظهر أن اليابان كان متعباً لديها فاقض ضخم من الطاقة وأن إعلان روسيا الحرب عليها كان موضع الترحاب لديها .

ولكن الواقع أن اليابان كانت منهكة أكثر كثيراً مما بدا عليها ظاهرياً ، ولم تلبث حين وجه إليها أشد أنواع الأسلحة الحديثة المروعة أن استسلمت استسلاماً مباحثاً . وكان العلم أينشتين وغيره من العلماء حذر الحلفاء منذ البدايات المبكرة للحرب مما يحاول النازيون فعله ، فأخذ الحلفاء يحولون وعلقت القنرة ، لكن يطلقوا قتال أقصى ما في هذا العلم من طاقة . وأخذ العلماء الأمريكيون والكنديون والبريطانيون يعملون في تلك المسألة ، وفي اليوم السادس عشر من يوليو فجرت

بنجاح أول « قنبلة ذرية » بصحراء ولاية نيومكسيكو . والواقع أن استخدام هذه الآلة الجهنمية كان يوقف على الرئيس الأمريكى الحفيد . وفى النهاية استقر رأيه على أنه ربما كان فى الإمكان استحياء حتى ألف نفس أمريكية كما قال الرئيس ذلك فيما بعد لو استعملت تلك القنبلة ، بل ربما كان فى استخدامها الإبقاء على عدد آخر أكبر من أبناء الأمم الأخرى . وفى ٦ أغسطس سقطت على ميناء هيروشيما اليابانية قنبلة ذرية بعد إنذار شكلى عاجل . ويمكن القول بصفة إيجابية أن تلك القنبلة دمرت المدينة بأكملها وقضت على كل كائن حي بها . وبعد ذلك بثلاثة أيام أسقطت على نجازكى قنبلة مماثلة فأحدثت نفس النتيجة . (وقد أعلن الروس فى المدة بين القنبتين الحرب على اليابان ودخلوا منشوريا ، وكانى بذلك القنبلة أصبحت آنذاك مسألة صغيرة الأهمية .) وفى ١٤ أغسطس سلم الإمبراطور اليابانى دون قيد ولا شرط ، وفى اليوم التالى أعلن المستر ترومان والمستر أنتلى أن يوم لتتصر على اليابان « V.J Day » يوم انتهاء الحرب العالمية الثانية ، يمكن الآن الاحتفال به رسمياً .

٢ - مستقبل البشرية

مهما يكن مصير البشرية ، فليس ثم مجال للشك فى أن الوصول إلى توحيد البشرية كلها فى اتحاد فئوائى ، فضلاً عن قيام قدر كاف من السلطة الاجتماعية ، لضمان تأمين الصحة والتعليم وضمان قدر لا بأس به من تكافؤ الفرص لجميع الأطفال المولودين فى هذا العالم ، سيؤدى إلى إطلاق الطاقة البشرية وزيادتها بصورة تفتح دوراً جديداً فى التاريخ البشرى . وعندئذ لابد أن يتوقف ذلك الحصار الحائل ، الذى يعود إلى ما يدور بين الدول الكبرى من إضرار متبادل ، فضلاً عن الحصار الأصغر كبراً ، الراجع إلى قلة إنتاج جواهر خضراء من الناس ، الذين يقصرون عن العناية إما لشدة تراثهم حتى يعموزم الدافع المثير وإما لشدة إندفاعهم حتى لتعموزم الكفاية . وعندئذ لابد أن تحدث زيادة ضخمة جداً فى إنتاج حاجيات البشرية الضرورية ولرفاه فى مستوى المعيشة وفى أفكار الناس حول ما يعتبر ضرورياً من الضروريات وتطور فى القتل وكل نوع من أنواع القسر والجلم ، وعندئذ لابد أن

ينتقل جمهور خفي من الناس من مرتبة الانتاج المنخفض الدرجة إلى صنف أعلى من العمل مثل الفنون على اختلاف أنواعها والتعليم والبحث العلمي وما مائلها . ولا بد أن يعم العالم عندئذ فكك لعقال الطاقة البشرية ، على صورة لم تحلت إلى اليوم إلا في مواطن صغيرة فقط وصى طريق أدوار صغيرة وثمينة من الأمانة والرعء . فما لم نقرض أنه قد حلت في الماضي انجازات ثقافية أنتجت مجموعة من الإنسان السوريان ، فإن من المقول أن ستج أن أثينة بركليس وفلورنسة آل ملبتشى والنجلة إيرايت وأعمال أسوكا المنظمة وعهدى ناتج ومنع في الفنون ، إلى هي إلا عينات لما يمكن أن يجبه على الدوام وبصورة مجتمعة مكنته علم تعرف على ريوه كلها الطمانينة المسترة . ولا شك أن التاريخ يبرو هذا الشيء الذى نوقه ، وذلك دون اللجوء إلى الفراض حدوث أى تغيير في الصغات البشرية ، اللهم إلا مجرد إفلاته من النظام الحاضر القائم على الحساب للتجاوز كل حد .

وقد شهدنا بأنفسنا كيف أنه حلت منذ ساعة تحرير الفكر البشرى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، أن عهداً قليلاً سبياً من رجال أدبياء طُلعت ظهوروا بخاصة في أوروبا الغربية ، قد أنتجوا روى من العلم وفقدوا من العلوم تحدث الآن انقلاباً ثورياً في الحياة من ناحيتها المادية . وقد كان هؤلاء الرجال يعملون في معظم الحالات تلقاء تخطيط ضخم لهم وإقرار في المال ومساعدة أو مساندة ضئيلة من مالو البشرية . ومن الحال على المرء أن يعتقد أن هؤلاء الرجال هم أقصى ما يمكن جيلهم انتاجه من محصول . فإن النجلة وحلها لا بد أنها أصبحت في القرون الثلاثة الأخيرة عشرات من التوايغ مثل نيوتن لم يتعلموا القراءة قط ومئات من أنصرا ب دالتون وفارون وباكون وهاكسلي - مالوا جميعاً أنزماً في نباتات القفر والحقل الضنة ، أو لم يحصلوا قط على فرصة لإظهار مواهبهم .

ولا بد أن العالم كله كان مشحوناً بألاف من أشخاص كان يمكن أن يكونوا باحثين من الطراز الأول أو فنانين ممتازين أو مفكرين ذوى عضول خلاقة لم يتح لهم قط بعبص من الإلهام ولا غلة من فرصة مقابل كل فرد واحد من أولئك الذين تركوا أنزهم في السلم عميقاً محفورا . وكهم مات في الحروب القربية من ألوف من

الظلم ، قوة ، خادوا هذا الظلم يسرا لم يتم له الزدحار . ولكن العلم لو أُنْجِثَ له بركة سلام دول وطيبة الأركان وبادرة عدالة اجتماعية ، لابد أن يتصيد الكفائيات بشبكة دقيقة من لطيف العلم الانتشار ، ورعا جاز له أن يتوقع الحصول على محصول يفوق كل مغارة بأى محصول آخر من الرجاى الأكفء اللامعين الذين شهدهم العلم فى أى حقبة من تاريخه .

ولعمري إن اختيارات مماثلة للعلم هى التى تبرز تركيز اليهود فى المستقبل القريب على إنشاء دولة عالمية جديدة قوامها أكبر من أقطاب ارنياكتانا المحاصرة . والحرب شىء فظيع ، يزحزح على تقدم الزمان فظاحة وروحية ، بحيث أنه مالم يجد الناس لهم منها مهرباً ، فلا بد أن يقضى على الحياة البشرية ، فلك أن ما تنمض عنه من الظلم الاجتماعى وشاهد الكائنات البشرية المصابة والمنهومة يعذب النفس ويشير لواجبها ، ولكن أقوى بواعث الفصل السياسى والاجتماعى البناء عند ذوى الأرواح الخالقة لا يمكن فى مجرد الأمل و تجنب الشرور فلو ما يمكن فى نشوء الفرصة اللازمة لقيام بالتعامات العظيمة التى يتيقن بها الجنس البشرى القضاء على تلك الشرور . ونحن نبغى إلغاء كثير من ألوان الزيد فى الملكية الخاصة ملما قد نرغب فى إلغاء حارس أبه' يمننا من الحصول إلى مرمم يمكن التعامل إليه لقيام بأشياء ممتازة .

ومن الناس من قد يصورون أن قيام نظام عالمى وقانون وحلقة شاملين لابد أن ينهى المظلمة البشرية . والواقع أنه أمر لا يزيد عن أن يبدأ تلك المظلمة . ولكن بدلاً من مظلمة الماضي ، تلك القصة ، الرومانسية ، العلم السينا لورغراف القاعة على التكرار الدائم لتفاعلات الببتلة للجنس (Sex) والمراك وتصيد الأدب ، ستكون المظلمة لرتيادا لا نهاية له حل حافة الخيرة . فكلنا هناك رجلا ظل حتى حين قريب يعيش فى أحد الأحياء الفقيرة ، يتنقل بين ما تحفل به من ألوان الشجار والانتقام والفرور والمرة والنفس والرغبات الحارة والتهيبات الحادة . ولم يكده حتى اليوم يخلو للهواء حتى الحلو طعماً ، ولا عرف الحريات المتسخصة فى الحياة ، التى وسع العلم آفاقها له .

ومن أجل التملّات التي قد يرتأيا القرد منا تصوره صورة ما للحياة الأرحب
 ألقا التي تفتح وحدة العلم رتاجها على مصراعيه . ولا بد أن الحياة ستبقى عندئذ
 مملوكة بدافع أقوى ، وستفقد أنفاساً أعمق وأقوى ، وذلك لأنها عند ذلك تكون
 قضت على مئات من صفوف العلوى التي تعيب العقل والجسم والتي تلهيه اليوم
 بلسان المرض والسيج والمفارقة . وقد سبق أن شددنا التأكيد على أن الكدح قد أربل
 من الحياة الإنسانية بدرجة كبيرة بسبب إيجاد نوع آخر من الرقيق : هو الآلات .
 وسبرغ هذا عن كامل أطفالنا ومعه عوامل أخرى منها انتفاء الحرب وتوطئة
 أكثاف ما لا يحصر له من القيود والمنازعات بفضل الترتيبات الاجتماعية والاقتصادية
 الأكثر عقلًا ، عبء العمل المتعب والعمل الروتيني ، وذلك الصبء الذي يذله
 الإنسان وما زال يذله منذ ظهور فجر الحضارات الأولى حتى يحصل على الأمن
 البشري . وليس معنى ذلك أنهم مجتهدون عن العمل ، بل أنهم مجتهدون عن
 القيام بالأعمال المصية التي يعملونها بدافع الضغط ، وسيعملون على حرياتهم واضعين
 الضغط وصانعين ما يشاؤون وخالقين ما يستطيعون خلقه ، كل حسبما تهوى له قناته
 وخرائذه . ولن يمدوا بقاتلون الطيبة على طريقة أصحاب القناس والحرات الأفياء
 في قديم الزمان ، وإنما هم مقاتلوها انتماساً لفتح عظيم يفتحونه . وكل ما في الأمر
 أن انطام الروح فيما يحقّ به من الكتاب في عصرنا الراهن يعنى بصائرنا عن
 الإشارات الواضحة التي تشير بها إلينا عقولنا ، وهي التي نرسم لنا أنه لن نقضي
 بضعة أجيال حتى تصبح كل ملية وبنجة صغيرة أثينا جديدة ، وحتى يصبح كل
 كائن بشري رقيقاً في تربيته ، صحيحاً في جسمه وعقله ، وحتى تصبح كل
 الأرض كلها مسجماً للإنسان ومصدر إنتاج ووفرة وأقصى منافعتها بعباً مستراداً له
 ومعلماً .

وقد جهدنا في هذه العلم أن نبين للقارئ نظامين عظيمين يتطور يتفاعلان
 أحدهما مع الآخر في قصة الجماعية البشرية . فقد شهدنا الثقلة المتأخرة العصر الحجري
 الحديث تتمحور في المناطق الرموية اللينة من العالم عن الحضارات الأولية
 السليمة ، وهي تظم كانت تربة خصيبة نحو الإخصاع والطاعة وتكاثرات ضخمة

لأناس مجلدين أدلاء . وأوضحنا العلاقة الضرورية بين هذه الحضارات القديمة وبين
العابد الباكورة وبين الآلهة الملوك والملوك الآلهة . وترسمنا في الوقت نفسه خطى التطور
ابتداءً من مستوى بسيط العصر الحجري الحديث الذي عاشت فيه الشعوب النجولة ،
التي أصبحت الشعوب الرحلة ، ترسمنا ما في تلك الجماعات الضخمة الشعوب
الآرية النوردية والشعوب الجنوبية المولدة في الشمال الغربي والنيال الشرقي كما شهدنا
الساميين سكان الصحارى العربية . وقد تحدثنا أيضاً عن عمر هذه الشعوب الأشد
مراساً والأجراً قليلاً والمتحررة روحاً ساكنة السهوب والصحارى ، غمراً متكرراً
ومتعشاً الحضارات السمرية أصلاً . وأوضحنا كيف أن هذه الانسيابات المتكررة
على الدوام لهؤلاء المترجلين غرت على النوام كلاً من روح الحضارات الدائمة
للقديمة ودورها ، وكيف أن أقاليم العالم في هذه الأيام وما نسبته الآن باسم الديمقراطية ،
وما نشهده من شدة جراحة البحث الطبقي الحديث والتعلق العام المنتشر في الدنيا ،
ترجع كلها إلى دسبغ الحضارة بهذا الصياغ الرحلى . واليوم تسمت قوة التقاليد .
أجل إن قوام حالتنا الراهنة لا يزال هو الحضارة ، ولكن روحها هي روح العلم
الرحلى . هي روح السهول العظيمة والبحار العليا

ونتيجة لهذا كله يصبح من السبر علينا أن نقول الاختراع بأنه ما يكاد يقفون
واحد يسرى في الأرض وتكف حمة التوتيرات على الحدود من إقلاق بالنا ، حتى
تحدث أفرحنا تلك الحاجة الماسة في طبيعتنا التي نجر كنا في الريح والحريف أن
ننهض السفر والرحلة . وميكون منا السجع المطيع لما نركب في صلاتنا من دعوة مراعى
الصيف وصراعى الشتاء ، ودعوة الحمال والصحراء والبحر . وما أيضاً من قد يكون
من سلاطة أخرى ونجبه دعوة الغابة ، وما من يعمل إلى العبد حياً وجود إلى
المقول تلبية لدعوة المصقول والمغراث . ولكن ليس حتى ذلك أن الناس سيصبحون
عنقده متردين بغير مأوى منساقين دوماً بفاض القوة والحرك . إذ أن حياة الرحلى
السوية ليست حياة قوم عديى المأوى ، وإنما هي حياة قوم يقتلون بين مأوى
عظيمة . فإن شعب القتلون يعيش في هذه الأيام كلمة المصطفى
ألف ميل من مأوى لم إلى آخر . وفي اعتقاده

الثاني الحيلة المرحلة مستمر عليها مواسم تنجح فيها بالحياة ومواسم تنقط أثناءها في النوم .
وستنمر بالحياة آلهة وآباء جزر يحمله فيها كل إقليم أو يُصنغر على حال موسمية بقدر
ما يزاد الاهتمام بذلك الإقليم أو بقدر .

ولكن يكون في هذا العلم الأحسن نظاماً إلا القليل من الكسح السيئ . إذ أن
السيف الكادح للناس جميعاً سيكون قوى الطبيعة ملجئة في الماكينات . فاما ما كان
من صنوف الكسح لا متوقعة منه ، فبقيت في صورة خطة وأداء واجب لمدة بضعة
سنوات أو أشهر فتطلب من حياة كل فرد ، وإذن فلن يستغنى ولا يحقر حياة
أى فرد بأكملها . ولن يقتصر الأمر على الكادحين المسقاء فقط ، بل إن أنواعاً
عديدة أخرى من الناس وطرائق أخرى كثيرة العيش تبدو اليوم ضخمة ضخامة
غير عادية في الخطة الاجتماعية الحاضرة متخوى أهميتها بحكم الضرورة أو تزول من
الوجود زوالاً تاماً ، مثال ذلك أن لقاتلين المحترفين سيكونون قلة أو ينعمون تماماً
وميزول من الوجود موظفو الجمارك ، ولا بد أن ينهيا العهد الصخري الذي سيصير إليه
العلمون إلغاء شطر ضخم من قوات الشرطة وشطر آخر ضخم من موظفي السجن ،
وبتصبح دور الجانبين لادرة أو متعلمة تماماً ، وبسبب العلم كله نظام صني شامل
يقلل من عدد المستشفيات والمرضعات والمشرفين على غرف المرضى وما إلى ذلك ؛
ومستم للدينا أضع عدالة اجتماعية ويقترع من مبال كل حالة تعيش عاثمة على بحر المجتمع
كالضحايا والفتالين والمقارمين والمحتكرين والمحتلطين والمصارين بصفة عامة .
ولكن علم الأيام المقبلة لن تنقص في المفارقة ولا الرومانس ، كما أنه سيحدث مثلاً
أن مصائد الأسماك في البحار وتلك التوربات التي عهدتها البحار بلا نهاية متدحو
طرزها الخاصة القوية من الرجال ، كما أن أطباق الهواء العليا ستجأر مطالبة بالرجولة
التي تجرؤ على اختراقها ، فضلاً عن زئير الأماكن الخفية العميقة بالخطرة للطبيعة
بالصورة والطلب .

وسيلتفت الناس ثلثة لعلم الحيوان باهتمام مجدد . فإن أينما هذه المضطربة تجري
فيها مملوكة لا سبيل إلى ضبطها تزل أضربها بأنواع الحيوان - وتري بعض
الدوائر أنها شيء أكثر صيغة من الصناعات الانسانية نفسها ، فقد حدث إبان القرن

لصانع عشر أن العشرات من أنواع الحيوان أيدت من آخرها مع أن بعضها أنواع شاذة جداً ؛ بيد أن من أول ثمرات الدولة العلمية قيام حياة أفضل لكل ما يسمى الآن بالصواري . ومن أعجب الأمور في تاريخ البشرية أن نشهد ذلك القدر الضئيل الذي تم منذ عصر البرونز في سبيل استئناس الحياة الحيوانية المحيطة بنا ولتخدامها ومصادقتها وتقديرها . ولكن ذلك القتل البحت القبيح الذي يسونه اليوم باسم الرياضة لا بد أن يحل محله في مجتمع عالم أحسن قلباً تحليل للثرائر البشائية التي تضر من نفسها بهذه الطريقة بحولها إلى اهتمام لا يموت للروح بل بحياتها ، ويؤدي إلى قيام عاومات جديدة قد تكون أيضاً عبية جداً وجملة جداً لمصادقة هذه المخلوقات الغنيا الماسة القرية القسب منا والتي لم تعد نخشاها عدواً ، ولا نكرها منافساً ولا نتعاج إليها عدواً رقيقاً .

وليس معنى وجود الدولة العلمية والعلماء العلمية حبس جنسنا البشري في إطار نظائ من النظم الجرداء . إذ أن الجمال والبحر متظل كائن ، ومتظل هناك أدغال وغابات تلقى العناية حفا وتقدر أعظم التقدير وتوضع موضع الرعاية والحماية ، وستظل السويلا الطيعة مبسوطة أمامنا ونحقق فيها الأرباح العلمية . ولكن الرجال سيكونون عن البعض إلى هذا الحد الشديد ، وعن الخوف بهذه الشدة ، وعن القس والحديعة يمثل هذه الدرجة للسيئة التي نشهد ، ويبطلون على حقوقهم وأجسامهم أنظف وأظهير .

هذا وإن ضم ثقات البشرية مجتمع واحد لا ينطوي ضمنا على خلق مجمع واحد . متعاس ، بل الأمر على العكس من ذلك لو يكاد ، إذ سيقوم الوضع على استخدام الصفات المميزة الخاصة لاستخداماً كافياً يكون موضع الترحاب من الجميع في جو من الفهم . والأخلاق البيئة المنتشرة بين الناس كافة تقريباً في هذا العصر الذي نميش فيه هي التي تجعل الشعب لا يطبق أنباء من الشعوب . والمجتمع الذي لعنا نسير صوره سيكون أشد اختلاطاً ، وأكثر تنوعاً وأكثر امتناعاً وتشوقاً من أى مجتمع يوجد الآن . وليس معنى ذلك بالضرورة أنه سيكون أكثر نهجينا . فلك أن

الاحتياجات المصوغة على غرار واحد كمبادئ يادق^(١) القس ، إنما هي شيء .
يتم إلى الماضي لا إلى المستقبل

يبد أن من أخطر الأمور وأشدها استحالة على الكتاب ، أن يتصور قيام وضع يعيش فيه قوم أحسن تعليماً وأشد ظروفياً وأكثر حرية وأصح بدناً منه هو نفسه . ومعارفنا في هذه الأيام من قسمة بحيث علم يقيناً أن هناك منسماً لا نهاية له لادخال التحسين في كل ناحية بهم البشر . وكل ما يحتاج إليه الأمر إنما هو الجهد الحثيث المشترك والتفاني للتبادل . ولا شك أن ما نزرع نحصه من ثمر وقيود وأمراض معدية وحصر هضم وما يفتش بيننا من شجار وسوء تفاهم ، إنما هي أشياء يمكن التحكم فيها وإزالة دواعيها بتجسيص الجهود البشرية . ولكن معرفتنا بمعنى الحياة وإحساسنا لو انطلعت هذه الأشياء تكون ضئيلة جداً لا تريد عن معرفة مخلوق فقير قلير يعامل معاملة السوء . وتتمرد نفسه بالشراسة ، مخلوق ولد وترعوى بين ظهرانيه وسط قاس ففقر في ضارب خلق من شوارع أوربا ، - أقول لا تريد معرفتنا عن معرفة ذلك المخلوق بمعنى الاستحجام يومياً وارثاء القباب الحميلة وارثاء الحبال انتماسا للصرة والانطلاق إلى أطراف الجوطيرانا وعدم الالتقاء بأى إنسان إلا المهذبين الرافقين من الناس والقيام بالأبحاث الطبية السجقة أو إنتاج كل ما يسر ويهيج من الأشياء . ولكن اليوم الذى قد تكون فيه هذه العمليات جميعاً في تناول الناس كافة قد يكون أقرب كثيراً مما نظن . وكل مرة ما يعتقد في ذلك يقرب يوم ذلك الزمان الحسن ، وكل قلب يشغل حول تلك العتبة يواعد بيننا وبينه .

ولا يستطيع إنسان أن يتقياً بالمفاجآت ولا غيبات الرجاء التي يدحرجها لنا المستقبل . وقبل أن يبدأ هذا العمل الخاص بالقولة السالبة بداية حيلة في تاريخ العلم ، فرما احتاج الأمر أن تكتسب فصول أخرى لا نعرضها الآن ، فنصرك لا تقل في طولها واستلثائها بالصراع عما أدليت به إليك عن نمو الدول العظمى ومنافستها ومن نورة حكومات القلة القليلة بالعصابات . وربما حدثت كفتحات اقتصادية

خاصة ، وملاحظات شروسة بين جفسي وجفسي وبين طقة وطقة . وربما حدث أن يعاود أصحاب « الشروعات والمساعى الخاصة » رفضهم تعلم درس بلد التعليمات دون قيام ثورة فكرية أخرى . تلك أمور لا يدري عنها شيئاً ولا يستطيع أن يفعل فيها برأى . وحتى عن الياد أنه هلته جيماً إلى هي إلا نوازل لا ضرورة لها . ولكن ربما كانت نوازل نظيفة وليس منها عييص . والتاريخ البشرى يشهد أكثر فأكثر إلى مساق بين التعليم والكثافة . و في الماضي كانت للكثافة هي الفاترة على جهد المسيحية لتوحيد العلم ، وكانت هي الفاترة على أثر الانقلاب الليكاليكي للفرع إلى الوحدة العلمية . ولنا نستطيع حتى الآن أن نعلم كم من الانتصارات قدوة للكثافة أن نحرزه ، وكما من المحصولات للضمخة من حصائد النفوس لا يزال ينتظر الحاصد القاسي . وربما نشأت زيوف وأكاذيب أخرى لم نحلم بها حتى اليوم ، فتمسك بالأسس ونخرجهم إلى حين في رقة أحد الأنظمة قبل أن تنهار تلك الترهات بين ظهراني التسلسلات والمناجح التي تنزل بالآجيال .

على أنه لا بد للعلم من أن يتقدم وللسوف يتقدم على شاكلة أسو له في نهر لوني سهولة ويسر . وقد سبق لنا أن اقتبسنا في هذه « العلم » فيما أدلينا به إليك من إنسان العصر المحرري القديم ، وصفاً نقلناه عن المسر ورتجود ميث لأهل مريجة وصلت إليها الحياة البشرية في العلم قبل يومنا هذا بما يقارب الخمسين ألف سنة . لقد كانت حياة أدنى إلى حياة اليهايم لا جرم . وربما أيضاً ابتهاج الناس لتقديم القربان البشرى قبل يومنا هذا خمسة عشر ألف سنة . وغنى عن بيان أن ذلك للشهد قاس سوء لا يكاد يصلها عقل عند أبناء صبرنا هذا .

ولم يقضى بعد أكثر من خمسة سنة على إمبراطورية الأزتيك التي كانت تعتقد أنها لا تيمش مالم تسلك السماء . وكانت مثلت من الضحايا البشرية ثمرت كل عام بهذه الطريقة في بلاد المكسيك ، وكان الجسم يقوس كالقوس فوق حيز التضحية الأثني ، وكان المصلر يملن يسكين من الرجاج البركاني ، ثم يمدد للكان إلى القلب الباطني فيزعه من جسم للصحية وهي لا تزال حية . وربما كان قريباً ذلك اليوم الذي لا تعود فيه ناكل قلوب الرجال ، ولو كان ذلك من أجل آلهتنا القومية :

وما حل القارئ إلا أن يرجع إلى الخواص الزمنية الباكورة التي قلعتها إليه في هذا الكتاب ، ليرى المقياس الحق والصفة المارضة لكل الصراعات والمظاهرات والخصائص التي شهدتها الإنسانية في هذه الفترة فترة التفجرات الجرداء المؤلمة والحظافة بالرجاء جعلتها في الحين نفسه .

والتاريخ إما هو - ولا بد له على الدوام كذلك - من أن لا يزيد على بيان يسجل البدايات ، وفي إمكاننا أن نجروا على التكهن بأن القومول التالية التي ستكون ، ستكون وإن تحملها فواصل طويلة في النكسات والكوارث ، عن إحراز الناس في النهاية لوحدة السياسية والاقتصادية التي تشمل العالم أجمع - حتى إذا بلغت تلك الغاية ، فإن يكون معناها مرحلة راحة ، ولاحق مرحلة لالتقاط الأنفاس ، قبل نشوء كضلع جديد وجهود جديدة أعظم كثيراً . فالتاس لم يتحلوا إلا للتشديد بحجم وراء المعرفة والقوة والسياس كثنائهم دائماً في انتظار المناسبات الجديدة ، وعندئذ ستخضع حياة الحيوان والنبات ، والطرائق الغامضة في علم النفس ، والتركيب الخلقى للمادة والأعماق الباطنية لكرمتنا الأرضية ، وتسلم أسرارها وتب عطاياها لعائنها . والحياة شيء يبدأ باستمرار لا يتوقف . « والحياة » عندما تجميع في النهاية بزعامة الإنسان ، المعلم للناس فكون ، وقد توحد وتنظم وتسلح بقوة القوة الخفية ، وبالمعرفة التي لا تزال اليوم وراء الأحلام ، تلك « الحياة » التي نمتا نموت أبداً فتولد من جديد أبداً ، والتي نمتا دائماً أبداً صغيرة ومشوقة ، - ستنهض عند ذلك على قدميها فوق ظهر هذا الكوكب ، وقضها فوق كرسى ممدود وتعد سلطانها بين الأنجم الزهر .

جدول تاريخي

نختم الآن هذه المعالم بتقديم قائمة بالأحداث العظمى من ٨٠٠ ق. م. إلى ١٩٦٥ م. :
 وعمن بالقارئ أن يستحضر أمامه فكرة واحدة من التسلسل الحظي بين
 الزمن التاريخي والزمن الجيولوجي . ولنتتبع لك الآن فترة من كتاب أصوله
 حديثاً المستوح . ٨ . روبنسون : لكي يتسنى لنا أن نفهم الضوء الذي يبعثه عمر
 البشرية الضخم على مركزنا الحالي ، وعلاقتها بالماضي ، ولعلنا في المستقبل ،
 ستقتبس في شيء من التعميل (من هنريغ هيث ، أحد تلاميذ هيجل) وسيلة
 ذكية ماهرة لتمثيل الصورة التاريخية المصرية للرؤية . فليتنا أن نتصور أن تاريخ
 البشرية بأكمله مقسم إلى اثني عشرة ساعة ، وأنها تعيش في ظهيرة اليوم الإنساني
 الطويل . وعلينا لكي سلك ميل القصد والتفكير للربح ، أن نفترض أن الإنسان
 كان مستقيم السواد ومنشغلاً بطلب المسحقات لمدة مئتين وأربعين ألف سنة لا غير .
 ومنمثل كل ساعة من يومنا هذا عشرين ألف سنة ، ويمثل كل دقيقة ثلاثمائة
 والاثنتين سنة وتظل . لقد انقضى ما يربو على إحدى عشرة ساعة ونصفاً لم يسجل فيها
 شيء . فنحن لا نعرف فيها شخصاً ولا حدثاً ، بل الحق أننا لا نتجاوز حالة
 الاستنتاج ، إذ نقول إن الإنسان كان يعيش على الأرض ، ذلك أننا نجد آثاره
 الحجرية وأجزاء من صخره ، وبعض صوره التي تمثل الماموت والجواميس البرية
 (البيزون) . وليس هناك حتى الدقيقة العشرين قبل الساعة الثانية عشرة أي شيء .
 ثم تبدأ أوائل آثار المدينين المصرية والبابلية . وليس عمر الأدب والفلسفة والعلم
 الإغريقي التي جرت عاداتنا أن نسميها بالقديم إلا مع دقائق فقط . وفي الساعة
 الثانية عشرة إلا دقيقة كتب اللورد باكون كتابه الموسوم « تعلم العلوم » ، ولم تكن
 تقضي نصف دقيقة منذ أن بدأ الإنسان لأول مرة يحمل الآلة البخارية تقوم
 له بعمله .

والحق أن ذلك مثال فائق لتمثيل رمزي للتاريخ صغير المقياس .

ولا يبدأ التاريخ أن يتسم بدرجة كافية من الدقة لتحديد سنة أية حادثة بالضبط إلا بعد استقرار فترات الأولياد الأول وبعد بناء روما .

وحوالى عام ألف ق . م . كانت الشعوب الآرية تستقر في أشباه جزائر أسبانيا وإيطاليا والبلقان ، وكذلك استقروا في شمال الهند ، وكانت كنوسوس قد دمرت من قبل ذلك ، وكانت عصور التوسع المصرية أيام تحتمس الثالث وأمينحوتب (أمينوفيس) الثالث ورسيس الثانى قد ولت منذ ثلاثة أو أربعة قرون . وكان يحكم في وادى النيل ملوك ضغاه .

وكان مرجون الأول (٢٧٥٠ ق . م) صاحب الإمبراطورية الأكادية السومرية ، ذكرى معيدة في التاريخ البابلي ، كان أبعد في التاريخ البابلي من بعد مسطعلين الأكبر عن عللتا اليوم . وانقضى على موت حامورابي ألت سنة . وكان الآشوريون يحكمون من قبل البابليين الأكل منهم مرما حربياً . إذ أن تجلات بلسر الأول استولى على بابل منذ ١١٠٠ ق . م . ولكن لم يتم ثمة فتح دائم ، فكانت آشوريا وبابلوريا لا تزالان إمبراطوريتين منفصلتين . وكانت أسرة نساو الجديدة تزدهر في الصين . وكان عمره ستون سنه في إنجلترا ألف سنة في ذلك العصر .

وتهد القرنان التاليان بهزة في مصر تحت الأسرة الثامنة والعشرين ، وانقسام مملكة سليان العراقية الصغيرة القصيرة الأجل ، وانتشار الإفرنج في القنار وجنوى إيطاليا وآسيا الصغرى وأيام سيادة الإترسك في وسط إيطاليا . وقد نستطيع أن تبدأ قائمة التواريخ للسكنة التحقن بالآتي .

ق م

٨١٠ بناء قرطاجنة

٧٩٠ غزو الإثيوبيين لمصر (تأسيسهم الأسرة الخامسة والعشرين) .

٧٧٦ الأولياد الأول

٧٥٣ بناء روما

٧٤٥ تجلات بلسر الثالث يفتح بابلونيا ويؤسس الإمبراطورية الآشورية الحديثة

٧٢٨ منح ملك إسرائيل بشنرى رحيل تجلات بلسر الثالث عن بلاده .

٧٢٥ الإغريق يسكنون صقلية

٧٢٢ سرجون الثاني يسلح الآشوريين بأسلحة من الحديد

٧٢١ نقل الإمبراطورين إلى الأسر

٧١٤ متحارب

٧٠١ الفرياء يلمس جيشه وهو في طريقه إلى مصر

٥٨٠ إيسارهادون يستولى في مصر على طيبة من يد الأسرة الخامسة

والعشرين الآشورية

٦٦٧ ملحدانا بالوس

٦٦٤ آبشاهاتيك الأول يسترد خربة مصر ويؤسس الأسرة السادسة والعشرين

(في ٦١٠) . وقد ماضته ضد ملكة آشور جنود لينة أرسلها

للك ملك جيجيس

٦٠٨ نحاو ملك مصر يهزم يوشع ملك يهوذا في معركة مجدو

٦٠٦ الكلدان والبابليون يستولون على نينوى . تأميس الإمبراطورية الكلدانية

٦٠٤ نحاو يقدم إلى القنرات وهناك ينقله نبوخذنصر الثاني

٥٨٦ نبوخذنصر الثاني يحبس اليهود إلى بابل . ويضر منهم كثيرون إلى مصر

ويقيمون بها

٥٥٠ فورش الفارسي يخلف سياكارس

فورش يهزم كرويسوس

بونا كان يعيش قرية فلك الزمان . وكذلك كوتوشوس ولاهوتسي

٥٣٩ فورش يستولى على بابل ويؤسس الإمبراطورية الفارسية

٥٢٧ مات بزمستراتوس

٥٢٥ غزا قهر مصر . مولد إسكيلوس

٥٢١ دارا الأول ابن هيستامبس يحكم من البرديز إلى السند

حملة على بلاد الإسكثيين

٤٩٥ مولد موموكليس

٤٩٥ معركة ماراثون

٤٨٤ مولد هيروdot . فاز الإسكليون بأول جائزة له على التراجيدين

٤٨٠ معركة فرجويلاي وسلاميس . مولد يوريبيلس

٤٧٩ معركة بلاتيا ومنكالي ثيان طرد وحزيمة فارس

٤٧٤ الإغريق الصقليون يدمرون الأسطول الإترسكي

٤٧٠ رحلة هاتو

٤٦٦ بركلييس

٤٦٥ مقتل إيجرسييس .

٤٢٨ هيروdot يلقى تاريخه في أثينا

٤٣١ ابتداء حرب البيلوبونيز (حتى ٤٠٤)

٤٢٩ وفاة بركليز . وفاة هيروdot

٤٢٧ بدأ أرسطوفانيس حياته العملية . مولد أفلامون . وعاش حتى ٣٤٧

٤٠١ تراجع عشرة الآلاف (مع زينوفون) .

٣٩٠ نهب برينوس روما

٣٦٦ بنى كاتلوس معبد الكونكورديا

٣٥٩ أصبح فيليب ملكا على مقدونيا

٣٢٨ معركة خايرونيا

٣٣٦ عبرت جيوش مقدونيا إلى آسيا . مقتل فيليب

٣٣٤ معركة جوانيكوس

٣٣٣ معركة إسترس

٣٣٢ الإسكند بمصر

- ٣٣٦ معركة أرييلا
 ٣٣٠ مقتل دافرا الثالث
 ٣٢٣ موت الإسكندر الأكبر
 ٣٢١ قيام شندارجوتا في البنجاب . الصينيون يهزمون الرومان هزيمة تامة في
 معركة كودين فوركس
 ٣٠٣ شندارجوتا يطرد ميلونوس
 ٢٨٥ وفاة بطليموس سوتير (الخالص)
 ٢٨١ غزا بروس إيطاليا
 ٢٨٠ معركة مرقية
 ٢٧٩ معركة أوسكولوم
 ٢٧٨ غارة الغالة على آسيا الصغرى ومقاتلتهم بنطاليا
 ٢٧٥ بروس يتأخر إيطاليا
 ٢٦٤ الحرب البونية الأولى . (بدأ أسوكا حكمه في بهار - حتى ٢٢٧) أول ألعاب
 المجالين بروما
 ٢٦٠ معركة ميلاي
 ٢٥٦ معركة إكتوبوس
 ٢٤٦ أصبح شي هوانج في ملكا على تس تش
 ٢٤١ معركة بلزائر الإيمانية . نهاية الحرب البونية الأولى
 ٢٢٥ معركة تيلامون . الجيوش الرومانية في القبريا
 ٢٢٠ أصبح شي هوانج في إمبراطوراً للصين
 ٢١٩ الحرب البونية الثانية
 ٢١٦ معركة كاناي
 ٢١٤ بدأت الحرب الصينية العظمى
 ٢١٠ وفاة شي هوانج في

- ٢١٢ معركة زاما
 ٢١١ نهاية الحرب البونوية الثانية
 ٢٠٠ - ١٩٧ امتداد الحرب بين روما ومقلوبيا
 ١٩٢ الحرب مع السلوقين
 ١٩٠ معركة ماغنيسيا
 ١٤٩ الحرب البونوية الثالثة . (وصول بومبى تشى إلى التركستان الغربية)
 ١٤٦ تدمير قرطاجنة . وتدمير كورنث
 ١٣٣ أتلوس يهب برجطة لروما . مقتل ليريوس جراكوس
 ١٢١ كاليوس جراكوس يقتل
 ١١٨ الحرب مع يوجورثا
 ١٠٦ نهاية الحرب مع يوجورثا
 ١٠٧ حشد ماريوس الألمان
 ١٠٠ نصر ماريوس - (فونى يفزو وادى التاريم)
 ٩١ الحرب الاجتماعية
 ٨٩ أصبح جميع الإيطاليين ممدنين ورومانيين
 ٨٦ وفاة ماريوس
 ٧٨ وفاة سولا
 ٧٣ ثورة الأرقاء بقيادة مبارناكوس
 ٧١ هزيمة مبارناكوس وهابته
 ٦٦ قائد بومبى الجيوش الرومانية إلى محرقروين ونهر الهرات . وانتهى بالآلايين
 ٦٤ مات ميثريناتس البوطشى
 ٥٣ مقتل كراسوس فى كرماتى . عناصر منولية مع البارثيين
 ٤٨ غزو بوليوس فيصر بومبى عند فارسالوس
 ٤٤ اغتيال بوليوس فيصر

- ٢١ معركة أكتيوم
 ٢٧ أغسطس تيمبر زجا (حتى ١٤ م)
 ٤ التاريخ الحقيق لولد يسوع الناصري

الحقبة المسيحية

- ٦ تأسست مقاطعة موبيا
 ٩ تأسيس مقاطعة باتونيا . من الحدود الإمبراطورية إلى الجنوب
 ١٤ وفاة أغسطس . تيرموس يصبح إمبراطورا
 ٣٠ صلب يسوع الناصري
 ٣٧ كاليجولا يخلع تيرموس
 ٤١ كلوديوس (أول أباطرة الكتاب) ينصب الحرس البريتوري (الإمبراطوري)
 حل العرش بعد مقتل كاليجولا
 ٥٤ نرون يخلع كلوديوس
 ٦١ بوابيكيا تلج الحامية الرومانية بريطانيا
 ٦٨ انتحار نرون . (جاليا وأوتو وليفيلوس أباطرة حل العقب)
 ٦٩ فبسيان يبدأ الأسرة الموسومة بالفلابية
 ٧٩ تيجوس يخلع فبسيان
 ٨١ دوميتيان
 ٨٤ استلحاق شمال بريطانيا
 ٩٦ نرفا يبدأ أسرة الأنطون
 ٩٨ خلف ترومان نرفا
 ١٠٢ بان تشاو حل بحر قزوين . (الختلوا سكيثيون يتزرون شمال الهند)
 ١١٧ هادريان يخلع ترومان . الإمبراطورية الرومانية في أحسن مصلحتها .
 ١٣٧ أنطونيوس يوس يقب هادريان

(كان المترواسكيلينيون في ذلك الأوان يعمرون أنسرا آثار الحكم المظاني في الهند) .

١٤٠ (في حوالي ذلك الوقت كان كانيشكا يحكم الهند وقشقر وپرقند ونيوتان)

١٦١ ماركوس أوريليوس خلف أنطونيوس بيوس .

١٦٤ بدأ الطاعون العظيم واستمر حتى وفاة ماركوس أوريليوس ١٨٠ ، وعات فساداً أيضاً في آسيا بأجمعها .

١٨٠ وفاة ماركوس أوريليوس .

(ابتداء في الإمبراطورية الرومانية ما يقارب القرن من الحرب والقوضى)

٣٢٠ نهاية لأسرة هان . بداية ٤٠٠ سنة من الانقسام في الصين .

٢٢٦ أردشير الأول (أول شاه ساساني) يقضي على الأسرة الأرشكية بفارس .

٢٤٢ بدأ ثاني تطعيمه للناس .

٢٤٧ القوط يعمرون اللانوب في غلوة عظيمة .

٢٥١ نصر عظيم القوط ، مقتل الإمبراطور ديكيوس .

٢٦٠ استولى سابور الأول ثاني شاه ساساني على أنطاكية ، وأسر الإمبراطور

فالبريان ، وقطع عليه لوديثانيوس ملك تلمر خط عودته إلى فارس .

٢٦٩ هزم الإمبراطور كلوديوس القوط عند نيش .

٢٧٠ أوريليان يصبح إمبراطوراً .

٢٧٢ حلت زلزالاً أسيرة إلى روما . نهاية أبحاث تلمر الوجيزة .

٢٧٥ بروبيوس يخلف أوريليان .

٢٧٦ القوط في إقليم بونطش . الإمبراطور بروبيوس يضطر للفرجة والإكمان إلى التراجع .

٢٧٧ ماقدي يعلب في فارس .

٢٨٤ ثقلديانوس أصبح إمبراطوراً .

٣٠٣ ثقلديانوس يضطهد للسبيين

٣٠٦ قسطنطين الأكبر أصبح إمبراطوراً

- ٣١١ نخل جاليريوس من اضطهاد المسيحيين
 ٣١٤ قسطنطين يرأس مجلساً مسيحياً في آلم
 ٣٢١ الفارات القوطية الجديدة تصد
 ٣٢٣ قسطنطين يرأس مجمع نيقيا
 ٣٣٧ الوندال يحصلون وقد دفعهم القوط ، حل الأذن بالقام في باتونيا
 قسطنطين يعمد وهو حل لراش الموت
 ٣٥٤ موكد القديس أوسطين
 ٣٦١ - ٣٦٣ جوليان المرتد يحاول أن يدخل الميراثية بلك للمسيحية
 ٣٧٩ ثيودوسيوس الأكبر (وهو ألباني) يصبح إمبراطوراً
 ٣٩٠ تخليع نثال سيرايس بالإسكلوية
 ٣٩٢ ثيودوسيوس الأكبر إمبراطوراً للشرق والغرب
 ٣٩٥ وفاة ثيودوسيوس الأكبر .
 ٤١٠ استولى القوط الغربيون بقيادة آلاويك على روما
 ٤٢٥ الوندال يستقرون في جنوب ألبانيا . ويستقر المحون في باتونيا والقوط
 في دالماسيا . القوط الغربيون والسويبي في البرتغال وشمال ألبانيا .
 الإنجليز يتزرون بريطانيا
 ٤٢٩ الوندال بقيادة جنسريك يتزرون لإفريقية .
 ٤٣٩ أعاد الوندال قرطاجنة
 ٤٤٨ بريسكوس يزور آتिला
 ٤٥١ آتिला يهزم بلاد الغالة ويهزمه الفرنجة والأكمان والرومان في ترويس
 ٤٥٣ وفاة آتिला
 ٤٥٥ الوندال يهزمون روما

- ٤٧٠ إغارة الإنجليز على الهند
- ٤٧١ أودواكر ملك خليط من القبائل النوتونية ، أبلغ القسطنطينية أنه ليس هناك إمبراطور في الغرب . نهاية الإمبراطورية الغربية
- ٤٨٠ مولد القديس بندكت
- ٤٨١ كلوفيس في فرنسا . للمروغنيون
- ٤٨٣ الكنيسة النسطورية تفصل عن الكنيسة الأرثوذكسية المسيحية
- ٤٩٣ ثيودوريك القوطي الشرق يغزو إيطاليا ويصبح ملك إيطاليا ، ولكنه كان خاضعاً اسمياً للقسطنطينية
- (ملوك القوط في إيطاليا . القوط يقيمون في أراضي خاصة مصادرة بوصفهم حامية)
- ٥٢٧ جستنيان إمبراطوراً
- ٥٢٨ طرد سيجراجولا (آتيليا الهندى الاثلى)
- ٥٢٩ أغلق جستنيان معارس آتينا ، بعد أن ازدهرت ألف سنة خرباً .
- بلسانيوس (قائد جستنيان) استولى على نابلي
- ٥٣٩ كسرى الأول (أنوشروان) بدأ حكمه
- ٥٤٣ الطاعون العظيم بالقسطنطينية
- ٥٤٤ وفاة القديس بندكت
- ٥٥٣ جستنيان يطرد القوط من إيطاليا . كاسيوهوراس يوحس ديره
- ٥٦٥ وفاة جستنيان . فتح الومبارد معظم إيطاليا الشمالية (تاركين رانكا وروما لبيزنطة) . شقت الأتراك الإنجليز بالتركستان الغربية .
- ٥٧٠ مولد محمد عليه الصلاة والسلام
- ٥٧٩ وفاة كسرى الأول (أنوشروان)
- (الومبارد يسودون إيطاليا)

٥٩٠ الطاعون يمسد النهر في روما ، (جريجورى الأعظم وهو جريجورى الأول - وروما القديس أنجيلو) . بدأ كسرى الثانى (أردشير) حكمه

٦١٠ بدأ هرقل حكمه

٦١٨ نهاية أسيرة ناتج بالصين

٦١٩ كسرى الثانى (أردشير) ويده مصر ويبت القسوس ودمشق وجيوشه

على القردنبيل

٦٢٢ لفجرة النبوية

٦٢٣ معركة بدر

٦٢٧ هرقل يهرم القسوس هزيمة كبرى عند نينوى ، مكة وأحزابها محاصروا المدينة
تأى تسونج يصحح إمبراطوراً للصين .

٦٢٨ قتل قباذ الثانى أباه كسرى الثانى وخلفه على العرش

٧٢٩ بدأ يوان شوانج رحلته إلى الهند ، فتح مكة . (غزوة أفتتح) - كتب
محمد (ص) إلى جميع حكام الأرض .

٦٣٢ وفاة محمد وخلافة أبى بكر

٦٣٤ خلافة عمر

٦٣٥ تأى تسونج يستقبل المبعوثين القسطنطينيين

٦٣٦ معركة البرموك . العرب يستولون على موريا

٦٣٧ معركة قادسية

٦٣٨ تسليم بيت المقدس لعمر

٦٤٢ وفاة هرقل

٦٤٤ خلافة عثمان

٦٤٥ يوان شوانج يعود إلى منجيان

٦٥٥ المسلمون يهزمون الأسطول البيزنطى

٦٥٦ مقتل عثمان بالمدينة

٦٦١ مقتل على . خلافة معاوية . (أول خلافة بني أمية)

٦٦٨ هاجم الخليفة معاوية القسطنطينية بحراً - أصبح ثيودور الطرسوسى رئيساً
لأساقفة كاثوليكوس

٦٧٥ آخر هجوم بحرى لمعاوية على القسطنطينية

٦٨٧ ناظر القصر بين المرستلى يوحد أومستاميا ونوستريا

٧١١ غزا جيش المسلمين أسبانيا من إفريقيا

٧١٦ - ٧١٧ سليمان أخو الوليد وخليفته يقتل فى فتح القسطنطينية . الأميرة
الأموية تتحضر من أوج جمعها

٧٢١ شارل مارتل ناظر ألقصر . محطكات الخليفة الوليد الأول تمتد من جباله
البرانس إلى الصين .

٧٣٢ هزم شارل مارتل المسلمين عند بواتيه

٧٣٥ وفاة بيده (Bede) الوفور

٧٤٣ الوليد الثانى خليفة - وهو الخليفة الكافر

٧٤٩ خلع بنى أمية أبو لئباس أول خلفاء الدولة العباسية . ظلت أسبانيا أموية
ابتداء غزق الإمبراطورية العربية

٧٥١ بين بنوج ملكا لفرنس

٧٥٥ استشهاده القديس يوزيفاس

٧٧١ شاولان ملكا بلمرعه

٧٧٤ شاولان يفتح لومباردى

٧٧٦ شاولان فى خالاميا

٧٨٦ هرون الرشيد خليفة العباسيين ببغداد (إلى ٨٠٩)

٧٩٥ أصبح ليو الثالث بابا (إلى ٨١٦)

٨٠٠ ليو توج شاولان إمبراطوراً على العرب

٨٠٧ إنجلترا وهو لاجئ إنجليزى يلاط شاولان . يقيم نفسه ملكا على وركس

٨١١ كروم البشارى يهزم الإمبراطور ققفور ويقتله

- ٨٢٨ أصبح إيجبرت أول ملك لانجلترا
 ٨٤٣ مات لويس الثنى وتمزقت الإمبراطورية الكارولنجية . لم يكن هناك
 حق ٩٦٢ أى تقارب منظم لآباطرة الدولة الرومانية المقدسة ، وإن ظهر
 القرب على قررات
 ٨٥٠ فى قرابة ذلك الوقت أصبح روبريك وهو همالى (نورثمان) ساكسا
 لنولجورود وكينف
 ٨٥٢ بوريس أول ملك مسيحى للغاريا (إلى ٨٨٤)
 ٨٩٥ أسطول الروس وهم الشماليون (Northmen) يهدد القسطنطينية
 ٨٨٦ المعاهدة بين ألفرد الإنجليزي وجوتروم الساكسونى توصلت قدام الساكسونيين
 بالانجلترا
 ٩٠٤ أسطول الروسين (النورثين) خارج القسطنطينية
 ٩١١ دلف العطاء يوصل نفسه فى نورماندى
 ٩١٩ هنرى العبيد ينتخب ملكا لألمانيا
 ٩٢٨ ماروزيا تحبس البابا يوحنا العاشر
 ٩٣١ يوحنا الحادى عشر بابا (إلى ٩٣٦)
 ٩٣٦ أوتو الأول أصبح ملكا لألمانيا خلفا لأبيه هنرى العبيد
 ٩٤١ الأسطول الروسى يعود إلى تهديد القسطنطينية
 ٩٥٥ يوحنا الثانى عشر هو البابا
 ٩٦٠ أميرة صنج الشمالية تبدأ ببلاد الصين
 ٩٦٢ أوتو الأول ملك لألمانيا يتوج إمبراطورا (أول الآباطرة السكسون)
 بيد يوحنا الثانى عشر
 ٩٦٣ أوتو عزل يوحنا الثانى عشر
 ٩٦٩ الحملة القاطمية للفضلة قام بمصر
 ٩٧٣ أوتو الثانى
 ٩٨٣ أوتو الثالث

٩٨٧ أصبح هيو كابت ملكا لفرنسا . نهاية الأسرة الكارولنجية من الملوك
الفرنسيين

١٠١٦ أصبح كاثيرت ملكا على إنجلترا والنارمكة والنرويج

١٠٣٧ مات ابن سيد البخارى أمير الأطباء

١٠٤٣ الأسطول الرومى يهدد القسطنطينية

١٠٦٦ وليم دوق نورماندى يفتح إنجلترا^١

١٠٧١ انتصاف الإسلام تحت الأتراك السلجوقيين . معركة ملازجرد

١٠٧٣ أصبح هلمبراند بابا (جريجورى السابع) إلى ١٠٨٥

١٠٧٧ هنرى الرابع يقدم التوبة فى كانوسا .

١٠٧٩ مولد بطرس أيلارد

١٠٨٢ روبرت جويسكارد يفتح دورازو

١٠٨٤ روبرت جويسكارد يهب روما

١٠٨٧ - ١٠٩٩ لوبان الثانى بابا

١٠٩٤ ويا

١٠٩٥ إريان الثانى يدعو فى كليرمونت إلى الحرب الصليبية الأولى

١٠٩٦ مذبحة الحملة الصليبية الشعبية

١٠٩٩ جوسترى البويوى استولى على ييب المقدس . بسكال الثانى بابا (إلى ١١١٨)

١١٣٨ ازدهار إمبراطورية كن . نقل عاصمة أسرة صينج من نانكين إلى هان تشاو

١١٤٢ وفاة بطرس أيلارد

١١٤٧ الحرب الصليبية الثانية . تأسيس المملكة للمسيحية البرتغالية

١١٦٩ صلاح الدين سلطاناً على مصر

١١٧٧ فردريك باربروسا يعترف بسيادة البابا (إسكندر الثالث) بالبنطية

١١٨٧ استولى صلاح الدين على بيت المقدس

١١٨٩ الحرب الصليبية الثالثة

١١٩٣ مولد ألبرتوس مايجنوس

١١٩٨ وفاة ابن رشد القرطبي الفيلسوف العربي . إلسنت الثالث بابا (إلى
١٢١٦) ، أصبح فردريك الثاني (وعمره أربع سنوات) ملك صقلية
تحت وصايته

١٢٠٢ الحملة الصليبية الرابعة تهاجم الإمبراطورية الشرقية

١٢٠٤ اللاتين يستولون على القسطنطينية

١٢٠٦ أسس قطب الدولة الإسلامية بدلى

١٢١٢ حلة الأطفال الصليبية

١٢١٤ چنكيزخان استولى على بكين

١٢١٥ التوقيع على اللجنا كارتا

١٢١٦ هونوريوس الثالث بابا

١٢١٨ چنكيزخان يغزو خوارزم

١٢٢١ فشل الحملة الصليبية الخامسة و هوكتا . وفاة القليس دومينيك (جمعية
الدومينيكيين)

١٢٢٥ ميلاد توماس الأكويني

١٢٢٦ وفاة القديس فرنسيس الأسيسى (جمعية الفرنسيسكانيين)

١٢٢٧ مات چنكيزخان ، وهو يحكم من بحر قزوين إلى المحيط الهادى ،
وخلقه إقطاعى خان . جريجورى التاسع بابا

١٢٢٨ شرع فردريك الثاني فى الحملة الصليبية السادسة ، واحتجز بيت المقدس

١٢٣٤ أم المغول ضح إمبراطورية كين بمساعدة إمبراطورية صين

١٢٣٩ فردريك الثاني يصلى قصده الحرم للمرة الثانية

١٢٤٠ المغول دمروا كييف . فروسيا تصبح تابعة للمغول

١٢٤١ المغول يتصرفون عند ليجنز فى سيليزيا

١٢٤٤ سلطان مصر يسترد بيت المقدس . فادى ذلك إلى الحملة الصليبية السابعة .

١٢٤٥ فردريك الثاني يحرم مرة ثانية . وجمال شويرز يحرقون قلعة ليوها بسجرج

- ١٢٥٠ القديس لويس الفرنسي يدفع القلبة . وفاة فردريك الثاني آخر أباطرة أسرة هوهنشتاوفن . فترة غزو العرش الألماني حتى ١٢٧٣
- ١٢٥١ أصبح مانجو خان هو الخان الأعظم . قوبلاي خان حاكم على الصين
- ١٢٥٨ هولاكو خان يستولى على بغداد ودمرها
- ١٢٦٠ أصبح قوبلاي خان خانا أعظم . هزيمة قطبغا بفلسطين
- ١٢٦١ عاد الروم فاعتقدوا القسطنطينية من اللاتين .
- ١٢٦٥ مولد داتوي الليجيري
- ١٢٦٦ مولد جيوتو
- ١٢٦٩ أرسل قوبلاي خان رسالة استسلام إلى البابا على يد الإخوين الكبيرين بولو
- ١٢٧١ ماركو بولو يبدأ رحلته
- ١٢٧٣ رودلف الغابسبرجي ينتخب إمبراطوراً . أسس السويسريون حلفهم الدائم
- ١٢٧٤ وفاة توماس الأكويني
- ١٢٨٠ أسس قوبلاي خان أسرة يوان بالصين . مات ألبرتوس ماجنوس
- ١٢٨٢ وفاة قوبلاي خان
- ١٢٩٢ وفاة روجر باكون نبي العلوم التجريبية
- ١٢٩٤ بونيفاس الثامن يصبح بابا (حتى ١٣٠٣)
- ١٢٩٤ ماركو بولو يعود إلى ليتخية
- ١٣٠٣ وفاة بونيفاس الثامن بعد اعتلاء غليوم دي نوجيريت عليه في ألتيني
- ١٣٠٤ ميلاد برلوك
- ١٣٠٥ كلمنت الخامس بابا
- ١٣٠٨ وفاة ديس الاسكتلندي (سكوتاس)
- ١٣٠٩ إقامة البلاط البابوي في آفينيون
- ١٣١٨ أربعة من الفرنسيين يحرقون جرسيليا بتهمة المهرقة
- ١٣٣٧ وفاة جيوتو

١٣٤٧ وفاة ألكام

١٣٤٨ الطاعون العظيم - الموت الأسود

١٣٥٨ حروب الفلاحين (الحاكري) بفرنسا

١٣٦٨ في الصين سقطت أسرة يوان المغولية وخطفها أسرة مينج (إلى ١٦٤٤)

١٣٦٩ تيمورلنك يتخذ لقب التان الأعظم

١٣٧٤ مات يترارك

١٣٧٧ عاد البابا جريجوري الحادي عشر إلى روما

١٣٧٨ المصنع الأعظم . لوبان السادس في روما - كلمنت السابع في آيغنيون

١٣٨١ فتنة الفلاحين بانهجرة . وات تايلور يقتل بحضرة الملك ريتشارد الثاني

١٣٨٤ وفاة ويكليف

١٣٨٧ مولد فرا أنجليكودي فيزولي

١٣٩٨ شرعس بتالم ويكليف في براغ

١٤٠٠ مات شوسر

١٤٠٥ وفاة تيمورلنك

١٤١٤ - ١٤١٨ مجمع كونستانس . إحقاق هس (١٤١٥)

١٤١٧ نهاية المصلح الأعظم . مارتن الخامس بابا

١٤٢٠ ثار الحسينيون . دعا مارتن الخامس إلى حلة صلوية فسلم

١٤٣١ تبدلت حلة الكاثوليك الصلوية أمام المسيحيين عند غومزليس

اجتمع مجلس بال ، مولد كيون . مولد مانتنيا

١٤٣٦ اصطلاح المسيون مع الكنيسة

١٤٣٩ لوجد مجمع بال صلحاً جديداً في الكنيسة

١٤٤٥ لكشاف البرنثالين لرأس فردي

١٤٤٦ أول الكتب المطبوعة (كوسنر في هارلم)

١٤٤٩ نهاية مجلس بال

- ١٤٥٢ مولد ليوناردو دافنشي
 ١٤٥٣ استولى الأتراك العثمانيون بقيادة محمد الثاني على القسطنطينية
 ١٤٧١ مولد ديور
 ١٤٧٣ مولد كوبرنيك
 ١٤٨٠ خلع إيفان الثالث غراندوق موسكو طامع للنفوذ
 ١٤٨١ وفاة السلطان محمد الثاني وعمر يستعد لغزو إيطاليا . بايزيد الثاني سلطان
 الأتراك (حتى ١٥١٢)
 ١٤٨٦ دار دياز حول رأس الرجاء الصالح
 ١٤٩٢ عبر كولبس الأطلسي إلى أمريكا . رودريجو بورچيا ، الإسكندر السابع
 بابا (إلى ١٥٠٣)
 ١٤٩٣ أصبح ماكسيمليان الأول إمبراطوراً
 ١٤٩٨ دار فلاسكودا جئما حول الرأس إلى الهند
 ١٤٩٩ أصبحت سويسرا جمهورية مستقلة
 ١٥٠٠ ولد شارل الخامس
 ١٥٠٩ هنري الثامن ملكا على إنجلترا
 ١٥١٢ سليم الأول سلطان حتى (١٥٢٠) . اشترى لقب الخلافة . سقوط سوداني
 ومكينا في يافورنسا
 ١٥١٣ ليو العاشر بابا
 ١٥١٥ فرنسيس الأول ملكا فرنسا
 ١٥١٧ ضم سليم مصر إلى أملاكه . لوثر يبسط نظريته في دوتبرج
 ١٥١٩ مات ليوناردو دافنشي . الشروع في رحلة ماجلان حول العالم . كورتيز
 يبلش مدينة المكسيك
 ١٥٢٠ سليمان القانوني سلطانا إلى ١٥٦٦ ، وكان يحكم من بغداد إلى بلاد الهند .
 شارل الخامس إمبراطوراً

- ١٥٢١ لوثر بمجلس الثابت في ورمس . جرح ليو لا في مابلوتا
- ١٥٢٥ باير فاز بحركة باتينات وضع على ، وأسس الإمبراطورية المفوية
- ١٥٢٧ الجنود الألمانية بإيطاليا بقيادة كونستابل يوربون ، استولى على روما ونهبها
- ١٥٢٨ مولد بول القروفي
- ١٥٢٩ سليمان يحاصر قيتا
- ١٥٣٠ غزا يزارو بيرو . توج البابا شارل الخامس . بدأ هنري الثامن خلافه مع البابوية
- ١٥٣٢ استولى التسميليون على مونستر
- ١٥٣٥ سقوط حكم التسميليين في مونستر
- ١٥٣٩ تأسست جمعية يسوع (اليسوعيين)
- ١٥٤٥ اجتمع مجلس ترنت (إلى ١٥٦٣) ليُنظم الكنيسة
- ١٥٤٦ وفاة مارتين لوثر
- ١٥٤٧ إيثان الرابع (الخريب) اتخذ لقب قيصر الروميا . تولى فرنسيس الأول
- ١٥٤٩ وصلت أول البعثات اليسوعية إلى أمريكا الجنوبية
- ١٥٥٢ معاهدة باساو . نهاية موجة لالائيا
- ١٥٥٦ تنازل شارل الخامس عن العرش . أكبر يصح للفرانزيس الأول (إلى ١٦٠٥) . مات إغناطيوس ليرلا
- ١٥٥٨ وفاة شارل الخامس
- ١٥٦١ مولد فرنسيس باكون (لورد فيريولام)
- ١٥٦٣ نهاية مجلس ترنت وإصلاح الكنيسة الكاثوليكية
- ١٥٦٤ مولد شكسبير
- ١٥٦٦ مات سليمان القانوني
- ١٥٦٧ ثورة الأراضي المنخفضة

- ١٥٦٨ إعدام الكونتيسة إيجونت وهورد
 ١٥٧٣ حصار الكبار
 ١٥٨٣ حلة السير والتر رالي على فرجينيا
 ١٦٠٣ جيمس الأول ملكا ل إنجلترا واسكتلندا
 ١٦٠٥ المنولي الأعظم جيان جير
 ١٦٠٦ تأسيس شركة لرجينيا
 ١٦٠٩ استقلال هولندا
 ١٦١٨ اجتلاء حرب الثلاثين سنة
 ١٦٢٠ حلة للماي فلادور تومس نيويلموث . أول أوكلاه زنجون بنزلون جيمس تون
 (فرجينيا)
 ١٦٢٥ شارل الأول ملك إنجلترا
 ١٦٢٦ توفى السير فرنسيس باكون (لورد فيريولام)
 ١٦٢٨ شاه جيان يصبح للمنولي الأعظم . « الخامس الحقوق » الانجليزى
 ١٦٢٩ شارل الأول ملك إنجلترا يملأ حكمه أحد عشر عاما بلا برلمان
 ١٦٣٢ لى يون هولاك يولد . مصرع جومستال أدولف فى معركة لوتزن
 ١٦٣٤ مقتل والتشبين
 ١٦٣٨ إقتال اليابان فى وجه الأوروبيين (حتى ١٨٦٥)
 ١٦٤٠ حقد شارل الأول ملك إنجلترا لبرلمان الطويل
 ١٦٤١ ملبة الانجليز يارلندا
 ١٦٤٣ يملأ لونس لرايع عشر حكا عام التين وسبعين سنة
 ١٦٤٤ أنهى المانشو أسرة منج
 ١٦٤٥ حدم حطارز الخنازير بالمدينة للفاطية من لينج
 ١٦٤٨ معاهدة وستفاليا . وبها اعترف هولندا وموسرة جمهوريتين حرتين وأصبحت
 بروسيا دولة عامة . ولم تصح المعاهدة نصراً جانباً كتاج الإمبراطورى ولا للأمرء

حروب القرون ١ وانتهت بنصر التاج الفرنسي نصرًا كاملاً

١٦٤٩ إعدام شارل الأول ملك إنجلترا

١٦٥٨ أورانتزيب المغولي الأعظم - مات كروم ديل

١٦٦٠ شارل الثاني ملك إنجلترا

١٦٧٤ أصبحت نيو أمستردام بريطانية نهائياً بمعاهدة ، وسميت نيويورك

١٦٨٣ آخر هجوم تركي على فيينا هزمه حنا الثالث ملك بولندا

١٦٨٨ الثورة البريطانية - فرلو جيمس الثاني . بدأ ولم يمارى حكمها

١٦٨٩ بطرس الأكبر قيصر روسيا (حتى ١٧٢٥)

١٦٩٠ معركة بوين (Boyn) بولندا

١٧٠١ فردريك الأول ملك لروسيا

١٧٠٧ وفاة أورانتزيب . إمبراطورية المغولي الأعظم تنضت

١٧١٣ مولد فردريك الأكبر ملك بروسيا

١٧٣٣ أسس أوجلي نورب ولاية جورجيا

١٧٣٦ أظهر نادر شاه على الهند . (بداية حشرين عاماً من الفوضى والفترات بالهند)

١٧٤٠ ارتقاء فردريك الأعظم حرش بروسيا

١٧٤٠ بدأت ماريا تيريزا حكمها . (ولاتها امرأة لم تصبح إمبراطورة . وأصبح

زوجها فرانصوا الأول إمبراطوراً بعد ١٧٤٥ حتى وفاته في ١٧٦٥ عندما

عطفه ابنها جوزيف الثاني)

١٧٤١ بدأت قصيرة روسيا إليزابيث حكمها

١٧٥٥ - ١٧٦٣ بريطانيا وفرنسا يتقاتلان على أمريكا والهند . وفرنسا تحالف مع

النمسا والروسيا ضد بروسيا وبريطانيا (١٧٥٦ - ١٧٦٣) ، حرب السبع

سنوات .

١٧٥٧ معركة بلامى

١٧٥٩ استولى الجنرال ولف البريطاني على كويك

- ١٧٦٠ جورج الثالث ملك بريطانيا
 ١٧٦٢ وفاة الإمبراطورة إليزابيث الروسية . مقتل القيصر بول ، وتولى كاترين
 العظمى عرش روسيا (إلى ١٧٩٦)
 ١٧٦٣ صلح باريس ، والتنازل عن كندا لبريطانيا . بريطانيا تسود الهند
 ١٧٦٤ معركة بوكسار
 ١٧٦٥ مولد مالتوس
 ١٧٦٩ مولد نابليون بونابرت
 ١٧٧٤ ينال لويس الرابع عشر حكمه . انتصار كليف . بدء الحركة الثورية الأمريكية
 ١٧٧٥ معركة لكسington . مولد ترنر
 ١٧٧٦ إعلان الاستقلال بالولايات المتحدة الأمريكية
 ١٧٨٠ تولى حكم ماريا تريزا . علقها الإمبراطور جوزيف (١٧٦٥ إلى ١٧٩٠) في
 مظلمة آل هابسبورج المودعة
 ١٧٨٣ معاهدة الصلح بين بريطانيا وبين الولايات المتحدة الأمريكية الجديدة .
 إطلاق سراح كواكو بلماسيوسيس
 ١٧٨٧ مؤتمر فيلادلفيا للمعصوري بقم حكومة الولايات المتحدة الاتحادية . تبين أن
 فرنسا مفلسة - جمعية الأحياء
 ١٧٨٨ الكونفرانس الاتحادى الأول للولايات المتحدة بنيويورك
 ١٧٨٩ مجلس المثلثات العام الفرنسي يجمع . علم الاستقلال
 ١٧٩١ ثورة اليانعة . القرار إلى قانون
 ١٧٩٢ أعلنت فرنسا الحرب على انفسا ، أعلنت بروسيا الحرب على فرنسا . أصبحت
 فرنسا جمهورية
 ١٧٩٣ إعلان لويس السادس عشر
 ١٧٩٤ إعلان روسبير ونهاية جمهورية اليانعة - حكم للوجمر
 ١٧٩٥ حكومة الإنقاذ . أخذ بونابرت ثورة وذهب إلى إيطاليا كالنار حامية

- ١٧٩٧ دمر بونابرت جمهورية البنتيقية بمعامدة كامبوفورسيو
- ١٧٩٨ ذهب بونابرت إلى مصر - معركة النيل
- ١٧٩٩ حوذة بونابرت - أصبح القنصل الأول مع سلطات عائلة
- ١٨٠٠ الاتحاد الفرنسي بين إنجلترا ولولنتة ينفذ في أول يناير ١٨٠١
- حالة نابليون على النمسا - معارك ماريجو (في إيطاليا) وهو هائلته (وهو انتصار حورو)
- ١٨٠١ سرحدات الصلح بين فرنسا وإنجلترا وانمسا توقع
- ١٨٠٣ بونابرت يجلت سويسرا ، ويلنا يجلت بالحرب
- ١٨٠٤ أصبح بونابرت إمبراطوراً . اتخذ فرانسوا الثاني لقب إمبراطور النمسا في
- ١٨٠٥ وفي ١٨٠٦ أسقط لقب إمبراطور الدولة الرومانية للقمعة وبذلك انتهت الدولة الرومانية للقمعة
- ١٨٠٥ معركة الطرف الآخر - معركة أولم وأوسرليتز
- ١٨٠٦ هزيمة بروسيا في يينا
- ١٨٠٧ معركة وابلو ، وفريبلند ، ومعامدة لانت
- ١٨٠٨ جعل نابليون لنته جوزيف ملكا على النمسا
- ١٨١٠ أصبحت أمريكا الإسبانية جمهورية
- ١٨١١ انسحب الإسكندر من النظام القاري ،
- ١٨١٢ قهر نابليون من موسكو
- ١٨١٤ تنازل نابليون عن العرش - لويس الثامن عشر
- ١٨١٥ حالة واترلو : صاعدة لينا
- ١٨١٩ أول قانون المصانع بقره البرلمان بناء على جهود روبرت أوين
- ١٨٢١ ثورة اليونان
- ١٨٢٤ شارل العاشر ملك فرنسا
- ١٨٢٥ نيقولا الأول قيصر روسيا - أول سكة حديد من موسكو إلى دولنيي

١٨٢٧ معركة نوارين

١٨٢٩ استقلال اليونان

١٨٣٠ سنة من القوضى والقتل . حرد لومس غيليب شارل العاشر

انفصلت بلجيكا عن هولندا . أصبح ليوبولد أمير ساكس كوبرج جوتا ملكاً

على تلك الدولة الخليفة ، وهي بلجيكا . ثارت بولندا الروسية بغیر جنوى

١٨٣٢ قانون الإصلاح الأول بريطانيا يرجع إلى البرلمان البريطاني السنة الديمقراطية

١٨٣٥ استعمال كلمة « الاشتراكية » لأول مرة

١٨٣٧ الملكية فيكوريا

١٨٤٠ تزوجت الملكة فيكوريا الأمير ساكس كوبرج جوتا

١٨٤٨ سنة أخرى من القتل . جمهوريات فرنسا وروما . مؤتمر الجامعة الصقلية يشهد

في براغ . ألمانيا كلها متحد في برلمان بقراتكفورت . ملك بروسيا يدمر

وحدة ألمانيا .

١٨٥١ معرض لندن العظيم

١٨٥٢ نابليون الثالث إمبراطوراً لفرنسين

١٨٥٤ حلة برى (Perry) (الثانية) تذل باليابان . استل نيكولا الأول ولايات

الخامس التركية

١٨٥٤ - ١٨٥٦ حرب القرم

١٨٥٦ إسكتلو الثاني فيجر الروميا

١٨٥٧ العصيان الخنلى

١٨٥٩ للحرب الفرنسية النموية . معركة مانجنتا وسولفرينو

١٨٦١ ليكتور ماثويل أول ملك لإيطاليا . أصبح أبراهام لينكون رئيساً للولايات

المتحدة . اجتمعت الحرب الأهلية الأمريكية

١٨٦٣ أطلق البريطانيون قنابلهم على مدينة يابانية

١٨٦٤ أصبح ماكسليان إمبراطوراً للمكسيك

- ١٨٦٥ التسليم في أويوماتوكس كورت مرمي فتح أبواب اليابان للعالم الخارجي
- ١٨٦٦ بروسيا وإيطاليا تهاجمان النمسا (والولايات الألمانية الجنوبية المتحالفة معها) معركة سادوا
- ١٨٦٧ مقتل الإمبراطور مكسيمليان بالرماس
- ١٨٧٠ نابليون الثالث يعلن الحرب على بروسيا
- ١٨٧١ سلمت باريس (يناير) - أصبح ملك بروسيا هو غليوم الأول إمبراطور ألمانيا ، صليح فرانكفورت
- ١٨٧٥ القضاة في إيطاليا
- ١٨٧٧ الحرب التركية الروسية - معاهدة سان ستيفانو . أصبحت الملكة شكوردا إمبراطورة على الهند
- ١٨٧٨ معاهدة برلين - سلام مسلح بأوروبا دام ٣٦ سنة
- ١٨٨١ معركة تل ماجويا . تحرير الترنسفال
- ١٨٨٢ وفاة شارلز دالون
- ١٨٨٣ احتلت بريطانيا مصر . (وغمة التلويغ ١٨٨٢) . مات كارل ماركس
- ١٨٨٦ أول قانون للحكم الذاتي الإسرائيلي يصدره جلاستون
- ١٨٨٨ الإمبراطور غردريك الثالث (مارس) ثم غليوم الثاني (يونيه) بتوليا الحكم بألمانيا
- ١٨٩٠ عزل بيسارك . الهورد سالسبورى ينزل لألمانيا من جزيرة هليجرلاند
- ١٨٩٤ - ١٨٩٥ حرب اليابان مع الصين
- ١٨٩٥ الحكومة الاتحادية (الاصهارية) بريطانيا
- ١٨٩٦ معركة حلو
- ١٨٩٨ الخلاف بين فرنسا وبريطانيا على فاشوده . ألمانيا تسرد على كياوتشاو
- ١٨٩٩ ابتدأت الحرب بجنوب إفريقية (حرب البوير)
- ١٩٠٠ قن البوكسر بالصين . محاصرة السفارات في بكين

- ١٩٠٤ غزا البريطانيون التبت
- ١٩٠٤ - ١٩٠٥ الحرب الروسية اليابانية
- ١٩٠٦ الأحرار بنظرون حزب الاتحاديين (الاصماليين) في مسألة التصريفة الجمهورية .
- ١٩٠٧ تأسيس اتحاد جنوب إفريقيا
- ١٩٠٨ نهضت انجما البوسنة والهرسك
- ١٩٠٩ طار المسيو بليريو بطائرة من فرنسا إلى إنجلترا
- ١٩١١ أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا واستولت على طرابلس
- ١٩١٢ أصبحت الصين جمهورية . أعلن حلف البلقان الحرب على تركيا
- ١٩١٣ تهريب الاتحاديين السلاح يترى عليه سفك الدماء بلفندلوى في لوندنة
- ١٩١٤ ابتدأت الحرب العظمى الأوروبية
- ١٩١٧ الثورتان الروسيتان . تأسيس لنظام البلشفي بالروسيا
- ١٩١٨ المخلدة (توفير)
- ١٩١٩ - ١٩٢٠ معاهدة فرسلي
- ١٩١٩ انسحب البريطانيون من أركانجيل . هزيمة دينكين . أوغك يودينتش أن يستولى على بطرسبرج ثم انهار . الأسطول الألماني يخرج ليسلم للبريطاني ولكن يفرقه قواده وضباطه عند هيكاباقلو
- ١٩٢٠ أول اجتماع لمصبة الأمم ، التي حظرت على ألمانيا والنمسا والروسيا وتركيا ، والتي لم تمثل فيها الولايات المتحدة . قتل كولتشاك ربيعاً بالرماس . بولندة تهجم الروسيا ، ويفررها رائجل من الجترب فيضع إلى الوراء . رضا باشا يقبض على السلطة في فارس
- ١٩٢١ الحلفاء يسيطرون على القسطنطينية . مؤتمر لبحث نزع السلاح البحري يعقد بواشنطن برئاسة الرئيس هاردينج
- ١٩٢٢ جماعة عظيمة بالروسيا . مؤتمر جنوا الذي حصره الألمان والروس . ازدياد الخطر في المالية الألمانية وعدم مقدرتها على دفع حقوقات الحرب الباهظة .

الاتحاد اليوناني العسكري باسميا الصغرى . انفصال لارنسة الخفية عن بريطانيا
المنظمى

١٩٢٣ احتلال الفرنسيين لحوض الروهر والاتحاد القدي بلانكا . إنشاء الرنت مارك

١٩٢٣ بريطانيا المنظمى تسترد لعمليتها معيار ما قبل الحرب .

١٩٢٤ أول حكومة للعالم ببريطانيا . وعطفتها حكومة محافظة في نوفمبر بعد انتخابات

عامة ، توفي لينين ، مقتل ماتيوث ، (وهو كاتب إيطالي حر) بيد الفاشست .

مشروع دالوز لتخفيض ديون الحرب الألمانية

١٩٢٥ الفرنسيون يهاجمون عبد الكريم براكش والندروز في سوريا . إنشاء الربيع مارك

بلانكا . معاهدة لوكارتو . طلع شاه إيران على يد علي رضا خان . رضا خان

يصبح شاه

١٩٢٦ الإضراب العام ينجح في إنجلترا عن إغلاق أصحاب العمل مناجم الفحم . الفرنسيون

الفرنسي يزل دون البنس الانجليزية ولكن هبوطه يوقف ، وتعاد قيمة إلى

بنسب بمحكمة التلافية ، ألقت لمواجهة الأزمة . حزيمة عبد الكريم

١٩٢٧ هاجمت الحكومة البريطانية إدارة الأعمال التابعة للحكومة الروسية بلندن

وقطعت علاقاتها الدبلوماسية مع روسيا . فشل مؤتمر لنزع السلاح ببجنيف

١٩٢٨ المؤتمر كيلوج وزير خارجية الرئيس كوليدج يتكرر مجموعة من المعاهدات بها

تحتل جميع الدول المنظمى في العالم عن الحرب . نشاط لاهتر في صناعة

الأسلحة . إتمام تحويل الجيوش إلى وحدات ميكانيكية والاستعاضة في دراسة

حرب الغازات والبكتيريا . بدأ مشروع الخمس سنوات في روسيا

١٩٢٩ وزارة العالم الثانية بالإنجليزية بعد انتخابات عامة . إعادة العلاقات بين إنجلترا

والروسيا . وفاة شترودمان . أصبح هوغر رئيساً للولايات المتحدة . كانت

ظاهرة هبوط الأسعار وتواصل عطالة العالم زادت زيادة واضحة في كل

مكان . مشروع يونغ لتخفيض ديون .

١٩٣٠ عقد بلندن مؤتمر لزوع السلاح البحرى وكانت نتائجه تافهة . ظهر فى الرضخاغ
اللائى حزب قاشى جليد قوى بزعامة عسوى اسمه هتزر . إنشاء بنك
التويات الدولى

١٩٣١ أصبحت أسبانيا جمهورية (أبريل) . اشتدت حدة عنة ألمانيا الاقتصادية ،
واقترح الرئيس هوفر أن يعطل دفع ديون الحرب سنة . جماعت الأزمة المالية
فى أعقاب ذلك إلى بريطانيا . وحلت محل حكومة ليمال ، بحكومة طوارىء
قومية ، تهتدت بدم ميار الذهب . ثم تخلصت من تلك الفكرة بعد ثلاثة
وعشرين يوماً قضتها فى أوضاع اقتصادية هسيرة . واحتفظ المستر
راساى ماكدونلد رئيس حزب العمال السابق بمنصب رئاسة الوزارة بمهارة
تامة طيلة تلك التقلبات السياسية

١٩٣١ رفضت عصبة الأمم أن تأذن بقيام اتحاد حركى بين ألمانيا وفرنسا

١٩٣٢ أنشأت اليابان دولة منشوكو

١٩٣٢ تنظيم الميخ الالية كصمير بالولايات المتحدة لاهوائس القود البنوك وشركات
السكك الحديدية والطين . إلتخب فرنكلين د . روزفلت (المولود ١٨٨٧)
رئيساً لولايات المتحدة من الديموقراطيين . إعادة انتخاب هنلبرج رئيساً
لدولة ألمانيا (١٩ مليون صوت) ، هتزر ١٨ مليون ، نابلمان (شيوعى)
٣٣ مليون صوت . الزيادة المستمرة بحزب النازى فى ألمانيا . مؤتمر نزع
السلاح بهينيف . ألمانيا تترك المؤتمر

١٩٣٣ اقتراح مشروع الضيقة الجديدة . الرئيس روزفلت يقوم باصلاحات اجتماعية
واقتصادية ببيئة الأثر . أصبح هتزر مستشاراً قرايخ وصارت ألمانيا دولة
نازية . المؤتمر الاقتصادى العالمى بلندن فشل . بدء مشروع الخمس سنوات
الثانى بالروسيا . عصبة الأمم تستكر غزو اليابان لچيول وإنشاء دولة منشوكو
الأكوية . حريق الرضخاغ ببرلين والاقطاب النازى

١٩٣٤ ثبتت قيمة الدولار على ٥٩ ، ٦٠ في المئة من قيمته عام ١٩٠٠ . إعلان حظر وموسوليني لاحتلال النمسا عند تقاطعها بالبنكية . حظر بطور بلاده من خصومه السياسيين . النازيون يقطعون حلقوس . وفاة الرئيس فون هينبرج . أدولف هتلر أزعج والمستشار . الاتفاقى الوثى البلقانى ، عقد بين تركيا واليونان وبلغاريا ويوجوسلافيا للاحتفاظ بالحالة الراعية بالبلقان . دخلت روسيا عصبة الأمم .

١٩٣٥ المحكمة العليا بالولايات المتحدة تقرر عدم دستورية مشروع التعديل الجديد NIRA . إنشاء لجنة لتنظيم المصانع (CIO) . حصول ألمانيا على منطقة السار باستثناء . إيطاليا تهاجم الحبشة وتفتتها .

١٩٣٦ إعادة انتخاب الرئيس وروزفلت . الحملة الشعبية لتخفيف في فرنسا ، ليون بلوم رئيسا للوزارة . حظر بيع تسليح منطقة الراين . الحرب الأهلية في أسبانيا ، لغزو الجنرال بقيادة فرانكو بمساعدة ألمانيا ، وإيطاليا وحزب المحافظين البريطانى بدرجة من البلاية أقل .

١٩٣٧ فشل الرئيس وروزفلت في محاولته إعادة تنظيم المحكمة العليا . حرب بلا إعلان بين اليابان والصين . تحالف ألمانيا وإيطاليا واليابان على الشيوعية ، الحلف المضاد للكونغرس . جيش الجنرال فرانكو ونجحته في شمال أسبانيا . الجيوش الإيطالية تهزم هزيمة قاسية في جواد الاجارا على يد الجند الموالين . تخرج الملك جورج السادس ملك إنجلترا .

١٩٣٨ ألمانيا تضم النمسا . مؤتمر ميونخ (تشمبرلين - دلايد - هتلر - موسوليني) يعطى ألمانيا جزءاً من أراضي تشيكوسلوفاكيا ويمنح تمحيصاتها .

١٩٣٩ ضمت ألمانيا تشيكوسلوفاكيا . ضمت إيطاليا ألبانيا . فرانكو يدخل مدريد ویرشلوة - السوفيت يوقعون هدنة مع النازيين . غزت ألمانيا بولندا . بريطانيا وفرنسا تعلن الحرب . إنبهار بولندا . ألمانيا والروسيا تقتسمان

أراضيها . الروميا تمد سلطانها على أمتونيا ولاشيا ولترانيا وتغزو فنلندا
 نهاية الحرب الصليبية . ألمانيا تستولى على الدانمركة والنرويج . طرد تشمبرلان
 ونستون تشرشل يرأس الحكومة القومية الجديدة . الألمان يحطون ببوليكا
 وهولندا . دنكرك . سقوط فرنسا ، إيطاليا تعلن الحرب ، حكومة بيتان .
 معركة بريطانيا . قصف لندن بالقنابل . تشتت لجنل الإيطاليين في برقة
 إيطاليا تهاجم اليونان -- وتنهزم

١٩٤١ حرب بريطانيا الجوية . البريطانيون يفتحون الحبشة . ألمانيا تفتح يوجوسلافيا
 واليونان . وترد البريطانيين في برقة . البريطانيون يهزمون قوات المحور في
 العراق وسوريا . هتلر يتزو روسيا . خسائر روسيا الفادحة . اليابان تفرق
 أسطول الولايات المتحدة بالباسيفيكي وترج بأمريكا في الحرب . تنهقر
 الألمان في برقة .

١٩٤٢ اليابان تفتح الفلبين والملايو وسنغافورة والهند الشرقية الهولندية والبريطانية .
 الحرب الجوية على ألمانيا ؛ حرب القواصات في الأطلسي . اليابان تنزو
 بورما . الوطنيون المتزود يرفضون عرض ستافورد كريس . طرد البريطانيين
 من برقة . الألمان يضلون إلى القوقاز ، ولكنهم يفشلون في الاستيلاء على
 موسكو لوستالينجراد . فشل اليابان في فتح جزيرة نيوزبي . معركة
 القلمين . بلد تحطم الألمان في ليبيا . الحلفاء يتزولون بشمال إفريقيا .

١٩٤٣ ضد الألمان وتراجعهم في روسيا . الحلفاء يفتحون شمال إفريقيا ؛ ويتزولون
 صقلية ويدخلون إيطاليا . سقوط موسوليني . حرب جوية حامية على أوروبا .
 مؤتمر القدر البيضاء .

١٩٤٤ الحلفاء يستولون على روما . غزو نورماندي . طرد الألمان من روسيا .
 تحرير فرنسا وبلجيكا . الروس يدخلون رومانيا والمجر .

١٩٤٥ الأمريكيون يفتحون الفلبين : البريطانيون يستردون بورما . وفاة هتلر ،
 تسليم ألمانيا . قبلتان دويتان تسقطان على اليابان . تسليم اليابان .

- ١٩٤٥ إنشاء الأمم المتحدة . إلغاء جامعة الدول العربية .
 ميثاق حقوق الإنسان
 ١٩٤٨ اليهود يحطون فلسطين وينشئون إسرائيل
 ١٩٥٢ حريق القاهرة
 ١٩٥٢ ثورة ٢٣ يوليو المصرية
 ١٩٥٤ مرسوم الملكية وإعلان الجمهورية
 يروز الرئيس جمال عبد الناصر على مسرح الساحة العامة
 ١٩٥٥ مؤتمر بانفونج (١٨ أبريل)
 ١٩٥٦ استقلال مصر والجمهورية .
 سحب تمويل الد. العالي وتأميم قناة السويس
 الثورة الجزائرية
 انحاب المرشحين الأجانب من العمل بقناة السويس
 مؤتمر بيروت الأول
 جهات للتضامن .
 العدوان الثلاثي وحرب السويس .
 خروج المحتلين من بورسعيد (٢٣ ديسمبر)
 مؤتمر بيروت الثاني .
 ١٩٥٧ المؤتمر الأسبوعي الإفريقي بالقاهرة
 حلف الأطلسي
 ١٩٥٨ إنشاء الجمهورية العربية المتحدة (وحدة مصر وسوريا)
 ١٩٥٩ الممرات ثورة العراق عن ركب العربية
 ١٩٥٩ ثورة كويا على يد فيليب كاسترو (يناير)
 ١٩٥٩ تجارب الأقارب الصناعية الروسية . انتخابات
 البلد في إنشاء الد. العالي

مشروع السنوات الخمس الأولى في ج. ح. م.

السوق الأوروبية المشتركة

مؤتمر الأكطاب

الحرب الأهلية في لبنان ونزول القوات الأمريكية

١٩٦٦ القرارات الاشتراكية

انفصال سوريا

مؤتمر القادري لرياضة الملك ورؤساء العرب

مؤتمر بلجراد

مؤتمر القمة الإفريقية بأديس أبابا

إنشاء سور برلين

إطلاق سفينة فضاء تحمل رجلاً

١٩٦٧ الخلاف السوفياتي بين الصين وروسيا

مؤتمر الملوك الإفريقية

استقلال الجزائر

١٩٦٨ استقلال قبرص

مقتل كنسلي

١٩٦٩ زحف الزنوج على نيويورك

هزل محروثوف

سقوط حزب المحافظين ببريطانيا

١٩٦٩ مؤتمر القمة الأفريقية بالقاهرة

اجتماع الملوك والرؤساء العرب الأول

اجتماع الملوك والرؤساء الثاني

مؤتمر الملوك غير المنعزلة

انتهاء المرحلة الأولى في بناء المد الطل

١٩٨٥ - ١٩٩٤ استقلال دول إفريقيا وآسيا :

إندونيسيا - لوسينا - باكستان - بورنكي - تونس - تنجانيقا -
 زيمبابي (تنزانيا) - جامبيا - الجزائر - جابون - داهومي -
 السودان - سيراليون - سرفريل - ميلان - ساحل العاج - الصومال -
 غانا - غينيا - كينيا - ليبيا - نيجيريا - الهند الصينية - ملاوي -
 المغرب - مالي - ماليزيا - الهند - زامبيا - توغو - موريتانيا .

١٩٩٥ انتخاب أنطونيبيا من هيئ الأمم المتحدة

مؤتمر رؤساء حكومات الدول العربية

مجلس الأمة يرشح الرئيس جمال عبد الناصر لرئاسة الجمهورية

كشاف أجدى للكتاب

(٢)

الأسطول القديم ١٧٤٨ ١٧٢٧
الاسلام ١٥٧٢ ١٢٩٢ ١١٧٤
الاسكندر الأكبر ١٤٧٢ ١٢٤٩
الاسكندر الأول ١٢٩٩ ١٢٥٣ ١٢٤٠
الاسكندر الهوساني ١٥٣٩
الاشتراكية ١٢٧٣ ١٢٩٢ ١٤٩٩ ١١٧٠
١٥٣١
الاقتصاديون ١١٨٧ ١٢٢٧ ١٥٣٩
الشركية (مبادئها) ١٢٠١
اصحاب الاملاك ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧٨
الإصلاح الصيني ١٠٧٩ ١١٥١
الإصلاح الزراعي ١٤٤١
اعلان الحقوق الأمريكية ١١٦٥
الديابولوس ليو ١١٢١
العلمون ١٢٠٠
الأكاديمية الفرنسية ١٠٩٩ ١٢٨٩
الأكاديمية الملكية البريطانية ١٢٧٨
إلي ١٢٥٩
ألفا ١٠٣٥
ألفونسو ١٥٣٧
الكلمة ١٠٧٢ ١٠٧١
الزيت ١١٠٢
الامبراطورية الألمانية ١٤٠٣
الامبراطورية البريطانية ١٢٨١ ١٢٧٧
الامبراطورية البريكية ١٢٥٩
الامبراطورية الروسية ١٠٦٢ ١١١٥ ١١٢٨
١٢٧٠
الامبراطورية الرومانية المقدسة ١٠٦٧
الامبراطورية للشوق العظيم ١٢٥٢ ١٢٥٥
١٢٧١
الامبراطورية المصرية ١٥٧٦
الامبريالية ١٢٢٢ (الفرع البحري)

الامم ١٢٦٧ ١٥٢٢ ١٥٢٢ ١٥٤٠
إيسن ١٢٩٤
أي غير (مركبة)
أي ما تركس كورس طوس (مركبة) ١٢٤٥
الاتحاد الأوروبي ١٢٧٠
الاتحاد السوفيتي ١٥٢٥ ١٥٤١
اتحاد طلي ١١١٠ ١١٢٢ ١٥٩٧
اتحاد شمال ١١٧٥ ١٢٣٢ ١٢٤٥
اتحاد كشمير ١١٧٥ ١٢٣٢ ١٢٤٥
الكنتون (ج. د.) ١٢٦٤
أحرقت ١٠٧١ ١٠٧٢
الاحزاب (حزب) ١١٦٢ ١٥١٢ ١٤١٩
المعتون ١٢٨٠
الادب ١٢٨٥ - ١٢٩٧
الادب السلي ١١١٥
الادب الإنجليزي ١٢٨٦
الادب الفرنسي ١٠٩٩ ١٢٨٧
إدجار آلان پو ١٢٩٥
أدركه (معهده) ١٢٦٧
أديجتون ١٢١٦
أوارد الأول ١٠٧٢
أوارد السابع ١٠٧٨ ١٠٨٩
أوارد السادس ١٠٧٥ ١٠٧٨
أوراني المنخفضة ١٢٦٢ ١٢٦٥
أوسلو ١٢١٢
أورفوت ١٢٥٢
أولتة - الأرلندون ١٠٨١ ١٠٩٠
الاستراتيجية ١٥٤٠
الاستبار ١١٢٢ ١١٢٦ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠
الاسطول الإنجليزي ١٠٨٥ ١١٥٩
الاسطول الألماني ١١٩٠

تورونتو ۱۹۰۷	الورجوانية ۱۹۲۱
۱۹۳۱	یونا ۱۹۱۷ + ۱۹۲۲ + ۱۹۷۲
تلفون وید ۱۹۸۸	یورپون ۱۹۲۹ + ۱۹۵۸ + ۱۹۷۹
تشرقی ۱۹۵۵ + ۱۹۵۱ + ۱۹۷۰ + ۱۹۷۲	یورومین ۱۹۲۰
تشیچان ۱۹۵۱ + ۱۹۶۲	پوزن ۱۹۲۹ + ۱۹۹۰
تشیلیچ کلن شوله ۱۹۷۱ + ۱۹۷۲ + ۱۹۷۹	یوزویل ۱۹۰۱
تشیکوسلواکیا ۱۹۳۱	یولون ۱۹۱۲
تشیکوف ۱۹۹۰	یوسکروپلا ۱۹۲۸ (حرکت)
تشیو ۱۹۰۷ + ۱۹۷۷	یول وایر ۱۹۶۵
تشلون ۱۹۲۷	یولس ۱۹۱۰
تشریفة البسریة ۱۹۳۶ + ۱۹۲۷	یولت ۱۹۱۶ + ۱۹۰۳ + ۱۹۰۵ + ۱۹۰۹
تصلب الصنایع والصلوات ۱۹۱۳	یولویا ۱۹۲۷
تصیر ۱۹۶۶	یولویا ۱۹۵۶
تلت ۱۹۵۱	یولر لاند دوس ۱۹۷۳
تطورات الکیمیاء ۱۹۷۳	یولر ۱۹۰۷
تلی ۱۹۹۲	یولر ۱۹۸۹
تلمبه ۱۹۲۶	یولر ۱۹۰۵
تلمیذ الیاب ۱۹۰۵	یولر ۱۹۹۰
تورجین ۱۹۹۰	یولر ۱۹۸۸ + ۱۹۰۷
تیسون ۱۹۲۵ + ۱۹۸۷	یولر ۱۹۲۲
توسج الإسماعیة ۱۹۷۳	یولر ۱۹۸۸
تولستوی ۱۹۹۰	یولر ۱۹۸۶
تولس مو ۱۹۸۲	یولر السبع (البا) ۱۹۸۲
تولکین ۱۹۷۱	(ت)
تولوی ۱۹۹۹	تالت ۱۹۷۲
توجرد لک ۱۹۱۱	تالیق ۱۹۸۶
تویر ۱۹۲۸	تالیق ۱۹۷۲ + ۱۹۰۵
تویو تشکو ۱۹۸۰	تالیق ۱۹۸۵
	تالوت ۱۹۵۲
(ت)	تار ۱۹۲۱
تاکاری ۱۹۸۸ + ۱۹۹۲	تایار الرقیق ۱۹۷۹ + ۱۹۸۱
تالور الاغتراکية ۱۹۰۷	تانیل ۱۹۶۶
تالور الاغتراکية ۱۹۸۵	تالیوت ۱۹۹۹
تالور الصناعیة ۱۹۸۵	تالک ۱۹۲۱ + ۱۹۹۲
تالور الصناعیة والمکانیکیة (تالور الاغتراکية)	تالک ۱۹۳۱
۱۹۲۲ + ۱۹۸۹ + ۱۹۸۵ + ۱۹۹۹	تالور (السور) ۱۹۷۸
تالور القریة ۱۹۰۵ + ۱۹۸۵ + ۱۹۸۹	
۱۹۲۱	

الغرة المستديرة ١٥٤٥

الغرة الملية ١٧٩٢

(ج)

جاسكون (مليون) ١٥٢٥

جاليو ١٢٥٩

جاسة بلدي ١١٤٢

جاسة لادن ١٢٢٥

جان جاك روسو ١١٥٠

جانكيز ١١٣١ و ١١٥٩

جنگ (مركة) ١٤٥١

جرايولوت (مركة) ١٢٢٥

جركت ١٢١٥ و ١٢١٧

الجركا ١٣٥٥

جستيان ١٢٦٩

جفرون خانيز ١١٨٠ و ١٢٤١ و ١٢٤٦ و ١٥١٤

جلال عبد القادر ١١٢٥

الجاسيون ١١٨٢

الجسية القلورية ١٢٧٩

الجسية للآلية القلورية ١٢٧٩

الجسية القلورية ١٢٥٠ و ١٢٥٢ و ١٢٥٤

الجمهورية الانجليزية ١٢٧٥

الجمهورية البريطانية المتحدة ١١٢٥

الجمهورية البولندية المتحدة ١١٦٦ و ١٢٥٢

الجمهورية الرومانية ١١٦٤

الجمهورية الفرنسية ١٢٠٢

الجمهورية المولدية ١٠٤٥

الجمهورية المتحدة ١٢٥٠

جوتاما (الفر بونا)

جوجوك ١٢٩٠

جودون الوندون ١٧٠١

جودج الاول ١٠٨٧ و ١٠٨٨

جودج الثاني والثالث والرابع ١٠٨٨ و ١١٦٢ و ١٢٢١

جودج الخامس ١٥١٤ و ١٤٢٧

جودج والشمعون ١٢٧٦ و ١١٧٨

جوزيف لاملون ١٢٦٧

جوزفين ١٢٢٥

جوستاف ابروف ١٠٩٢ و ١١٢٢

جوستافوس فلور ١٠٩٠

جوج (مركة) ١٤٦٥

جوتة القلورية ١٢٤٢

جوتة ميت ١٤٤٥ و ١١٥٥

جون الثالث ١١١٨

جون لوك ١١٦٧ و ١١٨٩

جوتة عس ١١٢١

جونر ١٢٢٤

جوتا ١٢٨٧

جوتون ١١٠٢ و ١١٣١ و ١١٣٥ و ١١٣٦

١١٢٧ و ١١٥٥ و ١١٨٦ و ١٢١٥

جيس الاول (استيوارت) ١٠٦٥ و ١٠٧٨

١٠٨٧ و ١٠٩٥ و ١١٥٤

جيس براندس كابل ١٢٩٦

جيس كرايج ١٥١٤

جيس ملك اسكتلندا ١٠٧٥

جين لوسن ١٢٨٧ و ١٢٩٢

جولتي ١٤٧٠

(ح)

الحرب - الحروب ١٠٩٥

حرب الاستقلال الأمريكية ١١٦٦ و ١١٨٥

١٢٤٢

الحرب الأهلية الأمريكية ١٢٢٧ و ١٢٢٧

حرب الجور ١٢١٨

حرب التحرير الألمانية ١٢٥٦

حرب الثلاثين سنة ١٠٩٠ و ١٠٩١ و ١٠٩٢

١١٦٧

حرب فليفلت ١٢٨٨

الملف للقدس ١٢٦١/١٢٦٠
الحملة الصليبية الأولى ١٠٧١
الحملة الصليبية الثانية والثالثة والرابعة ١٠٧١
حنا منبكي ١١١٨
الحملات ١٠٤٨

(خ)

خريطة العالم السياسية للصليبية ١٢٦٦
الخسر والفرق ١١١٨
خط ملهون وميكسون ١٢٤١

(د)

دلو ١٢٥١
دارتموث ١١٨٠
داليد (المصدر) ١٢٧٨
داليان ديلو ١٢٤٧/١١٤٥/١١٨٠
١٢٨١
دافوز ١٠٢٦/١١٦٥
داليمية (المصالح) ١١٠١
دراجونا ١٠٩٨
دراغا ١٢٩٤/١٢٩٣
درايزر ١٢٩٢
درومفل ١٤٥٧
دروبيجا ١٠٨٤
دستور الولايات المتحدة ١١٧٦/١١٦٩
دستورفكي ١٢٩٠
دكتورية ١٥٣٨
دليار (مركبة) ١٠٨٤
دنكوك ١٠٨٦ + ١٠٧١
دوجلاس (المتنور) ١٢٤٣
دوق ملوى ١٠٨٥
الدولار ١٥٣٣/١٥٣٢
دولة الأردنية الحرة ١٥٣٨
دولة تحررية مشتركة ١٤٨٨

الحرب الصليبية الأولى ١٠٩٢ ١٢٢٤ ١١٥٦
الحرب الصليبية الثانية ١٠٩٨
الحرب الصليبية التركية ١٣٤٨
حرب القوزاق الأسبانية ١١٠٤
الحرب اليابانية الروسية ١٢٧٢
الحرب اليابانية الصينية ١٢٧١
الحروب الإيطالية ١٢٦٨
الحروب البرية ١٤٦٤

(ح)

الحروب الصليبية ١٠٧١
حروب القلايين ١١٤٣
حروب القلايين ١٢٤٨ + ١٢٥٧ + ١٢٥٩
الحرس الملائكة ١٠٨٢
الحرس الملائكة ١١٩٩
الحرس الوطني ١١٩٩
حريق لندن ١١٤٩
الحرية القديمة ١٢٠٧
حروب الأحرار ١٢٦٣ + ١٢١٦
حرب الصليبية ١٤٥٣
الحروب اليهودية ١٢٧٢/١٢٣٨
الحروب اليهودية ١١٧٩
الحروب اليهودية ١٤٤٩/١٤٤٥
حرب القلايين ١٤٥٨
حروب القلايين ١٢٠٧ + ١٢٧٩ + ١٢٩٤
حروب القلايين ١١٦٢
حكم الإمبراطور ١٢٦٢
الحكم المكتوب ١٥٢٩
الحكم المكتوب ١٥١٤/١٥١٣/١٢٧٣
الحكم المكتوب ١٠٨٨
الحكومة الاتحادية ١٥٣٣
حكومة الإدارة ١٢٢٢/١٢١٩
الحكومة المالية ١٢٥٧/١١١٠
الملف الأول ١٢٣٠

الرقق ١١٥٨ + ١١٧٩ + ١١٨٠ + ١١٨٥ + ١١٨٥
١٣٤٥

الرواية (نظر فقة)

الرواية القصيرة ١٣٨٧

روبرت لويس استيفسون ١٣٩٢

رويسبر ١٣٠٥ + ١٣١٥ + ١٣٢٤

رويسر ياكوب ١٣٣١

روسو ١١٨٧ + ١١٨٨ + ١٢٠٢ + ١٢٠٥ + ١٢٠٥

١٣٢٤ + ١٣٢٥ + ١٣٢٥

روفلز (المصدر) ١١٠٩

روفلز ١٥٣١

روفلز (المصدر) ١٣٧٩

روفلز وروفلز ١٣٧٩

روفلز وروفلز ١٣٤٦ + ١٣٤٦

روفلز (جيف بوك) ١٣٨٨

روفلز (جيف بوك) ١٣٧٣

روفلز (فرانكلين) ١٥١١

روفلز ١٣٧١

روفلز ١٠٩٩

روفلز ١٣٩٩

روفلز ١٥٨٨ + ١٥٨٣ + ١٥٨٨

روفلز وروفلز ١٣٨٢

روفلز وروفلز ١٠٧٦

روفلز ١١٧٢ + ١١٧٢ + ١١٧٢

(٦)

روفلز (فرانكلين) ١٣٩٨

روفلز ١٥٣٦

روفلز ١٥٣١

روفلز ١٥٠١

روفلز ١٥٠١

(٧)

روفلز ١٥٨٨

روفلز ١٥٥٣

روفلز ذات السبعة ١١١٥ + ١١١٥

روفلز الرومانية الرومية ١٠٩٨

روفلز الخلية ١١١٦ + ١٣٢٦ + ١٣٩٩

روفلز الشبي ١١٥١ + ١٣٩١ + ١١٧٨

روفلز (جيف بوك) ١٣١١

روفلز شويت ١٥١٥

روفلز ١١٥١

روفلز (المصدر) ١٣٧٩

روفلز ١٣٨٩

روفلز ١٠٨٥

روفلز ١٥١٥

روفلز ١٠٩٩ + ١٣١٢

روفلز ١٣٩٣ + ١٣٨٨

روفلز ١٥١٥

روفلز ١١٥٨ + ١٥١٩

روفلز ١٥٠٥ + ١٥٠٥

(٨)

روفلز ١١٠١

روفلز ١٥٠١

روفلز ١١٦٧ + ١٣٥٠

روفلز ١٣٥٣ + ١٣٥٣

روفلز (المصدر) ١٣٧٩

روفلز (المصدر) ١٣٧٩

روفلز ١٣٩٩

روفلز ١٠٧٠ + ١٠٩٢

روفلز ١١٥٩ + ١٣٨٨

روفلز ١٣٠١

روفلز ١٤٦٩ + ١٤٩٩

روفلز ١٠٩٩

روفلز ١٥١٢

روفلز ١٣٧٩

روفلز ١٥٢٤

روفلز ١٥١١

شارل ألكسيس ١٠٧٦ + ١٠٨٩ + ١٤٧٣	سالازار ١٥٣٦
شارل المائر ١٥٦٢	سالونيك ١٥٣
شارل ليال ١٣١٢	الساموركي ١٣٦٨
شاولوت كورداي ١٨٠٦	سفالين ١٥١٩ + ١٥٣٤
شاتولييري (مركبة) ١٥٦١	سفالورسويت ١٣٨٢
شان دي مارس ١٣٠٥ + ١٣٠٩ + ١٣١٧	سفالتي ١٣٨٨
الشومس القبلية ١١١٣	سفالورد (الإيرل) ١٠٨١ + ١٠٨٤
شيبين (لون) ١٢٥٢	سفالور (لورانس) ١١٠٢ + ١٣٨٧
شركة خليج عطون ١٣٥١	سفالو ١٣٢٧
شركة لطف الشرقية ١١٧٩ + ١١٩٤ + ١٣٥٢	سفالو ١٣١٣
شرمات ١٠٦٨ + ١٢٤٧	سفالور ١٢٢٣ + ١٤٠٦
شرمات ١٣٤٥	سفالو ١١٩٠
شروود آلمون ١٣٩٩	سفاليس ١٤٥٢
شستر ١٢٨٧	سفالين ١٣٢٩
الشمر الطين ١٣٠٠	السلم البريطاني ١٣٧٧
شكس ١٠٩٩ + ١٣٩٩	سفالينوس ١٣٩٦
شكسية ١٢٢٧ + ١٢٩٣ + ١٣٠٣ + ١٣٠٥	السرد والمصر ١٥١٣
شكسية للسيرة ١١٤٦	السيد لين ١٥١٣
(شس)	السودان ١٣٧٥
شاسب السيل ١٤٦٧	سودران ١٣٩٥
الشانون الفرنسي ١٣٧٨	سوليل ١٠٧٤
الشحانة ١٣٧٣	السوم ١٢٢٠ + ١٤٦٠
شلع فرانكفورت ١٢٣٩	سوليت ١١٠١
شمويل آمانل ١١٦٥	السيرة الخارية ١٠٦٧
شمويل جونسون ١١٠٩	سوليا ١٣٥١
شمويل ديلاكورموند ١١٠٠	السبح ١٣٥٥
شني بات من ١٥١٤ + ١٥١٩	سيفان (مركبة) ١٣٣٥ + ١٤٨٤
شبهونية ١٥٢٦ + ١٥٢٧	سيفيد دي سولت فوريت ٢٠٧٦
شمين ١١٣٢ + ١٣٧١ + ١٥١٧	(شس)
(شس)	شارل الأول ١٠٦٩ + ١٠٧٩ + ١٠٨٣
شسترالبي ٢٠٧٠ + ١١٥٢ + ١١٦١	شارل الثاني ١٠٨٦ + ١٠٩٨

قوانين السجلات ١٢٥٥ + ١٢٤٦ + ١١٤٩
للقوانين ١١٢٠ + ١١٢١

(ك)

كابور (مركبة) ١١٦١
كاثري الشطة ١١٠٣ + ١١٢٥
كلومون ١٥٢٤ + ١٥٢٥
كلون ماوكس ١٧٨٧ + ١٢٨٨ + ١٢٩٧ +
١٢٠٠ + ١٣٠٧ + ١٥٠٠
كلريل ١١٠٣ + ١١٩٤ + ١١٩٦ + ١٢٨٨ +
١٣٩٥
كارمر ١٢٢٢
كلنور ١٢٢٩
كلدر ١٢٥٨
كلوي ١١٨٩ + ١٢٠٣
كلومونديو (سلج) ١٢٢٦
كلينيف ١٥٠٩
كلوتا ١٢٦٨
الكلبي دورسلي ١٥٨٩
كلنج ١٣٧٧ + ١٤٧٢
كلرين ١٥٠٩
كوسونرو ١١٠٩ + ١٢٨٧
كلرين ١١٠٣

كودسولي ١٠٤٢ + ١٠٨٤ + ١٠٨٥ + ١١٥٨ +
١١٦١ + ١١٩٢ + ١٢٢٩ + ١٢٨٩

كوه (ج - أ) ١٤٥٤

كلينيف ١٣٥٧

كلينسو ١٤٨٣ + ١٤٨٤ + ١٤٨٥

كلينج ١٢٢١

كلنا ١٢٥٧

كلية الجترا، الرسية ١٠٧٩

الكنية الكاثوليكية ١٠٦٧ + ١٢٦٩

الكنية المسيحية ١١١٠

الكنية اليونانية الأرثوذكسية ١٢٩٦

كوبا ١٣٦١ + ١٥٤٧

كوج ١٥٢٠

كوتون ١٢٧٧ + ١٢٧٨

كوتو ١٤٦٢

كوكلا (مركبة) ١٢٥١

كولير ١٠٦٦ + ١٠٩٨ + ١١٥٠ + ١١٠٤ +

١٢١٥ + ١٢٢٥

كوتيلو ١٢٤٧

كودت ستر ١٢٤٢

كوتونر ايطون ١١٨٧

كوتو ١١٥٨

كوتسكي ١٥٤٤

كوتور حانول ١٢٢٩

كوتوريا ١٢٩٦ + ١٢٧٩ + ١٢٨٧ + ١٥٤٨

كوتور لوجين ١٥٤٦

كوتور ١٢٧٩

كوتنج ١٢١٠ + ١٢٨١ + ١٢٨٧

كوتوب الكلي ١٠٧١ + ١٠٧٢ + ١٠٨٩

كوتوب حرك لوريلان ١٢٢٠

كوتو ١٤٩١

كوتو ١٢١٨

كوتوريلو ١٥٨٠

(ق)

قائمة المرايا ١٢٢٦

قانون إصلاح حكومة المدة ١٣٥٦

قانون المخلوق القرض ١١٨١

قانون المخلوق ١١٨٢

قانون المصانع ١٢٩٦

قلا ١٢٥٤

قبرص ١٣٥٠

قانون الواسلي ١١٢٤

قسططين (الإمبراطور) ١١٤٠

قسططين (الوناني) ١١٤٥

قصة القرية ١٢٨٧

قوانين خمسة ١١٦٢

لوئر ١١٤٢
لوه ١٠٨٠
لوفتورف ١٨٩١ + ١٨٨٨
لوسيان ١٢٢٩
لورنس ١٤٩٢
لوك ١١٠٠
لوكريليس ١٢١٢
لوك ١٩٠٥
لويسلر ١٢٨٧ + ١٢٩٥
لويجيو ١٢٦٠
لونغورسكي ١٥١١
لويجيج ١٤٦٦ + ١٤٨١ + ١٤٨٩ + ١٥١٨
لويس القطن عشر ١٢٥٨
لويس القطن عشر ١١٩٢ + ١١٩٢
لويس الرابع عشر ١٢٩٢ + ١٢٩٥ + ١٢٩٨ +
١١١٦ + ١٢٨٢
لويس السابع عشر ١٢٥٨
لويس القطن عشر ١١٠٧ + ١١٧٩ + ١٢٥٨
ليون ١٢٨٨
الليونة ١٥٢١
ليوكاتر ١١٩٧ + ١١٩٨
ليوبولد الأول ١٧٦٦ + ١٢٢٤
ليوفاردو حلقلي ١٣١٢ + ١٥٥١
ليبين ١٢٩٧ + ١٤٥٤ + ١٥٠٨
ليوبك ١٥٢٥

(م)

ماجنا كلوكا ١٠٧٦ + ١٠٧٦ + ١٠٧٢
ماجنا ١٢٧٦
ماجينو ١٥٧٢
مارا ١٢١٠ + ١٢١٢
مارمون ١٠٨٢
المركسية ١٤٩٩ + ١٥٠٢
مارنجر ١٢٢١
مارسلا ١٢٢٢ + ١٢٢٢

كوت الإمبراطورية ١٤٥٢
كوتير (كوتير) ١٠٧٥ + ١٢١٩
كوتيرك ١٢٢١
كوتير ١٢٧٤
كوتير ١٢٧٢ + ١٢٦٨
كوتير ١٠٩٩
كوتيرسكو ١١٦٩
كوتير ١٥٠٥
كوتيرك ١٠٨٢ + ١٠٨٧
كوتير ١٥٢٠ + ١٥٢١
كوتيرك ١٥١٦
كوتير ١٢٦٠ + ١٢٦٩ + ١٢٦٠
كوتير ١٥١٦ + ١٢٢٨ + ١٢٤٥ + ١٢٧٩
١٥٢٧
كوتير ١٢٤٥
كوتير ١٢٧٨
كوتير ١٢٧٦
كوتير ١٢٥٧ + ١٢٥٨
كوتير ١٥١٦
كوتير ١٢٢٩ + ١٢٢٢

(ن)

نابندر ١٢٢٢
نابندر ١٢٨٠
نابندر ١٥٢٢
نابندر (نابندر) ١٢٩١
نابندر ١٢١١
نابندر ١٢٩٢
نابندر ١٢٨٠
نابندر (نابندر) ١٠٧١
نابندر ١٢٥٧
نابندر ١٢٢٥ + ١٢٢٥
نابندر ١٢٢٧ + ١٢٢٨ + ١٢٢٨
نابندر ١٥٢١

ملعب الصنيع ١٣٧٠
 مركاتور ١٢٥١
 مزرعة فريمان (مركبة) ١١٩٧
 المنصارات ١١٥٣ + ١١٦٥
 النسي الجاني ١١٧٨ + ١٢٣١
 النسي الجاني ١١٤٧ + ١١٥٥ + ١١٩٤
 ١١٧٨ + ١١٦٧ + ١١٦٨
 مشروع النسي ميرات ١٠٥٩ + ١٥٤٧
 للمسيحية ١٢٩٢
 المسيحية (ترجمتها) ١٠٨٩
 المسيحية أخرى طائفة ١١١١
 المسيح المتأخر ١٢٣٢
 مصر ١٣٧٤ + ١٥٢٦ + ١٥٣١
 معاهدة أمان ١٢٥١ + ١٢٥٥
 معاهدة باريس ١١٦٨
 معاهدة برلين ١٢١٨
 معاهدة سان اسطغر ١٣٩٩ + ١٣٩٨
 معاهدة فرنسا ١٤٦٠ + ٢٢ + ١٥٢٦
 معاهدة فيينا ١٣٢١
 معاهدة ومغاليا ١٠٧٥ + ١٠٩٣ + ١١٤٣
 المرض الفول ١٣٢٥
 المرض الكبر ١٣٢٤
 سيار اللعب ١٥٣٢ + ١٥٣٣ + ١٥١٥
 الفول ١١٣٩
 الفول الأسف ١٣٥٢
 القصة ١٣١٢ + ١٧١٦
 مكروال ١٥٦٢
 مكسليان ١٣٣٣
 للكنيسة ١٣٣٠
 مكيلال ١٠٦٨ + ١٠٨٨ + ١٠٩٤ + ١٠٩٥
 ١١٠٧ + ١٥٠٧
 منشى الحقوق ١٠٧٩
 مقرون ١٠٩٩
 الملاذ والمكية ١٢٢٧ + ١٢٢٨

مارك كوف ١٢٩٦
 للكون ١٥٥٥
 ماري ١٠٧٥
 ماري القبولات ١١٨٩ + ١١٩٥
 ملوفا تيريزا ١١٠٣ + ١١٢٠
 مفرى لفرز ١٢٥٢
 ماريه ١٥٤٨
 ماريهك ١٥٠٦
 ماريهك ١١٩٣ + ١٠٩٥ + ١١١٩
 ماركول ١١٤٢ + ١٢٨٨
 ماله العمار ١٠٧٥
 للفتو ١١١٣
 ماله (السود) ١٣٧٠
 ماهر ١١٩٥ + ١١٩٦
 ليلبرون ١٣٥٣
 ماركاس ١٥٣٩
 ماركيل ١٢٨٩
 مجمع لراية ١١٧٣ + ١١٧٦ + ١٢٢٣
 مجمع بفرى ١١١٠
 مجمع طاك ١١٧٣
 مجمع فكرى ١٠٧٠
 م. بروج ١٠٩٣
 مجلس القايه ١٠٩٠ + ١٢١٨
 مجلس القوما ١٤٥٧
 مجلس القليات ١٠٧٥ + ١٠٩٥ + ١١٩٠
 مجلس السوم ١١٧٨ + ١٠٨٢ + ١٠٩٥ + ١١٩٥
 ١١٦١ + ١١٧٤ + ١١٩٢ + ١٢٩٨
 مجلس الكوراليز ١٠٧٥ + ١٥٤٩
 مجلس الجوده ١٠٧٨ + ١٠٨٣ + ١٠٩٣
 هاكم القميش ١٢٦٢
 عكة القوده ١٢١٦
 للهاى ١٤٥٣
 المدرسايه ١٣٨٧
 للندن ١٠٧١
 مدنيه ١٠٩٧
 ملجبه كوراليز ١٢٥٥

مولدته ١٤٠٥
مولود ١٠٩٩
موتهموري ٥٨٣
مولود ١٢٩٢ ١٢٣٣ ١٢٦٦ ١٢٥٨
مولود ١٨٧٩
ميتولوجيا (رطازة)
ميرابو ١٢٠٢ ١٢١٥
المير وشمسبون ٢٠٨٩
ميتل كوتلر ١٥١٦

(ث)

ثابليوت بولميرت ١٢١٦ ١٢٢٢ ١٢٢٣
١٢١٢ ١٢٥٢ ١٢٥١ ١٢٥٩
١٣٢٦

ثابليوت الثالث ١٣٢٥ ١٣٣٦
ثامورثا ١١٢٦
ثاميرت ١٢٧١
الثار ١٥٣٧ ١٥٥٣
ثاظر القصر ١٥٨٩
ثانين ١٥٠٧
النظام الاجتماعي ١٥٥١
النظام الدستوري ١٢٥٩
النظام الملكي ١٢٦٣
التنقش المطلق ١١١٨ ١١٨٨
التنقل المصري ١٢٢٩
ثقافات الشمال ١٢٨٤
الطير ١٢٦٧ ١٥٢٧ ١٥٣١ ١٥٣٢
تلسون ١٢٣٧ ١٢٨٨
الثقافة التنموية الإسلامية ١٥٤٨
تولميوتو ١٢٤٠
تولميرين ١٢٧٧
توت ١٤٧٠
توتيس ١٠٨٢
توتولا الثاني ١٢٩٩
توتو ستردام ١١٢٢
توتو التوت ١١٢٣ ١١٥٣ ١٢٩٨

التوتو الملكية ١١٢٧ ١١٢٨
التوتو الاستبدادية المظنة ١٠٦٨ ١٠٧٠
التوتو البرمالية ١١١٠ ١١٤١
التوتو التنموية ١٢٢٧
التوتو الشنتو ١٠٧٥
التوتو الطي ١٠٩٣ ١٠٩٥ ١٠٩٨
١٠٩٩ ١١٠٢ ١١٤١ ١٢٩١
التوتو الفرنسية ١٠٦٨
التوتو التنموية ١١٠٤
التوتو الفنية ١٠٧٢
التوتو للتوتوتو ١٢٢٠ ١٢٢٥
التوتو الخامسة ١١٥٧ ١٤٧٠
التوتو السع ١٠٢٠
توتو الاحبار بالسين ١٥٢١
توتو ١١٢١
توتوتو ١١٢٢ ١٥٣٩
توتوتو ١١٢٢
توتوتو ١٢٩٦
توتوتو ١١٢٤
التوتوتو ١٢٥٥
توتوتو استوكهولم ١٤٥٨
توتوتو الصلح (توتوتو) ١٤٧٢ ١٤٨٠
١٤٨٩
توتوتو توتو ١٢٥٧ ١٢٦٢ ١٢٦٩
توتوتو لاهوت ١٢٩٩
توتوتو مونتسوري ١٢٥١
توتوتو الأرض ١١٩٢
توتوتو ١٠٧٢
توتوتو يوم ١٥٩٠
توتوتو ١٢٥٩
توتوتو ١٢٥٣
توتوتو ١٢٤١
توتوتو ١١٠٦
توتوتو ١١٦٨
توتوتو ١٢٧١ ٥٢٢
توتوتو ١١٥٥

ليولائى ١٢٩١ + ١٢٩٥

(٥)

مايبرج (أسرة) ١٠٨٩ + ١٠٩١ + ١١١٧ +
 ١٢٦١ + ١٢٨٩
 جادو (السجورلى) ١١٠٥
 حارث (توساس) ١٢٨٩
 حارث ١٠٧٢
 الحلب ١٢٢٨
 حاكوك ١٢٦٥
 حاكوك (أسرة) مائيل ١١٠٦ + ١٠٨٧ + ١٠٠٨ +
 ١٠٩٢
 حاكوك (ح . م) ١٢٩٥
 حار ١٥٤٩ + ١٥٥٥ + ١٥٥٦ + ١٥٩١
 الحلة للسليمة ١٢٥١
 مكمل ١٢١٤
 الملوكة ١٢١١
 الحة ١١٢٤ + ١٢٢٧ + ١٢٤١ + ١٥٢٩
 حنبلج ١٢٦١ + ١٢٩١
 حوى ثالث ١٠٧٧
 حوى السابع والثامن ١٠٧٥ + ١٠٧٨
 حوى خمس ١٢٧٨
 حوايت حوى ١٠٨١ + ١٢٠٩
 حوى ١٢٤١ + ١٢٨٩
 حوى ١١٠٠
 حوى (الكوكيت) ١٠٧١ + ١٠٧٢
 حوى ١٥٢٧
 حوى الدور ١٢٢٨
 حوى دوس ١١٠٩
 حوى ١٢٦٥
 حوى لون (أسرة) ٩٠٩٢ + ١١٠٢ +
 ١٢٥٢ + ١٢٥٤ + ١٢٦١
 حوى شلوى ١٢٨٩
 حوى ١١٦٢
 حوى (المصور) ١٢٧٩
 حوى ١٢٨٨

(٥)

وات ١٢١٨ + ١٢٧١
 وكر (مركة) ١٢٥٩
 وازن حنبلج ١٢٢٩
 وازريك (لورد) ١٠٨٢
 وكر (روبرت) ١٠٨٨
 وكر سكوت ١٢٩٠
 وكر ١٠٩٢
 وكر (مركة) ١٢٣٥
 وزارة الخارجية ١١٦٥ + ١١٠١ + ١٢٩٩ +
 وكر (كرزوا) ١٠٦٨
 وستاليا ١٠٩٢ (انظر صفحة)
 الوطنية ١٥١٩
 راسن ١٢٧٧ + ١٢٧٢ + ١٢٧٤ + ١٢٨٤ +
 ١٢٨٦
 رانجونا (كوك) ١٢٥١ + ١٢٥٩
 رانجيت ١٢٤٩
 رانج اربع ١١٨٩
 رانج اصبحت ١٠٧١ + ١٠٧٢
 رانج كوكوت ١٢٠١
 رانج ١٥٤٨
 رانج ١٥٧٥ + ١٥٧٦ + ١٥٧٧
 (ك)
 اريابن ١٢٦١ + ١٢٧١ + ١٢٩٨ + ١٥٢٩
 كرج ١١١٧ + ١١٢١ + ١١٢٢ + ١١٧١ +
 ١٢٢٩ + ١٢١٠ + ١٢١١ + ١٢٨٤
 كوسوون ١٢١٢ + ١٢٧٧ + ١٢٦٨
 كسيرة ١٢٠١ + ١٢٠٧ + ١٢١٢ + ١٢٢٧ +
 ١٢٥٢
 كسيرة ١١١٧ + ١٢٩٢ + ١١٥٢ + ١١٥٦
 كسيرة ١٥٧٢
 كسيرة ١٥١٨
 كسيرة ١٥٠٥
 كسيرة ١٢٨٢
 كسيرة ١٢٢٩
 كسيرة ١٥٢٠
 كسيرة (مركة) ١٢٨٨ + ١٢٥٢ + ١١٠٢

القرا في هذه السلسلة

برتراند رسل	أنظمة الأعلام والصنم الخرى
ي . و . وفونسكايا	الإلكترونيات والعمية الحديثة
اليس عكس	قصة عسايل نطق
ت . و . فريمان	الجغرافيا في مادة علم
دايموند وليامز	التكلم والمجتمع
ج . هـ . فورد	تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
ليسترديل راي	الأمم المتحدة
والتر آلن	الرواية الإنجليزية
لويس فارجلان	هارش آل فن المسرح
أرالمو دوطس	الله مصر
هـ . قدرى حنى وآخرون	الإنسان العصرى على النشأة
أولج فولكف	القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة
حاتم النحاس	الهوية القومية في السينما العربية
ديفيد وليام ماكغوال	مجموعات النقود
عزيز الشوان	فوسيفر - ليجر لفسر - هنتلق
هـ . محسن جاسم الموسوي	عصر الرواية - مقال في الترح الكلى
لتراف س . ي . كوكس	ديلان توماس
جون لويس	الإنسان ذلك الإنسان الفريد
بول ويست	الرواية الحديثة
هـ . عبد الحلى شراوى	المسرح العصرى المعاصر
أنور المسعودى	علم معبود طه
يول شولز أربليت	القوة النفسية للأفلام
هـ . صلفه خلوصى	فن الترجمة
دالت كى ماتلو	توكستوى
فيكتور برومبي	مستقل

رسائل واحاديث من المثلي
الجزء والكل (محاولات في تفسيح افق ليرار هيزبرج
التيه القوية)

الترات الناضج ماركس وفلترسيون
ف. ح. ٠. اديكوف
اب الاطفال

احمد حسن الزيات
اطام العرب في الكيمياء
فكرة الفرح

الجبين
منع القروا اليسى
التطور الحضري للامسان
السيه علبه

هل نستطيع تعليم الاخلاق للاطفال ؟
تربية الكويين
جاكوب برونولسكي
د. روبر ستروجان
كاثي تيم

قانوني وعظم في عصر القومية
النحل والخب
ا - سيمر
د. تاروم بيتروبيتشي
صبح مغرفة لاصه في الصور الوصفية

سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في
عصر ١٨٣٠ - ١٩١٤
د. لينوار تشلورل زايث
د. جون شملر
بيد كليم

كيف نعيش ٣٦٥ يوما في السنة
المسحاة
الر الكوميديا الالهية لكانتي في الفن
التشكيل

الكتاب الروسي ليل التوبة الشخصية
ويمنها
د. وميسيس عومي
د. محمد نعمان جليل
فرلكنون ل. - باروس

حركة علم الانبياء في عالم متغير
الفكر الاوروبي الحديث (٤ ج)
الفن التشكيل للعاصر في الوطن العربي
شوكيت البرويين
١٨٨٥ - ١٩٨٥

اعداد محمد كمال لخصاصه
 للفردوس العاوي
 يونان يورن
 جاك كرايس جونايد
 محمد فزاد ، كويروني
 بول كوتار
 اشتياز واعداد صيدوي للفصل
 قوتي يار
 لادين جوديسر وآخرون
 موديس ييررايد
 آدامز ليبييه
 احمد السنوالي
 جونالز زيلي سميت
 ريتشارد شانت
 ريموند هير
 الفريد - ج - يفر
 اعداد - د - غيليب عطية
 ادوارد هري
 حريرت شيلز
 الحاج يونس المصري
 سفيان اوزمات
 فتالي لويس
 بيتر ليكوالز
 اعداد : دولي يراح وآخرون

التعديل والتوزيع الورد كستري
 الشاعنة (٢ ج)
 الحياة الكريمة (٢ ج)
 كتاب التاريخ في مصر ق ١٩٠
 قيام الثورة الشعبية
 الضمانيون في اوريا
 مكتبات من الاناب الاسبوية
 التمثيل لسينما والتليفزيون
 سلوك الفخر
 صناع الفلود
 دليل تنظيم للتخف
 كتب لغز الفكر الانساني (٢ ج)
 العجلة الصليبية الاولى
 رواد الفلسفة الحديثة
 جباليت ابن الاعراج
 الكائنات الطبية (٢ ج)
 ترايم زواشت
 النقد السيماني للفرقي
 الاتصال والهوية الثقافية
 رحلات فارنبا
 التاريخ من شتر جوابه ٢ ج
 مصر الرومانية
 لسينما الشعبية
 السينما العربية من الفيلج الى الحيف

مطبع الكويت للصورة الفوتوغرافية

رقم الإيداع بدار الكتب: ١١١٢/٧٧٨٢

I.S.B.N 977-81-4050-3

هذا الكتاب - كما يدل عليه اسمه - موسوعة تاريخية شاملة موجزة للجنوزة الإنسانية عبر عصورها ويروي قصتها الأمايب الإنجليز الشهير ج. هـ. ويلز، والطبعة العربية من هذا الكتاب سوف تجدرق أربعة أجزاء يتناول الجزء الأول منها نشأة الموعز والنظريات العلمية المختلفة التي تفسر تطوره ثم يظهر الإنصاق والإجتاسن الفضية المنجذرة، ويصرض لفكر الإنصاق البدائز ومعتقداته الميانية ونشأة اللغة وتقسيماتها ثم إاقعة الحجارات نغ مصر والعراق والهند، أما الجزء الثاني فيعرض للحجارة الإغريقية والهلينسية والرومانية، ولعقبة تاريخ المبرانيين، أما الجزء الثالث فيعنر بحجرات العصر الوسيط والجزء الرابع يتناول التطور الحديث.